

صِيَاةُ الْفُقَرَاءِ
فِي تَقْسِيمَةِ الْقُرْآنِ

الجلد

مكتبة دار الفقه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ضياء الفرقان فی تفسير القرآن مجلد ۹

لِـمُؤَلَّفِهِ سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قاضی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / لمؤلفه محمد تقی نقوی قاضی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ ج.
شابک	: 978-964-8981-24-9 و 978-964-8981-53-7 ج. ۳
وضعیت فهرست نویسی	: فیبا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ض ۹۸/ن ۷ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد التاسع

المؤلف: محمد تقی نقوی قاضی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأول

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لبنو غرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مركز التوزيع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامية

جميع الحقوق محفوظة لمؤلف

شابک: ۷ - ۵۳ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧	الجزء الثاني عشر
٩	سُورَةُ هُود
٢٣٣	سُورَةُ يُوسُفَ
٣٥١	الجزء الثالث عشر
٤٧٣	سُورَةُ الرِّعْد
٦١٧	سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ
٧٢٧	الفهرست

الجزء

الثاني عشر

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا
وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ
مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَلَئِنْ أَدَقْنَا لِلْإِنْسَانِ مِنَّا رَحْمَةً
ثُمَّ نَرَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ
أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ
أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى
إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ
أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)

فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ
اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

◀ اللغة

دُأبَّةُ الدَّابَّةِ بتشديد الباء الحي الذي مِنْ شأنه أن يدب يقال دبَّ يدب ديباً، هذا بحسب اللغة و أما في العرف فأنها عبارة عن الخيل و البرازين دون غيرها من الحيوان و قال في المفردات الذئب مشئ خفيف و يستعمل ذلك في الحيوان و الحشرات أكثر و يستعمل في كل حيوان و إن إختصت في التعارف بالفرس انتهى.

مُسْتَقَرَّهَا المستقر الموضع الذي يقر فيه الشئ و هو قراره و مكانه الذي يأوي اليه.

و مُسْتَوْدَعُهَا المستودع المعني المجعول في القرار كالولد في البطن و النطفة التي في الظهر و قيل مستودعها مدخلها بعد موتها و قيل مستقرها في أصلاب الآباء و مستودعها في أرحام الأمهات و قيل مستقرها ما تستقر عليه و مستودعها ما تصير اليه.

كِتَابٌ مُبِينٍ المراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

عَرْشُهُ العرش بفتح العين و سكون الراء في الأصل شئ مسقف عروش و يكتنى به عن العز و السلطان و المملكة، و أنا عرش الله فلا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالإسم.

لِيَبْلُوَكُمْ البلاء الإختبار أي ليختبركم.

حَاقٌ أي نزل أو أحاط.

أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ الذُّوقُ في الحقيقة تناول الشئ بالقلم لإدراك الطعم.

نَزَعْنَا النِّزْعَ رفع الشئ عن غيره ممّا كان مشابكاً له و النزع و القلع و الكشط نظائر.

لَيُؤْسَ هُوَ فَعُولٌ مِنَ الْيَأْسِ أَيِ كَثِيرِ الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.
 لَفَرَحٌ فَخَوْزُ الْفَرَحِ انْفِتَاحُ الْقَلْبِ بِمَا يَلْتَذُّ بِهِ وَضِدُّهُ الْغَمُّ وَالْفَخْورُ الْمَتَطَاوِلُ
 بِتَعْدِيدِ الْمَنَاقِبِ وَفَخَوْزٌ كَثِيرُ الْفَخْرِ.
 صَدْرُكَ الصَّدْرُ مَسْكَنُ الْقَلْبِ.
 كَنْزُ الْكَنْزِ بَفَتْحِ الْكَافِ الْمَالِ الْمَدْفُونِ لِعَاقِبَتِهِ.

الإعراب

وَلَيْنُ: اللَّامُ لِتَوَطُّنَةِ الْقِسْمِ وَالْقِسْمُ مَحْذُوفٌ وَجَوَابُهُ لَيَقُولَنَّ: وَمِثْلُهُ وَلَيْنُ
 أَذَقْنَا وَجَوَابُ الْقِسْمِ إِنَّهُ لَيُؤْسُ وَسَدُّ الْقِسْمِ وَجَوَابُهُ مَسَدٌ جَوَابُ الشَّرْطِ أَلَّا
 يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ ظَرَفَ لَفَرَحٌ يَقْرَأُ بِكَسْرِ الرَّاءِ وَضَمِّهَا وَهَمَا لَغْتَانِ مِثْلُ حَذَرٍ وَ
 حَذَرٍ وَيَقْظُ وَيَقْظُ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ وَهُوَ إِسْتِنَاءٌ مَتَّصِلٌ وَ
 الْمُسْتَنْئَى مِنْهُ الْإِنْسَانُ وَقِيلَ هُوَ مَنْفَصِلٌ، وَقِيلَ هُوَ مَوْضِعٌ رَفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ
 أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ خَبَرُهُ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ صَدْرُكَ مَرْفُوعٌ بِضَائِقٍ لِأَنَّهُ
 مَعْتَمِدٌ عَلَى الْمُبْتَدَأِ وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَضَائِقٌ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ أَنَّ يَقُولُوا أَيِ مَخَافَةٍ
 أَنْ يَقُولُوا وَقِيلَ لِأَن يَقُولُوا.

التفسير

وَمَا مِنْ ذَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا كَلِمَةٌ، مَا، نَافِيَةٌ بِمَعْنَى
 لَيْسَ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدْبُ إِلَّا وَ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ
 ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ وَ رِزْقُ الْمَخْلُوقِ بِيَدِهِ وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ ذَاتَهُ بِهَذِهِ
 الصِّفَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَ تَخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(١).

قال الله تعالى: وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْنَا نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ^(٢).

قال الله تعالى: وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٣).

قال الله تعالى: إِنْ أَلَّهَ إِنْ أَلَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٤).

قال الله تعالى: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ^(٥).

قال الله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ أَلْسَمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ^(٦).

قال الله تعالى: أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ^(٧).

و أمثالها من الآيات كثيرة و الظاهر أنَّ المراد بالرزق في الآية ما يتغذى به الحيوان من الطعام و الشراب.

و أمَّا الرزق الأخروي فليس المراد قطعاً و الرزق لا يقال إلا لله تعالى على الحقيقة و أمَّا إطلاقه على غيره فهو مجاز لو أطلق و ذلك لأنَّ ما سواه تعالى من قبيل الأسباب كما يقال رزق الجند، على السلطان و رزق الأولاد على الأب و رزق العبد على المولى و هكذا.

وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا إِيَّاهُ ترجع إلى الدابة أي أنَّ الله تعالى يعلم الموضوع الذي فيه قرار الدابة كما يعلم المعنى المجعول في القرار كالولد في البطن و النطفة في الظهر.

و قيل المراد بالمستودع المدفن بعد الموت.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

٢- الإسراء = ٣١

٤- آل عمران = ٣٧

٦- سبأ = ٢٣

١- آل عمران = ٢٧

٣- البقرة = ٢١٢

٥- الشورى = ١٩

٧- الملك = ٢١

و قال بعضهم المراد بالمستقر أصلاب الأباء و بالمستودع أرحام الأمهات و قيل مستقرها ما تستقر عليه و مستودعها ما تصير اليه.

و الحاصل أن الخالق الذي خلق الدابة، لا يخفى عليه شيء منها وإلا يكون خالقها قوله: **كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** معناه أن جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر يعني اللوح المحفوظ.

و أعلم أن في الآية مسائل لابد لنا من التنبيه عليها.

الأولى: أن الدابة إسم لكل حيوان و بنيت هذه اللفظة على هاء التانيث و أطلق على كل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أنثى إلا أنه بحسب العرف إختص بالفرس و المراد بها في المقام هو معناها اللغوي أعني به ما يدب على الأرض فيدخل فيه جميع الحيوانات بأقسامها و أصنافها من الإنسان و الفرس و البقر و الطير و غيرها مما يدب على الأرض و هذا ممّا لا خلاف فيه عند جميع المفسرين.

الثانية: قالوا كلمة، على، في قوله، على رزقها، تدل على الوجوب و هذا يدل على أن إيصال الرزق إلى الدابة واجب على الله تعالى و هو غير معقول إذ لا معنى للوجوب في حقه و كيف يمكن القول بوجوب شيء عليه تعالى. و أجيب عنه بأنه واجب بحسب الوعد و الفضل و الإحسان ذكر هذا السؤال و الجواب الرازي في تفسيره.

و قال بعضهم في الجواب أن كلمة، على، لا تدل على الوجوب أصلاً بل هي تدل على أن الخالق يرزق مخلوقه بمقتضى الخلقة و أمّا أنه واجب عليه فلا.

و أنا أقول الوجوب الثبوت قال في المفردات و هو يقال على أوجه:

الأول: في مقابلة الممكن و هو الحاصل الذي إذا قدر كونه مرتفعاً حصل منه محال نحو وجود الواحد مع وجود الإثنين فإنه محال أن يرتفع الواحد مع حصول الإثنين.

الثاني: يقال في الذي إذا لم يفعل يستحقّ به اللّوم و ذلك ضربان واجب من جهة العقل كوجوب معرفة الوحّدانية و معرفة النّبوة و واجب من جهة الشّرع كوجوب العبادات الموظّفة و ساق الكلام الى أن قال.

و قال بعضهم الواجب يقال على وجهين:

أحدهما: أن يراد به اللّازم الوجوب فأنه لا يصح أن يكون موجوداً كقولنا في الله تعالى واجب وجوده.

الثاني: الواجب بمعنى حقّه أن يوجد و قول الفقهاء الواجب ما إذا لم يفعله يستحقّ العقاب و ذلك وصف له بشئٍ عارض له لا بصفة لازمة له و يجري مجرى من يقول الإنسان إذا مشى مشى برجلين منتصب القامة انتهى كلامه. إذا عرفت هذا فنقول أمّا أولاً فكلمة، على، في قوله على الله رزقها، لا تدل على الوجوب و لو فرضنا دلالتها عليه فالوجوب بمعنى حقّه أن يوجد، أو بمعنى الثبوت و عليه يلزم ما ذكره من المحذور فإنّ المعنى أن الرزق واجب عليه تعالى بمعنى حقّه أن يوجد أو بمعنى أنّه ثابت في حقّه تعالى عقلاً لإخلاقته و أيّ محذور في إثبات الوجوب بهذا المعنى عليه تعالى أليس من حقّ الخالق أن يرزق مخلوقه أو من حقّ المخلوق أن يرزقه خالقه.

و أمّا قول بعضهم أن إعطاء الرزق منه تعالى على سبيل التّفصل لا الوجوب لا نفهم معناه و ذلك لأنّ معنى التّفصل أنّه تعالى يرزقهم من فضله أي من زيادة إحسانه و لطفه فإنّ الفضل في الأصل الزيادة و إذا كان كذلك فيجوز تركه و لا لوم عليه عقلاً و أنت ترى أنّه ممّا لا يساعده العقل السّليم و بعبارة أخرى الفضل حسن في ذاته و أمّا تركه ليس بقبيح عقلاً و هل يجوز العقل أن يمنع الخالق مخلوقه الذي خلقه من الرزق الذي به قوام وجوده و إدامة حياته أليس هذا من الظلم القبيح عليه تعالى فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه ثبوت الرزق في حقّه تعالى لخلقه في مدّة حياته و هو المطه.

المسألة الثالثة: قال الرّازي وغيره من الأشاعرة أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الرّزق قد يكون حراماً.

قال هذا ما لفظه تعلّق أصحابنا بهذه الآية في إثبات أنّ الرّزق قد يكون حراماً قالوا لأنّه ثبت أنّ إيصال الرّزق الى كلّ حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الإستحقاق والله تعالى لا يخلّ الواجب ثمّ قد نرى إنساناً لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقاً لكان الله تعالى ما أوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد أخلّ بالواجب وذلك محال فعلمنا أنّ الحرام قد يكون رزقاً انتهى كلامه.

و الجواب عنه هو أنّ الله تعالى قدر أرزاق العباد قبل خلقهم وإيجادهم ثمّ خلقهم والإنسان الذي لا يأكل من الحلال طول عمره مضافاً الى أنّه مجرد الفرض ولا يوجد في الخارج، لا يأكل من الحلال بإختياره وإرادته لأنّه تعالى لم يقدر له الرّزق الحلال وإن شئت قلت أنّه لم يقنع بما رزقه الله من الحلال ولذلك طلب الحرام وأكل منه ألا ترى أنّ السارق والغاصب والظالم وأمثالهم لو تركوا ما كانوا عليه من السرقة والغصب والظلم وقنعوا بما رزقهم الله من طريق الحلال لكان ممكناً إلا أنّهم يطلبون ما ليس لهم حرصاً على الدّنيا فلا محالة يكون الوزر والوبال عليهم لا على الله تعالى فإنّ الله قدر أرزاق العباد على طبق المصلحة والحكمة زيادةً ونقيصةً لا على طبق أميال الإنسان.

و أمّا الأشاعرة لمّا قالوا بالجبر وأنّ العبد لا إختيار له في أفعاله وأقواله وجميع حركاته.

و سكناته فلا جرم تفوّها في المقام وغيره بما لا يقبله العقل ولا يساعده الثقل ولم يعلموا أنّ معنى كلامهم هو أنّ اله خلق الإنسان ولم يقدر له الرّزق الحلال وأجازه أن يرتزق من السرقة والغصب وما يحصل له من الفواحش فكأنّه تعالى قال له بلسان التكوين عبدي أنّي خلقتك ولم أقدر لك من الحلال

شيئاً فَعَلَيْكَ بِالسَّرِقَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كَسْبِ الْحَرَامِ وَمَعَ ذَلِكَ حَكَمْتَ فِي دِينِي بِقَطْعِ يَدِكَ لَوْ سَرَقْتَ، أَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ لَهُ لِمَ خَلَقْتَنِي كَذَلِكَ رَزَقْتَنِي الْحَرَامَ ثُمَّ حَكَمْتَ بِعُقُوبَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

أَمَا أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ إِذْ لَوْ لَمْ يَخْلُقْهَا فَمَنْ خَلَقَهُمَا، فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ لَابَدٌّ لَهُ مِنْ خَالِقِهِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ كَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فَالَّذِي خَلَقَهُمَا هُوَ اللَّهُ أَوْ مَا شِئْتَ فَيَسِمُهُ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ: فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَقَدْ مَضَى تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ يُونُسَ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى الْإِعَادَةِ الَّتِي تَوْجِبُ الْمَلَالَةَ قَهْرَ الْيَبُلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا الْبَلَاءُ الْإِمْتِحَانُ وَالِإِخْتِبَارُ أَيُّ أَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ قَوْلُهُ لِيَبُلُوكُمْ، مُتَعَلِّقٌ، بِخَلْقِ، أَيُّ خَلَقَهُنَّ لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ وَهِيَ أَنْ يَجْعَلَهَا مَسَاكِينَ لِعِبَادِهِ وَيَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِفُنُونِ النِّعَمِ وَيَكْلِفُهُمُ الطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي فَمَنْ شَكَرَ وَأَطَاعَ وَأَثَابَ وَمَنْ كَفَرَ وَعَصَى عَاقِبُهُ انْتَهَى.

فَهَذَا مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَمِنْهُ يَظْهَرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ الْكَثِيرَ لِمَصْلَحَةِ الْمَكْلُوفِينَ بَحِثْ لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا خَلَقَهُ وَيَظْهَرُ أَيْضاً أَنَّ أَفْعَالَهُ تَعَالَى مُعَلَّلَةٌ بِالمَصَالِحِ بِدَلِيلِ لَامِ التَّعْلِيلِ خِلَافاً لِلْأَشَاعِرَةِ حَيْثُ أَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا لَامِ التَّعْلِيلِ وَرَدَّتْ عَلَى ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى فَعَلَ فَعَلًا لَوْ كَانَ يَفْعَلُهُ مَنْ تَجُوزُ عَلَيْهِ رِعَايَةُ الْمَصَالِحِ لَمَا فَعَلَهُ إِلَّا لِهَذَا الْغَرَضِ، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ السَّخِيفَةُ الْبَارِدَةُ الَّتِي تَشْمِئُزُ عَنْهَا الْقُلُوبُ وَتَنْكَرُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا وَأَيُّ إِشْكَالٍ عَقْلًا أَوْ شَرعًا فِي تَابِعِيَةِ الْأَحْكَامِ وَالْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لِلْمَصَالِحِ الْوَاقِعِيَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

المجلد التاسع

إِلَّا هُوَ حَتَّى نَحْتَاجَ إِلَى هَذِهِ التَّكَلِّفَاتِ وَ الْمَفْرُوضِ أَنَّ النَّفْعَ عَائِدَ إِلَى الْخَلْقِ وَ
لَمَّا قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

أَي لَأَن قُلْتُ لَهُؤْلَاءِ الْكَافِرَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، أَنْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ
الْمَوْتِ، لِلْحِسَابِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ، أَنَّ هَذَا، أَي لَيْسَ هَذَا
الْكَلَامُ أَعْنِي بِهِ الْبَعْثُ إِلَّا سِحْرٌ ظَاهِرٌ وَ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يَنْكُرُونَ هَذَا الْكَلَامَ فَلَا
مَحَالَةَ يَحْكُمُونَ بِفَسَادِ الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ وَ سَيَأْتِي مِنَّا الْكَلَامُ فِي إِثْبَاتِهِ زِيَادَةً عَلَى
مَا مَرَّ سَابِقاً فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَصْلِ الْخَلْقَةِ
أَوَّلًا وَ عَلَى ثُبُوتِ الْإِخْتِبَارِ وَالْإِبْتِلَاءِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ثَانِيًا.

وَ عَلَى لُزُومِ الْبَعْثِ وَ هُوَ الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَجْلِ الْحِسَابِ ثَالِثًا.
وَ الْكُلُّ حَقٌّ لَا كَلَامَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ وَلَا بَدْلَ لَنَا فِي خَتَامِ الْكَلَامِ مِنْ
بَيَانِ نَقْطَةِ خَفِيَّةٍ وَ هِيَ قَوْلُهُ سِحْرٌ مُبِينٌ، حَيْثُ عَبَّرُوا عَنْ إِنْكَارِهِمْ بِالسَّحْرِ أَوْ عَنْ
الْبَعْثِ بِالسَّحْرِ أَوْ عَنْ إِخْبَارِ الرَّسُولِ بِالْبَعْثِ، بِالسَّحْرِ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ السَّحْرَ
فَعَلٌّ مَخْصُوصٌ يَفْعَلُهُ السَّاحِرُ لِيُخْدَعَ بِهِ النَّاسُ، وَ الرَّسُولُ لَمْ يَكُنْ
سَاحِرًا إِخْبَارُهُ بِالْبَعْثِ كَانَ مِنْ سِنِّ السَّحْرِ.

فَنَقُولُ أَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ آثَارَ السَّحْرِ وَ خَوَاصِهِ فِي هَذَا
الْقَوْلِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ السَّحْرَ عِبَارَةٌ عَنِ الْخُدَاعِ وَ التَّخِيلَاتِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا نَحْوُ مَا
يَفْعَلُهُ الْمَشْعَبَذُ بِصَرْفِ الْأَبْصَارِ عَمَّا يَفْعَلُهُ لَخْفَةِ يَدِهِ، وَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ فِي
قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ أَسْتَرْهَبُوهُمْ^(١) وَ إِلَى التَّخِيلِ، أَشَارَ
بِقَوْلِهِ: يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ^(٢) وَ بِهَذَا النَّظَرِ سَمَّاهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَاحِرًا فَقَالُوا:
يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ^(٣) وَ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْكَافِرَ عَدُوَّ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ السَّحَرَةِ وَ

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

دعوتهم من السُّحَر فكما أنَّ السَّاحِر يريد بِسحره إغفال النَّاس وإضلالهم فكذلك النَّبِي وَلَمَّا كَانَ الْأَمْر عَلَى هَذَا الْمَنْوَال فَقَالُوا مَا قَالُوا، وَالسَّر فِيهِ هُوَ أَنَّ الْكَفَّار كَانُوا مِنْهُمْ كَيْفِي لِدَات الدُّنْيَا مَنْعَمِينَ فِيهَا بِحَيْث لَمْ يَعْتَقِدُوا لَذَّةَ الْإِثْمِ وَأَحْسَنَ مِمَّا كَانُوا فِيهِ وَحَيْثُ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا مَقِيداً بَلْ مَانِعاً عَنِ الْإِسْتِفَادَةِ بِهَا كَيْفَ إِنْتَفَقَتْ ثُمَّ أَوْجِبَ لَهُمُ الْعِقَابَ فِي صُورَةِ مَخَالَفَةٍ فَلَا جَرَمَ قَالُوا هُوَ سِحْرُ أَيِّ هُوَ مُوجِبٌ لِرُدْعِ النَّاسِ عَنْ مُشْتَهَاتِهِمْ وَأُمِّيَالِهِمْ وَهَذَا مِمَّا لَا يَخْتَصُّ بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ فِي زَمَانِنَا هَذَا يَقُولُونَ أَنَّ الَّذِينَ يُوجِبُ تَحْذِيرَ الْأَفْكَارِ وَهُوَ عِبَارَةٌ أُخْرَى عَنِ السُّحَرِ وَقد تُقَالُ عَنْ بَعْضِ الْكَفَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِلرَّسُولِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ خَدِيعَةٌ مِنْكُمْ وَضَعْتُمُوهَا لِمَنْعِ النَّاسِ عَنْ لِدَاتِ الدُّنْيَا وَإِحْرَازِ أَلَهُمْ إِلَى الْإِنْقِيَادِ لَكُمْ وَالدَّخُولِ تَحْتَ طَاعَتِكُمْ وَالْيَ هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ لِعَنْهُمْ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ:

لَعَبْتُ هَاشِمَ بِالْمُلْكِ فَلَا خَبْرُ جَاءَ وَلَا وَحْيُ نَزَلَ

وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ أَلْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ اللَّامُ فِي، لِأَنَّ، لِلْقَسَمِ، وَالجواب، لَيَقُولَنَّ وَالمَرادُ بِالْأُمَّةِ فِي الْمَقَامِ الْمَدَّةِ وَأَصْلُ الْأُمَّةِ الْجَمَاعَةُ فَعَبَّرَ عَنِ الْحِينِ وَالسَّيْنِ بِالْأُمَّةِ لِأَنَّ الْأُمَّةَ تَكُونُ فِيهَا وَقِيلَ هُوَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَالْمَعْنَى إِلَى مُجِيٍّ أُمَّةٍ لَيْسَ فِيهَا مَنْ يُؤْمِنُ فَيَسْتَحَقُّونَ الْهَلَكَ، أَوْ إِلَى إِنْقِرَاضِ أُمَّةٍ فِيهَا مَنْ يُؤْمِنُ فَلَا يَبْقَى بَعْدَ إِنْقِرَاضِهَا مَنْ يُؤْمِنُ وَالْأُمَّةُ إِسْمٌ مُشْتَرَكٌ يَقَالُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَوْجِهٍ:

الأول: الجماعة ومنه قوله تعالى:

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ^(١).

الثاني: إتياع الأنبياء عليهم السلام ومنه قوله تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ^(٢).

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الثالث: أنها يقال للرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ومنه قوله تعالى:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١).

الرابع: الأمة الدين والملة ومنه قوله تعالى:

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ^(٢).

الخامس: الأمة الحين والزمان ومنه قوله تعالى:

وَلَنُؤَخِّرَنَّهُمْ أَجْرًا إِنْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ أَوْ لَنُؤَخِّرَنَّهُمْ أَجْرًا إِنْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ^(٣).

السادس: الأمة القامة وهو طول الإنسان وارتفاعه كما يقال فلا حسن

الأمة أي القامة.

السابع: الأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد قال

النبي ﷺ يبعث زيد بن عمرو بن مفيل أمة وحدة.

الثامن: الأمة الأم يقال هذه أمة زيد يعني أم زيد إذا عرفت موارد إطلاقاتها.

فأعلم أن المراد بها في المقام هو المعنى الخامس أعني به الحين والزمان

و عليه فمعنى الكلام ولأن أخرنا عنهم، أي عن الكفار، العذاب إلى أمة

معدودة، أي زمان خاص ليقولن الكفار، ما يحسبه، أي ما يحبس العذاب عنا و

أنما قالوا ذلك للعذاب لتأخره عنهم أو إستعجالاً وإستهزاءً و عليه فكلمة، ما،

في قوله: ما يحبسهُ إستفهام قالو وهو على سبيل التّكذيب ثم إستفتح

الأخبار بأنه يوم لا يرده شيء ولا يصرفه فقال: أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا

عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ أي أن هذا العذاب الذي

يستنبطونه إذا نزل بهم في الوقت المعلوم لا يقدر على صرفه ومنعه أحد

عنهم ولا يتمكنون من إذهابه عنهم إذا أراد الله أن تأتيهم به وأما قوله: وَ

حَاقَ بِهِمْ الْخُ أَي نَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ بِهِمْ يقال حاق به العذاب حيقاً إذا

نزل و الحيق نزول البلاء قال الله تعالى: **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ^(١) قال بعضهم، أصله، حق، فقلب نحو زل و زال و قد قري، فأز لهما الشيطان، و أزالهما و على هذا ذمه و ذاته نقله الراغب في المفردات إنتهى.

و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فالمضاف محذوف و يستفاد من الآية أن الذين في قلوبهم مرض يستهزؤن بالإمهال و تأخير العذاب و لم يعلموا أنه لطف منه تعالى في حق العبد العاصي ليرتدع عما يكون عليه و يتوب.

وَلَيْئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافِرٌ اللام في قوله: **وَلَيْئِن** للقسم و الذوق في الحقيقة تناول الشيء بالضم لادراك الطعم و أصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأن ما يكثر منه يقال له الأكل و أختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب تارة وفي الرحمة أخرى على سبيل الاستعارة لأن ذلك و أن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير فخصه بالذكر ليغم الأمرين.

فَمَنْ الْأَوَّلُ:

قال الله تعالى: **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ^(٤).

قال الله تعالى: **فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ** ^(٥).

قال الله تعالى: **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** ^(٦).

قال الله تعالى: **هَذَا مَا كُنْتُمْ تَأْتِسُكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ^(٧).

والآيات كثيرة في الباب.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد التاسع

٢- السجدة = ٢٠

١- فاطر = ٤٣

٤- آل عمران = ١٨١

٣- آل عمران = ١٠٦

٦- الطلاق = ٩

٥- ص = ٥٧

٧- التوبة = ٣٥

من الثاني:

قال الله تعالى: وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا^(١).قال الله تعالى: وَإِنَّا إِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا^(٢).قال الله تعالى: ثُمَّ إِذَا آدَقْنَاهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ^(٣).

و غيرها من الآيات هذا و لكن إستعماله في العذاب أكثر منه في الرَّحمة وكيف كان فهو يستعمل في المقامين على سبيل المجاز إذا عرفت هذا فنقول قوله: وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً و هي من الله إنعام وإفضال و من الآدميين رَقَّة و تعطيْف و ذلك لأنَّ الرَّحمة منظوية على معنيين، الرِّقة، و الإحسانُ فَرَكَزَ تعالى في طبائع الناس الرِّقة و تَفَرَّدَ بالإحسان فإذا أُستعمل اللَّفْظ في حَقِّ الله تعالى يراد به الإحسان و الأفضال و إذا أُستعمل في الآدميين يراد به الرِّقة و التَّعْطِف و عليه فمعنى الكلام و لئن أَدَقْنَا الإنسان مِنَّا إِحْسَانًا أَيْ إِحْسَانٍ كان و أمَّا الانسان بكسر الألف فهو مأخوذ من الإنس خلاف الجَن قيل سَمِي بذلك لأنَّه يأنس بكلِّ ما يألُفه و قيل هو إعلان و أصله إنسيان سَمِي بذلك لأنَّه عُهِدَ اليه فنسي و كيف كان فالمراد به في الآية الشَّريفة هو الجنس و هو الحيوان الناطق أي جنس الإنسان كذا و كذا و لا يَصُرُّ بشمول الحكم و كليته خروج بعض الأفراد من تحت الحكم كالأنبياء و الأوصياء و الأولياء و ذلك لأنَّ الحكم دائماً يكون بإعتبار الأعم و الأغلب اللهم إلا أن يكون عقلياً فأَنَّهُ يشمل الكلَّ إذا تَخَصَّصَ في العقليّات و ما نحن فيه ليس من الأحكام العقليّة الّتي لا تَخْصِصُ فيها كقولنا الإنسان حيوان ناطق و قلنا إجتماع التَّقْضِين محال و أمثال ذلك هذا و يمكن أن يقال أنَّ الإنسان بمقتضى

طبعه و أن شئت قلت بما هو هو يكون كذلك و هو لا ينافي من ردّته الشرائع و الإيمان الى الصّبر، ذكر بعضهم أن المراد به في المقام الكافر.

و عن ابن عباس المراد به هو الوليد بن المغيرة و فيه نزلت و قيل المراد به عبد الله بن أمية المخزومي ذكره الواحدي والحق ما ذكرناه من العموم و قوله ثم نزعناها منه أي ثم سلبناها منه أنه ليؤوس كفور، صفتاً مبالغة و المعنى أنه شديد اليأس والكفران و فيه إشارة الى أن الإنسان جاهل بسعة رحمة الله التي تقتضي قوة الأمل و أنه يقنط من رحمة الله عند نزول الشدة و أنه إذا أنعم عليه بنعمة لم يشكره عليها و إذا سلبها منه يئس من رحمته و هو كذلك في كثير من الناس لو لا أكثرهم و لذلك ترى في كثير من الآيات صار مورداً للذم:

قال الله تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**^(١).

قال الله تعالى: **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**^(٢).

قال الله تعالى: **وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا**^(٣).

قال الله تعالى: **فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا**^(٤).

قال الله تعالى: **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأْ بِجَانِبِهِ**^(٥).

قال الله تعالى: **وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا**^(٦).

قال الله تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ**^(٧).

قال الله تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا**^(٨).

و الآيات كثيرة و يظهر من الآيات أن الإنسان بمقتضى طبعه و ذاته منبع الشّرور و الآفات و بمقتضى معرفته و دينه و إيمانه منبع الخيرات و الحسنات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

الجلد الثاني

٢- النحل = ٤

٤- الإسراء = ٦٧

٦- الإسراء = ١٠٠

٨- المعارج = ١٩

١- إبراهيم = ٣٤

٣- الإسراء = ١١

٥- الإسراء = ٨٣

٧- الزخرف = ١٥

وَلَيْنَ أَدْقُنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ
لَفَرِحٌ فَخُورٌ

أي أنه لو أحل بالإنسان نعماء بعد ضراء مسته، كالصحة بعد المرض و
الغنى بعد الفقر و بالجملة الفرح بعد الشدة، ليقولنَّ ذهب السيئات عني فيعبر
عن الضراء مثل الفقر و المرض بالسيئات و هو دليل على جهله و أنه لا يعلم ما
يقول إذ لا يبعد أن يكون الفقر له خير من الغنى و المرض خير من الصحة ثم
وصفه الله تعالى بأنه فرحٌ فخور، و الفرح إنفتاح القلب بما يُلذّبه و ضده الغم
و الفخور مبالغة من الفخر المتطاوّل بتعدد المناقب و فخور كثير الفخر و هي
صفة ذمّ إذا أطلقت لما فيه من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه ثم
إستثنى الله تعالى بعضهم فقال:

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ
إستثنى الله تعالى عن هؤلاء الذين مرّ ذكرهم الصابرين العاملين فقال إلّا
الذين صبروا الآية و الصبر بفتح الصاد و سكون الباء و الرءاء مصدر و هو الإمساك
في ضيقٍ يقال صبرت الدابة حبستها بلا علف و صبرت فلاناً خائفة خلفه لا
خروج له منها هذا بحسب اللغة و في الإصطلاح هو حبس النفس على ما
يقتضيه العقل و الشرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه فأن كان حبس النفس
لمصيبة سمي صبراً لا غير و ضده الجزع و أن كان في محاربة سمي شجاعة و
ضده الجبن و أن كان في نائبة مضجرة سمي ربح الصدر و ضده الضجر و أن
كان في إمساك الكلام سمي كتماناً و قد سمي الله تعالى كلّ ذلك صبراً و أمّا
العمل الصالح فهو عبارة عن كلّ عمل يقتضيه العقل و الشرع و إنّما أشار الله
تعالى به في الآية و لم ينع بقوله: **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا** لأنّ الثواب و العقاب
يترتبان على العمل إن خيراً فخييراً و إن شراً فشرّاً و قال بعضهم المراد بقوله:
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا هو أن يكون عند البلاء من الصابرين و من قوله: **وَعَمِلُوا**

الصَّالِحَاتِ أن يكون عند الرَّاحَةِ والخيرِ مِنَ الشَّاكِرِينَ ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الصَّبْرِ والعملِ الصَّالِحِ فقال: **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** بزوال العقابِ و الخلاصِ منه، و أَجْرٌ كَبِيرٌ وهو الفوزُ بِالثَّوَابِ يومَ الْقِيَامَةِ و من المعلوم أنَّ العبدَ إذا غفرَ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ و أدخله في رَحْمَتِهِ فقد فاز فوزاً عَظِيماً و نال ملكاً كَبِيراً و أعلم أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا في هذا اِسْتِثْنَاءٍ عَلَى قولين:

فقال الأخفش و من تبعه هو إِستثناء ليس من الأول، أي لكن الَّذِينَ صَبَرُوا و عملوا الصَّالِحَاتِ في حَالَتِي النِّعْمَةِ و المَحَنَةِ.

و قال الفراء هو، إِستثناء من، و لئن أذقناه أي من الإنسان فَأَنَّ الإنسانَ بِمعنى النَّاسِ و هو يشمل الكافر و المؤمن فهو إِستثناء مَتَّصِلٌ و هذا هو الْحَقُّ الْحَقِيقُ بِالِاتِّبَاعِ.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

قال الطَّبْرَسِيُّ رحمته الله ثُمَّ أَمَرَ سَبْحَانَهُ رَسُولُهُ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْأَمْرِ وَ حَثَّهُ عَلَى حِجَاجِ الْقَوْمِ بِمَا يَقْطَعُ الْعُذْرَ وَقَالَ: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** أي لَعَلَّكَ تَارِكٌ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَ هُوَ مَا فِيهِ سَبُّ آلِهَتِهِمْ وَ لَا تَبْلَغُهُمْ إِيَّاهُ دَفْعاً لِّشَرِّهِمْ وَ خَوْفاً مِنْهُمْ، وَ ضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَهُ وَ بِمَا يُلْحِقُكَ مِنْ أَذَاهُمْ وَ تَكْذِيبِهِمْ وَ قِيلَ بِإِقْرَاحَاتِهِمْ، أَن يَقُولُوا، أَي كَرَاهَةً أَن يَقُولُوا أَوْ مَخَافَةً أَن يَقُولُوا، لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ، مِنَ الْمَالِ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ، يَشْهَدُ لَهُ فَلَيْسَ قَوْلُهُ فَلَعَلَّكَ عَلَى وَجْهِ الشَّكِّ بَلِ الْمُرَادُ بِهِ النَّهْيُ عَنْ تَرْكِ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَ الْحَثُّ عَلَى أَدَائِهَا كَمَا يَقُولُ أَحَدُنَا لِغَيْرِهِ وَ قَدْ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَطِيعُهُ وَ لَا يَعْصِيهِ وَ يَدْعُوهُ غَيْرُهُ إِلَىٰ عَصْيَانِهِ لَعَلَّكَ تَتْرَكَ بَعْضَ مَا أَمْرُكَ بِهِ لِقَوْلِ فُلَانٍ وَ أَنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ لِأَسْ مِنْ يَدْعُوهُ إِلَىٰ تَرْكِ أَمْرِهِ فَمَعْنَاهُ لَا تَتْرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ بِسَبَبِ مَقَالَتِهِمْ هَذِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

الجلد الثاني

إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أَي حفيظ يجلب النفع اليه و يدفع الضرر عنه انتهى كلامه رفع مقامه.

و قال الزمخشري في الكشاف و من إقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملك و كانوا لا يعتدون بالقرآن و يتهاونون به و بغيره ممّا جاء من البينات فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقى اليهم ما يقبلونه و يضحكون منه فحرك الله منه و هيّجه لأداء الرسالة و طرح المبالاة بردهم و إستهزاءهم و إقتراحهم بقوله: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ أَمْ تَرْكُ أَنْ تُلْقِيَهُ إِلَيْهِمْ وَ تَبْلُغَهُ إِلَيْهِمْ مخافة ردهم و تهاونهم به وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ تَقُولَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا مخافة يقولوا لولا أنزل عليه كنزٌ أي هلاً أنزل عليه ما إقترحنا نحن من الكنز و الملائكة و لم أنزل عليه ما لا نريده و لا نقترحه ثم قال: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ أَي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى اليك و تبليغهم ما أمرت تبليغه و لا عليك ردّوا أو تهاونوا و إقترحوا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ يحفظ ما يقولون و هو فاعل بهم ما يجب أن يفعل انتهى.

و قال الشيخ في التبيان، هذا خطاب من الله لنبيه يحثه على أداء جميع ما بعثه به و أوحى اليه، و ينهاه عن كتمانها و يشجعه على الأداء و يقول له لا يكون لعظم ما يرد على قلبك و يضيق به صدرك من غيظهم يوهمون عليك أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربك و أنك تترك بعض الوحي و يضيق به صدرك مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا، لولا أنزل عليه كنزٌ، أي هلاً أنزل عليه كنز فينفق منه، أو جاء معه ملك، يعينه على أمره بل أنما أنت نذير، أي منذر مخوف من معاصي الله و عقابه و الله على كل شيء وكيل، أي حافظ يكتب عليهم أفعالهم و أقوالهم و مجازيهم عليها فلا تغمك أفعالهم و لا أقوالهم يضيق به صدرك فأَنْ و بال ذلك عائد عليهم و ضائق واحد إلا أن، ضائق هاهنا أحسن لمشاكلته لقوله، تارك، و الضيق قصور الشيء عن مقدار غيره أن يكون فيه انتهى كلامه.

أقول هؤلاء الثلاثة أعني بهم الطبرسي و الزمخشري و الشيخ من أساطين المفسرين من العامة و الخاصة فأَنْ جميع المفسرين من العامة أنما أخذوا ما أخذوا في تفاسيرهم عن الكشف كما أَنَّ الشيعة أخذت ما أخذت عن التبيان للطوسي رحمته الله و المجمع للطبرسي فكلامهم حجة بلا كلام و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا نحتاج الى ذكر كلمات المتأخرين منهم اذ لم يأتوا بشئ بعدهم إلا إستخراجات ظنية أو تخيلات و أوهام باطلة و كل حزب بما لديهم فرحون. و محصل الكلام في الآية هو أَنَّ ما تلقيه اليهم و تبلغه إليهم لعلك ضائق به صدرك مخافة ردّهم و تهاونهم به بأن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك و لم ينزل عليه ما لا نريده و لا نقرحه و لم يعلموا أنه ليس عليك إلا أن تذرهم بما أوحى اليك و تبلغهم ما أمرت تبليغه و لا عليك ردّوا أو تهاونوا أو إقترحوا و اذا كان كذلك فلا معنى لضيق صدرك ممّا يقولون أو يطلبون ففي الآية تسليّة للنبي صلّى الله عليه و آله و آله و مع ذلك فيها إشارة الى أَنَّ النبي أو الوصي أو كل مؤمن أنما وظيفته العمل بما أمر به و أن لا يعتني بما قيل به أو أن لا يعتني بما قيل أو يقال في حقّه من تكذيب أو ردّ أو إنكار فأن المطلوب هو تحصيل رضى الله تعالى فقط.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

الظاهر، أن أم، منقطعة تتقدربيل و الهمة من يقولون إفتراه و قيل، أم، إستفهام توسط الكلام على معنى أيكفون بما أوحيت اليك من القرآن أم يقولون أنه ليس من عند الله فأن قالوا أنه ليس من عند الله فليأتوا بمثله و عليه فهي متصلة و الأول أولى بظاهر الكلام كما لا يخفى و كيف كان فهذه الآية صريحة في التّحدي و فيها قطع لإعتدال المشركين و بغيهم لأنهم عجزوا عن معارضة القرآن و لمّا قالوا أن ما فيه من الأخبار كذب و إختلاق إختلعه من

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

المجلد التاسع

الكتب السالفة فقال تعالى في جوابهم إقتروا أنتم مثله و أذحضوا حجته فذلك أيسر و أهون مما تكلفتموه فعجزوا عن ذلك و صاروا الى الحرب و بذل النفس و المال و قتل الأبناء والأبناء ولو قدروا على إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه مع هذا التقرع العظيم و فيه دلالة على إعجاز القرآن و فصاحته في هذا النظم المخصوص و حيث إنجز الكلام الى إعجاز القرآن فلا بأس بالإشارة الى شطر مما لا بد منه في هذا الباب فنقول:

لا شك أن القرآن معجز أنى به الرسول لإثبات نبوته فهو من المعجزات الباقية الى يوم القيامة و قبل إثبات إعجازه ينبغي التكلم في المعجزة و أنها ما هي قالوا أن شروطها أمور:

منها، أن يعجز عن مثله أو عما يقاربه المبعوث اليه و جنسه لأنه لو قدر عليه أو واحد من جنسه في الحال لما دل على صدقه (على جنسه) و وصي النبي حكمه حكمه.

و منها، أن يكون من فعل الله أو بأمره و تمكينه لأن المصدق للنبي بالمعجز هو الله فلا بد أن يكون من جهته تعالى ما يصدق به النبي أو الوصي.

و منها، أن يكون ناقضاً للعادة لأنه متى كان معتاداً لم يدل على صدقه كطلوع الشمس من المشرق.

و منها، أن يحدث عقيب دعوى المدعى أو جاريأ مجرى ذلك والذي يجري مجراه هو أن يدعى النبوة و يظهر عليه معجزاً ثم يشيع دعواه في الناس ثم يظهر معجز من غير تجديد دعوى لذلك لأنه أن لم يظهر لذلك لم يعلم تعلقه بالدعوى فلا يعلم أنه تصديق له في دعواه.

و منها، أن يظهر ذلك في زمان التكليف لأن اشتراط الساعة يتنقض بها عادته تعالى و لا يدل على صدق مدع إذا عرفت هذا فنقول:

أن القرآن معجز لأنه ^{على الله وحده} تحدى العرب بمثله و هم في النهاية في البلاغة و توقرت دواعيهم الى الإتيان بما تحداهم به و لم يكن لهم صارف عنه

و لا مانع منه و لم يأتوا به فعلمنا أنهم عجزوا عن الإتيان بمثله و أنما قلنا أنه ﷺ تحداهم به لأن القرآن نفسه تضمن التحدي كقوله تعالى: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ^(١).

و من المعلوم أن العرب في زمانه ﷺ و بعده كانوا يتبادرون (يتنازعون) في البلاغة و يفتخرون بالفصاحة و كانت لهم مجامع يعرضون فيها شعرهم و حضر زمانه ﷺ من ربما يعد في الطبقة الأولى كالأعشى و لبید و زمانه أوسط الأزمنة في استعمال المتأنس من كلام العرب دون الغريب الوحشي الثقیل على اللسان و أنهم كانوا لغاية في الفصاحة و أنما قلنا إشتدت دواعيهم الى الإتيان بمثله لأنه ﷺ تحداهم ثم قرعهم بالعجز عنه.

و أما وجه إعجاز القرآن فقد ذهب قوم من المتكلمين الى أنه معجز من حيث كان قديماً أو لأنه حكاية للكلام القديم و عبارة عنه.

وقال السيد المرتضى رحمته الله في وجه إعجازه أن الله تعالى صرف عن معارضته و سلبهم العلم بكيفية نظمه و فصاحته و قد كانوا لولا هذا الصّرف قادرين على المعارضة و متمكنين:

منها، و ذهب المفيد رحمته الله الى أنه معجز من حيث إختصاصه برتبة في الفصاحة خارقة للعادة قال لأن مراتب الفصاحة أنما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد فلا يمتنع أن يجري الله العادة بقدر من المعلوم.

و قال قوم أن إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرة على النظر و موافقة للعقل.

و قال الآخرون أن إعجازه من حيث زال عنه الإختلال و التناقض على وجه لم يجز العادة بمثله.

و قيل أن إعجازه من حيث أن يتضمن الإخبار عن الغيوب.

و قيل إعجازه لإختصاصه بنظم مخصوص مخالفاً للعهود.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثالث

و أما المعتزلة فذهب أكثرهم الى أنَّ تأليف القرآن و نظمه معجزان و الحقَّ أن القرآن معجز بكلِّ هذه الوجوه و غيرها ممَّا لا نعلمه كان لا شكَّ في أصل الإعجاز و هو المطلوب.

اذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول الإفتراء الكذب فلما قالوا أنَّ النَّبيَّ إفتراه طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات إرضاء لعنانهم فكأنه يقول هبوا أني إختلقت و لم يوح إلي فأتوا أنتم بكلامٍ مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام و ادعوا من إستطعتم من دون الله، كائناً من كان أن كنتم صادقي في دعواكم ثمَّ قال تعالى.

فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

إختلفوا في معنى المراد بالخطاب في قوله (لكم) بعد إتفاقهم على أنَّ المراد بقوله فإن لم يستجيبوا الكفار القائلين بالإفتراء على قولين:

أحدهما: أنَّ الخطاب في لكم، الرِّسول و المؤمنين التابعين له فالمعنى فإن لم يستجيبوا هؤلاء الكفار الذين قالوا بالإفتراء لكم أيها الرِّسول و من تابعك من المؤمنين بأن لم يأتوا بعشر سور مثله فأعلموا أيها المؤمنون أنما أنزل بعلم الله و بعبارة أخرى فإن لم يقبلوا إجابتك يا محمد و المؤمنون و لم يأتوا بعشر سور معارضة لهذا القرآن فليعلم المؤمنون أنما أنزل القرآن بعلم الله بهذا الدليل.

ثانيهما: أن يكون المراد به المشركين و التقدير فإن لم يستجب لكم من تدعونهم الى المعاونة و لا يهيا لكم المعارضة فقد قامت عليكم الحجَّة إشعار بأنَّ العاقل لا يقنع بالتكذيب فقط بل ينبغي له أن يأتي بالدليل الدال على مدَّعاه فإن أتى به فهو و إلا فهو كاذب في انكاره و من كان كذلك فهو سفيه أو معاند و هو كما ترى.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

قيل معناه بعد قيام الحجّة عليكم بما ذكرناه من كلام الله و أنّه أنزله على نبيّه تصديقاً له فيما أذاه اليكم عن الله، مسلمون له مؤمنون به.

قيل هذا خطاب لأصحاب النبي من المسلمين.

أقول وفي قوله: «وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نُقْطَةً خَفِيَتْ عَلَيْهِمْ وَلِذَلِكَ لَمْ يَتَّعِزُّوا لَهَا وَهِيَ أَنَّ الْإِتْيَانَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ إِلَهٌ غَيْرُهُ كَمَا يَقُولُ بِهِ الْمَشْرِكُ لَكَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلًا فَأَنَّا قُلْنَا لَهُمْ وَادَّعُوا مِنْ إِسْتِطَاعَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَحَيْثُ لَمْ يَجِدُوا أَحَدًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ فَهُوَ مِنْ أَدْلِ الدَّلَائِلِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى وَ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَلِكِ وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ هَذَا مَا إِسْتَفَدْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ وَ الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى».



مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ
 إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥)
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ
 وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ
 شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ
 رَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
 مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ
 مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
 الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ
 أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ
 يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا
 مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا
 يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)
 أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
 كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
 الْأَخْسَرُونَ (٢٢)

◀ اللّغة

زُبَيْتَهَا الزَّيْنَةُ بكسر الزاء تحسين الشئ بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة.
 تُوفٍ مِنْ وَفَى يُوفِي تَوْفِيته والتَّوْفِيَةُ تأدية الحق على تمام.
 لَا يُبْخَسُونَ الْبَخْسَ نقصان الحق يقال بَخَسَهُ بَخْسًا إذا ظلمه بنقصان الحق.

حَبِطَ أَصْلُ الْحَبِطِ فِي اللُّغَةِ هُوَ أَنْ تَكَثَرَ الدَّابَّةُ أَكْلًا حَتَّى تَنْتَفَخَ بطنها.
 مَرِيَّةٌ الْمَرِيَّةُ بكسر الميم الرِّيب والشك.
 يَصُدُّونَ الصَّدَّ الْمَنْعَ.
 عَوْجًا الْعَوْجُ بكسر العين وفتح الواو العدول عن طريق الصَّواب.

◀ الإعراب

بِاطِلٌ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ وَمَا كَانُوا الْمُبْتَدَأُ وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَي يَعْلَمُونَهُ وَقَرِيٌّ
 بَاطِلًا بِالنَّصْبِ وَالْعَامِلُ فِيهِ، يَعْمَلُونَ، وَمَا زَائِدَةٌ أَفْمَنْ كَانَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ
 بِالْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ أَفْمَنْ كَانَ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَغَيْرِهِ وَ يَتْلُوهُ
 الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى، مَنْ، وَهُوَ النَّبِيُّ وَالتَّقْدِيرُ وَيَتْلَوُا مُحَمَّدًا وَقِيلَ وَتَمَامُ الْكَلَامِ
 عِنْدَ قَوْلِهِ، مِنْهُ، وَ مِنْ كِتَابِ مُوسَى، إِبْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ وَإِمَامًا وَرَحْمَةً حَالَانِ فِي
 مَرِيَّةٍ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ وَهُمَا لُغَتَانِ يُضَاعَفُ لَهُمْ مُسْتَأْنَفٌ مَا كَانُوا مَا، بِمَعْنَى
 الَّذِي.

وَقِيلَ هِيَ مُصَدَّرِيَّةٌ وَالتَّقْدِيرُ، مَدَّةٌ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ وَقِيلَ هِيَ نَافِيَةٌ أَي
 مِنْ شِدَّةِ بَغْضِهِمْ لَهُ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْإِصْغَاءَ إِلَيْهِ لَا جَزْمٌ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:
 أَحَدُهَا: أَنْ لَا، رَدٌّ لِكَلَامِ مَاضٍ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَ، جَرْمٌ، فَعَلٌ وَ
 فَاعِلُهُ مُضْمَرٌ فِيهِ وَأَنْتَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ.
 الثَّانِي: أَنْ، لِاجْرَمَ كَلِمَتَانِ رَكْبَتَا وَصَارَتَا بِمَعْنَى حَقًّا وَأَنْ، فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ
 بِأَنَّهُ فَاعِلٌ لِحَقٍّ، أَي حَقٌّ خَسِرَانَهُمْ.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَرْجُمَةِ
الْعِلَّةِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الْعِلَّةِ الْقُرْآنِ

الثالث: أن المعنى لا محالة خسرانهم فيكون في موضع رفع أيضاً وقيل في موضع نصب أو جرّاً إذ التقدير لا محالة في خسرانهم.
الرابع: أن المعنى لا منع من أنهم خسروا فهو في الإعراب كالذي قبله.

◀ التفسير

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا
أي كان يريد الدنيا ولا يريد الآخرة وأن شئت قلت يريد الدنيا للدنيا وأما
من كان يريد الدنيا للآخرة لا للدنيا فلا إشكال فيه ولذلك قال تعالى: وَزَيَّنَّتْهَا
أي يريد الدنيا لأجل زينتها وأما قال ذلك لأن حب الحياة أمر طبيعي فأن كل
موجود كائن من كان يريد حياته ولا يريد موته وفناءه وهذا ممّا لا إشكال فيه
وأما الإشكال في حبها للوصول الى ما فيها من الزينة والتجمل وهذا هو
الذي يوجب نسيان الآخرة والغفلة عما خلق لأجله ولا فرق فيه بين الكافر و
المسلم والعالم والجاهل والرجل والمرأة فأن الحكم عام يشمل الكل.

فما قاله بعض المفسرين من أن المراد بها هو الكفار لا دليل عليه وأما قوله:
نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا فَالتوفية هي تأدية الحق على تمام كما أن البخس
نقصان الحق والمعنى أنا نؤدي اليهم حقهم في الدنيا التي عملوا لأجلها من
غير بخس ونقص كما هو مقتضى العدل وذلك لأن من يعمل عملاً صالحاً فإن
عمل للدنيا يجزى فيها وإن عمل للآخرة أيضاً يجزى به فيها لقوله تعالى: فَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١) أي يرى ثمرة عمله
في الدنيا أو في الآخرة وفيها إشارة الى كمال عدله تعالى حتى أنه لا يضيع
أجر الكافر فضلاً عن غيره.

ومحصل الكلام هو أن الجزاء مترتب على العمل فأن كان العمل للدنيا
فالجزاء فيها وأن كان للآخرة فهو كذلك والله تعالى لا يضيع عمل عامل أبداً.

و قال بعضهم نزلت في الغزو مع النبي ﷺ للغنيمة دون ثواب الآخرة أمر الله نبيه أن يؤفهم قسمهم منها وهذا من صفة المنافقين، والحق أن المراد بها العموم ولا يضره نزولها في موردٍ خاصٍّ فإنَّ خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى وفي المقام إشكال أورده بعض الأدباء وهو أن الأجود في الشرط والجزاء أن يكونا مستقبلين كقولنا أن تضربني أو ماضيين بنية الإستقبال كقولنا أن ضربتني ضربتك.

و أما أن كان أحدهما ماضياً والآخر مستقبلاً فهو يجوز على ضعفٍ و ما نحن فيه من هذا القبيل فإنَّ الشرط وهو قوله من كان، ماضٍ والجزاء وهو قوله: تُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ مضارع.

وقد أجابوا عنه أما أولاً فبأنَّ، كان زائدة والتقدير من يرد الحياة الدنيا قاله القراء.

ثانياً: أن، كان، أم الأفعال فيجوز فيه ما لا يجوز في غيره والدليل عليه قوله تعالى في قصة يوسف: وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ^(١) هذا ولقائل أن يقول أن الشرط والجزاء في هذه الآية ماضيان وهو ممَّا لا كلام فيه بخلاف ما نحن فيه فإنَّ الجزاء فيه مضارع وهو قوله: تُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ والحق في الجواب هو أن يقال لا دليل على ضعف ما ذكره من الاختلاف في الشرط والجزاء بل الدليل قائم على عدمه وهو القرآن و بعبارة أخرى كلام الله هو الأصل في الباب لا كلام الأخفش والقراء وأمثالهما وله في القرآن نظائر.

قال الله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ^(٢)
قال الله تعالى: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنْ السَّمَاءِ^(٣).

في القرآن في تفسير القرآن



الجزء الثاني

هذا كله مضافاً الى أن هذا التركيب من مجي فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً ليس مخصوصاً بكان بل هو جائز في غيرها أيضاً قال زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنَّهُ لَوْ رَامَ أَنْ يَرْقِيَ السَّمَاءَ بُسْلَمٍ

ثم قال الله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.**

أولئك إشارة الى من كان يريد الحياة الدنيا و زيتها، فقال تعالى أنهم أخذوا حقهم في الدنيا فلا جرم ليس لهم نصيب في الآخرة إلا النار لكونهم مستحقين لها و لذلك.

قال بعض المفسرين أو أكثرهم أن الآية مختصة بالكفار لأنهم بسبب كفرهم صاروا مستحقين للنار، والحق أن الآية لا إختصاص لها بالكفار بل هي عامة تشمل كل من كان كذلك مسلماً كان أو كافراً فأَنَّ الجزاء و هو النار أو الجنة مترتب على نفس العمل و ليس في الآية الشريفة ما دل على الخلود فيها حتى يقال أن المسلم لا يكون مخلداً فيها مع أنه أيضاً لا يرجع الى محصل و لم يدل دليل من العقل أو الشرع على أن المسلم لا يخلد فيها بل الدليل قائم على العكس.

و محصل الكلام هو أن مريد الحياة الدنيا و زيتها ليس له في الآخرة إلا النار مسلماً كان أو كافراً و أما الخلود فيها أو عدم الخلود فالآية ساكتة عنهما. و أما قوله: **وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا** فقد قلنا في شرح اللغات أن الحبط يسكون الباء مأخوذ من الحبط بفتحها و هو أن تكثر الذابة أكلاً حتى يستفخ بطنها و أما حبط العمل فهو على ضرب:

أحدها: أن تكون الأعمال دنيوية فلا تُغني في القيامة غناءً ومنه قوله تعالى: **وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا^(١)**.

الثاني: أن تكون أعمالاً أخروية لكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى كما روي أنه يؤتى يوم القيامة برجل فيقال له بم كان إشتغالك، قال بقراءة القرآن فيقال له قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ و قد قيل ذلك فيؤمر به الى النار.

الثالث: أن تكون أعمالاً صالحة و لكن بأزاءها سيئات تؤفى عليها و ذلك هو المشار بخفة الميزان انتهى كلام الراغب في المفردات.

أقول فعلى ما ذكره الراغب من أقسام الحبط يكون ما نحن فيه من القسم الثاني و هو أن صاحب العمل عمل في الدنيا لها و لذيتها و لم يقصد بعمله وجه الله و قد وصل الى ما عمل لأجله كما هو المفروض و هو قوله تعالى: **نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ** فلاجرم ليس له في الآخرة من نصيب لأن نصيب الآخرة يتوقف على العمل لها لا على العمل للدنيا و أما عبّر عنه بالحبط لسقوطه عن الأجر يوم القيامة و لذلك قال و حبط ما صنعوا فيها أي سقط و خرج عن الأجر في الآخرة و قوله: **وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** فمعناه أن نفس الأعمال تبطل اذا وقعت على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

الآلف في قوله: أفمن كان ألف إستفهام و المراد به التقرير و التقدير هل الذي كان على بيّنة يعني برهاناً و حجة من الله.

قل المراد بالبيّنة في المقام القرآن و المعنى بقوله: **أَفَمَنْ كَانَ** هو النبي و كل من إهتدى به و إتبعه.

و قال صاحب الكشاف، **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ** معناه أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بيّنة أي لا يعقبونهم في المنزلة و لا يقاربونهم يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً و تبياناً بيناً و أراد بهم من أمن من اليهود كعبد الله بن سلام و غيره كان على بيّنة من ربه أي على برهان من الله و بيان أن دين

الإسلام حقّ وهو دليل العقل وَ يَتْلُوهُ أَي و يتبع ذلك البرهان شاهِدٌ مِنْهُ أَي شاهد يشهد بصحّته وهو القرآن منه من الله أو شاهد من القرآن انتهى كلامه.
و قال الرّازي وإعلم أنّ أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كلّ واحدٍ منها مجمل.

فالأول: أنّ هذا الذي وصفه الله تعالى على بيّنة من ربه من هو.

الثاني: أنّ المراد بالبيّنة ماهو.

الثالث: أنّ المراد بقوله يتلوه القرآن أو كونه حاصلًا عقيب غيره.

الرابع: أنّ هذا الشاهد ما هو فهذه الألفاظ الأربعة مجتمعة فهذا كثير اختلاف المفسرين في هذه الآية.

أما الأول: وهو أنّ الذي وصفه الله تعالى بأنّه بيّنة من ربه من هو فقيل المراد به النبي ﷺ وقيل المراد به من أمني من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره وهو الأظهر لقوله تعالى في آخر الآية **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** وهذا صيغة جمع فلا يجوز رجوعه إلى محمد ﷺ والمراد بالبيّنة هو البيان والبرهان الذي عرف به صحّة الدين الحقّ والضمير في يتلوه يرجع إلى معنى البيّنة البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه، أي من الله ومن قبله كتاب موسى، أي ويتلوا ذلك البرهان من قبل مجيئ القرآن كتاب موسى وساق الكلام إلى أن قال وذكروا في تفسير الشاهد وجوهاً:

أحدها: أنّه جبرئيل والمعنى أنّ جبرئيل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد ﷺ.

ثانيها: أنّ ذلك الشاهد هو لسان محمد ﷺ وهو قول الحسن.

ثالثها: أنّ المراد هو علي بن أبي طالب والمعنى أنّه يتلو تلك البيّنة وقوله، منه، أي هذا الشاهد من محمد ﷺ وبعض منه والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنّه بعض من محمد ﷺ انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أَقُولُ أَمَا قَوْلُهُ: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَّا قَوْلُهُ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالْكَلَامُ يَقَعُ فِي مَقَامَيْنِ:

المقام الأول: وهو أَنَّ المراد بقوله: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَالْمُخَالَفَ لَا يَعْتَدُ بِقَوْلِهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ الَّذِي كَانَ كَذَلِكَ حَقًّا لِأَنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ وَ أَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَ أَمْثَالُهُ مِمَّنْ أَمِنَ بِهِ وَ أَنَّ كَانُوا بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ كَامِلًا بَلْ كَانَ وَصْفُهُمْ بِذَلِكَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَخْصِيصُهُمْ بِكَوْنِهِمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ هَذَا مُضَافًا إِلَى أَنَّ مَدْعَى النُّبُوَّةِ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِي دَعْوَاهُ وَ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَ قَدْ اعْتَرَفَ قَاطِبَةُ الْمَفْسِّرِينَ بِذَلِكَ فَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ.

أَمَّا الْمَقَامُ الثَّانِي: وَ هُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّاهِدِ مَنْ هُوَ فَالْحَقُّ أَنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْمُخَالَفِينَ أَوْ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقُرْآنُ أَوْ جِبْرِئِيلُ أَوْ لِسَانُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَقَامِ الْإِحْتِجَاجِ عَلَى الْمُخَالَفِينَ الْمُنْكَرِينَ لِلنُّبُوَّةِ وَالْقُرْآنِ.

وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ النَّبِيَّ أَنْكَرَ الْقُرْآنَ وَأَنْكَرَ جِبْرِئِيلَ وَأَنْكَرَ لِسَانَ النَّبِيِّ بِطَرِيقِ أَوَّلَى فَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ أَنْكَرَ النُّبُوَّةَ أَنَّ الْقُرْآنَ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِ مَدْعَاهُ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى الْقُرْآنُ جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ لِإِثْبَاتِ مَدْعَاهُ فَمَنْ أَنْكَرَ النَّبِيَّ أَنْكَرَ الْقُرْآنَ أَيْضًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْقُرْآنُ شَاهِدًا عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ وَ أَمَّا جِبْرِئِيلُ فَهُوَ أَيْضًا لَا يَصْلُحُ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ جِبْرِئِيلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْتِجَّ إِلَهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ بِوُجُودِ جِبْرِئِيلَ وَ كَوْنِهِ شَاهِدًا عَلَى النَّبِيِّ.

وَ أَمَّا لِسَانُ مُحَمَّدٍ فَمَنْ أَنْكَرَ صَاحِبَ اللِّسَانِ لَا يَعْقِلُ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَنَّ لِسَانَهُ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِهِ فَهَذِهِ الْأَقَاوِيلُ كُلُّهَا عَاطِلَةٌ بَاطِلَةٌ وَ الشَّاهِدُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ

حاضراً في مقام الشَّهادة ولا يطلق على القرآن ولا على جبرئيل ولا على غيره مما لا حضور له فالشَّاهد ينبغي أن يكون من جنس البشر كما أن النَّبي كذلك وأن يكون في مرئى المنكر ومنظر ليراه ويسمع كلامه وأما أنه كان أمير المؤمنين لا غيره فيدل عليه العقل والنقل.

أما العقل فلا الشَّاهد عبارة عمَّن يشهد على شيء وأصل الشَّهادة والشُّهود الحضور مع المشاهدة إما بالبصر وبالبصيرة وقد يقال للحضور مفرداً. وقال بعضهم الشَّهادة قولٌ صادرٌ عن علم بمشاهدة بصيرة أو بصرٍ ولذلك لا يرضى من الشَّاهد أن يقول أعلم بل يحتاج أن يقول أشهد إذا عرفت معنى الشَّهادة فنقول:

للشَّاهد شروط ينبغي مراعاتها:

أحدها: أن يكون عازماً عالمياً بما يشهد به أو له أو عليه فالجاهل الذي لا يدري ما يقول لا يقبل شهادته.

ثانيها: أن يكون عادلاً فلو كان فاسقاً ظالماً لا تقبل شهادته.

ثالثها: أن يكون صادقاً فلا تقبل شهادة الكاذب ولا شك أن أمير المؤمنين عليه السلام كان عالماً عادلاً صادقاً ومع ذلك كان أقرب الناس بالمشهود له المعلوم أن الأقرب يمنع الأبعد وقد حكم العقل بأن أهل البيت أدرى بما في البيت ويدل على جميع ما ذكرناه من الشروط قوله تعالى: **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** فإن كلمة، منه، تدل على أن الشَّاهد في الآية الشريفة كان منه أي من النَّبي يقال للقرآن ولا لجبرئيل أنهما من النَّبي لأن القرآن من الله تعالى وجبرئيل ملكٌ من الملائكة فهو من الملائكة لا من البشر وحيث كان الشَّاهد من النَّبي أي من سنخه وجنسه في العصمة والبشرية فلا جرم هو أمير المؤمنين لا غيره إذ غير المعصوم لا يكون من سنخ المعصوم فقد ظهر أن الشَّاهد في المقام منحصرٌ بعلي عليه السلام وهو المطلوب.

أما النقل فمن طريق الخاصة:

ما رواه في أصول الكافي بأسناده عن أحمد بن عمر الحلال قال: سألت أبا الحسن عن قول الله عز وجل: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أمير المؤمنين الشاهد على رسول الله ﷺ ورسول الله على بَيْتَةٍ من ربه انتهى.

وعن بصائر الدرجات بأسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام واللّه ما نزلت آية في كتاب الله في ليلٍ أو نهارٍ إلا وقد علمت فيمن أنزلت و لا مرَّ على رأسه المواسي إلا وقد أنزلت عليه آية من كتاب الله تسوقه الى الجنة أو الى النار فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين فالآية التي نزلت فيك قال عليه السلام له أما سمعت الله يقول: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ فَرَسُولُ اللَّهِ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَأَنَا شَاهِدٌ لَهُ فِيهِ وَأَتْلُوهُ مَعَهُ انتهى.

وفي تفسير علي بن إبراهيم وقوله أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ الخ فقال الصادق عليه السلام أنما أنزل أفمن كان على بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ أفمن كان على بَيْتَةٍ من ربه ويتلوه شاهد منه إماماً و رحمةً و من قبله كتاب موسى انتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أنما أنزلت أفمن كان على بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ، يعني رسول الله، ويتلوه شاهد منه إماماً و رحمةً و من قبله كتاب موسى أولئك يؤمنون به فقدّموا أو أخرّوا في التأليف انتهى.

أقول يظهر من هذا الحديث أنّ في الكلام تقديم وتأخير ولا بعده فيه لأنّ تأليف القرآن كان في عهد عثمان فقدّموا وأخرّوا ما شاءوا في التأليف ولا شك أنّ نظم الكلام يقتضي أن يكون قوله: إِمَامًا وَ رَحْمَةً صفة للشاهد كما ذكره عليه السلام في الحديث ضرورة أنّ الإمام لا يطلق على الكتاب إلا بضربٍ من التجوز و أمّا إطلاقه على الشخص فهو على سبيل الحقيقة خير من المجاز فحمل الكلام عليها أولى.

ما رواه الشيخ رحمته الله في أماليه بأسناده إلى أمير المؤمنين أنه إذا كان يوم الجمعة يخطب على المنبر فقال: والذي فلق الحبة وبرئ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواثيق إلا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله عز وجل أعرفها فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين ما أيتك التي نزلت فيك فقال عليه السلام إذا سألت فيأفهم ولا عليك إلا تسأل عنها غيري أقرأت سورة هود قال نعم يا أمير المؤمنين قال أفسمعت الله عز وجل يقول أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه، قال نعم قال عليه السلام فالذي على بينة من ربه محمد صلوات الله وسلامه عليه والذي يتلوه شاهد منه وهو الشاهد وهو منه وأنا علي بن أبي طالب وأنا الشاهد وأنا منه انتهي.

وقال سليم بن قيس سأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام وأنا أسمع أخبرني بأفضل منقبة لك قال عليه السلام: ما أنزل الله في كتابه وما أنزل الله فيك قال عليه السلام: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه أنا الشاهد من رسول الله والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة وفي تفسير العياشي عن بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: الذي على بينة من ربه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والذي تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين ثم أوصيائه واحد بعد واحد. وعن جابر عن عبد الله بن يحيى قال: سمعت علياً عليه السلام يقول ما من رجل من قريش إلا وقد أنزل فيه آية أو آيتان من كتاب الله فقال له رجل من القوم فما نزل فيك يا أمير المؤمنين فقال أما تقرأ الآية التي في هود: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه محمد صلوات الله وسلامه عليه على بينة من ربه وأنا الشاهد انتهى والأحاديث كثيرة (١).

و أما الأخبار الواردة من طرق العامة.

ما رواه الحافظ الحسكاني وهو من أعيان العامة في كتابه شواهد التنزيل بأسناده عن عباد بن عبد الله عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الَّذِي عَلَى بَيْتَةٍ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا الشَّاهِدُ الَّذِي أَتْلُوهُ انْتَهَى.

و أيضاً بأسناده عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ قَالَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، و يتلوه شاهد منه قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَا الشَّاهِدُ.

و بأسناده عن محمد بن أحمد بن محمد المفيد أَنَّهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَا الْبَيْتَةُ وَعَلَى الشَّاهِدِ انْتَهَى.

و بأسناده عن عباد بن عبد الله قال كُنَّا مَعَ عَلِيٍّ فِي الرُّحْبَةِ فَقَالَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَرَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَّى النَّسَمَةَ مَا جَرَتْ الْمَوَاسِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَرِيشٍ إِلَّا وَقَدْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ آيَةٌ أَوْ آيَاتَانِ وَلَأَنْ يَعْملُوا مَا فَرَضَ اللَّهُ لَنَا عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِلْحِ الْأَرْضِ فَضَّةً وَأَنْتِي لِأَعْلَمُ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ جَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَمَّا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَّى النَّسَمَةَ أَنَّ مِثْلَنَا فِيكُمْ كَمِثْلِ سَفِينَةِ نُوحٍ فِي قَوْمِهِ وَ مِثْلَ بَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَتَقْرَأُ سُورَةَ هُودٍ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ فَرَسُولُ اللَّهِ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَأَنَا أَتْلُوهُ الشَّاهِدُ انْتَهَى.

و بأسناده عن أبي إسحاق عن الحرث عن علي بن أبي طالب قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَسُولُ اللَّهِ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَأَنَا الشَّاهِدُ مِنْهُ أَتْلُوهُ أَتَبِعُهُ انْتَهَى.

وبأسناده عن أبي الطَّفِيل قال خَطَبَنَا عَلِيٌّ بن أَبِي طالب على منبر الكوفة فقام إليه ابنُ الْكَوَا فقال هل أنزلت فيك آية لم يشاركك فيها أحد قال عَلَيْهِ السَّلَام نعم أما تقرأ أَمْضَنَ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وأنا الشَّاهد منه انتهى.

وبأسناده عن ابن عَبَّاس في قوله تعالى: أَمْضَنَ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ قال: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتلوه شاهد منه، قال هو عَلِيٌّ بن أَبِي طالب انتهى.

وبأسناده عن ابن عَبَّاس أيضاً في قوله: أَمْضَنَ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ رسول الله، ويتلوه شاهد منه، عليٌّ خَاصَّةً انتهى.

وبأسناده عن أَنَس بن مالك في قوله عزَّ وجلَّ: أَمْضَنَ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ قال هو مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتلوه شاهد منه، قال هو عَلِيٌّ بن أَبِي طالب كان والله لسان رسول الله الى أهل مكَّة في نقض عهدهم انتهى.

و الأحاديث كثيرة نقلناها شطراً منها و أن أردت الإطلاع على أكثر ممَّا ذكرناه فعليك بشواهد التنزيل وغيره من كتب العامة والعجب أنَّ الطَّبْرِي ذكر حديثاً واحداً في الباب وهكذا الرَّازِي في تفسيره والألوسي في تفسيره وهكذا غيرهم من مفسري العامة نقلوا بعض الأحاديث في الباب إلا أنَّهم لم يرضوا بما هو الحق في تفسير الآية ولم يعلموا أنَّ الله تعالى أحكم الحاكمين يوم القيامة أنَّ يوم الفصل كان ميقاتاً.

تنبيه

إِعلم أنَّ قوله: وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ يَدُلُّ على أنَّ الشَّاهد من الرِّسول المعلوم أنَّ عَلِيّاً منه لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتَ مِنِّي وأنا مِنْكَ، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هو مِنِّي وأنا منه بل نقول هو نفس النَّبي في الحقيقة بدليل قوله: وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ

وقوله ﷺ: أنت مني كروحي من جسدي وقوله ﷺ: أنت مني كالضوء من الضوء.

ولنعم ما قال ابن حماد:

وسمّاه ربّ العرش في الذكر نفسه فحسبك هذا القول إن كنت ذا خبر
وقال لهم هذا وصيّ و وارثي ومن شدّ ربّ العالمين به أزي
علّي كزري من قميص إشارة بأن ليس يستغني القميص عن الزر
و سأل النبي عن بعض أصحابه فذكر فيه فقال له قائل فعليّ عليه السلام،
فقال ﷺ: أنما سألتني عن الناس ولم تسألني عن نفسي و قد ثبت أنّ
جبرائيل قال منكما لما قال رسول الله هو مني وأنا منه.

قال الجماني:

وأنزله منه النبي كمنفسه رواية أبرار تأدت الى برّ
فمن نفسه فيكم كمنفس محمد
و قال الآخر:

عضو النبي المصطفى و روحه وشمّه و ذوقه و ريحه
و قال الآخر:

الله سمّاه نفس أحمد في القرآن يوم البهال إذ ندبا
فكيف شبّهه بطائفة شبّهها ذو المعارج الخشبا
و قال الآخر:

من نفسه من نفسه و جنسه من جنسه

و عرسه من عرسه فهل له معادل
و الأشعار و الأقوال و الأخبار في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي
الدراية و منه يظهر معنى قوله تعالى: وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ فَأَنْ كَلِمَةً، منه، يدلّ
على المقصود و لنختتم الكلام فعلاً و الحمد لله.

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً كِتَابُ مُوسَى هُوَ التَّوْرَةُ وَ قَدْ مَرَّ فِي أَحَادِيثِ أَهْلِ الْبَيْتِ أَنَّ إِمَامًا وَ رَحْمَةً كَانَ مَوْضِعُهُ بِحَسَبِ النِّزُولِ قَبْلَ ذَلِكَ فَأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى وَ قُلْنَا أَنَّهُ الْحَقُّ لِأَنَّ الْكِتَابَ لَا يَكُونُ إِمَامًا إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ وَ لَكِنَّ الْمَصَاحِفَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَ كَيْفَ كَانَ فَمَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى هَذَا أَنَّ كِتَابَ مُوسَى وَ هُوَ التَّوْرَةُ كَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ إِمَامًا وَ رَحْمَةً لِأُمَّةٍ مُوسَى وَ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِاتِّبَاعِهِ وَ الْإِسْتِضَاءِ بِنُورِ هِدَايَتِهِ أَوْ لَيْتَكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَالُوا هَذَا كُنَايَةٌ عَمَّنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُمْ يَصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ وَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ حَقٌّ.

وَ قَالَ الطَّبْرِيُّ وَقَوْلُهُ: أَوْ لَيْتَكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْتُ يَصَدِّقُونَ وَ يَقْرَءُونَ بِهِ إِنْ كَفَرَبِهِ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ، أَوْلَيْتَكَ يَعْنِي فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ، يُؤْمِنُونَ بِهِ، يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ.

وَ قَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَ الْمَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ فِي صَحَّةِ هَذَا الدِّينِ يُؤْمِنُونَ.

وَ قَالَ الطَّبْرِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِهِ مَعْنَاهُ أَوْلَيْتَكَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَ قِيلَ بِمَحْمَدٍ وَ تَقْدِيرُ الْآيَةِ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ بَصِيرَةً كَمَنْ لَيْسَ عَلَى بَيِّنَةٍ وَ لَا بَصِيرَةً إِلَّا أَنَّهُ اخْتَصَرَ وَ قِيلَ تَقْدِيرُهُ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ عَلَى صَدَقِهِ وَ تَقَدَّمَ شَاهِدٌ فَأَمَّنْ بِهَذَا كُلَّهُ كَمَنْ أَرَادَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زَيَّنَّهَا وَ لَمْ يُؤْمِنْ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ فَقَالَ أَوْلَيْتَكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَ بِهِ قَالَ جَمِيعُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَّا أَنَّ عِبَارَاتِهِمْ مُخْتَلِفَةٌ وَ الْوَجْهُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَخَذَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ تَدْبِيرٍ مِنْهُمْ فِي الْآيَةِ فَأَتَتْهُمْ لَمْ يَبَيِّنُوا الْمَشَارَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ، أَوْلَيْتَكَ بَلْ قَالُوا أَوْلَيْتَكَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَ قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَحَقُّ الْكَلَامِ أَنَّ يُقَالُ هُوَ يُؤْمِنُ بِهِ أَيْ بِالْقُرْآنِ لَا أَوْلَيْتَكَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ وَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ

في دفع الإشكال أنه راعى معنى، مع، فجمع لا يرجع الى محصل اللهم إلا أن يقال أن المراد بقوله: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ معناه العام الشامل لجميع من كانوا كذلك وقوله: أُولَئِكَ إشارة اليهم فيصير المعنى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كغيره ممن ليس كذلك أولئك الذين يؤمنون بالقرآن لا غيرهم ممن لا يتصف بذلك والله أعلم بما قال.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ أَي وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْقُرْآنِ مِنَ الْأَعْرَابِ فمصيره الى النار ولا يبعد أن يكون مرجع الضمير في، به، الرسول أي ومن يكفر بالرسول والأول أولى بقرينة السياق فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ الخطاب للنبي أي فلا تك في شك منه والمراد جميع المكلفين إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ أَي أَنَّ هذا الخبر الذي ذكره حق من عند الله وهو أن موعدهم النار ويحتمل رجوع الضمير الى القرآن أي أن القرآن الذي أنكره بعضهم هو الحق من ربك أي جاء من عنده ولكن أكثر الناس لا يعلمون، صحته و صدقه لجهلهم بالله و جحدهم نبوة نبيه ﷺ و هو كذلك.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ قيل معنى الكلام لا أحد أظلم منه إلا أنه خرج مخرج الإستفهام مبالغة في أنه أظلم لنفسه من كل ظالم و إنما كان المفترى على الله كذباً أظلم من كل ظالم لأنه يجحد نعم الله و لا يشكرها هكذا قيل.

و نحن نقول الفري قطع الجلد للحزب و الإصلاح و الإفراء للإفساد و الافتراء فيهما إلا أنه في الإفساد وأكثر و كذلك أستعمل في القرآن في الكذب و الشرک و الظلم.

قال الله تعالى: وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد التاسع

قال الله تعالى: **أُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا.**

فَمَنْ الْأَوَّلُ قال الله تعالى: **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ^(١).**

من الثاني قال الله تعالى: **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا^(٢).**
من الثالث قال الله تعالى: **أُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا^(٣).**

وأما قوله: **أَوَلَيْكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ** فالعرض إظهار الشيء بحيث يرى للتوقيف على حاله يقال عرضت الكتاب على فلان و عرض الجند على السلطان ومعنى العرض على الله أنهم يقفون في المقام الذي يربو العباد جعله الله تعالى للمطالبة بالأعمال فهو بمنزلة العرض في الحقيقة.

يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

الأشهاد جمع شاهد مثل أصحاب جمع صاحب.

وقيل جمع شهيد كشریف وأشراف قيل المراد بهم في الآية هو الملائكة والعلماء والأنبياء والمعنى أن الأشهاد يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ومعنى لعنة الله إبعاده من رحمته.

ومحصل الكلام هو أن هؤلاء الذين كذبوا على الله بعد عرضهم على الله يوم القيامة يقول الأشهاد في حقهم كذا وكذا وفي الآية إشارة بل دلالة على أن الظالم يستحق اللعن.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

الظاهر أنَّ هذه الأوصاف ثابتة للظالم في قوله أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ فكأنَّه قيل من هم الظَّالِمُونَ فقال: الَّذِينَ يَصُدُّونَ الْخَ وَ الصَّدُّ الْمَنْعُ فَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ بِأَنَّهُمْ يَصُدُّونَ أَي يَمْنَعُونَ الْخَلْقَ وَ يَصْرِفُونَهُمْ عَنِ الْمَصِيرِ إِلَيْهِ وَ اتِّبَاعِهِ.

و قيل أَنَّهُمْ يَغْرِزُونَ الْخَلْقَ وَقوله: وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا الْعِوَجُ الْعَدُولُ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ وَ هُوَ فِي الدِّينِ عِوَجٌ بِالْكَسْرِ وَ فِي الْعُودِ عِوَجٌ بِالْفَتْحِ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ لِسَبِيلِ اللَّهِ عَدُولًا عَنْهُ وَقوله: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أَي بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ.

و فِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّهَادَةِ فِي آيَةِ هُوَ الْأَنْمَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَقوله أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، لِأَنَّ مُحَمَّدَ حَقَّهُمْ وَقوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَعْنِي يَصُدُّونَ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ وَهِيَ الْإِمَامَةُ، وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا يَعْنِي صَرَفُوهَا إِلَى غَيْرِهَا انْتَهَى.

و فِي كِتَابِ الْمَنَاقِبِ لِابْنِ شَهْرٍ أَشُوبٌ عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْنُ الْأَشْهَادُ انْتَهَى.

أَقُولُ لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَ لِلظَّالِمِ مُصَادِقٌ كَثِيرَةٌ فَمَنْ ظَلَمَ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فَهُوَ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ لِأَنَّ الظَّلْمَ عَلَيْهِمْ هُوَ الظَّلْمُ عَلَى اللَّهِ وَ هَكَذَا قَوْلُهُ: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ طَرِيقَ أَهْلِ الْبَيْتِ هُوَ طَرِيقُ اللَّهِ وَ سَبِيلُهُ فَالضَّادُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صَادٌّ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ أَعْظَمُ مُصَادِقُهُ الْإِمَامَةُ وَ هَكَذَا الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا، فَإِنَّ الظَّالِمِينَ عَدَلُوا عَنِ الْإِمَامَةِ وَ جَعَلُوهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَ الْحَاصِلُ أَنَّ عُمُومَ الْمَعْنَى فِي آيَةِ يَشْمَلُ مَا ذَكَرْنَاهُ.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم ملعونون وأنهم يصدّون عن سبيل الله الآية بأنهم غير معجزين في الأرض، الإعجاز المنع من تحصيل المراد يقال أعجزني فلان أي معني عن مرادي ومعني معجزين في الأرض أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا وذلك لأن الهرب عن عذاب الله معناه الفرار عن حكومته والخروج عن تحت قدرته محال لأن المخلوق تحت قدرة الخالق قهراً والأ لا يكون مخلوقاً له وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولا يمكن الفرار من حكومتك، والمقصود أن هؤلاء الكفار يؤخذون بأعمالهم وإعتقاداتهم.

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ أَي لا يقدر أحد على تخليصهم من العذاب فإن الأمور بيده والكل تحت قدرته وإذا كان كذلك فهو تعالى يضاعف لهم العذاب، بكفرهم وإنكارهم البعث والنشور فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سبباً لتضعيف العذاب أو أنهم مع ضلالهم وكفرهم سعوا في الإضلال أيضاً فَضَّلُوا وَأَضَلُّوا فلماذا حصل التضعيف عليهم.

مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ والمراد ما هم عليه في الدنيا من صميم القلب وعمى النفس.

قال الرّازي واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق في المكلف ما يمنعه الإيمان.

و روي عن ابن عباس أنه قال أنه تعالى منع الكافر من الإيمان في الدنيا وفي الآخرة.

أما في الدنيا فلقوله تعالى: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ: يُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ^(١).

وحاصل الكلام في هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا يستطيعون السَّمْعَ فإمّا أن يكون المراد أنهم ما كانوا يستطيعون سَمْعَ الأصوات والحروف وإمّا أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى والقول الأوّل باطل لأنّ البديهة دلّت على أنهم كانوا يسمعون الأصوات والحروف فوجب حمل اللفظ على الثاني وهو المطلوب انتهى كلام الرّازي.

الجواب قوله أنّ الله قد يخلق في المكلف ما يمنعه الإيمان، أن كان مراده أنّ الله قادرٌ على أن يخلق فيه ما يمنعه الإيمان، فهو ممّا لا كلام فيه لأنّه على كلّ شيء قدير.

وأن كان مراده أنّ الله فعل ذلك في حقّ المكلف فعليه بالإثبات هذا أولاً. ثانياً: نقول كلام الرّازي يستلزم إجتماع النقيضين وذلك لأنّه قال أنّه تعالى قد يخلق في المكلف ما يمنعه الإيمان فنقول هذا غير معقول بل هو محال وذلك لأنّ العبد لا يكون مكلفاً إلاّ بعد وجود القدرة فيه فلو لم يكن قادراً كيف يكون مكلفاً والمفروض أنّه مكلف بما لا يقدر على إيجاده فهو مكلفٌ وغير مكلفٍ وبعبارةٍ أخرى العبد مأمور بالإيمان ومكلفٌ به والمفروض أنّ الله الذي أمره بالإيمان ومنعه منه فهو غير مكلفٍ به فعلاً من جهة وجود المانع وهذا معنى قولنا هو مكلفٌ وغير مكلفٍ وهما متناقضان وقد حكم العقل باستحالته.

نعم لو قلنا أنّه تعالى خلق في العبد ما يمنعه الإيمان فهو معقول إلاّ أنّ العبد لا يكون مكلفاً على هذا التقدير من أوّل الأمر وهو خارج عن البحث إذ البحث في المكلف بالإيمان والعجب من الرّازي وهو هو بإدعاءه ومع ذلك لا يعلم ما يقول.

بسم الله الرحمن الرحيم
في تفسير القرآن

جزء ١٢

العبد القائل

و أما ما نقله عن ابن عباس فهو بعيد غاية البعد و ذلك لأنَّ عبد الله بن عباس أجلُّ شأنًا من هذه الكلمات و أمَّا ما حققه في الإستدلال فهو أوهم من بيت العنكبوت فلا نحتاج الى الجواب و مع ذلك فهو أشبه شيء بالمغالطة اذ الكلام في عدم الإستطاعة لا في العجز الَّذي هو ضدَّ القدرة فكأنَّ الرّازي أراد المغالطة حيث عبّر عن عدم الإستطاعة بالعجز و قال، كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله، أو أنّه لم يفرق بين العجز و عدم الإستطاعة و أنّ الثاني أعمّ من الأوّل فكُلُّ عاجزٍ عن الفعل لا يستطيعه و ليس كلّ من لا يستطيع عاجزاً اذ قد يكون منشأ عدم الإستطاعة العجز أعني به عدم القدرة و قد يكون منشأ شيئاً آخر غير العجز.

ألا ترى أنّهم يقولون فلان لا يستطيع أن ينظر الى جنازة أخيه أو جنازة ولده مثلاً و لا يقولون أنّه عاجز عنه.

و الحاصل أنّ الإنسان قد يقدر على فعلٍ من الأفعال و مع ذلك يعرض عنه لداعٍ من الدّواعي كما أنّه قادر على الإنفاق إلّا أنّه لا يتفق لبخله لا لعجزه عنه بحسب ذاته و كما أنّه قادر على إنقاذ الغريق و لا ينقذه لعداوته إيّاه أو لغيرها من الجهات و هكذا و هكذا اذا عرفت هذا فنقول:

ما نحن فيه من هذا القبيل فإنَّ الإنسان بحسب ذاته و قدرته يقدر على الإيمان بمعنى أنّه غير عاجزٍ منه إلّا أنّه لا يؤمن لأجل بعض الدّواعي كحبّ الدّنيا و زخارفها و أنّ الإيمان يمنعه عن الإنغمار في الشّهوات و متابعة الهوى و أمثال ذلك من الجهات و قد يكون ذلك لأجل عدم التوجّه و الغفلة عن رحمانه و يعبر عن هذه العوائق بعدم الإستطاعة و لا يعبر عنها بالعجز نقول أنّ عدم الإستطاعة لا ينافي القدرة الذاتيّة لأنَّ رفع هذه الموانع أو دفعها تحت قدرته فلا يقال أنّ البخل الَّذي لا يتفق أنّه عاجزٌ عنه بل هو قادر عليه و المانع هو البخل الَّذي يمكن رفعه و لأجل هذه الدّقيقة قال تعالى: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ و لم يقل ما كانوا يقدرون السَّمْعَ و لعمري هذا واضح لا خفاء فيه.

فقول الرّازي وأمثاله بالجبر وأنّ الله تعالى خلق في المكلف ما يمنعه أشبه شيء بكلام المجنون الذي لا يعلم ما يقول و عليه فمعنى الآية أنّهم سلبوا عن أنفسهم السَّمْع والأبصار بإختيارهم وإرادتهم و لذلك يعذبون يوم القيامة فإنّ العذاب على غير المقدور محال عقلاً وشرعاً و لذلك قال الله تعالى.

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

أي هؤلاء الكفّار الذين وصفهم الله خسروا أنفسهم بما ذهبوا اليه و اعتقدوا به أو خسروا أنفسهم بعد إيمانهم بالله و برسوله نسب الله تعالى الخسران الى أنفسهم فلو كان الله تعالى هو الذي منعهم من الإيمان بسبب خلقه فيهم ما يمنعه من الإيمان كما يقول الجبري لما صح أن يقال: **أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** بل ينبغي أن يقال أولئك الذين خسر الله أنفسهم فحيث أنّه تعالى نسب الخسران الى أنفسهم علمنا بطلان الجبر و صحّة الإختيار و الخسران في الأصل إنتقاص رأس المال و ينسب ذلك الى الإنسان فيقال خسر فلان و الى الفعل فيقال خسرت تجارتك و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال و الجاه في الدّنيا و في المقتنيات النّفيسة كالصّحة و السّلامة و العقل و الإيمان و الثّواب، و هو الذي جعله الله الخسران المبين و قد أشير الى ذلك في كثير من الآيات فكلّ خسران ذكره الله في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير أعني به المقتنيات النّفيسة دون الخسران المتعلّق بالمقتنيات الدّنيوية و التّجارات البشريّة و لعلّ الوجه فيه هو أنّ الدّنيا و ما فيها من المال و الجاه في معرض الزّوال إذ لا بقاء لها في حدّ نفسها فإذا فقد المال أو الجاه مثلاً في حياة الإنسان ليس من الخسران بشيء في الحقيقة و أنّما الخسران الحقيقي هو فقدان النّعم الأخروية التي لا زوال لها فمن فقدّها فقد خسر حقّاً، و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ**

يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ^(١) و قد يكون الخُسرانُ فيهما قال الله تعالى: خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ^(٢) والآيات كثيرة جداً.

وأما قوله: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فقيل في معناه قولان:

أحدهما: ذهب عنهم الإنتفاع بالإفتراء كما كانوا في الدنيا.

الثاني: ذهب عنهم الأوثان التي كانوا يأملون بها الإنتفاع هذا و لقائل أن يقول لم يجيَّ ضَلَّ بمعنى ذهب فتفسير الكلام بما فسروه و لا دليل عليه بل الحق أن الكلام على ظاهره و هو أن الضلالة و الضلال العدول عن الطريق المستقيم و يضاده الهداية و قد يقال الضلال لكل عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً كثيراً كان أو يسيراً فأن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعبٌ جداً قال النبي ﷺ أَسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا و قال بعض الحكماء كوننا مُصِيبِينَ مِنْ وَجْهِ وَكُنَّا ضَالِّينَ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ.

فأن الإستقامة و الصواب يجري مجرى المقرطس من المرمى عداه من الجوانب كلها ضلال و قد روى أن رسول الله ﷺ قال (شَيَّبَتْنِي سُورَةُ هُودَ لقوله تعالى: فَاسْتَثَقِمَ كَمَا أُمِرْتُ^(٣) هود وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم صَحَّ أن يستعمل لفظ الضلال مِمَّن يكون منه خطأ فضلاً عن أن يكون عمداً إذا عرفت معنى الضلال فقوله تعالى: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ معناه أن الإفتراء صار سبباً لضلالتهم فأن الإفتراء على الله من أقوى وجوه الضلال و من أَضَلَّ مِمَّن يفترى على الله تعالى و هو واضح لا خفاء فيه و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله بعد ذلك: لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ قالوا، جرم فعل ماضٍ معناه كسب و الفاعل مضمَر أي كسب هو أي فعلهم و، أن و ما بعدها في موضع نصب على المفعول به وجرم القوم كاسبهم قال الشاعر:

نصبنا رأسه في جذع نخلٍ بما جرمت يده وما أعتدنا
 أي بما كسبت يده ويقال لاجرم بالكسر ولا جر بحذف الميم
 و زعم الكسائي أنَّ فيها أربع لغات، لا جرم، ولا عن ذا جرم، ولا عن ذا
 جرم، ولا جرم بضم الجيم وكيف كان فمعناه لا بد أنَّهم، أو لا محالة إنَّهم معناه
 حقاً أنَّهم وأصل الجرم القطع فكأنَّه قال لا قطع أنَّهم في الآخرة هم الأخسرون
 فحاصل المعنى أنَّ هو هؤلاء الكفار لكفرهم وطغيانهم وإفترائهم على الله و
 رسوله فلا محالة أنَّهم في الآخرة هم الأخسرون، والوجه في كونهم كذلك
 أنَّهم قالوا على كفرهم وشقاقهم وإذا كانوا كذلك فخرانهم في الآخرة أشدَّ
 ممَّن لا يكون من العصاة والفساق وقيل في وجه كونهم أخسر أنَّه فات عنهم
 الدنيا والآخرة وقيل غير ذلك ولكل وجه.



إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخِثُوا
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ
 وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي
 لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
 وَمَا نَرِيكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ
 الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ
 كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ
 بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَأَتَانِى رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ
 عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مُكُومَهَا وَاتَّكُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَ
 يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِى إِلَّا عَلَىٰ
 اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا
 رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَ يَا
 قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ
 وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
 لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ (٣١)
 قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ
بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا
يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

◀ اللغة

أَخْبَتُوا الإِخْبَاتِ الخشوع المستمر على إستواء فيه وأصله الإستواء من
الخبث وهو الأرض المستوية الواسعة.
أَمَلْنَا الجماعة و قيل جماعة من رؤوساء القوم.
أَرَادْنَا جمع أرذل وهو الخسيس الحقير وعليه فالأرادل جمع الجمع.
بَادَى الرَّأْيِ أي أَوَّلَ الرَّأْيِ.
فَعَمِيَتْ أي خفيت.
أَنْزَلْنَاهُ أَي أَنْضَطَرَكُم الإلزام الإجبار والإضطرار.
طَرَدْنَاهُم الطرد المنع.
تَرَدَّرَى الإزدراء الإفتعال، من الرّزاية وهي الحقارة.
يُغْوِيَكُمْ من أَغْوَى يغوي إغواءً الإغواء الإضلال.

◀ الإعراب

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ مبتدأ وخبر كَالْأَعْمَى والتقدير كمثل الأعمى مثلاً تمييز ما
مَرْنِكَ يجوز أن يكون من رؤية العين و تكون الجملة بعدها في موضع الحال
و، قد، معه مرادة و يجوز أن يكون من رؤية القلب فتكون الجملة في موضع
المفعول الثاني بَادَى الرَّأْيِ يقرأ بهمزة بعد الذال وهو من بَدَأَ يَبْدَأُ إِذَا فَعَلَ
الشَّيْءَ أَوَّلًا و قد يقرأ بياء مفتوحة وفيه وجهان:

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

أحدهما: أَنَّ الهَمزة أُبدلت ياءً لِانكسار ما قبلها.

الثَّاني: أَنَّهُ من بدأ يبدو إذا ظهر وبادي هنا ظرف رَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِهِ يجوز أن تكون، من، متعلقة بالفعل و أن تكون من نعت الرَحْمَةِ فَعُمِيَتْ بضم العين و تشديد الميم و قد يقرأ بفتح العين و خفيف الميم أَنزلَ مُكْمُوها الماضي منه ألزمت و هو متعد إلى مفعولين و دخلت الواو هنا تَمَّةٌ للميم و قرئ بإسكان الميم الأولى فراراً من توالي الحركات تَزْدَرِي الدال بدل من التاء و أصلها تَزْتَرِي و هو يفتعل من زريت و أبدلت ذالاً لتجانس الزاي في الجهر و التاء مهموسة فلم تجتمع الزاي.

◀ التفسير

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ حال الكفَّار و وصفهم بما وصفهم و أخبر بما أعدَّ لهم من العذاب يوم القيامة و حكم عليهم بالخسران في الدنيا و الآخرة، أشار في هذه الآية إلى حال المتقين و ما أعدَّ لهم من النعيم في الآخرة فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ذَكَرَ اللَّهُ تعالى في هذه الآية شروطاً ثلاثة للدخول في الجنة و الخلود فيها:

أحدها: الإيمان و هو الأصل في جميع الأعمال و هو عبارة عن الاعتقاد بالتوحيد و النبوة و جميع ما جاء به النبي من الله تعالى و لا شيء أفضل منه في مقام العبودية إذ لا يقبل العمل بلا إيمان.

ثانيها: العمل الصالح و هو في الحقيقة مظهر للإيمان و أن شئت قلت أَنَّهُ كالشجرة للشجرة فالإيمان إذا لم يقارن العمل لا أثر له و لذلك نقول الإيمان عبارة عن الاعتقاد و الإقرار و العمل و قد ثبت أَنَّ الآثار تتوقف على الوجود الخارجي.

و أما الوجود الذّهني فلا أثر له و حيث أنّ العمل بمنزلة الوجود الخارجي للإيمان فلا محالة تترتب الآثار عليه.

ثالثها: قوله: **وَ أَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ** و فيه إشارة الى الخلوص و أن يكون العمل لله و التعبير بالإخبات لأجل أنّ المؤمن العامل ينبغي أن يكون خاضعاً خاشعاً لربه في مقام العبوديّة فأنّ الخشوع من مقامات الصّالحين و قد أشير اليه في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً** ^(٢).

قال الله تعالى: **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَ إِنِّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ^(٤) وغيرها من الآيات الكثيرة.

وأعلم أنّ ما ذكرناه في معنى الأخبار إنّما هو على مسلك القوم فأنّ المفسرين فسّروا الإخبات بالخشوع و أما على مسلك العرفاء فهو غير الخشوع بل هو أفضل و أعلى منه قالوا الإخبات هو السّكون الى من إنجذب اليه بقوة الشّوق فهو من أوائل مقام الطّمأنينة و هو ورود المأمّن من الرّجوع والترّد ثلث درجات.

الأولى: أن تستغرق العصمة الشّهوة.

الثانية: أن لا ينقص إرادته سبب.

الثالثة: أن يستوي عنده المدح و الذّم لعدم إلتفاته الى الخلق و نظره اليهم بنظر الفناء و عروجه عن حظّ النّفس بشهود الحقّ.

و أما توضيح هذه الكلمات فهو خارج عن طور الكتاب و الذي نقول في المقام هو أنّ الإخبات في الأصل ليس بمعنى الخشوع.

في التّرقا في تفسير القرآن



المجلد الثالث

قال الرَّاغِب في المفردات الخبط المطمئن من الأرض وأُخِبت الرَّجُل قَصْدُ الخَبْتِ ثُمَّ اسْتَعْمَلَ اللَّيْنِ وَالتَّوَضَّعِ انْتَهَى.
وعليه فقوله تعالى: **وَ أَخْبِتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** أي تواضعوا وقوله: **وَبَشِّرِ الْأَمْخِطِينَ** أي المتواضعين ويمكن الجمع بين القولين بأنَّ الخشوع والتواضع متلازمان فكل متواضع خاشع متواضع فالمال واحد والمقصود ظاهر.
وأما قوله تعالى: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** فهو الجزاء المترتب على العمل الصالح الناشئ من الإيمان ولا جزاء أحسن منه.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تعالى ما يؤول اليه الكَفَّار من النَّار وما يؤول اليه المؤمنون من الجنة والفريقان هنا الكافر والمؤمن ولَمَّا كَانَ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الكَفَّارِ وَأَعْقَبَ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ جَاءَ التَّمْثِيلُ هُنَا مُبْتَدَأً بِالْكَافِرِ فَقَالَ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ أَتَيْنِ بِأَتَيْنِ فَقُوبِلَ الْأَعْمَى بِالْبَصِيرِ وَهُوَ طَبَاقٌ وَقُوبِلَ الْأَصَمُّ بِالسَّمِيعِ وَهُوَ طَبَاقٌ أَيْضاً وَالْعَمَى وَالصَّمُّ أَفْتَانُ تَمْنَعَانِ مِنَ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَلَيْسْتَا بِضَدَيْنِ لِأَنَّهُ لَا تَعَاقُبَ بَيْنَهُمَا وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَشْبِيهِ وَاحِدٍ بِوَصْفِيهِ بِوَاحِدٍ بِوَصْفِيهِ فَيَكُونُ مِنْ عَطْفِ الصِّفَاتِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إلى الملك القرت وإبن الهمام وليث الكريهة في المزدحم

وَلَمْ يَجِئِ التَّرْكِيبُ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالْأَصَمِّ وَالسَّمِيعِ فَيَكُونُ مُقَابِلَةً فِي لَفْظِ الْأَعْمَى وَضَدَّهُ وَلَفْظَةِ الْأَصَمِّ وَضَدَّهُ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ إِنْسَادَادَ الْعَيْنِ أَتْبَعَهُ بِإِنْسَادَادِ السَّمْعِ وَلَمَّا ذَكَرَ إِنْفِتَاحَ الْبَصَرِ أَتْبَعَهُ بِإِنْفِتَاحِ السَّمْعِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِسْلُوبُ فِي الْمُقَابِلَةِ وَالْأَتَمُّ فِي الْإِعْجَازِ وَاحْتِمَالُ أَنْ تَكُونَ الْكَافِ نَفْسُهَا هِيَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ الْمَثَلُ فَكَأَنَّهُ قِيلَ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ مَثَلُ الْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَاحْتِمَالُ أَنْ يَرَادَ بِالْمَثَلِ الصِّفَةُ وَبِالْكَافِ مَثَلٌ فَيَكُونُ عَلَى حَذْفِ

مضاف أي كمثل الأعمى فيكون من تشبيه المعقول بالمحسوس و كيف كان فقد شبه الكافر بالأعمى والأصمّ والمؤمن بالبصير والسّميع ولا شك أنّ المراد بالأعمى هو أعمى القلب وأصم القلب و بالبصر البصيرة في القلب و أنما قلنا ذلك لأنّ الكافر والمؤمن في السّمع والبصر سيّان بحسب الظاهر فالكافر يرى ببصره و يسمّع بسمعه والمؤمن كذلك إلّا أنّ الكافر أسير في المحسوسات والمؤمن ليس كذلك والمؤمن ينظر بعين البصيرة والكافر ليس كذلك والسّر العلمي فيه هو أنّ البصر ليس للرؤية فقط بل لها وللإعتبار كما أنّ السّمع أيضاً ليس للإستماع فقط بل له وللتّفقه وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان فإنّه أيضاً يرى ببصره و يسمع بسمعه وأذنه فلا فرق بينه وبين الإنسان من هذه الجهة أعني بها رؤية المحسوسات وإستماع الأصوات الفرق في الآثار المترتبة على السّمع والبصر فالإنسان يرى بعينه و يعتبر و يسمع بأذنه و يتّفقه والحيوان لا يعتبر ولا يتّفقه والى هذا المعنى أشار:

قال الله تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (١).

قال الله تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢).
ولذلك قال في آخر الآية هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ فَأَنَّ الإستفهام إنكاري أي لا يستويان أفلا تذكرن فتعلموا صحّة ما ذكرناه.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

نوح بضّم النون وسكون الواو والحاء إسم نبيّ من الأنبياء قيل هو نوح بن ملك إبن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس وهو أوّل نبيّ بعد إدريس.

وقيل إسمه عبد الغفار وكان نجاراً و ولد في العام الذي مات فيه آدم قبل موت آدم في الألف الأولى و بعث في الألف الثانية هو إبن أربع مائة و قيل

في القرآن

جزء ١٢

الجزء الثاني

بعث و هو ابن خمسين سنة و لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً و كان في تلك الألف ثلاثة قرون عايشهم ثم شكاهم الى الله فغرقت له الدنيا و عاش بعد تسعين سنة و قيل أكثر و أنما سمّي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه، أخبر الله تعالى في هذه الآية و ما بعدها أنه أرسل نوحاً الى قومه بالرسالة كما أرسل غيره من الرسل بعده و قوله: **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** قالوا لأن في الإرسال معنى القول أي فقال نوح **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**.

و قرأ بعضهم، أني، بفتح الهمزة أي أرسلناه بأنني لكم نذيرٌ مبين و أنما قال الله تعالى، إنني، ولم يقل، إنه، لأنه رجع من الغيبة الى الخطاب أي الى خطاب نوح لقومه و ذلك كما في قوله تعالى في قصة موسى: **وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ** (١).

و قوله: **نَذِيرٌ مُّبِينٌ** أي إنني منذركم فإن النذير المنذر و يقع على كل شيء فيه إنذار إنساناً كان أو غيره ثم أن الإنذار إخبارٌ فيه بتخويف كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور و الإنذار و التبشير من وظائف الأنبياء و ذلك لأنهم بعثوا لينذروا قومهم من عذاب الله في صورة العصيان و يبشروهم في صورة الطاعة و الإنقياد.

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ.

يظهر منه أنهم كان يعبدون الأوثان كما جاء مصرحاً في غير هذه السورة و قد ورد في الأخبار كانت شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد و هي الفطرة التي فطر الناس عليها و أخذ ميثاقه على نوح و النبيين أن يعبدوا الله يشركوا به شيئاً و أمر بالصلاة و الحلال و الحرام و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرض موارث و لا شك أن التوحيد هو أصل الدعوة في كل شريعة اذ لم يبعث نبي قط إلا و كان أول دعوته التوحيد فقوله: **أَنْ لَا تَعْبُدُوا**

إِلَّا اللَّهَ معناه لا تعبدوا إلا الله الذي ليس في الوجود إلا هو وهو الواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات.

وقوله: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ أي إن لم تقبلوا قولي وبقيتم على ما كنتم عليه من الكفر والعصيان وعبادة الأوثان أني أخاف عليكم عذاب يوم أليم وهو يوم القيامة، ومعناه مؤلم لأن العذاب يقع في اليوم فكأنه سبب الألم والأليم صفة مبالغة وهو من كثر ألمه وأما أن كان بمعنى مؤلم فنسبته لليوم مجاز وللعذاب حقيقة.

فَقَالَ أَلَمَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا.
فَقَالَ أَلَمَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ الْمَلَاءُ جَمَاعَةُ الرُّؤُوسَاءِ وَالْأَشْرَافِ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ قَالُوا النَّوْحُ مَا تَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ذَكَرُوا أَنَّهُ مِمَّا ثَلَمَهُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَلِئَلَّا يَتَّبِعُوا أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ وَكَأَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى مَذْهَبِ الْبَرَاهِمَةِ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ نَبُوَّةَ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يَكُونُ مُخْتَصًّا بِقَوْمِ نُوحٍ بَلْ قَالُوا ذَلِكَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ قَوْمُ صَالِحِ النَّبِيِّ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ:
مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(١).

وقال قوم شعيب:

وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ^(٢).

قال تعالى حكاية عنهم في تكذيبهم الأنبياء:

فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا^(٣).

قال في قوم ثمود:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ، فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُكَ إِنَّا إِدَّا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ^(٤).

بَابُ الْقَوَائِدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الجلد التاسع

وهكذا غيرها من الآيات الواردة في الباب والعجب أنهم لم يقنعوا بذلك بل قالوا: وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُادِي الرَّأْيِ أَرَادِلْ جمع رَذِلْ بسكون الذال والرذال المرغوب عنه لرداءته وبادي الرأي فيه قراءتان:

أحدهما: بالياء.

الثاني: بالهمزة.

فمن لم يهمز أراد به الإبتداء وهو من بدو الشيء وهو ظهوره والفعل منه بدى يبدو أي أظهر وعليه فمعنى الكلام ما اتَّبَعَكَ إِلَّا أَرَادِلْ النَّاسِ فيما ظهر لهم من الرأي أي لم يفعلوه بنظرٍ فيه ولا تبين له ومن همز أراد اتَّبَعُوكَ في أول الأمر من غير فكرٍ فيه ولا رؤيةٍ لأنه على هذا من بدء أي إبتداءً وحاصل المعنى أنهم قالوا لنوح ليس متابِعوك إِلَّا الاراذل مِنَّا وأما الأشراف فلم يَتَّبَعُوكَ.

ومن المعلوم أنَّ الأَرَادِلْ لجهلهم لا علم لهم بحقيقة الحال لأنهم من العوام والمقصود من هذا الكلام هو أنَّ نوح النَّبِيَّ لو كان نبيًّا حقًّا ما كان إماماً للأَرَادِلْ والعوام فكأنه بمنزلة الدليل على أنه ليس نبيًّا ولم يعلموا أنَّ الفهم والعلم لا يختص بالأشراف والأعيان بل الأمر بالعكس في أغلب الأوقات.

وتوضيحه أنَّ الأديان لا توافق الأميال النفسانية في أكثر الموارد قال رسول الله حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، والأعيان والأشراف من كل قوم عبيد الدنيا فلا معبود لهم في الحقيقة إِلَّا الدَّرْهَمُ والدنيا والجهنم والمقام وحيث الأنبياء كانوا يدعوهم إلى الآخرة وترك الشهوات والأميال وأنه لا مزية لهم على غيرهم فلا جرم لم يقبلوا دعوتهم في أول الأمر لعلمهم بأن متابعة الأنبياء والتدين بالأديان الإلهية تنافي ما كانوا عليه من الظلم على الضعفاء وغصب أموالهم وتضييع حقوقهم ولأجل هذه الأمور خالفوهم في

كُلَّ عَصْرٍِ وَ زَمَانٍ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ حَتَّى الْإِمَّاكَانَ حَتَّى إِضْطَرُّوا وَ هَذَا هُوَ السَّرُّ فِي عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ فِي أَوَّلِ الدَّعْوَةِ.

وَ أَمَّا الْفُقَرَاءُ وَ الضُّعَفَاءُ فَلَعَدَمَ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْمَالِ وَ الْجَاهُ أَمِنُوا بِهِمْ وَ لَذَلِكَ نَرَى أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ بَعَثَ فِي أَيِّ زَمَانٍ كَانَ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الرُّؤُوسَاءِ وَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَدٌ فَهَذَا نَبِيُّ الْإِسْلَامِ بَعَثَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ حَتَّى إِضْطَرُّوا وَ لَمْ يَجِدُوا بَدَأً مِنَ الْإِسْلَامِ لِحِفْظِ أَمْوَالِهِمْ وَ نَفُوسِهِمْ وَ الْعَجَبُ أَنََّّهُمْ كَانُوا يَعْبرُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَرَاذِلِ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الرِّذْلَ الرَّذِيَّ مِنْ لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ.

وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ أَيَّ أَنَّهُمْ قَالُوا النَّوْحَ وَ غَيْرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، أَيَّ لَسْتُمْ بِأَفْضَلِ مِنَّا، وَ الْإِمَامَ وَ النَّبِيَّ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْ مَأْمُومِهِ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ فِي دَعْوَاكُمْ.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ قَوْلُهُ: وَ مَا نَرَى لَكُمْ أَيَّ لَكَ يَا نُوحَ وَ أَمْثَالِكَ مِمَّنْ يَدْعِي النَّبُوَّةَ وَ بَعْبَارَةً أُخْرَى قَالُوا مَا نَرَى لَكُمْ أَيَّ لَكُمْ مِنْ يَدْعِي النَّبُوَّةَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ وَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا وَجْهَ لِمَتَابَعَتِنَا إِيَّاكُمْ وَ إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَانْتُمْ كَاذِبُونَ فِي إِدْعَاءِ النَّبُوَّةِ لِأَنَّ النَّبِيَّ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْ أُمَّتِهِ فَإِذَا انْتَفَتِ الْأَفْضَلِيَّةُ انْتَفَتِ النَّبُوَّةُ وَ إِذَا انْتَفَتِ النَّبُوَّةُ ثَبَتَ الْكَذِبُ وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَ أَنْتَ تَرَى أَنَّهُمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا كَانُوا كَاذِبِينَ وَ ذَلِكَ لِإِنْكَارِهِمْ أَفْضَلِيَّةَ نُوحَ عَلَيْهِمْ إِمَّا لِأَجْلِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَشَرًا مِثْلَهُمْ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ يَأْكُلُ وَ يَشْرَبُ وَ يَمْشِي وَ يَقُومُ وَ بِالْجَمَلَةِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ فِي صُورَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَرَكَاتِ.

وَ أَمَّا لِأَجْلِ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ مَلَائِكَ الْأَفْضَلِيَّةِ هُوَ الْمَالُ وَ الْعَشِيرَةُ وَ الرِّئَاسَةُ مِثْلًا وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَ فِيهَا شَيْءٌ أُخَرُ وَ هُوَ إِتِّصَافُ الْبَشَرِ بِالْمَمْلَكَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ الْعِلْمِ وَ السَّخَاوَةِ وَ الشَّجَاعَةِ وَ أَمْثَالِ ذَلِكَ وَ فِي رَأْسِهَا التَّقْوَى وَ لَكِنْ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ
فَعَمَيْتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

أي قال نوح في جوابهم يا قوم ليس الأمر كما ترعمون من أنه لا فضيلة لي
عليكم و أتى بشر مثلكم من جميع الجهات و الدليل على ذلك هو أتى على
بيته من ربي و أتاني الله رحمةً من عنده و لذلك جعلني نبياً.

غاية الأمر أنها أي البيته خفيت عليكم لجهلكم و قلته درايتكم أو لعنادكم و
نفاقكم و اذا كان الأمر على هذا المنوال، أنزلكموها، أي أنزلكم على قبول
البيته و الحال أنتم لها كارهون فالاستفهام للإنكار أي لا أقدر على إلزامكم أو
للتوبيخ و التقرع و في الآية مسائل:

الأولى: أن النبي لا بد له في إثبات دعواه من البيته الدالة على صدق
المدعى و الى هذا المعنى أشير بقوله: **إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي** ويدل
عليه:

قال الله تعالى: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ
الْمِيزَانَ^(١).**

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ^(٢).**

قال الله تعالى: **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ^(٣).**

قال الله تعالى: **فَدَجَاءَكُمْ بَيْنَتُكَ مِنْ رَبِّكَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ^(٤).**

قال الله تعالى: **أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ^(٥) الأولى** والآيات
كثيرة.

و اذا كان كذلك فلا وجه للإنكار إلا العناد و أنما أتاهاهم البينات ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حي عن بينة و هذا هو المقتضى العدل و قد ثبت في الشريعة أن البينة على المدعى و اليمين على من أنكر فكل من ادعى شيئاً فعليه بالبينة و هذه هي السيرة المستمرة العقلانية الى يوم القيامة.

المسألة الثانية: أن لله تعالى رحمتين، عامة و خاصة.

أما العامة فقد وسعت كل شيء.

و أما الخاصة منها فهي مخصوصة بمن يليق بها و في رأسها النبوة و الإمامة و اليه أشير في الآية بقوله: **وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ** فأَنَّ هذه الرحمة المشار اليها في الآية ليست إلا النبوة في هذا المقام أي أن الله تعالى قد خصني بها و هو من أدل الدلائل على فضيلتي و تقربي عنده.

المسألة الثالثة: أن البينة لا أثر لها للجاهل المعاند لأن شرط التأثير القبول

نعم هي تكفي لإتمام الحجة على الخصم فاذا أقام المدعى البينة على صدق مدعاه فقد تمت الحجة على الخصم و ليس على المدعي شيء بعد ذلك اذ ليس عليه إلزام الخصم على قبولها و الى هذا المعنى أشير بقوله: **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ هُونا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**.

و الحاصل أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم و إشتبهت فأما لو تركتم العناد و اللجاج و نظرتهم في الدليل لظهر المقصود و تبين لكم أن الله تعالى فضلنا عليكم فضلاً عظيماً.

وَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

أي قال نوح لقومه لا أسألكم على ما أدعوكم اليه مالا ليكون أجراً على رسالتي إن أجري، أي ليس أجري إلا على الله، الذي أرسلني اليكم و فيه إشارة الى أن الأنبياء كانوا مخلصين في دعوتهم و أنما بعثوا لإرشاد الخلق و المعنى أنكم و هؤلاء الذين إتبعونا سواء في أن أدعوكم الى الله و أنني لا أبتغي

بَابُ
الْحُجَّةِ
وَالْبَيِّنَاتِ
فِي
الْقُرْآنِ

جزء ١٢

بَابُ
الْحُجَّةِ
وَالْبَيِّنَاتِ
فِي
الْقُرْآنِ

عَمَّا أَلْقِيهِ إِلَيْكُمْ مِنْ شَرَائِعِ اللَّهِ مَا لَا فَلَ تَفَاوَتْ حَالَكُمْ وَ حَالَهُمْ فَأَنْ كَتَمْتُمْ ظَنَنْتُمْ أَنِّي أُرِيدُ مِنْ دَعْوَتِي إِيَّاكُمْ مَا لَا فَلَ أَمْرٍ لَيْسَ كَذَلِكَ فَأَنْ أَجْرَ الْمُرْسَلِ عَلَى الْمُرْسَلِ لَا عَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَ فِي الْحَقِيقَةِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا كَذَلِكَ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ:

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(١).

و قال صالح النَّبِيُّ لِقَوْمِهِ:

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا، وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢).

و قال لُوطُ النَّبِيُّ:

وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٣).

و قال شعيب:

وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٤).

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^(٥).

و قال أَيْضاً لَنَبِيِّهِ:

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَدِيهِمْ أَفْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا يَخْرَى لِلْعَالَمِينَ^(٦).

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْوَدَّ فِي أَنْفُسِي^(٧).

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ^(٨).

١- هود = ٥١ - الشعراء = ١٠٧ إلى ١٠٩

٢- الشعراء = ١٨٠

٣- الأنعام = ٩٠

٤- يس = ٢١

٥- هود = ٥١

٦- الشعراء = ١٦٤

٧- سبأ = ٤٧

٨- الشورى = ٢٣

فهذه الآيات كما ترى تنادي بأعلى صوتها أن الأنبياء لم يبعثوا إلا للإرشاد و هو المطلوب.

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ

فالطرد بفتح التاء المنع و قيل هو الإزعاج والإبعاد على طريق الإستخفاف و يقال أطرده السلطان اذا أخرجه من بلده.

قال صاحب الكشف معنى الآية أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم و ما أعرف غيره منهم أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من نبأ إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر و تفكير و ما علي أن أشق عن قلوبهم و أعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر ما تزعمون انتهى كلامه.

و تبعه على هذا التفسير غير واحد من مقلديه من مفسري العامة و بعض الخاصة.

و قال الطبرسي رحمه الله في معناه أي لست أطرده المؤمنين من عندي أبعدهم على وجه الإهانة و قيل أنهم أي الملاء من قومه سألوهم طردهم ليؤمنوا له، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء أنهم ملاقول ربهم و هذا يدل على أنهم سألوهم طردهم فأعلمهم أنه لا يطردهم لأنهم ملاقوا ربهم فيجازيهم من ظلمهم و طردهم بجزاءه من العذاب.

و قيل معناه أنهم ملاقوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل و كيف يجوز طردهم و لا يستحقون ذلك عن الجبائي و لكني أريكم قَوْمًا تَجْهَلُونَ أي تجهلون الحق و أهله و قيل معناه تجهلون أن الناس يتفاضلون بالدين لا بالدنيا و قيل تجهلون فيما تسألون من طرد المؤمنين انتهى كلامه رفع مقامه.

في التفسير

جزء ١٢

الجزء الثاني

أقول ما قاله الطبرسي رحمته لا بأس به ولكن الأظهر في معنى الكلام هو أن يقال أن هذا الكلام مرتبط بما مضى من قول الرؤوساء والأشراف حيث قالوا وما نراك إتبعك إلا الذين هم أردلنا بادي الرأي فلما أرادوا ظاهراً أو واقعاً أن يؤمنوا به سألوهم أي إبعادهم عن حوله وذلك لأنهم كانوا بزعم الأشراف أردل فقال نوح في جوابهم لست أطردهم من عندي فإن كنتم زعمتم أنهم آمنوا بي في بادي الرأي أي من غير تفكيرٍ وتدبرٍ فلا يكون إيمانهم أصيلاً واقعياً فأنهم ملاقوا ربهم لا محالة بعد الموت وهو يحكم بينهم وبينكم يوم القيامة فإنه أحكم الحاكمين ومع ذلك هو العالم بحقيقة الأمر ولكني أرايكم قوماً تجهلون والدليل على جهلهم أن سؤالهم كان على خلاف العقل.

أما أولاً: فلأنهم أي الرؤوساء نسبوه إلى الرذالة ولم يذكروا دليلاً على إثبات مدعاهم والعقل لا يتهم غيره بما ليس فيه.

ثانياً: لو كانوا أردل لم يؤمنوا به فإن الرذل بمعزلٍ عن الإيمان.

ثالثاً: أي ربط بين إيمان الملاء ولو صدقوا وبين طرد هؤلاء المؤمنين عقلاً فيتعلق إيمانهم على طردهم خلاف طور العقل فثبت أن هؤلاء السائلين كانوا من الجهال الذين لا علم لهم بما يقولون ومن كان كذلك فلا يعتنى.

و يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

قال نوح له أي لهؤلاء السائلين من ينصرني من الله أي من يمنعي منه إن طردتهم من عندي وبعبارة أخرى لا ناصر لي من عقاب الله إن طردتهم عن الخير الذي قد قبلوه هكذا قيل في معنى الكلام.

و يحتمل أن يكون المعنى لا ناصر لي في ترويح دين الله إن طردتهم فأنهم أعوانني وأنصاري في إعلاء كلمة التوحيد ودفع الأشرار وعلى التقديرين، كلمة، من، إستفهامية وفي قوله: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قيل أن التذكر هو طلب معنى قد كان حاضراً للنفس والتفكير طلب معرفة الشيء وأن لم يكن حاضراً فيها قاله الطبري.

وَأَنَا أَقُولُ الذِّكْرَ تَارَةً يَرَادُ بِهِ هَيْئَةٌ لِلنَّفْسِ بِهَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مَا يِقْتَنِيهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَهُوَ كَالْحِفْظِ إِلَّا أَنَّ الْحِفْظَ يُقَالُ بِإِعْتِبَارِ إِحْرَازِهِ وَالذِّكْرَ بِإِعْتِبَارِ إِسْتِحْضَارِهِ وَأُخْرَى يُقَالُ لِحُضُورِ الشَّيْءِ فِي الْقَلْبِ أَوْ الْقَوْلِ وَلِذَلِكَ قِيلَ الذِّكْرُ ذِكْرَانِ:

ذِكْرٌ بِالْقَلْبِ وَذِكْرٌ بِاللِّسَانِ وَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا ضَرْبَانِ:

ذِكْرٌ عَنْ نَسْيَانٍ وَذِكْرٌ لَا عَنْ نَسْيَانٍ بَلْ عَنْ إِدَامَةِ الْحِظِّ فَكُلُّ قَوْلٍ يُقَالُ لَهُ الذِّكْرُ فَمِنْ الذِّكْرِ بِاللِّسَانِ وَأَمَّا بِالْفِكْرِ فَهُوَ قُوَّةٌ مُطَرِّقَةٌ لِلْعِلْمِ إِلَى الْمَعْلُومِ وَالتَّفَكُّرِ جَوْلَانِ تِلْكَ الْقُوَّةُ بِحَسَبِ نَظَرِ الْعَقْلِ وَذَلِكَ لِلإِنْسَانِ دُونَ الْحَيَوَانِ وَلَا يُقَالُ هَذَا إِلَّا فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصَلَ لَهُ صُورَةٌ فِي الْقَلْبِ وَلِهَذَا وَرَدَ، تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ، إِذَا كَانَ اللَّهُ مُتَرَهًا أَنْ يُوصَفَ بِصُورَةٍ.

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ الْإِزْدِرَاءُ الْإِسْتِحْقَارُ نَفِي نُوْحٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ نَفْسِهِ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، فَأَعْطَيْكُمْ مِنْهَا وَأَسْتَطِيلُ عَلَيْكُمْ بِهَا.
ثَانِيًا: لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ إِذْ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا هُوَ.

ثَالِثُهَا: لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ رُوحَانِيٌّ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْ ذِكْرٍ وَأُنْثَى.

رَابِعُهَا: لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ أَيْ تَسْتَحْقِرُهُمْ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا أَيْ لَيْسَ إِحْتِقَارُكُمْ إِيَّاهُمْ يَنْقُصُ ثَوَابَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَوْ يَبْطُلُ أَجُورُهُمْ، اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْوَاقِفُ عَلَى الصَّمَاثِ وَالْعَالَمِ بِمَا فِي السَّرَائِرِ هَلْ هُمْ مُؤْمِنُونَ فِي بَاطِنِهِمْ أَمْ لَا.

وَذَلِكَ إِنِّي لَوْ فَعَلْتُ كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَأَنَّ التَّعَدِّيَّ وَالتَّجَاوُزَ عَنِ الْحَدِّ ظُلْمٌ بَلَاكَلَامٍ بَلْ أَقُولُ أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ قَدْ خَصَّنِي اللَّهُ بِالرَّسَالَةِ وَشَرَّفَنِي بِهَا وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

فِي الْقُرْآنِ
فِي سَبْعِينَ مَوْضِعًا

جزء ١٢

الْعَبْدُ الْمَذِينُ

وإعلم أن قوله: وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ إشارته إلى قوله:
قال الله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَعْلُومٍ^(١).

قال الله تعالى: وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَفْقَهُونَ^(٢).

قال الله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُمْصِطِرُونَ^(٣).

قال الله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ^(٤).

و الخزائن جمع خزينة وهي محل حفظ الشيء وأما إختصت به تعالى لأن
أصل النعم منه و المخلوق محتاج الى الخالق فكل مت هو تحت إختيار
المخلوق من المال مثلاً فهو من عطيات ربه لأن معطي الشيء لا يكون فاقداً له،
و قوله: لَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ إشارته الى قوله:

قال الله تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ^(٥).

قال الله تعالى: وَ لَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَزْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ^(٦).

قال الله تعالى: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ^(٧).

قال الله تعالى: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ
كُلُّهُ^(٨).

قال الله تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ^(٩).

و الآيات كثيرة، و الغيب ذهاب الشيء عن الإدراك.

و قوله: لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إشارته الى قوله:

٢- المنافقون = ٧

٤- ص = ٩

٦- الأعراف = ١٨٨

٨- هود = ١٢٣

١- الحجر = ٢١

٣- الطور = ٣٧

٥- الأنعام = ٥٩

٧- يونس = ٢٠

٩- النمل = ٦٥

قال الله تعالى: **وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ** (١).

قال الله تعالى: **لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ** (٢).

قال الله تعالى: **لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ** (٣).

قال الله تعالى: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ** (٤).

و هذا لا يدل على أفضلية الملك كما زعمه بعض المفسرين بل يدل على أن الأنبياء من جنس البشر فقوله: انتم بشرٌ مثلنا كلام عارٌّ عن التحصيل. وأما قوله: **لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ** الخ، فهو إشارة الى عدم جواز التحقير والإستخفاف بالغير اذ من المحتمل أن يكون رجلاً صالحاً مؤمناً مقرباً عند الله وهو أيضاً ظاهر.

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

الجدال بكسر الجيم المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أى أحكمت فتله يقال جدلت البناء أى أحكمته، فكأن المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه.

وقيل الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة فمعنى قولهم قد جادلتنا، أى قد خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت مجادلتنا فلسنا نؤمن لك فأتنا بما تعدنا، من العذاب، إن كنت من الصادقين، والمراد بالعذاب هو قوله: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** و قد سبق الكلام فيه.

في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجدال

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

أي قال نوح في جوابهم أنما يأتيكم به، أي بالعذاب الموعود، إن شاء، و أراد وما أنتم بمعجزين أي لستم بقادرين على منع العذاب إذا أراد الله أن يعذبكم في هذه الآية مسائل لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأولى: قوله **إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ** مع أنهم طلبوا العذاب منه أي من نوح حيث قالوا: **فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** فحقّ الجواب أن يقال أنا أتيكم به و لم يقل ذلك بل قال أنما يأتيكم به الله مشعراً بأنّ العذاب ليس تحت قدرة العبد و أنما هو بيد الله تعالى و السرّ فيه هو أنّ العبد لا قدرة له إلاّ ما أعطاه إياه و هو الذي على كلّ شيء قدير فالقدرة في عالم الوجود ترجع الى قدرة الله كما أنّ العلوم ترجع الى علمه و الوجود يرجع الى وجوده و بالجملة كلّ ما سواه مخلوق له محتاج اليه ليس له في حدّ ذاته إلاّ الفقر فهو مع قطع النظر عن خالقه لا يقدر على شيء أصلاً.

و في هذا الكلام الذي حكاه الله تعالى عنه نفكته أخرى و هي أنّ نوحاً و غيره من الأنبياء كانوا مبعوثين الى الخلق من قبله و كانت دعوتهم إياهم الى ربّهم و عليه فالثواب في صورة الطاعة و العقاب في صورة المعصية أيضاً من الله فقلوه: **إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ** إشارة الى أنّ النبي وظيفته الإبلاغ قال الله تعالى: **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**.

الثانية: أنّ العذاب منوط بمشيئته و إرادته و ليس وجوده و عدمه بإختيار النبي ألا ترى أنّ يونس النبي دعى على قومه و لم ينزل عليهم العذاب لأنّهم تابوا عمّا كانوا عليه قبل نزوله و الحاصل أنّ الله تعالى إن شاء يعذب و إن شاء يرحم و يعفو.

الثالثة: أنّ المخلوق لا يقدر على دفع العذاب عن نفسه لعجزه و ضعفه و بعبارة أخرى إذا أراد الله نزول العذاب فلا يقدر أحد على دفعه و إذا كان

كذلك فينبغي للعبد أن لا يعصى حتى الإمكان وأن عصى وخالف ربه رجوع و
تاب عما كان عليه قبل نزول العذاب كما فعل قوم يونس فأَنْ رَحِمَهُ تَعَالَى
سبقت غضبه و هو أرحم الراحمين.

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

قال نوح لقومه و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، و أنما قال ذلك
لأن شرط تأثير النصيحة هو القبول ثم العمل و شرط القبول القابلية
و الاستعداد و توضيحه أن الموعظة و النصيحة من النبي أو من أي شخص كان
بمنزلة العلة و القبول ممن ينصح بمنزلة المعلول و شرط تأثير العلة في
المعلول هو قابلية المعلول للتأثر و إلا يلزم تأثير العلة في كل شيء.

ألا ترى أن النار لا تحرق الحجر و تحرق الخشب و قد يعبر عن القابلية
بالمانع فيقال شرط تأثير العلة في المعلول إن لا يكون للمعلول مانع عن قبول
التأثر و كيف كان لا شك فيما ذكرناه من الشرط.

نعم قد يكون المانع أو عدم القابلية أو ما شئت فسمه في المعلول ذاتياً و
قد يكون عرضياً فالحجر لا يقبل الإحراق من النار ذاتاً و الخشب الذي دخل
الماء في جوفه لا يقبله عرضاً قبل جفافه اذا عرفت هذه القاعدة العقلية فنقول.

عدم تأثير الموعظة من الواعظ الناصح في حق غيره من قبيل الثاني و ذلك
لأن الإنسان بحسب ذاته و طبيعته يقبل الموعظة و إلا يلزم الجبر و أنما يمنعه
عن قبولها العوارض الطارئة على قلبه و أصلها و أساسها العصيان لأنه يوجب
قساوة القلب و القساوة هي المانعة عن قبول الموعظة و حيث أن إيجادها في
القلب تحت إختيار المكلف لأنه عصى بإختياره و إرادته فلا محالة هو
المسؤول في الدنيا و الآخرة و ذلك لأن يكون قادراً على إيجادها فالحق بآن
العبد مجبور أي لا يقدر على قبول الموعظة ليهتدي بها كما يقول به الجبري
باطل عاطل و كيف يكون قادراً على إيجادها و لا يكون قادراً على رفعه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نعم لو كان المانع في المقام ذاته أو ذاتياً له لا يقدر و ليس كذلك و أما قلنا أن المانع ليس ذاتياً له لأنه لو كان كذلك لما كان الكافر و العاصي قاراً على الإيمان و نحن نرى أن الأمر ليس كذلك إذ كثيراً من الكفار آمنوا بالله و حسن إيمانهم و فيه دليل على القدرة و حكم الأمثال واحد فكل كافر قادر على قبول الإيمان و هو المطلوب.

فقوله: **وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي** ليس معناه أن الله خلقكم هكذا بل معناه أنكم لا تقبلون نصحي و موعظتي لأنكم عبيد الدنيا و أسير الهوى. و من المعلوم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة و الإنغمار في الشهوات النفسانية و الغرائز الحيوانية توجب الغفلة عن كمال الإنسانية و المقامات العالية و من كان كذلك لا يقبل الموعظة و النصيحة قطعاً و إذا كان الأمر على هذا المنوال فترك الموعظة أولى و السكوت أحرى و الى هذا المعنى أشير بقوله: **إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ** و ذلك لأن من شرائط وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر إحتمال التأثير و القبول فإذا علم الأمر و الناهي بعدم التأثير فهما ساقطان عنه.

و أما قوله: **إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** فمعناه أن كان الله يريد عقوبتكم على بقاءكم على الكفر و إغواءكم الخلق و إضلالكم أيّاهم فسمي عقوبته أيّاهم على إغواءهم إغواءً.

و قيل معناه و يريد الله إهلاككم و عقوبتكم على ذلك.

و حكي عن طي أنها تقول أصبح فلان غاوياً أي مريضاً و حكي عن غيرهم سماعاً منهم أغويت فلاناً أهلكته يقال غوي الفصيل إذا فقد اللبن فمات بكسر الواو في الماضي و فتحها في المستقبل و منه قوله تعالى: **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** (١).

أي خاب من الثواب الذي كان يحصل له بتركه و مثله حكاية إبليس حيث:
قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي^(١) فَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ.

الأول: يحتمل أن يكون المعنى فيما خيبتني.

الثاني: فيما جازيتني على إغوائي الخلق عن الهدى و لا يجوز أن يكون المراد بذلك أن يجعلهم كفاراً على ما يذهب اليه المجبرة لأن الإغواء بمعنى الدّعاء الى الكفر أو فعل الكفر لا يجوز عليه تعالى لقبحه كقبح الأمر بالكفر انتهى ما قاله الشيخ رحمته الله في التبيان.

و قال صاحب تفسير الميزان و الإغواء كالإضلال و أن لم يجز نسبته اليه تعالى إذا كان إغواءً ابتدائياً لكنّه جائز إذا كان بعنوان المجازاة كأن يعصي الإنسان و يستوجب به الغواية فيمنعه الله أسباب التوفيق و يخلّيه و نفسه فيغوي و يضلّ عن سبيل الحقّ قال الله تعالى: **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ^(٢)** انتهى كلامه.

و أمّا المجبرة فحملوا الآية على مذهبهم و قالوا أنّها صريحة في المدعى.
 قال الرّازي في تفسيره لها ما هذا لفظه احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد و أنّه إذا أراد منه ذلك فأنّه يمتنع صدور الإيمان منه قالوا أنّ نوحاً عليه السلام قال: و لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم و التقدير لا ينفعكم نصحي أن كان الله يريد أن يغويكم و يضللكم و هذا صريح في مذهبنا انتهى.

أقول لا بدّ لنا من بيان معنى الإغواء أولاً ثمّ التّكلم في المراد منه.

قال في المفردات، الغي جهلٌ من اعتقادٍ فاسدٍ و ذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقداً اعتقاداً لا صالحاً و لا فاسداً، و قد يكون من اعتقاد شيءٍ فاسدٍ و هذا التّحو الثاني يقال له غي:

بَابُ الْإِغْوَاءِ وَ
الْإِغْوَاءُ وَ
الْإِغْوَاءُ وَ
الْإِغْوَاءُ وَ

جزء ١٢

بَابُ الْإِغْوَاءِ وَ
الْإِغْوَاءُ وَ
الْإِغْوَاءُ وَ
الْإِغْوَاءُ وَ

قال الله تعالى: مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى^(١).

قال الله تعالى: وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ^(٢).

قال الله تعالى: فَسَوْفَ يُلْقَوْنَ غَيًّا^(٣).

أي عذاباً فسمّاه الغي لما كان الغي هو سببه و ذلك كتسمية الشيء بما هو سببه و قيل معناه فسوف يلقون أثر الغي و ثمرته:

قال الله تعالى: وَبُرِزَتِ الْأَجْجِمُ لِلْغَاوِينَ^(٤).

قال الله تعالى: وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ^(٥).

قال الله تعالى: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى^(٦) أي جهل.

و قيل معناه نحو قول الشاعر:

ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

و قيل معنى غوى فسد عيشه من قولهم غوى الفصيل انتهى ما أردنا ذكره إذا عرفت معنى الغي و أنه يختلف بحسب موارد الإستعمال.

فنقول قوله تعالى: إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ معناه أن يعاقبكم على غيكم و ذلك لأن الغي سبب العذاب و يحتمل أن يكون المعنى أن كان الله يريد أن يحكم عليكم بغيكم و عليه فلا إشكال في المقام.

و قال بعض المحققين في رفع الإشكال أن الآية يدل ظاهراً على أن الله تعالى إن أراد إغواء العبد و إضلاله فهو لا ينتفع بنصح الرسول و هذا ممّا لا كلام فيه لأحد من العقلاء ضرورة أن الله تعالى لو أراد إغواء العبد فأنه لا ينفعه نصح الناصحين.

٢- الأعراف = ٢٠٢

٤- الشعراء = ٩١

٦- طه = ١٢١

١- النجم = ٢

٣- مريم = ٥٩

٥- الشعراء = ٢٢٤

و أما أَنَّهُ تعالى أراد ذلك فالآية لا تدل عليه وعلى المدعى الإثبات فقولهُ:
**وَلَا يَنْفَعُكُمُ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُغْوِيَكُمْ** ليس معناه أَنَّهُ تعالى أراد الإغواء ألا ترى ان عدم النفع معلق على
الشَّرْط وهو إرادة الإغواء و حيث أَنَّهُ لم يدل دليل من العقل أو النقل على
تحقق الشرط وهو إرادة الإغواء منه تعالى فينتفع النصح وهو المطلوب.

و بعبارة أخرى أصل النزاع في تحقق الإغواء منه تعالى أو عدم تحققه
فكيف يفرض الإغواء مفروغاً عنه و يبحث في جوازه و عدم جوازه في حق
الله و بعبارة ثالثة أصل الإغواء لم يثبت في المقام ثم المستدل إستدل على
إثبات مدعاه بما حاصله أَنَّهُ تعالى لو أراد إغواءهم لما بقى في النصح فائدة
ولو لم يكن فيه فائدة فكيف أمر نوحاً بأن ينصح الكفار و قد أجمع المسلمون
على أَنَّهُ كان مأموراً بدعوة الكفار و نصيحتهم و هو دليل على عدم تحقق
الإغواء منه تعالى وإلا لم يكن مأموراً بالنصح وهو المطلوب.

ثانياً: لو ثبت الحكم عليهم أَنَّ الله أغواهم لصار هذا عذراً لهم في عدم
إيمانهم به و عليه فلهم أن يقولوا لنوح إِنَّكَ سلمت أَنَّ الله أغوانا فلا يبقى في
نصحك و لا في جدنا و إجتهادنا فائدة و لا جواب لنوح حينئذٍ و هو ظاهر.
و قال بعضهم أَنَّ الكفار كانوا مجبرة و كانوا يقولون أَنَّ كفرهم بإرادة الله
فعند هذا قال نوح و لا ينفعكم نصحي أن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد
أن يغويكم كما ترعمون.

أَقُول هذه الوجوه لا بأس بها فَأَنَّ المدعى هو تنزلة الرب عن إغواء العبد
وهو ثابت بحمد الله، و أما قوله هو ربكم و اليه ترجعون، و هو المسألة الثالثة
فالمعنى فيه واضح إذ لا شك أَنَّ رجوع الكل اليه تعالى و المقصود من هذا
الكلام هاهنا هو إِنَّا معاشر الانبياء ليس علينا إلا البلاغ لقوله تعالى: **فَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.**

وَأَمَّا قَبُولُ الدَّعْوَةِ وَعَدَمُهُ فَإِنَّهُ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَتِنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنْ أَلَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(١) كَمَا أَنَّ حِسَابَكُمْ أَيْضاً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ رَجُوعِكُمْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَالْأَئِمَّةِ الْمِيَامِينَ.



أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيهِ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي
 وَآتَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ
 أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا
 تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلَكَ
 بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
 إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ
 عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا
 مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُهُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
 عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
 التَّنُّورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ
 أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا
 آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ
 اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُزْسِيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
 (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ
 نَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ
 مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِيَ
 إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْعِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
 الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَخَالَ بَيْنَهُمَا
 الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ
 ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَ
 قُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ

بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ
 رَبِّ إِنِّي أَبْنَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
 أَحْكَمُ الْخَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ
 مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا
 لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
 الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
 أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ
 تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ
 اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ
 مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا
 عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا
 إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ
 هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

◀ اللغة

أَفْتَرَيْتُهُ قَدْ مَرَّ مَعْنَى الْإِفْتِرَاءِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَقُلْنَا أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْفَرِيِّ وَالْإِفْتِرَاءِ
 اسْتَعْمَلَ فِي الْقُرْآنِ فِي الْكَذْبِ وَالشَّرْكِ وَالظُّلْمِ.

إِجْرَامِي يُقَالُ، أَجْرَمَ فُلَانٌ أَي صَارَ ذَا جَرَمٍ وَأَصْلُ الْجَرَمِ قَطْعُ الثَّمَرَةِ وَ
 اسْتَعِيرَ لِكُلِّ إِكْتِسَابٍ مَكْرُوهٍ.

فَلَا تَبْتَئِسْ أَي لَا تَغْتَمَّ وَلَا تَحْزَنْ يُقَالُ إِبْتِئَسَ إِبْتِئَاسًا فَهُوَ مَبْتِئِسٌ أَي مَغْمُومٌ.
 وَاصْنَعِ أَمْرًا مِنْ صَنَعَ يَصْنَعُ وَالصَّنْعُ جَعَلَ الشَّيْءِ مَوْجُودًا بَعْدَ أَنْ كَانَ
 مَعْدُومًا.

سَخِرُوا السُّخْرِيَةَ الْإِسْتِهْزَاءَ.

يُخْزِيهِ مِنْ أَخْزَى يُخْزِي وَخُزِي الدَّلّ والحقارة.

أَلْتَنَوَّرُ قِيلَ فِيهِ أَقْوَالُ وَ الْأَشْهَرُ هُوَ الَّذِي يَخْبِزُ فِيهِ، وَ قِيلَ أَنَّهُ عَيْنُ مَاءٍ مَعْرُوفَةٍ.

مَجْزِيهَا وَ مُرْسِيهَا الْمَجْرَى مَوْضِعُ الْإِجْرَاءِ وَ الْمَرْسَاءُ مَكَانُ تَوَقُّفِ السَّفِينَةِ.

سَاوَى أَي سَارَجَعَ إِلَى مَأْوَى مِنْ جَبَلٍ يُقَالُ يَأْوِي إِلَى مَنْزِلِهِ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ وَ مِنْهُ الْمَأْوَى.

أَبْلَعِي أَمْرٌ مِنَ الْبَلْعِ وَ هُوَ فِي اللَّغَةِ إِنْتِرَاعُ الشَّيْءِ مِنَ الْحَلْقِ إِلَى الْجَوْفِ. أَقْلَعِي أَمْرٌ مِنَ الْقَلْعِ وَ الْإِقْلَاعُ إِذْهَابُ الشَّيْءِ مِنْ أَصْلِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ يُقَالُ أَقْلَعَ عَنِ الْأَمْرِ إِذَا تَرَكَهُ رَأْسًا.

غِيَضُ الْمَاءِ غَاضَ الْمَاءُ يَغِيضُ غِيَضًا إِذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ وَ الْمَعْنَى إِذْهَبَ بِهِ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى بَاطِنِهَا.

وَ آسَتَوَتْ عَلَى الْجُودَى الْجُودَى بَضْمَ الْجَيْمِ جَبَلٌ مَعْرُوفٌ.

◀ الإعراب

لَنْ يُؤْمِنَ يَقْرَأُ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِأَوْحَى، وَ يَقْرَأُ بِكَسْرِهَا وَ التَّقْدِيرُ قِيلَ أَنَّهُ، وَ الْمَرْفُوعُ بِأَوْحَى إِلَّا مَنْ قَدْ أَمِنَ إِسْتِثْنَاءُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ فِي الْمَعْنَى وَ هُوَ فَاعِلٌ، لَنْ يُؤْمِنَ، بِأَعْيُنِنَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ أَيِ مُحْفُوظًا مِنْ كُلِّ ذَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يَقْرَأُ، كُلٌّ بِالْإِضَافَةِ وَ يَقْرَأُ بِالتَّنْوِينِ، فَعَلَى الْإِضَافَةِ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَفْعُولَ، إِحْمَلْ، اثْنَيْنِ تَقْدِيرُهُ إِحْمَلْ فِيهَا اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ، فَمِنْ عَلَى هَذَا حَالٍ لِأَنَّهَا صِفَةٌ لِلنَّكْرَةِ قَدِّمَتْ عَلَيْهَا.

الثَّانِي: أَنْ، مَنْ، زائدة و المفعول، كُلِّ، وإثنين، تأكيد و هو قول الأخفش و
 أَمَّا عَلَى التَّنْوِينِ، يَكُونُ مَفْعُولٌ، إِحْمَلْ، زَوْجَيْنِ، وإثنين تأكيد له، و مِنْ، عَلَى
 هَذَا تَتَعَلَّقُ، بِإِحْمَلِ، و يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَالًا و التَّقْدِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ صَنْفٍ وَ
 أَهْلَكَ مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَفْعُولِ وَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ إِسْتِثْنَاءٌ مَتَّصِلٌ، و مِنْ آمَنَ،
 مَفْعُولٌ إِحْمَلْ أَيْضًا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا مَجْرَاهَا مُبْتَدَأٌ، و بِسْمِ اللَّهِ خَبْرُهُ وَالْجُمْلَةُ
 حَالٌ مَقْدَرَةٌ وَ صَاحِبُهَا الْوَاقِعُ، إِرْكَبُوا وَ مُرْسِيهَا مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ وَ قِيلَ هُمَا
 ظَرْفَانِ مَكَانٍ وَ يَقْرَأُ بِفَتْحِ الْمِيمِ فِيهِمَا وَ بَضَمَهَا كَذَلِكَ وَ هُوَ صِفَةٌ لِاسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَ
 جَلَّ وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي بِسْمِ اللَّهِ أَي جَرِيَانَهَا، بِسْمِ اللَّهِ وَ
 هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَعْرِزٍ بِكسر الزَّاي مَوْضِعٌ وَلَيْسَ بِمَصْدَرٍ وَ بَفَتْحِهَا مَصْدَرٌ يَا
 بُيَّيَّ يَقْرَأُ بِكسر الياء وَ أَصْلُهُ، بَنِي، بِيَاءِ التَّصْغِيرِ وَ، يَاءُ هِيَ لَامُ الْكَلِمَةِ وَ أَصْلُهَا
 وَاقٍ عِنْدَ قَوْمٍ وَ يَاءُ عِنْدَ آخَرِينَ، وَ الْيَاءُ الثَّلَاثَةُ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ وَ لَكِنَّهَا حُذِفَتْ لِدَلَالَةِ
 الْكُسْرَةِ عَلَيْهَا فِرَارًا مِنْ تَوَالِي الْيَاءَاتِ وَ لِأَنَّ النَّدَاءَ مَوْضِعٌ تَخْفِيفٍ، وَ يَقْرَأُ بِالْفَتْحِ
 وَ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُدَالُ الْكُسْرَةُ فَتُحْتَفَ أَنْقَلِبَتْ يَاءُ الْإِضَافَةِ أَلْفًا ثُمَّ حُذِفَتْ الْأَلْفُ
 كَمَا حُذِفَتْ الْيَاءُ مَعَ الْكُسْرَةِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْأَلْفَ حُذِفَتْ مِنَ اللَّفْظِ لِإِتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ لِأَعِصَمَ الْيَوْمَ قِيلَ فِيهِ
 ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ إِسْمٌ فَاعِلٌ عَلَى بَابِهِ.

الثَّانِي: أَنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ مِثْلُ مَاءٍ دَافَقَ أَي مَدْفُوقٍ فَعَلَى هَذَا
 يَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مَتَّصِلًا أَي إِلَّا مِنْ رَحِمِهِ اللَّهُ تَعَالَى.

الثَّلَاثُ: أَنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى ذَا عَصِمَةٍ عَلَى النَّسَبِ مِثْلُ حَائِضٍ وَ طَالِقٍ وَ
 الْإِسْتِثْنَاءُ عَلَى هَذَا مَتَّصِلٌ أَيْضًا.

و أما خبر لا، فلا يكون اليوم لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة بل الخبر، من أمر الله، و اليوم معمول، من أمر، و لا يجوز أن يكون اليوم، معمول، عاصم، إذ لو كان كذلك لَتَوْنٌ عَلَى الْجُودِيِّ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ و قرئ بالتخفيف لإستقبال اليائين وَ غِبْضُ الْمَاءِ هَذَا الْفِعْلُ يَسْتَعْمَلُ لَازِماً وَ مُتَعَدِّياً فَمِنْ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ، وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ، وَ مِنَ الْمُتَعَدِّيِّ، وَ غِيضُ الْمَاءِ بُعْداً مُصْدَرٌ أَيْ قِيلَ بُعْداً إِنَّهُ عَمَلٌ فِي الْهَاءِ ثَلَاثَةٌ أَوْجَه:

أحدها: هي ضمير الإبن أي أنه ذو عمل.

الثاني: أنها ضمير النداء و السؤال في إبنه أي إن سؤالك فيه عمل غير صالح.

الثالث: أنها ضمير الركوب و قد دلّ عليه، إركب معنا، و من قرأ أنه عمل، على أنه فعل ماضي فالهاء ضمير الإبن لا غير فَلَا تَسْتَلْزِنِ يقرأ بإثبات الياء على الأصل و بحذفها تخفيفاً و الكسرة تدل عليها و يقرأ بفتح اللام و تشديد النون على أنها نون التوكيد فمنهم من يكسرها و منهم من يفتحها و المعنى واضح قِيلَ يَا نُوحُ ياء و نوح في موضع رفع لوقوعها موقع الفاعل بِسَلَامٍ وَ بَرَكَاتٍ حالان من ضمير الفاعل وَأُمِّمْ معطوف على الضمير في، إهبط أنت و أمم سَمِعْتَهُمْ نَعْتَ لِأُمِّمْ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا حال من ضمير المؤنث في نوحها أو من الكاف في، اليك.

بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

التفسير

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرِيهِ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ

جزء ١٢

الجدل الثالث

ذهب المفسرون إلى أن هذه الآية معترضة في الآيات النازلة في قصة نوح و أنها خطاب للنبي ﷺ و فيها إخبار عن قريش فأنهم قالوا أن النبي أفتري على الله في قوله أنه أي القرآن كلام الله فقال تعالى لنبيه ﷺ قل لهم إن

إفتريته فعلى إجرامي أي على عقاب جرمي وإن كانت الأخرى فعليكم عقاب تكذبي و ستعلمون صدق قلبي وقوله وأنا برئ مما تجرمون معناه ليس على من إجرامكم ضرر وإنما ضرر ذلك عليكم فأعلموا بحسب ما يقتضيه العقل من التفكير في هذا المعنى قالوا والفرق بين الافتراء والكذب أن قول الكذب قد يكون على وجه تقليد من الإنسان لغيره وأما افتراء فهو افتعاله من قبل نفسه ومعنى أجرم أذنب.

و قال بعض المفسرين كان افتراءهم على رسول أنهم قالوا ما أخبرتنا عن نوح وقومه هو من عند نفسك لا من عند الله وأما إفتريته على الله تعالى. ومحصل الكلام أنهم إتفقوا على أن المخاطب بهذه الآية هو رسول المراد بالافتراء إما القرآن وإما قصة نوح.

و لقائل أن يقول ما الدليل على أن الآية معترضة والخطاب فيها لرسول الله ﷺ و سياق الآية يقتضي أن يكون المخاطب بها أيضاً نوح ولعلمهم ذهبوا اليه من أجل كلمة الافتراء، حيث سبقت هذه الكلمة في قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرِيهِ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ^(١) لاشك أن المخاطب فيها رسول الله ﷺ والقائلين به هم قريش وأما بالنسبة إلى نوح فليس من هذه الكلمة عين ولا أثر في الآيات التي مر ذكرها ولذلك قالوا ما قالوا ولم يعلموا أن كلمة الافتراء بمعنى الكذب والفرق بينهما بالإعتبار و قوم نوح وإن لم يستعملوا هذه الكلمة ولم ينسبوا نوحاً إلى الافتراء إلا أنهم نسبوه إلى الكذب فيما إدعاه حيث قالوا: وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ^(٢) ومن المعلوم أن معنى بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ أي مفترين على الله في إدعاء الرسالة و عليه فقوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرِيهِ أَمْ يَقُولُونَ أَنْ نوحاً إفتري على الله، قل، يا نوح لهم إن إفتريته فعلى إجرامي الخ.

و لعمرى هذا واضح لا خفاء فيه و أن كان سبب إختصاصهم هذه الآية برسول الله شيئاً آخر لا نعلمه غير ما أحتملناه فالله أعلم بالصواب ثم قوله أن فعللي إجرامي و أنا بريء مما تجرمون، إشارة الى أن كل نفس بما كسبت رهينة و لا ترز وازرة و زر أخرى فأن إفترت على الله بزعمكم فعللي جرمي و أنتم تنكرون نبوتي فعليكم عقاب إنكاركم و الحساب على الله وفي قوله: بَرِيءٌ إشارة الى عظم جرمهم و شدة عقابه فأن إنكار التوحيد و النبوة من أعظم الجرائم و على ما أحتملناه فالضمير في قوله: يَقُولُونَ. عائد الى قوم نوح لا الى قوم قريش و أما على مذاق المشهور فالأمر بالعكس.

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أوحى الى نوح أي أوحى الله اليه وقال له أنه لن يؤمن، كلمة، لن، لنفي الأبد و المعنى لا يؤمن من قومك أبداً إلا من قد آمن بك من قبل أي أن المؤمنين ينحصرون بمن آمن من قبل فلا تبتئس أي فلا تغتم و لا تحزن بما كانوا يفعلون من المعاصي و الإنكار و الإستهزاء و غيرها و لما أوحى الله تعالى الى نوح ما أوحى من عدم إيمان قومه به في المستقبل أنه قد حان وقت الإنتقام و العذاب قال له:

وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ

أشار الله تعالى في هذه الآية الى أنه مهلكهم بالطوفان فأمره بأن يتخذ الفلك و يصنعها و الفلك بضم الفاء السفينة و يستعمل ذلك للواحد و الجمع و قوله: بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا قيل معناه بحيث نراها و كأنها ترى بأعين على طريق المبالغة فالمعنى بحفظنا إياك حفظ من يراك و يملك دفع السوء عنك و قيل بأعين أوليائنا من الملائكة الذين يعلمونك كيفية عملها، معناه، بعلمنا و معنى

وحينا أي على ما أوحينا إليك من صفتها و حالها ثم قال لنوح: وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ نهاه الله تعالى أن يُراجع اليه و يخاطبه و يستلّه في أمرهم بأن يمهّلهم أو يؤخّر إهلاكهم لأنّه تعالى أراد إهلاكهم و حكم عليهم بالغرق فلا يكون الأمر بخلاف ما أخبر به والحاصل أنّهم محكومون عليهم بالغرق و قد وجب ذلك و قضى به القضاء و جفّ القلم فلا سبيل الى كفّه و من المعلوم أنّه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون لأنّه على كلّ شيء قدير.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ

لما أمر الله تعالى نوحاً أن يصنع الفلّك شرع نوح في صنعه و كلّما مرّ عليه، أي على نوح، ملأ من قومه أي أشرف قومه و رؤوسائهم سخروا منه، أي هزءوا من فعله و السّخرية الإستهزاء، قال، أي قال نوح لهؤلاء القوم إن تسخروا و تستهزؤا منا في عمل السّفينة فإنّا، نسخر منكم، و قيل معناه فذمّ على سخريتكم و سمى الذّم سخرية كما قال تعالى: وَ جَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا^(١)

فأطلق عليه السّخرية على وجه الإزدواج و قال بعضهم معناه، إن تتجهلونا في علمنا هذا فإنّا نستجهلكم كما تستجهلون فسوف تعلّمون مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ أي يذلّه و يحلّ عليه هذاب مقيم، أي دائم لا يزول، قال بعض المفسّرين إنّما سخروا منه لكونهم رأوه يبني السّفينة و لم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا يا نوح ما تصنع قال أبني بيتاً يمشي على الماء فعجبوا من قوله و سخروا منه و قيل لكونه يبني السّفينة في قرية لا قرب لها من البحر فكانوا يتضاحكون و يقولون يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، في كتاب إكمال الدّين و تمام النّعمة للصّدوق رحمته الله بأسناده الى سدير الصّيرفي عن أبي عبد الله و الحديث طويل و فيه يقول عليه السلام و أمّا إبطاء نوح فأنه لما أُنزل العقوبة على

قومه من السماء بعث الله تبارك و تعالى جبرئيل الروح الأمين معه سبع نوايات فقال يا نبي الله أن الله يقول لك أن هؤلاء خلافتي و عبادي لست أبيدهم بصاعقة من صواعقي إلا بعد تأكيد الدعوة و إلزام الحجة فعاود إجتهادك في الدعوة لقومك فإني مشيبك عليه و أغرس هذا النوى فأنت لك في نباتها و بلوغها و إدراكها إذا أثمرت الفرج والخلاص فبشر بذلك من أتبعك من المؤمنين فلما نبتت الأشجار و تأزرت و تسوقت و أغصنت و زهى الثمر على ما كان بعد زمانٍ طويل إستنجز من الله العدة فأمره الله تبارك و تعالى أن يغرس نوى تلك الأشجار و يعاود الصبر و الإجتهد و يؤكد الحجة على قومه فأمر بذلك الطوائف التي آمنت به فأرتدط منهم ثلاث مائة رجل و قالوا لو كان ما يدعيه نوح حقاً لما وقع في وعد ربه خلف ثم أن الله تبارك و تعالى لم يل يأمره عند كل مرة بأن يغرسها مرة بعد أخرى الى أن غرسها سبع مرات فما زالت تلك الطوائف من المؤمنين يرتد منهم طائفة بعد طائفة الى أن عاد الى نيف و سبعين رجلاً فأوحى الله عند ذلك اليه و قال يا نوح الآن أسفر الصبح عن الليل يعينك عن صرح الحق محضه وصفا الكدر بإرتداد كل من كانت طينته خبيثة فلو إنني أهلكت الكفار و أبقيت من أرتد من الطوائف التي كانت آمنت بك لما كنت صدقت و عدي السابق للمؤمنين الذين أخلصوا التوحيد من قومك و اعتصموا بحبل نبوتك فإني إستخلفتهم في الأرض و أمكن لهم دينهم و أبدلهم خوفهم بالأمن لكي تخلص العبادة لي بذهاب الشرك الحديث.

و في تفسير علي بن إبراهيم فأمره الله عز و جل أن يغرس النخل فأقبل يغرس النخل فكان قومهم يمزون به و يسخرون منه و يستهزئون به و يقولون شيخ قد أتى له تسع مائة سنة يغرس النخل و كانوا يرمونه بالحجارة فلما أتى لذلك خمسون سنة و بلغ النخل و أستحكم أمر بقطعه فسخروا منه و قالوا بلغ النخل مبلغه و هو قوله عز و جل و كلما مر عليه ملأ من قومهم سخروا منه الآية

في القرآن
في تفسير
الآيات

جزء ١٢

الجلد الثاني

فأمره الله أن يتخذ السفينة وأمر جبرئيل أن ينزل عليه ويعلمه كيف يتخذها فقدر طولها في الأرض ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ثمان مائة ذراعاً فقال يا رب من يعينني على إتخاذها فأوحى الله إليه ناد في قومك من أعاني عليها وينجو منها شيئاً صار ما ينجره ذهباً وفضة فنادى نوح فيهم بذلك فأعانوه عليه يسخرون منه ويقولون يتخذ سفينة في البر انتهى.

و في روضة الكافي بأسناده عن المفضل قال قلت لأبي عبد الله جعلت فداك في كم، عمل نوح سفينته حتى فرغ منها قال عليه السلام في دورين.

قلت و كم الدور قال عليه السلام ثمانين سنة قلت أن العامة يقولون عملها في خمس مائة عام، فقال كلاً كيف كان، والله يقول و حيناً انتهى. أقول اقل بعض المحدثين، لعل المراد بقوله: وَ وَحِينًا أَنْ ما أوحاه الله إليه لا يناسب هذا التأخير انتهى.

والذي يختلج بالبال في معنى قوله: وَ وَحِينًا هو أن نوح عمل السفينة على أساس الوحي لا من عند نفسه وإذا كان كذلك فمعنى قوله: وَ وَحِينًا لا يعلمه إلا أهل بيت الوحي فأهل البيت أدري بما في البيت فمن أين يقول العامة أنه عملها في خمس مائة سنة والله أعلم.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ

اي وكان نوح يصنع الفلك والملا من قومه سخروا منه الى أن جاء وقت الوعد الموعود وفار التنور، والمقصود فوران الماء من التنور وهو تنور الخبز وقيل هو تنور آدم يقال فار الماء إذا أنبع وأختلفوا في مالك التنور فقال بعضهم أنه كان في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد الكوفة وقيل أنه كان لنوح فجاءت امرأة نوح اليه وهو يعمل السفينة فقالت له أن التنور قد خرج منه

ماء فقام اليه مسرعاً حتّى جعل الطّبّق عليه و ختمه بختامه فلما فرغ نوح من السّفينة جاء الى خاتمه ففّضه و كشف الطّبّق فغار الماء و يظهر من الأخبار أنّ المسجد الّذي كان فيه التّنور هو مسجد الكوفة.

فعن عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول نعم المسجد مسجد الكوفة صلّى فيه ألف نبيّ و ألف وصيّ و منه فار التّنور و فيه نجرت السّفينة.

و روي في مجمع البيان بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال مسجد كوفان روضته من رياض الجنّة الصّلاة فيه سبعين صلاة صلّى فيه ألف نبيّ و سبعون نبيّاً فيه فار التّنور و نجرت السّفينة و هو سره بابل و مجمع الأنبياء إنتهى.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية إختلف في التّنور على سبعة أقوال:
الأوّل: أنّه وجه الأرض و العرب تسمّى وجه الأرض تنوراً قاله ابن عباس و عكرمة و الزّهري و ذلك أنّه قيل له إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت و من معك.

الثاني: أنّه تنور الخبز الّذي يخبز فيه و كان تنوراً من حجارة و كان لحواء حتّى صار لموح، فقيل له إذا رأيت الماء يفرور من التّنور فأركب أنت و أصحابك و أنبع الله الماء من التّنور فعلمت به إمراة فقالت يا نوح فار الماء من التّنور فقال جاء وعد ربّي حقّاً هذا قول الحسن.

الثالث: هو موضع إجتماع الماء في السّفينة.

الرابع: أنّه طلوع الفجر و نور الصّبح من قولهم نور الفجر تنويراً نسب هذا القول الى عليّ بن أبي طالب.

الخامس: أنّه مسجد الكوفة قاله عليّ بن أبي طالب أيضاً.

و قال مجاهد كان ناحية التّنور بالكوفة و قال إتخذ نوح السّفينة في جوف

مسجد الكوفة و كان التنور على يمين الدّاخل ممّا يلي كندة، و كان فوران الماء منه علماً لنوح و دليلاً على هلاك قومه.

السادس: أنّه أعالي الأرض و المواضع المرتفعة منها قاله قتادة.

السابع: أنّه العين التي بالجزيرة (عين الوردة) رواه عكرمة.

و قال مقاتل كان ذلك تنور آدم و أنّما كان بالشّام بموضع يقال له (عين وردة).

و قال ابن عبّاس فار تنور آدم بالهند.

قال النّحاس و هذه الأقوال ليست بمتناقضة لأنّ الله عزّ وجلّ أخبرنا أنّ الماء جاء من السّماء و الأرض فهذه الأقوال تجتمع في أنّ ذلك كان علامة.

ثمّ قال القرطبي، و الفوران الغليان، و التنور إسم أعجمي عربته العرب على بناء، فعّل، لأنّ أصل بناء، تنر، وليس في كلام العرب نون قبل راء و قيل معنى، فار التنور، التمثيل لحضور العذاب كقولهم، حمي الوطيس، إذا اشتدّت الحرب و الوطيس التنور و يقال فارت قدر القوم إذا اشتدّ حربهم قال الشّاعر:

تركتم قدركم لا شيء فيها و قدر القوم حاميةً تفور

انتهى كلام القرطبي.

أقول و قد نقل الطّبري قبله هذه الأقوال و جمهور المفسّرين من العمّامة أخذوا منه ثمّ قال الطّبري بعد نقله الأقوال المذكورة و أولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله التنور قول من قال هو التنور الذي يخبز فيه لأنّ ذلك هو المعروف من كلام العرب و كلام الله لا يوجه إلّا على الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب إلّا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و لا يخفى على المتأمّل المنصف أنّ ما ورد في تفسيرات آيات القرآن و كلماتها من طريق أهل البيت الذين هم أدري بما في البيت أولى بالإتباع ممّا ورد عن غيرهم و كيف كان التنور أصل القضية ممّا لا كلام فيه لدلالة القرآن

عليه قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ قرأ حفص، من كل زوجين اثنين بالتثنية في اللام، هنا وفي المؤمنون.

وقال أبو الحسن يقال للثنتين هما زوجان قال الله تعالى: وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ^(١) يقال للمرأة زوج وللرجل زوجها: قال الله تعالى: وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(٢).

قال الله تعالى: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ^(٣).

وقال بعضهم زوجة وقال أبو الحسن يقال للثنتين هما زوج وقال الفارسي يدل على أن الزوج يقع للواحد:

قال الله تعالى: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمْأَ اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ يَبْتُؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ^(٤).

وقال الكسائي أكثر كلام العرب بالهاء ثم نقول من قرأ بالأضافة أي إضافة كل الى زوجين كما عليه المصاحف، جعل قوله إثنين مفعول الحمل فالمعنى إحمل من الأزواج إذا كانت إثنين إثنين زوجين فالزوجان من قوله: مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ يريد بهما الشياخ ولا يراد به الناقص من الاثنين، ومن تون اللام في كل، فالمعنى إحمل من كل شيء أو من كل زوج زوجين إثنين و عليه فيكون إنتصاب إثنين على أنه صفة لزوجين وذكر تأكيداً لما قال: إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ^(٥) فقوله تعالى: قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ إخبار منه تعالى بأنه أمر نوحاً أن يحمل معه في سفينته من كل جنس زوجين والزواج واحد لا شكل له إلا أنه قد كثر إطلاقه على الرجل الذي له امرأة ولذلك قالوا في قوله تعالى: وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ

فِيهِ الثَّوَابُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الجلد الثالث

١- النساء = ٢

٢- الأنعام = ١٤٣

١- الذاريات = ٤٩

٢- الأحزاب = ٣٧

٣- النحل = ٥١

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ فَالسَّمَاءِ زَوْجٍ وَالْأَرْضِ زَوْجٍ وَالشَّتَاءِ زَوْجٍ وَالصَّيْفِ زَوْجٍ وَاللَّيْلِ زَوْجٍ وَالنَّهَارِ زَوْجٍ حَتَّى يَصِيرَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ الْفَرْدِ الَّذِي لَا يَشْبَهُهُ شَيْءٌ.
وقال بعضهم في قوله، من كل زوجين اثنين، يعني ذكراً وأنثى لبقاء أصل النسل بعد الطوفان و يقال لكل اثنين هما زوجان فأَنَّ العرب تسمي كل واحدٍ منهما زوجاً، يقال.

له، زوجاً نعل، إذا كان له نعلان وكذلك يقال له زوجا حمام، وعليه زوجاً قيود و يقال للمرأة هي زوج الرجل وللرجل هو زوجها و قد يقال للأثنين هما زوج و قد يكون الزوجان بمعنى الضريين والصنفين وكل ضرب يدعى زوجاً.
قال الله تعالى: وَ أَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(١).

قال الله تعالى: أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ^(٢).

قال الله تعالى: وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(٣).

أقول والذي يحصل للمتتبع من جميع الأقوال هو أَنَّ الزوجين قد يقال للذكر والأنثى و قد يقال لكل اثنين قال الشاعر:

و كل زوج من الديباج يلبسه أبو قدامة محبباً بذاك معاً

وعليه فقوله تعالى: أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ يحتمل أن يكون المراد بهما الذكر والأنثى و يحتمل أن يكون المراد إحمل من كل جنس اثنين وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمِنَ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَأَهْلَكَ معطوف على قوله: قُلْنَا أَحْمِلْ أي قلنا فيها أي في السفينة من كل زوجين اثنين وأهلك، إلا من سبق عليه القول، بالإهلاك قيل هو إينه وإمراته و قوله: وَمَنْ أَمِنَ عَلَى أَهْلِكَ أي أحمل من كل زوجين اثنين وأحمل معهما أهلك و من أمن بك ثم أخبر الله تعالى أَنَّهُ مَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، قيل القليل الذين نجو معه كانوا ثمانية و قيل سبعة و قيل كانوا ثمانين و كان فيهم ثلاثة بنيه

في القرآن: في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

يافث و سام، و حام، و ثلاث كنانن له قالوا و يافث جد التّرك و الرّوم و الصّقالية و أصناف البيضان، و حام جدّ السّودان و هم الحبش و النّوبة و الزّنج و غيرهم و سام أبو فارس و أصناف العجم.

قال القرطبي و لمّا خرجوا من السّفينه بنوا قرية و هي اليوم تدعى قرية الثّمانين بناحية الموصل و ورد في الخبر أنّه كان في السّفينه ثمانية أنفس، نوح و زوجته غير التّي عوقبت و بنوه الثّلاثة و زوجاتهم فأصاب حام إمراة في السّفينه فدعا نوح أن يغيّر الله نطفته فجاء بالسّودان قال عطاء و دعا نوح على حام ألاّ يعد و شعر أولاده أذانه و أنّهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام و يافث.

و قال الأعمش كانوا سبعة، نوح و ثلاثة كنانن و ثلاثة بنين و أسقط إمراة نوح.

و قال ابن إسحاق كانوا عشرة سوى نساءهم نوح و بنوه، سام و يافث و حام و ستّة أناس ممّن كان آمن به و أزواجهم جميعاً و قليل، رفع بأمن و لا يجوز نصبه على الإستثناء لأنّ الكلام قبله لم يتمّ.

قال بعض المفسّرين من العامّة و لا يمكن التّخصيص على عدد هذا النّفر القليل الذي أبهم الله عددهم إلّا بّص عن رسول الله انتهى.

أقول في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن عمران عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: **وَمَا أَمْنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** قال عليه السلام: كانوا ثمانية انتهى.

و في مجمع البيان بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام و قال عليه السلام: آمن مع نوح من قومه ثمانية نفر انتهى.

و عندنا أنّ هذه النّصوص كنّص رسول الله ﷺ بل هي عينه.

أقول في قوله تعالى: **وَمَا أَمْنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** نكتة خفيت على جميع مفسّري العامّة الذين تمسّكوا في صحّة خلافة أبي بكر بعد رسول بالكثره مثل

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

الإجماع وغيره ويستدلون على مشروعية خلافته بأن أكثر المسلمين بل قاطبتهم بايعوا أبا بكر ولا يمكن لنا تخطئتهم مع كثرتهم لأن ذلك يوجب سوء الظن بالمسلمين ولا سيما المهاجر والأنصار فيقال لهم ما تقولون في هذه الآية وأمثالها حيث حكم الله تعالى بأن المؤمنين بنوح النبي بعد طول الزمن كانوا قليلين فمدح الله تعالى القلة ولازم ذلك تخطئته الكثرة ولم يكن مختصاً بنوح وقومه بل جميع الأنبياء كانوا كذلك والعقل السليم أيضاً يحكم بمدح القلة وذم الكثرة وذلك لأن العقلاء الذين لا يتبعون الهوى في كل عصر وزمان يكونون أقل من الجهال الذين لا يعلمون الحر من البر ولا يميزون الغث من السمين ولا الحق من الباطل دينهم دنائيرهم وإيمانهم متابعة أهواءهم وإذا كان كذلك فهم محكومون بفساد الرأي والعقيدة والتدبير في محكمة العقل وعلى هذا حكم الله تعالى في كثير من الآيات بذمهم وقبح سريرتهم وعقلهم و فعلهم فقال: **أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** وهكذا و لتفصيل الكلام فيه مقام آخر.

وَقَالَ أَرَكُبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.
قرأ حمزة والكسائي مجراها بفتح الميم والباقون، بضمها وأما قوله: **مُرْسِيهَا** فلا خلاف في ضم الميم فمن ضم الميم في، مجراها، قابل بينها وبين مرسيها لما بينها من المشاكلة ومن فتح فلاه قال بعده وهي تجري، ثم أن الضمير في قوله: **وَقَالَ** عائد على نوح أي و قال نوح حين أمر بالجل في السفينة لمن آمن معه ومن أمر بحمله، أركبوا فيها.

وقيل الضمير عائد على الله والتقدير و قال الله لنوح ومن معه أركبوا فيها وهذا ليس بصحيح وذلك لقوله بعد ذلك **أَنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**، ولو كان المراد كما ذكره القائل لقال تعالى **أَنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**، وقيل غلب من يعقل في قوله: **أَرَكُبُوا** وأن كانوا قليلاً بالنسبة لما لا يعقل ممن حمل فيها.

و قال بعضهم و الظاهر أنه خطاب لمن يعقل خاصة لأنه لا يليق بما لا يعقل، و عدئ أركبوا، بفي، لتضمينه معنى صيروا فيها، أو أدخلوا فيها و قيل التقدير أركبوا الماء فيها و قيل في زائدة للتوكيد أي أركبوها، والباء في بسم الله، في موضع الحال أو متبركين بسم الله و مجراها و مرساها منصوبان أما على أنهما ظرفان زمان أو مكان لأنهما يجيئان لذلك و يجوز أن يكون بسم الله حالاً من ضمير فيها و مجراها و مرساها مصدران مرفوعان على الفاعلية أي أركبوا فيها متلبساً بإسم الله إجرأوها و ارسأها أي ببركة إسم الله أو يكون مجراها أو مرساها، مرفوعين على الابتداء و بسم الله الخبر و الجملة حال من الضمير في، فيها، و على هذه التوجيهات الثلاثة فالكلام جملة واحدة و الحال مقدرة.

قال الضحاك اذا أراد جري السفينة قال بسم الله مجريها و اذا أراد وقوفها قال بسم الله مرسيا فتقف.

و عن تفسير علي بن إبراهيم عن أبي عبد الله في قوله تعالى: **أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسِيهَا** قال مجريها أي مسيرها أي موقفها و قوله: **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** إخبار منه تعالى حكاية عما قال نوح لقومه **أَنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**، أي سائر عليهم ذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم ثم قال تعالى.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْرِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ

و هي، أي السفينة تجري بهم في موج و المعنى تجري و هم فيها في موج كالجبال أي في موج الطوفان شبه كل موجة منه بجبل في تراكمها و إرتفاعها. روي أن السماء أمطرت جميعها حتى لم يكن في الهواء جانب إلا أمطر و تفجرت الأرض كلها بالنبع و هذا معنى إلتقاء الماء و روي أن الماء على الجبال و أعالي الأرض أربعين ذراعاً و قيل خمسة عشر و قيل غير ذلك.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ قِيلَ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا وَإِسْمُهُ كِنْعَانٌ وَقِيلَ، يَامُ، وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ.

أَيُّ كَانَ ابْنُهُ فِي مَعْزِلٍ، مِنْ دِينِهِ أَيْ مِنْ دِينِ أَبِيهِ يَا بَنِي أَرْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالُوا أَنْ نُوْحًا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ابْنَهُ كَانَ كَافِرًا بَلْ ظَنَّ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ قَالَ لَهُ وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَرَأَ عَاصِمٌ يَا بَنِي أَرْكَبْ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَ الْبَاقُونَ بِكُسْرِهَا وَ فِي، بَنِي، ثَلَاثَ يَاءَاتٍ: يَاءُ التَّصْغِيرِ، وَ يَاءُ الْأَصْلِ، وَ يَاءُ الْإِضَافَةِ.

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ الْوَجْهَ كَسَرَ الْيَاءَ لِأَنَّ اللَّامَ مِنْ (إِبْنِ) يَاءٌ أَوْ وَاوًا وَ حَذَفَتْ مِنْ، إِبْنِ، كَمَا حَذَفَتْ مِنْ، إِسْمِ، فَإِذَا حَقَرَتْ أَلْحَقَتْ يَاءَ التَّحْقِيرِ لَزِمَ أَنْ تَرَدَّ اللَّامُ الَّذِي حَذَفَتْ لِأَنَّكَ لَوْ لَمْ تَرُدَّهَا لَوَجِبَ أَنْ تَحْرُكَ يَاءُ التَّصْغِيرِ بِحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ وَ هِيَ لَا تَحْرُكَ بِحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ أَبَدًا فَإِذَا أَضْفَعْتَهُ إِلَى نَفْسِكَ اجْتَمَعَتْ ثَلَاثُ يَاءَاتٍ.

الْأُولَى: الَّتِي لِلتَّحْقِيرِ.

الثَّانِيَّةُ: لَامُ الْفَعْلِ.

الثَّالِثَةُ: هِيَ لَامُ الْإِضَافَةِ تَقُولُ: بَنِي فَإِذَا نَادَيْتَ جَازَ فِيهِ وَجْهَانُ:

إِثْبَاتُ الْيَاءِ وَ حَذْفُهَا فَمَنْ قَالَ يَا عِبَادِي فَأَثْبَتَ الْيَاءَ فِقْيَاسَهُ أَنْ يَقُولَ يَا بَنِي، قَالَ يَاعِبَادُ، يَقُولُ، يَا بَنِي، حَذَفَتْ الَّتِي لِلْإِضَافَةِ وَ أَبْقَيْتَ الْكُسْرَ دَلَالَةً عَلَيْهَا وَ هَذَا هُوَ الْحَيْدُ عِنْدَهُمْ أَنْتَهَى.

وَقَوْلُهُ: وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ فَالْمَعْزِلُ مَوْضِعٌ مَقْطُوعٌ عَنْ غَيْرِهِ وَ أَمَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَى غَيْرِ دِينِ أَبِيهِ كَمَا فَسَّرُوهُ بِهِ فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ قَوْلُهُ: وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ الْكُفَّارِ وَ هُوَ وَاضِحٌ وَ كَيْفَ كَانَ فَهُوَ لَمْ يَرْكَبِ السَّفِينَةَ وَ قَالَ فِي جَوَابِ أَبِيهِ:

سَاوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَفْعِمُنِي مِنَ الْمَاءِ أَيْ سَأَرْجِعُ إِلَى مَاوِي مِنْ جَبَلٍ يَمْنَعُنِي مِنَ الْمَاءِ فَقَالَ نُوحٌ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْعَصْمَةُ الْمَنْعُ مِنَ الْأَفَةِ وَمِنْهُ

المعصوم في الدين أي الممنوع باللفظ من فعل القبيح لا وجه الحيلولة و المراد من أمر الله، هو أمره تعالى بالإهلاك و الغرق.

و من المعلوم أن الله تعالى اذا شاء و أراد وقع و لا يمكن لأحد منعه و خَالَ بَيْنَهُمَا أَلْمُوجُ أي حال بين نوح و ولده الموج فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ كغيره ممن غرق في الطوفان.

أقول قال رسول الله ﷺ: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق، أوهلك.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكُمْ يَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَ غِبْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَ أَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. لَمَّا غَرَقَ مِنْ غَرَقٍ وَ نَجَّى مِنْ نَجَى مِنْ قَوْمِ نُوحٍ بِسَبَبِ الطُّوفَانِ قِيلَ وَ الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكُمْ.

قال صاحب الكشف نداء الأرض و السماء بما ينادي به الحيوان المميز على لفظ التخصيص و الإقبال عليهما بلاخطاب من بين سائر المخلوقات قوله، يا أرض و يا سماء، ثم أمرهما بما يؤمر أهل التمييز و العقل من قوله: أَبْلَعِي مَاءَكُمْ و أقلعي، من الدلالة على الإقتدار العظيم و أن السموات و الأرض و هذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمتهم و جلاله و ثوابه و عقابه و قدرته على كل مقدور و تبينوا تحتم طاعته عليهم و إنقيادهم له الى آخر ما قال.

أقول لا نحتاج الى هذه التكاليف في أوامر الله تعالى و ذلك لأن أوامر الحق على قسمين: تشريعي و تكويني.

فالأول: مختص بالمكلفين بالتكاليف الشرعية.

الثاني: مختص بالإيجاد ومنه:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**^(١).

قال الله تعالى: **سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**^(٢).

قال الله تعالى: **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**^(٣).

و أمثالها من الآيات و الفرق بين الأمرين هو أنَّ الاختيار واسطة بين الإرادة و المراد في الأمور التشريعية و أما في التكوينية فلا و ما نحن فيه من الأمر التكوينية التي لا بد لها من تحقق المراد و عليه فلا فرق فيها بين تعلق الأمر بالأرض أو بالسَّماء لأنَّ ما سوى الله مخلوق له و المخلوق تحت قدرة خالقه قهراً و إلا فليس بمخلوق له اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: **يَا أَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ الْبَلْعَ فِي اللَّغَةِ** إنتزاع الشَّيْءِ من الحلق الى الجوف فكانت الأرض تبلع الماء هكذا حتى صار الماء في بطنها الغراء.

و قوله: **يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** الإقلاع إذهاب الشَّيْءِ من أصله حتى لا يبقى منه شيء يقال قلعت الشَّجرة اذا قلعتها من أصلها و إقلع عن الأمر اذا تركه رأساً إخبار عن إقشاع السَّحاب و قطع المطر في أسرع وقت فكأنه قال لها أقلعي فأقلعت.

و قوله: **وَ غِيضَ الْمَاءِ** يقال غاض الماء يغيض غيضاً اذا ذهب في الأرض فالمعنى و ذهب الماء: **وَ قُضِيَ الْأَمْرُ** أي وقع الأمر على تمام و إحكام بإهلاك قوم نوح: **وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ** أي و استوت السفينة و استقرت على الجودي و هو جبل معروف قيل هو بناحية، أحد و قيل بقرب جزيرة الموصل.

قال بعضهم استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء فصامه نوح و أمر جميع من معه من النَّاس و الوحش و الطَّير و الدَّواب و غيرها فصاموه شكراً لله تعالى و قيل كان ذلك يوم جمعة.

في القرآن تفسير القرآن



و روي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى الْجِبَالِ أَنَّ السَّفِينَةَ تَرْسِي عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا فَتَطَاوَلَتْ وَبَقِيَ الْجُودَى لَمْ يَتَطَاوَلْ تَوَاضِعاً لِلَّهِ فِاسْتَوَتْ السَّفِينَةُ عَلَيْهِ وَبَقِيَتْ عَلَيْهِ أَعْوَادُهَا قِيلَ لَقَدْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ أَدْرَكَهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ قَدْ يُقَالُ أَنَّ الْجُودَى مِنْ جِبَالِ الْجَنَّةِ فَهَذَا إِسْتَوَتْ عَلَيْهِ وَ الْأَقْوَالُ كَثِيرَةٌ كُلُّهَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ الَّذِي نَقُطِعُ بِهِ هُوَ صَحَّةُ أَصْلِ الْقَضِيَّةِ وَ أَنَّ السَّفِينَةَ إِسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي دَلَّتْ الْآيَاتُ عَلَيْهَا وَ أَمَّا غَيْرُهَا مِمَّا ذَكَرُوهُ فَهُوَ مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ الَّذِي تَتَّبَعِي الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ حَيْثُ الْفَصَاحَةُ وَ الْبَلَاغَةُ وَ الْإِجَارُ وَ حَسَنَ النَّظْمِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ بِحَيْثُ قِيلَ لَوْ فَتَشَّ كَلَامُ الْعَرَبِ وَ الْعَجَمِ مَا وَجَدَ فِيهَا مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ.

أَلَا تَرَى كَيْفَ خَرَجَ الْأَمْرُ مَخْرَجَ التَّعْظِيمِ مِنْ نَحْوِ، كُنْ، لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ مَعَانَاةٍ وَ لَا لُغُوبٍ مِضَافاً إِلَى حَسَنِ تَقَابُلِ الْمَعْنَى وَ حَسَنِ إِيْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ وَ حَسَنِ الْبَيَانِ فِي تَصْوِيرِ الْحَالِ وَ إِيجَازِ الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ وَ تَقَبُلِ الْفَهْمِ عَلَى أَتَمِّ الْكَمَالِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِفْهَمْ وَ تَدَّبَّرْ.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ

أَخْبَرَ اللَّهَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى نُوحٌ هَلَاكَ قَوْمَهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ أَنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ وَعْدُهُ بِأَنَّهُ يَنْجِيهِ وَ أَهْلَهُ وَ أَمْرُهُ بِأَنْ يَحْمِلَهُمْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: وَ قَلْنَا أَخْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ وَ عَلَى هَذَا فَسَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ أَنَّ ابْنَهُ أَنْ كَانَ مِمَّنْ وَعَدَهُ بِنَجَاتِهِ أَنْ يَنْجِيهِ فَالسُّؤَالُ كَانَ بِهَذَا الشَّرْطِ قَالُوا لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَمْرًا لَا يَجَابُ إِلَيْهِ وَ خَاصَّةً عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَاءِ لِأَنَّ ذَلِكَ يَنْفِرُ عَنْهُمْ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ.

وَ قَالَ الطَّبْرِيُّ يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ، وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ أَتُكِّ وَعَدْتَنِي أَنَّ

تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي و قد هلك إبني وإبني من أهلي و أن وعدك الحق الذي لا خلف له و أنت أحكم الحاكمين بالحق فأحكم لي بأن تفني لي بما وعدتني من أن تنجي لي أهلي و ترجع إلي إبني انتهى.

و قال القرطبي قال علماءونا و أما سأل نوح ربه إبنه لقوله: **وَأَهْلَكَ** وترك قوله إلا من سبق عليه القول، فلما كان عنده من أهله قال، رب أن إبني من أهلي، يدل على ذلك قوله: **وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ** أي لا تكن ممن لست منهم لأنه كان مؤمناً في ظنه لم يك نوح يقول لربه أن إبني من أهلي إلا وذلك عنده كذلك اذ محال أن يسأل هلاك الكفار ثم يسأل في إنجاء بعضهم و كان إبنه يسر الكفار و يظهر الإيمان فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب أي علمت من حال إبنك ما لا تعلمه أنت.

و قال الحسن كان منافقاً و لذلك إستحل نوح أن يناديه و عنه أيضاً أنه كان ابن إمرأته دليله قراءة علي، و نادى نوح إبنها، و أنت أحكم الحاكمين، ابتداء و خبر، أي حكمت على قوم بالنجاة و على قوم بالغرق انتهى كلامه.

و قال الزمخشري في الكشاف، أن إبني من أهلي، أي بعض أهلي لأنه كان إبنه من صلبه أو كان ربيباً له فهو بعض أهله، و أن وعدك الحق، أي و أن كان وعدتده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه و الوفاء به و قد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي و أنت أحكم الحاكمين، أي أعلم الحكام و أعدلهم لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم و العدل انتهى كلامه.

فهذا ما ذكره أساطين المفسرين من العامة و الخاصة فعلى قوله الشيخ في التبيان و هو المتبع لنا كان سؤال نوح في نجاة إبنه معلقاً على الشرط لا مطلقاً أي إن كان ممن وعده الله بنجاته و إلا فلا.

و أما على قول العامة فليس السؤال معلقاً على الشرط اذا عرفت هذا فنقول، الإشكال في مقامين:

الأول: لا شك إنه أي نوح سأل ربه أن ينجي إبنه و هذا مما لا خلاف فيه و

أَتَمَّا الخلاف في أن إبنه كان كافراً أو مؤمناً و على الأول كيف سأل نوح نجاة الكافر من الغرق.

على الثاني: لا يحتاج الى السؤال لأن الله لم يهلك المؤمنين بل أهلك الكافرين، و على فرض الكفر هل كان نوح عالماً بكفره و مع ذلك سأل ما سأل أو كان غير عالم بكفره لاسبيل الى الأول لأنه مع العلم بالكفر لا موضع للسؤال.

الثاني: هو الحق و هو أنه لم يكن عالماً بكفره و هو المطلوب.

المقام الثاني: هل كان الإبن في الآية إبنه من صلبه أو كان إبن إمرأته من صلب آخر و قد يطلق الإبن عليهما إلا أن إطلاقه على الأول حقيقة و على الثاني مجاز.

أما البحث في المقام الأول: فظاهر الآية الشريفة يدل على عدم إيمانه و أنه كان كافراً باطنياً و أن كان مؤمناً ظاهراً و نوح لم يكن عالماً بكفره و الدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية **فَلَا تَسْتَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** و هذا مما لا إشكال فيه لأن العلم بالغيب مختص بالله تعالى و الأنبياء و الأوصياء لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله.

أما المقام الثاني: و هو أنه كان إبنه من صلبه أو إبنه من إمرأته فيظهر من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنه كان إبنه من صلبه و لكن لما عصى الله عز و جل نفاه الله تعالى عن أبيه.

ففي عيون الأخبار في باب قول الرضا عليه السلام لأخيه زيد بن موسى حين افتخر على من في مجلسه بأسناده الى الحسن بن موسى الوشا البغدادي قال كنت مع علي بن موسى الرضا في مجلس و زيد بن موسى حاضر (أقول هو المعروف بزيد النار) قد أقبل على جماعة يفتخر عليهم في المجلس و يقول نحن و أبو الحسن عليه السلام مقبل على القوم يحدثهم (على قوم يحدثهم) فسمع مقالة زيد فالتفت اليه فقال عليه السلام: يا زيد أغرُّك قول ناقلِي الكوفة أن فاطمة أحصنت فرجها فحرَّم الله تعالى ذريتها على النار والله ما ذاك إلا للحسن و

بَابُ
الْوَشَا
بِغَدَادِي
عَلَيْهِ
السَّلَامُ

جزء ١٢

الجلد الثاني

الحسين عليهما السلام و ولد بطنها خاصّة، و أمّا أن يكون موسى بن جعفر يطيع الله و يصوم نهاره و يقوم ليله و تعصيه أنت ثمّ تجيئان يوم القيامة سواء لأنت أعزّ على الله عزّ وجلّ منه أنّ عليّ بن الحسين كان يقول لمحسننا كفلان من الأجر و لمسيئنا ضعفان من العذاب.

قال الحسن الوشا ثمّ إنّفتحت عليّ فقال يا حسن كيف تقرؤون هذه الآية قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَقُلْتُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يقرأ أنّه عمل غير صالح، و منهم من يقرأ أنّه عمل غير صالح، فمن قرأ أنّه عمل غير صالح، نفاه عن أبيه.

فقال عليّ كلاً لقد كان إبنة و لكن لما عصى الله عزّ وجلّ نفاه عن أبيه كذا من كان منّا لم يطع الله عزّ وجلّ فليس منّا فأنت اذا أطعت الله فأنت منّا أهل البيت انتهى.

و في خبر آخر بأسناده عن ياسر قال خرج زيد بن موسى أخو أبي الحسن بالمدينة و أحرق و قتل و كان يسمّى زيد النّار فبعث اليه المأمون فأسر و حمل الى المأمون فقال المأمون أذهبوا به الى أبي الحسن قال ياسر فلمّا أدخل قال له أبو الحسن يا زيد أغرك قول سفلة أهل الكوفة و ساق الحديث الى أن قال فقال له زيد أنا أخوك و ابن أبيك فقال له أبو الحسن أنت أخي ما أطعت الله عزّ وجلّ أنّ نوحاً قال أنّ إبني من أهلي و أنّ وعدك الحقّ و أنت أحكم الحاكمين فقال الله عزّ وجلّ، أنّه ليس من أهلك أنّه عمل غير صالح فأخرجه الله من أن يكون من أهله بمعصيته انتهى.

و في عيّن الأخبار أيضاً بأسناده عن الرضا عليّ قال عليّ: قال أبي قال أبو عبد الله عليّ أنّ الله عزّ وجلّ قال يا نوح أنّه ليس من أهلك، لأنّه كان مخالفاً له و جعل من إتبعه من أهله قال، أي قال الراوي و سألتني الرضا عليّ كيف يقرأون هذه الآية في ابن نوح فقلت يقرأوها النّاس على وجهين:

أَنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، وَأَنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَبُوا هُوَ ابْنُهُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَفَاهُ عَنْهُ حِينَ خَالَفَهُ فِي دِينِهِ انْتَهَى.
وَالْأَخْبَارُ بِهَذِهِ الْمَضَامِينِ كَثِيرَةٌ فَتُبِتْ وَتَحَقَّقْ أَنَّهُ كَانَ ابْنَهُ وَاقِعاً مِنْ صِلْبِهِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ
نَفَاهُ عَنْهُ لِمَعْصِيَتِهِ وَكَفَرِهِ، بَقِيَ فِي الْمَقَامِ شَيْءٌ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَيْفَ كَذَبَ نَبِيَّهُ أَلَيْسَ
هَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الْهَفَوَاتِ فِي أَنْبِيَائِهِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعْصُومِينَ.
أَقُولُ رَوَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ وَفِيهِ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مَجِيباً لِبَعْضِ الزَّنَادِقَةِ وَقَدْ قَالَ الزَّنَدِيقُ وَأَجِدُ قَدْ شَهَرَ هَفَوَاتِ
أَنْبِيَائِهِ بِتَكْذِيبِهِ نَوْحاً لَمَّا قَالَ أَنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، بِقَوْلِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِ وَأَمَّا هَفَوَاتِ الْأَنْبِيَائِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَمَا بَيَّنَّهُ
اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَدْلُ الدَّلَائِلِ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ
قُدْرَتِهِ الْقَاهِرَةِ وَعِزَّتِهِ الظَّاهِرَةِ لَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمُ أَنَّ بَرَاهِينَ الْأَنْبِيَائِ
تَكْبَرُ فِي صُدُورِ أُمَّمِهِمْ وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ بَعْضُهُمْ إِلَهاً كَالَّذِي كَانَ
مِنَ النَّصَارَى فِي ابْنِ مَرْيَمَ فَذَكَرَهَا دَلَالَةً عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْكَمَالِ
الَّذِي تَقَرَّدَ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ انْتَهَى.

أَقُولُ يَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي تَكْرِيبِ الْأَنْبِيَائِ أَوْ تَخَطُّطِهِمْ فِي
بَعْضِ الْأَحْيَانِ هِيَ أَنَّهُمْ فِي قَالِبِ الْبَشَرِ فَلَا يَظُنُّ ظَانٌّ فِيهِمُ الْإِلَهِيَّةَ مِثْلًا وَهَذَا
لَا يَنَافِي كَوْنَهُمْ مَعْصُومِينَ لِأَنَّ مَعْنَى الْمَعْصُومِ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَنِ الْخَطَا لَا أَنَّهُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا مَعْصُومِينَ.

بَابُ
الْقُرْآنِ
فِي
تَكْرِيبِ
الْأَنْبِيَائِ

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.
قَدْ ظَهَرَ مَعْنَى قَوْلِهِ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَقُلْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: إِنَّهُ
عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ابْنُهُ مِنْ صِلْبِهِ بَلْ هُوَ كَانَ مِنْ صِلْبِ
نُوحٍ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفَاهُ عَنْهُ لِمَعْصِيَتِهِ.

جزء ١٢

الْعَمَلُ
الْقَائِلُ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ففیه نهی عن السَّوَالِ بغير علم و هو من أحسن المواعظ یشارك فیہ الكل فأنَّ النَّبِيَّ أیضاً لا یكون عالماً بكلِّ الأشياء ظاهراً و باطنها إلا ما علَّمه الله تعالى و علیه فلو كان ابنه كافراً أو فاسقاً باطناً لا ظاهراً فلا یعلمه إلا الله و حیث أنَّ نوحاً سأل ربَّه نجاه ابنه و المفروض أنَّه من الكافرين أو العصیین واقعاً، قال الله تعالى فلا تسألن الخ.

إن قلت حقَّ الجاهل أن یسأل العالم لیرتفع به جهله فكیف یقال فلا تسألن ما لیس لك به علم، و بعبارة أخرى ظاهر الكلام یدلُّ على نهی سؤال الجاهل من العالم و هو كما ترى على خلاف العقل اذ لازم ذلك أن یكون السائل عالماً و هو من تحصیل الحاصل.

قلت أنَّ نوحاً سأل ربَّه أن ینجی ابنه من العذاب لزعمه أنَّه من أهله فقال تعالى أنَّه لیس من أهلك فلا یستحقَّ النجاة فالنَّهْيُ لم یَتعلَّق بمطلق السَّوَال بل تعلَّق بسؤال النجاة من العذاب لكونه من أهله فلو قال نوح یارب هل هو من أهلي أم لا كان الجواب نعم أولاً و بعبارة أخرى أنَّه سأل عن شیء لم یكن عالماً به و هو نجاه من العذاب فكأنَّه قال یارب لا تهلكه لأنَّه من أهلي فقال تعالى أنَّه لیس من أهلك و من المعلوم أنَّ جواب هذا السَّوَال هو النَّهْيُ عنه و هو واضح و لذلك قال تعالى بعد ذلك إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ أي أنهاك عن هذا السَّوَال و أحذرك لئلا تكون أو كراهية تكون من الجاهلین، قيل أنَّ الأئمنین، و لا دلیل علیه فأنَّ حمل الكلام على ظاهره أولى فأنَّ نوح كان جاهلاً بكفر ابنه باطناً.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

فی هذه الآية إخبارٌ منه تعالى عمَّا قاله نوح حين عرَّفه الله حال ولده و أنَّه لا یستحقُّ الغفران فأنَّه قال یا ربَّ أني أعوذبك، قيل العیادة طلب النجاة بما

يمنع من الشرّ وقيل العياذ الإعتصام بما يمنع من الشرّ والمعنى إني أعتصم بك أن أسألك ما لا أعلمه بعد ذلك أبداً وحيث أن الإحتراز منه لا يمكن إلا بإعانتة وهدايته وتوفيقه ولطفه بدأ كلامه بقوله: **إِنِّي أَعُوذُ بِكَ** فَأَنْ الْعِيَاةَ قَبْلَ الْعَمَلِ وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِهَا عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي الْعَمَلِ حَتَّى أَنْ الْمَصْلَى يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ فِي بَدْءِ الشُّرُوعِ بِهَا وَهَذِهِ هِيَ السُّرِّي فِي تَقْدِيمِهِ فِي الْآيَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** فَمَعْنَاهُ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي مِمَّا صَدَرَ عَنِّي مِنَ السُّؤَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِيمَا مَضَى، فَأَنِّي أَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

وَالْحَاصِلُ نَدَمٌ عَلَى مَا قَالَ فَكَأَنَّهُ تَابَ وَرَجَعَ عَنْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَأَنَّ حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ هِيَ الْعِزْمُ عَلَى التَّرْكِ وَالِيهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: **إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** وَالنَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى وَالِيهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: **وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**.

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا قَالَهُ نُوْحٌ لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً بَلْ كَانَ تَرْكُهُ أَوَّلَى مِنْ فَعْلِهِ كَمَا مَرَّ الْبَحْثُ فِيهِ فِي قِصَّةِ أَبِيهِ أَدَمَ فَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا كَلَامَ عِنْدَنَا فِي عَصَمَتِهِمْ فَمِنْ إِحْتِجٍّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا عَلَى عَدَمِ عَصَمَتِهِمْ فَقَدْ أَخْطَأَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ تَرْكَ الْأَوَّلَى مِنْهُمْ كَالْمَعْصِيَةِ فِينَا فَأَنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُقَرَّبِينَ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى تَرْكَ الْأَوَّلَى وَالْأَفْضَلُ يَعْدُ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ أُخَرِ.

قِيلَ يَا نُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمَمٌ سَنَمَتَّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُئُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ بِالْعُبُودِ أَيْ أَنْزَلَ يَا نُوحُ مِنَ الْجَبَلِ فَالْهَبُوطُ نَزُولٌ مِنْ أَعْلَى مَكَانٍ فِي الْأَرْضِ إِلَى مَا دُونِهِ وَمِنْ السَّمَاءِ وَقَوْلُهُ بِسَلَامٍ مِنَّا أَيْ بِتَسْلِيمٍ مِنَّا إِلَيْكَ وَبَرَكَاتٍ جَمْعٌ، بَرَكَةٌ، وَهِيَ النُّعْمَةُ وَالْمَعْنَى وَنَعَمٌ دَائِمَةٌ وَخَيْرٌ ثَابِتٌ حَالًا بَعْدَ حَالٍ وَأَصْلُهُ الثَّبُوتُ وَمِنْهُ الْبُرُوكُ وَالْبَرَكَةُ لَثُوبُ النَّعْمَاءِ.

قال بعضهم القائل هو الله أو الملائكة تبليغاً عن الله تعالى و الظاهر الأول لقوله منا، و سَنَمَتَهُمْ أمر عند نزوله بالهبوط من السفينة مع أصحابه للانتشار في الأرض والباء للحال أي مصحوباً بالسلامة و أمنٍ و بركاتٍ و هي الخيرات التامة في كل الجهات و يجوز أن يكون اللام بمعنى التسليم أي إهبط مسلماً عليك مكرماً و بشر بالسلامة إيداناً له بمغفرة ربه له و رحمته آياه و بإقامته في الأرض آمناً من الآفات الدنيوية إذ كانت الأرض قد خلت من النبات و الحيوان فكان ذلك تبشيراً بعود الأرض الى أحسن حالها و لذلك قال و بركات عليك أي دائمة باقية عليك.

و الظاهر أن، من، لإبتداء الغاية أي ناشئة من الذين معك و هم الأمم المؤمنون الى آخر الدهر.

و قال الزمخشري يحتمل أن تكون، من بيانية، فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات و قيل لهم، أمم، لأن الأمم تشعبت منهم. و أما قوله: سَنَمَتَهُمْ صفة و الخبر محذوف تقديره و مَمَّنْ معك أمم سَنَمَتَهُمْ و أنما حذف لأن قوله: مِمَّنْ مَعَكَ يدل عليه فالمعنى أن السلام منا و البركات عليك و على أممٍ مؤمنين ينشئون مَمَّنْ معك و أممٍ مَتَمَتَعُونَ بالدنيا منقلبون الى النار.

و قال بعضهم و الذي ينبغي أن يفهم من الآية أن قوله من معه، ينشأ منهم مؤمنون و كفارون و نبه على الإيمان بأن المتصفين به من الله عليهم سلام و بركة و على الكفر بأن المتصفين به يمتعون في الدنيا ثم يعذبون في الآخرة و ذلك من باب الكناية و ظاهر قوله: مِمَّنْ مَعَكَ يدل على أن المؤمنين و الكافرين نشأوا مَمَّنْ معه و الذين كانوا معه في السفينة أن كانوا أولاده الثلاثة فقط أو معهم نساءهم إنتظم قول المفسرين أن نوحاً هو أبو الخلق كلهم و يسمى آدم الأصغر أو آدم الثاني لذلك و أن كانوا أولاده و غيرهم على الاختلاف في العدد فأن كان غير أولاده مات ولم ينسل صحَّ أنه أبو البشر بعد

آدم ولم يصحَّ أَنَّهُ نشاء ممَّن معه مؤمن و كافر إِلَّا أَن أريد بالَّذين معه أولاده فيكون من ذكر العام وإرادة الخاص، و أن كانوا نسلوا كما عليه الأكثر فلا ينتظم أَنَّهُ أبو البشر بعد آدم بل الخلق بعد الطوفان منه و ممَّن كان معه في السفينة و قيل هم قوم هود و صالح و لوط و شعيب و أمثالهم.

و قال الرّازي و أعلم أَن الله تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الّذين مَعه على قسمين:

أحدهما: الّذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله و بركاته اليهم و هم أهل الإيمان.

الثاني: أممٌ وصفهم الله بأنّه سيمتّعهم مدّة في الدنيا ثمّ في الآخرة يمسّهم عذابٌ أليمٌ فحكم الله بأنّ الأمم الناشئة من الّذين كانوا مع نوح عليه السّلام لا بدّ و أن ينقسموا الى مؤمنٍ و الى كافرٍ.

قال بعض المفسّرين دخل في تلك السّلامة كلّ مؤمنٍ و مؤمنةٍ الى يوم القيامة و دخل في ذلك المتاع و في ذلك العذاب كلّ كافرٍ و كافرةٍ الى يوم القيامة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وقال الطبرسي رحمته الله في معنى **وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** معناه أَنَّهُ يكون من نسلهم أممٌ سنمتّعهم في الدنيا بضروبٍ من النّعم فيكفرون و نهلكهم ثمّ يمسّهم بعد الهلاك عذابٌ مؤلم و أنّما إرتفع أمم لأنّه إستأنف الإخبار عنهم.

و روي عن الحسن أَنَّهُ قال هلك المتمتّعون في الدنيا لأنّ الجهل يغلب عليهم والغفلة فلا يتفكرون إِلَّا في الدنيا و عماراتها و ملاذها ثمّ أشار سبحانه الى ما تقدّم ذكره من إخبار قوم نوح انتهى كلامه هذا ما ذكره في تفسير الكلام.

أقول أحسن الأقوال ما ذكره الرّمخسري في الكشف و قد نقلناه و هو أن يكون قوله: **سَنُمَتِّعُهُمْ** صفة و الخبر محذوف تقديره ممَّن معك أممٌ سنمتّعهم فأنّه جمع بين صحّة المعنى و الإعراب و الله أعلم بحقيقة كلامه.

بَابُ
فِي الْقُرْآنِ
فِي
بَابِ
رَقْعَةٍ

جزء ١٢

الجلد الثالث

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

أنباء جمع نبأ وهو الخبر وقوله: تِلْكَ إشارة إلى مل تقدم ذكره من أخبار نوح وقومه وما وقعوا فيه من الطوفان والعذاب والتقدير تلك الأنباء التي تقدم ذكرها من أنباء الغيب، نوحها إليك، والضمير يرجع إلى الأنباء والمعنى أن هذه الأخبار التي أعلمناك أيهاها لم تكن تعلمها أنت ولا قومك قبل الوحي ثم أمره بالصبر على أذى قومه وجهلهم بموضعه كما صبر نوح مثل ذلك على قومه والعاقبة للمتقين أعني بهم من إتقى معاصي الله و تحرز من عقابه.

قال بعض المفسرين أن الله تعالى ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلاً في زمان نوح أيضاً ولم يكن مختصاً بزمان رسول الله ﷺ فكما أن الأنبياء قبل رسول الله ﷺ صبروا على أذى قومهم ينبغي للرسول أيضاً أن يصبر على أذى قريش فإن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور في الدنيا والأجر الجزيل والثواب الجميل في الآخرة وفي خاتمة البحث في قصة نوح نشير إلى بعض الأخبار الواردة في الباب.

في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أراد الله عز وجل هلاك قوم نوح وساق الحديث إلى أن قال وأنزل الله على نوح: يا نوح اهبط بسلام مبثوثاً فنزل نوح بالموصل من السفينة مع الثمانين وبنوا مدينة الثمانين وكان لنوح ابنة ركبت معه السفينة فتناسل الناس منها وذلك قول النبي نوح أحد الأبوين انتهى.

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما هبط نوح عليه السلام من السفينة أتاه إبليس عليه اللعنة فقال ما في الأرض أعظم مئة على منك دعوت على هؤلاء الفساق فأرحمتني منهم ألا أعلمك خصلتين،

أَيَّاكَ وَالْحَسَدَ فَهُوَ الَّذِي عَمِلَ بِي مَا عَمِلَ وَأَيَّاكَ وَالْحَرَصَ فَهُوَ الَّذِي عَمِلَ بِأَدَمَ انْتَهَى.

وفي الكافي بأسناده عن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا حَسَرَ الْمَاءَ عَنْ عِظَامِ الْمَوْتَى فَرَأَى ذَلِكَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَزَعُ جَزَعاً شَدِيداً وَإِغْتَمَ لَذَلِكَ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ هَذَا عَمَلِكَ بِنَفْسِكَ أَنْتَ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ يَا رَبِّ أَنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ أَنْ كُلَ الْعَنْبِ الْأَسْوَدَ لِيَذْهَبَ عَمَّاكَ انْتَهَى.

وفي إكمال الدين وتمام النعمة بأسناده إلى عبد الحميد بن أبي الدَّيْلَمِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بَقِيَ نُوحٌ بَعْدَ النَّزُولِ مِنَ السَّفِينَةِ خَمْسِينَ سَنَةً ثُمَّ أَتَاهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ يَا نُوحُ قَدْ انْقَضَتْ نَبَوَّتُكَ وَاسْتَكْمَلْتَ أَيَّامَكَ فَأَنْظِرِ الْأَسْمَ الْأَكْبَرَ وَمِيرَاثَ الْعِلْمِ وَأَثَارَ عِلْمِ النَّبُوَّةِ فَأَدْفَعَهَا إِلَى ابْنِكَ سَامَ وَالْحَدِيثَ طَوِيلَ أَخْذِنَاهُ مِنْهُ مَوْضِعَ الْحَاجَةِ.

وفي روضة الكافي بأسناده عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَاشَ نُوحٌ أَلْفِي سَنَةً وَثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا ثَمَانِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَأَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً وَهُوَ فِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ، وَخَمْسَ مِائَةِ عَامٍ بَعْدَ مَا نَزَلَ مِنَ السَّفِينَةِ وَنَضَبَ الْمَاءَ فَمَضَرَ الْأَمْصَارَ وَأَسْكَنَ وَلَدَهُ الْبُلْدَانَ ثُمَّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ جَاءَهُ وَهُوَ فِي الشَّمْسِ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ فَرَدَّ عَلَيْهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ مَا جَاءَ بِكَ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ قَالَ جِئْتُكَ لِأَقْبِضَ رُوحَكَ قَالَ دَعْنِي أَدْخُلُ مِنَ الشَّمْسِ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ فَتَجَوَّلَ فَقَالَ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ مَا مَرَّ بِي مِنَ الدُّنْيَا مِثْلَ تَحَوُّلِي مِنَ الشَّمْسِ إِلَى الظِّلِّ انْتَهَى^(١).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
 مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا
 قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى
 الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
 وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ
 (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
 بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
 (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ
 قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا
 تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَبِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
 تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ
 مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا
 أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
 وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 حَفِظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ
 آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
 غَلِيظٍ (٥٨) وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ
 عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَ
 اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ
 عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

◀ اللّغة

مِذْرَارًا بكسر الميم مفعال صفة مبالغة كقولهم، معطار و منجار و أصله من الدَّر بفتح الدال وهو اللّين و يستعار ذلك للمطر.
تَوَلَّوْا التّوَلَّى الإعراض.
أَعْتَرَيْكَ أي أصابك بجنون خيل عقلك والباقي واضح.

◀ الإعراب

مِذْرَارًا حال من السّماء و أنما لم يؤنّثه لوجهين:
أحدهما: أن المراد بالسّماء السّحاب فذكر مِذْرَارًا على المعنى.
الثاني: أن مفعلاً للمبالغة و ذلك ليستوي فيه المذكر و المؤنث مثل فَعُول كقبور و فعل كَبَغَى ما جِئْتُنَا بَيِّنَةٍ يجوز أن يتعلّق الباء بجئت و يجوز أن تكون حالاً إِلَّا أَعْتَرَيْكَ الجملة مفسّرة لمصدر محذوف تقديره أن نقول إِلَّا قولاً هو إعتراك و يجوز أن يكون موضعها نصباً أي ما نذكر إِلَّا هذا القول كَفَرُوا رَبَّهُمْ محمول على المعنى أي جحدوا ربهم و قيل التّقدير كفروا نعمة ربهم.

◀ التفسير

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا نُصِبَ أَخَاهُمْ بتقدير أرسلنا، كأنه قال و أرسلنا الى عادٍ أَخَاهُمْ و أنما قلنا ذلك لأنّ الواو في قوله: وَ إِلَى عَادٍ للعطف فالآية معطوفة على قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَالتّقدير و لقد أرسلنا نُوحًا و أرسلنا الى عادٍ أَخَاهُمْ هُودًا، لما ذكر الله تعالى قصّة نوح الى آخرها شرع بذكر قصّة هود النّبي و قومه و أنما قال أَخَاهُمْ مع أنّ هود كان مؤمناً و قومه كانوا من الكفّار و لا يكون الكافر أخاً للمؤمن لأنّ المراد بالأخوة في المقام الأخوة في النسب لا في الدّين فحذف لدلالة الحال عليه قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ أي قال هود النّبي لقومه أعبدوا الله،

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ، أَي لَيْسَ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ تَعَالَى.

قال بعضهم كلمة، من، زائدة و التّقدير ما لكم إله غيره، قرأ بعضهم، غيره بالجرّ بناءً على أنّه صفة على اللفظ، و المشهور فيه الرفع بناءً على أنّه صفة على المحلّ ثمّ قال إنّ أنتم إلّا مفترّون، أي كاذبون في قولكم أنّ هذه الأصنام تستحقّ العبادة كيف وهي جمادات لا حسّ لها و لا إدراك و الإنسان هو الذي صورّها و ركّبها فكيف يليق به أن يعبدّها و يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها و يستفاد من هذه الآية و أمثالها أنّه من رسولٍ إلّا و هو واجه قومه بهذا القول لأنّ شأنهم النصيحة إلّا أنّها لا تنفع إلّا بعد حسم المطامع و ما دام يتوهم شيء منها لم تنجح و لم تنفع و لذلك قال نوح و لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ^(١).

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ

قال هُود لقومه بعد دعوتهم الى التوحيد يا قوم لا أسألكم عليه على ما أدعوكم اليه أجراً ليس أجري إلّا على الذي فطرني و خلقتني أفلا تعقلون فتعلمون أنّ ذلك محض النصيحة خالصاً لوجه الله إذ لو كانت لغيره لطلبت عليه الأجر، و أنّما قال أفلا تعقلون لأنهم عدلوا عن الإستدلال فأذن من عدل عنه فهو بمنزلة من لا يعقل، و يحتمل أن يكون الوجه فيه هو عدم تفكيرهم في الأصنام التي هي جمادات و هم يعبدونها و لم يتفكروا أنّ العامل كيف يعبد الجماد الذي لا شعور له و كيف كان فالأمر واضح لا خفاء فيه.

و يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

أَيُّ قَالِ لَهُمْ هُوَ أَيْضًا يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ وَأَرْجِعُوا
عَمَّا تَكُونُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَإِنَّمَا قَدِمَ الْإِسْتِغْفَارَ عَلَى التَّوْبَةِ لِأَنَّ طَلِبَ
الْمَغْفِرَةِ هِيَ الْغَرَضُ الْأَصْلِيَّةُ ثُمَّ تَصِلُ التَّوْبَةُ إِلَى مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا وَهُوَ التَّوْبَةُ مِنْ
الْمَعْلُومِ أَنَّ الْغَرَضَ وَهُوَ الَّذِي قَدْ يَعْبُرُ عَنْهُ بِالْعِلَّةِ الْغَائِيَّةِ مُقَدِّمَ فِي النَّفْسِ وَ
ذَلِكَ لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ ثُمَّ السَّبَبُ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِهِ هَذَا أَنْ قُلْنَا، ثُمَّ،
لِلتَّرَاخِي وَأَنْ قُلْنَا أَنَّهُ بِمَعْنَى الْوَاوِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(١) فَلَا مَرَاوِضَ.

إِذِ الْمَعْنَى اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ وَتُوبُوا إِلَيْهِ فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ أَيُّ رَجَعْتُمْ مِنَ الْكُفْرِ
وَالشِّرْكِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ بِأَنْ تَرَكْتُمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَعَبَدْتُمْ اللَّهَ الْوَاحِدَ
الْأَحَدَ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا رَوَى أَنَّهُمْ أَيُّ قَوْمٍ عَادَ كَانُوا أَجْدَبُوا
فَقَالَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مَتَى تَابُوا خُصِبَتْ بِلَادُهُمْ وَأَثْمَرَتْ أَشْجَارُهُمْ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ
الْغَيْثَ الَّذِي يَعِيشُونَ بِهِ وَفِيهِ إِشْعَارُ بِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ مُوجِبٌ لِنَزُولِ الْبَرَكَاتِ
وَهُوَ كَذَلِكَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(٢).

وَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ يُوجِبُ نَزُولَ الْبَرَكَاتِ فَالْكَفَرُ يُوجِبُ مَنَعَ الْبَرَكَاتِ لِأَنَّ
الْكَفَرَ مُقَابِلَ الْإِيمَانِ وَهُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ
الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَآخَذَهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٣).

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْفَتْحَ إِذَا كَانَ سَبَبًا لِلْعَذَابِ فَهُوَ عَذَابٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَأَنْ
شَتَّ قُلْتُ الْإِيمَانَ يُوجِبُ فَتْحَ الْبَرَكَاتِ وَالْكَفَرَ يُوجِبُ فَتْحَ الْعَذَابِ:

قال الله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ^(٢).

والحاصل أنَّ الإيمان بالله يوجب نزول بركاته في الدنيا والآخرة والكفر بالعكس وأما قوله: وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ففيه إشارة ايل نعمة أخرى و هي زيادة القوة الجسمانية على ما كانت.

أما قوله: وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ أي ولا تعرضوا عني و عما أدعوكم اليه من ترك عبادة الأصنام و الإستغفار و التوبة الى الله الذي خلقكم حال كونكم مجرمين أي مصرين على إجرامكم و آثامكم و إنما قصد هو إستمالتهم الى الإيمان و ترغيبهم فيه بكثرة الأمطار و نزول البركات و زيادة القوة و ذلك لأن قوم عاد كانوا أصحاب زروع و بساتين و عمارات حراساً عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شيء الى الماء و كانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة و البطش و البأس و النجدة متحزين بها من العدو مهيبين في كل ناحية.

و قيل أراد القوة في المال و قيل القوة على النكاح و قيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين و عقلت أرحام نسايم ذكره صاحب الكشف.

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

البينة الحجّة أي أنّك تدّعي النبوة و ما جئتنا بحجّة دالة على صدقك و إنما قالوا ذلك لأنّ المدّعي لا بدّ له منها لقوله ﷺ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} **البينة على المدّعي واليمين على من أنكر** و من المعلوم أنّ البينة لإثبات المدّعي وبدونها لا يثبت فكلماً

كان المدعي أشرف وأفضل وأهم فإحتياجه الى البينة أقوى و حيث أن الرسالة من أهم الأمور فإحتياج المدعي لها أقوى وألزم:

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ^(١).

قال الله تعالى: وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(٢).

قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ^(٣) والآيات كثيرة في الباب جداً بل نقول ما بعث الله نبياً إلا و معه نبيه والوجه فيه ظاهر فإن العقل يحكم بكذب المدعي إذا لم تكن معه نبيه وأن كان في الواقع صادقاً في دعواه وهذا ممّا لا كلام فيه فثبت و تحقّق أنّ طلب البينة عم المدعي حق لا إشكال فيه وإنما الكلام في قبولها وعدم قبولها فالمعاند لا يقبلها قطعاً لعناده وأكثر أمم الأنبياء كانوا من المعاندين ولذلك ترى في أكثر الموارد حملوا معجزات الأنبياء على السّحر و نسبوههم الى الجنون مع أنّ المنكرين في أكثر الموارد كان إنكارهم باللسان دون القلب و قوم نوح و هود و شعيب و غيرهم كانوا كذلك بل لم نجد رسولاً ما واجه الى هؤلاء المعاندين في دعوته و العناد داء معضل لا دواء له في الحقيقة ما دام حبّ الدّنيا في قلب الإنسان ولذلك قالوا: وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَيْثَنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ و قد ذكروا في وجه إنكار البينة وجوهاً:

أحدها: تقليد الأبناء.

ثانيها: عدم التأمّل فيها بعين الإنصاف.

ثالثها: وجود الشبهة في صحتها.

رابعها: إعتقادهم لأصول فاسدة تدعوهم الى إنكارها وغير ذلك من الأمور الباعثة على الجحد والإنكار.

في التفسير في تفسير القرآن



المجلد الثالث

إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَيْكَ بِغَضِّ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ

إن، نافية أي لسا نقول إلا إعتراك بعض ألِهتنا قوله: أَعْتَرَيْكَ مفعول نقول والمعنى لسا نقول إلا قولنا، إعتراك بعض ألِهتنا بسوء أي خيلك و مسك بجنون.

قال صاحب الكشاف و ليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والإستغفار خيلاً و جنوناً و هم عاد أعلام الكفر و أوتاد الشُّرك و أنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً و المنيب إلى ربّه مخبلاً الخ.

أقول ما ذكره حق لا مرية فيه بل نحن نقول في زماننا هذا نجد كثيراً من المتظاهرين بالإسلام يسمون المؤمن الذي يصلّي و يصوم و يحجّ و هكذا مجنوناً و أعجب منه أنهم يدعون الإسلام الحقيقي و يستبشون إسلام غيرهم إلى المجازي أو الخرافي و لم يعلمون أن حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك نعوذ بالله من هذه الأراجيف و العقائد الفاسدة.

قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ قِيلَ أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَمَّا أَجَابَهُمْ بِهِ هُودُ بَأَن قَالَ أَشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ أَدَائِي إِلَيْكُمْ وَ نَصْحِي إِيَّاكُمْ وَ عَلَىٰ رَدِّكُمْ ذَلِكَ عَلَيَّ وَ تَكْذِيبِكُمْ إِيَّاي وَ أَشْهَدُوا أَنْتُمْ أَيْضاً أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ وَ أَنَّمَا أَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ وَ إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ شَهَادَةٍ مِنْ حَيْثُ كَانُوا كَفَّارًا فَسَقَاتُ إِقَامَةٍ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَا لِتَقْوَمِ الْحُجَّةُ بِهِمْ فَقِيلَ هَذَا الْقَوْلُ إِعْذَاراً وَ إِذْذَاراً وَ يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ بِذَلِكَ إَعْلَمُوا كَمَا قَالَ شَهِدَ اللَّهُ بِمَعْنَى عِلْمِ اللَّهِ أَنْتَهَى مَا قَالَهُ فِي التَّبَيُّانِ.

أقول و الحق أن ذلك الكلام من هود و أنما صدر منه في جوابهم حيث أنهم نسبوا ما صدر من هود من دعاءهم إلى الله و إفراده بالألوهية، إلى الخبل و الجنون و أن ذلك ممّا إعتراه به بعض ألِهتهم لكونه سبّها و حرّض على تركها و دعا إلى ترك عبادتها فجعلته يتكلّم مكافاة بما يتكلّم به المجانين كما قالت

قريش معلم مجنون أم يقولون به جنّة، وإعتراك، جملة محكية بقولهم (نقول) فهي في موضع المفعول ودلت على بله شديد وجهل مفرط حيث إعتقدوا في حجارة أنّها تنتصر وتنتقم وقول هود في جوابهم، إني أشهد الله الى آخره حيث تبرأ من ألّهتهم وحرّضهم كلّهم مع إنفراده وحده على كيدته بما يشاءون وعدم تأخره من أعظم الآيات على صدقه وثقته بموعود ربّه من النصر له والتأييد والعصمة من أن ينالوه بمكروه هذا وهم حريصون على قتله يرمونه عن قوس واحدة ومثله قول نوح لقومه **ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ**^(١) وأكّد براءته من ألّهتهم وشركهم ووقفها بما جرت عليه عادة الناس من توثيقهم الأمر بشهادة الله وشهادة العباد.

قال صاحب الكشف فأن قلت هلاّ قيل إني أشهد الله وأشهدكم. **قُلْتُ** لأنّ إشهد الله على البراءة من الشّرك إشهداً صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وأما إشهداهم فما هو إلّا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب فعدّل به عن لفظ ما بينهما وجئ به على لفظ الأمر بالشّهادة انتهى.

أقول ما ذكره في معنى الكلام لا بأس به ويحتمل أن يكون قوله وأشهدوا، بمعنى وأعلموا والمعنى إني أشهد الله لأنّه عالم بما في قلبي وأني صادق في قلبي وأشهدوا أي وأعلموا أنتم إني بريء ممّا تشركون وعلى هذا فهو أشهد الله على صدقه بما يقول وأعلم الكفار بالبراءة من ألّهتهم وإذا كان كذلك فقولهم: **إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرِيكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** مجرد التّهمة والكذب فإنّ من يقول إني بريء ممّا تشركون وأشهد الله على ذلك وأعلم الكفار بالبراءة عن ألّهتهم، كيف يقال فيه ما يقال وكيف كان فقال هود لهم.

مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَعْنَى الشَّهَادَةِ

جزء ١٢

المجلد الثاني

أي إفعِلُوا ما شِئْتُمْ وأَعْمَلُوا قَدَرْتَكُمْ ولا تَمْهَلُونِي لِحِظَةٍ قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ النَّبَوَّةِ وَأَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَرَسُولًا مِنْهُ إِلَى خَلْقِهِ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَأْسِ وَالتَّجْدَةِ وَهُدٍ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَمِنَ بِهِ مِنَ الضُّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ فَقَوْلُهُ لِلْكَفَّارِ (فَكِيدُونِي جَمِيعًا وَ لَا تَنْتَظِرُونَ)، مِنْ أَذَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى نَبَوَّتِهِ وَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى وَعَدَ رُسُلَهُ بِالنَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَ يَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَ نَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ^(٥).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَ مَا لِنَنْصُرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ^(٦).

و الْآيَاتُ كَثِيرَةٌ وَالْعَقْلُ أَيْضًا يَحْكُمُ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَ زَمَانٍ إِلَى الْخَلْقِ لِأَجْلِ الْهَدَايَةِ وَ الْإِرْشَادِ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَأْسِ وَ التَّجْدَةِ وَ الْقُوَّةِ وَ الشُّوْكَةِ.

و أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ فِي بَدْوِ الْأَمْرِ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا الْفُقَرَاءُ وَ الضُّعْفَاءُ الَّذِينَ كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْمَالِ وَ الْجَاهِ وَ غَيْرَهُمَا مِنْ أَسْبَابِ الْقُدْرَةِ وَ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمُنَوَالِ فَأَن لَمْ يَنْصُرِ اللَّهُ نَبِيَّهٖ فَمَنْ يَنْصُرُهُ وَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشِيرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَ إِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ** ^(٧).

و مُحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِ غَيْرِهِ وَ هُوَ الَّذِي قَالَ: **وَ كَانَ حَقًّا**

١- غافر = ٥١

٢- التوبة = ٤٠

٣- الفتح = ٣

٤- الصافات = ١١٦

٥- الحج = ٤٠

٦- الأنفال = ١٠

٧- آل عمران = ١٦٠

عَلَيْنَا نَضُرُّ الْقَوْمِينَ^(١) وهذا هو الذي دعاهم أي الأنبياء الى أن يتكلموا مع هؤلاء الكفار عن موضع القدرة لا عن موضع الضعف فإن من يتوكل على الله فهو حسبه، ولا يحتاج الى غيره ألا ترى أن هود قال بعد ذلك: إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ.

و ليعلم أن هذا النوع من الكلام أعني به التكلم مع الأعداء عن موضع القدرة لم يكن مختصاً بهود ^{عليه السلام} حيث قال فكيدوني جميعاً ولا تنظرون: فقد قال نوح قبله: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ^(٢).

و قال نبينا ^{عليه السلام} ^{صلى الله عليه وسلم}: فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا^(٣).

والكيد طلب الغبط بالسُّر وهو الإحتيال بالسُّر، والإنتظار الإمهال.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

ذكر هود عليه السلام في هذه الآية توكله على الله معلماً أنه ربه و ربهم و منبهاً على أنه من حيث هو ربكم يجب عليكم أن لا تعبدوا إلا آياه و مفوضاً أمره اليه ثقةً بحفظه و إجاز موعوده ثم وصف قدرة الله و عظيم ملكه من كون كل دابة في قبضته و مكله و تحت قهره و سلطانه فأنتم أيضاً من جملة أولئك المقهورين هكذا قيل في تفسير الآية.

و لتوضيح المعنى نقول في الآية ثلاث مسائل:

الأولى: قوله إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ.

الثانية: قوله مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا.

الثالثة: قوله إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَبِالْقُرْآنِ
فِي هَذِهِ
الْجُزْءِ



الْعَبْدُ
الْقَائِدُ

أما البحث في المسألة الأولى:

فنقول التَّوَكَّلُ مصدر قولك تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ بِمَعْنَى الْإِعْتِمَادِ يُقَالُ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ بِمَعْنَى إِعْتَمَدْتَهُ ثُمَّ أَنَّ هَذَا الْإِعْتِمَادَ قَدْ يَكُونُ لِشَخْصٍ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ وَيُسَمَّى بِالتَّوَكُّلِ وَيُسَمَّى الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَكِيلًا وَالْمُعْتَمَدُ مَوْكَلًا وَهُوَ مَعْلُومٌ وَقَدْ يَكُونُ الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِ وَأُمُورِهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَى مَدْحِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَلَايَاتُ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ نَازِرَةً إِلَيْهِ وَسَيَأْتِي الْبَحْثُ فِيهِ فِي مَوْضِعِهِ بِوَجْهِ أَبْسَطِ وَالَّذِي نَشِيرُ إِلَيْهِ فِي الْمَقَامِ بِحَسَبِ الْإِجْمَالِ هُوَ أَنَّ التَّوَحِيدَ الْوَاقِعِيَّ يَسْتَلْزِمُ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ كَامِلًا وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ هُوَ الْوَاجِبُ الْوُجُودَ الْمُسْتَجْمَعُ لِجَمِيعِ الصِّفَاتِ الْكِمَالِيَّةِ وَهُوَ الَّذِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ وَهُوَ الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَهُوَ الْعَالَمُ بِالسَّرَائِرِ كَمَا أَنَّهُ عَالَمٌ بِالظُّوَاهِرِ وَهُوَ الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ وَبِالْجُمْلَةِ هُوَ.

الَّذِي يَحْتَاجُ الْكُلَّ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْكُلِّ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ^(١).

أَرْزَمَةُ الْأُمُورِ طُرًّا بِيَدِهِ وَالْكُلُّ مُسْتَمْدَةٌ مِنْ مَدِّهِ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ عَارِفًا بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ مَا سِوَاهُ كَائِنًا مَا كَانَ وَكَائِنًا مَنْ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ فَالتَّوَكُّلُ عَلَى الْمَخْلُوقِ فِي الْحَقِيقَةِ تَوَكُّلٌ عَلَى السَّرَابِ الَّذِي يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً.

وَأَنْ شَتَّ قَلْتُ هُوَ مِنْ إِعْتِمَادِ الْفَقِيرِ وَالضَّعِيفِ عَلَى الضَّعِيفِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ بَلْ يَضُرُّ أَحْيَانًا وَعَلَى قَوْلِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْعَرَفَاءِ هُوَ مِنْ ضَمِّ

المعدوم الى المعدوم لأنهم يقولون لا موجود حقيقة إلا هو فأن الموجود الحقيقي هو الذي يكون قائماً بذاته مستغنياً عن غيره في قوامه و وجوده منحصر به تعالى فأن ما سواه قائم به فهو القيوم الذي هو قائم بالذات و غيره قائم به.

قال تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ^(١) إذا عرفت هذا فنقول.

لا شك أن الأنبياء كانوا في رأس الموحدين في كل زمان وذلك لأن المؤمنين الموحدين في عصر كل نبي أخذوا التوحيد من نبيهم الذي كان مبعوثاً اليهم فلا يكون المبعوث اليه أعرف بالله من النبي الذي بعث اليه لقبح تقديم المفضل على الفاضل فأن المأموم إذا كان أعلم وأفضل من الإمام في توحيده و معرفته بالله و مع ذلك كان مأموراً باتباعه لزم منه ما ذكرناه و هو غير معقول. وإذا كان النبي أعلم وأفضل وأعرف بالله كما هو كذلك فهو بالتوكل على الله أحرى وأليق ولذلك ترى الأنبياء في جميع الأدوار والأزمان كانوا متوكلين على الله.

معتمدين عليه مفضلين أمورهم اليه في جميع شئونهم و كان حقاً عليهم أن لا يعتمدوا على غيره لعلمهم و معرفتهم بأن غيره تعالى لا يقدر على شيء و لذلك أمرهم الله بالتوكل على الله والإعراض عن غيره قال الله تعالى.

قال الله تعالى: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذْيَهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ** ^(٥).

في الفرقان في تفسير القرآن



الجلد الثاني

٢- آل عمران = ١٥٩

٤- الأحزاب = ٤٨

١- البقرة = ٢٥٥

٣- النساء = ٨١

٥- الفرقان = ٥٨

قال الله تعالى: **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ^(١).
 قال الله تعالى: **قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ^(٢).

و الأيات الواردة في الباب كثيرة جداً و السر فيه فيه هو أن الله خالق كل شيء فلا محالة هو على كل شيء وكيل و بما ذكرناه يظهر سر ما حكاه الله تعالى عن هود النبي حيث قال لقومه **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ** وإنما أضاف الى قوله: **رَبِّي** قوله: **وَ رَبِّكُمْ** مع أنهم كانوا كفاراً للإشارة الى أن التوكل على وظيفة العبد لربه الذي خلقه ورباه و أنتم أيضاً عباد الله و هو خلقكم و رباكم فلم تعبدون الأصنام التي لا حياة لها و لا إدراك فلو كنتم عرفتموه لم تتخذوا معبوداً سواه.

المسئلة الثانية: قوله: **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** الدابة تطلق على كل حيوان يدب على الأرض و قوله هو آخذ بناصيتها، معناه أن الله الذي هو ربي و ربكم قادر على التصرف فيها أي تصرف شاء و هو كناية عن قدرته تعالى و الناصية في الأصل قصاص الشعر والأخذ بها كناية عن القدرة عليها و التصرف فيها و الى هذا المعنى أشار الله تعالى حيث قال: **فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ** ^(٣).

و أما خصت الناصية بالذكر لأن في جر الرجل بناصيته إذلال له و الحاصل أن إنكاركم التوحيد و بقاءكم على الكفر لا ينفعكم بل يضركم لأنكم لا تقدرون الفرار عن حكومته و الأصنام التي تعبدونها لا قدرة لها في دفع البليات عنكم و اذا كان الأمر على هذا المنوال فالعقل يحكم بالإيمان به تعالى فإن دفع الضرر المحتمل واجب عقلاً فضلاً عن الضرر المقطوع لو كنتم تعقلون حق التعقل.
أما المسألة الثالثة: وهي قوله: **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** فقال بعض المفسرين معناه أن أمر ربي في تدبير خلقه على صراط مستقيم لا عوج فيه

إضطراب فهو يجري على سبيل الصَّواب لا يعدل الى اليمين و الشمال و الفساد قال و الفائدة هنا أَنَّ رَبِّي و أَن كان قادراً على التصريف في كلِّ شيءٍ فَأنَّه لا يفعل إلا العدل و لا يشاء إلا الخير انتهى.

و قال الآخرون أيضاً كذلك مع تفاوتٍ يسير في الألفاظ، و الذي يختلج بالبال مضافاً الى ما ذكره في معناه هو أَنَّ الصَّراط المستقيم و قد يقال له صراط بالتين أيضاً هو الدِّين الحقَّ الذي لا يقبل الله من العباد غيره و أتما سَمي الدِّين صراطاً لأنَّه يؤدِّي من يسلكه الى الجنة كما أَنَّ الصَّراط يؤدِّي من يسلكه الى مقصده.

و قيل الصَّراط الطَّرِيق المستهل و على التَّقديرين فالدِّين صراطٌ إمَّا على التفسير الأول فواضح اذ لا شكَّ أَنَّه يؤدِّي من يسلكه الى الجنة.

إِما على الثاني: فَأنَّه طريقٌ مستهل قال رسول الله بعثت الى السَّريعة السَّمحة السَّهلة.

و في عيُون الأخبار عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال جعفر بن محمد عليه السلام في الله أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يقول أرشدنا الى الطَّرِيق المستقيم أرشدنا للزوم الطَّرِيق المؤدِّي الى محبتك و المبلغ دينك و المانع مِن أَن نتَّبِع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بأراءنا فنهلك و صراطٌ مستقيمٌ دينٌ واضح انتهى.

و عليه فمعنى قوله: **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** أي أَنَّه على دينٍ واضح و أَن شئت قلت على صراطٍ واضح و هذا بخلاف ما تعبدونه من الأصنام التي لا شعور لها و لا إدراك و ما كان كذلك كيف يكون على صراطٍ مستقيم و ما ليس على صراطٍ مستقيم فأنَّ معطي الشَّي لا يكون فاقداً له فضعف الطالب و المطلوب و لا خسرانٌ أعظم منه والي هذه الدَّقيقة أشار بقوله:

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ

قرأ الجمهور، فأن تَوَلَّوْا أي تتولَّوْا مضارع، تَوَلَّى و التَّوَلَّى الذهاب الى خلاف جهة الشَّيْءِ و هو الإعراض عنه و عليه فالمعنى أن تعرضوا عما دعوتكم اليه من عبادة الله و إتباع أمره فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم و لم جهداً في تبليغ رسالتي و ليس على الرسول إلا البلاغ.

و قال بعضهم اللفظ أعني به، تَوَلَّوْا، على ظاهره و هو الماضي و يحتاج في الجواب الى إضمار قول و التَّقدير فأن تَوَلَّوْا و أعرضوا عما قلت لهم و لم يؤمنوا بك فقل لهم فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم، أي إني عملت بوظيفتي و عهدي من تبليغ الرسالة و كيف كان لا خفاء في معنى الكلام و هو أن قوم هود أنكروا رسالته و لم يقبلوا دعوته و هو قد أدى وظيفته و بلغ رسالته و ما عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.

قال الله تعالى: أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحَ لَكُمْ^(١).

قال الله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ^(٢).

قال الله تعالى: فَقَوَّلَى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي^(٣).

و لما أعرضوا عما قال هود و أنكروا نبوته قال: وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ الاستخلاف جعل الثاني بدل الأول يقوم مقامه فيما كان عليه الأول، فلما كانوا قد كلّفوا فلم يجيبوا جعل الثاني بدلاً منهم في التكليف، و المعنى أن هوداً قال لهم و يستخلف ربّي قوماً غيركم أي و يجعل الله تعالى بعدكم قوماً مقامكم و مكانكم.

قال الله تعالى: لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^(٤).

سُورَةُ يُونُسَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

المجلد التاسع

قال الله تعالى: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ** ^(١).

قال الله تعالى: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ** ^(٢).

وقوله: **وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا** فالظاهر أنَّ الضمير في قوله: **وَلَا تَضُرُّوهُ** يرجع إلى الربِّ والمعنى لا تقدرون له على الضرر وبعبارة أخرى هذا الإستخلاف الذي أنتم سببه وفيه هلاككم وإستخلاف قوم آخرين لا يضر به تعالى شيئاً بل يضر بكم لأن فيه هلاككم وعذابكم في الدنيا والأخرة. وقوله: **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ** أي حافظ والمعنى أنَّ ربي حافظ لكل الأشياء وقيل حفيظ بمعنى محفوظ أي كل شيء عنده محفوظ لتنزهه عن الغفلة والنسيان.

فَعَلَىٰ الْأَوَّلِ: معنى الكلام أنَّ الله تعالى يحفظني من أن تنالوني بسوء.

عَلَىٰ الثَّانِي: معناه أنَّ أعمالكم عنده محفوظة حتى تجازيكم عليها وعلى المعنيين فهو مختص به تعالى ولا يوصف به غيره واقعاً قال الله تعالى مخاطباً لرسوله:

قال الله تعالى: **فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا** ^(٣).

قال الله تعالى: **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ** ^(٥) أي محفوظ.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الْأَذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ

أي لما جاء أمرنا بهلاك قوم عاد وذلك بعد تمامية الحجة عليهم نجينا هوداً ومن إتبعه من المؤمنين وما كان ذلك إلا برحمة منا ونجيناهم من عذاب

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

٢- الأعراف = ١٢٩

٤- البروج = ٢٢

١- الأنعام = ١٣٣

٣- الشورى = ٤٨

٥- ق = ٤

غليظ أي عظيم الجثة و الكثيفة قالوا أنما وصف العذاب به لأنه بمنزلته في الثقل على النفس، فقوله: بِرَحْمَةٍ مِّنَّا يتعلق بقوله: نَجِّنَا لَهُمْ أي كانت نجاتهم من العذاب بمجرد رحمة من الله لحققتهم لا بأعمالهم الصالحة، أو يقال كُنِيَ بالرحمة عن أعمالهم الصالحة التي وفَّقهم الله لها برحمته، و يحتمل أن يتعلّق بآمنوا، أي أن إيمانهم بالله و بتصديق رسوله أنما هو برحمة الله تعالى إياهم اذ وفَّقهم لذلك و أما تكرار التَّنْجِيَةِ فيحتمل أن يكون سببه التوكيد و يحتمل أن يكون سببه إختلاف متعلّقيهما فإنّ العذاب الأول في الدنيا و الثاني، في الآخرة وهكذا التَّنْجِيَةُ و هو واضح.

ثم أشار الله تعالى الى علة ذلك فقال:

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

تلك إشارة الى ما تقدّم ذكره والمعنى تلك القبيلة عادٌ و عليه فتلك مبتدأ و عادٌ خبره و تأنيث إسم الإشارة بإعتبار القبيلة و الحاصل أنه تعالى علّل عذاب قوم في الدنيا و الآخرة بأمور ثلاثة كلّ واحدٍ منها يكفي للعذاب فضلاً عن جميعها.

أحدها: إنكارهم آيات ربهم و الآيات جمع آية و هي العلامة و هي تطلق على الآيات التشريعية و التكوينية فالآيات التشريعية هي أحكام الله تعالى من التوحيد و النبوة و المعاد و ما يتفرّع عنها من أحكام الدين.

و أما الآيات التكوينية فية عبارة عن الآيات الموجودة في عالم الوجود الدالة على التوحيد و في رأسها وجود الأنبياء عليهم السلام و المعجزات التي جرت على أيديهم بإذن الله و هي الأصل لأنّ إنكار الدين و ما يتعلّق به فرعٌ على إنكار النبي و معجزاته.

و محصّل الكلام هو أن قوم عاد جحدوا جميع آياته و لذلك قال تعالى:
جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ.

ثانيها: قوله: وَ عَصَوْا رُسُلَهُ و أنما قال رُسله ولم يقل رسوله بصيغة المفرد مع أنهم عصوا هوداً، إمّا لأنّ الرُّسل قد تقدّمت عليهم بمثل ذلك و حكم الأمثال واحد.

و أمّا أنّ إنكار واحدٍ منهم بمنزلة إنكار الجميع فإنّ من أنكر هوداً انكر غيره أيضاً لو بعث اليه، و يحتمل أن يكون هود أرسل الى القوم من أرشدهم و و عظمهم و نصحهم و أوعدهم من عذاب الله فأنكروا عليهم أيضاً و أنما قال و عصوا رسله و لم يقل و أنكروا رسله لأنّ العصيان فرعٌ على الإنكار و مسبّب عنه والذي يختلج بالبال هو أنّ العصيان يتحقّق بالأعمال و العذاب يتفرّع عليها.

و أمّا الإنكار فهو من الأمور القلبيّة فربّ منكرٍ بقلبه لا بلسانه و عمله كأبي سفيان و معاوية و مغيرة و أمثالهم في الإسلام فأنّهم كانوا منكرين لنبوّة رسول الله بقلوبهم و نيّاتهم و لكن لم يتظاهروا به بل كانوا متظاهرين بالإسلام فكانوا يصلّون و يصومون و يحجّون و هكذا في ظاهر الأمر و يعبرّ عنهم بالمنافق و لعلّ هذا يكفي في رفع العذاب في الدّنيا.

و أمّا في الآخرة فهو بحاله و هذا بخلاف العاصي فأنّه يعمل أعمالاً منكراً قبيحة و اذا جمع العصيان و الإنكار معاً كالكفّار العاصين الفاسقين فالمُصيبة أعظم اذا عرفت هذا فنقول:

أنّ قوم عاد كانوا منكرين لنبوّة هُود و مع ذلك كانوا عاصين بأعمالهم مستهزئين بهود و من أمنوا معه و لذلك أهلكهم الله تعالى في الدّنيا و عذبهم في الآخرة.

ثالثها: قوله وَ أَتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ في أقوالهم وأفعالهم والعنيد الطاغوي العاتي والجبار هو الذي يجبر الناس على ما يريد وقيل هو الذي يقتل على الغضب ويعاقب على المعصية.

وقيل الجبار هو العظيم في نفسه المتكبر على العباد وقوله: وَ أَتَّبِعُوا ظاهر في العموم فيشمل جميع قوم عادٍ هكذا قيل والحق أن الحكم دائماً باعتبار الأعم والأغلب فلا يلزم منه أن يكون جميعهم كذلك وكيف فقد إستفدنا من الآية أن الله أهلكهم لأنهم كانوا مستحقين له فإن ربك ليس بظلام للعبيد كما أشار اليه بقوله:

وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ

أي أتبعهم الله في دار الدنيا لعنة بمعنى أنه تعالى أخبر من بعدهم من الأنبياء وأممهم بإهلاكهم ولعنهم كما أخبر نبينا في القرآن بذلك وعرفهم بأنهم أبعدهم من رحمته ويوم القيامة، معطوف على الدنيا أي لعنهم وطردهم عن رحمة الله ليس منحصرًا بالدنيا بل هم كذلك يوم يقوم الناس من قبورهم للجزاء والحساب.

وقوله: أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا معناها التنبيه وهكذا في قوله أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قوم هود، ففيه تنبيه على من كان مثل قوم عادٍ أو يكون كذلك بعدهم فحكم الأمثال واحد.

في تفسير علي بن إبراهيم قال ثم حكى الله عز وجل خبر هود وهلاك قومه فقال: وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا الى قوله: أَفَلَا تَعْقِلُونَ قال أن عاداً كانت بلادهم في البادية من الشقيق الى الأبحس أربعة منازل وكان لهم زرع ونخل كثير ولهم أعمار طويلة وأجسام طويلة فعبدوا الأصنام فبعث الله اليهم هوداً يدعوهم الى الإسلام وخلع الأنداد فأبوا ولم يؤمنوا بهود وأذوه فكفّت

السَّمَاءَ عَنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ حَتَّىٰ قَحْطُوا وَكَانَ هُودٌ زُرَّاعًا وَكَانَ يَسْقِي الزَّرْعَ فَجَاءَ قَوْمَ إِلَىٰ بَابِهِ يَرِيدُونَهُ فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ إِمْرَأَتُهُ شَمْطَاءُ عِوَاءَ فَقَالَتْ مَنْ أَنْتُمْ فَقَالُوا نَحْنُ مِنْ بِلَادٍ كَذَا وَكَذَا أَجَدَبْتَ بِلَادَنَا فَجِئْنَا إِلَىٰ هُودٍ نَسْأَلُهُ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ حَتَّىٰ تَمُطِرَ وَتَخْضِبَ بِلَادَنَا فَقَالَتْ لَوْ أَسْتَجِيبَ لَهُودٌ لِدَعَا لِنَفْسِهِ فَقَدْ إِحْتَرَقَ زَرْعُهُ لَقَلَّةَ الْمَاءِ قَالُوا فَأَيْنَ هُوَ قَالَتْ هُوَ فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا فَجَاءُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ أَجَدَبْتَ بِلَادَنَا وَ لَمْ تَمُطِرْنَا فِإِسْأَلِ اللَّهِ أَنْ يَخْضِبَ بِلَادَنَا فَتَهْيَأَ لِلصَّلَاةِ وَ صَلَّيْ وَ دَعَا لَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ أَرْجِعُوا فَقَدْ أَمُطِرْتُمْ وَ أَخْضَبْتَ بِلَادَكُمْ فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَنَا رَأَيْنَا عَجَبًا قَالَ رَأَيْتُمْ فَقَالُوا رَأَيْنَا فِي مَنَزَلِكِ إِمْرَأَةً شَمْطَاءَ عِوَاءَ قَالَتْ لَنَا مِنْ نَتْمٍ وَ مَا تَرِيدُونَ قُلْنَا جِئْنَا إِلَىٰ هُودٍ لِيَدْعُوا اللَّهَ فَيَمُطِرَ فَقَالَتْ لَوْ كَانَ هُودٌ دَاعِيًا لِدَعَا لِنَفْسِهِ فَأَنْ زَرْعُهُ قَدْ إِحْتَرَقَ فَقَالَ هُودٌ تِلْكَ أَهْلِي وَ أَنَا أَدْعُو اللَّهَ لَهَا بِطُولِ الْبَقَاءِ فَقَالُوا وَ كَيْفَ ذَلِكَ قَالَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ مَا خَلَقَ مُؤْمِنًا وَ إِلَّا وَ لَهُ عَدُوٌّ يُؤْذِيهِ وَ هِيَ عَدُوَّتِي فَلَأَنْ يَكُونَ عَدُوِّي مِمَّنْ أَمْلَكَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَدُوِّي مِمَّنْ يَمْلِكُنِي فَبَقِيَ هُودٌ فِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ حَتَّىٰ تَخْضِبَ بِلَادَهُمْ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ وَ هُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

وَايَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ فَقَالُوا كَمَا حَكَى اللَّهُ، يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ الْخَ فَلَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الصَّارِصَ يَعْنِي الْبَارِدَةَ:

قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ: كَذَّبَتْ غَاثٌ فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرًا إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ^(١).

وَ حَكَى اللَّهُ فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ: وَ أَمَّا غَاثٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ غَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا^(٢).

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الجلد الثامن

قال كان القمر منحوساً بزحل سبع ليالٍ وثمانية أيام انتهئ.
وقال بعض أرياب السَّير لَمَّا تَمَّ لهوداً أربعون سنة أوحى الله إليه أن أنت قومك فأدعهم الى عبادتي و توحيدي فإن أجابوك زدتهم قوَّةً وأموالاً بينا هم مجتمعون اذ أتاهم هود فقال يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره فقالوا يا هود لقد كنت عندنا ثقةً أميناً قال فأني رسول الله اليكم دعوا عبادة الأصنام فلَمَّا سمعوا ذلك بطشوا به و خنقوه و تركوه كالميت فبقي يومه و ليلته مغشياً عليه فلَمَّا أفاق قال يا ربَّ أني قد عملت و قد ترى ما فعل بي قومي فجاء جبرئيل فقال يا هود أن الله يأمرك أن لا تغتر عن دعاءهم و قد وعدك أن يلقي في قلوبهم الرُّعب فلا يقدرّون على ضربك بعدها فاتاهم هود و قال لهم قد تجبّرتم في الأرض و أكثرتم الفساد فقالوا يا هود أترك هذا القول فإننا إن بطشنا بك الثَّانية نسيت الأولى فقال دعوا هذا و أرجعوا الى الله و توبوا اليه فلَمَّا رأى ما لبسهم من الرُّعب علموا أنَّهم لا يقدرّون على ضربه الثَّانية فاجتمعوا بقوَّتهم فصاح بهم هود صيحةً فسقطوا لوجوههم ثمَّ قال هود يا قوم قد تماديتم في الكفر كما تمادى قوم نوح و خليك أن أدعوا عليكم كما دعى نوح على قومه فقالوا يا هود أن ألهة قوم نوح كانوا ضعفاء و أن ألهتنا أقوياء و قد رأيت شدة أجسامنا و كان طول الرّجل منهم مائة و عشرين ذراعاً بذراعهم و عرضه ستون ذراعاً و كان أحدهم يضرب الجبل الصّغير فيقطعه فمكث هود على هذا فيهم يدعوهم سبع مائة و ستين سنة فلَمَّا أراد الله هلاكهم حقّق الأحقاف حتّى صارت أعظم من الجبال فقال لهم هود يا قوم ألا ترون هذه الرّمال كيف تحقّقت أني أخاف أن تكون مأمورة فأغتَمَّ هود لَمَّا رأى من تكذيبهم و نادته الأحقاف قِرِّ يا هود عينا فإنّ لعاد منّا يوم سوء فلَمَّا سمع هود ذلك قال يا قوم إتقوا الله و إعبدوه فإن لم تؤمنوا صارت هذه الأحقاف عليكم عذاباً و نقمةً فلَمَّا سمعوا ذلك أقبلوا على نقل الأحقاف فلا تزيد إلا كثرة فرجعوا صاغرين

فَقَالَ يَارَبِّ قَدْ بَلَغْتَ رِسَالَاتِكَ فَلَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا كُفْرًا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا هُودُ أَنِّي
 أَمْسَكَ عَنْهُمْ الْمَطَرَ فَقَالَ هُودٌ، يَا قَوْمِ قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي أَن يَهْلِكَ لَكُمُ وَمَرَّ صَوْتُهُ فِي
 الْجِبَالِ وَ سَمِعَ الْوَحْشُ صَوْتَهُ وَ السَّبَاعُ وَ الطَّيْرُ فَاجْتَمَعَ كُلُّ جَنَسٍ مِنْهَا يَبْكِي وَ
 يَقُولُ يَا هُودُ أَتَهْلِكُنَا مَعَ الْهَالِكِينَ فَدَعَا هُودُ رَبَّهُ تَعَالَى فِي أَمْرِهَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ
 أَنِّي لَا أَهْلِكُكَ مِنْ لَمْ يَعْصِي بِذَنْبٍ مِنْ عَصَانِي تَعَالَى اللَّهُ عُلُوًّا كَبِيرًا أَنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ
 وَ فِيهِ عِبْرَةٌ لِّلْمُعْتَبِرِ.



وَالِى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ
 الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا
 إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ
 قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا
 يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
 مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ
 مِنْ رَبِّى وَأَتَانِى مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ
 اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)
 وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
 فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
 عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ
 الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
 فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا
 إِن تَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)

ضياء القرآن فى تفسير القرآن



المجلد التاسع

◀ اللغة

ثَمُودَ بفتح الثاء وضم الميم قيل هو عجمي وقيل هو عربي وترك صرفه
 لكونه إسم قبيلة وهو مفعول من التمدد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ومنه

قيل فلان مثمود اذا كثر عليه السُّؤال حتَّى فقد مادَّة ماله.
 أَنشَأَكُمْ النِّسَاءَ والنَّشَأَ إِحْدَاثَ الشَّيْءِ وَتَرْبِيَتَهُ وَالإِنشَاءَ إِيجَادَ الشَّيْءِ وَتَرْبِيَتَهُ
 وأكثر ذلك يقال في الحيوان.
 مَرَجُوا الرِّجَاءَ تَعَلَّقَ النَّفْسُ بِمَجِيئِ الْخَيْرِ عَلَى جِهَةِ الظَّنِّ وَ مِثْلُهُ الأَمَلُ وَ
 الطَّمَعُ وَ الْمَرَجُو إِسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ رَجَا يَرْجُو وَ الْمَعْنَى قَدْ كُنَّا نَرْجُوا مِنْكَ الْخَيْرَ.
 فَذَرُوهَا أَيِ إِتْرَكُوهَا.
 تَمَسُّوهَا الْمَسَّ وَ اللَّمَسَ مِتْقَارِبَانِ وَ بَعْضُهُمْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمَسِّ وَ اللَّمَسِ فَقَالَ
 الْمَسُّ يَكُونُ بَيْنَ جَمَادَيْنِ وَ اللَّمَسُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ حَيَّيْنِ.
 فَعَقَرُوهَا الْعَقْرَ قَطَعَ الْعِضْوَ الَّذِي لَهُ سِرَايَةٌ فِي النَّفْسِ.
 جَاثِمِينَ أَيِ خَامِدِينَ وَ الْجَثْمُ السَّقُوطُ عَلَى الْوُجُوهِ وَ قِيلَ هُوَ الْقَعُودُ عَلَى
 الرُّكْبِ يُقَالُ جَثِمَ عَلَى الْقَلْبِ إِذَا ثَقَلَ عَلَيْهِ.

◀ الإعراب

عَيَّرَ تَخْسِيرٌ قِيلَ أَنْ غَيْرَ، هُنَا إِسْتِثْنَاءٌ فِي الْمَعْنَى وَ هُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِتَزِيدُونِي
 أَيِ فَمَا تَزِيدُونِي إِلَّا تَخْسِيرًا وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فِي حَذْفِ التَّاءِ
 عَنِ الْفِعْلِ ثَلَاثَةً أَوْجَه:

أَحَدُهَا: الْفَصْلُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ.

ثَانِيهَا: أَنَّ التَّانِيثَ غَيْرُ حَقِيقِي.

الثَّالِثُ: أَنَّ الصَّيْحَةَ بِمَعْنَى الصِّيَاحِ فَحُمِلَ عَلَى الْمَعْنَى.

لِثُمُودَ يَقْرَأُ بِالتَّنْوِينِ لِأَنَّهُ مَذْكُورٌ وَ هُوَ حَيٌّ أَوْ أَبُو الْقَبِيلَةِ وَ بِحَذْفِ التَّنْوِينِ غَيْرُ
 مَصْرُوفٍ عَلَى أَنَّهَا الْقَبِيلَةُ.

◀ التفسير

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ نُوحٍ وَ هُودٍ حَكَى قِصَّةَ صَالِحِ النَّبِيِّ فَقَالَ: وَ إِلَى
 ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَيِ وَ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا، لِأَنَّهُ عَطَفَ عَلَى مَا

تقدّم و ثمود إسم قبيلة صالح على المشهور و صالح النبي كان منهم قال تعالى
و الى ثمود أخاهم صالحاً، فالأخوة في النسب لا في الدين.
قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قد فسرناه في قصة هود و
محضله أن صالح دعاهم الى التوحيد و ترك عبادة الأصنام كما دعى هود
قومه به **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** أي أعبدوا خالقكم و
موجدكم الذي أنشأكم من الأرض أي أوجدكم و خلقكم فيها و ذلك لأن الله
تعالى خلق آدم من تراب:

قال الله تعالى: **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ نَارَةً أُخْرَى** ^(١).

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ** ^(٣).

قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** ^(٤).

قال الله تعالى: في حكاية عن إبليس: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ^(٥).

و غيرها من الآيات و قد مرّ الكلام في هذا الباب في سورة البقرة و
الأعراف و سيأتي البحث في موضعه.

وأما قوله: **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** أي جعلكم قادرين على عمارة الأرض و
مكنكم منها و عن المجاهد أنه قال: **اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** أي أعمركم بأن جعلها
لكم طول أعماركم و منه العمري المسألة المعروفة في الفقه.

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ الفاء للتفريع أي اذا كان الله تعالى هو الذي

أوجدكم وخلقكم من تراب الأرض وإستعمركم فيها، فإستغفروه و توبوا اليه أي فاطلبوا المغفرة منه تعالى عمّا مضى و توبوا و أرجعوا اليه بالنسبة الى المستقبل و أنما قدّم الإستغفار على التوبة لأنّها لا تتحقّق بدونه واقعاً و يحتمل أن يكون المعنى إستغفروا عن عبادة الأصنام و أرجعوا اليه تعالى بعبادتكم إيّاه و أنما قال ذلك بعد قوله هو أنشأكم وإستعمركم فيها، لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً.

و من المعلوم عند جميع العقلاء أنّه لا نعمة أشرف و أفضل من نعمة الإيجاد و بعده لا نعمة أفضل من نعمة القدرة اذ بهما يحصل المطلوب و كلاهما من إعطاء الله و إفاضته و اذا كان كذلك يجب عقلاً أن يشكر المخلوق إيّاه و أساس الشكر معرفته و أنّه لا إله إلاّ هو و اذا تحقّقت المعرفة تحقّقت العبادة فأنّها فرعٌ عليها فإنّ الله تعالى لم يخلق الخلق إلاّ ليعرفوه فاذا عرفوه عبدوه، و اذا عبدوه إستغنوا بطاعته عن طاعة ما سواه فمن عبد غيره تعالى جهلاً يجب عليه الإستغفار أولاً و الرجوع اليه بعده.

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْخَلْقِ مُجِيبٌ دَعْوَتَهُ ، أَمَّا أَنَّهُ قَرِيبٌ فَلِأَنَّ الْعِلَّةَ أَقْرَبَ إِلَى مَعْلُولِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ :

قال الله تعالى: **وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ^(١)**.

قال الله تعالى: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٢)**.

قال الله تعالى: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَئِنْ لَا تُبْصِرُونَ^(٣)**.

ففي قوله تعالى إشارة الى أصليين أصليين القرب، و الإجابة و في قوله مجيبٌ مضافاً الى المعنى إشارة الى نكتة خفية و هي أنّ الله تعالى يجيب دعوة الدّاع و لا يجيب سائله و هو كذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

الجلد التاسع

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا

لَمَّا دَعَاهُمْ صَالِحٌ إِلَى التَّوْحِيدِ قَالُوا فِي جَوَابِهِ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا
أَيُّ كُنَّا نَرْجُوا مِنْكَ الْخَيْرَ قَبْلَ هَذَا الْكَلَامِ.

قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ أَيُّ كَانَتْ تَلُوحُ فِيكَ مَخَايِلُ الْخَيْرِ وَإِمَارَاتُ الرُّشْدِ فَكُنَّا
نَرْجُوكَ لِنَسْتَفْعِدَ بِكَ وَتَكُونَ مَشَاوِرًا فِي الْأُمُورِ وَمُسْتَرْشِدًا فِي التَّدَابِيرِ فَلَمَّا
نَطَقْتَ بِهَذَا الْقَوْلِ انْقَطَعَ رَجَاءُنَا عَنْكَ وَعَلِمْنَا أَنَّ لَا خَيْرَ فِيكَ.

وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ أَيُّ فَاضِلًا خَيْرًا عَلَى جَمِيعِنَا.

وَقَالَ الْآخَرُونَ كُنَّا نَرْجُوا أَنْ تَدْخُلَ فِي دِينِنَا وَتَوَافِقَنَا عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ إِنْ تَهَيَّأَ.
أَقُولُ الْمَعْنَى وَاضِحٌ لَا خُفَاءَ فِيهِ وَالَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ
الْمُتَكَلِّمَ إِذَا تَكَلَّمَ عَلَى طَبَقِ مِيلِ الْمَخَاطَبِ فَهُوَ عَلَى خَيْرِ بَزْعَمِهِ وَإِلَّا فَلَا أَصْلَ
مِنْ أَصُولِ الْمَحَاوِرَاتِ الْعَرَفِيَّةِ عِنْدَ الْعَوَامِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَالَمَ إِذَا وُافِقَ الْعَوَامَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَهُمْ وَ
إِذَا خَالَفَهُمْ فِيهَا فَلَا وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي مَخَالَفَةِ النَّاسِ أَنْبِيَاءَهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ مِنْ
الْأَزْمَنِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَكَلَّمُوا عَلَى طَبَقِ أُمِّيَالِهِمْ وَأَهْوَاءِهِمْ بَلْ دَعَوْهُمْ إِلَى خِلَافِ
أُمِّيَالِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ الْبَعْثَةِ عِنْدَ قَوْمِهِمْ وَأَبْنَاءَ زَمَانِهِمْ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَ
أَحْسَنِهِمْ سِيرَةً وَعَمَلًا وَلِذَلِكَ قَالُوا: أَتَنْتَهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَيُّ قَالُوا
لِصَالِحٍ أَتَمْنَعُنَا وَتَنْهَانَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَتَدْعُونَا
إِلَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مَقْلَدِينَ لِأَبَائِهِمْ لَا أَنَّهُمْ اخْتَارُوا عِبَادَةَ
الْأَصْنَامِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِمْ وَغَوَايَتِهِمْ فَأَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَقْلُدُ
غَيْرَهُ فِي أَصُولِ دِينِهِ وَلِذَلِكَ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ كَافَّةً عَلَى حُرْمَةِ التَّقْلِيدِ فِي الْأَصُولِ
أَعْنِي بِهَا التَّوْحِيدَ وَالنَّبُوَّةَ وَالْمَعَادَ وَالْإِمَامَةَ وَأَمَّا الْفُرُوعُ فَلَا إِشْكَالَ فِيهَا.

وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ أَيُّ إِنَّا نَقْطَعُ بِصَحَّةِ قَوْلِكَ بَلْ
نَحْنُ مِنَ الشَّاكِّينَ فِيهِ وَأَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَقْلَدِينَ لِأَبَائِهِمْ وَمَنْ كَانَ
كَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّعَلُّقِ.

وقال بعض المفسرين معنى الكلام أن الذي أتيتنا به لا يوجب الشك فنحن في شك منه والريبة هي الشك إلا أن معها تهمة للمعنى ليست في نقيضه و أما الشك فقد يعتدل فيه التقيضان.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ
قد مرّ نظير هذه الآية في قصة نوح النبي ﷺ حيث قال: قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ^(١).

و قلنا هناك أن المراد بالبيّنة الحجّة و البرهان و الشاهد أو المعجزة و المأل واحد فإن كلّ ما يثبت به الدّعوى يعبر عنه بالبيّنة:

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ^(٢).

قال الله تعالى: جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ^(٣).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ^(٤).

و الآيات كثيرة ثم أن البيّنة تختلف بحسب الزّمان و المكان و السّؤال و أمثال ذلك و لذلك ترى معجزة كلّ نبيّ في كلّ زمانٍ غيرها في زمانٍ آخر أو مكانٍ آخر أو قومٍ آخر و ذلك لأنّ النبيّ المبعوث في كلّ زمانٍ لابدّ من أن يكون معجزته مطابقة لما يقتضيه زمانه و مكانه و هذا هو السّر في اختلاف البيّنات و إلاّ فالدّعوة في جميعهم واحدة و هي التّوحيد و النّبوة و بالجملة الدّين، و المرسل هو الله الواحد الأحد و لا شك أن المعجزة من كلّ نبيّ أتما هي بأمره تعالى و إذنه فلولاً ما ذكرناه من الوجه لا معنى لاختلاف البيّنات.

سبل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

و المراد من الرِّحمة في قوله و أتاني منه رحمة أي من الله تعالى و هي النبوة و يحتمل أن يكون المراد بها القدرة على إظهار الحجّة و البرهان و على أي حال تكون الرِّحمة منه تعالى.

و قوله: **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ** فمن إستفهامية، و المراد بالعصيان قيل هو متابعة هؤلاء القوم أي إن إتبعتمكم فيما أنتم عليه من الكفر و دعوتهموني اليه من ترك الدعوة الى الله فمن ينصرني منه تعالى أي من ينجيني من سخطه و عذابه.

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ما نافية، و غير، بمعنى، إلا الإستثنائية و المعنى ليس تزيدونني بإحتجاجكم بعبادة آبائكم أي ما تزدادون إلا خساراً. و قيل في معناه ان أجبتمكم الى ما تدعونني اليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران.

و قيل معناه ما تزيدونني على ما أنا عندكم إلا خساراً و أحسن الأقوال هو القول الثاني لأنّ قوله فما تزيدونني غير تخسير، ظاهر في أنّ ترك الدعوة أو متابعتكم فيما تدعونني اليه يوجب الضرر و الخسران في حقّي فأني بعثت اليكم من قبل الله تعالى لأدعوكم الى التوحيد و ترك عبادة الأصنام و مخالفة الأمر توجب الخسران في الدنيا و الآخرة و اذا كان كذلك فأني أدعوكم الى ما أمرني الله به فإن لم تقبلوا قلوا: **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاحٌ**.

ثم أشار صالح الى ما أتاه ربّه من البينة الدالة على صدق دعواه وهي الناقة التي كانت من آيات الله فقال كما حكى الله تعالى عنه.

وَ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ

في الآية مسائل:

أحدها: قوله **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ**.

الثانية: قوله فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ.
 الثالثة: قوله وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ.
 الرابعة: قوله فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ.

أما المسألة الأولى: وهي قول صالح لقومه هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ أَصْلُهَا نُوْقَةٌ عَلَى فَعْلَةٍ بِلَا تَحْرِيكٍ لِأَنَّهَا جُمِعَتْ عَلَى نُوقٍ مِثْلَ بَدَنَةٍ وَبَدَنٍ وَ قَدْ جُمِعَتْ فِي إِيْلَقَةٍ عَلَى أَنْوَقٍ ثُمَّ اسْتَنْقَلُوا الضَّمَّةَ عَلَى الْوَاوِ فَقَدَّمُوهَا فَقَالُوا أُونُوقٍ ثُمَّ عَوَّضَ الْوَاءُ يَاءً فَقَالُوا، أُنِيقٌ ثُمَّ جَمَعُوهَا عَلَى أَيْبَانِقٍ وَ قَدْ تَجَمَعَ النَّاقَةُ عَلَى نِيَاقٍ كَثْمَرَةٍ وَ ثَمَارٍ وَ النَّاقَةُ مِنَ الْإِبِلِ وَ قَوْلُهُ: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ كُلِّ خَلْقٍ إِلَى خَالِقِهِ تَشْرِيفًا لَهُ وَ إِخْتِصَاصًا وَ تَنُوقٍ فِي الْأَمْرِ تَأْنُقُ فِيهِ وَ مِنْهُ إِعْمَلُ طَعَامًا وَ تَنُوقٍ فِيهِ وَالتَّنُوقُ الْحَسَنُ وَ الْجُودَةُ وَ مِنْهُ الْحَدِيثُ تَنُوقُوا بِأَكْفَانِكُمْ فَأَنْتُمْ تَبْعُونَ بِهَا، أَيْ إِطْلُبُوا حَسَنَهَا وَجُودَتَهَا مِنْ قَوْلِهِمْ تَنُوقُ وَ تَنْبِقُ فِي مَطْعَمِهِ وَ مَلْبَسِهِ أَيْ تَجُودُ وَ بَالِغٌ وَ الْإِسْمُ النَّيْقَةُ بِالْكَسْرِ.

و أما الآية فهي العلامة وهي مشتقة من التأني الذي هو التثبت والإقامة على الشيء فقوله: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ مَعْنَاهُ أَنَّ النَّاقَةَ آيَةٌ وَعَلَامَةٌ لَكُمْ مِنْ جِهَةٍ دَلَّالَتِهَا عَلَى وَجُودِ خَالِقِهَا وَ قُدْرَتِهِ لَوْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَ هِيَ لَيْسَتْ إِلَّا جُمَادَاتٍ، أَوْ أَنَّهَا عَلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ نُبُوتِي وَ أَنِّي مَبْعُوثٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ إِلَى الْخَلْقِ وَ كَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ بَلْ هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْآيَاتِ وَ أَعْظَمِهَا.

فقد روي القمي في تفسيره بأسناده إلى أبي جعفر عليه السلام أَنَّهُ قَالَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ صَالِحًا إِلَى ثَمُودَ وَهُوَ ابْنُ سِتَّةِ عَشْرَةِ سَنَةً لَا يَجِيبُوهَ إِلَى خَيْرٍ وَكَانَ لَهُمْ سَبْعُونَ صِنْمًا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ قَالَ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ وَأَنَا ابْنُ سِتَّةِ عَشَرَ وَ قَدْ بَلَغْتُ عَشْرِينَ وَ مِائَةَ سَنَةٍ وَ أَنَا أَعْرَضُ عَلَيْكُمْ أَمْرَيْنِ إِنْ شِئْتُمْ فَأَسْأَلُونِي مَهْمَا أَرَدْتُمْ حَتَّى أَسْأَلَ إِلَهِي فَيَجِيبُكُمْ وَ أَنْ شِئْتُمْ سَأَلْتُ آلِهَتَكُمْ فَأَنْ

في التفسير في القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

أجابني خرجت عنكم فقالوا أنصفت فأمهلنا فأقبلوا يتعبدون ثلاثة أيام ويتمسحون بالأثام ويدبحون لها وأخرجوها الى سفح الجبل وأقبلوا يتضرعون اليها فلما كان اليوم الثالث قال لهم صالح قد طال هذا الأمر فقالوا له سل من شئت فدنا الى أكبر صنم لهم فقال ما إسمك فلم يجبه فقال لهم ماله لا يجيبني قالوا تتع عنه فتنحى عنه وأقبلوا اليه ووضعوا على رؤوسهم التراب وضجوا وقالوا فضحتنا ونكست رؤوسنا وقال صالح قد ذهب النهار فقالوا سله فدنا منه فكلمه فلم يجبه فبكوا وتضرعوا حتى فعلوا ذلك ثلاث مرّات فلم يجبههم بشئ فقالوا إنّ هذا لا يجيبك و لكنّا نسأل إلهك فقال لهم سلوا ما شئتم فقالوا سله أن يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء شقراء عشراء أي حاملة تضرب بمنكبها طرفي الجبلين وتلقي فصيلها من ساعتها وتدر لبنها فقال صالح أنّ الذي سألتموني عندي عظيم وعند الله هين فقام و صلى ركعتين ثم سجد وتضرع الى الله فما رفع رأسه حتى تصدع الجبل وسمعوا له دويّاً شديداً ففزعوا منه وكادوا أن يموتوا منه فطلع رأس الناقة وهي تجتر فلما خرجت ألقّت فصيلها ودرّت لبنها فبهتوا وقالوا قد علمنا يا صالح أنّ ربك أعزّ وأقدر من آلهتنا التي نعبدها.

أقول هذا معنى قول صالح هذه ناقة الله لكم آية وقد ظهر أنّها من أكبر الآيات وأعظمها وإلا فكلّ شيء له تعالى آية كما قيل.

وفي كلّ شيء له آية تَدُلُّ على أنّه واحد.

أمّا المسألة الثانية: وهي قوله: فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ معناه إتركوها ولا تتعرضوا لها تأكل في أرض الله ففيه إشارة الى أن رزقها بيد خالقها والأرض وما فيها من الماء والكلاء ليست لكم بل هي مملوكة لخالقها الذي خلقها والناقة أيضاً خلقها الله فأتركوها في أرضه تأكل وتشرب، قال أبو

جعفر عليه السلام كان لقربتهم ماء وهي الحجر التي ذكرها الله تعالى في قوله: **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجُبْرِ الْمُزْسَلِينَ** ^(١) فقال لهم صالح لهذه الناقة شرب أي أنها تشرب ماءكم يوماً وتدر لبنها عليكم وهو قوله عز وجل: **لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّغْلُومٍ** ^(٢) فكانت تشرب ماءهم يوماً وإذا كان من الغد وقفت وسط قربتهم فلا يبقى في القرية أحد إلا حلب منها حاجته وكان الأمر على هذا المنوال برهة من الزمان.

أما المسألة الثالثة: وهي قوله: **وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَأَنْتَهُمْ خَالَفُوهُ وَأَرَادُوا عَقْرَهَا** ولم يعلموا أنه يوجب غضب الرب ونزول العذاب كما أوعدهم صالح به فهموا بقتلها وكانت في قربتهم امرأة جميلة يقال لها صدوف ذات مال من إبلٍ وبقريٍّ وغنمٍ وكانت أشد الناس عداوةً لصالح فدعت رجلاً من ثمود يقال له مصدع بن مخرج وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وإمرأة أخرى يقال لها عنيزة دعت قدار بن سالف وكان أحمر أزرق قصيراً وكان ولد زنا ولم يكن لسالف الذي يدعى إليه ولكنّه ولد على فراشه وقالت أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه فأنطلق قدار بن سالف ومصدع فاستغويا غواة ثمود فأتبعهما سبعة نفر وأجمعوا على عقر الناقة قالوا لما ولد قدار وكبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب فأردوا ماءً يمزجون به شرايبهم وكان ذلك اليوم شرب ناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم فقال قدار هل لكم في أن أعقرها لكم قالوا نعم.

وقيل كان سبب عقرهم الناقة أن امرأة يقال لها ملكاً قد ملكت ثمود فلما أقبل الناس على صالح حسدته فقالت لإمرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدار بن سالف، وإمرأة أخرى يقال لها قبال وكانت معشوقة مصدع وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما كليلٍ ويشربون الخمر فقالت لهما ملكاء أن أتاكما الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاهما وقولا لهما أن الملكة حزينة لأجل

ذيل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجزء الثاني

النَّاقَةُ وَصَالِحٌ وَلَا نَطِيعُكُمَا حَتَّى تَعْقِرَا النَّاقَةَ فَلَمَّا أَتَيَاهَا قَالَتَا لِهَٰمَا هَذِهِ الْمَقَالَةُ فَقَالَا نَحْنُ نَكُونُ مِنْ وَرَاءِ عَقْرِهَا فَأَنْطَلَقَ قَدَارٌ وَمَصْدَعٌ وَأَصْحَابُهُمَا السَّبْعَةُ فَرَسَدُوا النَّاقَةَ حِينَ رَجَعْتَ عَنِ الْمَاءِ وَقَدْ كَمِنَ لَهَا قَدَارٌ فِي أَصْلِ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا وَكَمِنَ لَهَا مَصْدَعٌ فِي أَصْلِ أُخْرَى فَمَرَّتْ عَلَى مَصْدَعٍ فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ فَأَنْتَظَمَ بِهِ عِضْلَةَ سَاقِهَا وَخَرَجَتْ عَنِزَةً وَأَمَرَتْ ابْنَتَهَا وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَسْتَقَرَّتْ لِقَدَارٍ ثُمَّ زَمَرَّتْهُ فَشَدَّ عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ فَكَشَفَ عَرْقُوبَهَا فَخَرَّتْ وَرَغَتْ رِغَاءً وَاحِدَةً تَحْدَرُ سَقْبَهَا ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَتِهَا فَنَحَرَهَا وَخَرَجَ أَهْلُ الْبَلَدَةِ وَأَقْتَسَمُوا لَحْمَهَا وَطَبَخُوهُ فَلَمَّا رَأَى الْفَصِيلُ مَا فَعَلَ بِأُمِّهِ وَلَّى هَارِباً حَتَّى صَعَدَ جَبَلًا ثُمَّ رَغَا رِغَاءً تَقَطَّعَ مِنْهُ قُلُوبُ الْقَوْمِ وَأَقْبَلَ صَالِحٌ فَخَرَجُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَقَالُوا أَنَّمَا عَقَرْنَا فَلَانَ وَفِلَانًا وَلَا ذَنْبَ لَنَا فَقَالَ صَالِحٌ أَنْظَرُوا هَلْ تَدْرِكُونَ فَصِيلَهَا فَإِنْ أَدْرَكْتُمُوهُ فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْكُمْ الْعَذَابَ فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ بِالْجِبَلِ فَلَمْ يَجِدُوهُ وَكَانُوا عَقَرُوا النَّاقَةَ لَيْلَةَ الْارْبِعَاءِ فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ تَمَتَّعُوا بِالْآيَةِ وَسَيَجِيئُ الْكَلَامُ فِيهَا.

أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: فَقَوْلُهُ: **فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ:

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذٌ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ يَعْنِي قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ بَعْدَ عَقْرِهِمُ النَّاقَةَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ أَيَّامٍ فِي مَحَلَّتِكُمْ فِي الدُّنْيَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِكُمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يَا قَوْمُ أَنْتُمْ تَصْبِحُونَ غَدًا وَجُوهَكُمْ مَصْفَرَّةٌ وَالْيَوْمَ الثَّانِي تَصْبِحُونَ وَجُوهَكُمْ مَحْمَرَّةٌ وَالْيَوْمَ الثَّالِثَ جُوهَكُمْ مُسْوَدَّةٌ فَلَمَّا كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ أَصْبَحُوا وَجُوهَهُمْ مَصْفَرَّةٌ فَقَالُوا جَاءَكُمْ مَا قَالَ صَالِحٌ وَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي إِحْمَرَّتْ وَجُوهَهُمْ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِسْوَدَّتْ وَجُوهَهُمْ فَلَمَّا كَانَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَتَاهُمْ جِبْرَائِيلُ فَصَرَخَ بِهِمْ صَرْخَةً خَرَقَتْ أَسْمَاعَهُمْ وَفَلَقَتْ قُلُوبَهُمْ وَصَدَعَتْ أَكْبَادَهُمْ وَكَانُوا قَدْ تَحَنَّنُوا وَ

تَكْفَنُوا و علموا أَنَّ العذاب نازل بهم فماتوا أجمعين في طرفة عين كبيرهم و صغيرهم فلم يبق الله منهم ثاغية و لا راغية و لا شيئاً يتنفس إلا هلكها فأصبحوا في ديارهم موتى ثم أرسل الله عليهم الصيحة مع النار من السماء فأحرقهم أجمعين و هذا معنى قوله: ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ الْجِبَارِ و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ الْخ.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

أي فلما أردنا أن نهلكهم نجينا صالحاً و من آمن معه من العذاب برحمة منا أي أن رحمتنا شملتهم لإيمانهم و عدم إستحقاقهم للعذاب أن ربك هو القوي أي القادر و العزيز أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد على منعه يقال عز علي الشيء إذا إمتنع بقلبه إذا عرفت هذا فلا بأس بالإشارة الى ما نقله المجلسي رحمه الله في البحار.

قال روي الثعلبي بأسناده مرفوعاً عن النبي ﷺ قال ﷺ: يا علي أتدري من أشقى الأولين قال قلت لله و رسوله أعلم قال ﷺ: عاقر الناقة ثم قال أتدري من أشقى الآخرين قال قلت لله و رسوله أعلم قال ﷺ: قاتلك.

و في رواية أخرى قال أشقى الآخرين من يخضب هذه من هذه و أشار الى لحيته و رأسه انتهى.

أقول و في هذه القصص التي أخبر الله تعالى بها في كتابه عبرة لمن إعتبر بها و موعظة لمن إنعظ بها و ليس ذلك إلا لمن كان له قلب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أكثر العبر و أقل الإعتبار.

قال رسول الله ﷺ: الناس نيام إذا ماتوا إنتبهوا نعوذ بالله منه.

و الى العذاب النَّازل عليهم أشار الله تعالى بقوله:

وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ
و قد ظهر المعنى ممّا ذكرناه وله الحمد.

كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ.
أي كأن لم يقيموا فيها لإنقطاع آثارهم بالهلاك و ما بقى من أخبارهم الدّالة
على الخزي الذي نزل بهم يقال غنى بالمكان إذا قام به قال الشاعر:
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر.
و حاصل معنى الآية كأن ثمود لم تكن في الدّنيا إذ لم يبق إلا اللّعة في
الدّنيا و العذاب في الدّنيا و الآخرة و ذلك هو الخسران المبين الذي لا خسران
فوقه.



وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا
 سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ
 (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ
 أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا
 إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ
 فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ
 (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا
 بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا
 أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
 عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا
 ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى
 يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ
 أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ
 قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ
 مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيَّءَ بِهِمْ
 وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)
 وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا
 يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
 أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي
 أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ
 مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
 (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَ إِلَى رُكْنٍ

شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ
يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا
يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا
أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢)
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بِبَعِيدٍ (٨٣)

◀ اللغة

بِعَجَلٍ حَنِذٍ العجل بكسر العين و سكون الجيم هو ولد البقرة يسمّى بذلك
بتعجيل أمره بقرب ميلاده و يقال فيه عجل و جمعه عجاجيل و الحنيز بفتح
الحاء و كسر النون و سكون الياء و الذال، المشوي و معناه محنود، فجاء فاعيل
ي معنى مفعول كطبخ و مطبوخ و قتل و مقتول.

و قال في المفردات، حنيز، مشوي بين حجرين و أما يفعل ذلك لتعيب
عنه اللزوجة التي فيه.

أَوْجَسَ أي أضمر.

يَا وَيْلَتَى يجوز أن يكون ألف ندبة و يحتمل أن يكون للإضافة إنقلب من
الياء و نظير ذلك قول العرب يا للدواهي.

الرَّوْعُ الإفزع و الخوف.

أَوَاهُ الْأَوَاهِ الرّحيم و قيل الرّجاع و قيل كثير الدّعاء.

مُنِيبٌ المنيب هو الرّاجع الى الطّاعة و لذلك يقال التّوبة الإنابة لأنّها رجوع
الى حال الطّاعة.

سَيَّءَ بِهِمْ أَي سَاءَ مَجِئُهُمْ وَأَصْلُهُ سَوِيَ بِهِمْ فَنَقَلْتُ حَرَكَةَ الْوَاوِ إِلَى السِّينِ وَقَلَبْتُ هَمْزَةً.

عَصِيبٌ أَي شَدِيدٌ فِي الشَّرِّ.

يُهْرَعُونَ أَي يَسْرِعُونَ. قَالَ الْكَسَائِيُّ الْإِهْرَاعُ الْإِسْرَاعُ مَعَ رَعْدَةٍ.

أَوْيَ أَي أَلْجَأَ.

سَجِيلٌ مَنصُودٌ السَّجِيلُ بِكَسْرِ السِّينِ وَالْجِيمِ الْمَشْدَدَةِ الشَّدِيدُ الْكَثِيرُ مَنصُودٌ أَي مُتَتَابِعٌ، قَالَ قَتَادَةُ نَضَدَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَقَالَ عَكْرَمَةُ أَي مَصْفُوفٌ وَقِيلَ مَرْصُوصٌ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

مُسَوِّمَةٌ مِنَ السَّيْمَا وَهِيَ الْعَلَامَةُ.

◀ الإعراب

بِالْبُشْرَى فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الرُّسُلِ قَالُوا سَلَامًا فِي نَصْبِهِ وَجِهَانُ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ عَلَى الْمَعْنَى كَأَنَّهُ قَالَ ذَكُرُوا سَلَامًا.

الثَّانِي: مُصَدَّرٌ أَسْلَمُوا سَلَامًا سَلَامٌ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَي أَمْرِي سَلَامٌ أَوْ

جَوَابِي أَوْ قَوْلِي وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَالْخَبَرُ مَحذُوفٌ أَي سَلَامٌ عَلَيْكُمْ.

أَنْ جَاءَ فِي مَوْضِعِهِ وَجْهٌ:

أَحَدُهَا: جَرَّ تَقْدِيرَهُ عَنْ أَنْ جَاءَ لِأَنَّ، لَبِثَ بِمَعْنَى تَأَخَّرَ.

الثَّانِي: نَصَبٌ وَفِيهِ وَجْهَانُ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَمَّا حُذِفَ حَرْفُ الْجَزْرِ وَصَلَ الْفِعْلُ بِنَفْسِهِ.

الثَّانِي: هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى أَي لَمْ يَتْرَكِ الْإِتْيَانُ بِعَجَلٍ.

الثَّالِثُ: رَفَعٌ وَفِيهِ أَيْضًا وَجْهَانُ:

أَحَدُهُمَا: فَاعِلٌ لَبِثَ أَي فَمَا أَبْطَأَ مَجِئُهُ.

الثَّانِي: أَنْ، مَا، بِمَعْنَى الَّذِي وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَأَنْ جَاءَ، خَبَرُهُ.

وَأَمْرًا تَهُ فَاتِمَّةُ الْجُمْلَةِ حَالٍ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي أَرْسَلْنَا فَضَحَّكَتْ بِكسر الحاء و قرئ بفتحها والمعنى، حاضتْ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَغْقُوبَ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَ مَا قَبْلَهُ الْخَبَرُ هَذَا بَعْلِي مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرٌ شَيْخًا حَالٍ مِنْ بَعْلِي أَهْلُ آلِ بَيْتٍ تَقْدِيرُهُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَوْ يَكُونُ مَنْصُوبًا عَلَى التَّعْظِيمِ وَلِتَخْصِيصِ أَيِّ أُعْنِي وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى مَعْطُوفٌ عَلَى ذَهَبَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ إِبْرَاهِيمَ أَتَيْهِمْ هُوَ خَبَرٌ، أَنْ، وَ عَذَابٌ، مَرْفُوعٌ بِهِ وَ قِيلَ، عَذَابٌ، مُبْتَدَأٌ، وَ أَتَيْهِمْ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ سَيِّءٌ بِهِمُ الْقَائِمُ مَقَامَ الْفَاعِلِ ضَمِيرُ لُوطَ وَ ذَرْعًا تَمْيِيزٌ وَ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَالٌ هَؤُلَاءِ مُبْتَدَأٌ وَ بَنَاتِي عَطْفٌ بَيَانٌ أَوْ بَدَلٌ وَ هُنَّ فَصْلٌ وَ أَطَهَرَ الْخَبَرُ مَا نَزِيدُ مَا، بِمَعْنَى، الَّذِي وَ عَلَيْهِ فَمَوْضِعُا التَّنْصِبِ، بِتَعْلَمُ وَ قِيلَ أَنَّهَا إِسْتِفْهَامِيَّةٌ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بَنِيهِ أَوْ أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا وَ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ خَبَرٌ أَنَّ عَلَى الْمَعْنَى تَقْدِيرُهُ، أَوْ أَتَى أَوْ ي وَ بِكُمْ حَالٌ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَيْسَ مَعْمُولًا لَهَا لِأَنَّهَا مُصَدَّرٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ أَحَدٍ، وَ بِالتَّنْصِبِ عَلَى أَنَّهُ إِسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَحَدٍ أَوْ مِنْ أَهْلِ جَعَلْنَا عَالِيَهَا مَفْعُولٌ أَوَّلٌ وَ سَافِلَهَا ثَانٍ مِنْ سَجِيلِ صِفَةُ لِحْجَارَةٍ وَ مَضْجُودٍ نَعَتْ لِسَجِيلٍ وَ مُسَوِّمَةٌ نَعَتْ لِحْجَارَةٍ وَ عِنْدَ مَعْمُولٍ مُسَوِّمَةٌ أَوْ نَعَتْ لَهَا بِبَعِيدٍ نَعَتْ، لَكَانَ مَحْذُوفٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرٌ، هِيَ، وَ لَمْ، تَوْنُثْ لِأَنَّ الْعُقُوبَةَ وَ الْعِقَابَ بِمَعْنَى أَيِّ الْعِقَابِ بَعِيدًا مِنَ الظَّالِمِينَ.

التفسير

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ
لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَبِيِّهِ قِصَّةَ نُوحَ وَ هُودَ وَ صَالِحَ أَرَدَفَهَا بِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ لُوطَ النَّبِيِّ وَ أَمَّا تَفْصِيلُ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَسَيُجِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَ الْمَهْمُ هَاهُنَا هُوَ قِصَّةُ لُوطَ وَ هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ تَارَخَ بْنِ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَ قِيلَ أَنَّهُ ابْنُ خَالَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ كَانَتْ سَارَةَ امْرَأَةً إِبْرَاهِيمَ أُخْتُ لُوطَ وَ قِيلَ هُوَ ابْنُ

عَمَّ إِبْرَاهِيمَ وَقِيلَ ابْنُ خَالِهِ وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قِيلَ لَهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

وقال الضَّحَّاك كانوا تسعة و قال السَّدي أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه ذوو و ضاعة و جمالٍ بارع، بالبشرى، أي بالولد و قيل بإهلاك قوم لوط و قيل بشروه بأنهم رسل الله و أنه لا خوف عليه، قَالُوا سَلَامًا أَي قال الرُّسل سلاماً، فقال إبراهيم في جوابهم (سَلَامٌ) أي سلام عليكم، فَمَا لَبِثَ أَي فما لبث إبراهيم، ما، نافية و اللَّبث التَّوَقُّفُ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ قَالُوا أَنْ بِمَعْنَى حَتَّى أَي ما لبث إبراهيم و ما تَوَقَّفَ حَتَّى جَاءَهُمْ بِعِجْلٍ و هو ولد البقرة، حنيز، أي مشوي و قيل هو المشوي بَحْر الحجارة من غير أن تمسه النَّار و في قوله فما لبث أن جاء بعجل حنيز.

إشارة الى عادة إبراهيم في إكرام الأضياف و تقديم الطَّعام اليهم و أنما قدَّم الطَّعام اليهم و هم ملائكة لأنَّه رآهم في صورة البشر فظنَّهم أضيافاً .
و قيل أنَّ الرُّسل إستضافوه و إلَّا لم يخف عليه أنَّ الملائكة لا يأكلون يشربون.

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

أي فلما رأى إبراهيم أيدي الرُّسل لا تصل الى العجل المشوي أي رأى أنهم لا يأكلون الغذاء، نكرهم، أي أنكرهم و(و أوجس منهم خيفة) أي أضمر في قلبه الخوف و الوحشة من الرُّسل فلما رأوا ذلك منه قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ أَي قالوا لإبراهيم لا تخف منا إِنَّا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ الى قوم لوط بالعذاب و الإهلاك و قيل أنهم دعوا الله فأحیی العجل الَّذي كان ذبحه إبراهيم و شواه، فظهر و رعى فعلم حينئذٍ أنهم رسل الله تعالى:

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ

أي وإمرأة إبراهيم كانت قائمة هناك وهي سارة بنت هارون بن ناخور وهي ابنة عمه كانت قائمة لخدمة الأضياف وكانت عجوزاً وخدمة الضيفان مما يعد من مكارم الأخلاق وقيل كانت سارة قائمة وراء السّتر تسمع محاورتهم وقيل كانت قائمة تصلي، وقيل معناه قائمة عن الولد فَضَحِكْتُ أي حاضت وعليه إتفاق أكثر المفسرين وقيل هو الضحك المعروف وهو مجاز يعبر به عن طلاقة الوجه و سروره بنجاة أخيها، لوط، و هلاك قومه كما يقال أتيت على روضة تضحك أي مشرقة، وقيل هو حقيقة.

و روي عن ابن عباس أنه قال ضحكت أي حاضت من شدة خوف إبراهيم. وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط و قرب العذاب منهم و قيل ضحكت من البشارة بإسحاق وهي عجوز و الأقوال كثيرة فَبَشَّرْنَاهَا أي فَبَشَّرْنَا إمرأة إبراهيم بإسحاق و بأنّ إسحاق سيلد يعقوب، وإسناد الضمير الى الله مع أنّ المبشرين كانوا رسل الله من الملائكة لأنّ البشارة منهم كانت بأمر الله تعالى و أنّما خَصَّتْ سارة بالبشارة دون إبراهيم لأنّ المرأة اعجل فرحاً بالولد ولأنّ إبراهيم قد بشّره و آمنوه من خوفه فأتبعوا بشارته ببشارتها.

و قيل في وجه الإختصاص بها أنّه لم يكن لها ولد و أمّا إبراهيم فكان له ولد و هو إسماعيل من هاجر و قيل أنّ وراء ولد الولد. و به قال الشعبي و أبو عبيدة و هو قريب من معنى الظرف الذي ذهب اليه المشهور في، وراء، على أيّ حالٍ فلمّا بشروها به.

قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ

أي قالت سارة بعد البشارة يا ويلتي، الظاهر أنّ الألف في يا ويلتي بدل من باء الأضافة نحو يا لهفا و يا عجبا فإنّ الأصل فيهما يا لهفي ويا عجبني وهكذا، يا ويلتي و هذه كلمة تجري على أفواه النساء إذا طرء عليهنّ ما يعجبن منه

والهَمزة في قوله: **ءَالِدٌ** للإستفهام الإنكاري والتعجب وقولها: **وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا** فالوجه فيه أَنَّ سارة كانت حين البشارة بالولد بنت تسع وتسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وقيل مائة وعشرون ولهذا قالت **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** لأنه على خلاف العادة فَأَنَّ الولد بين عجوزين شيخين شَيْءٌ يَتَعَجَّبُ منه.

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

أَي قال الرسل لسارة أتعجبين من أمر الله و الإستفهام للإنكار أي لا عجب من أمر الله و ذلك لأنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قدير فلو لم يقدر على إعمال القدرة على خلاف العادة فهو ضعيف و المفروض خلافه و لما كانت البشارة بالولد منهما على خلاف العادة بل هي شبيهة بالمعجزة و هي لا توجد إلا في موارد خاصة عللوا البشارة بالولد بقولهم رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت، و فيه دلالة على عظم إبراهيم و أَنَّهُ كان من المقربين المشمولين لرحمته الخاصة و ذلك لأنَّ لله رحمتين، رحمة عامة تشمل كُلَّ الموجودات و هي المشار إليها بقوله تعالى: سبقت رحمتي غضبي و رحمة خاصة و هي لا تكون إلا للمقربين من عباده الصالحين ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و لذلك ترى أدعيتهم مستجابة و حوائجهم مقضية و ليس ذلك لغيرهم و منها النبوة و الإمامة و لذلك قال عليكم أهل البيت و إعطاء الولد لهما في سنِّ الكهولة من هذا القبيل.

قال الجبائي الآية دلَّت على أَنَّ زوجة الرجل تكون من أهل بيته و أجابوا عنه بأنَّ سارة لما كانت بنت عمه جعلت من أهل بيته و هذا لا يدلُّ على أَنَّ كُلَّ زوجة من أهل بيت الرجل.

و نحن نقول ما أجابوا عنه لا يكون مرضياً صحيحاً إذ لو كانت بنت العم من أهل البيت للزم أن يكون ابن العم و العم و غيرهما أيضاً منه و ليس كذلك بل

الحق في الجواب هو أن سارة كانت سيّدة نساء زمانها وليست كسائر الأزواج فلا يقاس بها أحد في زمانها من حيث العبوديّة والإخلاص والمعرفة بالله ولا أجل هذا صارت من أهل البيت وأما قوله: **إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** فالضمير راجع الى الله ومعناه أن الله تعالى حميد أي مستحمد الى عباده مجيد، أي كريم، وقيل حميد أي محمود وقيل حامد قاله الراغب في المفردات والمجيد معناه يجري السّعة في بذل الفضل المختص به وقيل في معناه، سعة الفيض وكثرة الجود وهما من أوصاف الله تعالى حقاً.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ
 الرّوع بفتح الراء الخيفة التي كان إبراهيم أوجسها في نفسه حين نكر أضيافه والمعنى لما إطمأن قلبه بعلمه أنهم ملائكة الله وجاءته البشري يعني تبشره بالولد أو بأن المراد بمجيئهم غيره وجواب، لما، محذوف كما حذف في قوله: فلما ذهبوا به، وتقديره، إجتراً على الخطاب إذ فطن للمجادلة أو قال كيت وكيت ودل على ذلك الجملة المستأنفة وهي قوله: **يُجَادِلُنَا الْجَوَاب** يجادلنا وضع المضارع موضع الماضي أي جادلنا وجاز ذلك لوضوح المعنى وقال بعضهم، يجادلنا حال من إبراهيم وجاءته حال أيضاً وجواب، لما محذوف وتقديره قلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا والحق أن المحذوف، جعل وتقدير الكلام جعل يجادلنا في قوم لوط، وإختلفوا في قوله: **يُجَادِلُنَا** فقال قوم يجادل رسلنا من الملائكة وقال قوم يسألنا في قوم لوط والمعنى أنه سأل الله وأما ما جادل به إبراهيم ف قيل أنه جادل الملائكة بأن قال لهم أن فيها لوطاً كيف تهلكونهم فقالت له الملائكة **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ** ^(١) وقال بعضهم أنه سألهم أتعدّبون خمسين من المؤمنين أن كانوا قالوا، لا، ثم نزل الى عشرة فقالوا، لا.

ثالث الأقوال: أنه جادلهم ليعلم بأي شيء إستحقوا عذاب الإستيصال و هل ذلك واقع بهم لا محالة أم لا على سبيل الإخافة ليرجعوا الى الطاعة قالوا ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان قوم لوط و نجاتهم و كان في القرية أربعة آلاف ألف إنسان.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ

وصفه الله تعالى بأنه كان أواهاً أي رحيماً أو كثير الدعاء و قيل هو المتأوه خوفاً من العقاب، ثم وصفه ثانياً بأنه حلیم الذي يمهل صاحب الذنب فلا يعاجله بالعقوبة.

ثالثاً: بأنه منيب و هو من الإنابة بمعنى الرجوع الى الطاعة و لذلك يقال للتوبة هي الإنابة أي الرجوع الى طاعة الرب بعد العصيان و هذه الأوصاف الثلاثة من أحسن الصفات للعبد و لا سيما إذا كان الواصف هو الله تعالى و فيها إشارة الى أن إبراهيم عليه السلام كان قصده من الجدل هو دفع العذاب عن قوم لوط بسبب التوبة أو بأي وجه ممكن ولو بطريق الإمهال و هذا ممّا لا إشكال فيه بل هو ممدوحٌ مطلوب عقلاً.

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ

حكى الله تعالى في هذه الآية ما قالته الملائكة في جواب إبراهيم بعد المجادلة و من المعلوم أن الملائكة قالت هذا بأمر من الله فالقائل في الحقيقة هو الله تعالى و حاصل الجواب يا إبراهيم أعرض عن هذا، أي أعرض عن الجدل في قوم لوط و ذلك لأن الله تعالى أراد إهلاكهم و لا مردّ لقضائه فأَنَّ العذاب نازل بهم لا محالة و لا يمكن لأحد دفعه عنهم، فأَنَّ قوله غير مردود معناه غير مدفوع و الوجه فيه ظاهر إذ لا دافع لقضائه و لا رادّ لحكمه و حكم الحق و الى هذا المعنى.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

العبد القائل

قال الله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَحَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُنْبَطِلُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ^(٢).

قال الله تعالى: سُبْحَانَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٣) و
غيرها من الآيات.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ

حكى الله تعالى في هذه الآية خروج الملائكة من قرية إبراهيم الى قرية
لوط لإجراء أمر الله تعالى وكان بين القريتين ثمانية أميال و قيل أربعة فراسخ و
قيل غير ذلك فأتوها عشاء و قيل نصف النهار و وجدوا لوطاً في حرث له، و
قيل وجدوا ابنته تستسقي ماءً في نهر سدوم و هي أكبر حواضر قوم لوط
فسألوها الدلالة على من يضيفهم و رأت هيأتهم فخافت عليهم من قوم لوط و
قالت لهم مكانكم و ذهبت الى أبيها فأخبرته فخرج اليهم فقالوا إنا نريد أن
تضيفنا الليلة فقال لهم أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم فقالوا و ما عملهم فقال
أشهد بالله أنهم شر قوم في الأرض و قد كان الله قال للملائكة لا تعذبوهم
حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما قال لوط ما قال لهم قال جبرئيل
هذه واحدة و تردّد القول منهم حتى كرّر لوط الشهادة أربع مرّات ثم دخل لوط
المدينة فحينئذٍ يسئ بهم أي لحقه سوء بسببهم و ضاق ذرعه بهم و قال هذا
يوم عصيب أي شديد لما كان يتخوّفه من تعذيب قومه على أضيافه و جاءه
قومه يهرعون اليه لمّا جاء لوط بضيفه كما قال تعالى:

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

قيل لم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيته فخرجت إمرأته حتى أتت مجالس قومها فقالت أن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً وكذا وكذا فحينئذ جاءوا يهرعون اليه أي يسرعون كما يدفعون دفعاً فعل الطامع الخائف فوت ما يطلبه.

قرأ الجمهور يُهْرَعُونَ مبنياً للمفعول والباقون بفتح الياء على كونه مبنياً للفاعل والمعنى ما ذكرناه وقوله تعالى: وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ يدل على أن ذلك كان ديدنهم وعاداتهم أَصْرُوا على ذلك وَمَرَّنَا عليه فليس ذلك بأول إنشاء هذه المعصية ولذلك جاءوا يهرعون لا تكفهم حياة لضراوتهم عليها والتقدير في، ومن قبل، أي من قبل مجيئهم الى هؤلاء الأصناف وطلبهم إياهم.

وقيل من قبل بعث لوط رسولاً اليهم قيل وجمعت السيئات وأن كان المراد بها معصية إتيان الذكور إما باعتبار فاعليها أو باعتبار تكررها وقيل كانت سيئات كثيرة باختلاف أنواعها ومحصل الكلام هو أنهم كانوا أهل المعاصي أئمة معصية كانت فإن العاصي إذا تكرر منه العصيان يصير عادة له وعند ذلك قال لوط لهم.

يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ أخبر الله تعالى في هذه الآية عن قوم لوط وأنها لما أحسوا بما أنزل بلوط وظنوا هم أضيافه وقصدوا السوء بهم قال لوط لقومه، يا قوم، أصله يا قومي، حذفت الياء بالمندى هؤلاء بناتي، جمع بنت، اختلفوا في معنى المراد منه فقال قوم الإضافة مجازية أي هؤلاء بنات قومي، هُنَّ أطهر لكم، قالوا إذ النبي بمنزلة الأب لقومه قالوا ويدل عليه أنه لم يكن له إلا بنتان وهذا بلفظ الجمع، وأجيب عنه بأن أقل الجمع إثنان، وقيل كن ثلاثاً ومعنى أطهر، أنظف فعلاً وقيل أحل وأطهر بيتاً قالوا أن، أطهر، ليس

في القرآن
في تفسير
القرآن

جزء ١٢

الجلد الثالث

أَفْعَلِ التَّفْضِيلَ إِذْ لَا طَهَارَةَ فِي إِيَّانِ الذَّكَورِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَنْ يُوَثِّرُوا
الْبَنَاتَ عَلَى الْإِضْيَافِ فَقَالَ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَ قَوْلُهُ: وَ لَا تُخْزَوْنَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ
مِنَ الْخَزْيِ وَ هُوَ الْفُضْيُحَةُ أَوْ مِنَ الْخَزَايَةِ وَ هِيَ الْإِسْتِحْيَاءُ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا خَزِيَ
الرَّجُلُ فِي ضَيْفِهِ فَقَدْ إِفْتَضَحَ لِأَنَّ خَزِيَ ضَيْفَ الرَّجُلِ أَوْ جَارِهِ هُوَ خَزِيهِ بَعِينِهِ
عَلَى عَادَةِ الْكِرَامِ وَ هَذَا هُوَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْمَرْوَةُ وَ قَوْلُهُ: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ
رَشِيدٌ فَالرَّشِيدُ هُوَ الَّذِي يَعْمَلُ بِمَا هُوَ مُقْتَضِي الْعَقْلِ وَ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَدْعُوا إِلَى
الْحَقِّ وَ مِنْهُ الْإِرْشَادُ فِي الطُّرُقِ فَمَنْ عَمِلَ عَلَى خِلَافِ الْعَقْلِ وَ سَلَكَ مَسْلَكَ
الْبَاطِلِ فَلَيْسَ بِرَشِيدٍ بَلْ هُوَ سَفِيهٌ فِي الْحَقِيقَةِ فَالْمَعْنَى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ
يَهْتَدِي إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَ فَعَلَ الْجَمِيلَ وَ الْكَفَّ عَنِ السُّوءِ وَ فِي ذَلِكَ تَوْبِيخٌ
عَظِيمٌ لَهُمْ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ رَشِيدٌ الْبَتَّةَ وَ قِيلَ فِي وَجْهِ ذَلِكَ أَيِ عَرَضِ
الْمُسْلِمَةِ عَلَى الْكُفَّارِ قَوْلَانِ:

أحدهما: أَنَّهُ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِ وَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ أَيْضًا وَ لِذَلِكَ زَوَّجَ
النَّبِيَّ ﷺ بِنْتَهُ بِأَبِي الْعَاصِ قَبْلَ أَنْ يَسْلَمَ ثُمَّ نَسَخَ بِقَوْلِهِ: وَ لَا تَنْكِحُوا
الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ^(١).

الثاني: قَالَ الزَّجَاجُ أَنَّ ذَلِكَ عَرَضُ بَشَرٍ أَنْ يُؤْمِنُوا عَلَى مَا هُوَ شَرْطُ
النِّكَاحِ الصَّحِيحِ وَ الضَّيْفُ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ الْإِثْنَيْنِ وَ الْجَمَاعَةِ وَ كَيْفَ كَانَ
فَلَمَّا عَرَضَ لَوْطٌ عَلَيْهِمْ بَنَاتُهُ رَدُّوا عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةَ عَنْهُمْ.

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
أَيِ قَالَ الْقَوْمُ فِي جَوَابِ لَوْطٍ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ فَأَنْهَنَ
لِسَنَ لَنَا أَزْوَاجَ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَاجَةٍ فَجَعَلُوا تَنَاوُلَ مَا لَيْسَ لَهُمْ
فِيهِ حَاجَةٌ بِمَنْزِلَةِ مَا لَا حَقَّ لَهُمْ فِيهِ، فَعَلَى الْأَوَّلِ وَ حَمَلَ الْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِ
اللَّفْظِ وَ عَلَى.

الثَّانِي حمل على المعنى و قولهم، أَنتَ لتعلم ما نريد، فهم تمام حكاية ما قالوه للوط أي أَنتَ لتعلم إِنَّا نريد الذَّكَور دون الإناث.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ

أي قال لوط عند عند إياسه من قبول القوم ما دعاهم اليه لو أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، أي أَنِّي لو قدرت على دفعكم و منعكم من إضيافي لفعلت بكم و صنعت و عليه فجواب، لو محذوف و هو قوله لفعلت أو لحلت بينكم و بين ما جئتم به من الفساد و حذف الجواب لدلالة الكلام عليه و قوله: أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ.

قيل المراد به من يستند اليه و يمتنع به من عشيرته الذي يمتنع به بالركن من الجبل في شدته و منعته و كأنه إمتنع عليه أن يتصر و يمتنع بنفسه أو غيره مما يمكن أن يستند اليه قال الشاعر:

ياؤي الى ركنٍ من الأركان في عددٍ طيس و مجدبان

و الركن معتمد البناء بعد الأساس و أنما قال لوط ذلك مع أَنَّهُ كان ياؤي الى الله تعالى لَأَنَّهُ أراد العدة من الرجال و إلفه ركنٌ من معونة الله و نصره إلاً أَنَّهُ لا يصح التكليف إلا مع التمكن.

قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

قالت الملائكة يا لوط أنا رسل ربك و أنما قالوا له ذلك حين رأتهم كثيراً حزناً بعثنا الله لإهلاك قومك فلا تغتم فأتهم لا ينالونك بسوء، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ قَرَأَ أهل الحجاز، فأسر، بوصل المهمزة من سریت، و الباقرن بقطعهما و المعنى إمض و أخرج من القرية و معك أهلك بالليل و القطع القطعة العظيمة تمضي من الليل و أهله إبتناه و طائفة يسيرة من المؤمنين.

و قال ابن عباس بقطع من الليل أي بطائفة منه.
و قال بعضهم أي بقيّة أخره و قيل أنه نصف الليل و يظهر من الآية أنّ لوطاً
لم يكن عارفاً بأنهم رسل ربّه و أنّهم من جنس الملائكة قبل هذا الكلام كذلك لأنّهم
كانوا في صورة البشر قيل أنّهم أي القوم غلبوا لوطاً و همّوا بكسر الباب و هو
يمسكه قال له الرّسل تنحّ عن الباب فتّنحى و لفتح الباب فضربهم جبرئيل عليه
بجناحه فطمس أعينهم و عموا و إنصرفوا على أعقابهم يقولون النّجاة النّجاة و
كان عند لوط قومٌ سحرة فتوّعدوا لوطاً فحينئذ قالوا إنّنا رسل ربّك.
و روي أنّ جبرئيل نقب من خصائص الباب و رمى في أعينهم فعميوا أخذ
قبضةً من ترابٍ و أذراها في وجوههم فأوصل الى عين من بعد و من قرب من
ذلك التراب فطمست أعينهم فلم يعرفوا طريقاً و لم يهتدوا الى بيوتهم و كيف
كان لن يصلوا الى لوط و لم يقدروا على ضرره و عند ذلك أمره بأن يسري
بأهله.

و قوله: **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ** قيل معناه لا ينظر أحد و راءه فإنّ الالتفات
كناية عن النّظر.

و قال الآخرون أي لا يلتفت أحد منكم الى ماله و الى متاعه بالمدينة
وليس المعنى لا يلتفت من الرّؤية.

إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ اختلفوا في قراءة، إمراّتك، على
قولين:

أحدهما: النّصب على أنّه إستثناء من قوله، بأهلك اذ قبله أمر و الأمر
عندهم كالواجب.

ثانيهما: الرّفْع على أنّه بدل من أحد و هو إستثناء متّصل.

أقول وجه الرّفْع لا يستقيم لأنّ المعنى أنّ المرأة لم تنته عن الالتفات وليس
كذلك و عليه فالنّصب هو المتّبع لأنّ المعنى يصير فأسر بأهلك إلّا إمراّتك أنّه
مصيبها ما أصابهم و هذا هو الصّحيح.

قال بعض المفسرين روي أنه أخرجها معهم و أمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي فلمّا سمعت هذه العذاب إلتفتت و قالت و اقوماه فأدركها حجر فقتلها. و روي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها و كان هواها اليهم ولم يسر بها و إختلاف القراءتين لإختلاف الروايتين و هذا وهم فاحش اذ بني القراءتين على إختلاف الروايتين من أنه سرى بها أو أنه لم يسر بها و هذا تكاذب في الأخبار و يستحيل أن تكون القراءتان و هما من كلام الله تقربان على التكاذب.

و الحق أنّ القراءتين وردتا على ما تقتضيه العربية في الإستثناء المنقطع النَّصْب و الرَّفْع فالنَّصْب لغة أهل الحجاز و عليه الأكثر و الرَّفْع لبني تميم و عليه أثنان من القراء فثبت و تحقّق أنّ الإستثناء منقطع على كلّتا القراءتين و عليه فلم يقصد به إخراج المرأة من المأمور بالإسراء و لا من المُنْهيين عن الإلتفات و لكن أستوثف الأخبار عنها فالمعنى لكن إمرأتك يجري لها كذا وكذا و يؤيد ما ذكرناه أنّ مثل هذه الآية جاءت في سورة الحجر أيضاً و ليس فيها إستثناء كما سيأتي الكلام فيها.

و أما قوله: **مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** فمعناه أنّ موعد إهلاكهم عند الصُّبْح و جعل الصُّبْح ميقاناً لهلاكهم لأنّ النفوس فيه أودع و الراحة فيه أجمع و قيل أنّ لوطاً قال للرُّسل أريد أسرع من ذلك فقالوا في جوابه أليس الصُّبْح بقريب أي أنّه قريب و ليس ببعيد فالإستفهام للإنكار و ليس للنفي و النفي في النفي يفيد الإثبات كقوله تعالى: **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** (١) أي أنّه كاف، قيل أنّ لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر و طوى الله له الأرض في وقته حتّى نجا و وصل الى إبراهيم عليه السلام.

في القراءتين
في القراءتين

جزء ١٢

الجزء ١٢

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ

و الضَّمير في، عاليها، و سافلها، عائد الى مدائن قوم لوط جعل جبرئيل جناحه في أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء يباح الكلاب و صباح الديكة ثم قلبها عليهم و أتبعوا الحجارة من فوقهم و هي المؤتفكات سبع مدائن و قيل خمس و أعظمها سدوم و قوله حجارة من سجيل منضود، إختلفوا في معنى السَّجِيل فقال قوم أنه اسم الدنيا و هو ضعيف و قيل هو من قولهم أسجله أي أرسله و قيل أنه كالأجر المطبوخ، و قيل حجرٌ مخلوط بطين و قيل غير ذلك.

و قال في المفردات السَّجِيل حجرٌ و طينٌ مختلط و أصله فيما قيل فارسي معرَّب انتهى.

و قوله: مَنضُودٍ أي متتابع أي كانت الأحجار متتابعة.

مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ

مسومة أي معلمة و ذلك أنه جعل فيها علامات تدل على أنها معدة للعذاب فأهلكوا بها، قيل كانوا أربعة آلاف ألف و قيل كانت مخططة بسواد حمرة فتلك يتعلمها ذكره القراء و نصب مسومة على الحال من الحجارة و قوله عند ربك، أي في خزائنه التي لا يتصرف في شيء منها إلا بإذنه و أصل المسومة من السماء و هي العلامة و الظاهر أن قوله: هِيَ عائد على الحجارة و في قوله: وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ قيل في معناه قولان ذكرهما الشيخ في التبيان:

أحدها: أن مثل ذلك ليس ببعيد من ظالمي قومك يا محمد أراد به إذهاب قریش.

الثاني: يعني من قوم لوط انتهى.

أقول حمل الكلام على ظاهره أولى اذ لا دليل على التخصيص بقریش، أو بقوم لوط بل نقول أن الله تعالى أخبرنا في آخر قصة قوم لوط أن عذاب الله

ليس من الظَّالِمِينَ ببعيدٍ من أيِّ قومٍ فأَنَّ سبب العذاب هو العصيان و حكم
الأمثال واحد و لا قرابة بينه تعالى و بين أحدٍ من خلقه و يؤيد هذا المعنى أَنَّ
الله تعالى أخبرنا في القرآن بقصص كثيرة هي واحدة منها.

و من المعلوم أَنَّ ذكر القصص لأجل الإعتبار بها و لذلك أمرنا بالتفكر فيها و
الإتعاظ بها و معنى الإتعاظ هو ترك ما يوجب العذاب و العمل بما يوجب
الرَّحمة و الثَّواب فكأنَّ قوله تعالى: **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** هو نتيجة
ذكر القصة لمن إعتبر بها نسأل الله التَّوفيق فيما يحبَّ و يرضى و نعوذ به من
غضبه.

قال بعض المفسرين إمطار الحجارة على من لم يكن في المدن من أهلها و
كان خارجاً منها.

و قال الآخرون إمطارها على القوم بعد الإهلاك تغليظاً للعذاب و قيل
الصَّمير أعني به هي، يرجع إلى المدن و لذلك قال ببعيدٍ و لم يقل ببعيدة فهو
على معنى بمكانٍ بعيدٍ أي ليست المدن بمكانٍ بعيدٍ منه فيمكن لهم رؤيتها
بالحسَّ و العيان و كيف كان فالمعنى واضح و في ختام البحث نذكر حديثاً
جامعاً في قصة لوط.

فقد روي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام أَنَّ رسول الله
سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لوط فقال أَنَّ قوم لوط كانوا أهل
قرية لا يَتَنَظَّفُونَ من الغائط و لا يَتَطَهَّرُونَ من الجنابة بخلاء أَشْخَاءَ
على الطَّعام و أَنَّ لوطاً لبث فيهم ثلاثين سنة و أُنْما كان نازلاً عليهم
و لم يكن منهم ولا عَشيرة له فيهم و لا قوم و أَنَّهُ دعاهم إلى الله عزَّ
وجلَّ و إلى الإيمان به و إتباعه و نهاهم عن الفَواحش و حثَّهم على
طاعة الله فلم يجيبوه و لم يطيعوه و أَنَّ الله عزَّ وجلَّ لما أراد عذابهم
بعث إليه رسلاً منذرين عذراً و نذراً فلَمَّا عتوا عن أمره بعث إليهم
ملائكة ليخرجوا من كان في قريتهم من المؤمنين فما وجدوا فيها

غير بيتٍ من المسلمين فأخرجوهم منها وقلوا للوط أسر بأهلك من هذه القرية الليلة بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد وأمضوا حيث تؤمرون فلما إنتصف الليل سار لوط ببنياته وتولت امرأته مدبرة فإنقطعت إلى قومها تسعى بلوط وتخبرهم أن لوطاً قد سار ببنياته وأنّي نوديت من تلقاء العرش لما طلع الفجر يا جبرئيل حقّ القول من الله تحنن عذاب قوم لوط فأهبط إلى قرية قوم لوط وما حوت فأقلعها من تحت سبع أرضين ثم أعرج بها إلى السماء فأوقفها حتى يأتيك أمر الجبار في قلبها ودع منها أية بيّنة من منزل لوط عبرة للسيارة فهبطت على أهل القرية الظالمين فضربت بجناحي الأيمن على ما حوى عليه شرقها وضربت بجناحي الأيسر على ما حوى عليه غربها فأقتلعتها يا محمد من تحت سبع أرضين إلا منزل لوط أية للسيارة ثم عرجت بها في خوافي جناحي حتى أوقفتها حيث يسمع أهل السماء زقاء ديوكها ونباح كلابها فلما طلعت الشمس نوديت من تلقاء العرش يا جبرئيل أقلب القرية على القوم فقلّبتها عليهم حتى صار أسفلها أعلاها وأمطر الله عليها حجارة من سجيل مسومة عند ربك وما هي من الظالمين من أمتك ببعيد فقال رسول الله يا جبرئيل وأين كانت قرتهم من البلاد فقال جبرئيل كان موضع قريتهم في موضع بحيرة طبرية اليوم هي في نواحي الشام قال ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أرايتك حين قلّبتها عليهم في أي موضع من الأرضين وقعت القرية وأهلها فقال يا محمد وقعت فيما بين بحر الشام إلى مصر فصارت تلولاً في البحر انتهت أقول يظهر من هذا الخبر أن جبرئيل لم يكن في الملائكة التي أرسلها الله إلى لوط والله أعلم بحقيقة الحال وكيف كان فالأمر سهل.

وَالِى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا أَلْمِ كِيَالَ
 وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا
 أَلْمِ كِيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا
 شُعَيْبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
 أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
 الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ
 عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ
 مَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفْكُمْ إِلَى مَا أَنهِيكُمْ عَنْهُ إِنْ
 أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
 بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا
 يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ
 لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
 تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا
 شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا
 ضَعِيفًا وَلَا لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا
 بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

اللَّهُ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا
 تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى
 مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
 عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي
 مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ
 الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ
 (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا
 بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ
 سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا
 أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ
 قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمَوْرُودُ (٩٨) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

◀ اللغة

مَدِينٌ بفتح الياء قيل هم قوم شعيب وفي تسميتهم بذلك قولان:

أحدهما: أنهم بنوا مدين بن إبراهيم فليل، مدين و المراد بنوا مدين كما
 يقال مضر و المراد بنو مضر.

الثاني: أنه اسم مدينتهم فنسبوا إليها قيل، مدين، لا ينصرف لأنه اسم مدينة.

شُعَيْبًا اسم نبيٍّ من الأنبياء قيل هو ابن مكيد بن شنجرة بن مدين و كان يقال
 له خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه.

وَلَا تَبْتَخُسُوا الْبَخْسَ النَّقْصَ أَيِ وَلَا تَنْقُصُوا.
وَلَا تَعْتُوا أَيِ تَضْطَرُّوْا بِالْقَبِيحِ.
لَا يَجْرِمَنَّكُمْ لَا يَكْسِبَنَّكُمْ.
شِقَاقِي الشَّقَاقِ وَالْمَشَاقَّةِ الْمَبَاعِدَةِ بِالْعَدَاوَةِ إِلَى جَانِبِ الْمَبَايِنَةِ.
ظَهْرِيًّا الظُّهْرَ جَعَلَ الشَّيْءَ وَرَاءَ الظُّهْرِ.
وَأَرْتَقَبُوا أَيِ وَانْتَظَرُوا وَالْبَاقِي وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

أَخَاهُمْ مفعول فعلٍ محذوف أي و أرسلنا إلى مدين أخاهم و شُعَيْبًا بدل و
تَنْقُصُوا يتعدى إلى مفعولٍ بنفسه و مُحِيطٌ نعتٌ لليوم في اللفظ و للعذاب في
المعنى أَوْ أَنْ نَفْعَلْ في موضع نصب عطفاً على ما يعبد و التقدير أَوْ أَنْ تَتْرَكَ
أَنْ نَفْعَلْ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ بَضْمُ الْيَاءِ وَفَتْحُهَا وَفَاعِلُهُ شِقَاقِي، و قوله: أَنْ يُصِيبَكُمْ
مفعول الثاني وَ اتَّخَذْتُمُوهُ هي المتعدية إلى مفعولين و ظَهْرِيًّا المفعول الثاني
و وَرَاءَ كُمْ ظرفٌ لِاتَّخَذْتُمْ أَوْ حَالٌ مِنْ ظَهْرِيًّا كَمَا بَعْدَتْ يقرأ بكسر العين و
مستقبله يبعد و المصدر بعداً بفتح العين فيهما و يقرأ بضم العين و مصدره
البعد وهو من البعد في المكان و المشهور فيه كسرهما و عليه المصاحف.

◀ التفسير

أخبر الله تعالى أنه أرسل شعيباً إلى قومه و أنما سَمِيَ شعيباً أخاهم لأنه
كان من نسبهم و قيل أنهم من ولد مدين بن إبراهيم و قيل أن مدين إسم القبيلة
أو المدينة التي كانوا فيها كما قال تعالى:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
قد سبق شرح هذا الكلام في قصّة لُوط و هود و صالح و يظهر منه أن
الأنبياء كانت دعوتهم في بدو البعثة كذلك فأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ بِمَنْزِلَةِ

الأصل الذي لا محيص عنها وأما النبوة والمعاد وغيرهما من الأحكام موضعها بعد الإقرار بالتوحيد.

وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ نَهَاهُمْ شَعِيبُ أَنْ يَبْخَسُوا النَّاسَ فِيمَا يَكِيلُوا بِهِ لَهُمْ وَيَزِينُونَهُ لَهُمْ فَأَنَّ الْمِكْيَالَ مَفْعَالٌ وَهُمَا مِنْ أَلَاتِ الْكِيلِ وَالْوِزْنُ وَأَمَّا ذِكْرُهُمَا لِأَنَّ بَعْضَ الْأَجْنَاسِ مِمَّا يَكَالُ وَبَعْضُهَا مِمَّا يوزنُ وَقَوْلُهُ: إِنْ تَرَى أَرْيَاكُمْ بِخَيْرٍ قِيلَ يَعْنِي بِرَخْصِ السَّعْرِ وَحَذَرِهِمُ الْعِلَاءَ وَقِيلَ أَرَادَ بِالْخَيْرِ زِينَةَ الدُّنْيَا وَالْمَالِ.

وَإِنْ تَرَى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ عَذَابَهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكَفَّارِ.

أَقُولُ لَا وَجْهَ لِإِحْتِصَاصِ الْعَذَابِ فِي الْآيَةِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا أَيْضاً قَدْ يَكُونُ مُحِيطاً بِالْعَاصِي مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ كَمَا فِي قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ عَلَى مَا مَرَّ شَرْحُهُ وَبَيَانُهُ فَقَوْلُهُ أَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ لَا يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْهُ لِأَنَّهُ أَحَاطَ بِالْعَاصِي مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ سِوَاءِ كَانِ فِي الدُّنْيَا أَمْ فِي الْآخِرَةِ وَيُظْهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ قَوْمَ شَعِيبٍ مَضَافاً إِلَى كُفْرِهِمْ بِعِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ كَانُوا فِي مَعَامِلَاتِهِمْ مُتَصَفِينَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ مَفْهُوماً فَإِنَّ النِّهْيَ عَنِ الْبَخْسِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ مُشْعِرٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْقُصُونَ فِيهِمَا وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا نَقَصَ قَوْمُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِلَّا رُفِعَ عَنْهُمْ الرِّزْقُ. وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْبَائِعُ بِالطَّعَامِ أَخَذُوا بِكَيْلٍ زَائِدٍ وَأَنْ جَاءَهُمْ مُشْتَرٍ لِلطَّعَامِ بَاعُوهُ بِكَيْلٍ نَاقِصٍ وَشَحَّوْهُ بِغَايَةِ مَا يَقْدِرُونَ فَأَمَرُوا بِالْإِيمَانِ إِقْلَاعاً عَنِ الشَّرِّ وَبِالْوَفَاءِ نَهْياً عَنِ التَّطْفِيفِ كَمَا أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

أَمَرَهُمْ بِالْإِيْفَاءِ بَعْدَ أَنْ نَهَى عَنِ التَّطْفِيفِ تَأْكِيداً وَالْإِيْفَاءُ لِإِتِمَامٍ وَقَوْلُهُ بِالْقِسْطِ أَيُّ بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالْمَقْصُودُ هُوَ أَنْ يَصِلَ كُلُّ ذِي نَصِيبٍ إِلَى نَصِيبِهِ وَ

لا يضيع حقّه و المراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود و كذا الميزان، و لا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم، أي لا تنقصوهم ممّا إستحقّوه شيئاً.

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَيَّنَّ أَنَّ الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض و ذلك لأنها من أكبر مصاديق الظلم و الفرق بين البخس و الظلم أَنَّ الظلم أعمّ لأنّ البخس نقصان الحقّ اللازم و قد يكون الظلم الألم بغير حقّ.

قال في المفردات العيث و العثي يتقاربان نحو جذب و جذب إلا أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حساً و العثي فيما يدرك حكماً انتهى.

بَيَّتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ

بقية الله، قال ابن عباس ما أبقي الله لكم من الحلال بعد الإيفاء في المكيال و الميزان خير من البخس و قال مجاهد طاعة الله خير لكم و قال قتادة حظكم من الله و قيل رحمة الله و قيل ذخيرة الله و قيل وصية الله و قيل ثواب الله و هكذا.

و قال ابن عطية هذا كلّه لا يعطيه لفظ الآية و أمّا المعنى عندي إبقاء الله عليكم إن أطعتم وقوله: **إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** شرط في أن يكون البقية خيراً لهم و أمّا مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال و جواب هذا الشرط متقدّم. و قوله: **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** فالحفيظ المراقب الذي يحفظ أحوال من يرقب و المعنى أمّا أنا مبلغ رسالات ربّي و أمّا الحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم على الأعمال.

و قال صاحب الكشاف و أمّا خوطبوا بترك التّطفيف و البخس و الفساد في الأرض و هم كفرة بشرط الإيمان و يجوز أن يريد ما يبقى لهم عند الله من الطاعات كقوله: **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا** ^(١) وإضافة البقية إلى

نبأ القرآن في تفسير القرآن



الجملة

اللّه من حيث أنّها رزقه الذي يجوز أن يضاف اليه و أمّا الحرام فلا يجوز أن يضاف إلى الله ولا يسمّى رزقاً إنتهى.

وقال بعض المفسرين في قوله: **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** أي لست أنا أرقبكم عند كيلكم و وزنكم أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتّى أواخذكم بإيفاء الحقّ.

وقيل أي لا يتّهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بسبب معاصيكم إنتهى.

أَقُولُ معنى الآية ظاهر و لا يحتاج الى هذه التكلّفات والتأويلات الباردة و ذلك لأنّه لما قال لقومه، يا قوم أوفوا المكيال و الميزان كأنّه خطر على قلوبهم أن إيفاء المكيال و الميزان يوجب النقص في أموالهم فقال لهم بقيّة الله خير لكم الآية أي ما أبقاء الله لكم بعد الإيفاء خير لكم إن كنتم مؤمنين به و بذلك لأنّ القليل من الحلال خير من الكثير من الحرام فقلوه: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** معناه إن كنتم مؤمنين بأنّ الخير و البركة في الحلال ولو كان قليلاً و يحتمل أن يكون المراد بالإيمان الإيمان بالله و هو ضعيف لأنّ قوم شعيب كانوا كفاراً اللههم إلا أن يقال بشرط الإيمان بالله أي بشرط خروجكم من الكفر و دخولكم في الإيمان إذ بدونه لا يتحقّق الخير في البقيّة و ذلك لأنّه هو معطي الخير و البركة في الأموال والنّفوس.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَا أَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ.

لما أمرهم شعيب بأمرين:

أحدهما: أن يعبدوا الله حيث قال قال يا قوم **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.**

ثانيهما: أمرهم بإيفاء الميكال والميزان حيث قال: **وَايَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ** فأجابوه وقالوا أصلاتك تأمرك الخ.

و أنما أضافوا الأمر الى صلاته دون ربّه لعدم إعتقادهم بنبوّته من عند الله لأنهم كانوا كفاراً و قيل قولهم أصلاتك، يعني أدينك الذي أنت عليه أمرك أن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي كان آبائنا عليه و أن نفعل في أموالنا ما نشاء من إيفاء الميكال، أنك لأنت الحليم الرشيد، قيل أنهم قالوا له ذلك على وجه الإستهزاء و قيل قالوا ذلك على وجه الحقيقة أي أنك كذلك عند قومك فكيف تقول ما تقول.

و نقل عن المؤرخ، أن الحليم الرشيد، معناه الأحمق السّفِيه بلغة هذيل. أقول لا يمكن حمل كلام الله علي لغة هذيل والحق في معنى الكلام هو خير الأمور أوسطها قال يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا قال شعيب لقومه أريتم إن كنت على بَيْتَةٍ وَ حِجَةٍ فيما أقول لكم و رزقني الله، منه، أي من عنده، رزقاً حسناً.

إِنْ قُلْتُ أَيْنَ الشَّرْطُ، قلت قال الشيخ في التبيان جواب، إن، في الآية محذوف و تقديره يا قوم إن كنت على حِجَةٍ وَ دلالة من ربّي و مع ذلك رزقني منه رزقاً حسناً انتهى كلامه.

و أنت ترى أن فيما ذكره لا يوجد جواب الشرط أصلاً و الحق في الباب ما ذكره صاحب الكشف فأنه قال ما هذا لفظه.

إِنْ قُلْتُ أَيْنَ جَوَابِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ و ماله لم يثبت كما أثبت في قصّة نوح و لوط.

قُلْتُ جوابه محذوف و أنما لم يثبت لأن إثباته في القصتين دلّ على مكانه و معنى الكلام ينادي عليه و المعنى أخبروني أن كنت على حِجَةٍ واضحة و يقين من ربّي و كنت نبياً على الحقيقة أضح لي أن لا أمركم بترك عبادة الأوثان و الكف عن المعاصي و الأنبياء لا يبعثون إلا لذلك انتهى كلامه.

و أنا أقول ما ذكره الرمخشري لا بأس به إلا أنه أطال الكلام بما لا نحتاج اليه و ذلك لأن قوم شعيب لما قالوا له أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا الخ.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْقِسْمِ

جزء ١٢

المجلد الثاني

قال في جوابهم يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي فيما أقول لكم فما تقولون و عليه فجواب الشرط فما تقولون أو ما يفيد معناه. والحاصل أن بعد إثبات النبوة لا عذر لكم ولا يصح أن تقولوا ما قلتم قبل ذلك و هذه مراجعة لطيفة و إستنزال حسن و إستدعاء رقيق لا ينبغي صدوره إلا من خطيب الأنبياء على ما قيل و هذا النوع من الكلام سمّي إستدراج المخاطب عند أرباب علم البيان و هو نوعٌ لطيف غريب يتوصّل به إلى بلوغ الغرض و قد ورد منه في قصّة إبراهيم و في قصّة نوح و هود و صالح و في قصّة مؤمن آل فرعون مع قومه.

و أمّا قوله: وَ رَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فقيل أنّه النبوة و قيل الهدى و الإيمان و قيل المال الحلال لأنّه كان كثير المال و قيل العلم، و الكلّ محتملٌ. وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَيْكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ أي أني أنهاكم عن شيئين.

عبادة الأوثان و إيفاء المكيال و الميزان و لست أخالفكم في ما أنهاكم عنه برجوعي عن قولِي فأني لا أرجع عما نهيتكم عنه. و قال بعضهم معناه أنا لا أنهي عن القبيح و أفعله مثل من ليس بمستبصر في أمره كما قال الشاعر:

لا تنه عن خلقي وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

و قوله: إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ بمنزلة التعليل لقوله: مَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ كأنه قيل لم لا تخالف قال: أَنْ أَخَالِفَكُمُ الخ أي ما أريد إلا الإصلاح أي ليس نهبي لكم لمنفعة أجرتها إلى نفسي بل النهي لأجل الإصلاح وإذا كان كذلك فلا معنى لرجوعي عنه فَأَنْ رَجُوعَ عن الإصلاح هو الدخول في الإفساد بعينه.

و في قوله: وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ إشارة إلى ما هو الأصل الحقيقي بالإتباع في جميع الأعمال و الأقوال و الحركات و

السَّكَنَاتِ وَبِالْجُمْلَةِ فِي جَمِيعِ الشُّنُونِ وَالأَحْوَالِ وَ لَا سِيَّما فِي إِدَاءِ الرِّسَالَةِ وَ
إِبْلَاغِ الأحْكَامِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ المعَادِ وَ جَمِيعِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ حَيْثُ أَنَّ
النَّبِيَّ فِي كُلِّ زَمَانٍ كَانَ مُوَاجِهًا إِلَى مُخَالَفَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يَبَالُوا مِنَ الإِيزَاءِ
وَ التُّهْمَةِ وَ حَتَّى قَتَلَ النَّبِيَّ فِي صُورَةِ الإِمْكَانِ وَ المَفْرُوضِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَاصِرٌ
مِنَ الْخَلْقِ فَلَا مُحَالَةَ يَكُونُ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَ طَلَبُ التَّوْفِيقِ وَ النُّصْرَةِ مِنْهُ فِي
رَأْسِ جَمِيعِ الْأُمُورِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ وَ لِذَلِكَ تَرَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا مُتَوَكِّلِينَ عَلَى
اللَّهِ مُعْرِضِينَ عَنِ الْخَلْقِ لَعَلَّهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ النَّاصِرُ لَهُمْ كَمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ
بِهِ فِي قَوْلِهِ: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**^(١) وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ
فِي مَعْنَى التَّوَكُّلِ وَ الإِنَابَةِ وَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا إِجْمَالًا وَ سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي الْبَابِ
بِوَجْهِ أَبْسَطٍ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

**وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ
قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**

قَالَ لَهُمْ شَعِيبٌ بَعْدَ يَأْسِهِ عَنْ قَبُولِ قَوْلِهِ وَ تَمَرَّدِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ يَا قَوْمِ
الأَصْلُ يَا قَوْمِي حَذَفْتُ الْيَاءَ بِالمِنَادَى **لَا يَجْرِمَنَّكُمْ** أَيِ لَا يَكْسِبَنَّكُمْ، شِقَاقِي
أَيِ خِلَافِي وَ عِدَوَاتِي وَ كَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْعِدَاوَةِ دَعَاؤُهُمْ لَهُمْ إِلَى مُخَالَفَةِ الْآبَاءِ وَ
الأَجْدَادِ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِيْفَاءِ فِي الْمِكْيَالِ وَ الْمِيزَانِ وَ أَصْلُ
الْجَرَمِ قَطْعُ الثَّمَرَةِ عَنِ الشَّجَرِ يَقَالُ أَجْرِمَ الرَّجُلُ إِذَا صَارَ ذَا جَرَمٍ نَحْوِ أَثْمَرٍ وَ
أَثْمَرْتُمْ أَسْتَعِيرَ ذَلِكَ لِكُلِّ إِكْتِسَابٍ مَكْرُوهٍ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ، جَرَمٌ مِثْلُ كَسَبٍ فِي تَعَدِّيهِ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ أَوْ
مَفْعُولَيْنِ تَقُولُ جَرَمَ ذَنْبًا وَ كَسَبَهُ وَ جَرَمْتَهُ ذَنْبًا وَ كَسَبْتَهُ آيَاهُ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **لَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ** أَيِ لَا يَكْسِبَنَّكُمْ شِقَاقِي إِصَابَةَ الْعَذَابِ وَ قَرَأَ
إِبْنُ كَثِيرٍ بِضَمِّ الْيَاءِ مِنْ أَجْرَمْتَهُ ذَنْبًا وَ سَاقَ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ وَ الْقَرَاءَتَانِ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أنَّ المشهورة أفصح لفظاً كما أنَّ كسبته مالا أفصح من أكسبته انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول وعلى هذا فيصير المعنى يا قوم أن عداوتكم لي بسبب دعائي أياكم الى ترك عبادة الأوثان لا توجب وقوعكم في الهلاكه و العذاب كما كانت في قوم نوح و هود و صالح و لوط و ما قوم لوط منكم ببعيد، بل كانوا قريباً منكم بحسب الزمان و في هذا الكلام إشارة الى أنَّ العناد و الطغيان و العصيان و أمثال ذلك كثيراً ما يوجب الإضرار على نفس المعاند بل دائماً يكون كذلك فإنَّ المعاند للحق يضرَّ على إنكاره الحق لعناده فيقع في الخسران من حيث لا يحتسب و فيما نحن فيه أيضاً كذلك و توضيحه إجمالاً أنَّ النبي المبعوث من عند الله الى هداية خلقه و إرشادهم الى ما هو صلاحهم فيه في الدنيا و الآخرة كما حكى الله تعالى عن شعيب بقوله: **إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ** وقوله: **لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ^(١)** وأمثال ذلك من الآيات ثمَّ أنَّ الناس منهم من يقبل الدعوة ومنهم من لا يقبل لا كلام لنا فيمن يقبل فأنهم من المؤمنين.

و أما من لا يقبل فهم طائفتان، طائفة لا تقبل الدعوة لجهلها و طائفة لا تقبل لعنادها و لجاجها و هذه الطائفة من شر خلق الله على وجه الأرض و ذلك لأنَّ الجاهل ما دام كونه جاهلاً معذور بجهله فإذا ارتفع الجهل منه يقبل و أما المعاند فليس كذلك لأنَّ عدم قبوله الحق ليس لجهله بل لعناده و خبث سريره و أن كان عالماً بالحق واقعاً إذا عرفت هذا.

فأعلم أنَّ الأنبياء لما بعثوا الى الناس لم يكن لهم كثير اشكال مع الجَّهال و أنما المانع في دعوتهم الى الحق هو وجود المعاندين الذين كانوا مصرين على خلافهم و عنادهم و لم يعلموا أنَّ هذا كان عليهم لا لهم لأنَّ النبي وظيفته الإيلاغ و إتمام الحجّة على الخلق و بعد ذلك إستحقاق العقاب في صورة

الإنكار كما حكى الله تعالى عن قوم نُوح و هود و صالح و الى هذه الدّقيقة أشار شعيب النّبي حيث قال: لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيْ أَي مَخَالَفَتِكُمْ أَيْبَاي و عداوتكم لي من أجل الدّعوة الى الحقّ مثل ما أصاب قوم نُوح و هود و صالح و لوط.

و أمّا إختصاص قوم لوط بعدم البعد فوجهه واضح لأنّ شعيب بعث بعد لوط فكان قومه أقرب الى قوم لوط زماناً و كيف كان ففي هذا الكلام تخويف و تهديدٌ منه لقومه و لذلك أردف كلامه هذا بالإستغفار و التّوبة كما حكى الله تعالى عنه:

وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ

أمرهم شعيب بالإستغفار و هو طلب المغفرة عمّا فعلوا من عبادة الأوثان و نقص المكيال و الميزان و غير ذلك من المعاصي ثمّ بعد الإستغفار الرجوع الى الله بمعرفته و الإنقياد لأحكامه وفي قوله: إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ إشارة الى سعة رحمة الله و أنّه يقبل التّوبة من عباده لأنّه رحيمٌ ودودٌ، والودود المحبّ لا غير أي هو رحيم بكم و محبّ لكم إذا رجعتم اليه و أطعتموه و ما على الرّسول إلّا البلاغ ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيّ عنها و ما ربك بظلامٍ للّعبيد.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ

قال القوم في جواب النّبي يا شعيب ما نفقه أي ما نعلم كثيراً ممّا تقول لنا و المراد بالكثير في قولهم ما كان على خلاف أميالهم و شهواتهم من ترك عبادة الأوثان و غيرها من المعاصي مع أنّهم في قولهم هذا أيضاً من الكاذبين و ذلك لأنّ الدّعوة الى الحقّ و النّهي عن الظّلم و العصيان ليس ممّا لا يفهمه العاقل و أمّا قالوا ذلك لعنادهم و طغيانهم و تمرّدهم وقولهم إِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا

نبأ القوم في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثاني

إشارة إلى أنهم كانوا مغرورين بقوتهم وقدرتهم وعدتهم ولم يعلموا أن قدرة الخالق غالبية على قدرة ما سواه لأن المخلوق لا قدرة في جنب قدرة الخالق ولذلك أي لأجل كونهم مغرورين قالوا ولولا رهطك لرجمناك بالحجارة، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ أي لست علينا بممتنع فلا نقدر عليك بالرجم ولا أنت بكريم علينا، وَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ تَعَجَّبَ شَعِيبٌ مِنْ قَوْلِهِمْ فَقَالَ لَهُمْ:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ

وفيه إشارة إلى رد قولهم ولولا رهطك لرجمناك، ولذلك قال شعيب أرهطي أعز عليكم من الله، والإستفهام إنكاري أي ليس كذلك وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَ كُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ اختلفوا في مرجع الضمير في قوله: وَاتَّخَذْتُمُوهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أحدها: أنه يرجع إلى الله أي إتخذتم الله وراءكم ظهرياً أي جعلتم الله وراء ظهركم وهو كناية عن إعراضهم عنه.

الثاني: أنه يرجع إلى ما جاء به شعيب وهو دعوته أيأهم إلى الحق.

الثالث: أنه يرجع إلى أمر الله أي جعلتم أمر الله وراء ظهركم.

أقول لا فرق في معنى الكلام في الأقوال الثلاثة وأما قال لهم ذلك لأنهم لم يقبلوا دعوته وأنكروا نبوته ومن كان كذلك فهو معرض عن الله واقعاً وقوله: إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ إشارة بأن الله تعالى لا يخفى عليه أعمالكم وأقوالكم وضمائركم وبالجمله هو تعالى بجميع ما تعملون به محيط إحاطة علمية تنشأ من قوله: أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وإذا كان كذلك فإنه تعالى سيجازيكم على أعمالكم الشنيعة الرديئة أن يركم لبالمرصاد.

وقال المبرّد الضمير يرجع إلى العصيان فيكون الكلام على حذف المضاف تقديره وإتخذتموه أي عصيانه انتهى.

وَايَا قَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ

لَمَّا قَالَ الْقَوْمُ لَشُعَيْبٍ مَا قَالُوا مِنَ الْإِنْكَارِ وَلَمْ يَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ قَالَ شُعَيْبٌ لَهُمْ إِعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ، وَالْمَكَانَةُ بِفَتْحِ الْمِيمِ الْحَالُ الَّتِي يَتِمَكَّنُ بِهَا صَاحِبُهَا مِنْ عَمَلٍ مَا فَقَالَ لَهُمْ قَدْ مَكَّنْتُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَمَلِ كَمَا مَكَّنَ غَيْرُكُمْ مِمَّنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَسْتَرُونَ مَنَزَلَتَكُمْ مِنْ مَنَزِلَتِهِ وَهَذَا الْخَطَابُ وَأَنْ كَانَ ظَاهِرُهُ ظَاهِرَ الْأَمْرِ فَالْمُرَادُ بِهِ التَّهْدِيدُ وَتَقْدِيرُهُ كَأَنَّكُمْ أَتَمَّا أَمَرْتُمْ بِأَنْ تَكُونُوا عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ وَفِيهِ نَهَايَةُ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ قَالَهُ فِي التَّبْيَانِ.

وَقَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ لَا تَخْلُوا الْمَكَانَةَ مِنْ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الْمَكَانِ يَقَالُ مَكَانٌ وَمَكَانَةٌ وَمَقَامٌ أَوْ تَكُونَ مُصَدَّرًا مِنْ مَكَّنَ مَكَانَةً فَهُوَ مَكِينٌ وَ الْمَعْنَى إِعْمَلُوا قَارِينَ عَلَىٰ جِهَتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الشَّرْكِ وَالشَّنَانِ لِي وَ إِعْمَلُوا مَتِمَكِّنِينَ مِنْ عِدَاوَتِي مُطَبِّقِينَ عَلَيْهَا أَنِّي عَامِلٌ، عَلَىٰ حَسَبِ مَا يُؤْتِنِي اللَّهُ النَّصْرَةَ وَالتَّأْيِيدَ وَ يَمَكِّنُنِي أَنْتَهَى.

أَقُولُ مَعْنَى الْكَلَامِ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ أَيِ إِذَا لَمْ يَقْبَلُوا نَصْحِي فإِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، أَنِّي عَامِلٌ بِوُضُفِيَّتِي وَ هِيَ الْإِبْلَاجُ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ نَتِيجَةَ عَصْيَانِكُمْ وَ كُفْرِكُمْ.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ أَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ
مَنْ يَخْزِيهِ الْعَذَابُ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ، أَنَا، أَوْ أَنْتُمْ، وَ إِرْتَقِبُوا أَيِ وَ
إِنْتَظَرُوا مَا وَعَدْتُكُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَ إِنِّي أَيْضًا مَعَكُمْ رَقِيبٌ أَيِ مُنْتَظَرٌ لِنَزُولِ
الْعَذَابِ عَلَيْكُمْ وَ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ شُعَيْبَ النَّبِيَّ قَدْ كَانَ مَأْيُوسًا عَنْ قَبُولِ
دَعْوَتِهِ فَلَا مُحَالَةَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ وَ هُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَرُّهُمْ فِي حَوْضِهِمْ
يُلْعَبُونَ^(١).

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ

و هذا هو العذاب الذي قال شعيب سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه،
و المعنى لما أردنا أن نهلك قوم شعيب نجينا شعيباً و من آمن به من العذاب و
ذلك لأن رحمة الله قريبٌ من المحسنين و لذلك قال برحمة منا و أخذت
الذين ظلموا، و هم قوم شعيب، الصيحة السماوية التي صدرت من
جبرئيل عليه السلام فأصبحوا في ديارهم جاثمين أي خامدين موتى.

تذنيب

قيل أن إسم شعيب يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم
و قيل هو شعيب بم ميكيل من ولد مدين، و قيل لم يكن شعيب من ولد
إبراهيم و إنما هو من ولد بعض من آمن بإبراهيم و هاجر معه الى الشام و لكنه
ابن بنت لوط فجدّة شعيب ابنة لوط و كان ضرير البصر و هو معنى قوله تعالى:
وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا أي ضرير البصر و كان النبي ﷺ إذا ذكره قال ذاك
خطيب الأنبياء بحسن مراجعته قومه و أن الله تعالى أرسله الى مدين (أهل
مدين) و هم أصحاب الأيكة و هي الشجر الملتف و كانوا أهل كفر بالله تعالى
و بخس للناس في المكايل و الموازين و إفساد أموالهم و كان الله وسع عليهم
في الرزق و بسط لهم في العيش استدراجاً لهم منه مع كفرهم بالله فقال لهم
شعيب يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ الى قوله: عَذَابٌ يَوْمٌ مُحِيطٌ فلما طال تماديهم
في غيهم و ضلالتهم و لم يزدهم تذكير شعيب إياهم و تحذيره عذاب الله إلا
تمادياً فلما أراد الله إهلاكهم سلط عليهم عذاب يوم الظلة و هو أنه تعالى بعث
عليهم و قدوة و حرّاً شديداً فأخذ بأنفسهم فخرجوا من البيوت هرباً الى البرية
فبعث الله سبحانه عليهم سحاباً فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها برداً و لذة
فنادى بعضهم بعضاً حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا فَأرسل الله عليهم ناراً قال ابن عباس
فذاك عذاب يوم الظلة.

و قال قتادة بعث الله شعيباً الى أمتين الى قومه الى أهل مدين، و الى أصحاب الأيكة و أمّا أهل مدين فهم من ولد مدين بن إبراهيم فهذبهم الله بالرّجفة و هي الرّزلة فأهلكوا.

روي المجلسي رحمته الله في البحار بأسناده عن أنس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله بكى شعيب من حبّ الله عزّ وجلّ حتّى عمي فردّ الله تعالى عليه بصره ثمّ بكى حتّى عمي فردّ الله عليه بصره ثمّ بكى حتّى عمي فردّ الله عليه بصره فلما كانت الرّابعة أوحى الله اليه يا شعيب الى متى يكون هذا منك إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجزتك و أن يكن شوقاً الى الجنّة فقد أبحتك فقال إلهي و سيّدي أنك تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك و لا شوقاً الى جنّتك ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك فأوحى الله جلّ جلاله اليه أمّا اذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران انتهى.

و أيضاً بأسناده قال أمير المؤمنين عليه السلام أنّ شعيباً النّبي دعا قومه الى الله حتّى كبر سنّه و دقّ عظمه ثمّ غاب عنهم ما شاء الله ثمّ عاد اليهم شابّاً فدعاهم الى الله تعالى فقالوا ما صدّقناك شيخاً فكيف نصدّقك شابّاً و كان عليّ عليه السلام يكرّر عليهم الحديث مراراً.

و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال أنّ الله عزّ وجلّ لم يبعث من العرب إلّا خمسة أنبياء، هوداً و صالحاً و إسماعيل و شعيباً و محمداً صلّى الله عليه وآله خاتم النّبيين وان شعيب بكاء.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال أوحى الله الى شعيب أنّي معذب من قومك مائة ألف أربعين ألفاً من شرارهم و ستّين ألفاً من خيارهم فقال ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار فأوحى الله عزّ وجلّ اليه أنّهم أي الأخيار داهنوا أهل المعاصي و لم يغضبوا لغضبي انتهى.

و عاش شُعيب مائتين و اثنين و أربعين سنة على ما قيل و الله أعلم بحقائق الأمور.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ

شبه الله تعالى ديار قوم شعيب التي كانوا يسكنون فيها قبل العذاب بعد هلاك القوم و إنقطاع آثارهم فيها بحالهم لو لم يكونوا فيها يقال غني بالمكان اذا أقام به على وجه الإستغناء به عن غيره و لذلك قيل للمنازل المغاني و أنما شبهوا بثمود لأنهم أهلكوا بالصيحة كما أهلكت ثمود مثل ذلك مع الرجفة.

و قوله: أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ دعاء عليهم بإنقضاء الرحمة عنهم كما قال لثمود، كأن هي مخففة من الثقيلة على أن يضمر فيها كالإضمار في أن، من قوله و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين و يجوز أن تكون أن، التي تنصب الفعل بمعنى المصدر وقوله: يبعث بكسر العين و ضمها فيها لغتان و كانت العرب تذهب بالرفع الى التباعد و بالكسر الى الدعاء و هما واحد و هكذا قيل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ

المراد بالآيات الحجج و المعجزات و من سلطان مبين قيل أي حجة ظاهرة مخلصة من تلبس و تمويه على أئمة ما يمكن فيه قيل في وجه الفرق بين الآيات و السلطان هو أن الآيات حجج من وجه الاعتبار العظيم بها و السلطان من جهة القوة العظيمة على المبطل و قد قيل أن سلطان الحجة أنفذ من سلطان المملكة قاله الشيخ في التبيان.

و قال بعضهم المراد بالآيات المعجزات التسع أعني بها، العصا واليد و الطوفان و الجراد و القمل و الصفادع و الدَّم و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و منهم من أبدل النقص بإظلال الجبل.

و قيل الآيات التّوارة وهذا محتمل اذا كان نزول التّوارة قبل هلاك فرعون و المشهور أنّه بعده.

قال و السلطان المبين هو الحجج الواضحة و يحتمل أن يريد بقوله أو سلطان مبين فيها أي في الآيات و هي دالة على صدق موسى عليه السلام و يحتمل أن يريد به العصا لأنها أبهر تلك الآيات فنصّ عليها كما نصّ على جبرئيل و ميكائيل بعد ذكر الملائكة على سبيل التّشريف بالذّكر.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ
أي أرسلنا موسى بالبينات و الحجج الى فرعون لإرشاده و هدايته و المراد بالملاء و هو قوم فرعون من القبط وقوله: فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ فيه إخبار عن قومه و أنّهم اتّبعوه على ما كان يأمرهم به ثم أخبر الله تعالى أنّ أمر فرعون لم يكن رشيداً و الرّشيد هو الذي يدعو الى الخير و يهدي اليه.
و من المعلوم أنّ أمر فرعون كان بالشرّ و الفساد كما قال الله تعالى:

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ
أي أنّ فرعون يقدم قومه، يقال قدم زيد القوم قدماً و قدوماً اذا تقدّمهم و فرعون كان كذلك أي كان مقدّم القوم و إمامهم فالمعنى أنّه يقدم قومه المغرقين الى النار و بعبارة أخرى كما كان متّبعا لقومه في الضلال كذلك يتقدّمهم الى النار و هم يتبعونه.

و قوله: وَ بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ و يحتمل أن يكون قوله: بِرَشِيدٍ معناه بحميد العاقبة و يكون قوله: يَقْدُمُ قَوْمَهُ تفسيراً له و إيضاحاً أي كيف يرشد أمر من هذه عاقبته و أمّا قال فأوردهم، و لم يقل فَوْرَدَهُمْ لتحقّق وقوعه لا محالة فكأنّه قد وقع و لما في ذلك من الإرهاب و التّخويف أو هو ماضٍ حقيقةً أي فأوردهم في الدنيا النار أي موجبه و هو الكفر و أنت ترى أنّ هذا التّأويل لا يساعده الكلام لوقوع الفاء.

في التّوارة في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد الثالث

و الورود في هذه الآية قيل ورود الخلود و ليس بورود الأشراف على الشئ
و قوله: وَ بَشَسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ يحتمل أن يكون المورد صفة الورد أي
بشس مكان الورد المورد النار و يكون المخصوص محذوفاً لفهم المعنى كما
حذف في قوله: وَ بَشَسَ الْمِهَادُ^(١).

و قال بعضهم الورد فاعل بشس، و المخصوص بالذم المورد و هي النار.
و قال في التبيان، قوله فأوردهم النار معناه أوجب ورودهم الى النار و
الإيراد إيجاب الورد الى الماء أو ما يقوم مقامه و قال في بشس الورد المورد،
قال أبو علي أنه مجاز و المعنى بشس وارد النار.
و قال البلخي بل هو حقيقة لأنه تعالى وصف النار بأنها بشس الورد المورد
و هي كذلك.

و قال ابن عباس أن الورد الدخول و المعنى أن ما وردوه من النار هو
المورد بشس الورد لمن ورده.

أقول الورد بكسر الواو قيل أنه مصدر، وَرَدَ يَرُدُّ وَرْدًا وَوَرْدًا و الورد بالكسر
الماء الذي يورد.

و قال الراغب في المفردات الورد الماء المرشح للورود و أستعمل في النار
على سبيل الفطاعة.

و قال بعضهم الورد العطش و أنما قال ذلك لأن أصل الورد قصد الماء ثم
يستعمل في غيره.

و أما المورود فالمراد به النار و عليه فالمعنى بشس الورد الذي يردونه النار
لأن الوارد أنما يقصد تسكين العطش و تبريد الأكباد و النار ضده.

وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ بَشَسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ

أي و أتبع فرعون و ملائه في هذه، أي هذه الدّنيا لعنة لأنّ الله و ملائكته و المؤمنين يلعنهم في هذه الدّنيا الى يوم القيامة وأمّا في يوم القيامة فبئس الرّفد المرفود و الرّفد بكسر الراء العون على الأمر و المعنى بئس العون المعان و ذلك أنّ اللّعة في الدّنيا رّفد للعذاب و مدد له و على هذا فالمرفود صفة للرّفد و المخصوص بالذّم محذوف تقديره رّفدهم و محصّل الكلام أنّ فرعون و ملائه صاروا ملعونين في الدّنيا معذّبين في الآخرة.



ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ
 حَصِيدٌ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا
 زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ
 إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ
 شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ
 الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ
 مَسْهُودٌ (١٠٣) وَ مَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ
 (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ
 شَقِئٌ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِئْسَ الْتَارِ
 لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا
 دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ
 رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا
 فَبِئْسَ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَ
 الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ
 (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا
 يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا
 لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَ لَقَدْ
 آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ
 مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)

◀ اللغة

أَنْبَاءَ الْقُرَى أَنْبَاءُ جَمْعُ نَبَأٍ وَهُوَ الْخَبَرُ وَالْقُرَى بِضَمِّ الْقَافِ جَمْعُ قَرْيَةٍ.
قَائِمٌ وَحَصِيدٌ الْقَائِمُ الْمَعْمُورُ وَالْحَصِيدُ الْخَرَابُ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ.
أَعْنَتُ أَيِ دَفَعْتُ.

مَشْهُودٌ أَيِ يَشْهَدُهُ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ.
تَتَبَّعَ مَعْنَاهُ التَّخِيرُ مِنْ تَبَّتْ يَدُهُ أَيِ خَسِرَتْ.
لِأَجْلِ مَعْدُودِ الْأَجْلِ الْمُدَّةِ الْمَضْرُوبَةِ.
شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِسُوءِ عَمَلِهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِحَسَنِ عَمَلِهِ.

زَفِيرٌ وَشَهيقٌ الزَّفِيرُ بَفَتْحِ الرَّاءِ الشَّدَّةِ وَالشَّهيقُ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَكَسْرِ الْهَاءِ
صَوْتُ فَطْلِحٍ يَخْرُجُ مِنَ الْجَوْفِ عِنْدَ النَّفْسِ وَأَصْلُهُ الطُّولُ الْمَفْرُطُ.
مَجْدُودٌ الْمَجْدُودُ الْمَقْطُوعُ.

◀ الإعراب

يَقْدُمُ قَوْمُهُ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ لَا مَوْضِعَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَ
نَقْصُهُ حَالٌ مِنْهَا قَائِمٌ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْهَاءِ فِي نَقْصِهِ وَ
حَصِيدٌ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ أَيِ وَمِنْهَا حَصِيدٌ وَهُوَ بِمَعْنَى مَحْصُودٌ إِذَا
أَخَذَ ظَرْفٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ أَخَذَ رَبِّكَ ذَلِكَ يَوْمٌ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَمَجْمُوعٌ صِفَةٌ يَوْمٍ
وَالنَّاسُ مَرْفُوعٌ بِمَجْمُوعٍ يَوْمَ يَأْتِ يَوْمَ ظَرْفٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ تَكَلَّمُ مَقْدَرَةٌ وَ
التَّقْدِيرُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ.

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَالْعَامِلُ فِيهِمَا الْإِسْتِقْرَارُ الَّذِي فِي
النَّارِ أَوْ نَفْسِ الظَّرْفِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا حَالٌ وَالْعَامِلُ
فِيهَا لَهُمْ، مَا دَامَتْ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ أَيِ مَدَّةَ دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَدَامَ هُنَا تَامَةً إِلَّا
مَا شَاءَ فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ قَوْلَانِ:

فِي الْقُرَى
فِي تَقْدِيرِ الْقُرَى

جزء ١٢

الجملة الثالثة

أحدهما: هو منقطع.

الثاني: هو متصل وسيأتي توضيح ذلك عطاءً إسم مصدر أي إعطاء ذلك غير منقوص حال أي وافياً.

◀ التفسير

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ

ذلك إشارة الى ما تقدم من ذكر الأنبياء وقومهم وما حلَّ بهم من العقوبات كما عرفت تفصيل ذلك في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفي كلمة، مِنْ إشارة الى أن ما تقدم ذكره كان بعض أنباء القرى لا كلها وعليه فالمعنى ذلك الذي قدّمنا ذكره لك بعض أنباء القرى وأخبارها نقضه عليك منها، أي من القرى قائمٌ وحصيد، أي بعض القرى قائم ومعمور وبعضها غير معمور.

وقيل المعنى بعضها، قائم على بناءه وأن كان خالياً من أهله وبعضها ليس كذلك والحصد في الأصل قطع الزرع من الأصل فالحصيد منهم كالزرع المحصود وحصدهم بالسيف اذا قتلهم هذا معنى الآية بحسب الألفاظ واللغات وفيها نكتة خفية لا بأس بالإشارة اليها، وهي أن الله تعالى شبه هؤلاء الكفار أو ديارهم التي كانوا يسكنون فيها بالزرع فكما أن الزرع يقطع من أصله يوم حصاده لتبقى الأرض خالية منه وتستعدّ لزرع آخر كذلك الكفار المعاندين لا فائدة في بقاءهم على الأرض فالحكمة تقتضي إهلاكهم وإفناءهم عن وجه الأرض وتخليتها عن وجودهم وإستخلاف قوم آخرين.

إِنْ قُلْتَ هَذِهِ السَّيْرَةُ مُسْتَمِرَّةٌ فِي كُلِّ الْبَشَرِ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَفْرَادِ يَمُوتُونَ وَيَسْتَخْلَفُهُمْ قَوْمٌ آخَرُونَ.

قُلْتُ نَعَمْ لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْهَالِكِينَ مَوْجُودٌ فَالْكَافِرُ يَمُوتُ بِالْعَذَابِ النَّازِلِ عَلَيْهِ وَتَلْحَقُهُ اللَّعْنَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ فَكَأَنَّهُ قَطَعَ اللَّهُ أَصْلَهُ وَفَرَعَهُ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَافِ فَيَبْقَى مِنْهُمْ أَثَارُ الْخَيْرِ وَتَلْحَقُهُمُ الرَّحْمَةُ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَالْكَافِرُ الَّذِي أَهْلَكَهُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ النَّازِلِ أَشْبَهَ بِالزَّرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنْ أَصْلِهِ الَّذِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِيهَا بَعْدَ الْقَطْعِ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْبَاعْثَ عَلَى الْهَلَاكِ وَنَزُولِ الْعَذَابِ هُوَ الْأَعْمَالُ وَالنِّيَّاتُ فَقَالَ:

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

أَيُّ وَمَا ظَلَمْنَا هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ وَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ وَ أَمْثَالِهِمْ مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ فِي الْآيَاتِ وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ فِي طُولِ الْأَزْمَنَةِ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ إِنْكَارِهِمُ الْحَقَّ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْإِتْيَانِ بِقَبَائِحِ الْأَفْعَالِ وَإِذْيَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَبِالْجُمْلَةِ الْعَصِيَانِ وَالطَّغْيَانِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الشَّنِيعَةِ وَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ إِلَّا بَعْدَ إِتِمَامِ الْحِجَّةِ عَلَيْهِمْ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا دَوَاءَ لِدَاءِهِ إِلَّا الْإِهْلَاكِ بِالْعَذَابِ فِي الدَّارَيْنِ وَأَتَمَّا قَالَ تَعَالَى ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ كَمَا لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ فَأَنَّهُ غَنَى بِالذَّاتِ عَنْ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا خَاسِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ^(٤).

وَالْآيَاتُ بِهَذِهِ الْمَضَامِينِ كَثِيرَةٌ.

فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

أَيُّ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ وُجُودَهَا كَالْعَدَمِ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَعْبُدُهُ الْعَاقِلُ وَيَتَّخِذُهُ رَبًّا مَعْبُودًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

العنبر الثالث

لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ

قال الزمخشري، لَمَّا منصوب بما أغنت و هذا بناءً على أَنَّ لَمَّا ظرف خلاف مذهب سيبويه لأنَّ مذهبه أنَّها حرف وجوب لوجوب و قوله: وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ.

في قوله: وَ مَا زَادُوهُمْ عومل معه معاملة العقلاء في الإسناد الى واو الضمير الذي هو لمن يعقل و ذلك لأنَّ الكفار نزلوا الأصنام والأوثان منزلة العقلاء في اعتقادهم أنَّها تنفع في عبادتهم أيَّاهم و جرى كلام الله على هذا المجرى و لولا ذلك لقال و ما زادتهم غير تتبيب.

قال ابن زيد التَّبِيب الشَّر و المشهور أنَّه الهلاك و الخسران و قيل التدمير و هذه كُلُّها متقاربة و المعنى أَنَّ الأصنام التي يدعونها مضافاً الى أنَّها لم تقدر على دفع العذاب عنهم زادت على خسرانهم و عقابهم و ذلك لأنَّ عبادتهم أيَّاهها صارت موجبة لنزول العذاب عليهم.

قال الزاغبي في المفردات، التَّب و التَّبَاب الإستمرار في الحُسران تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ أَيِ اسْتَمَرَّتْ فِي خُسْرَانِهِ انْتَهَى.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ
أي و مثل ذلك الأخذ أخذ الله الأمم السابقة إذ أخذ القرى أي أهلها و هي أي أهل القرى ظالمة و هو الذي صار سبباً لأخذهم كما مرَّ الكلام فيه عند قوله: مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ أَيِ مؤلِّمٌ شديد قيل في وجه التشبيه في قوله: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ أَنَّ أَخْذَهُ الظَّالِم الذي يساوي مَنْ تَقَدَّمَهُ فِي ظُلْمِهِ و حاله في بطلان الفلاح ببقائه، كأخذه الذي قبله لأنَّه ليس هناك محاباة لأحد من خلقه و الأخذ نقل الشئ الى جهة الأخذ فلَمَّا نقلهم الى الله الى جهة عقابه كان قد أخذهم به.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّ في ما أخبر به من إهلاك قوم نُوح وغيرهم على وجه العقوبة لهم على كفرهم، آية اى علامة عظيمة بما فيها من البيان عن الأمر الكثير.

و قال بعض المفسرين قوله الآية لمن خاف عذاب الآخرة أي لعبرة لأنه ينظر الى ما أحلَّ الله بالمجرمين في الدنيا و ما هو إلا أنموذجٌ ممَّا أعدَّ لهم في الآخرة.

أقول معنى الكلام واضح لا خفاء فيه سواء قلنا أنَّ الآية بمعنى العلامة أم قلنا بمعنى العبرة إلا أنَّ الأول أوفق باللغة و الثاني بالمعنى فعلى الأول يصير المعنى أنهم إذا عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الأنبياء و إشراكهم بالله وهي دار العمل فلأن يعذبوا على ذلك في الآخرة التي هي دار الجزاء أولى و ذلك أنَّ الأنبياء أخبروا باستئصال من كذبهم و أشركوا بالله و وقع ما أخبروا به وفق إخبارهم فدلَّ على أنَّ ما أخبروا به من البعث و الجزاء صدق لا شك فيه.

وأما قوله: ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ فهو إشارة الى يوم القيامة فأنه اليوم الذي يجمع فيه الناس و يشهده جميع الخلاق و ليس يوصف في هذه الصِّفة يومٌ سواه و الجمع ضمُّ أحد الشَّيئين الى آخر:

قال الله تعالى: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاهُمْ وَ الْأَوَّلِينَ^(١).

قال الله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ^(٢).

قال الله تعالى: وَ نُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا^(٣).

وهكذا وَ مَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ الضمير في قوله: تُؤَخِّرُهُ عائد على قوله: يَوْمٌ مَّشْهُودٌ.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الجلد الثامن

و هو يوم الجزاء و المعنى ليس تأخير يوم الجزاء إلا يستوفي الأجل المضروب لوقوع الجزاء فيه و يحتمل رجوع الضمير الى الجزاء و المعدود المحدود و قيل إلا لأجل معدود، أي لقضاء سابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عليه و لا يتأخر عنه.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ
قرأ النحويون و النافع، يأتي بإثبات الباء وصلأ و حذفها وقفأ.
و قرأ ابن كثير بإثباتها وصلأ و وقفأ.

و قرأ باقي السبعة بحذفها وصلأ و وقفأ و عليه المصحف فعلاً و قوله: لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ أي لا تتكلم نفس فحذف إحدى التائين لدلالة الكلام عليه.
إن قلت بما أنتصب الظرف، أعني، به يوم، قلت إما بلا تكلم و إما بإضمار، أذكر، أي أذكر يوم لا تكلم نفس و المعنى أن اليوم المشهود و هو يوم القيامة يوم يأتي الله عز وجل: لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ و على هذا فقوله: يَوْمَ ظَرْف و يأت فعل و فاعله، الله تعالى و قوله لا تكلم نفس أي لا تتكلم نفس إلا بإذنه و منه قوله تعالى: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا^(١)

و قوله: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ من للتبعيض أي من الخلائق الذين يجمعون يوم القيامة بعضهم شقي و بعضهم سعيد و من المعلوم أن الشقي مصيره الى النار و السعيد الى الجنة.

وإعلم أن السعادة معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير و يضاده الشقاوة فية خلاف السعادة و كل إنسان لا يخلو منهما لأن رفعهما إرتفاع النقيضين كما أن جمعها إجتماعهما فقوله تعالى فمنهم شقي و سعيد، يفيد حصر الإنسان فيهما إما هذا وإما هذا اذا عرفت هذا فتقول:

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢
المجلد التاسع

اختلفوا في أنّ السَّعادة و الشَّقَاوة ذاتيتان للإنسان او عرضيتان فعلى الأول يكون السَّعيد سعيداً ذاتاً و الشَّقِي كذلك بمعنى أنّ تبديل أحدهما بالآخر لا يمكن فالسَّعيد لا يصير شَقِيّاً و الشَّقِي لا يصير سعيداً فلو قيل لم كان السَّعيد سعيداً و الشَّقِي شَقِيّاً يقال في الجواب أنّهما من لوازم ذات الإنسان و قد ثبت في العلوم العقلية أنّ الذاتي لا يعلّل.

قال السبزواري في المنظومة:

ذاتي شيءٍ لم يكن فعلاً

وقال في موضع آخر:

ذاتي شيءٍ بيّن الثبوت له

و معنى هذا الكلام أنّه لا يقال لم كان الشَّقِي شَقِيّاً و السَّعيد سعيداً كما لا يقال لم كانت النار حارّة و لم كان الماء رطبة و أمثال ذلك من الذاتيات التي لا تتغيّر ولا تتبدّل.

على الثاني: و هو أن تكونا عرضيتين فتبديل أحدهما بالآخر ممكن لا محذور فيه كما في جميع الصفات العرضية ألا ترى أنّ الكافر يصير مؤمناً و بالعكس و الجاهل يصير عالماً و بالعكس و البخيل يصير سخياً و بالعكس و الظالم يصير عادلاً و بالعكس و هذا الكلام في الأعراض الطارئة على الجسم. و الحاصل أنّ العرض معلّل و الذاتي لا يعلّل و على هذا فلو قلنا بأنّ السَّعادة و الشَّقَاوة ذاتيتان للإنسان يعني أنّ الله تعالى خلق الإنسان سعيداً و شَقِيّاً و هما من لوازم ذاته و الذاتي لا يتغيّر أصلاً كما هو المفروض يلزم أن يكون التكليف عبثاً و لازم ذلك هو تعطيل دائرة التشريع بالكلية و عليه فإرسال الرُّسل و إنزال الكتب و جميع الأحكام الشرعية لا فائدة فيها لأنّ النبي المبعوث الى الشَّقِي مثلاً لا يقدر على إرشاده و هدايته قطعاً فيلزم إختصاص فائدة البعث بالسُّعداء و هو كما ترى لا يقبله العقل السليم لو لم نقل أنّه من تحصيل الحاصل و كيف يعقل إحتياج السَّعيد الى النبي و عدم إحتياج الشَّقِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

الجلد الثاني

إليه بل الشَّقِيّ أحوَج إليه من السَّعِيد والمفروض أَنَّ الشَّقِيّ لَا يَتَغَيَّر وَلَا يُمْكِن أَنْ يَصِيرَ سَعِيداً فَجَمِيعُ الْكُفَّارِ فِي فَسْحَةٍ مِنْ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ لِلْكَفْرِ تَبْدِيلَ لَخُلُقِ اللَّهِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَا مَعْنَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَالْجُمْلَةِ مَا مَعْنَى يَوْمِ الْحِسَابِ.

قال الرَّاظِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَا هَذَا الْفِظَةُ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ سَعِيدٌ وَعَلَى بَعْضِهِمْ بِأَنَّهُ شَقِيٌّ وَمِنْ حَكَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِحُكْمٍ وَعِلْمٍ مِنْهُ ذَلِكَ الْأَمْرُ إِمْتِنَاعٌ كَوْنُهُ بِخِلَافِهِ وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَصِيرَ خَبِيرُ اللَّهِ تَعَالَى كَذِباً وَعِلْمُهُ جَهْلًا وَذَلِكَ مُحَالٌ فَثَبَتَ أَنَّ السَّعِيدَ لَا يَنْقَلِبُ شَقِيًّا وَأَنَّ الشَّقِيَّ لَا يَنْقَلِبُ سَعِيداً وَتَقْرِيرُ هَذَا الدَّلِيلِ مَرَّةً فِي هَذَا الْكِتَابِ مَرَاراً لَا تَحْصَى.

وَرَوَى عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ نَزَلَ قَوْلُهُ: **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَفْرَغْ مِنْهُ فَقَالَ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ يَا عُمَرُ وَجَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْدَارُ وَلَكِنْ كُلُّ مَيَسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ لَا نَتَعَجَّبُ مِنَ الرَّازِيِّ فَإِنَّهُ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ الْقَائِلِينَ بِالْجَبْرِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَجْزِي النَّارَ إِلَى قُرْصَتِهِ وَلَكِنْ نَتَعَجَّبُ مِنْ إِسْتِدْلَالِهِ بِحَدِيثٍ رَوَاهُ عَنْ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْبَحْثَ عَقْلِيًّا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا بِالسَّمْعِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ أَنَّ النَّقْلَ لَا يَعَارِضُ الْعَقْلَ السَّلِيمَ وَلَا سَيِّمًا النَّقْلَ عَنْ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَسَمُرَةَ وَأَمْثَالِهِمْ لَا تَرَى أَنَّهُمْ رَوَوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، أَوْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ وَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ بِصَحَّةِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَعَ أَنَّ الْأَدْلَةَ الْعَقْلِيَّةَ تَنْفِي الرُّؤْيَا مُطْلَقاً وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَلَا يَجُوزُ لَنَا رَفْعُ الْيَدِ عَمَّا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ السَّلِيمُ الْخَالِي عَنْ شَوَائِبِ الْأَوْهَامِ لِأَجْلِ هَذِهِ الْمُنْقُولَاتِ الَّتِي لَا تَسْمُنُ وَلَا تَغْنِي.

و الحاصل أَنَّ الدَّلِيلَ القاطع لا يدفع بهذه الروايات فثبت و تحقَّق أَنَّ ذاتِيَّة الشَّقَاوَةِ و السَّعَادَةِ لا معنى لها لأنَّها توجب تعطيل دائرة الشَّرْع و القيامة و الثَّوَاب و العقاب بل نسبة الظُّلْم إلى الله تعالى بل نقول لا ظلم أفحش منه و أنما قلنا به لأنَّ الخالق اذا خلق العبد شَقِيًّا ثُمَّ عاقبه على شقاوته و كفره و إلحاده و المفروض عدم قدرة العبد على ترك الشَّقَاوَةِ فهو من أقبح الظُّلْم و أفحشه أليس للعبد أن يقول لخالقه لم تعذبني على شقاوتي و أعمالي خلقتني للشَّقَاوَةِ و الكفر فما يقول الخالق في جوابه فأن قال في جواب العبد لا تتكلم فقد جفَّت به الأقلام و جرت به الأقدار أليس للعبد أن يقول لم جفَّت الأقلام و جرت الأقدار في حقِّي بالشَّقَاوَةِ و في حقِّ غيري بالسَّعَادَةِ و ما كان ذنبي قبل وجودي و اذا كان الأمر على هذا المنوال فالقول بأنَّ السَّعَادَةِ و الشَّقَاوَةِ ذاتيتان كما عليه الأشاعرة عاطلٌّ باطل من أصله والقائل به لا يفهم ما يقول وهو ظاهر.

أما القسم الثَّانِي: و هو كونهما عرَضيتان فهو الصَّحيح الموافق للعقل و النَّقل و معنى ذلك أَنَّ حصولهما تحت إختيار العبد و لتوضيحه نقول، أَنَّ الإنسان في بدو خلقته لا يحكم عليه بأنَّه شَقِيٌّ أو سعيد لما ذكرناه و دلَّلنا عليه من أَنَّ الله تعالى أعدل من أن يخلق الإنسان شَقِيًّا أو سعيداً و لكنَّه قابل و مستعدُّ لهما فأنَّ مقام القابليَّة غير مقام الفعلية و البحث في الفعلية لا في القوة و اذا كان قابلاً لهما فأن قبل دعوة الأنبياء و أطاع أوامرهم و نواهيهم فعلاً و تركاً و فعل الأعمال الصَّالحة و ترك القبائح و المعاصي و جالس الصُّلحاء و إنَّعظ بمواعظ الله و بالجملة كان مطيعاً لرَّبِّه فيصير من السُّعداء و الصُّلحاء و أن لم يقبل دعوة الأنبياء و سلك مسلك الطُّغَيان و التمرد و بقي على ما كان عليه من الكفر و الإلحاد فلا محالة يصير من الأشقياء و عليه فالسَّعادة و الشَّقَاوَةُ من الأمور الكسبية كالعلم و الشَّجاعة و العدالة و أمثال ذلك من الصِّفات الكسبية العارضة على ذات الإنسان و أنما قلنا ذلك لأنَّ الإنسان مختار في فعله و تركه و المختار لا يكون مجبوراً.

وَأَمَّا قَوْلُ الْجَبْرِيِّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ عَالِمًا مِنَ الْأَزَلِ بِشَقَاوَةِ الْعَبْدِ أَوْ بِسَعَادَتِهِ فِي صُورَةِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ جَهْلًا وَهُوَ مُحَالٌ.
فَنَقُولُ فِي جَوَابِهِ، نَحْنُ أَيْضًا نَقُولُ بِمَقَالَتِكُمْ وَلا نَخَالِفُكُمْ فِيهَا إِلَّا أَنَّا نَقُولُ
هُوَ كَانَ عَالِمًا بِشَقَاوَةِ الْعَبْدِ وَسَعَادَتِهِ بِاخْتِيَارِهِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ
عَالِمًا بِأَنَّ هَذَا الْعَبْدَ يَخْتَارُ الشَّقَاوَةَ وَهَذَا يَخْتَارُ السَّعَادَةَ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَلا شَكَّ
أَنَّ مَا عَلَّمَ اللَّهُ يَحْصُلُ وَلا خِلَافَ فِيهِ.

وَأَمَّا أَنْتُمْ تَقُولُونَ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ صَارَ عِلَّةً لَوْجُودِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ
الْمُسَلَّمِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ أَنَّ الْعِلْمَ الْأَزَلِيَّ لَا يَكُونُ عِلَّةً وَسَبَبًا لِلشَّقَاوَةِ وَلَنَعْمَ مَا قِيلَ
بِالْفَارْسِيَّةِ:

عِلْمِ اَزَلِي عَلَتْ عَصِيَانُ بُودَنْ نَزْدَ عُقْلًا زَغَايَتْ جَهْلُ بُودِ
إِنْ قُلْتَ فَمَا مَعْنَى الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ
قَالَ ﷺ: الشَّقِيُّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ سَعِيدٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَ
أَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا رُوِيَ عَنْهُ ﷺ.

قُلْتُ أَمَّا هَذَا الْحَدِيثُ فَلَمْ نَجِدْ لَهُ مَا خِذًا صَحِيحًا وَلا سِنْدًا وَأَمَّا هُوَ مِنَ
الْمَشْهُورَاتِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا كَمَا قِيلَ رَبٌّ مَشْهُورٌ لَا أَصْلَ لَهُ.
وَعَلَى فَرَضِ صَحَّتِهِ فَهُوَ مُؤَلَّ بِأَنْ يُقَالَ الشَّقِيُّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَ
هَكَذَا السَّعِيدُ أَوْ يُقَالَ الْمَرَادُ قَابِلِيَّتُهُ لِهَمَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ وَ قُلْنَا
أَنَّ الْخَبَرَ لَا أَصْلَ لَهُ.

وَمَحْصُلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْبَابِ عَلَى خِلَافِ مَا أَثْبَتْنَاهُ وَ
أَصْلُنَاهُ بَعْدَ صَحَّةِ إِسْنَادِهَا قَابِلَةٌ لِلتَّأْوِيلِ مَا هُوَ شَأْنُ الثَّقَلِ الْمَعَارِضِ لَصَرِيحِ
الْعَقْلِ.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا
دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ

قال الضَّحَّاك ومقاتل والفراء الزَّفير أول نهيق الحمار والشَّهيق آخره.
وقال الآخرون الزَّفير في الحلق والشَّهيق في الصَّدر.

وقال ابن السائب الزَّفير زفير الحمار والشَّهيق شهيق البغال.

وقال الراغب في المفردات الزَّفير تردّد النَّفس حتَّى تستنفع الضلوع منه و
إزدفر فلان كذا إذا تحمَّله بمشقة فتزدد فيه نفسه و قال الشَّهيق طول الزَّفير وهو
ردّ النَّفس ولازَّفير مدّه وأصله من جبل شاهق أي متناهي الطُّول انتهى.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّ الذين شقوا بإستحقاقهم النَّار جزاء بسوء
أعمالهم داخلون فيها وأنَّما سمِّي الشَّقِي شقيّاً قبل دخوله في النَّار لأنَّه على
حال تؤدِّيه إلى دخولها من قبائح أعماله.

فأما ما روي من قوله، أنَّ الشَّقِي شقيٌّ في بطن أمّه، فجاز لأنَّ المعنى أنَّ
المعلوم من حاله أنَّه سيشتقى بإرتكاب المعاصي الّتي تؤدِّيه إلى عذاب النَّار
كما يقال لولد شيخ هرم هذا يتيم ومعناه أنَّه (سَيِّئِيْتَم) أي سيكون كذلك قاله
الشيخ في التَّبيان.

أقول ما ذكره رحمته حق لا مربة فيه وهو يؤيد ما ذكرناه والذي نقول في المقام
مضافاً إلى ما ذكرناه في معنى السَّعادة والشَّقَاوة هو أنَّ قوله تعالى فأما الَّذِينَ
شقوا، دليل على ما ذكرناه في معنى الشَّقَاوة وهو أنَّها ليست ذاتيةً و ذلك لأنَّه
تعالى قال فأما الَّذِينَ شقوا ولم يقل أنَّ الأشقياء في النَّار مثلاً للإشارة إلى أنَّ
الشَّقَاوة ممَّا إكتسبه العبد و لذلك نسبت إليه في قوله: شَقُّوا فأنَّ معناه أنَّهم
شقوا بإختيارهم كما يقول هؤلاء ضربوا زيداً أو أكلوا خبزاً و أمثال ذلك ممَّا
ينسب الفعل إلى الفاعل و هكذا القول في قوله: سَعَدُوا، وليت شعري
ما الفرق بين هذا الكلام وبين قوله تعالى.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ كَذَا وَكَذَا وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَهُمْ
كَذَا وَكَذَا أليس المعنى أنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أو كفروا بإختيارهم فأن قالوا أنَّ الإيمان
و الكفر أيضاً خارجان عن قدرته بل المؤمن خلق مؤمناً و الكافر كافراً نقول في

في قوله تعالى
فَأَمَّا الَّذِينَ
شَقُوا

جزء ١٢

الجملة
التي

جوابهم لو كان كذلك فحقَّ العبارة أن يقال و أما المؤمنون كذا و الكافرون كذا، و لم يقل هكذا بل قال أما الَّذِينَ آمنوا، أو كفروا أي آمنوا بعد أن لم يكونوا مؤمنين و كفروا بعد أن لم يكونوا من الكافرين فلو كانوا بحسب الخلقة مؤمنين أو كافرين لا يصحَّ قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ أَفْنَوْا أَوْ كَفَرُوا، اذ لقائل أن يقول أنهم لم يؤمنوا و لم يكفروا بل كانوا كذلك وهكذا الكلام في مورد البحث اذ لو كان الشَّقِي شَقِيًّا في بطن أمه و السَّعِيد كذلك لا يصحَّ أن يقال فأما الَّذِينَ شَقُوا أو سعدوا لأنه يعدُّ من الكذب تعالى الله عنه و أنما قلنا أنه كذب لأنه تعالى قال فأما الَّذِينَ شَقُوا فكذا و كذا و هؤلاء لم يشقوا بل كانوا شَقِيًّا في الأصل المعلوم أنَّ نسبة الفعل الى غير فاعله كذب.

و محصل الكلام هو أنَّ الآية ظاهرة بل دالة على نسبة الفعل و هو الشَّقَاوة الى العبد بدليل قوله شقوا، و المفروض أنه لم يشق بفعله و إختياره بل خلق شَقِيًّا و هذا كما ترى.

ثانياً: نقول الآية مصرية بأنَّ الَّذِينَ شَقُوا في النَّار و لا تدلَّ على أنَّ الشَّقِي بحسب ذاته في النَّار و هكذا في السَّعِيد فيلزم أن لا يكون الشَّقِي الذَّاتِي في النَّار بل الَّذِينَ إكتسبوا الشَّقَاوة في الدُّنْيَا يدخلون النَّار و هو أيضاً كما ترى.

و أما قوله: لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيْقٌ فقد مرَّ الكلام في معناهما و المعنى أنهم في النَّار في نهاية الشَّدة و العسرة فأنهما كنياتان عن شَّدة العذاب و لا يبعد أن يكون لهم فيها زفيرٌ و شهيقٌ واقعاً.

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ أخبر الله تعالى عن هؤلاء الأشقياء أنهم مُخَلَّدُونَ في النَّار ما دامت السَّمَوَاتُ و الأرض و الخلود الكون في الأمر أبداً، و الدَّوام البقاء أبداً و لهذا يوصف الله بأنه دائم و لا يوصف بأنه خالد فالخلود لا يكون دائماً و لذلك قيَّده الله تعالى بقوله ما دامت السَّمَوَاتُ و الأرض أي ما دامت السَّمَوَاتُ و الأرض باقية و اختلفوا في معنى المراد بهما على قولين:

أحدهما: أن المراد بهما هو السماء والأرض المعهودتين في الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده كقولهم أتيك ما جنَّ الليل (ليلٌ) أو سال سيلٌ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك وأن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض.

ثانيهما: أن المراد بهما سموات الجنة والنار وأرضهما وذلك لأن السموات كل ما علاك فأظلك والأرض ما استقرَّ عليه قدمك ولا شك أن سموات الجنة وأرضهما مخلوقتان للابد وإستدل صاحب الكشف على أن لها سموات أرضاً.

قال الله تعالى: **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَوَاتُ.**

قال الله تعالى: **وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ^(١)** انتهى.

أقول قال الراغب في المفردات، الخلود هو تَبَرُّي الشيء من إعتراض الفساد وبقاءه على الحالة التي هو فيها وكل ما يتباطى عنه التغير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للإثافي خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقاءها وأصل المخلد الذي يبقى مدةً طويلةً ومنه قيل رجلٌ مخلدٌ لمن أبطأ عنه الشيب إلى أن قال والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير إعتراض الفساد عليها انتهى.

وعلى هذا فقله تعالى: **خَالِدِينَ فِيهَا** معناه بقاءهم على الحالة التي هم عليها من غير إعتراض الفساد عليها فقولهم في تفسير الآية أنه أي الخلود فيها كناية عن الدوام والتأبيد أن كان مرادهم بالدوام بقولٍ مطلق يعني التأبيد فلا معنى له لعدم مساعدة اللغة إيّاه وأن كان مرادهم به الدوام المؤقت أعني مكثهم فيها طويل لا يعلم مدته إلا الله فهو صحيحٌ ويؤيد هذا المعنى أنه علّق

بأن القرآن في تفسيره

جزء ١٢

الجلد الثالث

الخلود على بقاء السموات والأرض وغيرهما من المخلوقات لا تكون دائماً لقوله تعالى: **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** فما علق بقاءه أيضاً لا يكون دائماً و ينتج أن الخلود في الجنة والنار منقطع الآخر ولا يكون دائماً أبدياً وهو المطلوب. وأما قوله: **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** إختلفوا في هذا الإستثناء على أقوال ذكر أكثرها الشيخ في التبيان.

أحدها: ما يليق بمذهبنا في الأرجاء وهو أن الله تعالى أخبر أن الأشقياء المستحقين للعقاب يحصلون في النار ثم إستثنى من أراد من فساق أهل الصلاة إذا أراد التفضل بإسقاط عقابه أو من يشفع فيه النبي ﷺ فإنه عند ذلك لا يدخله النار وتكون على هذا، ما، في قوله: **مَا شَاءَ** معناها، من، كأنه قال إلا من شاء ربك فلا يدخله النار وهو قوله قتادة وابن عباس والضحاك وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وجماعة من المفسرين ويجوز على هذا المذهب أن يكون إستثناء من الخلود فكأنه قال إلا من شاء ربك بأن لا يخلدهم في النار بل يخرجهم عنها.

قال ابن عباس قوله تعالى: **لَا يَبْتَغِي فِيهَا أَهْقَابًا** ^(١) **خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** في أهل التوحيد.

ثانيها: قال ابن زيد وحكاه الرمانى أن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة المضاعفة.

ثالثها: قال الجبائي أن المعنى ما دامت السموات لأهل الآخرة وأرضهم إلا بما شاء ربك مما كان قبل أن يدخلوها من أوقات وقوفهم في صدر يومهم في الموقف لأن الله تعالى قال: **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ.**

رابعها: ما ذكره كثير من أهل العربية كالقراء والزجاج وغيرهم أن إلا، في الآية بمعنى سوى، والتقدير ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك كما يقول القائل، لو كان معنا رجل إلا زيد أي سوى زيد ولك عندي ألف

درهم إِلَّا الْأَلْفَيْنِ الَّتِي لَكَ عِنْدِي أَي سَوَى الْأَلْفَيْنِ وَ مِثْلَهُ قَوْلُهُ: وَلَا تَنْخُجُوا مَا نَخَجُ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ^(١) أَي سَوَى مَا قَدْ سَلَفَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: وَلَا تَنْخُجُوا مُسْتَقْبَلٌ وَإِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مَاضٍ وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا خَالِدِينَ فِيهَا مِقْدَارُ دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَى مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنَ الْخُلُودِ وَالزِّيَادَةِ.

خامسها: إِنَّ إِلَّا بِمَعْنَى، وَاو، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكَلَّ أَخٌ مَفَارِقَةَ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفِرْقَانِ
وَعَلَى هَذَا لَوْ قَالَ الْقَائِلُ لَكَ عِنْدِي أَلْفٌ إِلَّا أَلْفَيْنِ لَزِمَهُ ثَلَاثُ أَلْفٍ دَرَاهِمٍ
لِأَنَّ إِسْتِثْنَاءَ الزَّائِدِ مِنَ النَّاقِصِ.

سادسها: أَنَّ ذَلِكَ تَعْلِيلٌ لِمَا لَا يَكُونُ بِمَا لَا يَكُونُ كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ وَ هُوَ لَا يَشَاءُ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْهَا وَ تَكُونُ الْفَائِدَةُ أَنْ لَوْ شَاءَ أَنْ يَخْرِجَهُمْ لَقَدَرُوا وَلَكِنَّهُ قَدْ أَعْلَمْنَا أَنَّهُمْ خَالِدُونَ أَبَدًا.

سابعها: ذَكَرَهُ الزَّجَاجُ وَ هُوَ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ وَقَعَ عَلَى أَنَّ لَهُمْ زَفِيرًا وَ شَهِيقًا: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْهَا.

ثامنها: مَا ذَكَرَهُ الْبَلْخِي وَ هُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ وَقْتِ نَزُولِ الْآيَةِ أَوْ مِنْ يَوْمٍ يَمُوتُونَ.

فَأَنْ قِيلَ كَيْفَ يَسْتَتْنِي مِنَ الْخُلُودِ فِيهَا مَا قَبْلَ الدُّخُولِ فِيهَا، قُلْنَا يَجُوزُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الْإِخْبَارُ بِهِ قَبْلَ دُخُولِهِمْ.

تاسعها: مَا ذَكَرَهُ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ فِيهَا يَعْنِي فِي النَّارِ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْقُبُورِ، دَائِمِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَنَّهُمَا إِذَا عَدِمَتَا انْقَطَعَ عِقَابُهُمَا إِلَى أَنْ يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ لِلْحِسَابِ.

وَقَوْلُهُ: إِنَّ رَبُّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلَهُ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْبَدَاءُ بِالرَّجُوعِ عَمَّا أَرَادَهُ وَلَا الْمَنْعُ مِنْ مُرَادِهِ وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مَعَ كَثَرَتِهِ بِإِرَادَةِ مَنْ أَفْعَالُهُ انْتَهَى.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد الثامن

ما ذكره الشيخ من نقل الأقوال في الآية و يظهر منه عنه أنه إختار أول الوجوه لأنه قال أنه أليق بمذهبنا في الإرجاء.

و قال بعض المفسرين من العامة لهذه الآية و الظاهر أن قوله ما شاء ربك إستثناء من الزمان الدال عليه قوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ و المعنى إلا الزمان الذي شاء الله تعالى فلا يكون في النار و لا في الجنة.

و قال الآخر أن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى إستعماله في كل كلام فهو على نحو قوله تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ^(١) إستثناء في واجب و هو في حكم الشرط كأنه قال إن شاء الله فليس يحتاج أن يوصف بمتصل و لا منقطع انتهى كلامه.

و قال الزمخشري في الكشف ما هذا لفظه: فإن قلت فما معنى الإستثناء في قوله: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ و قد ثبت الخلود لأهل الجنة و النار في الأبد من يغير إستثناء.

قلت هو إستثناء من الخلود في عذاب النار و من الخلود في نعيم الجنة و ذلك لأن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمرير و بأنواع من العذاب سوى النار بما هو أغلظ منها كلها و هو سخط الله عليهم و خسئهم و إهانتهم و كذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها و أجل موقعاً منهم و هو رضوان الله كما قال:

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِينٍ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ^(٢).

و لهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو فهو المراد بالإستثناء و الدليل عليه قوله: عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ و معنى قوله في مقابله إن ربك فعال لما يريد أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما

يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا إنقطاع له فتأمل له فأَنَّ القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا يخذّ عنك قول المجبّرة أَنَّ المراد بالإستثناء خروج أهل الكبائر من النَّار بالشّفاعَة فَأَنَّ الإستثناء الثاني يكذبهم ويسجّل بإفتراءهم و ما ظنّك بقوم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

لما روي لهم بعض النّاقلين عن عبد الله بن عمرو بن العاص ليأتينَّ على جهنّم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد و ذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، و قد بلغني أَنَّ من الضّلال من إغترّ بهذا الحديث فإعتقد أَنَّ الكفّار لا يخلدون في النَّار وهذا ونحوه و العياذ بالله من الخذلان المبين زادنا الله هداية إلى الحقّ و معرفة بكتابه و تنبيهاً على أن نعقل عنه و لئن صحّ هذا عن ابن العاص فمعناه أَنهم يخرجون من حرّ النَّار إلى برد الزّمهرير فذلك خلّو جهنّم وصفق أبوابها.

و أقول ما كان لابن عمرو في سيفيه و مقاتلته بهما عليّ بن أبي طالب عليه السلام ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى كلام صاحب الكشّاف بألفاظه و عباراته و لا بدّ لنا من التّكلم فيه لِمَا فيه من الأعوجاج ما لا يخفى على المتأمّل البصير بحقائق الأمور فنقول:

أما قوله هو إستثناء من الخلود في عذاب النَّار و من الخلود في نعيم الجنّة فهو ممّا لا إشكال فيه فأنّه أحد الأقوال في الباب بل أوثّقها و أحسنها أيضاً نقول به و أما قوله أَنَّ أهل النَّار لا يخلدون في عذاب النَّار وحده بل يعذبون بالزّمهرير و بأنواع العذاب سوى عذاب النَّار، فلا نسلمه إذ لا دليل على ما ذكره و الآية ساكنة عمّا ذكره من التّفصيل بل هي مصرّحة بأنّ الأشقياء في النَّار خالدون فيها و الظّاهر منها أَنَّ عذابهم عذاب النَّار فقط و ما زاد عليه يحتاج إلى الدّليل و إذ ليس فليس و هكذا الكلام في أهل الجنّة فقوله فهو المراد بالإستثناء أعني ما يتفّضّل الله على أهل الجنّة من الثّواب و ما يزيد على أهل النَّار من العذاب.

لا دليل عليه بل هو خلاف ظاهر الآية و كيف يكون هو المراد بالإستثناء و ليس منه في الآية عين و لا أثر.

و قوله فى: إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ أَيُّ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِأَهْلِ النَّارِ مَا يَرِيدُ مِنَ الْعَذَابِ كَمَا يَعْطِي أَهْلَ الْجَنَّةِ عَطَائَهُ الَّذِي لَا يَنْقُطُ لَهُ.

نقول فى جوابه أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِعِبَادِهِ مَا يَرِيدُ وَ أَمَّا أَنَّهُ يَفْعَلُ بِأَهْلِ النَّارِ مَا يَرِيدُ مِنَ الْعَذَابِ وَ أَنَّ كَانَ حَقًّا فِي الْوَاقِعِ إِلَّا أَنَّ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ بِهِ لَا يَصَحُّ بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَرِيدُ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا الْعَفْوَ.

وَ إِمَّا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ ذَلِكَ لِأَنَّ مَذْهَبَهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِبَاثِرِ يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ أَبَدًا وَ لَا يَجُوزُ انْقِطَاعُ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَ تَفْسِيرُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِعْتِزَالِ مِنَ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ وَ هُوَ كَمَا تَرَى خِلَافَ الْعَقْلِ وَ الشَّرْعِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَيُّ إِشْكَالٍ عَقْلًا وَ شَرْعًا فِي أَنَّ لَا نَحْمِلُ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى مَسَلِكِ الْإِعْتِزَالِ وَ نَقُولُ أَنَّهُ تَعَالَى: فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ فِي حَقِّ عِبَادِهِ أَمَّا إِدَامَةُ الْعَذَابِ وَ إِمَّا قَطْعُ الْعَذَابِ وَ إِخْرَاجُ الْعَبْدِ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ الْعَفْوَ وَ هَذَا مَعْنَى فَعَالٍ لِمَا يَرِيدُ لَا مَا قَالَهُ مِنْ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِهِمْ مَا يُرِيدُ مِنَ الْعَذَابِ فَقَطْ وَ مِنْ أَيْنَ عِلْمُ الزَّمْخَشَرِيِّ أَنَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ الْعَذَابَ وَ لَا يَرِيدُ الْعَفْوَ وَ انْقِطَاعَ الْعَذَابِ وَ بَعَابَرَةً أُخْرَى مَعْنَى قَوْلِهِ: فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ أَنَّهُ فَعَالٌ لِأَيِّ شَيْءٍ يَرِيدُ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَفْوَ فَتَخْصِصُ الْكَلَامَ بِالْعَذَابِ دُونَ الْعَفْوَ مَنَافٍ لِّظُهُورِ الْكَلَامِ وَ الْعَجَبِ مِنَ الزَّمْخَشَرِيِّ وَ هُوَ مِنْ أَسَاطِينِ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ وَ اللُّغَةِ وَ بِالْجُمْلَةِ هُوَ أَعْرَفُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ مِنْى غَيْرِهِ فَكَيْفَ يَقُولُ أَيُّ يَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَرِيدُ مِنَ الْعَذَابِ فَقَطْ أَلَيْسَ هَذَا التَّفْسِيرُ مَنَافٍ لِّظَاهَرِ اللَّفْظِ.

وَ أَمَّا قَوْلُهُ وَ لَا يَخْذُكَ عَنْ قَوْلِ الْمَجْبَرَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِسْتِثْنَاءِ خُرُوجُ أَهْلِ الْكِبَاثِرِ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ فَطَرِيفٌ مِنَ الْقَوْلِ بَلِ اطَّرَفٌ.

أَمَّا أَوَّلًا: فَلِأَنَّ خُرُوجَ أَهْلِ الْكِبَاثِرِ مِنَ النَّارِ لَا يَخْتَصُّ بِالْمَجْبَرَةِ وَ لَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِهِ أَمْ لَا بَلِ هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ وَ الْقَوْلُ بِعَدَمِ خُرُوجِهِمْ مَذْهَبُ أَهْلِ

الباطل و هو منهم أعني بهم المعتزلة و هل يجوز لمدّعي الإسلام أن ينكر الشّفاعَة يوم القيامة لرسول الله ﷺ ألم يسمع الزّمخشري.

قوله ﷺ: من لم يؤمن بحَوْضي فلا أورده الله حَوْضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أنا له الله شفاعتي ثمّ قال عليّ أنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي وأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل انتهى. و قال رسول الله ﷺ: وقد أخبأت دعوتي لشفاعتي لأمتي يوم القيامة انتهى.

و في حديثٍ آخر قال ﷺ: لا يشفع أحد أكثر ممّا يشفع فيه نبيّكم ثمّ النّبيّون ثمّ الصّديقون ثمّ الشّهداء الحديث. و لا تختصّ الشّفاعَة برسول الله ﷺ بل الأئمّة و الشّهداء و الصّالحاء و الأنبياء و غيرهم أيضاً يشفعون و صاحب الكشّاف يدّعي الإسلام فكيف يقول أنّ خروج أهل الكبائر بالشّفاعَة قول المجبّرة. و اذا ثبت أصل الشّفاعَة فهي لا محالة في حقّ الكبائر من المعاصي أو في الصّغائر و الكبائر معاً و أمّا الكفّار فلا كلام لنا فيهم و للبحث فيه مقام آخر. و الذي نقول و نذهب اليه هو أنّ أهل الكبائر أيضاً تتعلّق الشّفاعَة بهم إشكال فيه عقلاً و شرعاً و تخصيصها بالصّغائر لا دليل عليه و اذا كان كذلك فلا مانع عقلاً و شرعاً في خروج أهل الكبائر من النّار بسبب الا شّفاعَة رغماً لأنوف المنكرين خذلهم الله و أبعدهم الله عن شفاعَة الشّافعين.

و أمّا الحديث الذي رواه عن ابن العاص فقد روي عن ابن مسعود لا غيره فأن نقلوه عن ابن أبي العاص أيضاً كما ذكره الزّمخشري و نسبته اليه فلا إشكال فيه اذ هو تعالى لا يستلّ عمّا يفعل و هم يسألون و لا دليل من العقل أو النّقل على خلافه.

و أمّا قوله أنّ الإستثناء الثّاني ينادي على تكذيبهم فالجواب عنه يأتي في محلّه و من العجائب أنّه قال و ما ظنّك بقوم نبذوا كتاب الله لما روي لهم بعض النّوابت الخ و لم يعلم أو لم يتفطّن بأنّ حمّل كتاب الله على مذهب المعتزلة

في القدر الذي فيه

جزء ١٢

الجلد الثاني

أفحش وأشنع ومن فعل ذلك فهو من أعظم المصاديق لقوله نبذوا كتاب الله أعاذنا الله منه.

فثبت و تحقّق أنّ الإستثناء من الخلود ومعناه أنّ الذين شقوا ففي النار خالدون فيها إلا ما شاء ربك من إخراج من أراد منها في أي زمان شاء وبأي نحو شاء فإنّ ربك فعّال لما يريد أي يفعل بعباده ما شاء وأراد هذا ما فهمناه من الآية والعلم عند الله.

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر، سعدوا، بضم السين والباقون بفتحها، وفتح السين أولى لأنّه على هذا يكون غير متعدّ كما أنّ خلافه الذي هو، شقي كذلك، و اذا لم يكن متعدياً لم يجب أن يبنى منه المفعول به و اذا كان كذلك ضمّ السين مشكل إلا أنّ يكون سمع فيه لغة خارجة عن القياس وكيف كان فالمعنى أنّ السعداء في الجنة خالدون فيها كما مرّ البحث في الأشقياء اذ لا فرق بينهما من حيث الخلود إلا أنّ الأشقياء في النار والسعداء في الجنة و قوله: ما دامت السموات والأرض قد مرّ الكلام فيه في الآية السابقة.

و أما الإستثناء وهو قوله: إلا ما شاء ربك فعلى قول صاحب الكشف معناه إلا ما شاء ربك ممّا يتّفضل به عليهم سوى الجنة ممّا هو أكبر منها رضوان الله تعالى وإستدلّ على ذلك بقوله بعد ذلك عطاء غير مجذوذ أي غير مقطوع وهذا لا يستقيم لأنّ الإستثناء لابدّ له من المستثنى منه في اللفظ و بعبارة أخرى الإستثناء من شيء مقدّر لا معنى له و عليه فالإستثناء من الخلود كما كان كذلك في الآية السابقة و الفرق بين المقامين هو أنّ إخراج بعض الأشقياء ممّن تناول الوعيد لهم وإخراجهم من النار بسبب العفو والشفاعة أمر ممكن معقول على مذهبنا.

وَأَمَّا فِي الْمَقَامِ فَلَا يَجُوزُ إِخْرَاجُ مَنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ مِنْهَا لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُسْتَحَقٍّ لِلثَّوَابِ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا بَعْدَ دَخُولِهِ فِيهَا.
وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الَّذِينَ سَعَدُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا وَاسْتَشْنَى مِنْ جَمَلَتِهِمْ مَنْ كَانَ مُسْتَحَقًّا لِلنَّارِ وَأَرَادَ اللَّهُ عِقَابَهُمْ ثُمَّ إِخْرَاجَهُمْ مِنْهَا فَكَأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَدَّةً مَا كَانُوا مُعَاقِبِينَ فِي النَّارِ.
قَالَ الشَّيْخُ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ وَهُوَ يَلِيقُ بِقَوْلِنَا فِي الْإِرْجَاءِ أَنْتَهَى.

أَقُولُ أَصْلُ النِّزَاعِ بَيْنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ أَعْنِي بِهِمُ الشَّيْعَةُ الْأَثْنَى عَشْرِيَّةُ الَّذِينَ أَخَذُوا مَذْهَبَهُمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ طَهَّرَهُمُ اللَّهُ تَطْهِيرًا فِي أَنَّ أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ مِنَ الْعَصَاةِ عَلَى يَرْجَى لَهُمُ النِّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا مُسْتَحَقِّينَ بِهِ أَمْ لَا يَرْجَى بَلْ يَدْخُلُونَ النَّارَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا فَالْمُعْتَزِلَةُ تَقُولُ بَعْدَ الرَّجَاءِ وَالشَّيْعَةُ تَقُولُ بِالْإِرْجَاءِ وَإِمَّا كَانَ الْخُرُوجُ مِنْهَا بِسَبَبِ الشَّفَاعَةِ مَثَلًا فَعَلَى مَذْهَبِنَا قَدْ يَخْرُجُ مِنْ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ مِنَ النَّارِ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَإِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ يَكُونُ خَالِدًا فِيهَا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ أَيَّ إِلَّا مَدَّةً كَانُوا مُعَاقِبِينَ فِي النَّارِ فَأَنَّهُمَا تَسْتَشْنَى مِنَ الْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ.

وَأَمَّا عَلَى مَسَلِكِ الْمُعْتَزِلَةِ فَهُوَ لَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَبَدًا وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**، بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّعْدَاءِ نَظَرًا إِلَى مَا يَتَفَضَّلُ اللَّهُ بِهِ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ النَّعْمِ غَيْرِ الْجَنَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ.

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي بَنَوْا عَلَيْهِ مَذْهَبَهُمْ بَاطِلٌ كَمَا مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ وَقُلْنَا أَنَّهُ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ وَلَا يَسَاعِدُهُ الشَّرْعُ الْمُئِنِفُ لِلزُّومِ بِإِنْكَارِ الشَّفَاعَةِ رَأْسًا أَوْ إِخْتِصَاصِهَا بِالصَّغَائِرِ مِنَ الذَّنُوبِ وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِمَا قَطْعًا وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِنَا فَقَوْلُهُ: **عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ**، فَمَعْنَاهُ أَنَّ خُلُودَهُمْ فِي الْجَنَّةِ بَعْدَ دَخُولِهِمْ فِيهَا هُوَ عَطَاءٌ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ مَجْذُودٍ أَيَّ غَيْرُ مُقْطُوعٍ وَأَيُّ عَطَاءٍ أَحْسَنَ مِنْهُ وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّثَا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا مَضَى مِنَ الْآيَاتِ قَصِصَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَاتَّبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ أَحْوَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَالسُّعْدَاءِ وَشَرَحَ لِلرَّسُولِ ﷺ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ مَتَّبَعُوا آبَاءَهُمْ غَيْرَهُمْ مِمَّنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَتْبَاعَ آبَاءِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَهَؤُلَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى كُفَّارِ قَرِيشٍ وَمَشْرِكِي الْعَرَبِ وَبَيَّنَّ أَنَّ دِينَهُمْ كَدِيدِنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فِي التَّقْلِيدِ وَالْعَمَى عَنِ النَّظَرِ فِي الدَّلَائِلِ وَالْحُجَجِ وَهَذَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِيقَةِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَالْإِعْلَامُ بِأَنَّ عَاقِبَتَهُمْ كَعَاقِبَةِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى مُخَاطَبًا لِرَسُولِهِ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ وَشَكٍّ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ فَأَنَّهُمْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءُهُمْ أَيْ أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا كَذَلِكَ فَلَا تَعْجَبْ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْأَخْلَافَ يَتَّبِعُونَ الْأَسْلَافَ غَالِبًا ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ الْإِيْفَاءُ الْإِتْمَامُ وَكَذَلِكَ التَّوْفِيقُ وَالتَّصْيِبُ الْحِطُّ وَالْمَعْنَى إِنَّا نَعْطِيهِمْ عَلَى جِهَةِ الْوَفَاءِ قِسْمَتَهُمْ وَحِطَّهُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ عَلَى قَدَرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهُ شَيْءٌ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَأْلَهُمْ إِلَى الْخُسْرَانِ كَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلَهُمْ وَمَعَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى ذَمِّ التَّقْلِيدِ فِي الْأَصُولِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ وَمَعَ الْأَسَفِ يَكُونُ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ الْعَامَّةُ بِجَمْعِهِمْ مُقَلِّدِينَ لِأَسْلَافِهِمْ فِي الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الْفَرْعِيَّةِ فِي الْأَصُولِ يَقْلُدُونَ وَأَصْلُ ابْنِ عَطَاءٍ وَأَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فَيَعْبَرُ عَنْهُمْ بِالْمَعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ وَجَمِيعِ أَهْلِ السَّنَةِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ.

وَفِي الْفُرُوعِ يَقْلُدُونَ أَتَمَّتْهُمُ الْأَرْبَعَةُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمْ وَمَنْ كَانَ مُقَلِّدًا فِي أَصُولِ دِينِهِ وَفُرُوعِ دِينِهِ مِنَ الْأُمُوتِ الذَّيْمِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ صِلَاحِيَّةٌ لِذَلِكَ

كيف يحكم بقبح تقليد الكفار و يفسر كلام الله في ذم التقليد على رؤوس
الأشهاد و هو غافل عما هو عليه في طول حياته أليس هو من مصاديق:
قال الله تعالى: لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ^(١).

قال الله تعالى: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ^(٢).
إِنْ قُلْتَ فَأَنْتُمْ معاصر الشيعة الأثنى عشرية أيضاً من المقلدين لأنتمكم في
الأصول و الفروع.

قلت إما أولاً فنحن لا نقلد في الإعتقادات كما هو ثابت في محله.
ثانياً: على فرض التقليد في بعض الأصول لا إشكال فيه لأن الأئمة الأثنى
عشر كالأنبياء في وجود العصمة فيهم و تقليد المعصوم لا إشكال فيه و أما
الفروع فلا مناص من التقليد فيها و أما الذم في الأصول و لتفصيل البحث فيه
مقام آخر.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ
أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أعطى موسى الكتاب و هو التوراة و أن
قومه يعني بني إسرائيل إختلفوا في صحة الكتاب الذي أنزل اليه.

قال بعض المفسرين أن الآية نزلت في تسليية النبي ﷺ عن تكذيب
قومه إياه و إنكارهم القرآن المنزل عليه فبين الله تعالى فيها أن الإختلاف في
صحة الكتاب و أنه منزل من عند الله أولاً لا يختص بأمك بل الأمم السالفة
أيضاً كانوا ينكرون الكتاب الذي أنزلناه على أنبياءهم فهذا قوم موسى أنكروا
الكتاب فلا تحزن لذلك ولا تغتم له.

ثم قال الله تعالى: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ قِيلَ المراد

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد
رمة

بالكلمة التي سبقت هي تأخير الجزاء الى يوم القيامة لما في ذلك من المصلحة و بعبارة أخرى لولا أنه سبق في عمله تأخير الجزاء ليوم الحساب لقضي بينهم في دار الدنيا ولكنه تعالى رأى المصلحة في الإمهال مدة الحياة و الحساب و الجزاء بعدها و قوله: **إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** فالرَّيب أقوى الشك و المعنى أن الكفار لفي شك قوي ي صحة ما أنزلناه على نبينا هكذا فسروا الآية.

أنا أقول لا يبعد أن يكون المراد به أي بالإختلاف هو الإختلاف في فهم معنى الكتاب و أن كل واحد من علماء الأمة فسّر الكلام و الكتاب برأيه بعد النبي لأجل وصولهم الى مقاصدهم الدنيوية و عليه فقوله فإختلف في معناه و فهم المراد منه و هو أيضاً ممّا لا شك فيه في وقوعه فأنّه قد وقع في التّوراة و المال واحد فأنّ الإختلاف كان واقعاً في قوم موسى بل في قوم كلّ نبي مرسل و منهم رسول الإسلام و كيف كان ففي الآية دلالة على وجود الإختلاف و أن الله يجازيهم عليه يوم الحساب.



وَإِنْ كُنَّا لَمَا لِيُوَفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ
تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(١١٢) وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ
النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ
زُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ
الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ
(١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ
رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)
وَكَأَلَّا نَقُصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ
فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَ
ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ
انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبٌ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (١٢٣)

◀ اللغة

لِيُؤْفِقَهُمُ التَّوْفِيقَ والإيفاء، الإتمام.
وَلَا تَطْعَمُوا الطُّغْيَانَ تجاوز المقدار في الفساد.
وَلَا تَزَكُّوا الزُّكُونَ الى الشَّيْءِ السُّكُون اليه بالمحبة اليه والإنصات اليه و
نقيضه التَّفُور عنه.
زُلْفًا الزُّلْفَةُ في الأصل المنزلَة والحظوة و قيل إستعمال الزُّلْفَةِ في منزلة
العذاب كإستعمال البشارة ونحوها من الألفاظ و قيل لمنازل الليل زلف.
أَتَرَفُوا فِيهِ أَيِ إِبْتَعُوا التَّلَذُّذَ وَالتَّنَعُّم بالأموال و منه التَّرَفَ و هو التَّوَسُّع في
النَّعْمَةِ يقال أترف فلان فهو مترف.
فَوَادَكَ الْفُؤَادَ القلب.
الْأَنْبَاءِ جمع نَبَأ و هو الخبر والباقي واضح.

◀ الإعراب

وَمَنْ تَابَ هو في موضع رفع عطفاً على الفاعل في، إستقم، و يجوز أن
يكون نصباً مفعولاً معه طَرَفِي النَّهَارِ ظرفٌ لأَقِمْ زُلْفًا بفتح اللام جمع زلفة مثل
ظلم و ظلمة يَتَقَيَّةٌ مصدر بقي بَقِيَّةٌ و قيل أَنَّهَا مصدر بمعنى فاعل و هو بمعنى
فاعل فِي الْأَرْضِ حال من الفساد إِلَّا مَنْ رَحِمَ هو مستثنى من ضمير الفاعل
في، يزالون، وكلاً ناقصٌ، كلاً منصوب، بنقص و مِنْ أَنْبَاءٍ صفة لكل و مَا تُنْبِئُ
بدل من كل، أو هو رفع بإضمار هو و يجوز أن يكون مفعول ناقص، و يكون،

كلاً، حالاً من، ما، أو من الهاء على مذهب من أجاز تقديم حال المجرور عليه،
و يكون كلاً بمعنى، جميعاً.

◀ التفسير

وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لِيُؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
اختلف القراء في قوله: وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا على وجوه:

أحدهما: قرأ ابن كثير ونافع بتخفيف، إن، وتخفيف، لما، و قرأ ابن عامر و حمزة و حفص عن عاصم بتشديدهما معاً و قرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد الأولى و تخفيف.

الثانية: و قرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الأولى وتشديد الثانية خمسة أوجه:
أحدهما: قال الفراء أنها بمعنى، لمن ما، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت
ناحدة ثم أدغمت الأولى في الثانية كما قال الشاعر:

وَأَنِّي لَمَّا أَصْدَرَ الْأَمْرَ وَجْهَهُ إِذَا هُوَ أَعْيَا بِالسَّبِيلِ مَصَادِرُهُ

ثُمَّ تَخَفَّتْ كَمَا قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ: وَ أَلْبَغِي يَعِظُكُمْ^(١) فحذفت إحدى اليائين.
ثانيها: ما إختاره الزجاج و هو أن، لَمَّا، بمعنى، إلا، كقولهم سألتك لَمَّا
فعلت و مثله قوله تعالى: إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ^(٢) لأنه دخله معنى، ما
كلهم إلا لنوفينهم.

ثالثها: إختاره المازني و هو أنها مخففة شددت للتأكيد.

رابعها: ما حكى عن بعضهم أنها من، لمت الشيء ألمه لَمَّا إذا جمعته إلا أنها
بنيت على، فعلى، فلم تصرف نحو، كأنه قال و أن كلاً جميعاً ليؤفينهم.

خامسها: قراءة الزهري، لَمَّا، بالتثوين بمعنى شديداً كقوله تعالى: وَ تَأْكُلُونَ
الْثَرَاتِ أَكْلاً لَمَّا^(٣) واللام في قوله: لَمَّا يحتمل أن تكون لام القسم دخلت على،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

الجدل الثالث

ما، التي للتوكيد، و يحتمل أن تكون لام الابتداء دخلت على، ما، بمعنى الذي كقوله تعالى: **فَانْجُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** ^(١) ومثله قوله تعالى: **وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّلُنَّ** ^(٢).

قال الشاعر:

فلو أن قومي لم يكونوا أعزَّةً لبعدٍ لقد لا قيت لأبدٍ مصرعاً
و قال الزمخشري التثوين (في كلاً) عوض المضاف اليه والتقدير و أن كلهم و أن جميع المتلفين فيه.
و قال مقاتل أريد به كفار هذه الأمة.

و قال بعض المفسرين الظاهر عموم كل و شموله للمؤمن و الكافر.
إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية و هو أن الله تعالى أخبر فيها أنه يوفي جميع المكلفين ما يستحقونه على أعمالهم و العقاب و في قوله: **إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** إشارة الى أن أعمال العباد خيرها و شرها لا تخفى عليه تغيب عن علمه تعالى لأنه بكل شيء عليم.

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
أمر الله تعالى رسوله و أمته بالإستقامة في أمر الدين و نهاهم عن الطغيان و هو تجاوز المقدار في الفساد و أنه تعالى بما تعملون بصير لا يخفى عليه شيء.
أما الإستقامة المأمور بها في الآية و غيرها من الآيات فهي عبارة عن المنهج المستقيم و ذلك لأن الإستقامة في الأصل يقال في الطريق الذي يكون على خط مستو و به شبه طريق المحق:

قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ** ^(٣).

قال الله تعالى: وَ أَلُوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّاهُمْ مَّاءً غَدَقًا (١).

قال الله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ (٢).

قال الله تعالى: أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ (٣).

قال الله تعالى: قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا (٤).

قال الله تعالى: أَهْدِنَا آلْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥) وغيرها من الآيات.

وأعلم أن لزوم المنهج المستقيم والسلوك اليه في جميع الشؤون من العبادات والمعاملات وبالجملة في جميع الحركات والسكنات حتى الأكل والشرب والنوم وأعمال الشهوة والغضب وغيرها أمرٌ مشكل مستصعب جداً.

روي عن سول الله ﷺ أنه قال شِيبَتَنِي سُوْرَةُ هُوْدٍ لِمَكَانِ هَذِهِ الْآيَةِ وَ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ أَيِ اجْتَنِبْ عَنِ الْإِفْرَاطِ وَ التَّفْرِيطِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: مَنْ اسْتَقَامَ فَالَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَالَى النَّارِ (٦).

و قال عليه السلام: قُلْتُمْ «رَبَّنَا اللَّهُ» فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ وَعَلَى مَنْهَاجِ أَمْرِهِ وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا فَإِنَّ أَهْلَ الْمَرْوِقِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٧).

و قال عليه السلام: الْيَمِينُ وَ الشَّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَ الطَّرِيقُ الْوَسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَ أَثَارُ التُّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنَفَذُ السَّنَةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ (٨).

و قال عليه السلام: نَحْنُ التُّمْرِقَةُ الْوَسْطَى بَهَا يُلْحَقُ التَّالِي وَ إِلَيْهَا يَرْجَعُ الْغَالِي (٩).

بَابُ التَّوْقَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الجزء التاسع

١- الشورى = ١٥

٢- يونس = ٨٩

٣- خ = ١١٩

٤- خ = ١٦

١- الجن = ١٦

٢- فصلت = ٦

٣- الحمد = ٥

٤- خ = ١٧٦

٥- قصار الحكم = ١٠٩

محض الكلام في الباب هو أنَّ السلوك على الجادة الوسطى من غير انحراف إلى اليمين واليسار أمرٌ مطلوبٌ عقلاً و شرعاً.

وأما قوله: **وَلَا تَطْغَوْا** فهو في الحقيقة بمنزلة التفسير والتوضيح لقوله فأستقيم كما أمرت كأنه قيل ما معنى الإستقامة على الطريق المستقيم فقال تعالى معنى الإستقامة عدم الطغيان لأنَّ الطغيان هو الخروج عن حد الاعتدال فعبر عن الاعتدال بالإستقامة وعن الخروج عنه بالطغيان وهذا معنى أنَّ القرآن يفسر بعضه بعضاً.

ومن المعلوم أنَّ الإستقامة على طريق المستقيم الذي لا إغوجاج فيه واقعاً لا تحصل إلا للمعصوم الذي وفقه الله وعصمه من الزلل والخطأ وأما غيره فلا يقدر على تحصيله إلا بقدر استطاعته وقدرته فأنَّ الميسور لا يترك بالمعسور: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ^(١).

وَلَا تَرْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ

قيل الركون إلى الشيء هو السكون إليه بالمحبة إليه والإنصات إليه ونقيضه النفور عنه.

وقال في المفردات ركن الشيء جانبه الذي يسكن إليه ويستعار للقوة من ركن يركن أو ركن يركن وناقة مركنة الظاهر له أركان تُعظمه انتهى.

والظلم وضع الشيء في غير محله كما أنَّ العدل وضعه في موضعه والمعنى لا سكنوا إلى الظالمين بالمحبة أي لا تحبّوهم ولا تعتمدوا عليهم في أفعالهم وأقوالهم من دون الله بأن تمسكوا بهم وتعتمدوا عليهم وتعرضوا عن الله والحال أنَّه لا ولي لكم إلا الله والظالم لا يكون ولياً ثم لا تنصرون أي أن فعلتم ذلك لا تنصرون من الظالم ولا من الله.

أَمَّا الظَّالِمُ فَلَعَدَمُ قُدْرَتِهِ عَلَى نَصْرَتِكُمْ وَأَمَّا اللَّهُ فَلَا عِرَاضَ لَكُمْ عَنْهُ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ مَا وَايَكُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أَقُولُ فِي الْآيَةِ نَهْيٌ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِ ثُمَّ فَرَعَ عَلَى ذَلِكَ مَسَّ النَّارِ الَّذِي هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الدَّخُولِ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ أَنَّ الْمَفْسِّرِينَ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الرُّكُونِ وَالْمَرَادُ بِهِ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ هُوَ الْمِيلُ إِلَيْهِمْ بِالْقَلْبِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ أَيْ لَا تَدَاهَنُوا الظُّلْمَةَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ لَا تَلْحَقُوا بِهِمْ وَقَالَ سَفِيَانُ لَا تَدْنُوا إِلَيْهِمْ وَقِيلَ لَا تَرْضُوا أَعْمَالَهُمْ.

وَقِيلَ لَا تَجَالِسُوهُمْ وَقِيلَ لَا تَشَبَّهُوا بِهِمْ. وَأَنَا أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلٍّ لِأَنَّ الْمِيلَ إِلَى الظَّالِمِ أَوْ مِدَاهَنَتَهُ أَوْ نَظِيرَ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرُوهُ لَا يُمْكِنُ مَنَعُهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهُوَ وَاضِحٌ عِنْدَ التَّأَمُّلِ. وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ فِي الْآيَةِ هُوَ مَوَدَّةُ الظَّالِمِ وَطَاعَتُهُ.

فَقَدْ رَوَى فِي الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فِي الْمَرَادِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ قَالَ عليه السلام هُوَ الرَّجُلُ يَأْتِي السُّلْطَانُ فَيُحِبُّ بَقَاءَهُ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ يَدُهُ فِي كَيْسِهِ فَيُعْطِيهِ.

وَعَنْ كِتَابِ الْخِصَالِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْصَى عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِيمَا كَانَ أَوْصَى بِهِ أَنْ قَالَ: لَا تَرْكُنْ إِلَى ظَالِمٍ وَأَنْ كَانَ حَمِيمًا قَرِيبًا.

وَنَقَلَ الرَّازِي عَنِ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ الرُّكُونِ الْمُنْهَى عَنْهُ هُوَ الرِّضَا بِمَا عَلَيْهِ الظُّلْمَةُ مِنَ الظُّلْمِ وَتَحْسِينِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَتَزِينِهَا عَنْدهُمْ وَمِشَارَكَتِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ فَأَمَّا مِدَاخِلُهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ أَوْ إِجْتِلَابِ مَنْفَعَةٍ عَاجِلَةٍ فَغَيْرُ دَاخِلٍ فِي الرُّكُونِ انْتَهَى.

أَقُولُ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرُّكُونِ إِلَى شَيْءٍ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أحدهما: الرُّكُونُ اليه لأجل الآخرة ومن المعلوم أنه خارج عن مورد البحث لأن من يركن اليه لأجل الآخرة والوصول الى درجاتها ومقاماتها لا يكون ظالماً قطعاً وهذا كالرُّكُونِ الى الأنبياء والأوصياء والصُّلحاء والعلماء العاملين فهذا ممدوحٌ مرَّعَبٌ فيه عند الكل.

ثانيهما: الرُّكُونُ الى الغير لأجل الحطام الدنيوية من المال والمقام والشهرة وأمثال ذلك فهذا هو المراد بالآية ومصاديقه كثيرة في جميع الأزمنة كما نراه في زماننا هذا والسَّر فيه هو أنَّ النَّاسَ عبيد الدنيا ولا يمكن الوصول اليها كاملاً إلا بالتعدي والظُّلم فطالب الدنيا لا يخلو حاله، إما يظلم وإما يستعين ويستمد من الظَّالِم لأجل الوصول الى مطلوبه ولذلك ترى أبناء الدنيا من الظُّلْمة أو من أعوان الظُّلْمة إذ الآمال الدنيوية لا تحصل للإنسان إلا بالظُّلم أن كان قادراً عليه بنفسه أو بإعانة الظَّالِم أيَّاه أن كان ضعيفاً من حيث القدرة.

ومن المعلوم أنَّ الظَّالِم لا يعنيه إلا في صورة متابعته أيَّاه وتأييده الظَّالِم قولاً وفعلًا وأن كان مخالفاً للظُّلم والظَّالِم في اعتقاده لأن أكثر النَّاس يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والآية ليست بصدد بيان الاعتقاد وأن شئت قلت ليست بصدد بيان الرُّكُونِ الإعتقادي بل هي بصدد بيان الرُّكُونِ العملي والنَّهي عنه فقوله تعالى: **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ** معناه لا تكونوا من أعوان الظُّلْمة لأجل الوصول الى المقاصد الدنيوية والشَّهوات النَّفسانية بأن تحكموا بصحة أفعالهم وأقوالهم في الاجتماع فأنَّ هذا يوجب تقوية الظَّالِم وإذا قوي الظَّالِم يصير الحق مغلوباً والباطل غالباً وهذا هو الدَّاء الذي لا دواء له.

و نحن نرى في زماننا هذا ثمرات الرُّكُونِ بأعيننا وندرك معنى قوله تعالى: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**^(١) ويستفاد من الآية أنَّ المراد بالظَّالِم أعم من الكافر والمسلم فما ذهب اليه أكثر مفسري العامة من أنَّ

المراد بقوله ظلموا، الكفّار لا دليل عليه بل الدليل من العقل و النّقل على خلافه كيف و قد نرى أكثر حكام المسلمين من الظّلمة لولا كلّهم بل لو ادّعوا مدّع أن أكثرهم أظلم من حكام الكفّار و أفسد لا نكذّبه و نعتقد أن ظلمهم بعد موت الرّسول الى زماننا هذا كان لأجل ركون أكثر النّاس اليهم و للبحث فيه مقام آخر.

و أمّا قوله: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ** فمعناه واضح لأنّ الله تعالى هو الذي خلقكم و يرزقكم و ينصرمكم لا غيره.

وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ

أمر الله نبيّه و أمته بإقامة الصّلاة قالوا و إقامتها هو الإتيان بأعمال الصّلاة على وجه التّمام ركوعها و سجودها و سائر فروضها و قيل إقامة الصّلاة هو عمل على إستواء كالقيام الذي هو الإنتصاب في الإستواء.

و قيل هو الدّوام على فعلها من قولهم هو قائم أي دائم واقف و أحسن الأقوال الأوّل فإنّ المكلف مأمور بإقامة الصّلاة أي الإتيان بها على وجهها لا بقراءة الإذكار و الإنتصاب في الإستواء و أمثال ذلك فإنّ الإتيان بها كيف إتفق شيء و الإتيان بها على وجه المطلوبية للشّارع شيء آخر.

و لذلك أقول أنّ المصلّين في الإسلام أكثر من المقيمين للصّلاة و تفصيل الكلام فيها من حيث الأجزاء و الشّرائط مذكور في الفقه.

و أمّا قوله: **طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ** فهو إشارة الى أوقات الصّلاة فقال بعضهم المراد بطرفي النّهار، صلاة الفجر و المغرب.

و قال الآخر، الغداة و الظّهر و العصر و علّل ذلك بأنّ طرف الشّي من الشّي و صلاة المغرب ليست من النّهار.

و قال الزّمخشري، طرفي النهار، غدوة وعشيّة وقوله: زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ أي وساعات من الليل وهي ساعة القربة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه و صلاة الغدوة و الفجر و صلاة العشيّة الظّهر و العصر لأنّ ما بعد الزّوال عشي و صلاة الزّلف المغرب و العشاء و إنتصاب طرفي النهار على الطّرف لأنّهما مضافان الى الوقت و ساق الكلام الى أن قال و قريّ وَ زُلْفًا بضمّتين، وَ زُلْفًا بسكون اللّام و زلفى بوزن قريّ الى أن قال و حقّها على هذا التفسير أن تعطف وَ زُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ على الصّلاة أي أقم الصّلاة طرفي النهار و أقم زلفاً من الليل على معنى و أقم صلاةً تتقرّب بها الى الله عزّ و جلّ في بعض الليل إنتهى كلامه.

أقول وفي أخبارنا وَرَدَ أَنَّ المراد بِطَرْفي النَّهار المغرب و الغداة ما ورد في تهذيب الأحكام عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أقم الصّلاة طرفي النهار و طرفاه المغرب و الغداة، و زلفاً من الليل، و هي صلاة العشاء الآخرة إنتهى كلامه.

أقول و كيف كان فالآية دالّة على بعض الصّلوات الخمس و على سعة وقتها في الجملة و يرشدك الى ذلك.

ما رواه أبو حمزة الثّمالي عن أحدهما في حديث طويل عن عليّ عليه السلام قال: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول أرجى آية في كتاب الله: أقيم الصّلاة طَرْفَيِ النَّهارِ الخ.

والذي بعثني بالحق بشيراً و نذيراً أنّ أحدكم ليقوم في وضوءه فتساقط عن جوارحه الذّنوب فإذا إستقبل الله تعالى بوجهه و قلبه لم يفتل و عليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمّه فأن أصاب شيئاً بين الصّلاتين كان له مثل ذلك حتّى عدّ الصّلاة الخمس ثم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا عليّ أنّ منزلة الصّلاة الخمس لأمتي كنهج جارٍ على باب أحدكم فما يظنّ أحدكم لو كان في جسدة درن ثمّ إغتسل في

ذلك النَّهْرَ خمسَ مرَّاتٍ أكانَ يَبْقَى في جَسَدِهِ درنَ فكذلكَ واللَّهِ
الصَّلَاةُ الخَمْسَ لَأَمْتِي هذا إِنَّتَهَى.

فَتَحْصَلَ مما ذَكَرناه أَنَّ المرادَ بِطَرَفِي النَّهارِ الغَداءُ والمَغربُ و زَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ
هي صلاةُ العِشاءِ كما يَظهرُ مِنَ الأَخْبارِ وَ هو الحَقُّ لَأَنَّهُ لاشكَّ أَنَّ النَّهارَ يَطلقُ
على اليَومِ وَ هو في العِرفِ واللَّغَةِ مِنَ طُلُوعِ الفِجرِ إلى غَسقِ اللَّيْلِ وَأَن شئتَ
قَلْبَ إلى المَغربِ وَ على هذا فَطَرَنِي النَّهارَ عِبارَةً عَنِ الغَداءِ وَ المَغربِ لَأَنَّ
إِبتِداءَ النَّهارِ مِنَ الغَداءِ وَإِنتِهاؤُهُ المَغربِ فَطَرَفِي النَّهارِ الغَداءُ وَ المَغربُ وَأَمَّا
قوله: وَ زَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ هي سَاعَاتُ القَريبةِ مِنَ سَاعَاتِ آخِرِ النَّهارِ وَ هي وَقتُ
العِشاءِ وَ هو المَطلوبُ.

وَأَمَّا قوله: إِنَّ أَحْسَنَاتٍ يُذْهِبَنَّ أَلْسِيَّاتٍ فَالظَّاهِرُ أَنَّ المرادَ بِالحَسَناتِ
في الآيَةِ هَذِهِ الصَّلَاةُ وَ هي مَكْفَرَةٌ لِمَا بَيْنَها مِنَ المَعَاصِي هَذَا ما ذَكَرَهُ في
تَفسيرِ كَلامِ اللَّهِ وَ لا يَبعَدُ أَن يَدخُلَ في قوله: وَ زَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ صلاةُ اللَّيْلِ
أَيضًا لِأَنَّهُا في زَلْفٍ مِنَ اللَّيْلِ كَصَلَاةِ العِشاءِ وَ عليه فَالصُّبْحُ وَ الظُّهْرُ وَ العِصرُ في
النَّهارِ وَ المَغربِ في أَحَدِ طَرَفَيْهِ وَ العِشاءُ وَ صلاةُ اللَّيْلِ في اللَّيْلِ وَ هَذَا العَموومُ
مِمَّا لا بَأْسَ بِهِ لَأَنَّ قوله زَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ، يَشْمَلُ الصَّلَاتَيْنِ لَوُقُوعُها في سَاعَاتِ
اللَّيْلِ وَ أَنَّمَا إِحْتِمَلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَخْبارِ تَدَلُّ على أَنَّ المرادَ بِالحَسَناتِ
في الآيَةِ صلاةُ اللَّيْلِ قالوا صلاةُ المُؤْمِنِ بِاللَّيْلِ تَذْهَبُ بِما عَمِلَ مِنَ ذَنْبٍ
بِالنَّهارِ.

إِنْ قُلْتَ يَلْزَمُ على هَذَا أَن تَكُونَ صلاةُ اللَّيْلِ واجِبَةً على الأُمَّةِ لَأَنَّ الآيَةَ
بِصَدَدِ بَيانِ الصَّلَاةِ المَفْرُوضَةِ في اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ لَمْ يَقلْ أَحَدٌ بِوُجُوبِ صلاةِ
اللَّيْلِ على الأُمَّةِ.

قُلْتَ نَعَمْ لَكِنِ المَخاطَبُ في الآيَةِ هو الرِّسُولُ وَ أَمَّتُهُ وَصَلَاةُ اللَّيْلِ، على
الرِّسُولِ واجِبَةً بِلا كَلامٍ بِمَقْتَضَى الآيَةِ وَأَمَّا عَدَمُ وَجوبِها على الأُمَّةِ فَبِالنَّصِّ وَ
الإِجماعِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

ونحن نقول أن عموم الكتاب يخص بالأنباء والله أعلم بكلامه.
وأما قوله: ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ فهو إشارة إلى إقامة الصلاة في تلك الأوقات وأنها من ذكر الله المأمور به على الإطلاق لمن أراد أن يكون من الذَّاكِرِينَ أو أنها عظة للمتَّعِظِينَ حيث علموا أن ذكرهم الله سبباً لذكر الله تعالى إياهم لقوله: فَادْكُرُوا رَبِّي أَذْكُرْكُمْ^(١) و يحتمل أن يكون الإشارة إلى ما ذكره من كون الحسنات يذهبن السيئات أي فيه تذكُّر وموعظة لمن تذكَّر فيه و تفكر و يحتمل أن تكون الإشارة إلى القرآن والإحتمالات كثيرة ولكل وجه.

وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

الصَّبْر حبس النفس عن الخروج إلى ما لا يجوز من ترك الحق، أمر الله نبيه ﷺ بالصَّبْر على أذى قومه و تكذيبهم إياه كما أمر جميع الأنبياء بذلك ثم قال فإن الله لا يضيع أجر المحسنين فيه إشارة إلى أن الصَّبْر من الإحسان و هو كذلك لأن الإحسان تارة يكون في الإنعام على الغير كما يقال أحسن فلان و تارة يكون في الفعل إذا صدر من فاعله على وجه الحسن و لا عمل أفضل من الصَّبْر في سبيل الله فالإحسان أعم من الصَّبْر إذ الصَّبْر من مصاديقه و أفراده و لذلك قال: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ولم يقل أجر الصَّابِرِينَ مع أنه أيضاً كذلك للإشارة إلى أن الصَّابِرِينَ من مصاديق المحسنين بمعنى أن كل محسن صابر و ليس كل صابر محسن فإن الصَّبْر في غير طريق الحق ليس من الإحسان و فاعله لا يعد محسناً.

في القرآن تفسير القرآن



فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ

لولا، هنا للتخصيص صحتها معنى التّفجع و التّأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتدوا نحو قوله يا حسرةً عليّ العباد والقرون قوم نوح وعاد وثمود وشعيب ومن تقدّم ذكره وقوله: **أُولُوا بِقِيَّةٍ** أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر **يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ** لما أعطاهم الله من العقول وأراهم من الآيات وهذا توبيخٌ للكفار وقيل، لولا، هاهنا للتّفي أي ما كان من قبلكم أولي بقية من قبيل قوله تعالى: **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمْنٌ^(١)** أي ما كانت، **إِلَّا قَلِيلًا** إستثناء منقطع أي لكن قليلاً وهم قوم يونس وقيل هم أتباع الأنبياء وأهل الحق **مِمَّنْ أَتَجْنَبُ مِنْهُمْ** أي من الكفار وهم الذين آمنوا مع الرّسل ونجوا من العذاب الذي نزل بقومهم **وَآتَبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ** من الإشتغال بالمال واللذات وإيثار ذلك على الآخرة، **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** لأنهم إتبعوا التلذذ والتّنعّم بالأموال والنّعم التي أعطاهم الله إيّاها وقضوا الشّهوات ومن كان كذلك فهو مجرمٌ عاصٍ ولذا قال و كانوا مجرمين وحاصل المعنى في الآية أنّه ينبغي التّعجّب والتّأسف من قومٍ إجتمعوا على الكفر حتى إستأصلهم الله بالعذاب وأنواع العقوبات ولم يبق منهم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض **إِلَّا قَلِيلًا** ممّن أنجاهم الله وهم المؤمنون وإتبع الذين ظلموا منهم التلذذ والتّنعّم بالأموال ولم يعلموا أنّ الله تعالى ما أعطاهم الأموال لذلك ففي الآية إشارة إلى أنّ مآل المعصية إلى الخسران والهلاك أجلاً وعاجلاً وأنّ الله شديد العقاب وأنّ رحمته قريبٌ من المحسنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

المجلد الثالث

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّه لم يهلك أهل قرية فيما مضى ممّن ذكر إهلاكهم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم بظلم منه تعالى والحال أنّ أهلها كانوا

مصلحين بل أنما أهلכם إذا فسدوا كلهم أو أكثرهم، فما، في قوله للتفي و أسند الهلاك الى القرى مجازاً أي أهل القرى فهو من قبيل قوله: **وَسَنَلِّ الْقَرْيَةَ** أي وأسأل أهلها، والواو وال حال قالوا في قوله: **يُظْلَمُ** ثلاثة أوجه:

أولها: بظلم صغير فيكون منهم لأنه يقع مكفراً بما معهم من الثواب الكثير.
الثاني: بظلم كثير من قليل منهم مع أكثرهم هم المصلحون لأن القليل لا يعتد به في جنب الكثير.

الثالث: أن المعنى بظلم منا كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً^(١)** وقال الزمخشري قوله وأهلها مصلحون فيه تنزيه لذاته عن الظلم وإيدان بأن إهلاك المصلحين من الظلم.

أقول معنى الآية واضح لا خفاء فيه وذلك لأنه بعد ما ثبت في الأصول أنه تعالى عادل منزلة عن الظلم وغيره من القبائح وثبت أيضاً أنه تعالى أهلك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب على ما أحبره في كتابه وكانت هناك مظنة سؤال وهو أنه لم أهلك الله تعالى هؤلاء الأقوام فقال تعالى في جواب هذا السؤال ما خلاصته إننا لم نلهم ظلاماً منا عليهم بل أهلكناهم لأنهم كانوا ظالمين كما قال تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(٢)** وقد مضى الكلام فيه فالغرض من هذه الآية وأمثالها نفى الظلم منه تعالى وإثباته للهاكئين وفيه إشعار بأن الظالم في معرض الهلاك وأنه لا خير في وجوده إلا أنه بعد الإمهال وإتمام الحجة كما سبق القول فيه غير مرة.

وقال القرطبي في تفسير الآية بعد ما فسر **لِيُهْلِكَ الْقُرَى** بقوله، أي أهل القرى ما هذا لفظه **يُظْلَمُ**، أي بشرك وكفر، وأهلها مصلحون، أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف اليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط ودل هذا على أن المعاصي أقرب الى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك وأن كان

عذاب الشُّرك في الآخرة أصعب و في صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق.

قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمَ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَنْتَهَى كَلَامِهِ.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

قيل معناه على دينٍ واحدٍ ففي الآية إخبار منه تعالى أَنَّهُ لو شاءَ لفعل ذلك لَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ:

قال الله تعالى: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ^(١).

قال الله تعالى: وَ لَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً^(٢).

أي على دينٍ واحدٍ بأن يلجنهم الى الإسلام بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنهم لو داموا على غير ذلك لمنعوا منه لكن ذلك ينافي التكليف و يبطل الغرض به لأنَّ الغرض به إستحقاق الثواب قاله الشيخ في التبيان.

و قال بعض المفسرين من العامة نقلاً عن الضحاك أي على أهل دينٍ واحدٍ أهل ضلالة أو أهل هدى و لا يزالون مختلفين، أي على أديانٍ شتى.

و قال صاحب الكشف يعني لو شاء الله لأضطرهم الى أن يكونوا أهل أمة واحدة أي ملة واحدة وهي ملة الإسلام كقوله: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً^(٣).

و هذا الكلام يتضمن نفى الإضطراب و أَنَّهُ تعالى لم يضطرهم الى الإتفاق على دين الحق و لكنّه مكنتهم من الإختيار الذي هو أساس التكليف فإختار بعضهم الحق و بعضهم الباطل فإختلفوا فلذلك قال: وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.

أقول الأمة تطلق على كلّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييراً أو إختياراً و جمعها أُمم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

العبد المذنب

قال الله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ^(١).

أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع فهي من بين ناسجة كالعنكبوت و باينة كالسرفة، و مدخرة كالتمل و معتمدة على قوت وقته كالعصفور و الحمام الى غير ذلك من الطباع التي تختص بها كل نوع، تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً معناه أي صنفاً واحداً في الضلال و الكفر و قوله: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً أي في الإيمان.

و قوله: وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ^(٢).

معناه أي جماعة يتخيرون العلم و العمل الصالح و يكونون أسوة لغيرهم. و قوله: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ^(٣).

أي على دين مجتمع و هكذا و الحاصل أن الأمة يختلف معناها بحسب موارد الإستعمال إذا عرفت هذا فنقول معنى قوله: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً عَامٌ يشمل جميع الموارد من الدين و الزمان و المكان و قوله: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ أيضاً كذلك أي أنهم مختلفون زماناً و مكاناً و اعتقاداً المعلوم أن هذا الاختلاف يرجع الى مشيئة الله و مصلحته لأنه لو كان مريداً فيهم الوحدة تسخيراً لفعل و لكنّه لم يفعل ذلك لأنه منافٍ للإختيار الذي تعلقت المشيئة به و إذا بطل الإختيار بطل الثواب و العقاب لأنّ المجهور لا يثاب و لا يعاقب على فعله لأنه مستلزم للظلم و هو لا يتحقق إلا مع الاختلاف و أما مع الوحدة تسخيراً فلا يمكن للعبد أن يختار ما شاء فتبطل دائرة الثواب و العقاب هذا ما نفهم من الآية الشريفة و الله أعلم.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

قالوا: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إستثناء منقطع ولذلك جعل رأس آية ولو كان
متصلاً لم يجز ذلك و أنما قلنا أنه منقطع لأن الأول على أنهم يختلفون بالباطل
وليس كذلك من رحم لإجتماعهم على الحق والمعنى ولا يزالون مختلفين
بالباطل إلا من رحم ربك فأنهم يشملهم اللطف والعناية الربانية فيؤمنون و
يستحقون بذلك الثواب و من كان كذلك فهو ناج من الاختلاف بالباطل هذا و
منهم من ذهب الى أن الإستثناء متصل من قوله: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ و قال
لا ضرورة تدعو الى أنه أي، إلا، بمعنى لكن فيكون منقطعاً كما ذهب اليه من
ذهب، و الإشارة بقوله ولذلك خلقهم الى المصدر المفهوم من قوله:
مُخْتَلِفِينَ أي ولذلك الاختلاف خلقهم وعليه فيكون على حذف مضاف أي
لثمرة الاختلاف من الشقاوة والسعادة خلقهم و دل على هذا المحذوف أنه
قد تقرر من قاعدة الشريعة أن الله خلق خلقاً للسعادة و خلقاً للشقاوة ثم يسر
كلاً لما خلق له و هذا نص في الحديث الصحيح و هذه اللام في التحقيق لام
الصيرورة في ذلك المحذوف أو تكون لام الصيرورة بغير ذلك المحذوف أي
خلقهم ليصير أمرهم الى الاختلاف و لا يتعارض هذا مع قوله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١) لأن معنى هذا الأمر بالعبادة انتهى.

أقول هذا الذي ذكره و حققه يصح على مسلك الجبر و أن الله خلق خلقاً
للسعادة و خلقاً للشقاوة فمن قال بهذا الأصل الذي لا يساعده العقل و لا النقل
فالإستثناء متصل و إلا فلا و قد تكلمنا في بطلانه بقدر ما يقتضيه المقام.

و قال مجاهد و قتادة، ذلك، إشارة الى الرحمة التي تضمنها قوله: إِلَّا مَنْ
رَحِمَ رَبُّكَ و الضمير في خلقهم عائد على المرحومين.

بسم الله الرحمن الرحيم
في تفسير القرآن

جزء ١٢

العباد
ر

لا يقال أنه لو أراد ذلك لقال و لتلك خلقهم، لأن مرجع الضمير و هو الرحمة التي تضمنها قوله: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ مؤنثة الفظ، لأنه يقال في جوابه أن تأنيث الرحمة ليس بتأنيث حقيقي، فيجوز أن يعبر عنه بالتذكير كما قال الله تعالى: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ^(١) ولم يقل قريبة من المحسنين هذا مع أنه يمكن أن يراد في قوله و لذلك خلقهم، ولأن يرحم خلقهم، لأن الرحمة تدل على ذلك فعلى هذا يكون مرجع الضمير مذكراً و يقع التذكير موقعه انتهى.

أقول هذا أيضاً كسابقه في إفادة الجبر إذ العدل يقتضي أن لا يخلق الله خلقاً للسعادة و لا للشقاوة لمنافاته الثواب و العقاب فقوله خلقهم لأجل الرحمة معناه خلقهم للسعادة إذ لا نعني بالسعادة إلا هذا و هو كما ترى إذ لقائل أن يقول لم خلق بعضهم لأجل الرحمة دون بعض آخر. و منهم من قال أن اللآم في قوله: وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ لام العاقبة و التقدير أنه خلقهم و علم أن عاقبتهم تؤل الى الإختلاف المذموم كما قال في قصة موسى: فَالْقَاطِطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا^(٢). و كما قلنا في قوله: وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ^(٣).

و به قال ابن عباس و الحسن و عطاء و مالك و قد يكون اللآم بمعنى، على، كقولك أكرمك على برك أو علمك أي لبرك ولعلمك فيكون التقدير و على ذلك خلقهم.

و قال الطبري الإشارة بذلك الى الإختلاف و الرحمة معاً فيكون على هذا أشير بالمفرد الى إثنتين كقوله عواً بين ذلك، أي بين الفارض و البكر و الضمير في خلقهم عائد على الصنفين المستثنى و المستثنى منه انتهى.

و ليس في هذه الجملة ما يمكن أن يعود اليه الضمير إلا الإختلاف على قول أكثر المفسرين و قد أبعد المتأولون في تقدير غيره و الذي نقول في تفسير الآية: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** على الإيمان على سبيل الجبر و التسخير و من المعلوم أنه تعالى كان قادراً عليه إلا أنه لم يخلقهم كذلك لئلا يلزم الجبر و يبطل الثواب و العقاب و قد مر الكلام فيه و **لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** فيه إشارة الى إختلاف الناس من حيث الاعتقاد و أنهم لم يخلقوا على أمة واحدة إلا من رَحِمَ رَبُّكَ الإستثناء منقطع إستثنى منه طائفة خاصة و هو المؤمنون و حكم عليهم بالرحمة و هي الإحسان المجرد من الله في حق عبده فالمعنى إلا من شملتهم رحمة ربك لكونهم آمنوا بالله و برسوله و عملوا الصالحات بإختيارهم و إرادتهم فصاروا بذلك من المحسنين و لا شك أن الإيمان و العمل الصالح و أن كان تحت إختيار العبد إلا أن التوفيق منه تعالى و هذا هو الإحسان المجرد منه تعالى في حق العبد و يعبر عنه بالرحمة و ليس معنى ذلك أنه خلقهم كذلك.

وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمُ الْحَقُّ أن الإشارة الى الإختلاف و اللام في قوله: **وَلِذَلِكَ** لام الصيرورة أو لام العاقبة و المعنى أنا لم نجعلهم أمة واحدة فلا محالة أمرهم يصير الى الإختلاف أو عاقبتهم تكون كذلك ففريق منهم في الجنة و فريق في السعير فمن آمن منهم و أحسن و شملته الرحمة الإلهية فهو في الجنة و من لم يؤمن ففي النار و عليه فقوله: **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ليس معناه مختلفين في شقوق الكفر و أقسامه بل معناه مختلفين في الإيمان و الكفر فمنهم من بقى على الكفر و منهم من آمن و هذا هو الإختلاف ثم حكم على المؤمنين بالرحمة دون غيرهم كما قال: **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** (١).

في القرآن
في قوله
وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ



في قوله
وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ

وأما قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ قال بعض المفسرين وَ تَمَّتْ كلمة ربك أي نفذ قضاءه وحق أمره. و قال القرطبي معنى تَمَّتْ، ثبت ذلك كما أخبر و قدّر في أزاله و تمام الكلمة إمتناعها عن قبول التّغيير و التّبديل انتهى.

و نحن نقول الكلمة مشتقة من الكَلَم بسكون اللّام والميم و هو في اللّغة بمعنى الجرح يقال كلمه كلماً، جرحه و هي أي الكلمة ما ينطق به الإنسان مفرداً كان أو مركباً و تجمع على كلمات و أما كلمة الله فهي على قسمين: تكوينيّة و تشريعيّة، فالتشريعية منها عبارة عن أوامره و نواهيه و مواعظه و بالجملة جميع الآيات القرآنيّة كلمات الله بحسب التشريع و للبحث فيها مقام آخر.

و أما التكوينية فهي عبارة عن كلمة، كن، الإيجاديّة المشار إليها: قال الله تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١). قال الله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢). و الى هذا المعنى أشار بقوله: وَ كَلِمَتُهُ أَلْفَهَا إِلَى مَزِيمٍ^(٣). قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ^(٤).

فإطلاق الكلمة على عيسى لكونه موجوداً بكلمة الإيجاد أعني بها كلمة كن، و قد تطلق على القضية بل قال بعضهم كلّ قضية تسمّى كلمة مقالاً أو فعلاً و منه قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا^(٥).

إذا عرفت هذا فقله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ يحتمل أن يكون المعنى تَمَّتْ قضية ربك أي حكمه بما حكم به و يحتمل أن يكون المراد بها كلمة الإيجاد

الَّتِي يَعْبَرُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ، كُنْ، وعلية فالمعنى تَمَّتْ إِيْجَادُ رَبِّكَ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي
الآيَةِ أَيِ إِنَّا خَلَقْنَا النَّاسَ كَمَا قُلْنَا فِي الْآيَةِ كَانَ فَقَدْ جَرَى بِهِ الْقَلَمُ.
وَأَمَّا قَوْلُهُ: لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ الْخَبْلَ قِيلَ اللَّامُ لِلْقَسَمِ وَقِيلَ قَوْلُهُ: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ
رَبِّكَ الْخَبْلَ مَعْنَاهُ التَّحْذِيرُ وَهُوَ يَمِينٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ وَ تَقْدِيرُهُ يَمِينًا لِأَمْلَأَنَّ كَمَا
تَقُولُ لِأَضْنُكَ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَ
الْعَصَاةِ أَعَادِنَا اللَّهَ مِنْهَا.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَكُلًّا، التَّنْوِينُ فِيهِ عَوْضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ قِيلَ
وَ كُلَّ نَبَأٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ فَهُوَ مَفْعُولٌ بِهِ وَ الْعَامِلُ فِيهِ نَقُصُّ وَ التَّنْوِينُ عَوْضٌ عَنِ
الْمَحْذُوفِ وَ التَّقْدِيرُ وَ كُلَّ نَبَأٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ، وَ قَوْلُهُ: مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ أَيِ مِنْ
أَخْبَارِهِمْ وَ هُوَ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِقَوْلِهِ: وَ كُلًّا وَ الْمَعْنَى وَ كُلَّ نَبَأٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ
أَنْبَاءِ الرُّسُلِ وَأَخْبَارِهِمْ مِثْلَ قِصَّةِ نُوحٍ وَ هُودٍ وَ صَالِحٍ وَ شُعَيْبٍ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ
قَلْبَكَ أَيِ أَنَّ الْقِصَصَ الَّتِي قِصَصْنَاهَا عَلَيْكَ أَنْمَا هِيَ لِأَجْلِ تَسْكِينِ قَلْبِكَ لِتَكُونَ
عَلَى إِطْمَئْنَانٍ وَ إِسْتِقْرَارٍ عَمَّا وَعَدَكَ رَبُّكَ مِنَ النَّصْرَةِ وَ هَلَاكِ الظَّالِمِينَ.

وَ قَوْلُهُ: وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ أَيِ فِي الْأَخْبَارِ وَ الْقِصَصِ وَ مَعَ ذَلِكَ فِيهَا
مَوْعِظَةٌ لِمَنْ إِنْتَعَزَ بِهَا وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ مَلَخَصُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ فِيهَا عِلْمٌ لِمَنْ
جَهَلَ بِهَا وَ تَسْكِينٌ لِلْقَلْبِ بِأَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ وَ يَخْذِلُ الْكَافِرِينَ وَ مَوْعِظَةٌ
لِمَنْ إِنْتَعَزَ وَ إِسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ وَ ذِكْرٌ لِمَنْ تَذَكَّرَ بِهَا وَ خَشِيَ غَضَبَ الْجَبَّارِ
وَ أَيِّ نَفْعٍ أَحْسَنَ مِنْهَا فِي مَقَامِ الْعِبَادَةِ وَ السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ.

وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَ أَنْتَظِرُوا إِنَّا
مُنتَظِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

المجلد التاسع

أمر الله نبيه أن يقول للكفار المعاندين الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و لا يعترفون بنبوة نبيه، إعملوا على مكانتكم أي إعملوا على كفركم و إلحادكم و عنادكم للحق، إِنَّا غَامِلُونَ عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي أَمَرْنَا اللَّهَ بِهِ فإنتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور، أو إنتظروا العذاب على الكفر كما وعدكم الله به فإنا منتظرين بما وعدنا الله من الثواب على الإيمان.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

قرأ نافع و حفص، يُرْجَعُ، بضم الباء و فتح الجيم و الباقون بفتح الباء و كسر الجيم بصيغة المعلوم.

و قرأ حفص و عامر و يعقوب يعملون بالياء هاهنا و في النمل و الباقون بالتاء و المعنيان متقاربان و الغيب كون الشيء بحيث لا يلحقه الحس و منه عالم الغيب و الشهادة أي عالم المحسوس و غير المحسوس و في هذا الكلام إشعار بأن العلم بالغيب مخصوص بالله تعالى و لا يعلم الغيب إلا هو و أتما قلنا أنه مخصوص به تعالى بمفاد الآية لأن تقديم الظرف يفيد الحصر كما يقال في الدار زيد يفيد الحصر بخلاف زيد في الدار و من هذا القبيل قوله:

وَلِلَّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ.

و أمثال ذلك الذي ذكره في الآية من إنحصار الغيب له تعالى لا ينافي حصوله في الأنبياء و الأصياء بسبب إعطائه إياهم من العلم بالغيب حسب ما يراه من المصلحة و ستتكلّم فيه في موضعه إن شاء الله.

و أما قوله: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فهو أيضاً من المسلّمات و فيه إشارة الى يوم الحساب:

قال الله تعالى: قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا^(١).

قال الله تعالى: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢).

قال الله تعالى: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ^(٣) والآيات كثيرة.

وقوله: فَأَعْبُدْهُ أمر نبيه و من آمن به بالعبادة والمعنى أنه يليق بها و أنما قال فأعبده و لم يقل و أعبده لأنّ الفاء للتفريع أي اذا كان العلم بالغيب في السموات و الأرض و ما فيهما منحصرأ به و رجوع جميع الموجودات و الأمور إليه فهو مستحق للعبادة لا غيره من الأصنام و الأوثان و غيرها و قيل في معنى فَأَعْبُدْهُ أي وجّه عبادتك اليه وحده و لا تشرك به أحداً.

قال بعض أهل التحقيق العبادة أبلغ من العبودية و ذلك لأنّ العبودية إظهار التذلل و لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال و هو الله تعالى و لهذا قال: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ و العبادة ضربان:

عبادة بالتسخير كما في الجمادات و النباتات و الحيوانات، قال الله تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا^(٤) و السُّجُود أصله التَّطَاؤُن و التذلل و جعل ذلك عبارة عن التذلل لله و عبادته و هو عام في الإنسان و الحيوانات و الجمادات إلا أنّ في الجمادات و الحيوانات بالتسخير لا بالإرادة.

و أمّا العبادة بالإختيار فهي منحصرة بالإنسان و بها يستحق الثواب و العبادة بهذا المعنى لذوي النطق و هي المأمور بها في الشريعة للمكلفين الواجدين للشرائط.

في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثاني

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فَمَعْنَاهُ وَاضِحٌ وَالتَّوَكَّلُ إِكَالُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِيهِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَسَيَجِيءُ أَيْضاً فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فَالْغَفْلَةُ السَّهْوُ إِلَّا أَنَّ الْغَفْلَةَ يَغْلِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ بَعْدَ الْيَقَظَةِ كَلَنُومٍ بَعْدَ الْإِنْتِبَاهِ وَالسَّهْوُ نَقِيضُ الذِّكْرِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ فِي الصِّفَةِ فَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِسَاهٍ عَنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِهَا فَفِي الْكَلَامِ نَفْيُ السَّهْوِ عَنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ السَّهْوَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ نَقْصٌ وَهُوَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ لِأَنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ الْمُسْتَجْمَعُ لِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ وَالْمُنَزَّهٌ عَنِ جَمِيعِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

* * *

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ
إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ
(٤) قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ
فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ
مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ
يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) لَقَدْ كَانَ فِي
يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ (٧) إِذْ قَالُوا
لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَ نَحْنُ

عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) أَقْتُلُوا
يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ
مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ
الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ
(١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَرُنَا عَلَى يُونُسَ وَ
إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَ
يَلْعَبَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)

◀ اللغة

أَلْقَصَصٍ واحداها قِصَّة بكسر القاف وهي مأخوذة من القص يقال قصَّ أثره أي تَبَّعه و القص بفتح القاف الخبر قصَّ عليه الخبر، حدث به و القِصَّة المَرَّة من قصَّ و قيل هي النوع من قصَّ الحديث و الجمع منها قصص و أقاصيص القصَّ البيان و القصص بفتح القاف الإسم و بالكسر جمع قِصَّة يقال قصصت الرؤيا على فلان أخبرته بها.

أَوْحَيْنَا أصل الوحي الإشارة السريعة و لتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيٌّ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز و التَّعريض و قد يكون مجرداً عن التركيب و يقال للكلمة الإلهية التي تلقى الى أنبياء و أولياءه وحيٌّ. رُؤْيَاكَ الرُّؤْيَا بضم الراء مصدر كالبرشى و السُّقْيَا إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا صار إسماً لهذا التَّخِيل في المنام جرى مجرى الأسماء.

يَجْتَنِيكَ الإجتباء إختيار معالي الأمور للمجتبى.

عُصْبَةٌ العصبة بضم العين الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

العجل الثاني

غِيَابَتِ الْجُبِّ الْجَبِّ الْبَرِّ وَ غِيَابَتِهِ كُنَايَةٌ عَنْ عَمَقِهِ أَيْ إِطْرَحُوهُ فِي جَبٍّ
عَمِيقٍ قَلِيلِ الْمَاءِ.
يَلْتَقِطُهُ الْإِلْتِقَاطُ تَنَاوُلُ الشَّيْءِ مِنَ الطَّرِيقِ وَمِنْهُ اللَّقْطَةُ.
الْسَّيَّارَةُ جَمَاعَةُ الْمَسَافِرِينَ لِأَنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِي الْبِلَادِ.

الإعراب

قُرْآنًا قِيلَ أَنَّهُ تَوَطُّعٌ لِلْحَالِ الَّتِي هِيَ عَرَبِيَّةٌ وَ الثَّانِي أَنَّهُ حَالٌ وَ هُوَ مُصَدَّرٌ فِي
مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ أَيْ مَجْمُوعاً أَوْ مَجْتَمِعاً وَ عَرَبِيَّةٌ صِفَةٌ لَهُ عَلَى رَأْيٍ مِنْ يَصِفُ
الصِّفَّةَ أَوْ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي الْمَصْدَرِ أَحْسَنَ يَنْتَسِبُ إِنْتِسَابَ الْمَصْدَرِ
بِمَا أَوْحَيْنَا مَا، مُصَدَّرَةٌ وَ هَذَا مَفْعُولٌ أَوْحَيْنَا الْقُرْآنَ نَعَتْ لَهُ أَوْ بَيَانٌ وَيَجُوزُ
رَفْعُهُ عَلَى إِضْمَارٍ هُوَ، وَ جَرَّهُ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ، مَا، وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقٌ بِنَقْصٍ وَيَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ حَالاً مِنْ أَحْسَنَ وَالْهَاءُ فِي قَبْلِهِ، تَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ أَوْ عَلَى هَذَا، أَوْ عَلَى
الْإِيحَاءِ إِذْ قَالَ إِذْ مَفْعُولٌ لِأَذْكَرَ مُحذُوفٍ وَفِي يُونُسُفُ سَتَ لُغَاتُ ضَمِّ السِّينِ وَ
فَتْحِهَا وَ كَسْرُهَا بِغَيْرِ هَمْزٍ فِيهِمْ وَ بِالْهَمْزِ وَ مِثْلُهُ يُونُسُ يَأْ أَبَتْ بِكَسْرِ التَّاءِ وَهِيَ
زَائِدَةٌ عَوْضاً مِنْ بَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَ هَذَا فِي النَّدَاءِ خَاصَّةً وَ كَسَرَتِ التَّاءُ لِنَدَلٍ عَلَى
الْبَاءِ الْمُحذُوفَةِ وَ لَا يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا لَثَلًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْعَوْضِ وَ الْمَعْرُضِ وَ يَقْرَأُ بِفَتْحِ
التَّاءِ وَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ حَذَفَ التَّاءَ الَّتِي هِيَ عَوْضٌ مِنَ الْبَاءِ كَمَا تَحْذِفُ تَاءُ طُلْحَةٍ فِي
التَّرْخِيمِ وَ زِيدَتْ بِدَلِّهَا تَاءٌ أُخْرَى وَ حَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ مَا قَبْلُهَا كَمَا قَالُوا يَا طُلْحَةُ
أَقْبِلْ بِالْفَتْحِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ أُبْدِلَ مِنَ الْكَسْرِ فَتْحَةٌ كَمَا يُبْدَلُ مِنَ الْبَاءِ أَلِفٌ.

الثَّلَاثُ: أَنَّهُ أَرَادَ يَا أَبْتَاهُ كَمَا جَاءَ فِي الشُّعْرِ، يَا أَبْتَاهُ عُلْكٌ أَوْ عَسَاكَ فَحَذَفَتْ
الْأَلْفُ تَخْفِيفاً وَ قَدْ أَجَازَ بَعْضُهُمْ ضَمَّ التَّاءِ لَشَبِّهَا بِتَاءِ التَّائِيثِ أَحَدٌ عَشَرَ بِفَتْحِ
الْعَيْنِ عَلَى الْأَصْلِ وَ بِإِسْكَانِهَا عَلَى التَّخْفِيفِ فَرَاراً مِنْ تَوَالِي الْحَرَكَاتِ

ساجدينَ حالَ وَ كَذَلِكَ الْكَافُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ نَعْتًا لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ أَيْ
اجْتِنَاهُ مِثْلَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ بَدَلَانَ مِنْ أَبَوَيْكَ أَرْضًا ظَرْفَ لِإِطْرَحُوهُ وَ
لَيْسَ بِمَفْعُولٍ بِهِ لِأَنَّ طَرَحَ لَا يَتَّعَدِي إِلَى أَثْنَيْنِ وَ قِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِأَنَّ
إِطْرَحُوهُ بِمَعْنَى أَنْزَلُوهُ.

◀ التفسير

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِالْقَصَصِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا وَ هِيَ قِصَّةُ نُوحٍ وَ قِصَّةُ هُودٍ وَ
قِصَّةُ صَالِحٍ وَ شُعَيْبٍ أَرَدَ فَهِيَ بِقِصَّةِ يُوسُفَ وَ أَخْبَرَ نَبِيَّهِ بِهَا وَ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ
الْقَصَصِ كَمَا يَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ فَقَالَ تَعَالَى أَلْرُ، وَ هِيَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ الَّتِي لَا
يَعْلَمُ تَأْوِيلُهَا إِلَّا اللَّهُ.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

قِيلَ هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ قَتَادَةُ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ وَلَّهَا
وَ قَالُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا أَنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ أَمَرْتَهُمُ الْيَهُودُ أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
عَنِ السَّبَبِ الَّذِي أَحْلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمِصْرَ فَنَزَلَتْ وَ قِيلَ سَبَبُهُ تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ
عَمَّا كَانَ يَفْعَلُ بِهِ قَوْمُهُ بِمَا فَعَلَ إِخْوَتَهُ يُوسُفَ بِهِ.

وَ قِيلَ سَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْدِثَهُمْ أَمْرَ يَعْقُوبَ وَ وَلَدَهُ وَ
شَأْنَ يُوسُفَ وَ وَجْهَ مَنَاسِبَتِهَا لَمَّا قَبْلُهَا وَ إِرْتِبَاطُهَا أَنَّ فِي آخِرِ السُّورَةِ الَّتِي قَبْلُهَا
كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ ^(١) وَ كَانَ فِي تِلْكَ الْأَنْبَاءِ
الْمَقْصُوصَةُ فِيهَا مَا لاقَى الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَوْمِهِمْ فَاتَّبَعَ ذَلِكَ بِقِصَّةِ يُوسُفَ وَ مَا لَاقَاهُ
مِنْ إِخْوَتِهِ وَ مَا أَلَتْ إِلَيْهِ حَالُهُ مِنْ حَسَنِ الْعَاقِبَةِ لِيَحْصَلَ لِلرَّسُولِ ﷺ التَّسْلِيَةُ
الْجَامِعَةُ لَمَّا يَلَاقِيهِ مِنْ أَذَى الْقَرِيبِ وَ الْبَعِيدِ وَ جَاءَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَطْوَلَةً
مُسْتَوَافَةً إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَقَوْلُهُ: تِلْكَ إِشَارَةٌ إِلَى، أَلْرُ، وَ سَائِرِ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ
الَّتِي تَرَكِبَتْ مِنْهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أو الى التَّوْرَةِ والإنجيل.

أو الى الآيات التي ذكرت في سورة هود.

أو الى آيات السُّورَةِ و الكتاب المبين أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السُّورَةِ و أما الكتاب المبين فالظاهر أنَّ المراد به القرآن و أنَّما وصفه بكونه مبيناً لأنَّه ظاهر أمره في إعجاز العرب و تبكيتهم و أمَّا لأنَّه مظهر للحلال و الحرام و الحدود و الأحكام و ما يحتاج اليه البشر في أمر و الدنْيَا و الدين و قيل المراد بالمبين الهدى و الرُّشد فأنَّ القرآن يظهرهما.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

أخبر الله في هذه الآية أنَّه أنزل القرآن عَرَبِيًّا لكي يعقلوا معانيه و أغراضه و أنَّما سمَّاه قرآنًا لجامعيَّته يقال قرأ قرآنًا، الشَّيْ إذا جمعه و ضمَّ بعضه الى بعض القرآن في الأصل مصدر نحو كفران و رجحان و قد خصَّ بالكتاب المنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ فصار له كالعلم كما أنَّ التَّوْرَةَ لَمَّا أنزل على موسى و الإنجيل على عيسى صارا علمين للكتابين المعهودين.

قال بعض المحققين تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمره كتبه بل لجمعه لثمره جميع العلوم و الصُّمير في، أنزلناه، عائد على الكتاب و القرآن إسم جنس يقع على القليل و الكثير و قوله: عَرَبِيًّا فيه إشارة الى أنَّه بلسان العرب فأنَّ العَرَبِيَّ منسوب الى العرب و السُّرْفِيه هو أنَّ الله أنزل كلَّ كتاب على كلِّ نبيٍّ بلسانه و لسان قومه كما أرسل كلَّ رسولٍ أيضاً بلسان قومه:

قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ^(١).

قال الله تعالى: فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٢).

قال الله تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ
قَوْمًا لَّدُنَّا^(١).

وقوله: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي لكي تعقلون و تفكرون في آياته ثم تتعظون بها
و تعتبرون.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن
كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ

قد مرّ الكلام في القصص و قلنا أنّها جمع قصّة إن قرأتها بكسر القاف و
الإسم بفتحها في شرح اللغات و قوله: أَحْسَنَ الْقَصَصِ يدلّ على أنّ الحسن
يتفاضل و يتعاضم و أنّما يتعاضم بكثرة إستحقاق المدح عليه و إختلفوا في
معنى أحسن القصص و المراد به.

فقال قوم المراد بكونه أحسن أنّه إقتصّ على أبداع طريقة و أحسن أسلوب
ألا ترى أنّ هذا الحديث قصص في كتب الأولين و في كتب التواريخ و لا ترى
إقتصاضه في كتاب منها مقارباً لإقتصاضه في القرآن لما فيه من العبر و الحكم
و النكت و العجائب التي ليست في غيره.

و قال بعضهم هذه السورة أحسن القصص لإنفرادها عن سائر بما فيها من
ذكر الأنبياء و الصّالحاء و الملائكة و الشياطين و الجنّ و الإنس و الأنعام و الطّير
و سير الملوك و الممالك و التّجار و العلماء و الرّجال و النّساء و كيدهنّ و
مكرهنّ مع ما فيها من ذكر التوحيد و الفقه و السير و السياسات و حسن
المللكة و العفو عند المقدرة و حسن المعاشرة و الحيل و تدبير المعاش و
المعاد و حسن العقابة في العفة و الجهاد و الخلاص من المرعوب الى
المرغوب و ذكر الحبيب و المحبوب و تعبير الرؤيا و العجائب التي تصلح و
تفيد للدين و الدنيا.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد الثالث

و قيل كانت أحسن القصص لأنَّ كلَّ من ذكر فيها كان مآله الى السَّعادة أنظر الى يوسف وأبيه وإخوته وإمرأة العزيز والملك أسلم بيوسف و حسن إسلامه.

و قيل، أحسن هنا ليست أفعال التَّفضيل بل هي بمعنى حسن كأنَّه قيل حسن القصص من باب إضافة الصِّفة الى الموصوف أي القصص الحسن، وما، في بما أوحينا، مصدرية أي بإيحائنا والوحي قلنا في شرح اللغات أنَّه في الأصل الإشارة السريعة ولتضمن السَّريعة قيل أمرٌ وحيٌّ و هاهنا نقول أنَّ الوحي قد يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مجردٍ عن التَّركيب وقد يكون بإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة وعلى ذلك حمل قوله تعالى حكايةً عن زكريَّا:

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(١).

و على هذه الوجوه قوله تعالى:

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا^(٢).

اذا عرفت هذا فاعلم أنَّه يقال للكلمة الإلهية التي تلقى الى أنبياءه وأوليائه وحيٌّ وذلك على أقسام:

أحدها: أن يكون الوحي برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل للنبي ﷺ في صورة معينة.

الثاني: أن يكون بسماعٍ كلامٍ من غير معاينة كسماع موسى كلام الله.

الثالث: أن يكون بإلقاء في الرُّوح كما ذكره ^{الإمام} عليُّ أن روح القدس نفث في روعي.

رابعهما: أن يكون بالإلهام كقوله تعالى: **وَأَوْخِيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ** (١).
خامسها: أن يكون بالتسخير و عليه قوله تعالى: **وَأَوْخَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ**
اتَّخِذِي مِنْ أَلْجَبَالِ بُيُوتًا (٢).

سادسها: أن يكون بمنام كما قال ﷺ **إنقطع الوحي و بقيت المبشرات**
رؤيا المؤمن فالإلهام و التسخير و المنام دل عليه قوله تعالى: **إِلَّا وَحْيًا** (٣).
و سماع الكلام معينة دل عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** (٤) و تبليغ جبرئيل
في صورة معينة دل عليه قوله: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي** (٥).

إذا عرفت أقسام الوحي فقد علمت أن الوحي على رسول الله كان من
تبليغ جبرئيل في صورة معينة و قيل بصورة الدحية الكلبية و يظهر من الآية أن
القرآن بتمامه وكماله مما أوحى إليه ﷺ و لا يختص الوحي بهذه السورة
فقط و إنما قوله: **وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ** فمعناه، و إن كنت يا
محمد قبل و حيننا اليك غافلاً عما أوحينا اليك و ذكرناه في القرآن من الأحكام
و القصص و قيل معناه من الغافلين عن قصّة يوسف و إخوته حتّى أخبرناك
بها.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ
الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

قالوا و التقدير، أذكر اذ قال يوسف لأبيه و هو يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم خليل الله، يا أبت، قد مرّ الكلام في شرح اللغات في يا أبت، و ذكرنا
هناك الوجوه المحتملة من فتح التاء و كسرهما و ضمّها مفصلاً و الأصل فيها يا
أبي، فحذفت الياء و عوضت عنها التاء عوضاً عن ياء الإضافة لأنّ التانيث و
الإضافة يتناسبان في أن كلّ واحدٍ منهما زيادة مضمومة الى الإسم في آخره.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مِيقَاتِهِ

جزء ١٢

الجزء الثالث

٢- النحل = ٦٨

٤- الشورى = ٥١

١- القصص = ٧

٣- الشورى = ٥١

٥- الشورى = ٥١

و أما الكسرة في التاء كانت قبل الياء في قولك يا أبي، قالوا و الدليل على أنها تاء التانيث هو قلبها هاء في الوقف فيقال يا أبة إني رأيتُ أحدَ عَشَرَ كَوْكَبًا أي إني رأيت في المنام كذلك و الكوكب في أصل اللّغة معظم الشّي يقال هذا كوكب الشّي أي معظمه و كوكب الرّوضة نورها و المراد به هاهنا النّجم و لعلّه سمّي به لنوره.

و الشّمس و القمر رأيتُهُم لي ساجدين قال الزّمخشري فأن قلت لم آخر الشّمس و القمر.

قلت آخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الإختصاص إثباتاً لفضلهما و إستبادهما بالمزيّة على غيرهما من الطّوالع كما آخر جبرئيل و ميكايل عن الملائكة ثمّ عطفهما على الملائكة لذلك و يجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي رأيت الكواكب مع الشّمس و القمر انتهى.

أقول و الذي يظهر من الكلام هو أنّ تأخيرهما عن الكواكب أنّما هو من باب التّرفي من الأدنى الى الأعلى كما هو السّيرة المستمرة في المحاورات و المناظرات و الأخبار و يحتمل أن يكون التأخير و إختصاصهما بالذّكر بعدها تشريفاً و تعظيماً لهما لأنّهما و لا سيّما الشّمس منبع النّور و أصلها و ما سواها من الكواكب يستضيّ بنور الشّمس و لا نور فيها في حدّ ذاتها و كيف كان فإنّ يوسف رأى في المنام ما حكاه الله عنه بقوله: رأيتُهُم لي ساجدين أي رأيت أحد عشر كوكباً و الشّمس و القمر لي ساجدين و أنّما قال رأيتهم و لم يقل رأيتها و حقّ العبارة كان كذلك ظاهراً و هكذا في ساجدين لأنّه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطّاعة و السّجود و هما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمّن يعقل أي نزل من لا يعقل منزلة من يعقل فقال رأيتهم لي ساجدين و لم يقل رأيتها لي ساجدة أو ساجدات و من عادة العرب أن تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل اذا أنزلوه منزلته و أن كان خارجاً عن الأصل.

إن قلت ما وجه التّكرار في رأيت.

قلت لإفادة التوكيد حيث طال الكلام و قيل ليدل على أنه رآهم و رأى سجودهم.

و قال صاحب الكشف أنه ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن يعقوب قال له عند قوله: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها فقال رأيتهم لي ساجدين انتهى.

و أما السُّجود ف قيل أنه على وجه الحقيقة تكرمة له لا عبادة له.

و قيل معناه الخضوع كما قال الشاعر:

ترى الأكمل فيه سجداً للحوافر

و نظيره هو سجود الملائكة لأبيه آدم

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ

أي قال يعقوب يا بني، فيه ثلاث ياءات، الياء الأصلية و ياء الإضافة التصغير فحذفت ياء الإضافة إجتزأ بالكسرة و أدغمت إحدى اليائين في الأخرى و فتح الياء و كسرهما لغتان و إنما صغر بني مع عظم منزلته لأنه أي يعقوب قصد بذلك صغر السن و لم يقصد به تصغير الدم.

و قال بعضهم كان في ذلك الوقت السُّجود تحية بعضهم ولما خاطب يوسف أباه بقوله: يَا أَبَتِ وفيه إظهار الطاعة و البر و التنبيه على محل الشفقة بطبع الأبوة خاطبه أبوه بقوله: يَا بُنَيَّ، تصغير التحبيب و التقريب و الشفقة.

لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ

قرأ زيد بن علي لا تقص مدغماً وهي لغة تميم، و الجمهور بالفك و هي لغة الحجاز و الرؤيا بضم الراء مصدر كالبقيا و قيل الرؤيا هنا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان في النوم دون اليقظة فرق بينهما بحرفي التأنيث كما في القرية

و القربى و المعنى لا تحكي ما رأيته في المنام من سجود أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر، لإخوتك، و إخوة يوسف هم كاذ، و بنيامين و يهوذا و نفتالي و زبلون و شمعون و روبين (روبييل) و يساखा و لاوي و دان و ياشير، فهؤلاء إخوة يوسف على ما قيل و قد فسّروا أحد عشر كوكباً كناية عن هؤلاء الإخوة و الشمس و القمر عن أبويه قاله الحسن و تبعه عليه غير واحد من المفسرين.

قال الطبرسي رحمته الله في تفسير الآية قال ابن عباس أن يوسف رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السماء فسجد له و رأى الشمس و القمر نزلا فسجدا له قال فالشمس و القمر أبواه و الكواكب إخوته الأحد عشر.

و قال السدي الشمس أبوه و القمر خالته و ذلك أن أمه راحيل قد ماتت.

و قال ابن عباس الشمس أمه و القمر أبوه انتهى.

و قال وهب كان يوسف رأى ما رأى و هو ابن سبع سنين و قيل أنه رأى أحد عشرة عصاً طولاً كانت مركوزة في الأرض كهينة الدائرة و اذا عصاً صغيرة تثب عليها حتى إقتلعتها و غلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال له إناك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى و هو ابن عشرة سنة أن أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر سجدت له فقصها على أبيه فقال: **لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ.**

و قيل أراد بالرؤية الأولى الأعيان و الأشخاص و بالثانية رؤية سجودهم **فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا** قيل في معناه أي فيحسدوك أو يقابلوك بما فيه هلاكك و ذلك أن رؤيا الأنبياء وحي و علم يعقوب أن إخوة يوسف يعرفون تأويلها و يخافون علو يوسف عليهم فيحسدونه و يبغون الغوائل و الكيد في الأصل ضرب من الإحتيال و قد يكون مذموماً و قد يكون ممدوحاً و أن كان إستعماله في المذموم أكثر و سيأتي الكلام فيه و هذا الكيد الذي أشير به في الآية من المذموم و لذلك قال بعد ذلك **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ** و فيه إيماء إلى أن ذلك الكيد من كيد الشيطان في الحقيقة لأنه بوسوسته و كيده لا يكون

الأمذموماً لأنه للإنسان عدوٌ مبين أي عدوٌ ظاهرٌ لا خفاء فيه و العدو حاله معلوم واللام في قوله: لَكَ كَيْدًا، لام التَّعْدِيَةِ كما يقال قدمت له طعاماً و قال قوم هو مثل قولهم شكرته و شكرت له لأنه يقال كاده يكيده و كاده له، و الرؤيا، فيها أربع لغات:

ضمّ الرءاء مع الهمزة، وبالواو بلا همزة و قد قرئ بهما و بضم الرءاء و الإدغام و بكسر الرءاء و لا يقرأ بهاتين.

أقول في هذه الآية تنبيهٌ بل نهْيٌ عن نقل الرؤيا التي رآها النَّائم في منامه لكلِّ أحدٍ من أحاد النَّاس بل لو أراد النَّقل للتعبير مثلاً ينبغي له أن يحرز صلاحية المعبر له أولاً وكونه حافظاً للأسرار ثانياً و ذلك لأنَّ المعبر لو كان جاهلاً بعلم التَّعبير فيعبر الرؤيا و قد ورد في الأخبار أنَّ الرؤيا على ما تعبّر. و أما كون المعبر حافظاً للأسرار فلأنَّ الخائن بها يذيع الرؤيا و يفشيها في النَّاس و كثيراً ما تكون الإذاعة على خلاف مصلحة الرائي.

فقد روي في البحار بأسناده عن معمر بن خلاد قال سمعت أبا الحسن يقول أنما رأيت الرؤيا فأعبرتها و الرؤيا على ما تعبّر انتهت. و بأسناده عن جابر ابن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول أنَّ رؤيا المؤمن ترَف بين السَّماء والأرض و على رأس صاحبها حتَّى يعبرها لنفسه أو يعبرها له مثله فاذا عبرت لزمت الأرض فلا تقصّوا رؤياكم إلّا على من يعقل انتهى.

و في النهاية في حديث الرّؤيا لا تقصّها إلّا على وادٍ.

و بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله قال عليه السلام: قال رسول الله ﷺ الرؤيا لا تقصّ إلّا على مؤمنٍ خلا من الحسد و البغي انتهى.

و قال المجلسي بعد نقله الخبر أنما إشتراط ذلك لئلا يتعمد المعبر تعبيرها بالسوء حسداً و بغياً.

قال رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به انتهى. وفي رواية أخرى الرؤيا على رجل طائر ما لم يعبر فإذا عبرت وقعت ولا تقصها إلا على واد أو ذي رأي، الواد لا يحب أن يستقبلك في تفسيرها إلا بما تحب و أن لم يكن عالماً بالعبرة لم يجعل لك بما يغمك و أما ذو الرأي فمعناه ذو العلم بعبارتها فهو يخبرك بحقيقة تفسيرها أو بأقرب مما تعلم منها.

و روي أبو أيوب مرسلأ أن النبي قال إن الرؤيا يقع على ما عبر و مثل ذلك رجل رفع رجله و هو ينتظر متى يضعها وإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحاً أو عالماً انتهى. و الأحاديث كثيرة أنظر بحار الأنوار^(١).

و غيرها من المطولات أو كتب الموضوعة لهذا الفن.

و كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

الإجتباء الإصطفاء و قيل الإجتباء هو إختيار معالي الأمور للمجتبى مثل ما إختاره الله ليوسف من الخصال الكريمة و الأمور السنية.

و قال الحسن إجتباه بالنبوة و بشره بها و أصله من جبيت الشيء إذا أخلصته لنفسك و منه جبيت الماء في الحوض و موضع الكاف من، وكذلك، نصب أي

مثل ما رأيت تأويله يجتبيك ربك و المعنى و كذلك يجتبيك ربك أي مثل ذلك الإجتباء و هو ما أراه الله تعالى من تلك الرؤيا التي دلت على جليل قدره و شريف منصبه و مآله الى النبوة و الرسالة و الملك و قوله: **وَ يَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** معناه أنه تعالى يعرفك عبارة الرؤيا و قيل معناه يعلمك تأويل الأحاديث في آيات الله تعالى و دلائله على توحيده و غير ذلك من أمور دينه و يجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله و سير الأنبياء و ما غمض و أشتبه على الناس في أغراضها و مقاصدها يفسرها لهم و يشرحها ويدلهم على مودعات حكمها و سميت أحاديث لأنها تحدث بها عن الله و رسله فيقال قال الله وقال الرسول كذا و كذا و الأحاديث جمع تكسير للحديث على غير قياس كما قالوا أباطيل و أباطيل و لم يأت اسم جمع على هذا الوزن و قوله: **وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ** فإتمامها بأنه تعالى أعطاهم نعمة الدنيا و نعمة الآخرة أما في الدنيا فبأن جعلهم أنبياء و ملوكاً و أما في الآخرة فبأن نقلهم الى أعلى الدرجات في الجنة، و قال بعضهم في قوله: **وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** أي بإعلاء كلمتك و تحقيق رؤياك و قال الحسن هذا شيء أعلمه الله يعقوب من أنه سيعطي يوسف النبوة، و قيل بأن يحوج إخوتك اليك فتقابل الذنب بالغفران و الإساءة بالإحسان، و قيل بإنجاءك من كل مكروه و الأقوال كثيرة و المآل واحد فأما ذكره كله من النعم و قوله: **وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ** معناه أن نعم الله تشمل جميع آل يعقوب ممن كانوا لائقين بها و أما الفساق منهم فلا كما **أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ** أي كما أتم الله نعمة الظاهرية و الباطنية على أبويك من قبل و هما إبراهيم و إسحاق، أطلق عليهما الأب مع أنهما كانا من أجداد يوسف لأن الجد بمنزلة الأب و لذلك أثبتوا للجد ما أثبتوا للأب من الولاية و قالوا أن ولاية الجد كولاية الأب بل هي في الجد في كثير من الموارد أقوى منها للأب كما في مسألة نكاح البالغة العاقلة الرشيدة

في القرآن
في تفسيره
الآيات

جزء ١٢

المجلد الثالث

بناءً على أنها تحتاج في النكاح إلى إذن وليها قالوا هو الأب والجدة وفي صورة التعارض يقدم قول الجد على الأشهر على قول الأب وإستدلوا عليه بأن الجد وليّ لهما وتفصيل الكلام في الفقه ومحصل الكلام في المقام هو أن الجد بمنزلة الأب والآية تدلّ عليها: وأما قال ذلك لأن يوسف كان من أولاد إبراهيم وإسحاق في الحقيقة وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وقوله: إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ معناه أَنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بمن يستحق الإجتباء حكيم، يضع الأشياء مواضعها وهذان الوصفان مناسبان لهذا الوعد الذي وعده يعقوب و يوسف في قوله: وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ.

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسْتَظْلِينَ

اللام في قوله: لَقَدْ قيل هي اللام التي يتلقى بها القسم أقسم بالله في هذه الآية أنه كان في يوسف وإخوته آيات أي علامات تكشف عن المعنى وهذا هو الفرق بين الآية والحجة فإنّ الحجة، معتمد البينة التي توجب الثقة بصحة المعنى وليست بكاشفة عنه والمعنى أن فيها علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء للمستأجلين لمن سأل عنهم وعرف قصتهم وقيل آيات دالة على نبوة النبي ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماعٍ من أحدٍ ولا قراءة كتاب.

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

العامل في، إذ، أذكر و تقدير الكلام أذكر يا محمد إذ قالوا، و يحتمل أن يكون العامل فيه، ما في الآية الأولى من قوله: لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسْتَظْلِينَ إذ قالوا كذا وكذا والمعنى أذكر إذ قالوا، أي إخوة يوسف، ليوسف وأخوه وهو بنيامين وأمهما راحيل وهي ماتت من نفاسه والقائلون

بهذه المقالة هم عشرة من إخوته وكان روبيل أكبرهم وهو أي روبيل ويهوذا و
شمعون ولاوي وزبولون، ويساخا، أمهم، ليا، بنت بن ناهر بن آزر وهي بنت
خال يعقوب، وذان، ونفتالي، وكاذ، وياشير، أربعة من سرتين كانتا لليا و
أختها راحيل فوهبتهما ليعقوب فجمع بينهما و لم يحل الجمع بين الأختين
لأحد بعده و أسماء سرتين فيما قيل، ليا، و قلثا، و توفيت أم السبعة فتزوج
بعدها أختها راحيل فولدت له يوسف و بنيامين و ماتت من نفاسها، أنما قال و
أخوه و لم يصرح بإسمه لأنهما كانا شقيقين فأضافوه إلى يوسف و اللآم في،
ليوسف، لام الإبتداء و فيها تأكيد و تحقيق لمضمون الجملة أي كثرة حبه لهما
ثابت لا شبهة فيه و أحب، أفعال التفضيل و هي مبني من المفعول شذوذاً و
لذلك عدّي، بالي و كان بنيامين أصغر من يوسف و كان يعقوب يحبهما
لصغرهما و موت أمهما و حب الصغير و الشفقة عليه مركزاً في فطرة البشر.
قيل لبعض الحكماء أي بنيك أحب إليك، قال، الصغير حتى يكبر، و
الغائب حتى يقدم، و المريض حتى يفيق و قد نظم الشعراء في محبة الصغير
قديماً و حديثاً و من ذلك ما قاله الوزير عبد الملك بن إدريس في قصيدته التي
بعث بها إلى أولاده و هو في السجن:

وصغيركم عبد العزيز فأنني	أطوي لفرقة جوى لم يصغر
ذاك المقدم في الفؤاد وأن غدا	كفواً لكم في المنتمى والعنصر
إن البنان الخمس أكفاء معاً	والحلي دون جميعها للخنصر
وإذا الفتى بعد الشباب سماله	حب البنين ولا كحب الأصغر

و قوله: وَ نَحْنُ عَصَبَةُ الْوَاوِ لِلْحَالِ فَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةُ أَيِ حَالٍ كَوْنَنَا عَصَبَةُ أَيِ
جماعة و المعنى كيف يفضلهما، علينا في المحبة و هما إبنان صغيران لا كفاية
فيهما و لا منفعة و نحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقة فنحن أحق

بزيادة المحبة منهما، و عن ابن عباس أنه قال العصبه ما زاد على العشرة ومنه ما بين العشرة الى الأربعين و عن مجاهد العصبه من عشرة الى خمسة عشر، مقاتل، عشرة، و عن ابن جبير ستّة أو سبعة و قيل لا يقال لأقلّ من عشرة عصبه وقوله: **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**.

فقيل المراد بالضلال هنا هو الهوى و قيل هو الخطأ من الرأى و قيل هو الجور في الفعل أو الغلط في أمر الدنيا و روي أنه بعد إخباره لأبيه الرؤيا كان يضمه كلّ ساعة الى صدره و كان قلبه أيقن بالفراق فلا يكاد يصبر عنه.

و قال بعض المفسرين أن المراد بقولهم: **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** أن أبانا في ذهاب عن طريق الحقّ و الصواب الذي فيه التعديل بيننا في المحبة و قال الآخر أنهم أرادوا بذلك أنه غلط في تدبير الدنيا، أمر الدنيا، إذ كانوا أنفع له من يوسف و أخيه من أمّه و أبيه إذ كانوا يقومون بأمواله و مواشيه و كيف كان أنهم لم يريدوا بقولهم هذا الضلال في الدين إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفّاراً و ذلك خلاف الإجماع.

قال الشيخ في التبيان بعد نقله القولين الأخيرين و أكثر المفسرين على إن إخوة يوسف كانوا أنبياء و قال قوم لم يكونوا كذلك و هو مذهبن لأنّ الأنبياء لا يجوز أن تقع منهم القبائح و خاصّة ما فعلوه مع أخيه يوسف و قال قوم أنهم لم يكونوا في تلك الحال بلغوا الحلم و قد يقع مثل ذلك ممّن قارب البلوغ انتهى.

و أنا أقول كلّ هذه الأقوال لا دليل عليها و أنّما هي من مستخرجاتهم الظنية و أوهاهم الفاسدة الكاسدة التي لا يجوز الإعتماد عليها والذي يدلّ عليه القرآن و الأخبار الصحيحة الصادرة عن مقام العصمة هو المتبع والذي يستفاد من هذه الآية أمور ينبغي التنبيه عليها:

الأول: أن المحبة و أن كانت من الأمور القلبية و في أكثر الموارد فطرية كما

في الأولاد مثلاً إلا أن شدة المحبة وضعفها بالنسبة الى بعض الأولاد ليست فطرية كما زعم أكثر الناس بل هي مسببة عن الأسباب الخارجية وذلك لأن حبّ الوالد أو الأم لجميع أولادها بحسب الفطرة على حدّ سواء لأن الولد بما هو ولد محبوب لأبويه بالفطرة لوحدة الملاك و هي البنوة في الجميع تختلف المحبة بحسب الأسباب والأوصاف الخارجة من أصل البنوة مثل أن يكون بعضهم أطوع لأبويه من بعض أو يكون أتقى وأورع وأنفع ومن المعلوم أن محبة الأب بالنسبة الى الأتقى والأورع مثلاً أشدّ منها لمن لا يكون كذلك ومن جملة الأسباب أي أسباب الشفقة الصغر والمرض وأمثال ذلك وهذا ممّا لا شك فيه إذا عرفت هذا فنقول.

أن يوسف الصديق لصغره أو لأن يعقوب كان عالماً بعاقبة أمره وأنه من الأنبياء مثلاً أو لغير ذلك من الأمور كان أحبّ الى أبيه من إخوته وهذا ممّا لا إشكال فيه ولا منقصة عقلاً و شرعاً فإنّ المحبة من الأمور القلبية الناشئة عن الأسباب والعلل الموجودة لها قهراً وأنما الكلام في إظهارها قولاً وعملاً هو الذي صار باعثاً لحسد الأخوة لا أصل المحبة المركوزة في قلب يعقوب بالنسبة الى يوسف إذ لم يطلع عليها قبل الإظهار أحد من الأخوة وإذا كان كذلك فينبغي للأب والأم كتمان المحبة القلبية لا إظهارها بين الأولاد وترجيح بعضهم على بعض فعلاً ولساناً.

الثاني: أنّه يستفاد من الآية أنّ الأخوة فعلوا ما فعلوا لأجل الحسد ولم يترتب عليه إلا الخسران في الدنيا والآخرة والندم بعد ذلك على ما فعلوه و طلب المغفرة من الله وأمثال ذلك وأما يوسف فقد رفع الله مقامه في الدنيا والآخرة فالحاسد لا يحصد إلا خساراً والمحسود لا يحصد إلا شرفاً ومقاماً في الدارين فينبغي للعاقل أن لا يحسد على غيره.

الثالث: أَنْ قولهم: وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ أي جماعة، فيه إشارة الى أنهم أي إخوة يوسف إعتدوا على قدرتهم لكونهم جماعة ففعلوا مافعلوا بيوسف و لم يعلموا أَنَّ الله تعالى أقدر منهم و من كل مخلوق فلو أراد الله تعالى أن يرفع عبداً أو يضعه لا يقدر أحدٌ على منعه فالقول بآنا عصابة ناشٍ من ضعف الإيمان والغفلة و هو كما ترى.

الزابع: أَنْ قولهم: إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ حيث نسبوا الضلال بأي معنى كان، الى أبيهم مشعر بعدم معرفتهم بحال النبي وأنه لا يخطئ لعصمته و أَنَّ حبه و بغضه لله لالنفسه فلو كانوا متوجهين الى هذه الأمور المترتبة على النبوة فكيف قالوا ما قالوا و لاستبعاد فيه فأَنَّ أولاد الأنبياء يجوز عليهم الخطأ كغيرهم.

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

و الظاهر أَنَّ، أقتلوا يوسف، من جملة قول الأخوة و قيل هو من قول قوم إستشارهم إخوة يوسف فيما يفعل به فقالوا لهم ذلك وهكذا قوله: أَوْ اطْرَحُوهُ و يجوز أن يكون، أَوْ، للتنويح أي قال بعض إقتلوا يوسف وقال بعض اطرحوه أرضاً، و إنتصب أرضاً، على إسقاط حرف الجر أي في أرض بعيدة من الأرض التي هو فيها قريبٌ من أرض يعقوب و قيل مفعول ثانٍ على تضمين اطرحوه معنى إنزلوه كما تقول أنزلت زيدا الدار و قالت رفة ظرفٌ و إختاره الزمخشري و قال أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران معنى تنكيرها و قوله: يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ جواب الأمر في قوله: أَقْتُلُوا يُوسُفَ يجوز فيه غير الجزم لأنه ليس فيه ضمير قالوا و المعنى أَنكم مَتْنِي قتلوه أو طرحتموه في أرض أخرى، خلا لكم أبوكم و حسن أليكم وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ و قيل هو إستعارة عن شغله بهم و صرف مودته اليهم بعد يوسف

لأن من أقبل عليك صرف وجهه اليك وهذا كقول تغامة حين أحبتَه أمه لما قتل إخوته وكانت قبل لا تحبه قال الثكل أرامها أي عطفها والضمير في بعده، عائد على يوسف أو قتله أو طرحه وقولهم: ضالِّحِينَ أي صلاح حالهم عند أبيهم أو صلاحهم بالتوبة.

و محصل المعنى أنهم إستشاروا و بعد الإستشارة عزموا و أرادوا قتله أو طرحه في مكان بعيد عن يعقوب على ما مرَّ بيانه.

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

قال قتادة القائل هو روبيل و قيل هو شمعون و قيل يهوذا و كان أحلمهم و أحسنهم فيه رأياً قال لإخوته: لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ الغيبة الموضع الذي يغيب فيه صاحبه و الجب بضم الجيم البئر.

قال الزاغب في المفردات في قوله: وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ أي بئر لم تطفؤ و تسميته بذلك أما لكونه محفوراً في جنوب أي أرض غليظة و أما لأنه قد جبَّ و الجبَّ قطع الشئ من أصله كجبَّ النخل و بعير أجبَّ مقطوع السنم و معنى مجبوب مقطوع الذِّكر من أصله انتهى.

و قال الحسن يعني ألقوه في قعر الجب.

قال الشاعر:

فَأَنْأَيْوُمُ غَيِّتَنِي غِيَابَتِي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

و قال الأعشى في الجب:

لأن كُنْتُ فِي جُبٍّ ثَمَانِينَ قَامَةً وَرَقِيتُ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ
و أما قوله: يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ فاللتقاط تناول الشئ من الطريق ومنه اللَّقْطَةُ واللَّقِيطَةُ و السَّيَّارَةُ الجماعة المسافرون لأنهم يسيرون في البلادهم مارة الطريق و قيل أنهم أشاروا اليه بأن يقعد في دلو المدلي إذا إستسقى ليخرجه

من البئر ففعل ومعنى التقاطه أن يجذوه ومن غير أن يحسبوه.
قال قتادة الجُب بئر بيت المقدس و قال وهب بأرض الأردن و قال مقاتل
على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب و قيل بين مدين و مصر، قالوا و الظاهر أنَّ
الجُب كان فيه ماء و لذلك قالوا: يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ اذ الجُب اذا كان خالياً
من الماء فهو متروك و لذلك قال بعض المفسرين أنه كان فيه ماء كثير يغرق
يوسف فشز حجرٌ من أسفل الجُب حتَّى ثَبَّت يوسف عليه و قيل لم يكن فيه
ماء أخرجه الله فيه حتَّى قصده النَّاس و قيل أنَّهم رموه بجبل في الجُب
فتماسك بيديه حتَّى ربطوا يديه و نزعوا قميصه و رموه حينئذٍ و همُّوا بعد
برضحه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك و قوله: إِنَّ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ما يحصل به غرضكم من التَّفريق بينه و بين أبيه ثمَّ أنَّهم بعد
الاستشارة و إهتمامهم بقتل يوسف أو طرحه في غيابت الجُب و تَقَرَّر في
أذهانهم التَّفريق بين يوسف وأبيه بأيِّ وجهٍ كان و إتَّفَقوا على ذلك أعملوا
الحيلة و المكر على أبيهم يعقوب و تَلَطَّفوا في إخراج يوسف معهم و ذكروا
لأبيهم نصحتهم له و ما في إرساله معهم من إنشراح صدره بالإرتعاء و اللُّبَّ اذ
هو ممَّا يشرح الصِّبيان و ذكروا حفظهم له ممَّا يسؤوه كما حكى الله تعالى
عنهم بقوله.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ

ما، في مَالَك، إستفهامية و المعنى أنَّهم جاءوا الى أبيهم يعقوب و قالوا له
يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف أي لأيِّ شيءٍ لا تأمناً عليها و هو نفْي لا نهْي
و الأصل تأمناً فأدغمت التَّوْن في التَّوْن.

و قرأ الأعمش بالإظهار و يظهر من قولهم هذا لأبيهم أنه تقدَّم منهم سؤال
في أن يخرج يوسف معهم و ذكروا سبب الأمن و هو النَّصْح أي لم لا تأمناً
عليه و حالتنا هذه و النَّصْح دليل على الأمانة و لهذا قرنا في قولهم ناصح أمين

قد أحسَّ يعقوب منهم قبل ذلك ما أوجب أن لا يأمنهم عليه و لذلك سألوهم بصورة التَّعَجُّب و قالوا ما لك لا تأمناً عليه و أنَّهم كانوا كاذبين في دعواهم النَّصَح له لأنَّ النَّصَح إخلاص العمل من فسادٍ و نقيضه الغش.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو، نَرْتَع و نَلْعَب بالنُّون فيهما والباقون بالياء فيهما المصاحف و رأيت في بعض تفاسير العامة أنَّ ابن كثير قرأ نرتع و يلعب بالياء و أمّا ما نقلناه عنه من قراءة النُّون فيهما نقلناه عن التَّبَيَّان و الله أعلم بحقيقة كلامه.

قال بعضهم و الَّذي نذهب اليه في القراءة هو إثبات النُّون في بضمّ النون، نرتع، والياء في، يلعب بفتحها و ذلك لأنَّ الإرتعاء القيام على المال و هو لا يليق إلا لمن بلغ و جاوز الصُّغر و أسند اللَّعْب الى يوسف لصغره و لا لوم على الصُّغير في اللَّعْب و لا ذمَّ و الدَّلِيل عليه أي على صغره قول إخوته و أنا له لحافظون، ولو كان كبيراً ما إحتاج الى حفظهم الى آخر ما قال في إثبات صغره.

و لقائل أن يقول أنَّ الفعل أعني به يَرْتَع من رَتَعَ يَرْتَع لا من أَرْتَع لأنَّ مضارعه يَرْتَع بضمّ الياء و لم يقرأ به أحد هذا أولاً.

ثانياً: أنَّ الإرتعاء ليس بمعنى القيام على المال في لُغَة العرب حتَّى يقال هو لمن بلغ و جاوز الصُّغر.

قال أهل اللُّغة أَرْتَع القوم و قعوا في خصبٍ و رتعاً كان مخصباً لا يعدم شيئاً يريد رتعاً في المكان أقام و تَنَعَّم و أَكَل فيه و شرب ما شاء في خصب و سعةٍ و رغدٍ انتهى.

و اذا كان كذلك فلا يرجع ما ذكره الى مُحْصَلٍ و أمّا أنَّ يوسف كان صغيراً فهو شيء آخر و الحقُّ هو إثبات النُّون فيهما أو إثبات الياء فيهما فعلى الأوّل معنى الكلام هو إشتغال جميع الإخوة بالرَّتَع و اللَّعْب مع يوسف.

على الثاني: إختصاص الرَّتَع و اللَّعْب بيوسف دون إخوته و كلاهما محتمل

لأنَّ المراد بقوله يرتع و يلعب هو اللَّعب المباح مثل الرَّمي و الإستباق لا مطلق اللَّعب و يرتع حول الحمى يطوف به و يدور حوله و المعنى أَنَّ الإخوة قالوا لأبيهم أرسله أي أرسل يوسف معنا غداً يرتع و يلعب في الصَّحراء و إنَّ له أي ليوسف لحافظون عن الأفات و البليّات و الخطرات و قلنا أَنَّ المراد باللَّعب هو المباح منه و هو ممَّا لا إشكال فيه و يظهر من قولهم و إنَّ له لحافظون، أَنَّ القضية كانت مسبوقه بالدَّعوة عند أبيهم و هو أي يعقوب أظهر الخوف على يوسف فقالوا: وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.



قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ
يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ
أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ
(١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي
غِيَابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ
هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَ جَاءَ وَ آبَاهُمْ عِشَاءً
يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ
تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا
أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاءَ وَ
عَلَى قَمِيصِهِ بَدَمٌ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ (١٨) وَ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
وَارِدَهُمْ فَادَّلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَ

أَسْرَوْهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ
شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ
مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

◀ اللغة

لَيَحْزُنُنِي الحزن ألم القلب بفراق المُحب.
تَذَهَبُوا بِهِ الذَّهاب و المرور و الإنطلاق نظائر.
عُصْبَةُ الجماعة و مرَّ الكلام فيها.
عَيَّابَتِ الْجُبِّ قعر البئر.
لَتُسَيِّئَنَّهُمْ من الإنباء و هو الإخبار.
لَا يَشْعُرُونَ الشُّعُور إدراك الشَّيْء بمثل الشَّعْرَة في الدَّقة و منه المشاعر في
البدن.

نَسْتَبِقُ مُسْتَقٍّ من السَّبَاق في الرَّمي أي نَتَنَصَّل و قيل نستبق في العدو.
كَذِبَ أي مكذوبٌ فيه.
سَيَّارَةٌ جماعة المسافرين.

وَأَرَدَهُمْ هو الَّذي يصير الماء ليستقي منه.
فَأَذَلِّي دَلْوُهُ أي فأرسل يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها.
بِضَاعَةً البضاعة قطعة من المال للتجارة.
وَشَرَوْهُ أي باعوه.

بَخْسٍ البخس التَّقْص من الحقَّ يقال بخسه في الوزن أو الكيل إذا نقصه من
حقه فيهما.

مَعْدُودَةٌ أي قليلة لأنَّ الكثير قد يمنع من عدده لكثيرته.

◀ الإعراب

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ الْجُمْلَةُ حَالٌ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ جَوَابٌ لِمَا مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ عَرَفْنَاهُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ وَ أَجْمَعُوا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مَعَهُ قَدْ مَرَادَةٌ، وَ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عِشَاءَ ظَرْفٍ أَيْ وَقْتُ الْعِشَاءِ وَ يَبْكُونَ حَالٌ عَلَى قَمِيصِهِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ حَالًا مِنَ الدَّمِ فَصَبَّرَ جَمِيلٌ أَيْ فَشَانِي فَحَذَفَ الْمَبْتَدَأُ وَ قِيلَ هُوَ مَبْتَدَأُ وَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَيْ فَصَبَّرَ جَمِيلٌ عِنْدِي أَسْرُوهُ الْفَاعِلُ ضَمِيرُ الْإِخْوَةِ السَّيَّارَةِ بِضَاعَةً الْحَالُ بِخُسٍ مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ أَيْ مَبْخُوسٌ وَ ذِي بَخْسٍ وَ دَرَاهِمَ بَدَلٍ مِنْ ثَمَنٍ.

◀ التفسير

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

لَمَّا أَصْرُوا عِنْدَ آبِيهِمْ إِعْتَذَرَ يَعْقُوبُ لَهُمْ بِشَيْئِينَ:

أَحَدُهُمَا: عَاجِلٌ فِي الْحَالِ وَ هُوَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْحُزَنِ لِمَفَارِقَةِ يُوسُفَ وَ كَانَ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ وَ الْحُزْنَ أَلَمَ الْقَلْبَ بِفِرَاقِ الْمَحَبِّ فَكَلَّمَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ وَ الْعِلَاقَةُ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَشَدَّ كَانَ فِرَاقُهُ أَصْعَبَ قَالَ الشَّاعِرُ:

يَقُولُونَ أَنَّ الْمَوْتَ صَعْبٌ عَلَى الْفَتَى مَفَارِقَةُ الْأَحْبَابِ وَاللَّهُ أَصْعَبُ.

وَ لِذَلِكَ يَكُونُ الْمَوْتُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا صَعْبًا لِأَنَّهُمْ يَحْبُونَ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفَهَا حَبًّا شَدِيدًا وَ الْمَوْتُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْفِرَاقُ وَ أَنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ سَبَبُهُ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا أَيْ أَخْرِجُوا حُبَّ الدُّنْيَا عَنْ قُلُوبِكُمْ قَبْلَ الْمَوْتِ فَقَوْلُ يَعْقُوبَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ مُشْعِرٌ بِكَمَالِ عِلَاقَتِهِ وَ مَحَبَّتِهِ لِيُوسُفَ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ فِرَاقَ الْأَحَبَّةِ يُوجِبُ الْحُزْنَ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ عَلَى يُوسُفَ مِنَ الذِّئْبِ أَنْ غَفَلُوا عَنْهُ بِرَعِيهِمْ وَ لَعِبِهِمْ أَوْ يَقْلَةً

إهتمامهم بحفظه و عنايتهم فيأكله الذئب و يحزن عليه الحزن المؤبد قيل و خصّ الذئب لأنه كان السَّع الغالب لصغر يوسف فخاف عليه هذا السَّع الحقيقير و كان تنبيهاً على خوفه عليه ما هو أعظم إفتراضاً قال الشاعر:

والذئب أخشاه إن مررتُ به وحدي وأخشى الرياح والمطر
و أنت ترى أن يعقوب بقوله هذا لقنَّهم ما سقولون له من العذر في المستقبل اذا جاءوا ليس معهم يوسف فلقنوا ذلك و جعلوه عدة للجواب و من المحتمل أن يعقوب لو لم يقل لهم هذا لم يعلموا ما يقولون في الجواب و لكن اذا جاء القدر عمي البصر فقال ما قال و وقع ما وقع و هكذا قوله: وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ.

قال بعض المفسرين في وجه تخصيصه الذئب بالذكر دون غيره من السَّع أن يعقوب رأى في المنام كآته على رأس جبل و يوسف في صحراء فهجم عليه أحد عشر ذئباً فغاب يوسف بينهم و لذا حذرهم من أكل الذئب و مع ذلك فقد دفعه الى إخوته.

أقول ما ذكره لا يعتمد عليه لأن رؤيا الأنبياء من الرؤيا الصالحة و لو كان الأمر على ما ذكره فكيف دفعه الى إخوته و الحق أنه جرى على لسانه ما جرى لغلبة القضاء على الفكر.

قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ

لما قال يعقوب لهم و أخاف أن يأكله الذئب، قالوا في جواب أبيهم لئن أكله الذئب و نحن عصبه أي جماعة إنا إذا لخاسرون أي هالكون ضعناً و خوراً و عجزاً و اللآم في لئن أكله الذئب لآم القسم فكأنهم أقسموا على ما قالوه و قيل معناه مغبونون بترك حرمة الوالد و الأخ و أمّا إقتصروا في جواب أبيهم على الثاني و هو أكل الذئب و لم يجيبوا عن الإعتذار الأول و هو قوله: لَيَحْزُنُنِيَّ

نبأ القراء في تفسير القرآن

جزء ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

لأنَّ السَّبَبَ القَوِيَّ في المَنعِ هو أَكْلُ الذَّنْبِ دونَ الحزنِ لِقصرِ مَدَّتِهِ بِناءِ عَلى أَنَّهُم يأتونَ بِهِ عَن قَريبٍ.

قالَ بعضُهُم لا يَنبغي لِلرَّجُلِ أن يَلقَنَ الخِصَمَ الحِجَّةَ لأنَّ إِخوةَ يُوسُفَ كانوا لا يَعلمونَ أنَّ الذَّنْبَ يَأْكُلُ النَّاسَ و في الحَديثِ البلاءُ موَكَّلٌ بِاللُّطْفِ.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ

الجوابُ مَحذوفٌ أي فَعَلُوا بِهِ مِنَ الأَذَى ما فَعَلُوا، قِيلَ أَنَّ يَعْقوبَ لَمَّا رَأَى إِحْراحَ إِخوةِ يوسُفَ في خُروجهِ مَعَهُم إلى الصَّحراءِ و مبالغَتِهِم بِالْعَهْدِ و الِيمينِ و رَأَى أَيْضاً مِيلَ يوسُفَ إلى التَّفَرُّجِ و التَّنَزُّهِ رَضِيَ بِالْقَضَاءِ فَأَذَنَ و أَمَرَ أن يَغسَلَ بَدَنَ يوسُفَ في طَسِيطٍ كانَ أَتى بِهِ جَبْرِئِيلُ إلى إِبْراهيمَ حينَ مَجيئِ الفِداءِ فَأَجْرَى فِيهِ دَمَ الكَبِشِ، و أن يَرجِلَ شَعْرَهُ و يَدَهْنَ بَدَنَهُ إِسماعِيلُ الَّذِي جاءَ بِهِ جَبْرِئِيلُ مِنَ الجَنَّةِ و أن يَكْحَلَ فَعَلُوا و يَروى أَنَّ إِبْراهيمَ حينَ أَلْقَى في النَّارِ و جَرَّدَ عَن ثِيابِهِ أَتاهُ جَبْرِئِيلُ بِقَمِيصٍ مِّنَ حَرِيرِ الجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ إِياهُ فَدَفَعَهُ إِبْراهيمَ إلى إِسْحاقَ و إِسْحاقَ إلى يَعْقوبَ فَجَعَلَهُ يَعْقوبَ في تِيميَّةَ و عَلَّقَهَا في عَنقِ يوسُفَ فَلَمَّا خَرَجُوا مِّنَ عِندِ يَعْقوبَ شَيَّعَهُم إلى شَجَرَةِ الوِداعِ و هِيَ شَجَرَةُ كانَتِ خارِجَةً مِنَ البَلَدِ فَأَخَذَ يوسُفَ و ضَمَّهُ إلى صَدْرِهِ و بَكَى بَكاً شَدِيداً فَقَالَ يوسُفَ يا أَبَتُ ما أَبْكَاكِ و ما سَبَبُهُ فَقَالَ يَعْقوبُ يا بَنِيَّ إِنِّي أَشَمُّ رَائحَةٍ الغَمِّ بِسَبَبِ ذَهَابِكَ و فِراقِكَ و عَلى أَيِّ حَالٍ لا تَنسانِي فَأَنِّي لا أُنْساكَ ثُمَّ أَوْحَى إلى إِخوةِ يوسُفَ أن يَحْفَظُوهُ و يَرقُبُوهُ و هُم جَعَلُوا يَحْمِلُونَهُ عَلى عِواثِقِهِم إِكراماً لَهُ و سُروراً بِهِ فَذَهَبُوا بِهِ و كانَ يَعْقوبُ يَنظُرُ إِلَيْهِم و هُوَ يَبْكِي إلى أنْ غابُوا و رَجَعَ يَعْقوبُ إلى مَكانِهِ فَلَمَّا بَعَدُوا بِهِ عَنِ العِيونِ تَرَكَوا وِصاياَ أَبيهِم فَأَلْقَوْهُ عَلى الأَرْضِ و قالوا يا صاحِبَ الرُّؤْيا الكاذِبَةُ أَيْنَ الكِواكِبُ الَّتِي رَأَيْتَهُم لَكَ ساجِدِينَ حَتَّى يَخْلُصُوكَ مِّنْ أَيْدِينا فَجَعَلُوا يُوذُونَهُ و يَضْرِبُونَهُ و كَلَّمَا لَجَأَ إلى واحِدٍ مِنْهُم ضَرَبَهُ و لا يَزِدُّادُونَ عَلَيهِ إِلَّا غِلْظَةً و خَنَقاً و هُوَ يَبْكِي بَكاً

شديداً وينادي يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيّعوا وصيتك لو تعلم ما يصنع بابنك و ما فعل به أولاد الإماء و هو يتضرّع و يبكي و هم يجزّونه على الأرض و يضربونه و هو مع ذلك عطشان جائع و كان الأمر على هذا المنوال حتّى يشرف على الهلاك فأخذه روبيل و جلد به الأرض و وثب على صدره و أراد قتله و لوى عنقه ليكسرها فنادى يوسف يا يهودا و كان أرفقهم به، إنّ الله وحل بيني و بين من يريد قتلي فأخذته رقّة و رحمةً فقال يهودا ألستم قد أعطيتموني موتاً أن لا تقتلوه قالوا بلى قال أدلكم ما هو خير لكم من القتل ألقوه في الجبّ فسكن غضبهم و قالوا نفعل كما قال تعالى: **وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ** فعزموا على إلقاء يوسف في قعر الجبّ و كان على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بكنعان التي هي من نواحي الأردن حضره شدّاد حين عمّر بلاد الأردن و كان أعلاه ضيقاً و أسفله واسعاً فأثّوا به الى رأس البئر فتعلّق بشياهم فنزعوها من يديه فدّلوه فيها بحبلٍ مربوط على وسطه فتعلّق بشفيرها فربطوا يديه و نزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطّخه بدم كذب إحتيالاً لأبيه فقال يا إخوتاه ردّوا إليّ قميصي أتواري به في حياتي و يكون كفناً بعد مماتي فلم يفعلوا فلمّا بلغ نصفها قطعوا الحبل و ألقوه ليموت و كان في البئر ماء فسقط فيه ثمّ أوى الى الصّخرة بجانب البئر فقام عليها و هو يبكي فنادوه و ظنّ أنّها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرداوا أن يرضخوه فمنعهم يهودا فقال الله تعالى أدرك عبيد جبرئيل فجاء جبرئيل و أدركه قبل أن يصل الى قعر البئر و أجلسه على صخرة كانت في البئر و أشبعه من طعام الجنّة و شربها قالوا و ألقى في الجبّ و هو ابن ثنتي عشرة سنة و لقى أباه بعد ثمانين سنة و قيل أربعين سنة و قيل كان ابن سبع عشرة سنة و قيل ابن ثمانية عشرة سنة.

وَاللَّهُ
يَعْلَمُ
الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ

جزء ١٢

وَاللَّهُ
يَعْلَمُ
الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ

و روي أنّ هوام البئر قال بعضها لبعض لا تخرجن من مساكنكنّ فإنّ نبياً من

الأنبياء نزل بساحتكَ فَإِنْجَحِرْنَ إِلَّا الْأَفْعَى فَأَتَاهَا قَصَدَتْ يَوْسُفَ فَصَاحَ بِهَا
جَبْرِئِيلُ فَصَمَتْ وَبَقِيَ الصَّمَمُ فِي نَسْلِهَا وَلَمَّا أَلْقَى فِي الْجَبِّ قَالَ يَا شَاهِدًا
غَيْرَ غَائِبٍ وَيَا قَرِيبًا غَيْرَ بَعِيدٍ وَيَا غَالِبًا غَيْرَ مَغْلُوبٍ إَجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي فَرْجًا وَ
مَخْرَجًا.

و روي إَجْعَلْ لِي فَرْجًا مِمَّا أَنَا فِيهِ فَمَا بَاتَ فِيهِ وَقِيلَ خَرَجَ مِنْ سَاعَتِهِ بَعْدَ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَ عَلَّمَ جَبْرِئِيلُ يَوْسُفَ هَذَا الدُّعَاءَ فِي الْبَثْرِ «اللَّهُمَّ يَا كَاشِفَ كُلِّ كَرْبَةٍ وَ
يَا مُجِيبَ كُلِّ دُعَاةٍ وَ يَا جَابِرَ كُلِّ كَسِيرٍ وَ يَا مَسِّرَ كُلِّ عَسِيرٍ وَ يَا صَاحِبَ كُلِّ
غَرِيبٍ وَ يَا مُؤَنِّسَ كُلِّ وَحِيدٍ يَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ لِي فَرْجًا وَ
مَخْرَجًا وَ أَنْ تَقْذِفَ حَبَّكَ فِي قَلْبِي حَتَّى لَا يَكُونَ لِي هَمٌّ وَ لَا ذِكْرٌ غَيْرُكَ وَ أَنْ
تَحْفَظَنِي وَ تَرْحَمَنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِ هِمِّ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ قَالُوا هَذَا الْوَحْيُ
وَ حَيِّ النَّبُوءَةِ أَيْ أَوْحَيْنَا إِلَى يَوْسُفَ بِالنَّبُوءَةِ وَ بَشَّرْنَاهُ بِهَا فَهُوَ تَبَشِيرٌ لَهُ بِمَا يُؤَلِّهِ
أَمْرُهُ وَ إِزَالَةٌ لَوْحِشَتِهِ وَ كَانَ وَحْيُ نَبُوءَةٍ وَ رِسَالَةٍ وَ قَدْ صَحَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى
إِلَى يَحْيَى وَ عِيسَى بِهَا قَبْلَ إِدْرَاكِهِمَا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ فَتَحَ بَابَ الْوَلَايَةِ
الْخَاصَّةِ لِبَعْضِ الْأَحَادِ فِي صِغَرِهِمْ فَأَمَرَ الْوَلَايَةَ وَ النَّبُوءَةَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْبُلُوغِ وَ
عَلَى الْأَرْبَعِينَ وَ إِنْ اسْتَبْنَأَ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَ قَوْلُهُ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ، أَيْ لَتَحْدِثَنَّ
إِخْوَتَكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِأَمْرِ هِمِّ هَذَا أَيْ بِمَا فَعَلُوا بِكَ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنْ مَا
فَعَلُوا بِكَ لِحَسَدِهِمْ كَانَ عَلَى ضَرَرِهِمْ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ
بَأَنَّكَ يَوْسُفَ لَتَبَايِنَ حَالُكَ هَذِهِ وَحَالُكَ يَوْمَئِذٍ لَعَلُّو شَأْنُكَ وَ كِبَرِيَاءَ سُلْطَانِكَ وَ
بَعْدَ حَالِكَ عَنْ أَوْهَامِهِمْ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ مِمْتَارِينَ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ
مَنْكُرُونَ دَعَا بِالصَّوَاعِ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ ثُمَّ نَقَرَهُ فَطُنَّ فَقَالَ أَنَّهُ لِيُخْبِرَنِي هَذَا
الْجَامُ أَنَّهُ كَانَ أَخٌ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ يَقَالُ لَهُ يَوْسُفُ وَ كَانَ يَدْنِيهِ دُونَكُمْ وَ أَنَّكَ
إِنْ طَلَقْتُمْ بِهِ وَ أَلْقَيْتُمُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجَبِّ وَ قَلْتُمْ لِأَبِيكُمْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ.

قال بعضهم إبتلى أبوه بفراقه لما في الخبر أنه ذبح جدياً بين يدي أمه فلم يرض الله تعالى ذلك منه و أرى دماً بدم و فرقة بفرقة لعظمة إحترام شأن النبوة و من ذلك المقام حسنات الأبرار سيئات المقرّين.

و قال بعضهم إستطعمه يوماً فقير فما إهتمّ بإطعامه فإنصرف الفقير حزناً.
و قال بعضهم لما ولد يوسف إشتري يعقوب له ظئراً و كان لها ابنٌ رضيع فباع إبنها تكثير اللبن على يوسف فبكت و تضرّعت و قالت يارب أن يعقوب فرّق بيني و بين ولدي فرّق بينه و بين ولده يوسف فإستجاب الله دعاءها فلم يصل يعقوب الى يوسف إلا بعد أن لقيت تلك الجارية إبنها و قيل غير ذلك.

و أنا أقول و مثل هذا و أن كان بعيداً من الأنبياء عليهم السّلام إلا أن الله تعالى اذا قضى أمراً فلا مردّ له و حيث أن الدّنيا دارٌ بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة كان أقرب الى الله في مقام العبوديّة فهو أقرب الى البلاء و حيث أن الأنبياء في رأس المقرّين و أقرب الموجودات الى ربّ العالمين لا محالة يكون إبتلاءهم أكثر و مصائبهم أشدّ و أوفر و من المعلوم أن الدّنيا دار الأسباب أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها و أن كانت الأسباب أيضاً تحت قدرته و إرادته و على هذا لا يبعد أن تكون مصائب الأنبياء و آلامهم و إبتلائهم مسببةً عن أسبابها و ما نحن فيه أيضاً من هذا القبيل.

و أما أن النّبي كيف يغفل عنه فالوجه فيه هو أنّه اذا جاء القدر عمي البصر و هو أمرٌ معقول لا إشكال فيه كما نقل أن يوسف أخذ يوماً مرأتاً فنظر الى صورته فأعجبه حسنه و بهاءه فقال لو كنت عبداً فباعوني لما وجد لي ثمن فأبتلى بالعبوديّة و بيع بثمانٍ بخس و كان ذلك سبب فراقه عن أبيه والله أعلم بحقائق الأمور.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثالث

وَ جَاءَ وَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

أي جاءوا أباهم آخر النهار، سيكون، حال أي متباكين أي جعلوا أنفسهم بصورة البكاكين لا أنهم في الحقيقة يبكون.
روي أن يعقوب لما سمع فزع وقال ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء قالو الأمر أعظم قال فما هو وأين يوسف.

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ

متسابقين في العدو أو الرمي وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا من الثياب و الأزواد و غيرهما فَأَنَّ المتاع في اللغة كل ما أنتفع به و أصله النفع الحاضراً سَمَّ من متع كالسَّلام من سَلِمَ فَأَكَلَهُ الذُّبُّ عقيب ذلك من غير مَضِي زمانٍ يعتاد فيه التَّفقد و التَّعهد فبكى يعقوب و صاح و خَرَّ مغشياً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرَّك دوه فلم يجيب و وضع يهودا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفسه و لا تحرَّك له عرق فقال ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا و قتلنا أبانا فلم يبق إلا يبرد السَّحر.

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ أي و ما أنت بمصدقٍ لنا الآن في قولنا أكله الذُّبُّ و لو كُنَّا صادقين في الواقع لما غلب عليك من تهمتنا و كراحتنا في يوسف و إِنَّا نرتاد له الغوائل و نكيد له المكائد و أوهموا بقولهم: وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ في أكل الذُّبُّ يوسف روي أنهم أخذوا صخلةً أو جدياً فذبحوه و لَطَّخُوا قميص يوسف بدمه و قالوا ليعقوب هذا قميص يوسف فأخذه و لَطَّخَ به وجهه و بكى ثم تأمله فلم ير خرقاً و لا أرتاب فاستدل بذلك على خلاف ما زعموا و قال لهم متى كان الذُّبُّ حليماً يأكل يوسف و لا يخرق قميصه.

و قيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلاً ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذُّبُّ كما قال تعالى:

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

أي قال لهم يعقوب بعد أن جاءوا على قميصه بدم كذب، ليس الأمر كذلك أي لم يأكله الذئب بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أي زَيَّنَتْ و سَهَّلَتْ و التَّسْوِيل تقدير شيء في النفس مع الطَّمَع في إتمامه.

و قال الأزهري كان التَّسْوِيل تفعيل من سؤال الأشياء وهي الأُمْنِيَّة الَّتِي يطلبها فَيَزَيِّنْ لَطالِبها الباطل و غيره و قوله أمراً، فهو مفعول لقوله: سَوَّلَتْ و التَّقْدِير سَوَّلَتْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا لَكُمْ و هو أمرٌ منكر لا يوصف و لا يعرف، فصنعتموه يوسف إستدل يعقوب على أَنَّهُمْ فعلوا به ما أرادوا و أَنَّهُمْ كاذبون، بشيئين:

أحدهما: ما عرف من حسدهم الشديد.

ثانيهما: بسلامة القميص حيث لم يكن فيه خرق فقوله: بَلْ سَوَّلَتْ رَدَّ لقولهم أكله الذئب و بل، للإعراض عما قبله و إثبات ما بعده على سبيل التَّدَارُك نحو جاء زيدٌ بل عمروٌ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي فأمرني صبرٌ جميلٌ فحذف المبتدأ و قيل بل حذف الخبر أي فصبرٌ جميلٌ عندي و كيف كان معناه لا شكواي فيه الى الخلق بل شكواي الى الله تعالى فَأَنَّ الله تعالى: أَلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ أي أستعين به و أستمد منه على إظهار حال ما تصفون من شأن يوسف كَأَنَّهُ علم منهم الكذب هذا على الرَّفْع.

و أما على النَّصْب كما هو قراءة بعض القراء فالتقدير أَنَّ يعقوب رجع الى مخاطبة نفسه و قال لها أصبري صبراً جميلاً و هو كما ترى من قبيل الأكل من القفا وفي الحديث أَنَّ الصَّبر الجميل هو الَّذِي لا شكوى فيه الى الخلق.

و جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ

قيل كانوا من مدين قاصدين الى مصر و قيل سَيَّارة في الطَّرِيق أخطأوه
 فنزلوا قريباً من الجبِّ و كان في قفره بعيدة من العمران لم تَكُنْ إِلَّا لِلرَّعَاةِ و
 فيهم مالك بن دعر الخزاعي فأرسلوه ليطلب لهم الماء، و الوارد الَّذِي يرد الماء
 ليستسقي للقوم و إضافة الوارد الى الضَّمير كإضافته في قولهم ألقيت كاسبهم و
 ليست إضافة الى المفعول بل المعنى الَّذِي يرد عليهم و الَّذِي يكسب لهم و
 الظَّاهر أَنَّ الوارد واحد و حمل على معنى السَّيَّارة ولو حمل على اللَّفْظ لكان
 الترتيب فأرسلت واردها فأدلى دلوه أي أرسلها ليستسقي الماء، فلمَّا أدلى
 دلوه للماء أوحى الى يوسف بالتعلُّق بالحبل فلمَّا خرج يُوسف من البئر اذا هو
 بـغلام أحسن ما يكون و قد كان أعطى شطر الحسن.

قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ أَي
 قال مبشراً نفسه و أصحابه يا بشرى هذا غلام قيل هو أي، بُشْرَى إسم
 صاحبٍ له ناداه ليعينه على إخراجه و لنعم ما قيل بالفارسيَّة:

چو آن ماه جهان آرا برآمد ز جانش بانگ یا بشری برآمد
 بشارت کز چنین تاریک چاهی بر آمد پس جهان افروز ماهی

نعم ماء الحياة لا يُوجد إِلَّا في الظُّلُمات كما أَنَّ العلم الإلهي لا يوجد في
 ظلمات هذا القلب و القلب و قوله و أسرَّوه، أي أخفاه الوارد و أصحابه عن
 بقيَّة الرِّفْقَة لئلا يطالبوا بالشَّرْكة فيه، بضاعةً، حال أي حال كون يوسف بضاعةً
 أي متاعاً للتَّجَارَة فأنَّها قطعة من المال واللَّه عَلِيمٌ بما يعملون، لم يخف عليه
 إسرارهم.

و قال ابن عَبَّاس الضَّمير في و أسرَّوه و شروه يرجع الى الإخوة لأنَّهم قالوا
 للرِّفْقَة هذا غلامٌ قد أبق لنا فإشتروه مِنَّا و سكت يوسف مخافة أن يقتلوه و
 ذلك لما روي أَنَّ بعضهم رجع الى الجبِّ ليتحقَّقوا أمر يوسف و يقفوا على
 الحقيقة من فقدته فلمَّا علموا أَنَّ الوارد قد أخذوه جاءوهم و قالوا تلك المقالة

ثُمَّ قَالَ وَاللَّهِ عَلِيمٌ بِعَمَلِ إِخْوَةِ يُوسُفَ بِأَبْيَهُمْ وَأَخْيَهُمْ مِنْ سُوءِ الصُّنْعِ وَفِي ذَلِكَ أَعْظَمُ تَذْكَارٍ بِمَا فَعَلُوا بِيُوسُفَ.

وَقِيلَ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي الْجَبِّ أَنْ لَا يَطْلُعَ أَبَاهُ وَلَا غَيْرُهُ عَلَى حَالِهِ لِحِكْمَةٍ أَرَادَ امْضَاهَا وَظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا جَرَى لَهُ مِنْ جَعَلِهِ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَأُحْجِ إِخْوَتَهُ إِلَيْهِ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَمَا جَرَى مُجْرَى ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مَكْنُونًا فِي الْقَدْرِ.

أَقُولُ قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِ عِلَلِ الشَّرَائِعِ فِي الْبَابِ حَدِيثًا لَا بِأَسْ بِنَقْلِهِ تَوْضِيحًا لِلْمَقَامِ وَعِبْرَةً لِمَنْ إِيْتَبَرَ بِهِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ عَطِيَّةَ عَنِ الثَّمَالِيِّ قَالَ صَلَّيْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ صَلَاةَ الْفَجْرِ بِالْمَدِينَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَسَبَّحْتَهُ نَزَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَنَا مَعَهُ فِدَعَا مَوْلَاهُ لَهُ تَسْمِيَّ سَكِينَةَ فَقَالَ لَهَا لَا يَعْبرُ عَلَى أَبِي سَائِلٍ إِلَّا أَطْعَمْتُمُوهُ فَأَنَّ الْيَوْمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قُلْتُ لَهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَسْأَلُ مُسْتَحَقٌّ فَقَالَ يَا ثَابِتُ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَنْ يَسْأَلُنَا مُحَقًّا فَلَا نَطْعُمُهُ وَنَزُدُهُ فَيَنْزِلُ بِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ مَا نَزَلَ بِبِعْقُوبَ وَأَلَهُ أَطْعَمُوهُمْ أَطْعَمُوهُمْ أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ يَذْبَحُ كُلَّ يَوْمٍ كَبْشًا فَيَتَصَدَّقُ مِنْهُ وَيَأْكُلُ هُوَ وَعِيَالُهُ وَأَنَّ سَائِلًا مُؤْمِنًا صَوَّامًا مُحَقًّا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ وَكَانَ مُجْتَازًا غَرِيبًا إِيْتَرَ عَلَى بَابِ يَعْقُوبَ عَشِيَّةَ جُمُعَةٍ عِنْدَ أَنْ إِفْطَارَهُ يَهْتَفُ عَلَى بَابِهِ أَطْعَمُوا السَّائِلَ الْمُجْتَازَ الْغَرِيبَ الْجَائِعَ مِنْ فَضْلِ طَعَامِكُمْ يَهْتَفُ عَلَى بَابِهِ ذَلِكَ مَرَارًا وَهُمْ يَسْمَعُونَهُ وَقَدْ جَهِلُوا حَقَّهُ وَلَمْ يَصَدِّقُوا قَوْلَهُ فَلَمَّا يَتَسَّ أَنْ يَطْعَمُوهُ وَغَشِيَهُ اللَّيْلُ إِسْتَرْجَعَ وَاسْتَعْبَرَ وَشَكَى جُوعَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَاتَ طَاوِيًا وَأَصْبَحَ صَائِمًا جَائِعًا صَابِرًا حَامِدًا لِلَّهِ وَبَاتَ يَعْقُوبَ وَأَلَهُ يَعْقُوبَ شَبَاعًا بَطَانًا وَأَصْبَحُوا وَعِنْدَهُمْ فَضْلَةٌ مِنْ طَعَامِهِمْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى يَعْقُوبَ فِي صَبِيحَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَقَدْ أَذَلَّتْ يَا يَعْقُوبَ عَبْدِي

ذَلَّةً إِسْتَحْدَثَتْ بِهَا غَضَبِي وَإِسْتَوْجِبْتَ بِهَا أَدْبِي وَنَزُولَ عِقُوبَتِي وَ
 بِلَوَايَ عَلَيْكَ وَ عَلَى وَلَدِكَ يَا يَعْقُوبُ أَنَّ أَحَبَّ أَنْبِيَائِي إِلَيَّ وَ أَكْرَمَهُمْ
 عَلَيَّ مِنْ رَحِمِ مَسَاكِينِ عِبَادِيَةِ وَ قَرَّبَهُمْ إِلَيَّ وَ أَطْعَمَهُمْ وَ كَانَ لَهُمْ
 أَوْىُّ وَ مُلْجَأٌ يَا يَعْقُوبُ أَمَا رَحِمْتَ ذَمِيلَ عَبْدِي الْمُجْتَهِدِ فِي عِبَادَتِهِ
 الْقَانِعِ بِالْيُسِيرِ مِنْ ظَاهِرِ الدُّنْيَا عِشَاءَ أَمْسٍ لَمَّا أَعْتَرَبَكَ عَنْدَ أَوَانَ
 إِفْطَارِهِ وَهَتَفَ بِكُمْ أَطْعَمُوا السَّائِلَ الْغَرِيبَ الْمُجْتَازَ الْقَانِعَ فَلَمْ
 تَطْعُمُوهُ شَيْئاً فَاسْتَرْجِعْ وَ اسْتَعْبِرْ وَ شَكَى وَبَاتَ طَاوِيّاً حَامِداً لِي
 صَابِراً وَ أَصْبَحَ صَائِماً وَ أَنْتَ يَا يَعْقُوبُ وَ وَلَدُكَ شَبَاعاً وَ أَصْبَحَتْ
 وَ عَنْدَكُمْ فَضْلَةٌ مِنْ طَعَامِكُمْ أَوْ مَا عَلِمْتَ يَا يَعْقُوبُ أَنَّ الْعِقُوبَةَ وَ
 الْبَلَايَ إِلَى أَوْلِيَائِي أَسْرَعَ مِنْهَا إِلَى أَعْدَائِي وَ ذَلِكَ لِحَسَنِ النَّظَرِ مِنِّي
 لِأَوْلِيَائِي وَ اسْتِدْرَاجٍ مِنِّي لِأَعْدَائِي أَمَا وَ عَزَّتِي لِأَنْزَلُ بِكَ بِلَوَايَ وَ
 لِأَجْعَلَنَّكَ وَ وَلَدَكَ غَرَضاً لِمَصَائِبِي وَ لِأُؤَدِّبَنَّكَ بِعِقُوبَتِي فَاسْتَعْدُوا
 الْبَلَاءَ وَ أَرْضُوا بِقَضَائِي وَ أَصْبِرُوا لِلْمَصَائِبِ فَقُلْتُ لِعَلِّي بَنَ
 الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلْتُ فِدَاكَ مَتَى رَأَى يُوسُفُ الرُّؤْيَا فَقَالَ فِي تِلْكَ
 اللَّيْلَةِ الَّتِي بَاتَ فِيهَا يَعْقُوبُ وَ أَلْ يَعْقُوبُ شَبَاعاً وَ بَاتَ فِيهَا ذَمِيلُ
 طَاوِيّاً جَائِعاً فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ الرُّؤْيَا وَ أَصْبَحَ وَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ
 يَعْقُوبَ فَإِغْتَمَّ يَعْقُوبُ لَمَّا سَمِعَ مِنْ يُوسُفِ الرُّؤْيَا مَعَ مَا أَوْحَى اللَّهُ
 إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ اسْتَعْدَ لِلْبَلَاءِ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ لَا تَقْصُصْ
 رُؤْيَاكَ هَذِهِ عَلَى إِخْوَتِكَ فَأَنْتَ أَخَافُ أَنْ يَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا فَلَمْ يَكْتُمْ
 يُوسُفَ رُؤْيَاهُ وَ قَصَّهَا عَلَى إِخْوَتِهِ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ
 كَانَتْ أَوَّلَ بَلَايَ نَزَلَتْ بِبِعْقُوبَ وَ أَلْ يَعْقُوبُ الْحَسَدَ لِيُوسُفَ لَمَّا
 سَمِعُوا مِنْهُ الرُّؤْيَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِشْتَدَّتْ رَقَّةُ يَعْقُوبَ عَلَى يُوسُفَ
 وَخَافَ أَنْ يَكُونَ مَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْبَلَاءِ هُوَ

في يوسف خاصّة فإشتدّت رقته عليه من بين ولده فلمّا رأى إخوة يوسف ما يصنع يعقوب بيوسف من تكرمته إياه و إيثاره إياه عليهم إشتدّ ذلك عليهم وبدا البلاء فيهم فتأمّروا فيما بينهم وقالوا أنّ يوسف وأخاه أحبّ الى أبينا ممّا ونحن عصابة الآيات الى قوله إنّني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب، فإنتزعه حذراً عليه منه أن يكون البلوى من الله على يعقوب في يوسف خاصّة لموقعه من قلبه و حبه له قال ^{النبأ} فغلبت قدرة الله وقضاه نافذ أمره في يعقوب و يوسف وإخوته فلم يقدر يعقوب على دفع البلاء عن نفسه ولا عن يوسف و ولده فدفعه اليهم و هو لذلك كاره متّوَقّع للبلاء من الله في يوسف فلمّا خرجوا من منزلهم لحقهم مسرعاً فإنتزعه من أيديهم فضّمه اليه و إعتنقه و بكى ودفعه اليهم فإنطلقوا به مسرعين مخافة أن يأخذه منهم و لا يدفعه اليهم فلمّا أيقنوا به أتوا به غيضة أشجار فقالوا نذبحه و نلقيه تحت هذه الشجرة فيأكله الذئب الليلة فقال كبيرهم لا تقتلوا يوسف، ولكن ألقيه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيّارة أن كنتم فاعلين، فإنطلقوا به الى الجبّ و ألقيه فيه و هم يظنّون أنّه يغرق فيه فلمّا صار في قعر الجبّ ناداهم يا ولد رومين إقرأوا يعقوب السّلام متّي فلمّا رأوا كلامه قال بعضهم لبعض لا تزالوا من هاهنا حتّى تعلموا أنّه قد مات فلم يزالوا بحضرته حتّى أيسوا و رجعوا الى أبيهم عشاءً فيكون قالوا يا أبانا إنّنا ذهبنا نستبق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، فلمّا سمع مقالتهم إسترجع و إستعبر و ذكر ما أوحى الله عزّ وجلّ اليه من الإستعداد للبلاء فصبر و أذعن فقال لهم، بل سوّلت أنفسكم أمراً، وما كان الله ليطعم لحم يوسف للذئب من قبل أن أرى رؤياه الصّادقة.

قال أبو حمزة ثم إنقطع حديث علي بن الحسين عليه السلام عند هذا فلما كان من الغد غدوت عليه فقلت له جعلت فداك إنك حدّثتني أمس بحديث يعقوب و ولده ثم قطعته فما كان من قصّة يوسف وإخوته بعد ذلك فقال عليه السلام أنهم لما أصبحوا قالوا إنطلقوا بنا حتّى ننظر ما حال يوسف أمات أم هو حيّ فلما إنتهوا الى الجبّ وجدوا بحضرة الجبّ سيّارة و قد أرسلوا واردهم فأدلى ثلوه اذ هو بغلام متعلّق بدلوه فقال لأصحابه يا بشرى هذا غلام فلما أخرجوه أقبل اليهم إخوة يوسف فقالوا هذا عبدنا سقط ممّا أمس في هذا الجبّ وجئنا اليوم لنخرجه فإنتزعوه من أيديهم وتّحوا به ناحية فقالوا إمّا أن تقرّ لنا أنّك عبدنا فنبيعك لبعض هذا السيّارة أو نقتلك فقال لهم يوسف لا تقتلونني وأصنعوا ما شئتم فأقبلوا به الى السيّارة فقالوا أمنكم من يشتري ممّا هذا العبد فإشتراه رجل منهم بعشرين درهماً و كان إخوته فيه من الزّاهدين و صار به من إشتراه من البدو حتّى أدخله مصر فباعه الذي إشتراه من البدو من ملك مصر و ذلك قول الله عزّ وجلّ: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ.

قال أبو حمزة فقلت لعلي بن الحسين ابن كم كان يوسف يوم ألقوه في الجبّ قال عليه السلام كان ابن تسع سنين فقلت كم كان بين منزل يعقوب يومئذٍ و بين مصر فقال عليه السلام مسرة أثنتي عشر يوماً قال عليه السلام و كان يوسف من أجمل أهل زمانه الحديث و أنما نقلنا ما نقلناه منه لما فيه من المواعظ و العبر مضافاً الى تفسير كلام الله من لسان العترة.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزّاهِدِينَ

أي و باعوا يوسف بثمانٍ بخيسٍ أي ناقصٍ و قيل ذي ظلمٍ لأنه كان حُرّاً لا يحلّ بيعه و البخس النقص من الحقّ وقوله: مَعْدُودَةٌ أي قليلة و كانوا، أي إخوة يوسف، فيه أي في يوسف من الزاهدين أي من التاركين فَأَن الزُّهد التَّرك و المقصود أَنهم كانوا جاهلين بما له عند الله من المنزلة الرفيعة فباعوه بعشرين درهماً، و قد إستفدنا من الحديث الذي مرَّ ذكره أَن إخوة يوسف باعوه بثمانٍ بخيسٍ.

و قال قتادة أَن أهل السَّيارة باعوه بثمانٍ بخيسٍ في مصر و من المعلوم أَن أهل البيت أدرى بما في البيت.

وبه قال ابن عباس و مجاهد قال بعض المفسرين في وجه ذلك أَنهم إنلقطوه و الملتقط للشئ متهاوئٌ به لا يبالي بما باعه و لأنَّه يخاف أَن يعرض له مستحقٌّ فينزعه من يده فيبيعه من أوّل مساومٍ بأوكس الثمن و يجوز أَن يكون معنى و شروه، إشتروه يعني الرِّفقة من إخوته و كانوا فيه من الزاهدين لأنهم إعتقدوا فيه أَنه أبق فخافوا أَن يخاطروا بمالهم فيه.

و يروي أم إخوته إتبعوهم يقولون إستوثقوا منه لا يَأْبَق انتهى.



وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَاتٍ بِي أَكْرَمِي
مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَ
رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ
الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ
رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ
لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ
قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ
مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ
شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ
قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ
قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ
(٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ
كِدِّكُمْ إِنْ كِيدُكُمْ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ
عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ
الْخَاطِئِينَ (٢٩)

◀ اللغة

مَثَوَاهُ بفتح الميم المكان وقيل أي موضع مقامه.
 أَشَدُّهُ وَهُوَ كمال القوة وقيل هو من ثمانية عشرة إلى ستين سنة، وقيل من
 عشرين وقيل غير ذلك ولا واحد له من لفظه مستعمل.
 هَيْتَ بفتح الهاء والتاء وقرأ ابن كثير بضم التاء وابن عامر بكسر الهاء وفتح التاء.
 قال أبو عبيدة معناه، هَلَمْ هَمَّتُ الهمَّ العزم على الفعل وقيل خطور الشيء
 بالبال وأن لم يعزم عليه.
 قَدَّتْ أي شقته طولاً والقَدْ شَقَّ الشيء طولاً.
 أَلْفَيْهَا أَلْفِي يلفي ألفاً إذا صادف.

◀ الإعراب

مِنْ مِصْرَ يجوز أن يكون متعلقاً بالفعل كقولك اشتريت من بغداد أي فيها أو
 بها و يجوز أن يكون حالاً من، الَّذِي، أو من الضمير في اشتري فيتعلق
 بمحذوف معاذَ اللَّهِ هو منصوب على المصدر لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ جواب
 لولا محذوف تقديره لَهُمْ بِهَا كَذَلِكَ في موضع رفع أي الأمر كذلك وقيل في
 موضع نصب أي نرايه كذلك مِنْ دُبُرٍ مَبْنِيٍّ على الضم لأنه قطع عن الإضافة
 والأصل دبره وقبله.

◀ التفسير

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَمَّا آتَتْهُ آكَرَمِي مَثَوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا
 أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا

الذي اشتراه من مصر من أهل السيارة هو عزيز مصر الذي كان على خزائن
 مصر وصاحب جنود الملك وإسمه قطيفر وكان يقال له العزيز قال في
 القاموس العزيز الملك لغلته على أهل مملكته ولقب من ملك مصر مع

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثاني

الإسكندرية وقيل إشتهر رجلٌ من العماليق و قد آمن بيوسف و مات في حياة يوسف و قيل هو إذ ذاك الملك بمصر و إسمه الزَّيَّان بن الوليد فدعاه يوسف الى الإيمان فأبى فإشتهر العزيز و هو ابن سبع عشرة و أقام في منزله ثلاث عشرة سنة و إستوزره الزَّيَّان ابن الوليد و هو ابن ثلاثين سنة و أتاه الله الحكمة و العلم و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنة و تَوَفَّى و هو ابن مائة و عشرين سنة، و قيل كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربع مائة سنة فرعون موسى من أولاده فرعون يوسف و قالوا في كَيْفِيَّةِ بيعه و شراؤه أَنَّهُ عرض في السُّوق و كان أجمل النَّاس فوقعت فيه مزايدة حَتَّى بلغ ثَمناً عظيماً فقبل وزنه من ذهب و من فضة و من حرير فإشتهر العزيز و هو كان صاحب الملك و خازنه و إسم إمرأته راعيل و قيل زليخا و قيل راعيل بنت رعايل و قيل زُليخا بنت تملیخا و مثواه مكان إقامته و هو كناية عن الإحسان اليه في مأكَل و مشرب و ملبس و اللّام في لإمرأته تتعلّق، بقال، فهي للتَّبليغ نحو قلت لك (لا بإشتهار) عسى أن ينفعنا فيما نحتاج اليه و يكفيننا بعض المهمّات أو تَتَّخِذه ولداً، أي نقيمه مقام الولد لأنَّ إمرأة العزيز لم يكن لها ولد منه و كان الملك عقيماً لا يولد فتفرس فيه الرشد و قال ما قال وهب و غيره لَمَّا إشتري مالك بن دعر يوسف من إخوته كتب بينه و بينهم كتاباً، هذا ما إشتري مالك بن دعر من بني يعقوب و هم فلان و فلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً و قد شرطوا له أَنَّهُ أبقي، و أَنَّهُ لا ينقلب به إلّا مقيداً مسلسلاً و أعطاهم على ذلك عهد الله قال فودَّعهم يوسف عند ذلك و جعل يقول لإخوته، حفظكم الله و إن ضيَّعتموني نصركم الله و إن خذلتُموني رحمكم الله و إن لم ترحموني قالوا فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عبيطاً لشدة هذا التَّوديع، ثم أَنهم حملوه على قتب بغير غطاء و طاء مقيداً مكبلاً مسلسلاً فمرَّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمِّه و قد كان و كُلُّ به أسود يحرسه فغفل الأسود فالقن يوسف نفسه على قبر أمِّه و جعل يمزق و يعتنق القبر و يضطرب و يقول يا أمَّاه إرفعي رأسك ترى و لك مكبلاً مقيداً مغلولاً فرَّقوا

بينى والدي فأسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته أنه أرحم
 الراحمين فتفقده الأسود على البعير فلم يره فقفا أثره فإذا هو بياض على قبر
 فتأملّه فإذا هو آياه فركضه برجله في التراب و مرّعه و ضربه ضرباً شديداً
 وجيعاً فقال له يوسف لا تفعل والله ما هربت و لا أبقت و إنما مررت بقبر أمي
 فأحببت أن أودّعها و لن أرجع إلى ما تكرهون فقال الأسود الله أنك بعد سوء
 تدعوا أباك مرّة و أمك أخرى فهلاً كان هذا عند مواليك فرفع يوسف يديه إلى
 السماء قال اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق
 آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تغفر لي و ترحمني فصّجت الملائكة في
 السماء و نزل جبرائيل فقال له يا يوسف غصّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة
 السماء أتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها قال ^{إسرائيل} تثبت يا جبرائيل
 فإن الله حلیم لا يعجل فضرب الأرض بجناحيه فأظلمت و إرتفع الغبار و
 كسفت الشمس و بقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً فقال رئيس القافلة من
 أحدث منكم جدثاً فأني أسافر منذ كيت و كيت ما أصابني قطّ مثل هذا، فقال
 الأسود أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء و تكلم بكلمة لا
 أعرفه و لا أشك أنه دعا علينا فقال له ما ردت إلا هلاكنا إتنا به فأتاه فقال له يا
 غلام لقد لطمتك فجاءنا ما رأيت فأن كنت تقتصّ فأقتصّ ممّن شئت و أن كنت
 تغفو فهو الظن بك قال عفوت رجاء أن يعفو الله عني فأنجلت الغبرة و ظهرت
 الشمس و أضاءت مشارق الأرض و مغاربها و جعل التاجر يزوره بالعادة و
 العشي و يكرمه حتّى وصل إلى مصر فأغتسل في نيلها و أذهب الله عنه كآبة
 السفر و ردّ عليه جماله و دخل به البلد نهراً فسطع نوره على الجدران و
 أوقفوه للبيع و الشراء فاشتراه قطفير وزير الملك انتهى.

وَكَذَلِكَ مَكَانُ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ
 اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الكاف في موضع
 نصب أي كما أنقذناه من إخوته و من الجبّ فكذلك مكانه.

قيل في معناه أي عطفنا عليه قلب الملك الذي إشتراه حتّى تمكّن من الأمر و النّهي في البلد الّذي الملك مستول عليه.

و قال بعض المفسّرين في وجه التّشبيه أنّه تعالى شبه التّمكّن له في الأرض بالتّوفيق للأسباب الّتي صار بها إلى ما صار بالنّجاة إلى الهلاك و الإخراج إلى أجلّ حال.

أقول و يستفاد من هذا الكلام أنّ الوصول إلى المقامات العالية لا يمكن إلاّ بسبب تحمّل المشقّات و الألام الّتي قد يكرهها الإنسان في بادئ التّظريعلم أنّها من أسباب الخير:

قال الله تعالى: **فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ^(١).

قال الله تعالى: **وَ عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ^(٢).

فالأحسن أن يفوض العبد أمره إلى الله و يتوكّل عليه في جميع أموره و يقطع العلائق و الإعتماد عمّا سواه فإنّ الله تعالى لا يريد بعبده إلاّ خيراً و من يتوكّل على الله فهو حسبه أنظر إلى الله تعالى كيف أنقذ يوسف من إخوته و هم أرادوا قتله فقلّب قلوبهم عمّا أرادوا من القتل حتّى ألغوه في الجبّ و كيف أنجاه الله من خطرات الجبّ بسبب مرور السيّارة على طريق الجبّ و إدلاء المدلى دلوّه و تعلّق يوسف به وهكذا إلى أن وصل مصر فجعله في بيت الملك و هو بيت العزّة و المكنة و عطف قلب الملك عليه إلى أن تمكّن في الأرض ثمّ علّمه من تأويل الأحاديث كما قال: **وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** و هو كناية عن علمه بالمغيبات بحسب ما أعطاه الله فجّمع يوسف بين الملك و العلم و أيّ مقام أرفع منه و من يقدر على إعطاء هذا المقام غير الله تعالى و لذلك قال: **وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ** أي أنّه إذا أراد شيئاً لا يقدر أحدٌ على

منعه و لكن أكثر النَّاس لا يعلمون، أنَّ أزمّة الامور بيده و الكلّ مستمّدة من مده
فأنّه إذا أراد بعيدٍ خيراً هياً له أسبابه على رغم أنوف الحاسدين.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

أي و لما بلغ يوسف أشدّه، و هو كمال القوة النَّظريّة و العمليّة و قيل هو ما
بين ثمانين عشرة سنة الى ثلاثين و قيل معناه إشتداد جسمه و قوّته و إستحكام
عقله و تمييزه و هو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين و الأربعين و قد ضبطوا مراتب
أعمار النَّاس في أربع:

الأولى: سنّ النّشوء و النّماء و نهايته الى ثلاثين سنة.

الثانية: سنّ الوقوف و هو سنّ الشّباب و نهايته الى أن تتمّ أربعون سنة من
عمره.

الثالثة: سنّ الكهولة و هو سنّ الإنحطاط اليسير الخفي و تمامه الى ستّين
سنة.

الرابعة: سنّ الشّيخوخة و هو سنّ الإنحطاط العظيم الظّاهر و تمامه عند
المشهور الى مائة و عشرين سنة والأشدّ غاية الوصول الى الفطرة الأولى
بالتّجرد عن غواشي الخلقة الّتي يسمّيها الصّوفيّة بمقام الفتوة الّتي قيل في
تعريفها هي السّخاء و الكرم و في إصطلاح أهل الحقيقة هي أن تؤثر الخلق
على نفسك بالدّنيا و الآخرة.

قالوا و الأشدّ جمع لا واحد له من لفظه مستعمل.

و قيل أنّه واحد على بناء الجّمع و قوله: آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا أي كمالاً في
العلم و العمل إستعدّ به الحكم بين النَّاس بالحقّ و رئاستهم
و قال بعض العرفاء من جملة الحكم الّذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه
حتّى غلب شهوته فإمتنع عمّا راودته زليخا عن نفسه و من لا حكم له على
نفسه لم ينفذ حكمه على غيره.

قال بعض المفسرين أنَّ الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ومنعها ممَّا يشينها فالمراد من الحكم الحكمة العمليَّة والمراد من العلم الحكمة النَّظرية و أنَّما قدَّم الحكمة العمليَّة على الحكمة النَّظرية العلميَّة لأنَّ أصحاب الرِّياضات يشتغلون بالحكمة العمليَّة ثمَّ يتَرَقُّون منها الى الحكمة النَّظرية.

و أمَّا أصحاب الأفكار العقليَّة والأنظار الروحانيَّة فأنَّهم يصلون الى الحكمة النَّظرية أولاً ثمَّ ينزلون منها الى الحكمة العمليَّة وطريقة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الأوَّلُ لأنَّه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات فهذا السَّبب قال: **أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** انتهى كلامه.

أقول ما ذكره وحقَّه بزعمه ليس على ما ينبغي و ذلك لأنَّ المراد بالحكم ليس الحكمة العمليَّة بل المراد به معناه المشهور وهو أن تقضي بأنَّه كذا فأن كان مطابقاً للحقِّ يسمَّى الحاكم به حكيماً لأنَّه وضع الشَّيْء موضعه وإفليس حكيماً.

ثانياً: أنَّ الحكمة العمليَّة كانت في يوسف قبل حصول الحكمة النَّظرية كلام عارٍ عن التَّحصيل لأنَّه تعالى قال: **أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** والواو للجمع.

و أن شئت قلت هي واو المعية أي آتيناه الحكم مع العلم ولو كان الأمر كما ذكره المستدلُّ لقال آتيناه حكماً ثمَّ علماً، أليس الادباء يقولون الواو للجمع و الفاء للترتيب بإتصالٍ و أمَّا ثمَّ فهو للترتيب الانفصالي فقول المستدلُّ لو تمَّ لثمَّ في غير المقام لأنَّ الأنبياء ليس العلم والحكمة فيهم بسبب الكسب و التَّحصيل بل هما من إضافات الرِّبانيَّة في حقِّهم بخلاف غيرهم من الأشخاص وإذا كان كذلك فالمعنى أنَّ الله تعالى أفاض على قلب يوسف العلم والحكمة معاً دفعةً واحدة.

و أمَّا صبره على البلاء والمحنة فهو شئ آخر لا ربط له بما نحن بصدده ألا ترى أنَّ غيره من الأنبياء قد أعطاهم الله العلم والحكمة مع عدم إبتلاءهم بما إبتلاه:

قال الله تعالى: وَآتَيْنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيًّا^(١).

قال الله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْخُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ^(٢).

و محصل الكلام هو أَنَّ الآية الشريفة قد دلت على أَنَّ الله تعالى بعد ما بلغ يوسف أشدّه أتاها الحكم والعلم وهذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا علّة تقديم الحكم على العلم فهو ممّا لا وجه له كما إذا قال القائل جاءني زيد و عمرؤ معناه أنّهما جاءا معاً و لا يسأل عنه لم قدّم زيد على عمرو في اللفظ فلا يمكن تفسير كلام الله بهذه الوجوه الظنية الوهمية التي تركها أولى من ذكرها.

و أمّا قوله: وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ فيه إشعار بأنّ يوسف عليه السلام كان من المحسنين و من كان كذلك فهو جزاءه:

قال الله تعالى: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ^(٣).

قال الله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ^(٤).

قال الله تعالى: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(٥).

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(٦).

قال الله تعالى: سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(٧) والآيات كثيرة.

وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

١- مريم = ١٢

٢- المائدة = ٨٥

٣- البقرة = ١١٢

٤- الأنعام = ٨٤

٥- التوبة = ١٢٠

٦- الأنعام = ٨٤

٧- الصافات = ٧٩ / ٨٠

ضمير، هو، يرجع الى يوسف و قوله: **رَأَوْدَتُهُ** كناية عن زليخا لأنها هي التي كان يوسف في بيتها، يقال راود مرادة و المرادة المطالبة بأمرٍ للعمل به. و قال الرّاعِب هي المطالبة برفقٍ و هو الحقّ لأنّ مطلق المطالبة لا يعبر عنه بالمرادة إذا لم تكن على سبيل الرفق و المداراة و عليه فالمعنى طالبت امرأة العزيز يوسف برفقٍ والهاء في راودته ترجع الى يوسف.

و محصل الكلام هو أنّ امرأة العزيز دَعَتْه الى نفسها و طالبت ما تطلب النساء من الرجال لإطفاء الغريزة و أنّما لم يصرّح في الآية به تأدّباً و صوناً للكلام عن ذكر القبيح مع أنّ الكناية أبلغ من التصريح و **غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ** التّغليق إطباق الباب بما يعسر فتحه مثل أن يكون مقفلاً و أنّما قال غلقت بالتشديد لتكثير الإغلاق و المبالغة فيه فإنّ باب التّفعل يفيد التّكثير و المبالغة و قوله: **هَيْتَ لَكَ أَيُّ هَلُم**، و قيل معناه تهَيَّأت لك **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ** أي قال يوسف في جواب زليخا معاذ الله أي أعوذ عياداً بالله إن أجيب الى هذا أو أن يكون هذا أي اعتصم بالله من هذا **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** الضّمير في **إِنَّهُ** يرجع الى الله و المعنى أنّ ربّي أحسن مثواي وأنّ ربّي لا يفلح الظّالمون و اختلفوا في قوله: **أَحْسَنَ مَثْوَايَ** - معناه أنّ الملك الذي هو زوجها مالكي في الحكم و أحسن مثواي بإكرامي و بسط يدي و رفع منزلي هذا هو قول المجاهد و ابن إسحاق وعلى هذا فالضمير في قوله: **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** أعني به الهاء ضمير الشأن لا مرجع له و المراد بقوله: **رَبِّي** هو الملك الّهم إلا أن يقال أنّ الضّمير يرجع اليه و أن لم يتقدّم ذكره لفظاً إلا أنّه يتقدّم معنىً أو حكماً و هو يكفي في المقام و على هذا فيكون المعنى إنّك تطلب منّي ما تطلب و بعلك ربّي و أحسن مثواي و منزلي و أيّ ضيافية أعظم منها.

و قال بعض المفسرين الصّمير في المقامين يرجع الى الله الذي تقدّم ذكره لفظاً عند قوله: **مَعَادُ اللَّهِ** والمعنى أنّ الله تعالى ربّي أحسن مثواي أخرجني من قعر الجبّ سالماً الى أن أنزلني في بيت الملك و جعل قلبه رؤفاً عطوفاً عليّ فكيف أعصيه و أنّه لا يفلح الظّالمون و أيّ ظلم أفحش و أقبح منه و قيل أنّه لا يفلح الظّالمون حكاية أنّ يوسف قال أنّ من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي لا يفلح و لا يفوز بشيء من الثّواب **والمثوى** بفتح الميم محلّ الإقامة مع الإستقرار والذي يستفاد من الآية هو أن العبد ينبغي أن يكون شاكراً في مقام الإحسان و إذا كان الله تعالى أحسن مثواه يجب عليه الشّكر عقلاً و شرعاً لا التّمرد و العصيان و الكفران و هو من الأصول المسلّمة عند جميع العقلاء فضلاً عن الأنبياء، قيل أنّ زليخا كانت من أجمل النّساء في زمانها و كانت بنت سلطان المغرب و اسمه طيموس فرأت ذات ليلة في المنام غلاماً على أحسن ما يكون من الحسن و الجمال فسألته عنه فقال أنا عزيز مصر فلمّا إستيقضت إفتنتت بما رأت في الرّؤيا و أدّى ذلك الى تغيّر حالها و لكنّها كتّمت حالها عن الأغيار ثمّ تفتّطن من في البيت من الجوّاري و غيرها أنّ بها أمراً فقال بعض بلصّابة العينون بعضٌ بالصّابة السّحر و بعضٌ بمسّ الجنّ و بعضٌ بالعشق كما قيل:

صحّ عند النّاس إنّي عاشقٌ غير أنّ لم يعرفوا عشقي لمن

ففتّشوا عن أمرها فما وجد غير العشق و قد كان خطبها ملوك الأرض فأبت إلاّ عزيز مصر فجّهّزها أبوها بما لا يحصى من العبيد و الجوّاري و الأموال و أرسلها مع حواشيه الى جانب مصر فأستقبلها العزيز بجمع كثير في زينة عظيمة فلمّا رآته زليخا علمت أنّه ليس الذي رآته في المنام فأخذت تبكي و تتّحسّر على ما فات من المطلوب فسمعت من الهاتف لا تحزني يا زليخا فأنّ مقصودك إنّما يحصل بواسطة هذا ثمّ لمّا دخلوا مصر أنزلوا زليخا في دار العزيز بالعزّ و الإحترام و هي في نفسها على الفراق و الآلام و كانت هذه الحال سنين و بقيت بكرة لأنّ العزيز كان غنيّاً لا يقدر على المواقعة فكان ما كان من

في القرآن
في سورة
القصص

جزء ١٢

الجلد الثالث

حسد الإخوان و وصول يوسف الى مصر بالعبودية فلما رآته زليخا علمت أنه الذي رآته في المنام.

روي أن يوسف كان يأوي الى بستان في قصر زليخا يعبد الله فيه و كان قد قسّم نهاره ثلاثة أقسام ثلثاً لإصلاحاته و ثلثاً يبكي فيه و ثلثاً يسبح فيه و يذكره فلما أدرك يوسف مبالغ الرجال جعلت زليخا تراوده عن نفسها و هو يهرب منها الى بستان فلما طال ذلك عليها تغيّر لونها و أصفر وجهها و دخلت عليها جارية من جواربها فأخبرتها بذلك فأشارت اليها أن تبني لها بيتاً مزيناً لكل ما تقدر عليه من الزينة و الطيب ليكون وسيلة الى صحبتة يوسف فلما فرغ الصّناع من عملهم دعت العزيز فدخل فأعجبه لكونه على أسلوب عجيب و قال لها سمّيه بيت السُّرور ثم خرج فأستدعت يوسف فزّينوه بكل ما يمكن من الزينة، و تزّينت هي أيضاً بأحسن الزينة و كانت بيضاء حسناء بين عينيها خال يتلألأ حسناً ولها أربع ذوائب قد نظمتها بالدر و الياقوت و عليها سبع حلل و أرسلت قلائدها على صدرها كما قيل بالفارسية:

بزيورها بنودش إحتياجي ولي أفزود أز آن خودرا رواجي
فجاءوا يوسف كما قيل:

در آمد ناکهان از در چه ماهی عطار د چشمی خورشید جاهی
وُجودی از خواص آب و گِل دُور جَبین طَلعتی نُور علی نور
فلما دخل يوسف عليها في القسم الأول من البيت أغفلته و أغلقتها و راودته عن نفسه بكل حيلة ثم أدخلته في الذي يليه فأغفلته و راودته بكل حيلة فلم يساعدها يوسف و دفعها مما قدر عليه ثم و ثم الى أن إنتهى الى البيت السابع فأغفلته و ذلك قوله تعالى: وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ عَلَيْهَا و عليه و كانت سبعة أبواب و لذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل الدالة على التّكثير و قالت: هَيْتَ لَكَ أي هَلُم أو أقبل إليّ واللام في قوله: لَكَ متعلّق بمحذوف أي لك أقول هذا.

روي، أَنَّ يَوْسُفَ كَانَ إِذَا تَبَسَّمَ سَطَعَتْ النُّورُ فِي ضَوَاحِكِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ كَانَ شِعَاعُ النُّورِ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْعَتَ لُغَتَهُ فَقَالَتْ زَلِيخَا يَا يَوْسُفَ إِنَّمَا صَنَعْتَ هَذَا الْبَيْتَ الْمَزِينُ مِنْ أَجْلِكَ فَقَالَ يَوْسُفُ يَا زَلِيخَا إِنَّمَا دَعَيْتَنِي لِلْحَرَامِ وَحَسْبِيَ مَا فَعَلَ بِي أَوْلَادُ يَعْقُوبَ الْبُسُونِيِّ قَمِيصُ الذَّلِّ وَالْحُزَنِ يَا زَلِيخَا إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي سَمَّيْتَهُ بَيْتَ السُّرُورِ بَيْتَ الْأَحْزَانِ وَالنُّبُورِ وَبَقْعَةً مِنْ بَقَاعِ جَهَنَّمَ.

فَقَالَتْ زَلِيخَا يَا يَوْسُفَ مَا أَحْسَنَ عَيْنِكَ قَالَ هُمَا أَوَّلُ شَيْءٍ يَسِيلَانِ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ جَسَدِي بَعْدَ الْمَوْتِ قَالَتْ مَا أَحْسَنَ وَجْهَكَ قَالَ هُوَ لِلرَّابِّ قَالَتْ مَا أَحْسَنَ شَعْرَكَ قَالَ هُوَ أَوَّلُ مَا يَنْتَشِرُ مِنْ جَسَدِي قَالَتْ أَنْ فَرَّاشَ الْحَرِيرِ مَبْسُوطٍ فَقَمٌ وَأَفْضُ حَاجَتِي قَالَ إِذَا يَذْهَبُ نَصِيبِي مِنَ الْجَنَّةِ قَالَتْ أَنْ طَرْفِي سَكْرَانٍ مِنْ مَحَبَّتِكَ فَأَرْفَعُ طَرْفَكَ إِلَى حَسَنِي وَجَمَالِي قَالَ يَوْسُفُ، صَاحِبُكَ أَحَقُّ بِحَسَنِكَ وَجَمَالِكَ مِنِّي قَالَتْ: هَيْتَ لَكَ قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ أَيْ الشَّأْنُ الْخَطِيرُ هَذَا وَهُوَ رَبِّي أَيْ سَيِّدَ الْعَزِيزِ الَّذِي إِشْتَرَانِي أَحْسَنَ مَثْوَايَ أَوْ أَنَّهُ، أَيْ اللَّهُ تَعَالَى رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ عَلَى مَا مَرَّ بِيَانِهِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ فَعَلَى الْأَوَّلِ مَعْنَاهُ مَا جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ أَنْ أَسِيءَ إِلَيْهِ بِالْخِيَانَةِ فِي حَرَمِهِ.

وَعَلَى الثَّانِي: مَعْنَاهُ مَا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ وَالْإِنْقَازِ مِنَ الْمَهَالِكِ الْعَصِيَانِ بَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ الشُّكْرُ وَهُوَ وَاضِحٌ.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

إِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَعْرَكَةُ الْأَرَاءِ بَيْنَ الْمَفْسَّرِينَ قَالَ الْبِضَاوِيُّ فِي قَوْلِهِ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا أَيَّ قَصْدَتْ مَخَالَطَتَهُ وَقَصْدَ مَخَالَطَتِهَا وَالْهَمُّ بِالشَّيْءِ قَصْدُهُ وَالْعَزْمُ عَلَيْهِ وَمِنْهُ الْإِهْمَامُ وَهُوَ الَّذِي إِذَا هَمَّ بِشَيْءٍ أَمْضَاهُ وَالْمِرَادُ بِهِمْهُ مِيلَ الطَّبَعِ وَمَنَازَعَةُ الشَّهَوَاتِ لَا الْقَصْدَ الْإِخْتِيَارِيَّ وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ

التَّكْلِيفُ بِلِ الْحَقِيقِ بِالْمَدْحِ وَالْأَجْرِ الْجَزِيلِ مِنَ اللَّهِ مِنْ كَيْفٍ نَفْسُهُ عَنِ الْفِعْلِ عِنْدَ قِيَامِ هَذَا الْهَمِّ أَوْ مِشَارَفَةِ الْهَمِّ كَقَوْلِكَ قَتَلْتَهُ لَوْلَمْ أَخْفِ اللَّهُ.
وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ فِي قَبْحِ الزَّوْنِ وَسُوءِ عَاقِبَةِ لَخَالِطِهَا بَشَقُ الظُّلْمَةِ وَكَثْرَةِ الْمَبَالِغَةِ إِنْتَهَى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ نَقْلًا عَنِ السَّدِيِّ فِي قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا.

قَالَتْ لَهُ يَا يُوسُفُ، مَا أَحْسَنَ شَعْرَكَ وَسَاقِ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ، فَلَمْ تَزَلْ حَتَّى أَطْمَعْتَهُ فَهَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا فَدَخَلَ الْبَيْتَ وَغَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَذَهَبَ لِيَحُلَّ سِرَاوِيلَهُ فَإِذَا هُوَ بِصُورَةِ يَعْقُوبَ قَائِمًا فِي الْبَيْتِ قَدْ عَضَّ عَلَى إصْبَعِهِ يَقُولُ، يَا يُوسُفُ تَوَاقَعُهَا فَإِنَّمَا مِثْلُكَ مَا لَمْ تَوَاقَعُهَا مِثْلُ الطَّيْرِ فِي جَوْ السَّمَاءِ لَا يَطَاقُ وَ مِثْلُكَ إِذَا وَاقَعْتَهَا مِثْلُهُ إِذَا مَاتَ وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى أَنْ قَالَ فَرَبَطَ سِرَاوِيلَهُ وَذَهَبَ لِيَخْرُجَ فَأَدْرَكَتْهُ فَأَخَذَتْ بِمُؤَخَّرِ قَمِيصِهِ مِنْ خَلْفِهِ فَخَرَقَتْهُ حَتَّى أَخْرَجَتْهُ مِنْهُ وَسَقَطَ وَطَرَحَهُ يُوسُفُ وَأَشَدَّ نَحْوَ الْبَابِ ثُمَّ.

نَقَلَ الطَّبْرِيُّ عَنْ أَبِي مَلِيكَةَ عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ حَيْثُ سَأَلَ عَنْ هَمِّ يُوسُفَ مَا بَلَغَ.

قَالَ جَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسُ الْخَائِنِ وَحُلَّ الْهِيمَانُ وَبَعْدَ ذَلِكَ نَقَلَ عِدَّةُ رَوَايَاتٍ بِهَذَا الْمَضْمُونِ إِلَى أَنْ نَقَلَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ إِسْتَلْقَتْ وَحُلَّ ثِيَابَهُ حَتَّى بَلَغَ الثَّبَانُ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ، أَطْلُقُ تَكَّةَ سِرَاوِيلِهِ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَمَّا هَمٌّ بِهِ فَاسْتَلْقَتْ لَهُ وَأَمَّا هَمَّتْ بِهَا فَأَنَّهُ قَصَدَ بَيْنَ رَجُلَيْهَا وَنَزَعَ ثِيَابَهُ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ، لَمَّا رَأَى تَمَثَالَ وَجْهِ يَعْقُوبَ خَرَجَتْ شَهْوَتُهُ مِنْ أَفَاعِلِهِ.

وَنَقَلَ بِهَذَا الْمَضْمُونِ أَيْضًا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ وَقَدْ تَبَعَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ مَفْسَرِي الْعَامَّةِ بَلِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ يُوسُفَ هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ بِهَا وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْظَرَ تَفْسِيرَهُمْ تَرَى صَدَقَ مَا قُلْنَا أَنَّهُمْ أَخَذُوا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَإِمَامُهُمُ الطَّبْرِيُّ فِي التَّفْسِيرِ إِذَا قَالَ هَذَا مِمَّا ظَنَنْكَ بِاتِّبَاعِهِ.

وقد نقل الرّازي عن الواحدي أنّه قال في كتاب البسيط ما هذا لفظه قد أجمع المفسّرون الموثوقون بعلمهم المرجوع إلى روايتهم أنّ يوسف قد همّ بهذه المرأة همّاً صحيحاً و جلس منها مجلس الرّجل من المرأة فلمّا رأى البرهان من ربّه زالت كلّ شهوة عنه.

قال جعفر الصادق بأسناده عن عليّ أنّه قال طمعت فيه و طمع فيها فكان طمعه فيها أنّه همّ أن يحلّ التّكّه

و عن ابن عبّاس قال حلّ الهيمان و جلس منها مجلس الخائن.
و عنه أيضاً أنّها إستلقت له و جلس بين رجلها ينزع ثيابه ثمّ أنّ الواحدي طوّل في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب و ما ذكر أية يحتجّ بها و لا حديثاً صحيحاً يؤلّ عليه (يُعَوّل عليه) في تصحيح هذه المقالة و ما أمعن النّظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة.

و روى أنّ يوسف لمّا قال ذلك، ليعلم أنّي لم أخنه بالغيّب، قال له جبرئيل و لا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك و ما أبرئ نفسي الآية.
ثمّ قال و الذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء و إرتفاع منازلهم عند الله من الذين نفوا الهمّ عنه فهذا خلاصة كلامه في الباب إنتهى كلام الرّازي نقلاً عن الواحدي.

ثمّ قال الرّازي القول الثّاني، أنّ يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل و الهمّ المحرّم و هذا قول المحقّقين من المفسّرين و المتكلّمين و به نقول و عنه نذب و أعلم أنّ الدلائل على وجوب عصمة الأنبياء كثيرة.

فالحجّة الأولى: أنّ الرّناء من منكرات الكبائر و الخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذّنوب و أيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجهة للفضيحة التّامة و العار الشّديد أيضاً من منكرات الذّنوب و أيضاً الصّبي إذا تربّى في حجر إنسان و بقي مكفّى المؤنّة مصون العرض من أوّل صباه إلى

زمان شبابه و كمال قوته فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة الى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال اذا ثبت هذا فنقول:

أن هذه المعصية التي نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع و مثل هذه المعصية لو نسبت الى أفسق خلق الله تعالى و أبعدهم عن كل خير لإستنكف منه فكيف يجوز إسنادها الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

ثم أنه تعالى قال في غير هذه الواقعة كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء و ذلك يدل على أن ماهية السوء و الفحشاء مصروفة عنه و لا شك أن المعصية التي نسبوها اليه أعظم أنواع السوء و أفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء و الفحشاء و أيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر و ذلك لأننا نقول هب أن هذه الآية تدل على نفي هذه المعصية عنه إلا أنه لا شك أنها تقيد المدح العظيم و الثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم أنه يمدحه و يثني عليه بأعظم المدائح و الأثنية عقيب أن حكي عنه ذلك الذنب العظيم ما ذا حكي السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب و أفحش الأعمال ثم أنه يذكره بالمدح العظيم و الثناء البالغ عقيبها فإن ذلك يستنكر جداً والله أعلم انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و من أراد الوقوف على تفصيل كلامه في المقام فعليه بمراجعة تفسيره لهذه الآية و الإنصاف أنه قد أجاد بما أجاب به عن الواحدي و أكثر المفسرين بل قاطبتهم من العامة و لم أر فيما بأيدينا من تفاسيرهم من أدرك الحق و أعرض عن الباطل و ذب عن عصمة الأنبياء غير الرّازي فإنه قد أتى في الباب بما لا مزيد عليه و أثبت عصمة يوسف و تنزهه عن العيوب و النقائص و لا سيما أمثال هذه القبايح بأحسن وجه و لاغرو فيه لأنه من العقلاء و الفلاسفة توغل في العقليات تجنب عن التفوه بالأباطيل و الموهومات بل الجهالات و

الضَّلالات و لست أدري كيف يقول المسلم الَّذي آمن بالله و اليوم الآخر أن نبيّاً من الأنبياء جلس مجلس الرّجل من المرأة نعوذ بالله من هذه الهفوات التي ألغها الشياطين الى أولياءهم والعجب من الواحدي أنّه نسب ما نسب الى جعفر الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام و ليس هذا أوّل قارورة كسرت في الإسلام فإنّ أمثال الواحدي كانوا يكذبون على رسول الله ﷺ في حياته اذا عرفت هذا علمت معنى قوله ﷺ من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.

فلنرجع الى تفسير الآية على مذاق الشيعة الأثنى عشرية التابعين لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّهم تطهيراً فنقول:

الهمّ تارة يقال و يراد به العزم على الفعل و منه قوله تعالى: **إِنَّهُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ** ^(١) أي أنهم أرادوا ذلك و عزموا عليه و مثله قول الشاعر:

ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلالته و قال الآخر:

ولله صلوك تساورهمه و يمضي على الأيام والذهر مقدماً و قد يقال و يراد به خطور الشيء بالبال و أن لم يعزم عليه كقوله تعالى:

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ^(٢).

و المعنى أنّ الفشل خطر ببالهم ولو كان الهمّ هاهنا عزمًا لما كان الله وليهما لأنّه قال:

وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ^(٣).

و قد يقال و يراد به الشهوة و ميل الطبع يقول القائل فيما يشتهي و يميل طبعه و نفسه اليه هذا من همّي نقل هذه الوجوه في معنى الهمّ الشيخ في التبيان.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد التاسع

ثم قال و اذا احتمل الهمّ هذه الوجوه نفينا عنه العزم على القبيح و أجزنا باقي الوجوه لأنّ كلّ واحدٍ منها يليق بحاله يمكن أن يحمل الهمّ في الآية على العزم و يكون المعنى وهمّ بضربها و رفعها عن نفسه كما يقول القائل كنت هصمت بفلان أي بأن أوقع عليه ضرباً أو مكروهاً و تكون الفائدة على هذا في قوله: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ مع أنّ الدّفع عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها، أنّه لمّا همّ بدفعها عن نفسه أراه الله برهاناً على أنّه إن أقدم على ما يَهمّ به أهلكه أهلها و قتلوه و أنّها تدعي على المرادة لها على القبيح و تقذفه بأنّه دعاها اليه و ضربها لإمتناعها منه فأخبر تعالى أنّه صرف بالبرهان عنه السوء و الفحشاء اللّذين هما القتل و المكروه أو ظنّ القبيح و إعتقاده فيه.

فإن قيل هذا يقتضي أنّ جواب، لولا، تقدّمها في ترتيب الكلام و يكون التقدير، لولا أن رأى برهان ربّه، لهمّ بضربها و تقدّم جواب، لولا، قبيح أو يقتضي أن تكون، لولا، بغير جواب.

قلنا أمّا تقدّم جواب، لولا، فجائز مستعمل و لا نحتاج اليه في هذا الجواب لأنّ العزم على الضرب و الهمّ به وقعا إلاّ أنّه إنصرف عنهما بالبرهان الذي رآه و يكون التقدير لقد همّت به و همّ بدفعها لولا أن رأى برهان ربّه لفعل ذلك محذوف في الكلام مؤخّر عنهما كما في قوله تعالى:

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَحِيمٌ^(١).

معناه و لولا فضل الله عليكم لهلكتم و مثله قوله تعالى:

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ^(٢).

و التّقدير لم تنافسوا في الدّنيا و تحرصوا على خطاياها و قال إمرؤ القيس:
فلو أنّها نفسُ تموت سَوِيّةً ولكنتها نفسُ تساقط أنفُساً

و المعنى فلو أنها نفس تموت سوية لنقضت وفنيت، فحذف الجواب تعويلاً على أن الكلام يقتضيه انتهى ما ذكره الشيخ في تفسير الآية و أنما نقلناه بطوله لأنه الحقّ الحقيق بالإتباع.

و أما ما ذكره بعضهم من أنها همّت به وأنه أي يوسف همّ بها أي همّ يوسف بما همّت به من الزّناء و الفحشاء لولا أن رأى برهان ربّه، لفعل و ذلك بمقتضى طبعه البشري لا إشكال فيه فهو مشكل لا يساعده العقل و لا النّقل.

أما العقل فلا أنّ الخيانة في معرض الأمانة من المنكرات التي يحكم العقل بقبّحه في حقّ العامل فضلاً عن الأنبياء.

أما النّقل فلما ثبت عصمتهم بالأخبار و المعصوم لا يذنب عقلاً و نقلاً.

اللّهم إلا أن يقال أن المعصوم لا يذنب لعصمته و معنى العصمة فيه أنه تعالى عصمه من الرّذل و الخطأ بسبب التّوفيق و اللّطف و عليه فقوله: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ مِنَ الْأَطْطاف المانعة عن العصيان و إن شئت قلت أنه تعالى عصمه من الذّنب بما ذكر في الآية من رؤية البرهان، و لازم ذلك أن النّبي بما أنه من أفراد البشر و له قوّة شهويّة كغيره من أحاد النّاس فهو بمقتضى طبعه البشري لا مانع له من العصيان و أنما المانع هو العصمة و ليس معنى العصمة عدم القدرة على الفعل بل معناها عدم تحقّق العصيان منه بتوفيق من الله فمن قال في باب العصمة بهذه المقالة فلا إشكال عنده في حمل الآية على ظاهرها بأن يقول أن يوسف أيضاً همّ بما همّت به زليخا بمقتضى شهوته إلا أنه لم يفعل لمكان عصمته التي تحقّقت له برؤية البرهان هذا أقصى ما يقال في تفسير الآية من غير تصرّف في ظاهر الآية إلا أنه يتمّ بناء على تجويز قصد المعصية في حقّ المعصوم و أن الممنوع في حقّ المعصوم هو فعل المعصية لا العزم و القصد إلا أن الأخبار الواردة في باب العصمة قد دلّت على عدم جواز الفعل و القصد معاً فكما أن المعصوم لا يذنب فعلاً فهو لا يذنب و قصد الذّنب ذنب في حقّهم فإنّ حسنات الأبرار سيّئات المقربين وعلى هذا فحمل

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثالث

الآية على ظاهرها لا معنى له إلا أن يقال ليس المراد بالهم في الآية العزم و القصد بل المراد به هو خطور الشيء بالبال و أن لم يعزم عليه فهذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ الخطور غير القصد و العزم و الأحسن في ختم المقال حول الآية هو التمسك بالأخبار الواردة في الباب عن الأئمة المعصومين عليهم السلام جعلهم رسول الله في حديث الثقلين عدلاً للقرآن حيث قال:

أنا أي تارك أو مخلف فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً الحديث.

فنقول في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أهل الملل والمقالات وما أجاب به علي بن الجهم في عصمة الأنبياء عليهم السلام في حديث طويل وفيه يقول:

و أما قوله في يوسف لقد هممت به و هم بها فأنها هممت بالمعصية و هم يوسف بقتلها إن أجبرته لعظم ما تداخله في صرف الله عنه قتلها و الفاحشة و هو قوله: كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء يعني القتل و الزنا انتهى. أقول فعلى هذا يكون المراد من السوء في الآية القتل.

و في باب مجلس آخر للرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء بأسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون قال عليه السلام بلى قال فما معنى قول الله عزّ و جلّ إلى أن قال فأخبرني عن قول الله: و لقد هممت به و هم بها لولا أنّ رآي برهان ربه فقال الرضا عليه السلام لقد هممت به لولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما هممت به لكنه كان معصوماً و المعصوم لا يهمل بذنب ولا يأتيه.

و لقد حدثني أبي عن الصادق عليه السلام أنّه قال هممت بأن تفعل و هم بأن لا يفعل فقال المأمون لله أدرك يا أبا الحسن انتهى.

وفي باب آخر فيما جاء عن الرضا من الأخبار المجموعة وبهذا الأسناد عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال في قول الله عز وجل: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ قَالَ قَامَتِ امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ إِلَى الصَّنَمِ فَأَلْقَتْ عَلَيْهِ ثَوْبًا فَقَالَ لَهَا يوسُف ما هذا، فقالت أتستحيي من الصنم أن يرانا فقال لها يوسُف أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا يأكل ولا يشرب ولا يستحيي ممن خلق الانسان و علمه فذلك قوله: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ.

اقول يعني البرهان الذي الحمد لله و هو قوله عليه السلام انت تستحيين من الجماد مثلاً و انا لا تستحيين من اللطيف الخبير و نعم البرهان و هو يؤيد هذا التأويل أن البرهان الحجة و الدليل و لو لم يرد هذا لقال لولا أن رأى إحصان ربّه أو عناية ربّه و أمثال ذلك فلفظ البرهان في الآية يدلنا على نفكته خفية و هي أن امرأة العزيز قالت شيئاً و يوسُف في جوابها قال شيئاً و بهذا السؤال و الجواب قد تمت الحجة و أقيم البرهان و هو واضح.

و عن أمالي الصدوق بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لعلقمة، أن رضا الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط تسلمون ممّا لم يسلم منه أنبياء الله و رسله و حجج الله عليهم السلام ألم ينسبوا يوسف عليه السلام الى أنه همّ بالزنا و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة^(١).

و الأحاديث في الباب كثيرة و في ختام البحث نذكر ما ذكره السيّد المرتضى رحمته الله في أماليه قال رحمته الله إن سأل سائل عن قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا هَلْ يَسْوَغُ مَا تَأْوَلُ بَعْضُهُمْ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ أَنَّ يوسُفَ عَزَمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَ أَرَادَهَا وَ أَنَّهُ جَلَسَ مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ ثُمَّ

بَابُ الْفَرْقِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

بَابُ الْفَرْقِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

إنصرف عن ذلك بأن رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاصاً على إصبعه متوعداً له على موقعة المعصية أو بأن نودي له بالنهي والزجر في الحال على ما ورد به الحديث.

الجواب قلنا إذا ثبت بأدلة العقول التي لا يدخلها الإحتمال و المجاز و وجوه التأويلات أن المعاصي لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام صرفنا كل ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة إلى ما يطابق الأدلة و يوافقها كما نفعل مثل ذلك فيما يرد ظاهره مخالفاً لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى و ما يجوز عليه أو لا يجوز و لهذه الآية وجوه من التأويل كل واحد منها يقتضي نزاهة نبي الله من العزم على الفاحشة وإرادة المعصية.

أولها: أن الهم في ظاهر الآية متعلق بما لا يصح أن يتعلّق به العزم و الإرادة على الحقيقة لأنه تعالى قال: **لَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا فَعَلَقَ الهمّ بهما و ذاتاهما** لا يجوز أن يراد أو يعزم عليهما لأن الموجود الباقي لا يصح ذلك فيه فلا بد من تقدير محذوف يتعلّق العزم به و قد يمكن أن يكون ما تعلّق به همّه أنما هو ضربها أو دفعها عن نفسه و كما يقول القائل كنت هممت بفلان و قد همّ فلان بفلان أي بأن يوقع به ضرباً أو مكروهاً.

فإن قيل فأي معنى لقوله: **لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** والدفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها.

قلنا يمكن أن يكون الوجه في ذلك أنه لما همّ بدفعها و ضربها أراه الله برهاناً على أنه أقدم على ما همّ به أهلكه أهلها و قتلوه و أنها تدعي عليه المراودة على القبيح و تقذفه بأنه دعاها إليه و أن ضربها كان لإمتناعها فيظنّ به ذلك من لا تأمل له و لا علم بأن مثله لا يجوز عليه فأخبر الله تعالى بأنه صرف بالبرهان عنه السوء و الفحشاء و يعني بذلك القتل و المكروه اللذين كانا يوقعان به لأنهما يستحقّان الوصف بذلك من حيث القبح أو يعني بالسوء و الفحشاء ظنهم به ذلك.

ثُمَّ ذَكَرَ ﷻ فِي وَجْهِهِ تَقَدَّمَ جَوَابَ لَوْلَا، مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ ﷻ وَنَقَلْنَاهُ عَنْهُ الْجَوَازَ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ﷻ وَكَدَّرَ ذَكَرَهُ فِيمَا نَقَلْنَاهُ عَنِ التَّبَيَّنِ وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْخَ الطَّوْسِيَّ ﷻ كَانَ مِنْ أَجْلِ تِلَامِذَةِ الْمُرْتَضَى فَمَا نَقَلَهُ فِي تَفْسِيرِهِ أَخَذَهُ مِنْهُ وَالْبَحْثُ طَوِيلٌ وَلِنَخْتِمَ الْكَلَامَ حَوْلَ الْآيَةِ حَذَرًا مِنَ الْإِطْنَابِ الْمَمْلِ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْنَاهُ وَفَضَّلْنَاهُ فَهُوَ مِمَّا لَا يَدُّ مِنْهُ تَحْفَظًا عَلَى الْعَصْمَةِ الثَّابِتَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ الْمَقَامَ مِمَّا زَلَّ بِهِ أَقْدَامُ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

وَاسْتَبَقَا أَلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

إِسْتَبَقَا الْبَابَ، أَيِ طَلَبَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السَّبْقَ إِلَى الْبَابِ وَالسَّبْقُ تَقَدَّمَ الشَّيْءُ لِمُصَاحِبِهِ فِي مَجِيئِهِ وَقِيلَ أَنَّهُ بِحَذْفِ الْجَرِّ أَيِ تَسَابَقَا إِلَى الْبَابِ الَّذِي هُوَ الْمَخْرَجُ مِنَ الدَّارِ وَلِذَلِكَ وَحَدَّ بَعْدَ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ أَمَّا يُوسُفُ فَلِلْفِرَارِ مِنْهَا وَأَمَّا هِيَ فَلَمَنْعُهَا إِيَّاهُ عَنِ الْخُرُوجِ وَقَوْلِهِ: وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أَيِ شَقَّتْهُ طَوْلًا وَذَلِكَ لِأَنَّهَا أَيِ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ إِجْتَذَبَتْهُ مِنْ وَرَاءِهِ وَخَلْفِهِ فَإِنْ شَقَّتْ طَوْلًا نَصَفَيْنِ وَهُوَ الدَّ كَمَا أَنَّ الشَّقَّ عَرْضًا هُوَ الْقَطُّ.

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ أَيِ صَادَفَاهُ لَدَى الْبَابِ وَالْمُرَادُ بِسَيِّدِهَا هُوَ قُطْفِيرُ عَزِيزٍ مِصْرِيٍّ فَوَجَدَاهُ مُقْبِلًا لِيَدْخُلَ أَوْ كَانَ جَالِسًا هُنَاكَ مَعَ ابْنِ عَمِّ زَلِيخَا يُقَالُ لَهُ يَمْلِيخَا قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْأَبْوَابَ السَّبْعَةَ كَانَتْ تَنْفَتِحُ لَهُ بِأَبَا بَابًا مِنْ غَيْرِ مُفْتَاخٍ فَلَمَّا رَأَاهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ قَالَ مَا لَكُمْ فَلَمَّا سَأَلَ وَكَانَتْ زَلِيخَا لَوْمَةً أَوْ سَبْقَ يُوسُفَ بِالْقَوْلِ بَادَرَتْ أَنْ جَاءَتْ بِحِيلَةٍ جَمَعَتْ فِيهَا بَيْنَ تَبَرُّثِهِ سَاحَتِهَا مِنَ الرِّيْبَةِ وَغَضَبِهَا عَلَى يُوسُفَ أَوْ تَخْوِيفِهِ طَمَعًا فِي مُوَاقَعَتِهَا خِيفَةً مِنْ مَكْرِهَا كَرَاهًا لِمَا آيَسَتْ أَنْ يَوَاقِعَهَا طَوْعًا فَقَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّخْوِيفِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ، مَا، فِي الْآيَةِ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى لَيْسَ وَقِيلَ هِيَ إِسْتِفْهَامِيَّةٌ فَعَلَى الْأَوَّلِ مَعْنَى الْكَلَامِ لَيْسَ جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا كَذَا وَكَذَا.

بَابُ الْقِيَامَةِ فِي الْقِيَامَةِ

جزء ١٢

الْعِلَّةُ الْقَائِلَةُ

على الثَّانِي: معناه أي شيء جزاءه إلا كذا وكذا قال العزيز من أراد بأهلي سوءاً قالت زليخا كنت نائمة في الفراش فجاء هذا الغلام العبراني وكشف عن ثيابي و راودني عن نفسي فإلتفت اليه العزيز و قال يا غلام هذا جزاء منك حيث أحسنت اليك و أنت تخزيني كما قيل بالفارسية:
زكوى حق گزاری رخت بستی نمک خوردی نمکدان را شکستی

قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ

أي قال يوسف في جواب العزيز هي زليخا راودتني عن نفسي و شهد شاهد من أهلها أي من أهل المرأة فقال: إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ، أي قميص يوسف، قُدَّ، و شقَّ من قبل فصدقت المرأة و هو أي يوسف من الكاذبين و أن كان قميصه قُدَّ من دبر أي من خلفه فكذبت المرأة و هو أي يوسف من الصادقين، و من، في قوله: قُدَّ مِنْ دُبُرٍ و في قوله: قُدَّ مِنْ قُبُلٍ، لإبتداء الغاية لأن إبتداء القُدَّ كان منها، و التي في قوله: مِنَ الْكَاذِبِينَ للتبعيض لأنه بعض الكاذبين، و لما تعارض قولاهما عند العزيز و كان رجلاً فيه إفاة و نصفه طلب الشاهد من كل منهما فشهد شاهد من أهلها أي من أهل زليخا و أقاربها فقبل كان إبن خالتها طفلاً في المهد أنطقه الله ليكون أدلَّ على الحجَّة و قيل كان لزليخا خال له إبن في المهد إبن ثلاثة أشهر أو أربعة أو ستة على إختلاف الروايات فهبط جبرئيل الى ذلك الطفل و أجلسه في مهده و قال له إشهد ببراءة يوسف فقام الطفل من المهد و جعل يسعى حتَّى قام بين يدي العزيز و شهد بما حكاه الله تعالى في الآية.

و قال بعضهم الشاهد في الآية هو قُدَّ القميص فأَنَّ العرب قد تضيف الكلام الى الجمادات و تخبر عنها بما هي عليه من الصِّفات كما قيل، قال الحائط

للو تد لم تشقني من يدقني، إلا أن قول الله، من أهلها، يرده و يبطله لأن الأهل لا يطلق على القميص.

و هنا قول ثالث نقلوه عن بعضهم و هو أن الشاهد كان خلقاً من خلق الله ليس بانسي و لا بجني نسبوا هذا القول أيضاً الى المجاهد و الجواب الجواب عن الثاني فأن قوله: مِنْ أَهْلِهَا يبطل هذه الإحتمالات.

القول الرابع: و هو الأقوى في النظر هو أن الشاهد كان رجلاً حكيماً عاقلاً كان العزيز يستشير في أموره و كان من جملة أهل المرأة و كان مع زوجها بالباب فقال قد سمعت الإستبدار و الجلبة من وراء الباب و شق القميص فلا أدري أيكما كان قدام صاحبه فأن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة و أن كان من خلفه فهو صادق فنظروا الى القميص فإذا هو مشقوق من خلف فهذه هي الأقوال في المسألة.

و قال الطبري بعد نقله الأقوال المذكورة و الصواب من القول في ذلك قول من قال كان صبياً في المهد للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله أنه ذكر من تكلم في المهد و ذكر أن أحدهم صاحب يوسف.

أقول الخبر الذي ذكره في الباب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال تكلم أربعة في المهد و هم صغار ابن ماشطة بنت فرعون و شاهد يوسف و صاحب جريح و عيس بن مريم.

و خبر آخر بهذا المضمون عن أبي هريرة أنه قال كذا و كذا.

و خبر ثالث عن ابن عباس عن النبي قال ﷺ تكلم أربع في المهد الحديث (وهم صغار خ ل) و تبعه غير واحد على ذلك من مفسري العامة.

و أنا أقول الآية ظاهرة في أنه شهد شاهد من أهلها، و أما أنه كان في المهد أو كان صبياً فلا دلالة فيها عليه.

و أما الحديث الذي تمسك به في إثبات قوله فهو لا يصلح للإستناد و تخصيص الآية به.

في الخبرين
في الخبرين
في الخبرين



الجلد الثاني

أَمَّا أَوَّلًا: فَلَا تَهْ لَمْ يَثْبِتْ عِنْدَ أَهْلِ الْفِرِّ.

ثَانِيًا: عَلَى فَرْض ثُبُوتِهِ فَهُوَ خَبَرٌ وَاحِدٌ لَا يَصْلَحُ لِتَخْصِصِ عُمُومِ الْكِتَابِ وَ
أَمَّا قَلْنَا خَبَرَ وَاحِدٍ مَعَ أَنَّ الرَّأْيَ لَهُ لَا يَكُونُ مَخْتَصًّا بِوَاحِدٍ بَلْ نَقْلُهُ إِبْنُ عَبَّاسٍ
أَوَّلًا وَ أَبُو هُرَيْرَةَ ثَانِيًا لِأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنْ جَمَلَةِ الْكَاذِبِينَ وَ الْكَذْبُ فِسْقٌ وَ قَدْ قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا^(١) فَلَمْ يَبْقَ فِي الْبَيِّنِ إِلَّا إِبْنُ عَبَّاسٍ أَنْ
صَحَّ النُّقْلُ عَنْهُ.

وَ مُحْضَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ الشَّاهِدَ كَانَ فِي الْمَهْدِ، أَوْ صَبِيًّا لَا دَلِيلَ
عَلَيْهِ وَ هَكَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَانَ خَلْقًا مِنَ خَلْقِ اللَّهِ لَيْسَ بِإِنْسِيٍّ وَ لَا بَجَنِّيٍّ، وَ الْقَوْلُ
بِأَنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْقَمِيصُ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْأَبَاطِيلِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْطَرَّ فَضْلًا عَنْ
الْقَبُولِ فَيَبْقَى الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا حَكِيمًا عَاقِلًا مِنْ أَهْلِهَا وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَ الْعَجَبُ مِنْهُمْ حَيْثُ أَتَاهُمْ رَوَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ تَكَلَّمَ أَرْبَعَةَ فِي
الْمَهْدِ، وَ نَقَلُوا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْمَهْدِ كَانُوا كَثِيرِينَ.

قَالَ تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ وَ إَعْلَمَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ جَمَاعَةٌ ثُمَّ عَدَّ مِنْهُمْ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ، وَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ، وَ يُوسُفَ، وَ مُوسَى وَ طُفْلَ
لِذِي الْأَخْدُودِ وَ مُبَارَكَ الْيَمَامَةِ وَ غَيْرَهُمْ فَاعْتَبَرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ.

نَعَمْ لَوْ قِيلَ لَهُمْ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَ أَوْلَادَهُ الْمَعْصُومِينَ تَكَلَّمُوا فِي
الْمَهْدِ حَكَمُوا بِكَفَرِ قَائِلِهِ وَ هَذَا عَجِيبٌ.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ

يَا فَلَمَّا رَأَى الْعَزِيزُ أَنَّ قَمِيصَهُ يُوسُفُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ لَزَيْخَا أَنَّهُ أَيُّ الْأَمْرِ
الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الشَّاجِرُ، مِنْ كَيْدِكُنَّ، أَيُّهَا النِّسَاءُ لَا مِنْ غَيْرِكُنَّ وَ أَنْمَا أَتَى بِصِغَةِ
الْجَمْعِ مَعَ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَذَا الْكَلَامِ هُوَ زَيْخَا فَقَطْ لِلِإِشْعَارِ بِأَنَّ الْحِيلَةَ وَ الْكَيْدَ
وَ الْمَكْرَ لَا تَخْتَصُّ بِزَيْخَا بَلْ جِنْسُ النِّسَاءِ كَذَلِكَ فَخَجَلَتْ زَيْخَا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ.

و قد روي أنَّ كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأنَّ الله تعالى يقول: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا^(١) وقال في المقام إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ.

رواه القرطبي في تفسيره عن رسول الله ﷺ ولقائل أن يقول بين المقامين فرق واضح وهذا أنَّ قوله أنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً كلام الله تعالى أصدق القائلين وقوله: إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ حكاية كلام العزيز والأمر سهل فإنَّ الكيد ثابت منهما ولنعم ما قيل بالفارسية:

ز كيد زن دل مردان دو نیم است زنار کیدهای بس عظیم است
عزیزان را کند کید زنان خوار بکید زن بود دانا گرفتار
ز مکر زن کسی عاجز مبادا زن مکاره خود هرگز مبادا

يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ
و التقدير يا يوسف و أنما أسقط حرف النداء لأنه إسم علم و لا يجوز ذلك في المبهم ثم أنهم اختلفوا في القائل فقال قوم القائل هو الشاهد الذي شهد من أهلها.

و قيل القائل هو العزيز لما علم براءة يوسف قال له يوسف أعرض عن هذا أي لا تذكره لأحدٍ و أكرمته ثم أقبل على زليخا فقال و أنت إستغفري لذنبك يقول إستغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك، إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ لَمْ يقل من الخاطئات لأنه قصد الأخبار عن المذكر و المؤنث فغلب المذكر فالمعنى إِنَّكِ مِنَ النَّاسِ الْخَاطِئِينَ أو من القوم الخاطئين.

قال بعضهم أنه أي العزيز كان قليل الغيرة و لذلك رجحوا القول الأول أنَّ القائل بهذا الكلام هو الشاهد و روي أنه حلف أن لا يدخل عليها أربعين يوماً و أخرج يوسف من عندها و شغله في خدمته و بقيت زليخا لا ترى يوسف.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ
فَتِيهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ
مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا
بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ
الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ وَ
لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

◀ اللغة

نِسْوَةٌ بكسر النون وضمها لغتان، والنساء والنسوان والنسوة جمع المرأة
من غير لفظها كالقوم في جمع المرأة.

تُرَاوِدُ أي تطالب المرادة المطالبة (فتيها) الفتى في كلام العرب الشاب، و
المرأة فتاة.

شَغَفَهَا الشَّغَفَ باطن القلب.

وَأَعْتَدَتْ أي هيأت وأعدت واتخذت من العتاد.

مُتَّكِّئًا الْمَتَّكَأَ بَضْمَ الْمِيمِ الْوَسَادَةَ.
أَكْبَرَنَّهُ أَيَّ اعْظَمْنَهُ وَأَجْلَنَهُ.
الْصَّاغِرِينَ الصَّغَارِ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ.
فَصَرَفَ أَيَّ مَنَعَ.

◀ الإعراب

حُبًّا تَمِيْزَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الصَّمِيرِ فِي، تَرَوَادُ، أَوْ مِنَ الْفَتَى. مُتَّكِّئًا
نَصَبَ عَلَى الْمَفْعُولِ رَبِّ السَّجْنِ بِكَسْرِ السَّيْنِ مُبْتَدَأُ أَحَبُّ خَبْرِهِ.

◀ التفسير

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا

النِّسْوَةُ بِكَسْرِ النُّونِ وَضَمِّهَا جَمَاعَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قِيلَ هُوَ إِسْمٌ مَفْرَدٌ لَجَمِيعِ
الْمَرَأَةِ وَتَأْنِيثُهُ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ وَلِذَا لَمْ يَلْحَقْ تَاءُ التَّأْنِيثِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَجُوزُ إِلْحَاقُ التَّاءِ أَيْضًا فَيُقَالُ قَالَتْ نِسْوَةٌ كَمَا فِي الْإِعْرَابِ
يُقَالُ قَالَتْ الْأَعْرَابُ وَقَالَ الْأَعْرَابُ.

وَقَالَ الرِّضَى النِّسْوَةُ جَمْعٌ لِأَنَّهَا عَلَى وَزْنِ فَعْلَةٍ فَيَتَقَدَّرُ لَهَا مَفْرَدٌ وَهُوَ نِسَاءٌ
كَغَلَامٍ وَغَلَمَةٌ لَا أَنَّهَا إِسْمٌ جَمْعٌ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْجَمَاعَةَ مِنَ النِّسَاءِ كُنَّ خَمْسًا، امْرَأَةُ الْخَبَّازِ وَامْرَأَةُ
السَّاقِي وَامْرَأَةُ صَاحِبِ الدَّوَابِّ، وَامْرَأَةُ صَاحِبِ السَّجْنِ، وَامْرَأَةُ الْحَاجِبِ وَ
قِيلَ أَكْثَرُ وَالَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَهُوَ مُطْلَقُ الْجَمَاعَةِ مِنَ النِّسَاءِ وَالتَّعْيِينَ لَا
دَلِيلَ عَلَيْهِ وَكَيْفَ كَانَ أَنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ وَزَلِيخَا إِنْتَشَرَتْ فِي أَهْلِ مِصْرَ فَتَحَدَّثَ
النِّسَاءُ بِهَا وَقَوْلُهُ: تُرَاوِدُ فَتَاهَا فَالْفَتَى كُنَايَةٌ عَنْ يُوسُفَ وَفَاعِلُ الْفِعْلِ امْرَأَةُ
الْعَزِيزِ أَيُّ قُلْنَ أَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ تَرَاوَدُ وَتَطَالِبُ يُوسُفَ وَآتَمَّا قَالَ فَتَاهَا لِأَنَّ
يُوسُفَ كَانَ عَبْدًا لِعَزِيزِ مِصْرَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ فَالتَّقْدِيرُ تَرَاوَدَ عَبْدُهَا وَلَمْ يَعْبرَ عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في القرآن بالعبد تعظيماً له أو أنه في الواقع لم يكن من جنس العبيد بل كان من الأحرار قَدْ شَغَفَهَا أي بلغ الحب شغاف قلبها وهو داخله وباطنه وقرأ بعضهم شغفها بالعين المهملة وعليه فمعناه أحرق حبه.

قال الجوهري شغفه الحب أحرق قلبه، وقيل أمرضه، قال أهل اللغة شغاف الجبال أعاليها وقد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين إذا أولع به، وعن الزهري والشَّعْبِي، الشَّغَفُ بالغين المعجمة، حُبٌّ وبالعين المهملة جنونٌ، وقيل الشَّغَافُ بالغين حجاب القلب وبالعين المهملة سويده فلو وصل الحب إلى الشَّغَاف لمات وكيف كان فالمأل في جميع الوجوه والقراءات واحدٌ أن حبها إياه قد ملأ قلبها، قال الشاعر:

أمرٌ على جدار ديار سلمى أقبل ذا الجدار و ذا الجدارا
فما حبٌ أديار شغفن قلبي ولكن حبٌ من سكن الديارا

قال بعضهم أن العزيز بلسان العرب الملك والمراد به قطيفر وزير الريان وبإمرأته زليخا ولم يصَّرحنَّ بإسمها على ما عليه عادة الناس عند ذكر السلطان والوزير وقيل صرَّحنَّ بإضافتها إلى العزيز مبالغةً للتشنيع لأن النفوس أقبل إلى السَّماع أخبار ذوي الأخطار وما يجري مجرى لهم.

وإعلم أن المحبة هو الميل إلى أمرٍ جميل وهو إذا كان مفرطاً سميَّ عشقاً والعشق إذا كان مفرطاً سميَّ سكرًا وهيمانًا وصاحب العشق المفرط معذور غير ملوم لأنه أفة سماوية كالجنون والمرض مثلاً والمحبة أصل الإيجاد وسببه ولذلك قيل أن العشق أخص من المحبة ولذلك لا يطلق على الله الإنتفاع الإفراط عن صفاته.

قال بعض العرفاء أن عشق زليخا وإن كان عشقاً مجازياً لكن لما كان تحققها به حقيقة وصدقاً جذبها إلى المقصود وأل الأمر من المجاز إلى الحقيقة قالوا أن المجاز قنطرة الحقيقة انتهى.

إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أَي إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ إِمْرَأَةَ الْعَزِيزِ فِي ضَلَالٍ ظَاهِرٍ، أَي فِي خَطَأٍ وَبَعْدٍ عَنِ طَرِيقِ الرُّشْدِ وَالصَّوَابِ وَأَنَّمَا لَمْ يَقْلُنْ، أَنَّهَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَقَلْنَا أَنَا لَنَرَاهَا كَذَلِكَ إِشْعَارًا بِأَنَّ ذَلِكَ الْحَكْمَ غَيْرَ صَادِرٍ عَنْهُمْ مَجَازِفَةً بَلْ عَنْ عِلْمٍ وَرَأْيٍ مَعَ التَّلْوِيحِ بِأَنَّهُمْ مَتَنِّهَاتٌ عَنْ أَمْثَالِ مَا هِيَ عَلَيْهِ وَلِذَا ابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِمَا رَمَيْنَ بِهِ الْغَيْرَ لِأَنَّهُ مَا عَبَّرَ أَحَدُ أَخَاهُ بِذَنْبٍ إِلَّا ارْتَكَبَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهَذِهِ أَعْنِي مَلَامَةَ الْخَلْقِ وَتَضْلِيلَهُمْ عِلَاقَةَ كِمَالِ الْمَحَبَّةِ وَنَتِيجَتَهُ لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا إِصْطَفَى عَبْدًا رَفَعَ مَحَبَّتَهُ الذَّاتِيَّةَ عَنْ قُلُوبِ الْأَخْيَارِ غَيْرَةً مِنْهُ عَلَيْهِ وَلِذَا تَرَى أَرْبَابَ الْأَحْوَالِ مَذْكُورِينَ غَالِبًا بِلِسَانِ الذَّنْبِ وَالتَّعْيِيرِ وَالسُّرِّ فِيهِ أَتُهُمْ قَدْ تَجَاوَزُوا حَدَّ الْجُمْهُورِ فَكَانُوا كَالْمَسْكِ بَيْنَ الدِّمَاءِ فَكَمَا أَنَّ الْمَسْكَ خَرَجَ بِذَلِكَ الْوَصْفِ الرَّائِدُ عَنْ كَوْنِهِ جِنْسِ الدَّمِّ فَكَذَا الْعِشَاقُ خَرَجُوا بِمَا هُمْ عَلَيْهِ عَنْ كَوْنِهِمْ مِنْ جِنْسِ الْعِبَادِ ذَوِي التَّفَرُّقَةِ وَالتَّنْقِصَانِ وَالْجِنْسِ إِلَى الْجِنْسِ يَمِيلُ فَافْتَهُمْ حَقِيقَةَ الْحَالِ هَكَذَا قِيلَ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ إِمْرَأَةَ الْعَزِيزِ حِينَ سَمِعَتْ قَوْلَ نِسْوَةِ الْمَدِينَةِ فِيهَا وَغَذَلَهُنَّ إِيَّاهَا وَمَكْرَهُنَّ بِهَا قِيلَ إِنَّهُنَّ مَكْرَنَ بِهَا لِتَرْيَهُنَّ يَوْسُفَ فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي تَسْمِيَتِهِ مَكْرًا لِكُونِهِ خَفِيَّةً مِنْهَا كَمَكْرِ الْمَاكِرِ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا لِغَيْرِهَا وَأَعْتَدَتْ أَي هَيَّأَتْ وَأَعَدَّتْ، لَهُنَّ مُتَّكِنًا، أَي وَسَادَةً وَالْمُتَّكِنُ التَّمَرُّقُ الَّذِي يَتَّكَأُ عَلَيْهِ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، أَي آتَتْ إِمْرَأَةَ الْعَزِيزِ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ النِّسْوَةِ سَكِينًا، لِيَقْطَعْنَ الْفَاكَهَةَ قَبْلَ الْمَرَادِ بِهَا الْبَطِيخَ قِيلَ أَنَّهَا دَعَتْ أَرْبَعِينَ إِمْرَأَةً مِنْهُنَّ غَيْرَ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَاتِ ثُمَّ أَحْضَرَتْ لَهُنَّ مَا يَتَّكَأْنَ عَلَيْهِ مِنْ

النَّمارقِ والوسائدِ وغيرها من الطَّعامِ والشَّرابِ كما هو عادة المترفهين وبعد مجيئهنَّ وجلسهنَّ على الوسادة أتت كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكيناً لتستعمله في قطع ما يعهد فيما قدم بين أيديهنَّ من اللَّحومِ والفواكهِ وقصدت بتلك الهيئة هي قعودهنَّ متَّكئاتٍ والسَّكاكينِ في أيديهنَّ أن يدهشنَّ ويبهتنَّ عند رؤيته و يشغلنَّ عن نفوسهنَّ فيقع أيديهنَّ على أيديهنَّ فيقطَّعنَّها لأنَّ المتَّكي إذا بهت لشئٍ وقعت يده على يده ثمَّ قالت ليوسف وهنَّ مشغولات بمعالجة السَّكاكينِ وأعمالها فيما بأيديهنَّ من الفواكهِ وأضرابها، أخرج يا يوسف عليهنَّ أي إبرزلهنَّ فلَمَّا رَأَيْنَهُ عطف على مقدَّر أي فخرج عليهنَّ فلَمَّا رَأَيْنَهُ، النِّسوة أكبرنه، أي أعظمه وأجللنه وذلك بسبب رؤيتهنَّ بشراً لم تر عين مثله في حسنه الفائق وجماله الزَّائق فَأَنْ فَضَلَ جماله على جمال كلِّ جميلٍ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

قال قوم معنى ذلك أَنَّهُنَّ حُضِنَ حين رَأَيْنَهُ من شِدَّةِ الشَّبَقِ شِدَّةَ شهوة الضَّرَبِ والمرأة إذا اغتلمت وإشْتَدَّتْ شهوتها سال دم حيضها من أكبرت المرأة إذا حاضت ومنه قول الشَّاعر:

يَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا يَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَاراً
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ أَي جرحنها بالسَّكاكينِ لفرط وحشتهنَّ وخروج حركات جوارحنَّ من منهج الإختيار حتَّى لا يعلمنَّ ما فعلنَّ.
ومن المعلوم أنَّ المدهوش لا يدرك ما يفعل وأنَّما لم تقطع زليخا يديها لأنَّ حالها إنتهت الى التَّمَكُّينِ في المحبَّة كأهل النِّهايات.

وأما حال النِّسوة فكانت في مقام التَّلَوُّينِ كأهل البدايات فلكلِّ مقامٍ تلوَّنَ وتمكَّنَ وبداية ونهاية.

قبل أنَّ يوسف خرج عليهنَّ بغتَةً ولذلك قَطَّعْنَ أيديهنَّ لما أصابهنَّ من الحيرة والدَّهْشَةُ لشهود جماله والغيبة عن أوصافهنَّ كما قيل:

غابت صفات القاطعات أكفَّها في شاهدٍ هو في الثَّبرية أبدع

ولا شك أن زليخا كانت أبلغ في محبته منهن لكنّها لم تغب عن التّمييز بشهود جماله لتّمكن حال الشّهود في قلبها وَ قُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحِشَاءِ الَّذِي هُوَ النَّاحِيَةُ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ صَارَ فِي حِشَاءِ أَيِّ نَاحِيَةٍ مِمَّا قَذَفَ بِهِ وَ فَاعَلَهُ يَوْسُفَ وَ الْمَعْنَى بَعْدَ عَنْ هَذَا الَّذِي رَمَى بِهِ، لِلّٰهِ، أَيِّ لَخُوفِهِ مِنَ اللّٰهِ وَ مِرَاقِبَةِ أَمْرِهِ.

و قال بعضهم أصله، حاشا، حذفت الألف الأخيرة تخفيفاً و هو حرف جرٌّ يفيد معنى التّنزيه في باب الإستثناء تقول أساء القوم حاشا زيد، فوضع موضع التّنزيه و الرّائفة فمعناه تنزيه الله و براءة الله و اللّام لبيان المبرأ و المنزه كما في سقياً لك.

و قرأ ابن السّمّاك حاشاً لله بالتّنوين مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ أي ليس هذا من جنس البشر لأنّ هذا الجمال غير معهود للبشر، إن هذا، إن نافية أي ليس هذا إلّا ملك كريم.

قال بعضهم فيه دليل على تفضيل الملائكة على البشر لأنّه خرج مخرج التّعظيم ولم ينكره الله تعالى انتهى.

و أنت ترى أنّ هذا الدّليل أوهن من بيت العنكبوت و ذلك لأنّهنّ لم يقصدن الإخبار بذلك عن حاله و أنّما أخبرن بتشبيه حاله بحال الملائكة في و قاره و سكونه و بعده عن السّوء فلذلك لم ينكره الله و أنّما قال المستدلّ ذلك لما سمع من علماء البيان أنّ المشبّه به يكون أقوى من المشبه و حيث أنّهنّ شبّهن يوسف بالملك فلا محالة يكون الملك أحسن منه و هو دليل الفضيلة و لم يعلم أنّ الأقوى ليس بمعنى الأفضل و إلّا يلزم أن يكون قولنا زيد كالأسد المشبّه به و هو الأسد أفضل من زيد و العاقل لا يقول به، و قرئ، مُتَّكَأً بتسكين التّاء ومعناه الأترج.

و قال قتادة معناه طعاماً و به قال عكرمة و ابن زيد و ابن إسحاق و غيرهم شاذّ.

وإن
يقتضيان
في
بشر
بشر

جزء ١٢

الجلد الثالث

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ
لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجِنَنَّ وَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ

حكى الله تعالى في هذه الآية أن امرأة العزيز قالت للنسوة اللاتي عدلنها على محبتها ليوسف و قلن فيها ما قلن، هذا الذي لمتنني فيه و اللوم الوصف بالقيبح على وجه التحقير و مثله الذم و يستفاد من هذا الكلام أن الإسراع في اللوم قبل أن يقع اللائم فيما وقع فيه المعلوم ممّا لا ينبغي للعاقل فإن كثيراً ما نرى بعض الأشخاص أنهم يلومون الظالمين على ظلمهم مثلاً و بعد وصولهم الى ما وصل الظالم اليه من القدرة يكون اللائم أظلم من المعلوم و الوجه في ذلك هو أن الإنسان يرى عيوب الناس و لا يرى عيبه أو لا يعلم به أو أن أسباب المعصية لم تنهياً له فيظن أن عدم تحقق العصيان في حقه منشأ إيمانه و تقواه و خوفه من الله و هو غافل عن سرّه الذي هو فقدان الأسباب و عدم القدرة على المعصية فعلاً و عند ذلك يلوم العاصي و يحسن الظن بنفسه.

و أما بعد وجود الإمكانات و الأسباب يرى و يشاهد أنه أحبث و أفسق من المعلوم قبل الإختبار هو هذا و الى هذه النكتة أشارت زليخا في الحقيقة حيث قالت فذلك الذي لمتنني فيه، و الفرق أنني لم أقطع يدي عند رؤية يوسف مع أنني كنت معه و أنتم قطعتن أيديكن في رؤية واحدة و عند ذلك.

و لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ أي لم أنكر مراودتي أياه و مطالبتي منه قضاء حاجتي إلا أنه لم يقبل و إستعصم منه أي إمتنع عن قضاء حاجتي و الإستعصام هو طلب العصمة من الله تعالى يفعل لطف من أطافه ليمتنع من الفاحشة و فيه دلالة على أن يوسف لم يقع منه قبيح و لئن لم يفعل يوسف ما أمره من المعصية لیسجنن بالنون الثقيلة أثرت بناء الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك في كلماتهم.

و المعنى ليجعلن في السجن أي في الحبس ألبته، و لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ و التقدير ليكونن بالنون الخفيفة و أما كتبت بالألف إتباعاً لخط

المصحف مثل، قوله لنسفعاً، على حكم الوقف يعني أن التّون الخفيفة يبدل منها في الوقف الألف وذلك لشهها بالتنوين كما قال الشاعر:

و صلّ على حين العشّيات و الضحّى و لا تعبد الشّيطان و الله فأعبد
أي فأعبدن فأبدل في الوقف من التّون ألفاً والصّغار الذّل من قولهم صغري صغر
صغاراً و منه قوله تعالى: **حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ^(١) أي و هم
أذلاء فيصير معنى الكلام أن يوسف لو لم يفعل ما أمره ليجعل في السّجن ألبتة و
إذا جعل فيه لا محالة يكون من الصّاغرين أي يكون ذليلاً حقيراً عندنا و عند
النّاس وذلك لأنّ المكان والمقام في السّجن كاشف عن الخطأ والعصيان في حقّ
من جعل فيه عن العرف و من المعلوم أنّ الخاطي والعاصي لا قيمة له و من كان
كذلك فهو ذليل حقير و هو المطلوب و هذا معنى قولهم فلان عاص لأتّه في السّجن.
قال بعضهم أنّ التّون الخفيفة هي التي يتلقّى بها القسم و كيف كان يستفاد
من الآية التّهديد و التّخويف.

أقول و هذه سيرة الظّلمة في كلّ عصرٍ و زمانٍ و الوجه فيه أنّ الحاكم الجائر
المسلّط على النّاس يغلب هواه على عقله و إذا كان كذلك فليس له إلترام و
تقيّد بالدين و الوجدان و الشّرف لغلبة سكر القدرة عليه فهو لأجل وصوله بما
يشاء ولو كان باطلاً يفعل ما يشاء سواء كان مطلوبه من سنخ الشّهوات الجنسيّة
أو غير ذلك فإذا رأى مخالفاً لما أراده يدفعه بأيّ نحوٍ ممكن فإذا كان رجلاً
حقيراً لا يعرفه النّاس يقتله في بادئ الأمر و إذا كان معروفاً مشهوراً في النّاس
يدعوه الى موافقته لما أراد الجائر و يتشبّث في دعوته بأنواع الحيل من
تفويض المقام و إعطاء المال و غير ذلك ممّا يدلّ على لطفه و عنايته به ظاهراً
فأن وافق و أطاع فهو و إلّا يتشبّث بالتّهديد من الضّرب و الشّتم و الإرعاب و
السّجن و أمثالها و هكذا الى أن تصل النّوبة الى القتل، و على هذا جرت
عادتهم و سيرتهم مع الرّعية.

في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد الثالث

وَأَمَّا الْمُخَالَفَ فَإِنَّ كَانَ مِنْ سَنَخِ هَؤُلَاءِ الظُّلْمَةِ فَهُوَ يُوَافِقُهُمْ قِطْعاً وَ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَوْ مِنَ الْأَحْرَارِ فَهُوَ يَخْتَارُ السَّجْنَ حَتَّى الْقَتْلَ وَ لَا يُوَافِقُهُمْ وَ لَا يَعِينُهُمْ عَلَى ظَلْمِهِمْ لِأَنَّ الْمُعِينِ عَلَى الظُّلْمِ ظَالِمٌ، وَ لَا يَبَالِي مِنَ الْمَقَامِ فِي السَّجْنَ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَ الْأَحْرَارِ مِنَ الذُّلِّ بَلْ هُوَ يَزِيدُ عَلَى الْعِزِّ وَ الشَّرَفِ يَرْجِحُونَهُ عَلَى إِعَانَةِ الظُّلْمِ وَ الظَّالِمِ وَ يَقُولُونَ مَا قَالَه الشَّاعِرُ:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسي و أيُّ مهتدي لا يغمد
فالسَّجْنَ يوجب العِزَّ وَ الشَّرَفَ لِلأَحْرَارِ وَ الصُّلَحَاءِ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَ الذُّلُّ وَ
الْحِقَارَةُ لِلْفَسَاقِ وَ الْأَشْرَارِ فَمَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: وَ لَيَكُونَنَّ مِنْ
الصَّاعِرِينَ إِنَّمَا هُوَ كَذَلِكَ بَزَعْمَهَا وَ أَمَا فِي الْوَاقِعِ فَلَا أَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ أَلَا تَرَى
أَنَّ يُوسُفَ بِبِرَّةِ السَّجْنَ الَّذِي كَانَ مَعْلُولاً لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا وَصَلَ إِلَى مَا وَصَلَ مِنْ
الْمَقَامِ الرَّفِيعِ عِنْدَ الْخَلْقِ وَ الْخَلْقِ كَمَا سَيَجِيءُ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهِ وَ أَمَا زَلِيخَا
الَّتِي هَدَّدَتْ يُوسُفَ بِالسَّجْنَ وَ حَكَمَتْ بِأَنَّهُ يَصِيرُ مِنَ الصَّاعِرِينَ، صَارَتْ مِنْ
الْأَذْلَاءِ رَغْماً لِأَنفُهَا نَفْسَهَا، هَذَا، وَ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَ حَقَّقْنَاهُ أَشَارَ يُوسُفَ كَمَا
حَكَى اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
كَيْدهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ

أَيُّ قَالَ يُوسُفَ مُنَاجِئاً لِرَبِّهِ أَوْ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا سَمِعَ وَعِيدَ الْمَرْأَةِ وَ تَهْدِيدَهَا
إِيَّاهُ، السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ أَيُّ إِذَا دَارَ أَمْرِي بَيْنَ
الْمَقَامِ فِي السَّجْنَ أَوْ إِرْتِكَابِ الْقَبِيحِ فَأَتَى اخْتَارَ الْمَقَامَ فِيهِ إِذْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ
الْعَصْيَانِ وَ الْمُخَالَفَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَالُوا فِي وَجْهِ كَوْنِهِ أَحَبُّ، أَنَّ التَّقْدِيرَ إِنِّي لَوْ
كُنْتُ مِمَّا أُرِيدُ لَكَانَتْ إِرَادَتِي لِهَذَا أَشَدُّ.

وَ قَالَ الْآخَرُونَ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ تَوَطُّيْنَ نَفْسِي عَلَى السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا
يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ هَاهُنَا قَوْلُ ثَالِثٍ.

وَ هُوَ أَنَّ السَّجْنَ أَسْهَلُ عَلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ.

أقول أصل الإشكال نشأ من قوله: **أَحَبُّ** و ذلك لأنه أفعِل التَّفْضِيل يقتضي أن يكون الأمران أعني بهما السَّجَن و الَّذي يدعونه اليه كلاهما عنده محبوباً إلا أن أحدهما أَحَبُّ من الآخر و الحال أن الأمر ليس كذلك لأنه كان لا يحب ما يدعونه اليه و لا يريد كما أنه كان لا يحب السَّجَن و لا يريده و الحاصل أن قوله: **أَحَبُّ** يصدق اذا كان الأمران محبوبين عنده و كيف يقال أن المعصية كانت عنده محبوبة.

فحقَّ العبارة أن يقال ربَّ السَّجَن محبوبٌ عندي في هذه الحالة مثلاً و لم يقل ذلك و لأجل هذا تصدوا لرفع الإشكال و قالوا فيه ما قالوا و قد أجاب عنه السيد المرتضى رحمته الله في أماليه:

أما أولاً: فبأنَّ المحبة متعلِّقة في ظاهر الكلام بما لا يصحَّ في الحقيقة أن يكون محبوباً مراداً لأنَّ السَّجَن أنما هو الجسم و الأجسام لا يجوز أن يريدها و أنما يريد الفعل فيها أو المتعلِّق بها و السَّجَن نفسه ليس بطاعةٍ و لا معصية و أنما الأفعال فيه قد تكون طاعات و معاصي بحسب الوجوه التي يقع عليها و إدخال القوم يوسف الحبس أو إكراههم له على دخوله معصية منهم وكونه فيه و صبره على ملازمته و المشاق التي تناله بإستيظانه طاعةً منه و قربة علمنا أن ظالماً لو أكره مؤمناً على ملازمة بعض المواضع و ترك التَّصرف في غيره لكان فعل المكره حسناً و أن كان فعل المكره قبيحاً و هذه الجملة تبين أن لا ظاهر في الآية يقتضي ما عنده و أنه لا بد من تقدير محذوف يتعلَّق بالسَّجَن و حيث دلَّ الدليل على أن النَّبي ﷺ لا يجوز أن يريد المعاصي و القبائح إختصاص المحذوف المقدَّر بما يرجع اليه ممَّا ذكرناه و ذلك طاعة لا لوم على مريده و محبة.

ثم قال رحمته الله فإن قيل كيف يجوز أن يقول: **السَّجَنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ** يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ و هو لا يحب ما دعوه جملةً و من شأن هذه اللفظة أن تدخل بين ما وقع فيه إشترك في معناها و أن فضل البعض على البعض.

قلنا قد تستعمل هذه اللفظة في مثل هذا الموضع وإن لم يكن في معناها اشتراك على الحقيقة ألا ترى أن من خيّر بين ما يحبّه يكرهه جائز أن يقول هذا أحبّ إليّ من هذا وأن لم يجز مبتدأ أن يقول من غير أن يخيّر هذا أحبّ إليّ من هذا، إذا كان لا يحبّ أحدهما جملة و ما يقارب ذلك قوله تعالى: **قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ** ^(١).

و نحن نعلم أن لا خير في العقاب و أنما حسن ذلك لوقوعه موقع التوبيخ و التّقرّيع على إختيار المعاصي على الطّاعات و أنّهم ما ركبوا المعاصي و أثروها، على الطّاعات إلّا لإعتقادهم أنّ فيها خيراً و نفعاً فقل أذلك خيرٌ على ما تظنّونه و تعتقدونه أم كذا وكذا.

الوجه الثّاني: أن يكون معنى، **أَحَبُّ إِلَيَّ** أي أهون عندي و أسهل عليّ و هذا كما يقال لأحدنا في الأمرين يكرههما معاً إن فعلت كذا و إلّا فعل بك كذا و كذا فيقول بل كذا أحبّ إليّ أي بمعنى أسهل و أخفّ و إن كان لا يريد واحداً منهما و هكذا الأمر فيما نحن فيه انتهى كلامه.

أقول ما ذكره السيّد رحمته في حلّ الإشكال لا بأس به و الذي يختلج بالبال مع مراعاة الإختصار و حمل الكلام على ظاهره من غير إحتياج الى التّقدير هو أن نقول لا شك أنّ المؤمن الحقيقي يحبّ الطّاعة و يبغض المعصية و هذا ممّا لا كلام فيه و على هذا فكلّ مكان يحصل فيه مطلوبه فهو أحبّ اليه لا أنّ المكان بما هو محبوبٌ له بل حبّه له لأجل حصول غرضه و مطلوبه فحبّه له أليّ لا إستقلالي سواء كان المكان السّجن أم غيره اذ المفروض أنّ المكان بما هو هو لا خصوصيّة له إلّا بإعتبار ما يترتب عليه من الطّاعة و المعصية مثلاً فهو يحبّ السّجن لذلك كما يحبّ البيت لذلك فكلّ واحدٍ منهما كان أبعد من العصيان و أقرب الى الطّاعة فهو أحبّ اليه عقلاً و حيث أنّ يوسف رأى السّجن و المقام فيه أقرب الى الطّاعة و تحصيل رضا الله تعالى من المقام في بيت العزيز **قَالَ**

رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ لِأَنَّ الْبَيْتَ فِي مَطَانِ الْخَطَرِ وَالسَّجْنُ لَيْسَ كَذَلِكَ هَذَا وَاحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّ السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ، لِأَنَّهُ فِي طَاعَتِهِ أَيَّ أَتَى لَمْ أُرْتَكِبْ ذَنْباً أَسْتَحِقُّ بِهِ السَّجْنَ أَسْجَنَ فِيهِ لَثَلَا يَتَحَقَّقَ عَنِّي الذَّنْبُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** فَالْبَحْثُ فِيهِ فِي مَقَامَيْنِ:

المقام الأول: فِي قَوْلِهِ: **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ**
المقام الثاني: قَوْلُهُ: **وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**

أَمَّا الْأَوَّلُ، فَنَقُولُ الصَّرْفُ الْمَنْعُ، وَقَوْلُهُ: **إِلَّا أَصْلُهُ** إِنْ لَا وَالْمَعْنَى إِنْ لَا تَمْنَعُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَيَّ كَيْدِ النِّسَاءِ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ أَيَّ أَمِيلُ إِلَيْهِنَّ لِأَنَّ الصَّبَا رَقَّةُ الْهَوَى يُقَالُ صَبَا يَصْبُو فَهُوَ صَابٌ إِذَا مَالَ وَاشْتَقَّ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلَهَا يَصْبِي

وَأَمَّا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْتَضَى وَهُوَ الشَّهْوَةُ بِمَقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ كَانَتْ فِيهِ مَوْجُودَةٌ كَغَيْرِهِ مِنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِ وَالْإِقْرَارُ مِنْهُ بِهَذَا لَا يَضُرُّ بِعَصْمَتِهِ كَمَا نَقُولُ بِهَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَائِلَ بِهَا لَا يَقُولُ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عَنِ الشَّهْوَةِ بَلْ يَقُولُ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عَنْ أَعْمَالِهَا عَلَى خِلَافِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَفْسِرُونَ الْعِصْمَةَ بِحِفْظِ اللَّهِ وَالْمَعْصُومَ مِنْ عِصْمَةِ اللَّهِ مَنْ الْخَطَأُ وَهُوَ لَا يَنَافِي إِمْكَانَ الْخَطَأِ بِحَسَبِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ لَوْلَا حِفْظُ اللَّهِ فَقَوْلُهُ:

وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

فِي الْحَقِيقَةِ يَفْسِّرُ الْعِصْمَةَ فِي الْمَعْصُومِ وَإِمْكَانَ الْخَطَأِ عَقْلاً لَا يَنَافِي عَدَمَ إِمْكَانِهِ عَادَةً وَشَرْعاً وَفِي قَوْلِهِ: **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ** إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْفِيقٍ مِنْ جَانِبِ الرَّبِّ وَفِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ أَحْوَجُ وَذَلِكَ لِمَا ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ عِدَاوَةُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ:

بَابُ
فِي
الْقَوْلِ
الْمَعْنَى

جزء ١٢

بَابُ
فِي
الْقَوْلِ
الْمَعْنَى

قال الله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ^(٢).

و الأيات في التحذير منه كثيرة و من المعلوم بل المحسوس أنه في مورد الشهوة و لا سيما الجنسية منها أقوى و أطمع منه في غيرها لأن أعمال الشهوة الجنسية يقتضيه الطبع البشري بمقتضى طبيعته و ذاته و بذلك قال الشيطان لنوح النبي في نصيحته إياه يا نوح لا تخلو مع المرأة الأجنبية، و اذا كان كذلك فلولا لطف الله و عنايته للعبد لا يقدر العبد من حفظ نفسه عن شره و الله تعالى هو القادر على دفع شره نقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فينبغي للعبد أن يتعوذ به في جميع أموره و هذا هو الأصل في باب السلوك الى الله فمعنى قوله: وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ فِي الْحَقِيقَةِ يرجع كيد الشيطان أي و إلا تصرف عني كيد الشيطان و لم يصرح بإسمه لأن المرأة من أظهر مصاديق كيده لوجود الشهوة الجنسية في الرجل و المرأة فطريقها من أحسن طرق العصيان كما أوضحناه.

و محصل الكلام في هذا المقام هو أن يوسف دعا ربه و إلتمس منه أن يوفقه على دفع مكرهن لأنهن من أجلى مكائده و مصائده و سيأتي لهذا المقام زيادة توضيح إن شاء الله في المستقبل.

المقام الثاني: قوله: وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ أي إن لا تصرف عني كيدهن أكن من الجاهلين، أو يقال إن لا تصرف عني كيدهن أصب اليهن و اذا كان كذلك أكن من الجاهلين و فيه إشارة الى أن ارتكاب المعاصي من الجهل.

و قال بعض المفسرين في معنى قوله: وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ أي و أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل لأنه بمنزلة من قد اعتقد الشيء على خلاف ما

هو به وإلا فهو كان عالماً بأن ذلك معصية والغرض فيه بيان أنّ صفة الجهل من أغلظ صفة الذم انتهى قوله في التبيان.

وقال القرطبي أي إن لم تلتطف بي في إجتنب المعصية و وقعت فيها وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ أي مَن يرتكب الإثم و يستحقّ الذنب أو مَن يعمل عمل الجهال و دلّ هذا على أنّ أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلاّ بعون الله و دلّ أيضاً على قبح الجهل و الذم لصاحبه انتهى.

وقال صاحب الكشف في قوله: وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ من الذين لا يعملون بما يعلمون لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو و من لا يعلم سواء، أو من السفهاء لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح انتهى.

و أنت ترى أنّ ما ذكره في معنى الكلام لا يساعده سياق الكلام في الآية و ذلك لأنّ معنى الجهل الذي هو ضدّ العلم لا خفاء فيه و لا يحتاج الى التّطويل و التوضيح و أنّما الكلام في أنّ قوله: وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ معطوف على قوله: أَصْبُ إِلَيْهِنَّ بمقتضى الواو العاطفة فيصير المعنى في الآية و إلاّ تصرف أي إلاّ تمنع كيدهنّ أصب اليهنّ أولاً أكن من الجاهلين ثانياً و عليه فالميل اليهنّ و الجهل أمران يتّربان على عدم المنع أمّا ترتّب الميل على عدم الصّرف فلا إشكال فيه بمقتضى الطّبيعة كما شرحناه و أمّا ترتّب الجهل على عدم الصّرف ففيه نوع غموض لأنّ الميل اليهنّ لا يختصّ بالجاهل يل يعمّ الجاهل و العالم معاً و بعبارة أخرى ظاهر الآية يدلّ على أنّ الله إن لا يصرف عني كيدهنّ أكن مائلاً اليهنّ و جاهلاً و مفهومه إن منع عني كيدهنّ لم أكن مائلاً و لا جاهلاً كما ترى اذ لا ملازمة بين الميل و الجهل.

نعم لو قال و أكن من الخاطئين مثلاً كان مناسباً لما ذكره و فهموه من الآية و إنّي بعد مراجعتي الى ما عندي من التّفسير لم أر فيها ما يرتفع الإشكال به بل لم أر من تقطن لذلك و الذي يقوّي في النّظر هو أنّ الجهل في الآية ليس ضدّاً للعلم و توضيحه أنّ الجهل يستعمل على أقسام:

أحدها: خلو النفس من العلم بالشئ وهذا هو الأصل و يقال أنه ضد العلم.
 الثاني: إعتقاد الشئ بخلاف ما هو عليه و يعبر عنه بالجهل المركب كما
 يعبر عن القسم الأول بالجهل البسيط.
 الثالث: فعل الشئ بخلاف ما حقه أن يفعل سواء إعتقد فيه إعتقاداً
 صحيحاً أو فاسداً كما في تارك الصلاة متعمداً و هكذا غيرها من الواجبات اذا
 عرفت هذا فنقول:

الجهل في قوله: وَ أَكُنْ مِنْ أَجْهَلِينَ ليس من القسم الأول و الثاني قطعاً
 لأن يوسف كان عالماً بقبح العصيان و أن الميل اليهن في حق النبي معصية لأن
 النبي لا يعصي و لا يريد المعصية فلا محالة يكون الجهل في الآية داخلاً في
 القسم الثالث و هو فعل الشئ بخلاف ما حقه أن يفعل و عليه فالمعنى إلا
 تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَكُنْ ماثلاً اليهن طبعاً و اذا كنت ماثلاً بمقتضى الطبيعة
 البشرية أفعَل و أعمل بخلاف ما حقه أن يفعل أي إرتكب المعصية و هي
 خلاف ما حقه أن يفعل لأن ما حقه أن يفعل هو طاعة الرب لا العصيان و يعبر
 عنه بالجهل لأن العاقل لا يفعل شيئاً على خلاف ما هو حقه و الجهل بهذا
 المعنى هو الذي يصح أن يعطف على قوله أصب اليهن لأنه من لوازمه و
 تبعاته قهراً هذا ما فهمناه من الآية و الله أعلم بحقيقة كلامه.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أي لما
 دعا يوسف ربه و طلب منه أن يصرف كيدهن عنه فاستجاب له ربه أي أجابه
 الله يوسف الى ما دعاه به فصرف الله أي منع عنه كيدهن أنه سمع أي عالم
 بالمسموعات و عليم أي لا يخفى عليه شيء.

و أعلم أن يوسف كان عالماً بما دعت اليه و أنه قبيح يستحق فاعله به الذنب
 و مع سأل الله تعالى أن يصرف عنه كيدهن و المفروض أن كيدهن الذي هو
 دعاء هن و إغواء هن قد حصل من قبل فكأنه قد سأل الله لطفاً من أطافه
 يصرفه عنده عن إجابة النسوة الى ما دعونه من إرتكاب المعصية لأن ظاهر

القول خرج مخرج الشرط و الجزء المقتضيين للإستقبال و في الآية إشارة بل دلالة على أنّ العبد لا يد له من الدعاء و على الله الإجابة:
قال الله تعالى: **أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**^(١).

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**^(٢).

قال بعض العرفاء لا يمكن الخروج من النفس بالنفس و أنما يمكن الخروج عن النفس بالله و قد وردت في مدح الدعاء و التّغيب اليه أخبار كثيرة سنشير الى شطر منها في موضعه إن شاء الله و لنعم ما قيل بالفارسية:
دام سخت است مگر لطف خدا يار شود ورنه آدم نبرد صرفه ز شيطان رجيم



ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّى
 حِينِ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا
 إِنِّي أَرِنِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي
 أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا
 بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا
 يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ
 أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
 مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
 وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبِي السِّجْنَ
 ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
 (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا
 أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ
 الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)
 يَا صَاحِبِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَ
 أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ
 الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ
 أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسِيَهُ الشَّيْطَانُ
 ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

◀ اللغة

بَدَا لَهُمْ أَيْ ظَهَرَ.
فَتَيَّانِ تَنْثِيَةً فَتَى وَ الْفَتَى الشَّابُّ الْقَوَى.
أَعَصِرُ خَمْرًا الْخَمْرُ الْعَنْبُ إِذَا كَانَ فِي الشَّدَةِ وَبَاقِي اللَّغَاتِ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

◀ الإعراب

بَدَا لَهُمْ فِي فَاعِلٍ، بَدَا، ثَلَاثَةٌ أَوْجَهَ:
أَحَدُهَا: هُوَ مَحذُوفٌ وَ لَيْسَ جُنْتَهُ، قَائِمٌ مَقَامَهُ أَيِ بَدَا لَهُمُ السَّجْنُ فَحَذَفَ وَ أَقِيمَتِ الْجُمْلَةُ مَقَامَهُ.

الثَّانِي: أَنَّ الْفَاعِلَ مُضْمَرٌ وَ هُوَ مُصَدِّرٌ، بَدَا أَيِ بَدَا لَهُمُ بَدَاءً فَأُضْمِرَ.
الثَّالِثُ: أَنَّ الْفَاعِلَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ أَيِ بَدَا لَهُمُ رَأَى أَيِ فَأُضْمِرَ أَيْضاً وَحَتَّى مُتَعَلِّقَةٌ بِسَجْنَتِهِ وَقَالَ مُسْتَأْنَفٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ الْمَنَامُ حَالِ دَخُولِهِ هُوَ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ لِأَنَّ الدَّخُولَ لَا يُؤَدِّي إِلَى الْمَنَامِ فَوْقَ رَأْسِي ظَرْفٌ لِاجْتِمَاعِهِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الْخَبْرِ قَدَّمَ عَلَى ذِي الْحَالِ وَتَأْكُلُ صِفَةً لَهُ أَمْ أَلَلَهُ الْوَاحِدُ أَمْ هُنَا مُتَّصِلَةٌ سَمِيَّتُوهَا يَتَّعَدَى إِلَى مَفْعُولَيْنِ وَ قَدْ حَذَفَ الثَّانِي أَيِ سَمِيَّتُوهَا أَلَهُةً وَ أَسْمَاءٌ هُنَا بِمَعْنَى مَسْمِيَّاتٍ أَوْ ذَوِي أَسْمَاءٍ لِأَنَّ الْإِسْمَ لَا يَبْعُدُ أَمْ أَلَلَهُ يَجُوزُ فِيهِ الْإِسْتِثْنَاءُ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً، وَ قَدْ مَعَهُ مُرَادَةٌ مِنْهُمَا صِفَةٌ لِنَاجٍ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الَّذِي وَ لَا يَكُونُ مُتَعَلِّقاً بِنَاجٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

المجلد الثالث

◀ التفسير

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا آيَاتٍ لَيْسَ جُنْتَهُ حَتَّى حِينٍ
أَخْبَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ ظَهَرَ لَهُمْ، لَمْ يَقُلْ، لَهُنَّ مَعَ تَقْدِمِ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّهُ
أَرَادَ بِذَلِكَ الْمَلِكَ وَ أَعْوَانَهُ وَ قِيلَ أَرَادَ الذَّكَورَ مَعَ النُّسوةِ مِنْ أَعْوَانِهِنَّ فَغَلَبَ

المذكر فقال لهم و فاعل، بدا، فضمرو و تقديره ثم بدا لهم بداء، من بعد من رأوا
الآيات، الدالة على صدق يوسف و كذب امرأة العزيز و المراد بها قد القميص
و قطع الأيدي و شهادة الطفل في المهد على قول من قال به و الآيات جمع آية
، و هي العلامة ليسجنه حتى حين، إنما هو فعل المذكر كما قال بدا لهم و لم
يقل، لهم و قد مر الكلام في وجه التذكير و دخلت التثنية جواً للقسم و
قوله: **حَتَّىٰ حِينٍ** أي الى مدة غير معلومة و **حَتَّىٰ** بمعنى، الى، و الحق أن
الحين بكسر الحاء و سكون الياء و التثنية وقت بلوغ الشيء و حصوله و هو مبهم
المعنى و يتخصص بالمضاف اليه نحو و لات حين مناص^(١) و قال بعضهم أنه
يأتي على أوجه:

أحدها: للأجل نحو قوله: **وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**^(٢).

و قوله: **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**^(٣).

ثانيها: للمنة نحو قوله تعالى: **تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**^(٤).

ثالثها: للساعة نحو قوله: **حِينٍ تُفْسُونَ وَ حِينٍ تُصْبِحُونَ**^(٥).

رابعها: للزمان المطلق نحو قوله: **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنْ**

الدَّهْرِ^(٦) و قوله: **وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**^(٧).

و الظاهر أنه أريد به في المقام مطلق الزمان الذي لا يعلمه إلا الله و هو
كذلك فإن ما ذكره في تفسير الكلام من ستة أشهر، أو ثلاثة عشر شهراً، أو تسع
سنين أو خمس سنين أو إثنتي عشرة سنة أو غير ذلك من الأقوال كلها حداث
لا دليل عليه و أعلم أن في الآية الشريفة نكتة خفية لا بأس بالإشارة إليها
إجمالاً و هي قوله: **مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ** وأنه أي فائدة فيه.

٢- يونس = ٩٨

٤- إبراهيم = ٢٥

٦- الإنسان = ١

١- ص ٣.

٣- البقرة = ٣٦

٥- الزوم = ١٧

٧- ص ٨٨

فنقول في ذكر هذا الكلام إشارة الى قبح سريرة من حكم بذلك بعد رؤية الآيات الدالة على عدم تحقق الذنب منه، و أنهم جعلوه في السجن بعد تمامية الحجة على عدم وجود الذنب في حقه و الحاكم بذلك أظلم ممن حكم به قبل تمامية الحجة لأنه يفعل ما يفعل مع علمه و هو أقبح و أفحش ممن يفعل فعلاً أو حكم بحكم جهلاً.

و قيل كان للعزير ثلاثة سجون، سجن العذاب، و سجن القتل، و سجن العافية، فأما سجن العذاب فكان محفوراً في الأرض و فيه الحيات و العقارب و هو مظلم لا يعرف فيه الليل من النهار.

و أما سجن القتل فإنه كان محفوراً في الأرض أربعين ذراعاً و كان الملك إذا سخط على أحدٍ يلقيه فيه على أم رأسه فلا يصل الى قعره إلا و قد هلك.

و أما سجن العافية فإنه كان على وجه الأرض الى جانب قصره فإذا غضب على أحدٍ من حاشيته حبسه في ذلك السجن فلما أرادت زليخا أن يسجن يوسف أرسلت الى السجن العافية و أمرته أن يصلح فيه مكاناً منفرداً ليوسف ثم قالت ليوسف، لقد أعيتني و أنقطعت منك حيلتي فلاسلمنك الى المعذبين يعذبونك كما عذبتني و لألبسنك بعد الحلي و الخلل جبة صوف تأكل جلدك و لأقيدنك بقيدٍ من حديد يأكل رجلك ثم نزعته ما كان عليه من اللباس و ألبسته جبة صوف و قيدته بقيدٍ من حديد قيل أن العزيز قد ظهر له براءة يوسف فلا جرم لم يتعرض له و أحتالت المرأة في طريق آخر فقالت لزوجها هذا العبد العبراني فضحني في الناس و أنا لا أقدر على إظهار عذري فأرى أن الأصلح أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث و كان العزيز مطيعاً لها و جملاً ذلولاً زمامه في يدها فأغتر بقولها كما هو شأن أكثر الرجال بالنسبة الى أزواجهم و كيف كان لما دنا يوسف باب السجن نكس رأسه فلما دخل قال بسم الله و جلس و أحاط به أهل السجن و هو يبكي فأتاه جبرئيل و قال له مم بكاءك و أنت اخترت السجن لنفسك فقال إنما بكائي لأنه ليس في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

العبد العبراني

السَّجْنُ مَكَانٌ طَاهِرٌ أَصْلَى فِيهِ فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ صَلِّ حَيْثُ شِئْتَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ طَهَّرَ دَاخِلَ السَّجْنِ وَخَارِجَهُ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا لِأَجْلِكَ فَكَانَ يَصَلِّي حَيْثُ يَشَاءُ وَكَانَ يَصَلِّي لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ عِنْدَ بَابِ السَّجْنِ وَلَنَعْمَ مَا قِيلَ:

بهر جا یار گل رخسار گردد اگر گلخن بود گلزار گردد

حَكِي أَنَّ يَوْسُفَ دَعَا لِأَهْلِ السَّجْنِ فَقَالَ اللَّهُمَّ أَعْطِفْ عَلَيْهِمُ الْأَخْيَارَ تَخَفْ عَنْهُمْ الْأَخْبَارَ، ثُمَّ أَنَّ زَلِيخَا أَثَرُ فِي قَلْبِهَا الْفِرَاقَ وَإِحْرَاقَ نَارِ الْإِشْتِيَاقِ وَصَارَتْ دَارَهَا عَيْنَ السَّجْنِ فِي عَيْنِهَا وَكَانَتْ تَتَفَكَّرُ فِي إِلْقَاءِ نَفْسِهَا مِنْ أَعْلَى الْقَصْرِ أَوْ شَرَبِ السَّمِّ حَتَّى تَهْلِكَ وَكَانَتْ لَهَا دَايَةٌ تَسْلِيهَا وَتَحْتَهَا عَلَى الصَّبْرِ ثُمَّ أَنَّهَا عَمِلَ صَبْرَهَا فَجَاءَتْ لَيْلَةٌ مَعَ دَايَتِهَا إِلَى السَّجْنِ وَطَالَعَتْ جَمَالَ يَوْسُفَ مِنْ بَعِيدٍ ثُمَّ لَمَّا أَصْبَحَتْ جَعَلَتْ تَنْظُرُ مِنْ رُوزَنَةِ الْقَصْرِ إِلَى جَانِبِ السَّجْنِ.

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَتَيَّانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَيْتِي أَعْصِرُ خَمْرًا

العصر مصدر عصرت و المعصور الشيء العصور و عصاره الشيء نفاية ما يعصر و إعتصرت من كذا أخذت ما يجري مجرى العصاره قال الشاعر:

وأنما العيش بربانه و أنت من أفنانه معتصر

و الفتى الشاب القوي وَ الْفَتَيَّانِ بفتح الفاء والتاء تثنيته والمعنى و دخل مع يوسف الجن فتیان قال أحدهما ليوسف أتني أراني أعصر خمرًا، أي في المنام رأيت كذا وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَيْتِي أَيُّ فِي الْمَنَامِ.

أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ أَيُّ مِنَ الْخَبْرِ نَبْتًا أَيُّ أَخْبَرْنَا بِتَأْوِيلِهِ أَيُّ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ هَذِهِ الرُّؤْيَا بِالْعَيْنِ وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إِلَى أَهْلِ السَّجْنِ فَأَحْسَنَ إِلَيْنَا بِكَشْفِ غَمَّتِنَا إِنْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَيْهِ.

قال الزجاج كانوا يسمون المملوك فتى شيخاً كان أو شاباً و الفتیان كانا غلامي ملك مصر الأكبر منهما صاحب شرابه و الآخر صاحب طعامه جرهما

أَنْ صاحب الطَّعام نَمَى اليه أَنَّهُ يريد أَنْ يسمَّه و ظَنَّ أَنَّ الآخر ساعده و وافقه على ذلك فأمرهما بالسَّجْن فقال أحدهما أَنِّي رأيتُ في المنام أَنَّ أعصر خمرًا و الخمر عصير العنب إذا كان فيه الشَّدة و التَّقدير أَنِّي أرى في المنام أعصر العنب للخمر و قيل هي لغة عَمَّان فيها تسمَّى العنب خمرًا تقديره عنب الخمر، و قيل كان في السَّجْن ناسٌ قد إنقطع رجاءهم و طال حزنهم فجعل يقول يوسف لهم أبشروا و أصبروا توجَّزُوا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك و ما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى قال أنا يوسف بن صفِّي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم السَّلام فقال له عامل السَّجْن لو إستطعت خلَّيت سبيلك و لكنِّي أحسن جوارك فكن في أي بيت من بيوت السَّجْن شئت.

روي أَنَّ الفتيين قالوا له إِنَّا لنحبَّكَ من حين رأيناك فقال أنشدكما بالله أن لا تحبَّاني فوالله ما أحبَّني أحدٌ قطَّ إِلَّا دخل عليَّ من حبِّه بلاء لقد أحبَّني عمَّتِي فدخل من حبِّها بلاء ثمَّ أحبَّني أبي فدخل عليَّ من حبِّه بلاء ثمَّ أحبَّني زوجة صاحبي فدخل عليَّ من حبِّها بلاء فلا تحبَّاني بارك الله فيكما.

قال بعضهم إبتلى يوسف بالعبودية و السَّجْن ليرحم المماليك و المسجونين إذا صار ملكاً في الأرض و إبتلى بجفاء الأقارب و الحساد ليعتاد الإحتمال من القريب و البعيد و إبتلى بالغرابة ليرحم الغرباء.

و في الخبر يجاء بالعبد يوم القيامة فيقال له ما منعك أن تكون عبدتي فيقول يا ربَّ إبتليتني فجعلت عليَّ أرباباً فشغلوني، فيجاء بيوسف في عبوديته فيقال أنت أشدُّ أم هذا فيقول بل هذا فيقال لم لم يمنعه ذلك أن عبدني، و يجاء بالغني فيقال له ما منعك أن تكون عبدتي فيقول يا ربَّ كثرت لي من المال فيذكر ما إبتلى به فيجاء بسليمان فيقال أنت أغنى أم هذا فيقول بل هذا فيقول لم لم يمنعه ذلك أن عبدني.

و يجاء بالمريض فيقال له ما منعك أن تعبدني فيقول ربّ ابتليتني فيجاء بأَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقال أنت أشدّ ضرراً و بلاءً أم هذا فيقول بل هذا فيقال لم لم يمنعه ذلك أن يعبدني و يجاء بيائس من رحمة الله بسبب عصيانه فيقال لم يئست من رحمتي فيقول لكثرة عصياني فيجاء بفرعون فيقال أنت كنت أكثر عصياناً أم هذا فيقول بل هذا فيقال له ما هو يائس من الرحمة التي وسعت كلّ شيء حيث أجرى كلمة التوحيد على لسانه عند الفرق فيوسف حجّة على من إبتلى بالرزق و العبوديّة إذا قصر في حقّ الله و سليمان حجّة على الملوك و الأغنياء، و أيوب حجّة على أهل البلاء و فرعون حجّة على أهل اليأس.

و قد ورد في الحديث إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا صَبَّ عَلَيْهِ البَلَاءُ صَبًّا.

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية بما أجاب به يوسف الفتيين اللذين سألاه عن المنام فقال لهما لا يأتیکما طعامٌ ترزقانه و الطّعام كلّ جسم يصلح للأكل و فيه طعم إلا أنه يختلف بإضافته الى الحيوان و الرزق العطاء الجاري في الحكم و كلمة، لا، للنفي إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا الإِسْتِثْنَاءُ مُفْرَغٌ مِنْ أَعْمَ الْأَحْوَالِ و المعنى ليس يأتیکما طعامٌ في حالٍ من الأحوال إِلَّا نَبَأْتُكُمَا، أي أخبرتكما بتأويله قبل أن يأتیکما بأن بيّنت لكما ماهيته من أي جنس هو و مقداره و كیفيته من اللون و الطّعم و سائر أحواله قالوا و إطلاق التأويل عليه بطريق الإستعارة فأن ذلك بالنسبة الى مطلق الطّعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى ما روي في المنام و شبهه له و قوله قبل أن يأتیکما أي قبل أن يصل الطّعام اليكما.

و المقصود من هذا الكلام هو أنّ يوسف أراد أن يدعوا الفتيين الى التّوحيد الذي هو أولى بهما و أوجب عليهما ممّا سألأ منه و يرشدهما الى الإيمان و يزيّنه لهما قبل أن يسعفهما بذلك كما هو طريقة الأنبياء و الصّلحاء في الهداية و الإرشاد و الشّفقة على الخلق فقدم ما هو معجزة من الأخبار بالغيب ليدلّهما على صدقه في الدّعوة و التّعبر و ذلك لأنّ الأنبياء و الأوصياء و الصلحاء من العلماء دائماً يتّهزون الفرصة لإرشاد الخلق قال رسول الله ﷺ **إِغْتَنَمُوا الْفُرْصَ فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**، و لا فرق في ذلك بين السّجن و خارجه و حيث أنّ الإخبار عن الغيب من أظهر المعجزات عن العامّة و الخاصّة أشار يوسف ﷺ بذلك و قال لهم ما قال و فيه دلالة على نبوّته ألا ترى أنّ عيسى ﷺ أيضاً قال نظير ذلك لأُمته في إثبات نبوّته حيث قال: **وَ أَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** ^(١) و قال بعضهم معنى ذلك أنّي عالمٌ بتعبير الرّؤيا إذ لا يأتيكما ما ترزقانه في منامكما إلّا نبأتكما بتأويله في اليقظة.

و قيل أنّ الملك إذا أراد قتل إنسانٍ صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به اليه فعلى هذا يرزقانه في اليقظة.

إِنْ قُلْتَ أَتُنَهَّمَا سَأَلَاهُ عَنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا فِي الْمَنَامِ وَ أَمَّا مَا أَجَابَهُمَا بِهِ يَوْسُفَ فَهُوَ شَيْءٌ آخَرَ لَا رِبْطَ لَهُ بِالسُّؤَالِ فَمَا الْوَجْهَ فِي عَدُولِهِ عَنْهُ بِهِ.

قُلْتَ لَعَلَّهُ كَرِهَ أَنْ يَعْبُرَ لَهُمَا مَا سَأَلَاهُ لِمَا عِلْمُهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ لِأَحَدِهِمَا فَأَعْرَضَ عَنْ سَأَالِهِمَا وَ أَخَذَ فِي غَيْرِهِ وَ قِيلَ عِلْمَ يَوْسُفَ أَنَّ أَحَدَهُمَا مَقْتُولٌ فَدَعَاَهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ لِيَسْعِدَا بِهِ، وَ قِيلَ أَمَّا قَدَّمَ هَذَا لِيَعْلَمَا مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ لِيَقْبَلَا إِلَى الطَّاعَةِ وَ الْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ.

ذَلِكُنَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ قال السّدي فقلا أي الفتيان ليوسف هذا الذي تقول هو

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد الثاني

من فعل العرافين و الكهنة فقال لهما يوسف ما أنا بكاهنٍ و آنما ذلك ممّا علّمني ربّي أنّي لا أخبركما به تكهنًا و تنجيماً بل هو بوحى من الله عزّ وجلّ و آنما قال ذلكما ولم يقل و ذلك لأنّ المشار اليه إثنان، التأويل للرؤيا، و الإخبار عن الغيب.

قال بعض المفسرين أنّه لمّا نبأهما بما يحمل اليهما من الطعام في السّجن قبل أن يأتيهما و يصفه لهما و يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفة كذا وكذا قالوا هذا من فعل العرافين و الكهنة فقال في جوابهما ذلكما ممّا علّمني ربّي فكأنّه قال له لماذا علّمتك ربك العلوم البديعة فقال في جوابهما إنّى أي لأنّى تركت، أي رفضت، ملّة قوم، كان من قوم مصر و غيره لا يؤمنون بالله و هم بالآخرة هم كافرون أي أنّما علّمني الله تأويل ما سألتما من الرؤيا و غيره من العلوم لأجل إيماني بالله و عدولي عن مسألة الكفار و إعراضي عنهم لجحدهم البعث و النشور و الجزاء بالثواب و العقاب و هم بالآخرة هم كافرون هم الثانية دخلت للتأكيد لأنّه لمّا دخل بينهما قوله: بالآخرة صارت الأولى كالملغاة و صار الإعتماد على الثانية كما قال: و هم بالآخرة هم يوقنون^(١).

و اتّبعتم ملّة آبائى إبراهيم و إسحاق و يعقوب ما كان لنا أن نشارك بالله من شئٍ ذلك من فضل الله علينا و على الناس و لكنّ أكثر الناس لا يشكرون

الواو للتعطف على ما سبق من قوله: اتّى تركتم ملّة قوم لا يؤمنون بالله و هم بالآخرة هم كافرون و اتّبعتم ملّة آبائى إبراهيم و إسحاق و يعقوب و فيه إشارة الى أنّ ترك الكفار لا يكفي في الاستعداد للإلهامات الغيبية بل يلزم الإيمان بالله و متابعة الأنبياء و العمل بالأحكام و غير ذلك و

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد التاسع

بعبارة أخرى أنما يعلم الله العبد بما يعلمه من تعبير الرؤيا والإخبار عن المغيبات وغيرهما من العلوم البديعة بعد أن يصل العبد الى مقام العبودية الكاملة ويستعد لقبولها والوصول الى هذا المقام يتوقف على أمرين:

أحدهما: رفض الباطل من الكفر والفسق والعصيان.

ثانيهما: متابعة الحق بسبب التوحيد والعمل الصالح و هذان الأمران قد حصلالي.

أما الأول: فأني قد رفضت و تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله الى آخره.

الثاني: فأني إبتعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب و هم كانوا من الأنبياء الموحدين ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء و هذا أي الرفض أولاً و الإقبال الى الحق ثانياً صار باعثاً على أن علمني ربي من العلوم.

فما قال بعض المفسرين في المقام من أن يوسف أراد بذلك أن يعرف شرف نسبه و أنه من أهل بيت النبوة لتكثير رغبتهما في الإستماع منه لا يرجع الى محصل و أن كان هذا المعنى يفهم من كلامه إلا أنه ليس بمقصود بالأصالة قطعاً لأن مجرد كون الإنسان من بيت الشرف و التقوى لا يوجب التقرب الى الله و إعطاء العلوم البديعة أيّاه و ذلك لأن كثيراً من أولاد الأنبياء لولا أكثرهم لم يكونوا في هذا المقام و كيف كان فالمعنى واضح.

وأما قوله: **ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**، ففيه إشارة الى أمور ثلاثة:

الأول: قوله **مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا**

الثاني: قوله **وَ عَلَى النَّاسِ**

الثالث: قوله **وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**.

أما الأول: ففيه إشارة الى أن الإيمان بالله و معرفة صفاته و الإنقياد له ظاهراً بالعمل و باطناً بالنية و الاعتقاد أنما هو من فضل الله و عنايته و توفيقه للعبد و ذلك لأنه من أحسن النعم و لا شيء أفضل منه و أنما يصل النبي الى مقام النبوة

في القرآن في تفسير قوله

جزء ١٢

الجلد الرابع

و الوصي الى مقام الوصاية و المؤمن الى مقام القرب ببركة الإيمان و ذلك من فضل الله علينا حيث إصطفانا و أختارنا من الخلق فهذا أول الفضل و أصله.

ثانياً: جعلنا من بيت النبوة و التقوى و لم يجعلنا في بيوت غيرهم و ذلك أيضاً فضل منه علينا و محصل الكلام هو أن الله تبارك و تعالى قد منّ علينا بفضله و كرمه حيث جعلنا كذلك.

أمّا المقام الثاني: و هو قوله: **وَ عَلَى النَّاسِ الْفِسَادُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ فَضْلَهُ عَمِيمٌ** و لا يختص بشخص دون شخص أو قوم دون قوم بل فضله و رحمته يشمل جميع الناس لأنهم عباده و هو خالقهم و أنما المانع منهم لا منه تعالى فأنه بعث الأنبياء اليهم لإرشادهم و هدايتهم و إيصالهم الى الكمال و إنما أنكر من أنكر لخبث طينته و سوء سريرته و عناده فأنهم لم يخلقوا عاجزين عن قبول الإيمان.

أمّا الثالث: و هو قوله: **وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ الشُّكْرَ تَصَوُّر** النعمة و إظهارها و قيل هو مقلوب عن أكثر أي الكشف و يضاده الكفرنسيان النعمة و سترها و هو على ثلاثة أقسام:

شكر القلب و هو تصور النعمة.

و شكر اللسان و هو الثناء على المنعم.

و شكر سائر الجوارح و هو مكافاة النعمة بقدر إستحقاقه و هو من أفضل الأقسام و أحسنها بل هو الشكر و ذلك لما ثبت في العلوم العقلية أن الآثار مرتبة على الوجود الخارجي و أما الوجود اللفظي و الذهني و الكتبي لا أثر له إلا الحكاية عن الواقع و حيث أن الشكر العملي في الحقيقة عبارة عن إيجاد الشكر في الخارج في قالب العمل فالآثار من الثواب و الأجر مرتبة عليه و لصعوبة هذا الشكر قال الله تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ** (١) أي الشكر العملي و أما اللفظي و القلبى فلا صعوبة فيه فقله و لكن أكثر الناس لا يشكرون، ناظر الى هذا القسم الأخير أعني العملي منه.

إِنْ قُلْتَ إِذَا كَانَ الشُّكْرُ عِبَادَةً عَنْ تَصَوُّرِ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارِهَا، فَأَيُّ نِعْمَةٍ فِي الْمَقَامِ لَا يَشْكُرُونَ عَلَيْهَا.

قُلْتَ نِعْمَةُ الدِّينِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ لِذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَأَنْكَرُوا الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ الْمُنْزِلَ وَإِنْكَارَ الْحَقِّ وَعَدَمَ الْإِلْتِزَامِ بِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا كُفْرَانِ النِّعْمَةِ وَهُوَ ضِدُّ الشُّكْرِ وَهُوَ وَاضِحٌ لَا خُفَاءَ فِيهِ.

يَا صَاحِبِي السِّجْنِ ءَأَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ أَلْوَحِيدُ أَفْقَهَارُ
قِيلَ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى فِي، وَالتَّقْدِيرُ يَا صَاحِبِي فِي السِّجْنِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ يَا
مَلَازِمِي السِّجْنِ وَالصَّاحِبُ يُقَالُ لِلْمَلَازِمِ لغيره عَلَى وَجْهِ الْإِخْتِصَاصِ بِوَجْهِ
مِنَ الْوُجُوهِ وَهُوَ خِلَافُ مَلَازِمَةِ الْإِتِّصَالِ وَلِذَلِكَ يُقَالُ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ وَ
أَصْحَابُ مَالِكٍ وَأَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُ غَيْرِ هَؤُلَاءِ لِمَنْ يَخْتَصُّ
بِمَذْهَبِهِمْ وَهَكَذَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ لِمَلَازِمَتِهِمْ لَهُ وَالْكَوْنُ مَعَهُ فِي حُرُوبِهِ.

لَمَّا ذَكَرَ يُوسُفَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ وَأَنَّهُ مَمَّنْ لَمْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ تَلَطَّفَ
فِي حَسَنِ الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى فُسَادِ مَا عَلَيْهِ قَوْمُ الْفَتَنَةِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ
فَنَادَاهُمَا بِاسْمِ الصُّجْبَةِ فِي الْمَكَانِ الشَّاقِّ الَّذِي يَخْلُصُ فِيهِ الْمَوْدَّةُ وَيَتَمَحَّصُ
فِيهِ النَّصِيحَةُ فَلَيْسَ فِي إِسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَخَطَابِ الْكَافِرِ بِالصَّاحِبِ فَضِيلَةٌ
لِلصَّاحِبِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يَكُونُ صَاحِبًا لِلْمُؤْمِنِ وَاقِعًا وَأَنْمَا يُطْلَقُ
الصَّاحِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْمَصَاحِبَةُ فِي الْمَكَانِ أَيْ كَوْنَهُمَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَ
الْعَجَبُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلَا سَيِّمًا عُلَمَاءَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ كَيْفَ
يَسْتَدْلُونَ عَلَى صِحَّةِ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِأَيَّةِ الْغَارِ بِتَقْرِيبِ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ لَا
تَحْزَنْ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا، بَعْدَ قَوْلِهِ ﷺ إِذْ قَالَ لِصَاحِبِهِ.

وَقَدْ قَالَ إِبْنُ تَيْمَةَ الْحَنْبَلِيُّ وَهُوَ مِنْ أَشْهُرِ عُلَمَاءِهِمْ فِي كِتَابِ الَّذِي سَمَّاهُ
بِإِحْيَاءِ السُّنَّةِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ أَعْنِي قَوْلَهُ إِذْ قَالَ لِصَاحِبِهِ الْخُ مِنْ أَحْسَنِ الْفَضَائِلِ
لِأَبِي بَكْرٍ كَيْفَ لَا وَهُوَ ﷺ عَدَّهُ صَاحِبًا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ هُوَ وَأَمْثَالُهُ وَأَتْبَاعُهُ

أَنْ إِطْلَاقَ الصَّاحِبِ عَلَى شَخْصٍ لَوْ كَانَ مِنْ أَحْسَنِ الْفَضَائِلِ وَأَنَّهُ أَلِيقٌ بِمَقَامِهِ مِنْ غَيْرِهِ لَكَانَ قَوْلُ يُونُسَ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ، مِنْ أَحْسَنِ الْفَضَائِلِ لِهَمَا مَعَ أَنَّهُمَا كَافِرَيْنِ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ هَفَوَاتِ الشَّيَاطِينِ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَرَضَ الْعِنَادِ لَا دَوَاءَ لَهُ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

و نقول الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية علي بن أبي طالب و الأنمة المعصومين من ولده و عليها نموت إن شاء الله.

ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَرْبَابُ جَمْعِ رَبِّ وَ الرَّبُّ فِي الْأَصْلِ التَّوْبَةُ وَ هُوَ إِشَاءُ الشَّيْءِ حَالًا فَحَالًا إِلَى حَدِّ التَّمَامِ يُقَالُ رَبُّهُ وَ رَبَّاهُ وَ قِيلَ لِأَن يُرْتَّبِي رَجُلٌ مِنْ قَرِيشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ يَرْتَّبِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنٍ فَلَارَبَّ مُصَدَّرٌ مُسْتَعَارٌ لِلْفَاعِلِ وَ لَا يُقَالُ الرَّبُّ مُطْلَقًا إِلَّا لِلَّهِ الْمُتَكَفِّلُ لِمَصْلَحَةِ الْمَوْجُودَاتِ بِجَمِيعِ شَتُونِهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلْخَفَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِذَا ظَهَرَ مَعْنَى الرَّبِّ وَ أَنَّ الرَّبَّ الْمَطْلُوقَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَوْلُهُ: ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَيِ أَمْلَاكٍ مُتَبَايِنُونَ خَيْرٌ أَمْ الْمَالِكُ الْقَاهِرُ لِلْجَمِيعِ.

و عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ مُتَفَرِّقُونَ مِنْ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ وَ وَسْطٍ يَعْنِي الْأَوْثَانُ. وَ قَالَ قَوْمٌ، مَعْنَاهُ مُتَفَرِّقُونَ بِمَبَايِنَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ لِلْآخَرِ بِمَا يُوْجِبُ التَّقْصِيسَ نَقْلَ هَذِهِ الْوُجُوْهِ فِي التَّبْيَانِ.

أَقُولُ الْأَحْسَنَ حَمْلَ الْمُتَفَرِّقِينَ عَلَى التَّفَرُّقِ الْجَنَسِيِّ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يُتَّخَذُوهَا أَرْبَابًا لِأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ عَبْدُوهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً الْمَوَادِّ مِنَ الْخَشَبِ وَ الْحَدِيدِ وَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ غَيْرِهَا.

إِنْ قُلْتَ لَا خَيْرَ فِي الْأَرْبَابِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى سَوَاءٌ كَانَتْ مُتَفَرِّقِينَ أَمْ مُتَّفَقِينَ فَمَا وَجْهَ تَخْصِيصِهِ بِالذِّكْرِ لَوْ لَمْ يَقُلْ ءَأَرْبَابٌ يُتَّخَذُتُمُوهَا خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

قلت التفرق في الأرباب من أدلّ الدلائل على بطلان الجميع لأنّ الرّب المطلق لا يصدق على الجميع و تخصيصه بواحدٍ منها ترجيح بلا مرجح ثم قال **أَمْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْإِسْتِفْهَامُ** إنكارِي والمعنى أنّ الله الواحد القهار خيرٌ و ذلك لأنّ الجماد و جوده و عدمه على حدّ سواء في هذا الباب و هكذا غيره من أقسام الموجودات فإنّ سوى الله كائنًا ما كان مخلوق له و كلّ مخلوق فقير و سيأتي البحث في هذا الباب مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى.

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَأَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

ما، نافية و المعنى لستم تعبدون من دون الله إلا أسماء سَمَّيْتُمُوهَا، أي لا تعبدون إلا ما سَمَّيْتُمُوهُ رَبًّا من عند أنفسكم أنتم و آباءكم الذين تفقدون بهم في عبادة الأوثان و ذلك لأنّ الأسماء التي سَمَّوْا بها ألّهتهم لا تصحّ معانيها فإنّها أسماء فارغة، خالية عن المعاني فكأنّهم أنما يعبدون الأسماء مجرّدة عن المعاني من إله و ربّ.

و أن شئت قلت لا مصداق لها في الخارج تحت عنوان الرّب و ما كان كذلك فلا وجود له أصلاً فصارت عبادتهم عبادة الألفاظ و الحروف **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** أي لم ينزل على صحّة ما تدعونه حجّة و لا برهاناً من العقل فهي باطلة في حدّ أنفسها و لو كانت صحيحة لكان عليها دليل **إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ** إن، نافية أي ليس الحكم إلاّ له تعالى و أنّما قال لله و لم يقل، له للإشارة الى أنّ كلمة، الله، علمٌ للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكماليّة من العلم و القدرة و الحياة و غيرها من الصفات.

أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ أي أمر الله ألاّ تعبدوا إلاّ إياه و أنّما لم يقل ألاّ تعبدوا غيره، و قال إياه لإفادة الحصر و أنّ المعبود منحصرٌ به و هذا أعني به

الإحصار لا يستفاد من غيره اذ من الممكن أن لا يعبد الإنسان غيره و لا يعبد أيضاً و المراد بالأمر في المقام التشريعي منه لا التكويني اذ لو كان الأمر تكوينياً لزم الجبر.

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أَي ذلك الدين المستقيم الذي لا عوج فيه و لكنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لا يعلمون، لعدولهم عن الحلق و النظر و الإستدلال ثمَّ أَنَّ الدِّينَ المستقيم في جميع الأزمان واحد و هو التَّوْحِيد و النَّبُوَّة و المعاد و أصول التكاليف المقررة و أمَّا الإختلاف في الأديان بحسب الفروع و كَيْفِيَّةُ العبادات و يعبر عن جميعها بدين الإسلام كما قال تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ.**

و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أَنَّ الإختلاف في الأديان الإلهية بحسب الكمية أو الكيفية أمّا هو لأجل التفاوت الموجود و الإستعدادات المختلفة في الأمم و قد ثبت أَنَّ الله تعالى جعل الأديان في كلِّ عصرٍ و زمانٍ على هذا الأساس كما هو مقتضى العدل و الحكمة.

قال بعض أهل التحقيق أَنَّ ما سوى الله كائناً ما كان في معرض الزوال و الفناء و العاقل لا يتبع الزائل الفاني بل يتبع الباقي بعد فناء كلِّ شيء و هو الله تعالى الذي خلق الإنسان و جعله مظهراً لأسماءه و صفاته و حيث أَنَّ المتابعة و الإنقياد لخالقه لا يتحقق إلا بإطاعة أوامره و نواهيه المعبر عنها في لسان الشريعة بالدين فلا جرم ينبغي به التّعبد بأحكامه و العمل بمقتضاه خالصاً لوجه الله و التّجنب عن الشّرك الجليّ و الخفيّ و هو الإخلاص التام الباعث الى وصول العبد الى مقام القرب.

يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ

أخبر الله تعالى في هذه الآية بما أجاب به يوسف للفتين اللذين سألاه عن الرؤيا فقال يا صاحبي السجن أي يا صاحبي فيه أمّا أحدهما فيسقي ربّه خمرًا،

يعني سيده و مالكه و هو الذي كان صاحب شرابه و قال له أني أراني أن أعصر خمرأ كأنه قال له أنت كذلك و فيه إشارة الى خلاصه من السجن و إشتغاله بما كان مشغلاً به قبله و هو سقاية الخمر للملك و أنما أجرى عليه صفة الرب لأنه مضاف، لا مطلق كما يقال رب الدار و رب الفرس قال عبد المطلب لأصحاب الفيل، أنا رب الإبل و للبيت رب و أنما قال أما أحدكما و لم يعينه لدلالة التعبير عليه.

و نقل أن يوسف قال له ما أحسن ما رأيت أما حسن الحيلة و هي أصل من أصول الكرم فهو حسن حالك و سلطانك و عزك و أما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضي في السجن ثم يوجه الملك اليك عند إنقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن.

و أما الآخر و هو الخباز، فيصلب فتأكل الطير من رأسه.

روي أنه عليه السلام قال له بئس ما رأيت أما خروجك من المطبخ فخروجك من عملك و أما السلال الثالث فثلاثة أيام تمر ثم توجه الملك اليك عند إنقضائهن فيصلبك فتأكل الطير من رأسك.

روي أن صاحب الصلب قال ليوسف، ما رأيت شيئاً، فقال يوسف قضي الأمر الذي فيه تستفتيان و هذا يدل على أنه كان ذلك بوحي من الله فقوله، قضي الأمر، أي فرغ منه و أتم و أحكم و هو ما رآياه من الرؤيتين و قوله تستفتيان، أي تطلبان فتواه و تأويله، و بالجملة كان الأمر كما أخبر به يوسف حيث أخرج الملك صاحب الشراب منه و رده الى مكانه و خلع عليه و أحسن اليه لما تبين له حاله في الأمانة و أخرج الخباز و نزع ثيابه و جلده بالسياط حتى مات لما ظهر عنده خيانتة و صلبه على قارعة الطريق و أقبلت طيور سود فأكلت من رأسه و هو أول من إستعمل الصلب ثم إستعمله فرعون موسى بعده.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسِيَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

أي قال يوسف لصاحب الشَّراب الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أي من الفئتين أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، قيل الظَّنُّ هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى: فَظَنَنْتُ أَبْنَى مُلَاقٍ جِسَابِيَةٍ^(١).

و قال قتادة الرؤيا الظَّن، وقال غيره إلا رؤيا الأنبياء فأنتها يقين، و الظَّن هو ما قوي عند الظَّانِّ كون المظنون على ما ظنَّه مع تجويزه أن يكون على خلافه، و النجاة هي السَّلامة و قوله عند رَبِّكَ، أي عند سيِّدك و المعنى أن يوسف قال للَّذِي علم أَنَّهُ نَاجٍ من الفئتين و المراد به هو صاحب الشَّراب أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ و سيِّدك قيل أتما سأله أن يذكره عند سيِّده بخير و يعرفه علمه و ما حضَّه الله من الفضل و العلم ليكون سبب خلاصه و الذِّكر حضور المعنى في النَّفس.

فَأَنْسِيَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ الظَّاهِرُ أَنَّ مرجع الضَّمير في قوله، و أنساه، هو الشَّرابي الَّذِي نجى من السِّجْن فقال له يوسف عند خروجه ما قال و المعنى أن الشَّيْطَانُ أنساه بوسوسته و إلقاءه في قلبه أشغالاً تعوقه عن الذِّكر و إلا فالإنساء في الحقيقة لله تعالى قيل والفاء في قوله: فَأَنْسِيَهُ لِلْسَّبَبِيَّةِ أي كان سبب الإنساء، هو تَوَجُّه يوسف بغيره تعالى من المخلوق كأنه قيل لم أنساه الشَّيْطَانُ، قيل لأجل التَّمسُّك و التَّوَصُّل إلى غير ربِّه هذا و للآية تأويل آخر ذكره بعض المحقِّقين.

و هو أن قوله: ظَنَّ أَي ظَنَّ النَّاجِي و ذلك لأنَّ الرَّجُلَيْنِ السَّائِلَيْنِ ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف و رسالته و لكن كان إعتقادهما فيه حسناً و عليه فقول يوسف في تعبيره الرؤيا لم يعد في حقهما إلا مجرد الظَّن و بعبارة أخرى أن الفئتين لم يتيقنا بتعبير يوسف لرؤياهما بل ظنَّا بصحَّته لحسن ظنَّهما به

فالمعنى قال يوسف للذي ظنَّ بصداقة يوسف في تعبيره أنه ناج من السَّجن أذكرني عند ربِّك فالظنُّ تعلُّق بالنَّاجي لا بيوسف فلا نحتاج الى أن نقول إنَّ الظنَّ في المقام بمعنى العلم.

و قال في قوله: فَأَنْسِيَهُ الشَّيْطَانُ الضَّمير في أنساه يرجع الى يوسف لا الى النَّاجي أي أنَّ الشَّيْطَان أنسى يوسف عن درك ربِّه حيث قال للنَّاجي أذكرني عند ربِّك ثمَّ أنه ذكر في إثبات ما إدَّعاه من كون الظَّان هو الفتى و مرجع الضَّمير في أنساه هو يوسف وجوهاً:

أحدها: أنَّ مصلحته كانت في عدم رجوعه في تلك الواقعة الى أحدٍ من المخلوقين.

و أن يقتدي بجده إبراهيم حيث قال في جواب الملك أليك حاجة، أما اليك فلا و لما عدل يوسف عن طريقة جده التي هي طريقة جميع الأنبياء و لا جرم وصف الله ذلك بأنَّ الشَّيْطَان أنساه ذلك التَّقويض و التَّوحيد و دعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين فبقي لذل السَّبب في السَّجن بضع سنين، و حاصله أنَّ رجوعه الى المخلوق صار سبباً لأمرين:

أحدهما: إستيلاء الشَّيْطَان عليه حتَّى أنساه ذكر ربِّه.

الثاني: أنَّه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدَّة طويلة.

ثانيها: أنَّه قال في إبطال عبادة الأوثان **ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ أَلَّوَّاحِدٌ أَلْفَهَارٌ** ثمَّ هاهنا يتَّوَسَّل الى غير الله الواحد القَهَّار و يثبت ربّاً غير الرّب بظاهر الأمر.

ثالثها: أنَّه نفى الشَّرْك في قوله: **مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** و معنى نفية على الإطلاق هو تفويض الأمور بالكلية الى الله تعالى فقوله أذكرني عند ربِّك كالمناقض له هذه خلاصة ما ذكره المستدلُّ في المقام.

و نحن نقول ما ذكره المشهور من المفسرين و نقلناه في صدر الآية أولى ممَّا ذكره هذا القائل لوجوه:

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٢

الجلد الثاني

أما أولاً: فلاَّه خلاف ظاهر الآية فإنَّ ظاهر الكلام هو أنَّ الظَّان هو يوسف و مرجع الضَّمير في، أنساه هو النَّاجي و هذا هو المشهور بين المفسِّرين.

ثانيها: أنَّ لازم ما ذكره المستدلُّ هو القول بجواز تسلُّط الشَّيْطان على الأنبياء و لا يقول به مسلمٌ عرف معنى العصمة فيهم و بعبارة أخرى يستفاد من كلام القائل أنَّ يوسف لمَّا عدل عن طريقة جدِّه إبراهيم في رجوعه الى المخلوقين فكأنَّه عاقبه الله بتسليط الشَّيْطان عليه حتَّى أنساه ذكر الله تعالى و قد قال الله تعالى حكايةً منه: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ** ^(١).

و هذا صريح في أنَّ الشَّيْطان لا يقدر على إغواء المخلصين، و أيُّ مخلص أخلص من النَّبي:

قال الله تعالى: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا** ^(٣).

قال الله تعالى: **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ^(٤).

فهذه الآيات و أمثالها كما ترى تنادي بأعلى صوتها على أنَّ الشَّيْطان ليس له سلطان إلا على الغاوين و ليس له سلطان على المخلصين و المتوكلين على الله و من المعلوم أنَّ الأنبياء من جهة الخلوص و التَّوكل في رأس البشر بل لا يقاس أحدٌ بهم فكيف يعقل أن يكون الشَّيْطان مسلطاً على يوسف فأنساه ذكر الله و قد ثبت أنَّه كان من الأنبياء و الحاصل أنَّ صرف وسوسة الشَّيْطان الى ذلك الرَّجل النَّاجي أولى من صرفه الى يوسف النَّبي حتَّى نحتاج الى التَّويلات الباردة التي لا تقبلها العقول المستقيمة.

و أما قوله: فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ فَأَنَّ البضع قطعة من الدهر و قبل البضع من الثلاث الى العشر، و قيل هو التسع و قيل السبع و هكذا و أما اللبث في المكان هو الكون فيه.

قال بعض المفسرين روي عن النبي ﷺ:

أَنَّهُ قَالَ رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ سَبْعاً بَعْدَ الْخَمْسِ انْتَهَى.

و لذلك قالوا أَنَّهُ لَبِثَ فِيهِ اثْنَتِي عَشْرَةَ سَنَةً عِدَدَ حُرُوفٍ، أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، فصاحبه اللذان دخلا معه السجن بقيا محبوسين فيه خمس سنين ثم رأيا رؤياهما قبل إنقضاء تلك المدة بثلاثة أيام و في هذا العدد كمال القوة و التأثير كالأنمة الأثنى عشر على عدد البروج الأثنى عشر و ملائكة البروج الأثنى عشر أئمة العالم و العالم تحت إحتاطهم و في الخبر إشارة الى قوة هذا العدد معناه أَذْكَرْنِي عَشْرَ أَلْفًا لَنْ يَغْلِبَ عَنْ قَلْبِهِ أَبَدًا و لا إله إلا الله، أَثْنِي عَشْرَ حُرُفًا وَكَذَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ و لكل حرف ألف باب فيكون للتوحيد أَثْنِي عَشْرَ أَلْفِ بَابٍ حَبَسَ اللَّهُ يُوسُفَ فِي السِّجْنِ أَثْنِي عَشْرَ عَامًا لِتَكْمِيلِ وَجُودِهِ بِكَمَالَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَ السَّمَاءِ فِيهِ الْعِدَدُ الْمَذْكُورُ إِشَارَةً إِلَيْهِ مَعَ إِخْوَتِهِ الْأَحَدَ عَشَرَ فَلَهُ الْقُوَّةُ الْجَمْعِيَّةُ الْكَمَالِيَّةُ هَذَا مَا ذَكَرُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

و لتوضيح المقال و حسن الختام نذكر في الباب ما ورد في تفسيره من الأنمة الأطهار عليهم سلام الله الملك القهار فنقول:

فعن تفسير العياشي عن طربال عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما أمر الملك بحبس يوسف الى قوله ثم قال للذي ظن أَنَّهُ ناج منهما أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، ولم يفزع يوسف في حاله الى الله فيدعوه فلذلك قال الله فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ، قال عليه السلام فأوحى الله الى يوسف في ساعته تلك، يا يوسف من أراك

الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَيْتَهَا فَقَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي، قَالَ فَمَنْ حَبَّبَكَ إِلَى أَبِيكَ قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي، قَالَ فَمَنْ وَجَّهَ السَّيَّارَةَ إِلَيْكَ قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي، قَالَ فَمَنْ عَلَّمَكَ الدُّعَاءَ الَّذِي دَعَوْتَ بِهِ حَتَّى جَعَلَ لَكَ مِنَ الْحَبِّ فَرْجًا، قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي، قَالَ فَمَنْ جَعَلَ لَكَ مِنْ كَيْدِ الْمَرْأَةِ مَخْرَجًا.

قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي، قَالَ فَمَنْ أَنْطَقَ لِسَانَ الصَّبِيِّ بِعَذْرِكَ، قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي قَالَ فَمَنْ أَلْهَمَكَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّي، قَالَ فَكَيْفَ اسْتَغْنَتْ بِغَيْرِي وَلَمْ تَسْتَغْثِ بِي وَتَسْأَلْنِي أَنْ أَخْرَجَكَ مِنَ السَّجْنِ وَاسْتَغْنَتْ وَأَمَلْتَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي لِيَذْكُرَكَ عِنْدَ مَخْلُوقٍ مِنْ خَلْقِي وَهُوَ فِي قَبْضَتِي وَلَمْ تَفْرَعْ إِلَيَّ الْبَثَّ فِي السَّجْنِ بِذَنْبِكَ بَضْعَ سَنِينَ بِإِرسَالِكَ عَبْدًا إِلَى عَبْدٍ انْتَهَى.

و فِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِأَسْنَادِهِ عَنْ شُعَيْبِ الْعَقْرَقُوفِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ أَنَّ يُوسُفَ أَتَاهُ جَبْرِئِيلُ فَقَالَ لَهُ يَا يُوسُفُ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَقْرُوكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ مَنْ جَعَلَكَ أَحْسَنَ خَلْقِهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَاحَ يُوسُفُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّ، ثُمَّ قَالَ، وَ يَقُولُ لَكَ مِنْ حَبِّكَ إِلَى أَبِيكَ دُونَ إِخْوَتِكَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَاحَ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ وَقَالَ أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ، وَيَقُولُ لَكَ مَنْ أَخْرَجَكَ مِنَ الْجَبِّ بَعْدَ أَنْ طَرَحْتَ فِيهَا وَأَيَقُنْتَ بِالْهَلَكَةِ فَصَاحَ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ فَأَنَّ رَبَّكَ قَدْ جَعَلَ لَكَ عَقُوبَةَ فِي اسْتِغَاثَتِكَ بِغَيْرِهِ فَأَلْبَثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سَنِينَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا انْقَضَتِ الْمَدَّةُ وَأَنَّ اللَّهَ لَهُ فِي دُعَاءِ الْفَرْجِ وَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ أَخْلَقْتَ وَجْهِي عِنْدَكَ فَأَتَيْتُنِي أَنُوجَهُ إِلَيْكَ بِوَجْهِ أَبَائِي الصَّالِحِينَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلت - جعلت فداك أندعوا نحن بهذا الدعاء فقال عليه السلام أدع بمثله اللهم
أن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فأني أتوجه اليك بنيك بني
الرَّحمة محمّد وعلّي و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمّة عليهم
السّلام انتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدراية و
يستفاد منها أنّ لبثه في السّجن بضع سنين كان لأجل إستغاثته بغير الله و هو
من الذّنوب في حقّ الأنبياء و الأوصياء لمكان عصمتهم و أنّ لم يعد من الكبائر
في حقّنا و ذلك لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقربين فهو في حقّهم في
الحقيقة من ترك الأولى و منشأ القصور لا التّقصير و على هذا يحمل في
حقّهم في جميع الموارد و الحمد لله على كلّ حال.



وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ
أُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ
إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤)
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا
أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا
الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ
لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ
فِي سُنْبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ (٤٩)
وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ
أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي
قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ
مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ
الْعَزِيزِ آلَا نَحْصَحُكَ بِالْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ
نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنبَى

لَمْ أَخْنُتْ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

◀ اللغة

أَلْمَلِكُ ملكٌ بفتح الميم وكسر اللام القادر الواسع الذي اليه السياسة و
التدبير في أمور الناس في المملكة.

بَقَرَاتٍ بفتح الباء والقاف جمع بقرة.

سِمَانٍ بكسر السين جمع سمينه، نعتٌ لبقرات، والسمن زيادة في البدن من
الشحم واللحم.

عِجَافٌ العجف ييس الهزال والأثنى منه عجفاء والجمع عجاف والقياس
منه عجف لأن أفعل وفعلاء لا يجمع على فعال لكنه حمل على نقيضه
سمان، والعجف الهزال والأعجف المهزول.

سُبُلَاتٍ خُضِرٍ سُبُلَاتٍ بضم السين وسكون النون وضم الباء جمع سبل
كذلك وقيل أنها جمع، سنبلة، وخُضِرٍ بضم الخاء وسكون الضاد والراء جمع
خضرة.

يَابِسَاتٍ واحدها يابسة يقال أيبس العود، زالت رطوبته فاليابس ضد
الرطب.

أَلْمَلَأْتُ بفتح الميم واللام الجماعة.

رُؤْيَايَ الرؤيا ما يراه الإنسان في المنام.

أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أضغاث بفتح الألف جمع ضغث بكسر الضاد وسكون
الغين وهو الحزمة من الحشيش أي قبضة منه مختلطة الرطب باليابس و
الأحلام جمع حلم، بضم اللام وسكونها وهي الرؤيا الكاذبة.

وَأَذَكَّرَ الْإِذْكَارَ طَلَبَ الذِّكْرِ وَمِثْلُهُ التَّذْكَرُ وَزَنَهُ الْإِفْتَعَالُ مِنَ الذِّكْرِ وَأَصْلُهُ
الْإِذْتِكَارُ فَقَلِبْتَ التَّاءَ دَالًا وَادْغَمْتَ فِيهَا الدَّالَ عَلَى أَصْلِ إِدْغَامِ الْأَوَّلِ فِي الثَّانِي
وَيَجُوزُ، إِذْكَرَ، عَلَى تَغْلِيْبِ الْأَصْلِيِّ عَلَى الزَّائِدِ.

أُمَّةٌ بِضَمِّ الْأَلْفِ الْجَمَاعَةُ.

أَنْبِئُكُمْ مِنَ النَّبَأِ وَهُوَ الْخَبَرُ أَيْ أَخْبِرْكُمْ.

تَزْرَعُونَ مِنَ الزَّرْعِ وَالزَّرَاعَةُ.

دَابَّ الدَّابُّ بِفَتْحِ الدَّالِ إِسْتِمْرَارَ الشَّيْءِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ الْعَادَةُ يَقَالُ دَابَّهُ كَذَا أَيْ
عَادَتُهُ.

حَصَدْتُمْ الْحَصْدَ قَطَعَ الزَّرْعَ.

فَذَرَوْهُ أَيْ إِتْرَكُوهُ.

تُحْصِنُونَ الْإِحْصَانَ الْإِحْرَازَ يَقَالُ أَحْصَنَهُ إِحْصَانًا إِذَا أَحْرَزَهُ.

يُعَاثُ الْغَوْثُ النَّفْعُ الَّذِي يَأْتِي عَلَى شِدَّةٍ حَاجَةٍ يَنْفِي الْمَضَرَّةَ.

يَعْصِرُونَ أَصْلَ الْعَصْرِ عَصَرَ الْعَنْبِ وَمِنْهُ الْعَصَارَةُ وَهِيَ مَا يَخْرُجُ بِالْعَصْرِ.

حَصَّصَ الْحَقُّ أَيْ بَانَ الْحَقُّ يَقَالُ حَصَّصَ الْأَمْرَ أَيْ حَصَلَ عَلَى أَمْكِنَ

وَجُوهِهِ.

أَخُوهُ مِنْ خَانَ يَخُونُ وَالْخِيَانَةُ مَخَالَفَةُ الْعَهْدِ فِي السَّرِّ وَقِيلَ مَخَالَفَةُ الْحَقِّ وَ
ضِدَّهَا الْأَمَانَةُ.

الْغَيْبُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ مِنْ غَابَ يَغِيبُ وَالْغَيْبُ مُقَابِلُ الشَّهُودِ.

الإعراب

سَمَانٍ صِفَةُ لِبَقَرَاتٍ وَيَجُوزُ فِي الْكَلَامِ نَصْبُهُ نَعْتًا لِسَبْعٍ وَيَأْكُلُهُنَّ فِي مَوْضِعٍ
جَزْأً أَوْ نَصْبٍ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَمِثْلُهُ خُضِرَ، لِلزُّوْيَا قِيلَ اللَّامُ فِيهِ زَائِدَةٌ تَقْوِيَةُ
لِلْفِعْلِ لَمَّا تَقَدَّمَ مَفْعُولُهُ عَلَيْهِ نَجَا مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ وَ
يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الَّذِي أَذَكَّرَ أَصْلُهُ اذْتَكَّرَ فَأَبْدَلْتَ الدَّالَ دَالًا وَالتَّاءَ دَالًا

أيضاً ثم أدغمت الأولى في الثانية ليتقارب الحرفان دأباً منصوب على المصدر.

◀ التفسير

حكى الله تعالى في هذه الآية ما رآه الملك وهو ملك مصر الذي كان يوسف في حبسه في المنام وهو قوله تعالى: **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ** أي قال الملك رأيت في المنام سبعة بقرات سمان أي بقرات تتصف بالسمن وهو ضد الهزال **يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ** أي مهازل ورأيت أيضاً سبعة سنبلات خضر وأخرى يابسات **يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَي جماعة الأشراف والعلماء أَفْتُونِي** أي عبّروها وبيّنوا لي حكمها يؤل إليه من العاقبة **إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** أي تعلمون التعبير وهو الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة في المنام ما هو صورة أمثلة لها من الأمور الأفقية والأنفسية الواقعة في الخارج فالتعبير الجواز من صورة ما رأى إلى أمر آخر من العبور وهي المجاورة.

وقيل التعبير والعبارة نقل معنى التأويل إلى نفس السائل بالتفسير وهي من عبور النهر وغيره ومنه المعبر وأنما دخلت اللام في قوله: **لِلرُّؤْيَا** مع أنّ الفعل يتعدى بنفسه لأنه إذا تقدّم المفعول أضعف عمله فجاز إدخال حرف الإضافة لهذه العلة ولا يجوز يعبرون للرؤيا لأنه في قوة عمله.

قال بعض المفسرين وإعلم أنّ الرؤيا تطلب التعبير لأنّ المعاني تظهر في الصور الحسية منزلة على المرتبة الخيالية.

أقول روي أنّه لما دنى فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه التي حكاها الله تعالى فنزل جبرئيل على يوسف وسلم عليه ثم بشره بالفرج وقال له أنّ الله مخرجك من سجنك وممكن لك في الأرض يذلّ لك ملوكها ويطيعك جبابرتها ومعطيك الكلمة العليا على إخوانك وذلك بسبب رؤيا رآها الملك و

وَبَيَّنَّا
لِيُوسُفَ
رُؤْيَاهُ
فِي الْمَنَامِ
وَنُصَرِّفُ
الْأَمْرَ
كَيْفَ نَشَاءُ

جزء ١٢

المجلد الثالث

هي كيت و كيت و تأويلها كذا و كذا فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاءً و شدةً و جعلها آخراً بشرى روحمةً و ذلك أن الملك الأكبر الزيان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهرٍ يابسٍ سبع بقرات سمان في أثرهن سبع عجاف أي مهازيل و قد أقبلت العجاف على السمان فأخذف بإذانهن فأكلنهن إلا القرنين، و رأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتيت عليهن فلم يبق منهن شيء و هن يابسات و كذلك البقر كن عجافاً فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السمان فهالته الرؤيا فأرسل الى الناس و أهل العلم منهم و البصر بالكهانة و النجامة و العرافة و السحر و أشرف قومه فقال يا أيها الملاء أفتوني في رؤياي فقصّ عليهن الرؤيا.

فقال القوم أضغات أحلام، و هي الكاذبة المخطئة من الرؤيا و قيل في معناه، أخلاط أحلام، و الضغت بكسر الضاد في اللغة الحزمة من الشيء كالقبل و الكلاء و مات أشبههما أي ليست رؤياك بيينة و الأحلام الرؤيا المختلطة. و قال مجاهد أضغات الرؤيا أهوايلها.

و قال أبو عبيدة الأضغات ما لا تأويل له و الى هذا المعنى أشير بقوله:

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ
نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل مطلقاً.

و قيل أنهم لم يقصدوا تفسيراً و أنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله و الحق أنهم عجزوا عن تعبيرها لا أنهم علموا و لم يعبروها مع ما فيه من التقرب و المكانة عند الملك و لم تكن الرؤيا هائلة موحشة ليكتموها عن الملك و قد مرّ في شرح اللغات أن الأحلام جمع، حلم بضم الحاء و هو ما يراه النائم و أنما قيل ذلك لأن النوم حالة أناة و سكون ودعة، و أصل الحلم الأناة.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا أَيُّ مِنَ الْفَتَيْنِ اللَّذَيْنِ دَخَلَا مَعَهُ السَّجْنَ أَحَدُهُمَا
سَاقِي الْمَلِكِ وَالْآخَرُ كَانَ خَبَازًا وَالسَّاقِي نَجَا مِنَ السَّجْنِ وَالْخَبَازُ صُلِبَ ثُمَّ أُنْ
السَّاقِي وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ يُوسُفُ أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ كَانَ حَاضِرًا
فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ فَلَمَّا رَأَى عَجْزَ الْمَلَاءِ عَنْ تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُ، وَإِذْكَرَ، أَيُّ تَذْكَرُ
حَاجَةً يُوسُفُ وَهِيَ قَوْلُهُ أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَيُّ بَعْدَ حِينٍ، وَأَصْلُهُ
الْجُمْلَةُ مِنَ الْحِينِ وَقِيلَ الْأُمَّةُ لَا تَكُونُ الْحِينُ إِلَّا عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ
الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ كَأَنَّهُ قِيلَ بَعْدَ حِينٍ أُمَّةٍ أَوْ بَعْدَ زَمَنِ أُمَّةٍ وَالْأُمَّةُ الْجَمَاعَةُ
الْكَثِيرَةُ مِنَ النَّاسِ.

قال الأخفش هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع وكل جنس من
الحيوان أمة وروي عن ابن عباس أنه قرأ بعد أمة بفتح الهمزة وتخفيف الميم
بمعنى النسيان وعليه فالمعنى فإذكر بعد نسيان ومنه قول الشاعر:

أُمِّهْتُ وَكُنْتُ لَا أُنْسِي حَدِيثًا كَذَاكَ الدَّهْرُ نُوْدِي بِالْعُقُولِ

وقوله: أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ أَيُّ قَالَ السَّاقِي لَهُمْ أَنَا أَخْبِرْكُمْ
بِتَأْوِيلِ رُؤْيَا الْمَلِكِ فَأَرْسِلُونِ أَيُّ فَأُبْعَثُونِي حَتَّى أَبْحَثَ عَنْهُ وَأَخْبِرْكُمْ بِهِ وَأَمَّا
قَالَ ذَلِكَ لَهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّ يُوسُفَ يَعْبَرُ الرُّؤْيَا كَمَا هُوَ حَقُّهُ.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَ
سَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ

حكى الله تعالى في هذه الآية عن الذي نجا منهما وهو السَّاقِي أَنَّهُ جَاءَ إِلَى
يُوسُفَ فِي السَّجْنِ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُمْ أُبْعَثُونِي، وَقَالَ لَهُ يَا يُوسُفُ، حَذَفَ حَرْفَ
النِّدَاءِ لِأَنَّهُ إِسْمٌ عَلَمٌ وَالصِّدِّيقُ بِكَسْرِ الصَّادِ الْكَثِيرِ التَّصَدِّيقُ بِالْحَقِّ لِلأَذَلَّةِ عَلَيْهِ وَ
كُلُّ نَبِيٍّ صَدِّيقٌ بِهَذَا الْمَعْنَى، أَفْتِنَا، أَمْرٌ مِنَ الْإِفْتَاءِ أَيُّ أَخْبَرْنَا عَنْ حُكْمِ هَذِهِ الرُّؤْيَا

فِي
الْقُرْآنِ
تَعْبِيرُ
الْقُرْآنِ

جزء ١٢

الجزء الثاني

في المنام قالوا الفتيا جواب عن حكم المعنى و أما الجواب عن نفس المعنى فلا يسمّى به و لذلك خصّ الفتوى بالجواب عن الأحكام الشرعية و المفتي بالفقهاء الواجدين لشرائط الفتوى فيقال هذا ما أفنى به فلان، أو فتوى فلان.

و محصل الكلام أنّ المفتي يبيّن أحكام الله تعالى في الشريعة على أساس إجهاده و إستنباطه و لا يقول فيها عن نفسه ففي قوله ليوسف، أفنتا، دون أخبرنا، مع وحدة المعنى إشارة الى ما ذكرناه و هو أنّ يوسف لا يخبرهم عن نفسه بل يخبرهم عن الله و ذلك لأنّ يوسف قال له ولصاحبه في تعبير رؤياهما، ذلكما مما علّمني ربّي، و قال في موضع آخر قضي الأمر الذي فيه تستفتيان و فيه إشارة بل دلالة على أنّه كان يخبرهم عن الله و على هذا قال له أفنتا.

و من المحتمل أن يكون السّاقى ممّن أمن به سرّاً و لم يظهر إيمانه خوفاً من الملك و كيف لمّا طلب منه بيان حكم الرؤيا في سبع بقرات يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر و آخر يابسات ليرجع الى الملاء أو جميع الناس و يعلمهم به أي تعبير لرؤيا أو بمكانته و منزلته في العلم و إخباره عن الغيب أجاب به يوسف كما حكى الله عنه بقوله.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ

لما أعلمه السّاقى بالرؤيا جعل يوسف يفسرها له فقال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ الزّرع طرح الحبّ في الأرض بالدّفن مع التّعاهد له بالسّقي و سنين جمع سنة و كلّ سنة اثني عشر شهراً و قوله: دَأْبًا أي مستمراً و ما، في ما حصدتم موصوله و الحصاد و الحصد قطع الزّرع.

و محصل المعنى أنّ السّبع من البقرات السّمان و السّنبلات الخضر سبع سنين، مخصبات، و أما البقرات العجاف و السّنبلات اليابسات فسبع سنين، مجذبات فقوله: تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا أي متوالية متتابعة، فما حصدتم،

أي قطعتم من الزرع فذروه في سنبله، أي إتركوه لئلا يتسوس و ليكون أبقى إلا قليلاً ممّا تأكلون، أي إستخرجوا ما تحتاجون اليه بقدر الحاجة و هذا القول منه أمر:

الأول: خبر قال بعض المفسرين هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان و النفوس و العقول و الأنساب و الأموال فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة و كل ما يفوت منها شيئاً فهو مضارة و دفعه مصلحة و لا خلاف أنّ مقصود الشرائع إرشاد الناس الى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله و عبادته الموصلتين الى السعادة الأخروية و مراعاة ذلك فضل من الله عزّ وجلّ و رحمة رحم به عباده

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ

هذا تمام حكاية ما فسّر به الرؤيا يوسف و حاصله أنّه يجي بعد هذه السنين التي زرعتم فيها و حصدم سبع سنين أخر شداد و هي جمع شديدة يعني السنين المجذبات يعبر عنها بالقحط، يأكلن أي يأكل أهلنّ ما قدّمتم، أي ما إدخرتم لهنّ و لأجلهنّ أضاف الأكل الى السنين لأنّها بمنزلة ما يأكل ذلك لوقوع الأكل فيها كما يكون الأكل في الأكل قال الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو و غفلة
وليك نوم و الردي لك لازم

و من المعلوم أنّ النهار لا يسهو والليل لا ينام و أنّما يسهى في النهار و ينام في الليل حكى بعضهم أنّ يوسف كان يضع طعام الأثنين فيقرّبه الى رجل واحد فيأكل بعضه حتّى اذ كان يوم قرّبه له فأكله كلّهُ فقال يوسف هذا أول يوم من السبع الشداد إلا قليلاً ممّا تُحصِنُونَ أي ممّا تحبسون لتزرعوا لأنّ في إستبقاء البذر، تحصين الأقوات و قيل معناه تدخرون، و قيل تحرزون و المأل في الكلّ واحد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٢

المجلد الثاني

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ
 قَرَأَ الْكِسَائِي، تَعْرِضُونَ بِالتَّاءِ عَلَى اخْطَابِ أَيَّ أَنْتُمْ وَالْباقُونَ بِالْيَاءِ عَلَى
 الرَّجُوعِ إِلَى النَّاسِ، وَالْمَعْنَى ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ بَعْدَ السَّبْعِ الشَّدَادِ الْفَرَجُ وَ
 ذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ، يُغَاثُ النَّاسُ أَيَّ يُمْطَرُونَ، فَأَنَّ الْغَوْثَ النَّفْعَ الَّذِي يَأْتِي عَلَى
 شِدَّةِ حَاجَةٍ يَنْفِي الْمَضَرَّةَ وَالْغَيْثَ الْمَطَرُ الَّذِي يَجِيءُ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ وَقَوْلُهُ
 يُغَاثُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَيْثِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَوْثِ وَالْعَامُ السَّنَةُ
 مَأْخُوذٌ مِنَ الْعُومِ وَالْحَاصِلُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ حِكَايَةٌ مَا بَشَّرَ بِهِ يُوسُفُ الْمُسْتَفْتَى
 لَهُ أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ هَذِهِ السَّنِينَ الصَّعْبَةِ عَامٌ أَيَّ سَنَةٌ فِيهَا رَاحَةُ النَّاسِ مِنْ جِهَةِ
 الْمَعِيشَةِ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ، أَيَّ يَعْرِضُونَ الثَّمَارَ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الْخَصْبِ مِنَ
 الْعِنَبِ وَالزَّيْتُونِ وَالسَّمْسَمِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ تَحْلِبُونَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: يَعْرِضُونَ أَيَّ مَا شَأْنُهُ أَنْ يَعْرِضَ مِنَ الْفَوَاكِهَ لِكَثَرَتِهَا،
 وَأَنَّمَا كَرَّرَ فِيهِ، لِأَنَّ الْغَيْثَ وَالْغَوْثَ مِنْ فَعَلَ اللَّهُ وَالْعَصْرُ مِنْ فَعَلَ النَّاسُ وَ
 أَحْكَامُ هَذَا الْعَامِ الْمُبَارَكِ لَيْسَتْ مُسْتَنْبِطَةٌ مِنْ رُؤْيَا الْمَلِكِ وَأَنَّمَا هِيَ مِنْ جِهَةِ
 الْوَحْيِ فَبَشَّرَهُمْ بِهَا وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ يُوسُفُ حَيْثُ قَالَ ذَلِكَ مِمَّا
 عَلَّمَنِي رَبِّي.

وَأَنَا أَقُولُ الْعَبْدُ وَمَا فِي يَدِهِ كَانَ لِمَوْلَاهُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ مَا
 فِي يَدِهِ فِي طَرِيقِ رِضَاهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ الْمَعْطِي وَالْمَفِضُّ يَعْطِي مَنْ يَشَاءُ
 مَا يَشَاءُ وَيَمْنَعُ كَذَلِكَ.

أَزْمَةُ الْأُمُورِ طَرًّا بِيَدِهِ وَالْكَلُّ مُسْتَمْدَةٌ مِنْ مَدَدِهِ

وَقَالَ أَلْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلُهُ
 مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ
 لَمَّا فَسَّرَ يُوسُفُ رُؤْيَا الْمَلِكِ لِلسَّاقِي فَرَجَعَ إِلَى الْمَلِكِ وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ لَهُ
 يُوسُفُ فِي تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُ الَّتِي رَأَاهَا فِي الْمَنَامِ وَعَجَزَ الْمَلَأُ مِنْ تَعْبِيرِهِ فَلَمَّا سَمِعَ

الملك بذلك إستحسنه و علم أن ليوسف علماً و فضلاً يستحقّ به الإكرام و الإفضال فأراد أن يكرمه و يقرّبه و يستمع التّعبير المذكور من لسانه و لذلك قال للسّاقى إئتوني به أي أمر بإخراجه من السّجن و إحضاره عند الملك فلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ أَي لَمَّا جاء رسول الملك و هو السّاقى اليه و قال له أن الملك يدعوك فأبى أن يخرج معه و قال له، إرجع الى ربّك، أي سيّدك، فسأله، أي فأسأل الملك ليسأل و يتفحّص عن أصل القضية و أنما قال فأسله و لم يقل فأسألها تأدّباً و مراعاةً لحقّها أو احترازاً عن مكراها حيث اعتقد فيها أنّها مُقيمة في عدوة العداوة و أمّا النسوة فقد كان يطمع في صدّعهن بالحقّ و شهدتهن بإقرارها بأنّها راودته عن نفسه فاستعصم.

قيل أنما أبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السّجن إلا بعد أن يتفحّص الملك عن حاله مع النسوة لتكشف حقيقة الحال عنده لا سيّما عند العزيز و يعلم أنّه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد على تقبيح أمره و ليظهر كمال عقله و صبره و وقاره فأَن من بقى في السّجن إثنى عشرة سنة إذا طلبه الملك و أمره بإخراجه و لم يبادر على الخروج و صبر الى أن تتبيّن براءته من الخيانة في حقّ العزيز و أهله دلّ ذلك على براءته من جميع أنواع التّهم و على أن كلّ ما قيل فيه كان كذباً و بهتاناً و فيه دليل على أنّه ينبغي أن يجتهد في نفي التّهمة و يتّقي مواضعها.

مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَمَّا رَدُّ الرَّسُولِ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ السِّجْنِ مَعَهُ لَيِّبِنَ لِلْمَلِكِ بَرَاءَتَهُ وَ أَنَّهُ حَبَسَ بِظُلْمٍ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَ لَا إِعْتِرَافٍ بِذَنْبٍ.

إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ أَي أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِكَيْدِ النِّسْوَةِ.

و قيل المراد بالرّب هو العزيز و المعنى أن سيّدي العزيز عليمٌ بكيدهنّ. و الأوّل عليه أكثر المفسّرين و هو الظّاهر من الآية فإنّ العزيز لا يوصف بالعليم الذي هو مبالغة في العلم بل لم نر أحداً يتصفّ به في كلمات القوم ثمّ كيف يكون العزيز حليماً بكيدهنّ و هو نفسه دخل في كيد إمرأته من حيث لم يشعر به هذا ما قالوه في تفسير الآية.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْهِيمِ الْقُرْآنِ

جزء ١٢

المجلد الثاني

وأعلم أن العامة نقلوا في تفاسيرهم لهذه الآية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السجن ما لبثه أحببت الداعي ولم ألتمس العذر انتهى رواه القرطبي في تفسيره.

و روي أيضاً من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري.

و في رواية الطبري، يرحم الله يوسف لو كنت أن المحبوس ثم أرسل إلي خرجت سريعاً إن كان حليماً إنا انتهى.

وقال ﷺ لقد عجبت من يوسف و صبره و كرمه والله يغفر له حين سأل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشتط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب انتهى.

و قد نقل الطبري قبله هذه الأخبار في تفسيره و هكذا غيرهما من مفسريهم نقلوها في كتبهم راجع تفسير الكشاف للزمخشري، و تفسير البضاوي، و تفسير الكبير للرازي و تفسير الألوسي البغدادي والدّر المثور للسيوطي و روح البيان و غيرها من تفاسيرهم فأنهم نقلوا هذه الأحاديث واحداً بعد واحد من غير تدبر فيها و أنها من المكذوبات و المجعولات و المفتریات التي لا يقبلها العقل السليم الخالي عن شوائب الأوهام فضلاً عن المسلم المعتقد بمقام الرسول و لتوضيح ذلك نقول لا شك أن رسول الإسلام أفضل الرسل لقوله ﷺ:

أنا سيّد ولد آدم ولا فخر.

وقوله: كنت نبياً و آدم بين الماء والطين.

و قوله: لو أدركني أخي موسى ما وسعه إلا إتباعي و غير ذلك ممّا ورد في الباب و عليه أي على أفضلية الرسول على جميع الأنبياء

والمرسلين إجماع الأئمة و لا أظنّ فيه مخالفاً و اذا كان كذلك فيكيف يقول ما نقلوه عنه أليس هذا دليلاً على كون يوسف أفضل منه ﷺ بإقراره وإذعانه.

و من المعلوم المسلم عند الكل أنّ يوسف لم يكن من أولي العظم صاحب كتاب أو شريعة و أنّما كان نبياً من الأنبياء أمثال لوط و صالح و أبوه يعقوب و إسحاق و غيرهم و أين هذا من الذي يقول لو أدركني أخي موسى ما وسعته إلا إتباعي، و هو من أولي العزم، فاذا كان موسى مع كونه صاحب كتاب و شريعة ما وسعته إلا إتباع رسول الله فما ظنك بيوسف و أمثاله اذا ثبت هذا فتقول:

أمّا الحديث الذي رواه أبو هريرة أنّه قال يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبث الداعي و لم ألتمس العذر، يلزم منه أن يكون يوسف أصبر من رسول الله و أعلم و ذلك لأنّه صبر و إلتمس و العذر و رسول الله يقول لو لبثت في السجن ما لبثه أجبث الداعي و لم ألتمس العذر أي لو كنت مكانه لم أصبر و لازم ذلك كونه صبراً من رسول الله و من كان أصبر و أعلم فهو أفضل و لا يقول المسلم به فالحديث مجعول كما هو شأن أبي هريرة فأنّه كان ماهراً متخصصاً في جعل الحديث

و أمّا الذي رواه من صحيح البخاري الذي هو أصحّ كتاب في الإسلام بعد القرآن بزعمهم الفاسد حيث قالوا لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعاً أن كان لحليماً ذا أناة، فهذا الحديث أيضاً من المجعولات.

أما أولاً: فلأنّ ألفاظ الحديث تنادي بأعلى صوتها بأنّها ليست من كلام رسول الله الذي يقول أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، كان له أنس بلغة العرب و فصاحة الكلام يقطع بأنّ رسول الله ﷺ و هو هو لا يتكلّم بهذه الكلمات التي هي أشبه بكلمات المجانين و يدلّك على صحّة ما ذكرناه قوله و أن كان لحليماً، و الصحيح أن يقال أنّه كان حليماً.

ثانياً: قوله لخرجت سريعاً، ومن المعلوم أنَّ يوسف لم يخرج سريعاً لأنَّه كان حليماً ذا أناة، ومفهوم الكلام أنَّه كان كذلك لحلمه وأما أنا لخرجت سريعاً لعدم حلمي وصبري وهذا كما ترى يدلُّ على أنَّه كان أفضل من النَّبي لصبره وحلمه.

وأما الحديث الثالث وهو قوله لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه واللَّه يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتَّى أشتري أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرُّسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب فهو أيضاً من المجعولات.

أما أولاً: فلأنَّ صدر الحديث يدلُّ على أنَّ يوسف كان أصبر وأكرم من رسول اللّٰه ﷺ لأنَّه قال لقد عجبت من صبره وكرمه المعلوم أنَّ من تعجب رسول اللّٰه من صبره وكرمه كان أصبر وأكرم منه ﷺ ومن كان أصبر وأكرم فهو أفضل لا محالة وهو كما ترى.

ثانياً: قوله واللَّه يغفر له، أي ليوسف ما معناه أليس هذا الكلام يثبت له الذَّنْب والخطيئة وأما قلنا ذلك لأنَّ الغفران بعد ثبوت الخطأ والمفروض أنَّه أي يوسف كان نبياً معصوماً.

ثالثاً: هذا التعبير عن نبِيٍّ في حقِّ نبِيٍّ آخر لا يصح.

رابعاً: أنَّ قوله لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتَّى أشتري أن يخرجوني، لا يخلو الحال لها أن يقال أنَّ يوسف قد أخطأ حيث أجابهم ولم يشترط عليهم أن يخرجوه أو لم يخطأ، فأن أخطأ فهو لم يكن نبياً لأنَّ النَّبي معصوم من الخطأ، وإن لم يخطأ فما معنى قوله لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتَّى أشتري أن يخرجوني فأن كان الحديث من كلام رسول اللّٰه يلزم منه تخطئة يوسف أو تخطئة الرُّسول في قوله هذا حيث حكم بما حكم.

خامساً: أنَّ قوله ولقد عجبت منه حين أتاه الرُّسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، أيضاً غير معقول لما ذكرناه في الجملة السَّابقة مضافاً الى أنَّ قوله لبادرتهم الباب لا معنى له والصَّحيح لبادرت الباب اذ لم يكن هناك

شخصاً آخر غير يوسف مأذوناً بالخروج حتّى يقال لبادرتهم الباب و الأحاديث كثيرة في تفاسيرهم بهذه المضامين كلّها مكذوبة مجعولة يتنفر الطّبع منها والعجب من أمثال الرّازي و الرّمخشري و البيضاوي و أمثالهم ممّن يظنّ بهم الفضل كيف نقلوها و حكموا بصحّتها و لم يتوجّهوا الى ما فيها من علام الكذب و الاختلاف و جعلوها حجّة في تفسير كلام الله و لم يتفطنوا أنّ هذه الأحاديث لتضعيف الدّين و تنقيص مقام النّبوة و ليس هذا أوّل قارورة كسرت في الإسلام.

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ

قيل أنّ الملك أرسل الى النّسوة و الى إمراة العزيز و كان قد مات العزيز فدعاهنّ و قالَ مَا خَطْبُكَ أَي ما شأنك إذا راودتّ يوسف عن نفسه، أنّ كلّ واحدةٍ منهنّ كلّمت يوسف في حقّ نفسها أو أراد قول كلّ واحدةٍ قد ظلمت إمراة العزيز فكان ذلك مراودةً فيهنّ.

قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ حكاية عما أجابته به النّسوة فأنهنّ قلن للملك على وجه التّنزيه حاش لله أي عياذ بالله و تنزيهاً من هذا الأمر ما علمنا من سوء فأنّه كان منزهاً عنه.

قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ قلت إمراة العزيز و هي زليخا في جواب الملك الآن حصحص الحقّ أي بان و ظهر قيل لمّا رأت زليخا إقرار النّسوة ببراءة يوسف و خافت أن يشهدن عليها إن أنكرت فلا محالة أقرّت هي أيضاً و كان ذلك لطفاً من الله بيوسف، قالت أنا راودته عن نفسه و أنّه لمن الصّادقين، أقرّت على نفسها بالذّنّب و ليوسف بالصدّق و من المعلوم أنّ إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشّهادة عليه.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَىٰ لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ
 اختلف المفسرون في قائل هذا الكلام فقال بعضهم أنه من قول امرأة
 العزيز وهو متصل بقولها الآن حصحص الحق أي أقررت بالصدق ليعلم،
 يوسف، أتى لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه و لم أذكره بسوء و هو غائب بل
 صدقت و خرجت عن الخيانة ثم قالت و ما أبرئ نفسي الخ.

و قيل هو من قول يوسف و عليه فالمعنى، ذلك، يعني ذلك الأمر من فعلي
 من رد الرسول ليعلم العزيز أتى لم أخنه بالغيب و أتما قال يوسف ذلك لحضرة
 الملك و قال: لِيَعْلَمَ توقيراً للملك و قيل قاله اذ عاد اليه الرسول و هو في
 السجن.

وإعلم أن هذه الآية على ما قاله بعضهم تدل على طهارة يوسف من لا ذنب
 من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الملك لما أرسل الى يوسف و طلبه فلو كان يوسف متهماً بفعل
 القبيح و قد كان صدر منه ذنب لإستحال بحسب العرف و العادة أن يطلب من
 الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة لأنه يؤدي الى الفضيحة في صورة كشف
 الخلاف و العاقل لا يفعل ذلك فضلاً عن النبي المعصوم العالم بعواقب الأمور
 بأذن الله تعالى.

ثانيها: أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته و نزاهته حيث قلن حاش
 لله ما هذا إلا بشر إن هو إلا ملك كريم و في المرة الثانية أيضاً قلن حاش لله ما
 علمنا عليه من سوء.

ثالثها: أن امرأة العزيز و هي الأصل في تلك الواقعة قد أقرت في المرة
 الأولى و الثانية أيضاً بطهارته و أنه من الصادقين و قولها أنا راودته عن نفسه.

وابعها: قوله لِيَعْلَمَ أتى لم أخنه بالغيب و المعصوم لا يقول إلا صدقاً و حقاً
 و أن كانت الحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال جبرئيل عليه السلام
 لا حين هممت.

و فيما نقله القرطبي و هو من الحشوية أنّ جبرئيل قال له و لا حين حللت الازار و جلست مجلس الرجل من المرأة، و هذا من رواياتهم الخبيثة و ما صحّت هذه الرواية و أمثالها في كتاب معتمد بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيّاً منهم في تحريف ظاهر القرآن.

خامسها: قوله: **أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** أنّ صاحب الخيانة لا بدّ و أن يفتضح و حيث لم أفتضح بل ثبت عليهم براءة ذمتي و قداسة ساحتي من الذنب و العيب فلم أكن خائناً و هو المطلوب.

هذا آخر ما أردناه إirاده في تفسير كلام الله في المجلّد الثاني عشر و به تمّ الجزء الثاني عشر من القرآن و يتلوه الجزء الثالث عشر و هو قوله: (وما أبرئ نفسي) انشاء الله.



الجزء

الثالث عشر

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا
 مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ
 الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ
 قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ
 اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ
 (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ
 مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا
 نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا جُرْأُولَ الْأُخْرَةِ خَيْرُ
 لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَاءَ إِخْوَةُ
 يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ
 (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْنِي بِأَخٍ
 لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا
 خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ
 لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ
 أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا
 بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا
 انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا
 رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لَخَافِظُونَ (٦٣)

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ
مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (٤٤)

◀ اللغة

أَبْرَأْتُ مَتَكَلَّمٌ وَحْدَةً مِنْ، بَرَأَ، يُبْرَأُ والمصدر منه التَّبرئة جعله بَرِيئاً يقال
بَرَأَ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الْعَيْبِ أَوْ الدِّينِ، تَخَلَّصَ وَسَلَّمْ مِنْهُ.
لَأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ أَي تَنَازَعِ إِلَى السُّوءِ وَتَمِيلُ إِلَيْهِ وَالْأَمَارَةُ مَبَالِغَةٌ أَيْ كَثِيرَةٌ
الْأَمْرُ بِالشَّيْءِ.

أَسْتَخْلِصُهُ الْإِسْتِخْلَاصُ طَلَبُ خُلُوصِ الشَّيْءِ مِنْ شَائِبِ الْإِشْتِرَاكِ.
يَتَّبِعُوا مِنْ تَبَوُّأٍ أَيْ يَتَّخِذُ مِنَ الْأَرْضِ مَبَاءَةً وَمَنْزَلاً.
سَرُّ أَوْدٍ الْمَرَادَةُ الْمَطَالِبَةُ.

جَهَرَهُمْ الْجِهَازُ فَاحِرُ الْمَتَاعِ الَّذِي يَحْمِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ.
فَتَيَانٍ جَمْعُ فَتَى.
بِضَاعَتَهُمُ الْبِضَاعَةُ قِطْعَةٌ مِنَ الْمَالِ الَّتِي لِلتَّجَارَةِ.

◀ الإعراب

إِلَّا مَا رَجِمَ فِي، مَا، وَجِهَانُ:

أَحَدُهُمَا: هِيَ مَصْدَرِيَّةٌ وَمَوْضِعُهَا نَصَبٌ.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى، مَنْ، وَالتَّقْدِيرُ إِلَّا لِمَنْ رَحِمَ رَبِّي.

يَتَّبِعُوا حَالُ مِنْ يَوْسُفَ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْمَصْدَرِ
(حَافِظًا) تَمَيِّيزٌ.

◀ التفسير

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

قيل أن النفس مشتقة من التنفس لحصولها بطريق النفخ في البدن ولها خمس مراتب باعتبار صفاتها المذكورة في القرآن.

الأولى: الأمارة بالسوء وهي التي تمشي على وجهها تابعة لخواها.

الثانية: النفس اللوامة وقد أشير إليها بقوله تعالى: **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** (١) وهي التي لا تزال تلوم نفسها وأن اجتهدت في الإحسان وتلوم على تقصيرها في التعدي في الدنيا والآخرة.

الثالثة: النفس المطمئنة وهي النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها روح العلم وثلج اليقين فلا يخالجها شك.

الرابعة: الراضية وهي التي رضيت بما أوتيت.

الخامسة: المرضية وهي التي رضى عنها وبعضهم يذكر لها مرتبة أخرى وهي الملهمة بضم الميم وكسر الهاء على المشهور والظاهر فتح اللام لكونها مأخوذة من قوله تعالى: **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** (٢) والملهم هو الله تعالى وأما تجرد النفس وكيفية تعلقها بالبدن وتصرفها فيه فلبحث فيها مقام آخر وفي حديث كميل قال سألت أمير المؤمنين **عليه السلام** قلت أريد أن تعرفني نفسي.

قال يا كميل أي نفس تريد قلت يا مولاي هل هي إلا نفس واحدة فقال، يا كميل إنما هي أربع:

النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية وكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصتان.

جاء القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثالث

فَالنَّامِيَةُ النَّبَاتِيَّةُ لَهَا خَمْسُ قَوَى، مَاسِكَةٌ، جَازِبَةٌ، هَاصِمَةٌ، دَافِعَةٌ مَرَبِيَّةٌ وَ لَهَا خَاصَّتَانِ الزِّيَادَةُ وَ النِّقْصَانُ وَ إِنْبِعَاثُهَا مِنَ الْكَبْدِ وَ هِيَ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِنَفْسِ الْحَيَوَانِ.

وَ الْحَسِيَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ، لَهَا خَمْسُ قَوَى، سَمْعٌ، وَ بَصَرٌ، وَ شَمٌّ وَ ذَوْقٌ، وَ لَمَسٌ، وَ لَهَا خَاصَّتَانِ الرِّضَا وَ الْغَضَبُ وَ إِنْبِعَاثُهَا مِنَ الْقَلْبِ وَ هِيَ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِنَفْسِ السَّبَاعِ.

وَ النَّاطِقَةُ الْقَدْسِيَّةُ، لَهَا خَمْسُ قَوَى، فِكْرٌ، وَ ذِكْرٌ، وَ عِلْمٌ، وَ حِلْمٌ، وَ نِبَاهَةٌ وَ لَهَا خَاصَّتَانِ النَّزَاهَةُ وَ الْحِكْمَةُ وَ لَيْسَ لَهَا إِنْبِعَاثٌ وَ هِيَ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِنَفْسِ الْمَلَائِكَةِ.

وَ الْكَلِمَةُ الْإِلَهِيَّةُ (وَ الْكَلِمَةُ الْإِلَهِيَّةُ) لَهَا خَمْسُ قَوَى، بَقَاءٌ فِي فَنَاءٍ، وَ نَعِيمٌ فِي شِقَاءٍ، وَ عِزٌّ فِي ذُلٍّ، وَ فَقْرٌ فِي غِنَاءٍ، وَ صَبْرٌ فِي بَلَاءٍ، وَ لَهَا خَاصَّتَانِ الْحِلْمُ وَ الْكَرَمُ وَ هَذِهِ مَبْدِئُهَا مِنَ اللَّهِ وَ إِلَيْهِ تَعُودُ.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا** ^(١).

وَ أَمَّا عَوْدُهَا فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً** ^(٢).

وَ الْعَقْلُ وَسْطُ الْكُلِّ لِكَيْلَا يَقُولَ أَحَدُكُمْ شَيْئاً مِنَ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ إِلَّا لِقِيَاسٍ مَعْقُولٍ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا.

فَنَقُولُ قَوْلَهُ: **وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** إشارة إلى النَّامِيَةِ النَّبَاتِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِنَفْسِ الْحَيَوَانِ هَكَذَا قِيلَ وَ الْحَقُّ أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْحَسِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي تُشَبِّهُ نَفْسَ السَّبَاعِ وَ كَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ تَدْعُوا صَاحِبَهَا إِلَى الشَّرِّ وَ الْآفَاتِ وَ لَا تَدْعُوهُ إِلَى الْخَيْرِ وَ الصَّلَاحِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا بِمَقْتَضَى ذَاتِهَا وَ طَبْعِهَا مَائِلَةٌ إِلَى اللَّذَاتِ، وَ الْمُسْتَهْتَاتِ

التي لها سنخية معها كما أنّ الحيوان كذلك والسّر فيه هو أنّها واقعة بين القوة الشهوانية والقوة العاقلة فبالأولى تحرص على تناول اللذات البدنية البهيمية كالغذاء والسّفاد والتّغالب و سائر اللذات العاجلة الغانية و بالأخرى تحرص على تناول العلوم الحقيقيّة والخصال الحميدة المؤدية الى السّعادة الباقية أبداً الأبدين و الى هاتين القوتين أشار الله تعالى بقوله: **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**^(١) وقوله: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورٌ**^(٢) فإن جعلت الشهوة منقادة للعقل فقد فزت فوزاً عظيماً و أهدتيد صراطاً مستقيماً و أن سلّطت الشهوة على العقل وجعلته، منقاداً لها ساعياً في إستنباط الحيل المؤدية الى مرادتها هلكت يقيناً و خسرت خسراناً مبيناً.

وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ إذا تابعت القوة الشهوية سمّيت بهيمية، وإذا تابعت الغضبية سمّيت سبعية و أن جعلت رذائل الأخلاق لها ملكة سمّيت شيطانية و سمى الله تعالى هذه الجملة في التنزيل نفساً أمارّة بالسوء إن كانت رذائلها ثابتة و إن لم تكن ثابتة بل تكون مائلة الى الشرّ تارة و الى الخير أخرى و تندم على الشرّ و تلوم عليه سمّيت باللّوامة و أن كانت منقادة للعقل العلمي سمّيت مطمّنته و المعين على هذه المتابعات قطع العلائق البدنية كما قيل:

إذا شئت أن تحيي فمت عن علائق من الحسّ خمسُ تمّ عن مدركاتها
وقابل بعين النفس مرآة عقلها فتلك حياة النفس بعد مماتها
ثم أنّ هذه النفس الأمارّة بالسوء موجودة في جميع أفراد البشر لأنّ الإنسان حيوان ناطق، و الحيوان جنس و الناطق فصل و يعبر عن هذا التعريف بالحدّ التام فهو من حيث أنّه حيوان واجد للنفس الأمارّة حيث أنّه ناطق واجد للنفس الناطقة القدسية و الأنبياء و الأوصياء أيضاً كذلك لأنّهم لم يكونوا من جنس الملائكة لقوله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**^(٣)، وإذا كانوا كذلك فالنفس

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الرابع

الأمانة كانت موجودة فيهم كما في غيرهم من أفراد البشر فقله: **وَمَا أَبرَىٰ نَفْسِي الْخَ لَا يَنَافِي عَصَمَتِهِ بَلْ يُؤَيِّدُهَا وَيُثَبِّتُهَا لِأَنَّا لَا نَعْنِي بِالْعَصْمَةِ إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ مِنَ الْخَطَا لَا أَنَّ الْمَعْصُومَ خَلَقَ كَذَلِكَ بَحِثْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْعَصِيَانِ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ أَوْ لِعَدَمِ وَجُودِ الْأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ وَأَمْثَالِهِمَا فِيهِ وَعَلَيْهِ فَقُوله: **وَمَا أَبرَىٰ نَفْسِي**، إشارة إلى ما ذكرناه من أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَقْتَضَى طَبْعِهِ الْبَشَرِيِّ يَعْصِي وَيَخْطِئُ فَلَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَقُولَ أَنَا لَا أَعْصِي بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقُولَ **وَمَا أَبرَىٰ نَفْسِي** أي لست أتبرها عن الخطأ وقوله: **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**، إشارة إلى أَنَّ الْعَصْمَةَ تَحْتَاجُ إِلَى عناية الرَّبِّ هَذَا إِذَا قُلْنَا أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ يَوْسُفَ كَمَا هُوَ أَحَدُ الْإِحْتِمَالَيْنِ اللَّذَيْنِ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَأَمَّا إِذَا قُلْنَا أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ إِمْرَأَةِ الْعَزِيزِ كَمَا هُوَ الْإِحْتِمَالُ الثَّانِي فَلَأَمْرٌ أَسْهَلُ وَأَظْهَرُ وَيَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْصُومًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ يَحْتَاجُ فِي غَلْبَتِهِ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ وَعُنَايَتِهِ وَهُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ فِي الْحَقِيقَةِ مَظْهَرُ قُدْرَةِ الشَّيْطَانِ فِي الْبَشَرِ وَلَا مَدْخَلَ لَهُ فِيهَا وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنَعِ الشَّيْطَانِ وَرَدْعِهِ إِلَّا بِقُوَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**، وَسَتَكَلِّمُ فِي هَذَا الْبَابِ بَوَاجِهُ أَبْسَطَ فِيمَا تَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَقَوْلِهِ: **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**، فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِمَنْ عَصَى رَبَّهُ فَأَتَاهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، أَي سَاتَرَ عَلَى الثَّانِبِ ذَنْبَهُ وَرَحِيمٌ بِهِ فَأَنَّ رَحْمَتَهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَشْهُورَ فَسَّرُوا الْغُفُورَ بِالسَّرِّ وَالسَّاتِرِ وَقَالُوا أَنَّهُ غُفُورٌ أَي سَاتَرَ الذُّنُوبَ عَلَى عِبَادِهِ وَقَدْ أَنْكَرَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ.**

وَقَالَ مَغْفِرَةُ اللَّهِ مَفْسَرَةٌ بِالْغُفُوفِ وَالصَّفْحِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ أَي أَنَّ اللَّهَ يَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنِ الذَّنْبِ بَعْدَ التَّوْبَةِ.

ثُمَّ قَالَ وَأَمَّا الْغُفُورُ فَهُوَ أُبْلَغُ مِنَ الْغَافِرِ لِأَنَّ هَذَا الْبِنَاءَ لِلْمُبَالَغَةِ كَالصَّفُوحِ وَالصُّحُوكِ وَالْقَتُولِ وَالْأَكُولِ، ثُمَّ أَنَّ الْغَفَّارَ أُبْلَغُ مِنَ الْغُفُورِ لِأَنَّهُ وَضَعَ لِلتَّكْثِيرِ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ بَعْدَ الذَّنْبِ أَبَدًا وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِالْغُفُورِ تَارَةً وَ

بالغافر تارةً أخرى و بالغفار أيضاً و سيأتي الكلام في وجه مناسبتها بحسب اختلاف المقامات و تكثر الجهات في مواضعه إن شاء الله تعالى.

قال بعض العرفاء في تحقيقاته خلقت النفس على جبلّة الأمارية بالسوء طبعاً حين خلقت الى طبعها لا يأتي منها إلا الشر و لا تأمر إلا بالسوء و لكن إذا رحمها ربّها و نظر اليها بنظر العناية يقلّبها من طبعها و يبدّل صفاتها و يجعل أمارتها مبدلة بالمأمورية و شريرتها بالخيرية فإذا تنفّس صبح الهداية في ليلة الظلمة البشرية و أضاء أفق سماء القلب صارت النفس تلوم نفسها على سوء فعلها و ندمت على ما صدر منها من الأمارية بالسوء فيتوب الله عليها فألّ التدم توبة.

و إذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة إذ هي تتورت بأنوار شمس الهداية و العناية فألهمها فجورها و تقواها.

و إذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية و أشرقت الأرض بنور ربّها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربّها بجذبة إرجعي راضية مرضية انتهى كلامه و للبحث فيه مقام آخر.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

يظهر من هذه الآية أنّ يوسف لم يكن حاضراً في المجلس و أنّ الملك لما سمع جميع ذلك قال أنتوني به أي بيوسف أستخلصه لنفسي و على هذا يكون ما مضى من قوله و ما أبرئ نفسي من قول المرأة لا من قول يوسف و كيف كان لما سمع الملك ما أجاب به يوسف من تعبير الرؤيا قال إئتوني به لأنه أراد أن يسمع التعبير من لسان يوسف و ذلك لأنّ في إستماع الكلام من لسان المتكلّم حلاوة و تأثير خاص و لذلك أمر الملك بإحضار يوسف فأثوابه فلما كلمه يوسف أثر كلامه فيه و علم الملك جودة رأيه و صفاء باطنه فال له يا

يوسف أنك اليوم لدينا مكين أمين أي ذو مكانة و منزلة رفيعة و مؤتمن على كل شيء.

روي أن الملك لما قال إئتوني به جاء الرسول و هو الساقى الى يوسف في السجن فقال يا يوسف أجب الملك فخرج منه و ودّع أهل السجن و دعى لهم و قال اللهم أعطف قلوب الصالحين عليهم و لا تستر الأخبار عنهم فمن ثم تقع الأخبار عند أهل السجن قبل أن تقع عامة الناس و كتب على باب السجن هذه منازل البلوى و قبور الأحياء و شماتة الأعداء و تجربة الأصدقاء ثم إغتسل و تنظّف من درن السجن و لبس ثياباً جدداً.

روي أنّه لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره و أعوذ بعزتك و قدرتك من شرّه، ثم سلّم على الملك و دعا له بالعبرانية فلم يفهمها الملك و قال ما هذا اللسان قال يوسف هذا لسان آبائي إبراهيم و إسحاق و يعقوب ثم كلّمه بالعربية فلم يفهمها الملك و قال ما هذا اللسان قال لسان عمّي إسماعيل ثم تكلم معه بلسان أهل مصر ففهم و استلذ بكلامه من حيث البلاغة و الفصاحة فقال ليوسف أيّها الصديق إني أحب أن أسمع رؤيائي منك، فحكّاها له و عبّرها يوسف على وجهٍ بديع و أجاب لكل ما سأل بإسلوبٍ عجيب.

قيل أن الملك كان يتكلّم بجميع الألسن فكلّما تكلم بلسانٍ أجابه يوسف بذلك اللسان فأعجب الملك أمره ثم أجلسه على سريريه و قال أحب أن أسمع منك تأويل رؤيائي فقال يوسف نعم أيّها الملك رأيت سبع بقراتٍ سمانٍ شهباً غزاً حسناً كشف لك عنهنّ النّيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافها لبناً فيبينما أنت تنظر إليهنّ و تتعجب من حسنهنّ إذ نصب النّيل فغار ماءه و بدا أسّه فخرج من حمته و وحله سبع بقراتٍ عجافٍ شعثٍ غبر متعلّقات البطون ليس لهنّ ضرور و لا أخلاف لهنّ أنياب و أضراس و أكفّ كأكفّ الكلاب و

خراطيم كخراطيم السَّباع فأختلطن بالسَّمان فأفتر سنهنّ إفتراس السَّباع فأكلن لحوفهنّ و مزقنّ جلودهنّ و حطمنّ عظامهنّ و مشمشن مخهنّ فبينما أنت تنظرو و تتعجّب كيف غلبهنّ و هنّ مهازل ثمّ لم يظهر منهنّ سمن و لا زيادة بعد أكلهنّ إذا بسبع سنابل خضر طريّات ناعمات ممثلاث حبّاً و ماءً و الى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء و لا خضرة في منبّ واحد عروقهنّ في الثرى و الماء فبينما أنت تقول في نفسك أىّ شيء هذا هؤلاء خضر مثمرات و هؤلاء سود يابسات و المنبت واحد و أصولهنّ فيّ الماء إذ هبّ ريح فذرت الأوراق من اليابسات السُّود على الخضر المثمرات فأشعلت فيهنّ النّار فأحرقتهنّ فصرن سوداً مغبرات فأنتبهت مذعوراً أيّها الملك فقال الملك واللّه ما شأن هذه الرُّؤيا و أن كان عجباً بأعجب ممّا سمعت منك فما ترى في رؤياي أيّها الصّديق.

فقال يوسف أن تجمع الطّعام و تزرع زرعاً كثيراً في هذه المخمصة فأنك لو زرعت على حجر أو مدر لبنت و أظهر الله فيه النّماء و البركة ثمّ ترفع الزّرع في قصبه و سنبله تبني له المخازن العظام فيكون القصب و السّنبل علفاً للدّواب و حبّه للنّاس و تأمر النّاس فيرفعون من طعامهم الى أهرائك الخمس فيكفيك من الطّعام الذي جمعته لأهل مصر حولها و يأتيك الخلق من النّواحي يتمارون منك و يجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك فقال الملك و من لي بتدبير هذه الأمور و لو جمعت أهل مصر جميعاً ما طاقوا ولم يكونوا فيه أمنيّا.

فقال يوسف عند ذلك ما حكاه الله تعالى عنه بقوله:

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ

لَمَّا اسْتَخْلَصَهُ الْمَلِكُ لِنَفْسِهِ وَ قَالَ لَهُ أَنْكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ لَهُ يُوسُفُ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، أَيِ أَرْضِكَ أَوْ أَرْضِ مِصْرَ وَ اللَّامُ لِلْعَهْدِ قَالَ الْمَفْسُرونَ أَرَادَ يُوسُفُ بِذَلِكَ، الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مَلِكُهُ وَ يَجْمَعُ فِيهَا

ماله و طعامه طلب منه ذلك ليحفظه عمن لا يستحقه و يوصله الى الوجوه التي ينبغي صرف الأموال لها فلذلك رغب الى الملك كما هو شأن الأنبياء إذ لا يجوز لهم أن يرغبوا في جمع الأموال إلا لما قلناه وفي قوله: **حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ** إشارة الى أمرين لابد لولي الأمر و الحاكم على الناس من الإتيان بهما معاً: **أحدهما: الحفظ.**

ثانيهما: العلم و ذلك لأن الأموال الموجودة في الخزائن و البيوت عند السلطان فهي في الحقيقة متعلقة بالناس و الحاكم أحدهم و أن شئت قلت أنها من سنخ الأمانات واقعاً فلا بد للحاكم المتولي عليها من حفظها عن الآفات و الحوادث كما أن وظيفة الأمين حفظ الأمانة التي بيده فأن قصر في ذلك فهو ضامن شرعاً و عقلاً ثم بعد الحفظ تصل التوبة الى مصرفها فيما يجب و ينبغي بحيث يصل كل ذي حق الى حقه و هذا يحتاج الى العلم بكيفية المصروف و إيصال كل ذي حق الى حقه إذ لو كان الوالي جاهلاً بذلك يصرفها على خلاف الحق و فيه ظلم على الرعية و الذنب عليه فقوله: **إِنِّي حَفِظْتُ إشارة الى الأصل الأول و قوله: **عَلَيْهِمْ**، إشارة الى الأصل الثاني و إذا كان الحاكم كذلك فهو مَرْضِيٌّ عند الخالق محبوبٌ عند الرعية و في أمثال هذه الحكومات تنزل بركات السموات و الأرض و لأجل ذلك قالوا في الآية دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل و إجراء الأحكام و نحن نقول أين هذا الطالب فأن الناس يطلبون الولاية و الحكومة لأجل الوصول الى مشيئاتهم النفسانية و اللذات الجسمانية من الأطعمة و الأشربة و الظلم و تضيق حقوق الناس و اختصاصها بأقربائهم و متابعيهم والذي لا يخطر، ببالهم فضلاً عن العمل به هو العدالة و إعطاء كل ذي حق حقه و ملخص الكلام هو أن هذا الكلام أعني **إِنِّي حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ**، لا يقدر أحد على العمل به إلا الأنبياء و الأوصياء و أمّا غيرهم من الحكام فكما ترى و نرى في زماننا هذا و حكم**

الأمثال واحدٍ فالسَّابِق كاللَّاحِق والسَّابِق كالسَّابِق والحساب على الله يوم الفصل فَأَنَّ يوم الفصل كان مِيقَاتًا.

روي عن ابن عباس أَنَّهُ قَالَ لَمَّا انصُرمت السَّنَةُ من يوم سَأَلَ الإمَارَةَ دعاه الملك فتوجَّهَ و ردَّاه بسيفه و وضع له سريراً من ذهب مَكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت و ضرب عليه حلَّةً من إِسْتَبْرِقٍ و كان طول السَّرِيرِ ثَلَاثِينَ ذِرَاعاً و عرضه عشرة أذرع عليه ثَلَاثُونَ فَرَاشاً و سِتُّونَ مَرْفَقَةً ثُمَّ أمره أَن يَخْرُجَ فخرج يوسف مُتَوَجَّاً لونه كَالثَّلْجِ و وجهه كالقمر يرى النَّاطِرُ وجهه من صفاء لون وجهه فجلس على السَّرِيرِ و دانت له الملوك و دخل الملك بيته مع نسائه و فَوَّضَ إليه أمر مصر و عزَّلَ قُطَيْفِرَ عَمَّا كان عليه و جعل يوسف مكانه.

قيل كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطَّعَامِ فسَلَّمَ سلطانه كلَّه اليه و هلك قُطَيْفِرُ تلك اللَّيَالِي، و قيل أَنَّهُ مات و يوسف في السَّجْنِ.

قيل أَنَّ الملك بعد تفويضه الأمر الي يوسف زَوَّجَ يوسف راعيل إمراً العَزِيزَ فَلَمَّا دخل عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين فقالت أَيُّهَا الصَّدِيقُ لا تلمني فَإِنِّي كنت إمراً حَسَنَاءَ نَاعِمَةً كَمَا تَرى صاحبي لا يَأْتِي النِّسَاءُ كَمَا جَعَلَكَ اللَّهُ من الحسن فغلبتني نفسي هذا ما ذكره بعضهم.

وقال وهب بن منبه إِنَّمَا كان تزويج يوسف زليخا بين دخلي الإخوة و ذلك أَنَّ زريخا مات زوجها و يوسف في السَّجْنِ و ذهب مالها و عمي بصرها بكاءً على يوسف فصارت تتكفَّفُ النَّاسَ فَمِنْهُمْ من يرحمها و مِنْهُمْ من لا يرحمها و كان يوسف يركب في كُلِّ إِسْبُوعٍ مَرَّةً في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه فقيل لها لو تعرَّضْتَ له لَعَلَّه يَسْعَفُكَ بشيءٍ، ثُمَّ قيل لها لا تفعلِي فربَّما ذكر بعض ما كان منك من المراودة و السَّجْنِ فيسي اليك فقالت أَنَا أعلم بخلق حبيبي منكم ثُمَّ تركته حتَّى إِذَا ركب موكبه قامت فنادت بأعلى صوتها سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم و جعل العبيد ملوكاً بطاعتهم فقال يوسف ما

هذه فأتوا بها فقالت أنا التي كنت أخدمك على صدور قدمي وأرجل جمعتك بيدي وتربيت في بيتي وأكرمت مثواك لكن فرط ما فرط من جهلي وعتوي فذقت وبال أمري فذهب مالي وتضعض ركني وطال ذلي وعمي بصري وبعد ما كنت مغبوبة أهل مصر صرت مرجومتهم أتكف الناس فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني وهذا جزاء المفسدين فبكى يوسف بكاءً شديداً ثم قال لها هلي بقيت تجدين ممّا كان في نفسك من حبك لي شيئاً فقالت والله لنظرة الى وجهك أحب إلي من الدنيا بحذافيرها لكن ناولني صدر سوطك فناولها فوضعتة على صدرها فوجد للسوط في يده اضطراباً وإرتعاشاً من خفقان قلبها فبكى ثم مضى الى منزله فأرسل اليها رسولاً، إن كنت أيمماً تزوجناك وإن كنت ذات بعل أغنيّاك فقالت للرّسول أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك لم يردني أيام شبابي و غناي و مالي و عزتي أفيريدني اليوم و أنا عجوزٌ عمية فقيرة فأعلمه الرّسول بمقالتها فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرّضت له فقال لها ألم يبلّغك الرّسول فقالت قد أخبرتك أنّ نظرة واحدة الى وجهك أحب إلي من الدنيا و ما فيها فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ثم زفّت اليه فقام يسوف يصلي ويدعو الله وقامت وراءه فسأل الله تعالى أن يعيد اليها شبابها و جمالها و بصرها فردّ الله عليها شبابها و جمالها و بصرها حتّى عادت أحسن ما كانت يوم راودته إكراماً ليوسف عليه السلام لما عفا عن محارم الله فأصابها فاذا هي عذراء فسألها فقالت يا نبي الله أن زوجي كان غنياً لا يأتي النساء و كنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف، فعاشا في خفض عيش في كلّ يوم يجدد الله لهما خيراً و ولدت له ولدين، أفرايئم و منشاء و فيما روي أنّ الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبّتها أضعاف ما كان في قلبها فقال لها يوسف ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أول مرّة فقالت له لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كلّ شيء انتهى ما ذكره في قصّة تزويج يوسف إياها والله أعلم.

و على تقدير صَحَّةِ القِصَّةِ أو عدمها أنا نعلم أنَّ الله تعالى لا يضع أجر المحسنين كما أنَّه يقبل التَّوْبَةَ عن عباده المذنبين وإذا وصل العبد الى مقام القرب وإشتعل نار محبَّةِ الله في قلبه لا يلتفت الى ما سواه أبداً فيحبَّ ما يحبُّ لله و يبغض ما يبغض له أيضاً فإنَّ المحبَّ الحقيقي يرى بعين البصيرة ما لا يراه لأنَّ قلبه مشغوف بحبِّه و لذلك يحبُّه و يحبُّ آثاره ألا ترى أنَّ المجنون كان يقبَلُ الجدار و الآثار التي كان محبوبه فيها كما قيل:

أمرُّ على جدار ديار سلمى أقبل ذا الجدار و ذا الجدار
فما حبَّ الدِّيار شغفن قلبي ولكن حبَّ من سكن الدِّيار

وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

أي و مثل هذه الأنعام الذي أنعمنا على يوسف في إلقائنا محبَّة في قلب الملك و إنجاءه من السَّجْنِ مَكَّنَّا له أي أقدرناه على ما يريد في الأرض من جميع الجهات و أنما أسندت المشيئة الى يوسف في ظاهر الكلام لما كانت بأمر الله و إرادته فأنَّه لم يشاء إلا ما شاء الله و لم يرد إلا ما أَرَادَهُ فهو من قبيل قوله تعالى مخاطباً لنبِيِّه: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى^(١).

و أمَّا على قراءة ابن كثير في قوله: حَيْثُ يَشَاءُ، بالتَّوْنِ فالأمر واضح و التَّبَوُّ، إتخاذ المكان أي مَكَّنَّا من التَّصَرُّف و المقام في الأرض حيث يشاء كيف يشاء.

و قيل المراد بالتَّمَكَّن هو ثوابه من الله على طاعته وإحسانه الذي تقدَّم منه في الدُّنْيَا و أنت ترى أنَّ هذا التفسير ليس بشيٍّ لأنَّ التَّمَكَّن لا يراد به الثَّوَابُ الَّذِي هو فعل الله في حقِّ العبد بل التَّمَكَّن عبارة عن الإقْدَار على أنحاء التَّصَرُّفَات و حيث أنَّ الملك فَوَّضَ الى يوسف أرض مصر و خزائنها و جميع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجزء الثالث

ما كان متعلقاً بها فصار يوسف قادراً متمكناً في جميع الأمور وهذا لا يحتاج الى التأويل و صرف الكلام عن ظاهره.

و أما قوله: **نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ**، ففيه إشارة الى أَنَّ رحمة الحق واسعة لا اختصاص لها بيوسف فقط بل كل من سلك مسلكه و حذى حذوه في طريق الطاعة و العبودية فالرحمة تشملهم كما قال الله تعالى: **لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** وفيه إشارة الى أَنَّ يوسف كان منهم لأنه فعل ما فعل و ترك ما ترك لله و لا نعني بالمحسن إلا هذا.

و قال بعض المفسرين المراد بالمحسنين في الآية الصابرين لأن يوسف صبر في الحب، و في الرق، و في السجن و صبر عن محارم الله عما دعت اليه المرأة و هكذا و نحن نقول لا نحتاج الى هذا التأويل و صرف اللفظ عن ظاهره و ذلك لأن المحسن من يفعل حسناً و يترك قبيحاً و هذا عام يشمل الصبر على البلايا أيضاً لأن الصبر على المعصية أو على الطاعة أو على البلية أمر حسن و هو ظاهر.

و قوله: **لَا نُضِيعُ**، فيه إشارة الى أَنَّ تضيع حق المحسن ظلم و الله تعالى منزّه عنه.

روي أَنَّ الملك لما فوّض أمر الحكومة الى يوسف تلطف بالناس و جعل يدعوهم الى الإسلام حتى آمنوا به و أقام فيهم العدل فأحبّه الرجال و النساء فلما دخلت السنون المخصبة أمر يوسف بإصلاح المزارع و أمر الناس أن يتوسعوا في الزراعة فلما أدركت الغلة أمر بها فجمعت ثم بنى لها الإصراء فجمعت فيها في تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك حتى اذا إنقضت السبع المخصبة و جاءت السنون المجردة نزل جبرئيل و قال يا أهل مصر جوعوا فأَنَّ الله سلط عليكم الجوع سبع سنين قيل للخطط علامتان:

أحدهما: أَنَّ النَّفْسَ تَحَبُّ الطَّعَامَ أَكْثَرَ مِنَ الْعَادَةِ وَ يَسْرِعُ إِلَيْهَا الْجُوعُ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَ تَأْخُذُ الطَّعَامَ فَوْقَ الْكَفَايَةِ.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ يَفْقَدُ الطَّعَامَ فَلَا يَوْجَدُ رَأْسًا وَيَعْزَلُ إِلَى الْغَايَةِ فَيُجْتَمِعُ هَاتَانِ الْعِلَامَتَانِ فِي عَهْدِ يُوسُفَ فَإِنْ تَبَهُ الرِّجَالُ وَ النِّسَاءُ وَ الصِّبْيَانُ يَنَادُونَ الْجُوعَ فَأُبْرَاهُ اللَّهُ مِنْهُ ثُمَّ أَصْبَحَ يُوسُفَ فَنَادَى فِي أَرْضِ مِصْرَ كُلُّهَا مَعَاشِرَ النَّاسِ لَا يَزْرَعُ أَحَدٌ زَرْعًا فَيُضِيعُ الْبَذْرَ وَلَا يَطْلُعُ شَيْءٌ وَ جَاءَتْ تِلْكَ السَّنُونَ بِهَوْلٍ عَظِيمٍ لَا يُوصَفُ فَلَمَّا دَخَلَتْ أَوَّلَ سَنَةٍ مِنْ سَنَتِي الْقَحْطِ هَلَكَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ أَعْدُوهُ فِي السَّنِينَ الْمَخْصُوبَةِ فَجَعَلَ أَهْلُ مِصْرَ يَتَبَاوَعُونَ الطَّعَامَ مِنْ يُوسُفَ فَبَاعَهُمْ أَوَّلَ سَنَةٍ بِالنُّقُودِ حَتَّى لَا يَبْقَى بِمِصْرَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا قَبْضُهُ.

فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ: بَاعَهُمْ بِالْحَلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنْهَا شَيْءٌ.

فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ: بَاعَهُمْ بِالْمَوَاشِي وَ الدَّوَابِّ حَتَّى إِحْتَوَى عَلَيْهَا أَجْمَعُ.

فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ: بَاعَهُمْ بِالْعَبِيدِ وَ الْإِمَاءِ حَتَّى إِحْتَوَى عَلَى الْكُلِّ.

وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ بِالضِّيَاعِ وَ الْعِقَارِ حَتَّى مَلَكَهَا كُلُّهَا.

وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ بِأَوْلَادِهِمْ وَ نِسَاءِهِمْ فَاسْتَرْقَاهُمْ جَمِيعًا.

وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِرِقَابِهِمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ حُرٌّ وَلَا عَبْدٌ إِلَّا صَارَ

عَبْدًا لَهُ فَقَالَ النَّاسُ وَ اللَّهُ مَا رَأَيْنَا مُلْكًا أَجَلَ وَ أَعْظَمَ مِنْهُ، فَقَالَ يُوسُفَ لِمَلِكِ

مِصْرَ كَيْفَ رَأَيْتَ صَنَعَ رَبِّي فِيمَا حَوَّلَنِي وَ الْأَنْ كُلَّ هَذَا لَكَ فَمَا تَرَى فِيهِ فَقَالَ

الْمَلِكُ فَوَضَّحْتُ إِلَيْكَ الْأَمْرَ فَإِفْعَلْ مَا شِئْتُ وَ أَنَّمَا نَحْنُ لَكَ تَبَعٌ وَ مَا أَنَا بِالَّذِي

يَسْتَنْكَفُ عَنْ طَاعَتِكَ فَقَالَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنِّي لَمْ أَعْتَقَهُمْ مِنَ الْجُوعِ لِأَسْتَعْبِدَهُمْ

وَ لَمْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ لِأَكُونَ عَلَيْهِمْ بَلَاءٌ وَ أَنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُكَ إِنِّي أَعْتَقْتُ

أَهْلَ مِصْرَ عَنْ آخِرِهِمْ وَ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ أَمْلاكَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ رَدَدْتُ عَلَيْكَ مَلِكَكَ

بِشَرَطِ أَنْ تَسْتَنْ بِسَنَّتِي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

العبد الثالث

و يروى أن يوسف كان لا يشبع من طعام في تلك السنين فقبل له أن تجوع و بيدك خزائن الأرض فقال إني أخاف أن شبت أن أنسى الجائع و أمر يوسف طبّاح المَلِك أن يجعل غذاءه نصف النهار حتّى يذوق المَلِك طعم الجوع.

و لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ

لَمَّا أشار الله تعالى في الآية السابقة بأنّه لا يضيع أجر المحسنين قال في هذه الآية ولأجر الآخرة خير من الدنيا و ما فيها لأنّ الدنيا و لذاتها فانية و أمّا الآخرة و لذاتها فلا فناء فيها بل هي باقية دائمة و أنما قال للذين آمنوا و كانوا يتّقون، لأنّ الثواب على العمل اذا كان على أساس الإيمان و التقوى فالدار الآخرة و ما فيها للمؤمنين المتّقين.

و في الآية إشارة الى أنّ ما أعطاه الله في الدنيا من الخروج عن الحبّ و السجن و البلوغ الى مقام الحكومة على مصر بسبب طاعته و إنقياده و تركه معصية الله أنما هي في جنب ما أعطاه الله في الآخرة من الثواب والأجر قليل جداً و لنعم ما قيل:

وأخِرُ فاز بـكلّتيهما قد جمع الدنيا مع الآخرة.

و قال الآخر:

أما في رسول الله يوسف أسوة لـمثلك مجوساً على الظلم والإفك

و قال الآخر:

أقام جميل الصبر في الحبس برهة فأل به الصبر الجميل الى الملك

و قال الآخر:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن و أوّل مفروج به آخر الحزن

فلا تأسن والله ملك يوسف خزائنه بعد الخروج من السجن

و قال الآخر:

وكادت تذوب لهنّ المهج

اذا الحادثات بلغن النّهى

فعند التناهي يكون الفرج

وحلّ البلاء وقلّ العزاء

وقال الآخر:

عس الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
 وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ لَمَّا
 أَصَابَ النَّاسَ الْقَحْطُ وَالشَّدَّةُ عَلَى مَا مَرَّ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهِ وَ سَرَى ذَلِكَ الْقَحْطُ
 بِأَرْضِ كِنَعَانَ أَيْضاً وَأَجْدَبَتْ بِلَادُ الشَّامِ وَ غَلَتْ أَسْعَارُهَا جَمَعَ يَعْقُوبُ بَنِيهِ وَ
 قَالَ لَهُمْ يَا بَنِيَّ أَمَا تَرُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْقَحْطِ فَقَالُوا يَا أَبَانَا وَمَا حِيلَتُنَا قَالَ
 أَذْهَبُوا إِلَى مِصْرَ وَ اشْتَرُوا مِنْهَا طَعَاماً مِنَ الْعَزِيزِ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَيْفَ يَطِيبُ
 قَلْبُكَ تَرْسِلُنَا إِلَى فِرَاعَةَ الْأَرْضِ وَ أَنْتَ تَعْلَمُ عِدَاوَتَهُمْ لَنَا وَ لَا نَأْمَنُ مِنْ أَنْ يَنَالَنَا
 مِنْهُمْ شَرٌّ وَ كَانَتْ تَسْمَى أَرْضُ مِصْرَ بِأَرْضِ الْجَبَابِرَةِ لِزِيَادَةِ الظُّلْمِ وَ الْجَوْرِ فَقَالَ
 لَهُمْ يَا بَنِيَّ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ وَلِيَ أَهْلُ مِصْرَ مَلِكٌ عَادِلٌ فَاذْهَبُوا إِلَيْهِ وَ اقْرَأُوهُ مِنِّي
 السَّلَامَ فَإِنَّهُ يَقْضِي حَاجَتَكُمْ ثُمَّ جَهَّزَ أَوْلَادَهُ الْعِشْرَةَ وَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى مِصْرَ وَ بَقِيَ
 عِنْدَهُ ابْنُهُ يَامِينَ بَنِيَامِينَ وَ كَانَ أَخَا لِيُوسُفَ لِأَبِيهِ وَ قِيلَ لِأَبِيهِمْ خَاصَّةً وَ أَتَمَّا لَمْ
 يَرْسِلْهُ مَعَهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ يُوسُفَ مِنْ أَحَبِّ أَوْلَادِهِ عِنْدَهُ وَ لَمَّا فَعَلُوا بِيُوسُفَ مَا
 فَعَلُوا لَمْ يَرْسِلْهُ مَعَهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ، أَيِ جَاءُوا
 مِمْتَارِينَ، قِيلَ لَمَّا دَنَى الْفَرْجَ بِمَلَاقَةِ يَعْقُوبَ وَ تَحَوَّلَ الْحَالُ مِنَ الْفِرْقَةِ إِلَى
 الْوَصْلَةِ وَ مِنَ الْأَلَمِ إِلَى الرَّاحَةِ إِبْتَلَى اللَّهُ الْخَلْقَ بِبِلَاءِ الْقَحْطِ لِيَكُونَ ذَلِكَ وَسِيلَةً
 وَ سَبَباً إِلَى خُرُوجِ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ لَطَلْبِ الْمَعَاشِ وَ هُوَ إِلَى الْمَعَارِفَةِ وَ الْمَوَاصِلَةِ وَ
 كَانَتْ بَيْنَ كِنَعَانَ وَ مِصْرَ ثَمَانِي مَرَاحِلَ لَكِنْ أَبْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانَ
 يُوسُفَ وَ لَمْ يَأْذَنَ لِيُوسُفَ فِي تَعْرِيفِ حَالِهِ إِلَى مَجِيئِ الْوَقْتِ الْمُسَمَّى عِنْدَ اللَّهِ
 فَجَاءُوا بِهَذَا السَّبَبِ إِلَى يُوسُفَ فِي مِصْرَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ أَيِ عَلَى يُوسُفَ وَ هُوَ
 جَالِسٌ عَلَى سَرِيرِهِ فِي زِينَةٍ وَ إِحْتِشَامٍ (فَعَرَفَهُمْ) أَيِ فَعَرَفَهُمْ يُوسُفَ فِي بَادِيِ
 الرَّأْيِ وَ أَوَّلِ النَّظَرِ لِقَوَّةِ فَهْمِهِ وَ شِدَّةِ فِرَاسَتِهِ وَ لِعَدَمِ تَغْيِيرِ أَحْوَالِهِمُ السَّابِقَةِ
 لِحَالِهِمْ يَوْمَئِذٍ لِمَفَارَقَتِهِ إِيَّاهُمْ وَ هُمْ رِجَالٌ وَ تَشَابَهِ هَيْئَاتِهِمْ وَ زِيَّهِمْ فِي الْحَالِينَ وَ
 لِكُونَ هَمَّتْهُ مَقْعُودَةُ بِهِمْ وَ بِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لَا سِيَّمَا فِي زَمَانِ الْقَحْطِ وَ قَدْ أَخْبَرَهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

المجلد التاسع

اللَّهُ حين ألقوه في الجَبِّ لَتَنبُنْهُمْ بأمرهم هذا وهم لا يشعرون والحقّ في وجه معرفته إياهم هو الوجه الأول الذي ذكرناه وهو قوّة فهمه وشدّة فراسته لأنّه كان من الأنبياء وقد قال رسول الله: **إِتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ**،

وإذا كان المؤمن في فراسته ودقّة نظره كذلك فما ظنّك بالنبيّ الذي هو في رأس المؤمنين ومع ذلك هو مؤيّد من عند الله والله تعالى قد خصّه بالعلم والفهم ما لم يخصّ به غيره.

والحاصل أنّ معرفة يوسف إياهم مطابق للأصل ولا غرو فيه ولا يحتاج الى التّأويل والمفروض أنّ علمه من علم الله وكيف يعقل أن لا يعرفهم وهم إخوته وهو الذي أخبر الملك بتعبير رؤياه التي عجز عن تعبيرها غيره. وأما قوله: **وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ** أي والحال أنّهم لم يعرفوه فهو أيضاً مطابق للأصل.

أما أولاً: فللفرق بين علمهم وعلمه وفهمهم وفهمه وفراستهم وفراسته لأنّ يوسف كان نبياً وهؤلاء كانوا من العوام وهو كان مرتبطاً بعالم الغيب في علمه وهم لم يكونوا كذلك.

ثانياً: أنّهم تركوا يوسف حين ألقوه في الجَبِّ وهو صبيّ والأُنْ ببلغ مبلغ الرّجال فقد قيل أنّه كان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فمفارقة إياهم كانت في سنّ الحداثة ولإعتقادهم أنّه قد هلك في البئر ولذهابه عن أوهامهم لقلّة فكرهم فيه ولبعد حاله التي رأوها في صغره عن الحالة التي رأوها وهو جالس على سرير الملك وغير ذلك من الأمور التي صارت باعثة على عدم معرفتهم إياه وإن شئت أن تطّلع على سرّه العرفاني فنقول:

أنّ يوسف **عليه السلام** كان نبياً والنبيّ مظهر الحقّ لأنّه مع الحقّ والحقّ معه وهؤلاء كانوا من مظاهر الباطل لأجل ما فعلوا به وقد ثبت وتحقّق عند أهل

الكشف أنّ أهل الحقّ يعرفون أهل الباطل ولا عكس لأنّ من كان على الباطل فهو بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر ضوء النهار فهو أيضاً لا يعرف الحقّ لعدم بصيرته ولذلك عرفهم يوسف بعين بصيرته ولم يعرفوه لعدم بصيرتهم وهذا هو الأصل في الباب هذا كلّه اذا حملنا الإنكار في قوله: وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، على معناه العامّ الشامل للإنكار القلبي أيضاً بأنّ نقول وهم له منكرون قلباً ولساناً كما هو الظاهر اذ لا دليل على تخصيص الإنكار باللساني أو الظاهري فقط.

وأما اذا قلنا بأنّ الإنكار في الآية وأن كان بحسب اللغة عامّاً يشمل اللساني والقلبي معاً إلا أنّ العرف يفهم من اللفظ اللساني فقط فاذا قيل فلان منكر أو أنكر يفهم منه أنّه أنكره لفظاً ولذلك يطلب من المنكر باللسان اليمين في مقام الحكم.

وأما المنكر بالقلب وهو مقررٌ باللسان فيؤخذ بإقراره ولا يعتنى بقلبه قال رسول الله ﷺ البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر، أي من أنكر باللسان وإذا كان الأمر على هذا المنوال فلنقاتل أن يقول هذه اللفظة أعني بها الإنكار وأن يطلق بحسب اللغة على القلبي أيضاً إلا أنّه منصرف الى الفرد الشائع وهو اللساني فقط وعليه فهم له منكرون ظاهراً وأن كانوا يعرفونه باطناً بقلوبهم إلا أنّهم لم يظهروا ذلك لما رأوا فيه من المصلحة هذا ممّا إختلج بالبال ولم أر من المفسرين من تعرّض له والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَفْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

الجهاز فاخر المتاع الذي يحمل من بلد الى بلد من أي جنس كان والمراد به هنا الطّعام وجهاز العروس ما يحتاج اليه عند الإهداء الى الزّوج.

ومن المعلوم أنّه من فاخر المتاع وجوّز الكوفيون فيه كسر الجيم، قيل أنّه كان مع إخوج يوسف أحد عشر بعبيراً وهم عشرة فقالوا ليوסף أنّ لنا أخاً

تَخَلَّفَ عَنَّا وَ بَعِيرَهُ مَعْنَا فَسَأَلَهُمْ لِمَ تَخَلَّفَ فَقَالُوا لِحَبِّ أَبِيهِ إِيَّاهُ وَ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَخٌ أَكْبَرُ مِنْهُ فَخَرَجَ إِلَى الْبَرِيَّةِ فَهَلَكَ فَقَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ أَرَدْتُ أَنْ أَرَى أَخَاكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ لِأَعْلَمَ وَجْهَ مُحِبَّةِ أَبِييْكُمْ إِيَّاهُ وَ أَعْلَمَ صَدَقْتُمْ.

وَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَهُ شَمْعُونَ رَهِينَةً حَتَّى يَأْتُوا بِأَخِيهِ بَنِيَامِينَ وَ قِيلَ إِبْنُ يَامِينَ وَ هُوَ الَّذِي كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَ أُمُّهُ قَالُوا فِي وَجْهِ ذَلِكَ أَنَّ يَوْسُفَ لَمَّا رَأَاهُمْ وَ كَلَّمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ قَالَ لَهُمْ أَخْبِرُونِي مِنْ أَنْتُمْ وَ مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ رِعَاةُ أَصَابِنَا الْجَهْدُ فَجِئْنَا نَمْتَارُ فَقَالَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ جِئْتُمْ عِوَنًا وَ جَوَاسِيسَ فَقَالُوا مَعَاذَ اللَّهِ مَا نَحْنُ كَذَلِكَ نَحْنُ إِخْوَةُ بَنُو أَبِي وَاحِدٍ وَ هُوَ شَيْخٌ صَدِيقُ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِسْمُهُ يَعْقُوبُ قَالَ كَمْ أَنْتُمْ قَالُوا كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ فَهَلَكَ مِنَّا وَاحِدٌ قَالَ فَكَمْ أَنْتُمْ هَاهُنَا قَالُوا عَشْرَةٌ قَالَ فَأَيْنَ الْآخَرُ قَالُوا عِنْدَ أَبِيهِ قَالَ فَمَنْ يَشْهَدُ لَكُمْ عَلَى صَدَقْتُمْ قَالُوا لَا يَعْرِفُنَا هَاهُنَا أَحَدٌ قَالَ فَدَعُوا بَعْضُكُمْ عِنْدِي رَهِينَةً وَ أَتُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَبِييْكُمْ حَتَّى أَصْدَقَكُمْ.

وَ قِيلَ قَالُوا قَدْ عَرَفْنَاكَ أَنْسَابَنَا فَبَأَيِّ شَيْءٍ تَسْكُنُ نَفْسُكَ الْيَنَّا قَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ أَتُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَبِييْكُمْ قِيلَ فَاِقْتَرِعُوا بَيْنَهُمْ فَأَصَابَتْ الْقِرْعَةُ شَمْعُونَ فَخَلَّفُوهُ عِنْدَهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ، قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِييْكُمْ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ وَ الْمَعْنَى أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَ لَا أَبْخُسُهُ وَ أَزِيدُكُمْ حَمْلَ بَعِيرٍ لِأَخِيكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِكُمْ وَ أَنِّي خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ فِي الْإِحْسَانِ بِكُمْ وَ ضِيَافَتِكُمْ وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ، أَيِ أَرْخِصُ لَكُمْ فِي السُّعْرِ فَصَارَ زِيَادَةٌ فِي الْكَيْلِ وَ كَيْفَ كَانَ فَالْمَعْنَى وَاضِحٌ.

يُوسُفُ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

المجلد التاسع

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرُبُونِ أَيِ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِالْأَخِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي أَيِ فَلَا أُبِيعُكُمْ شَيْئًا فِيمَا بَعْدَ لِأَنَّهُ قَدْ وَفَّاهُمْ كَيْلَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَ قَوْلُهُ: وَ لَا تَقْرُبُونِ، أَيِ لَا تَدْخُلُوا بِلَادِي

في المستقبل إن لم تأتونني به و قيل معناه لا أنزلكم عندي منزلة القريب و لم يرد أنهم يبعدون منه و لا يعودون اليه لأنه حثهم على العود وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا فإرتهن شمعون عنده و قوله تقربون، في موضع جزم بالنهي فلذلك حذفت منه الياء و الأصل و لا تقربوني، ولو كان خبراً لكان، تقربون، بفتح التّون هذا والذي يقوّي في النفس أنّ بعض ما ذكروه في المقام و نحن نقلناه عنهم من مخترعات أنفسهم فلا يمكن الحكم بصحّته كقولهم، لعلكم جئتم عيوناً و جواسيس.

وكيف يقبل العقل السليم أنّ يوسف قال لهم ذلك مع أنّه كان يعرف براءتهم من هذه التّهمة فإنّ البهتان لا يليق بحال الصّديق واللّه أعلم بحقائق الأمور.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ

قال صاحب الكشف أي سنخادعه عنه و سنجتهد و نحتال حتى ننتزعه من يده و أنا لفاعلون، أي لقادرون على ذلك أو أنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه و لا نتواني.

و قال الشيخ في التّبيان في معنى الكلام أي و نحن نفعل ذلك و المراودة المطالبة من قولهم راد يرود فهو رائد أي طلب و فلان يرتاد موضعاً أي يطلبه و في المثل الرائد لا يكذب أهله إنتهى.

أقول و عليه فالمعنى سنطالبه عن أبيه و هذا هو الحق لأنّ التّعبير بالإحتيال و الإنتزاع من يد أبيه ليس في محلّه و الأمر سهل بعد وضوح المعنى.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّ يوسف أمر فتيانه أي غلماناه أو مماليكه أن يجعلوا بضاعة الأخوة في رحالهم و البضاعة قطعة من المال للتجارة و الرّحال

جمع رحل و هو الشئ المعد للرحيل من وعاء المتاع أو مركب من مراكب الجمال في القليل أرحل بضم الحاء و في الكثير رحال قيل جعلوا بضاعتهم أي متاعهم في رحالهم ليقوى دواعيهم في الرجوع اليه اذا رأوا إكرامه إياهم ورد بضاعتهم اليهم مع جدوب الزمان و شدته.

و قرأ أهل المدينة و أبي عمرو و عاصم و غيرهما، لفتيته و قرأ سائر الكوفيين، لفتيانه، و هي المشهورة بين المفسرين و عليها المصاحف فعلاً. قال الثعلبي و هما لغتان جيدتان مثل الصبيان و الصبية ثم أن المراد بالبضاعة التي جعلوها في رحالهم أثمان ما اشتروا من الطعام و قيل كانت دراهم و دنانير.

و عن ابن عباس هي النعال و الأدم و متاع السفر و يسمى رحلاً. أقول الظاهر أن المراد بالبضاعة في المقام أثمان الطعام و ذلك لأنهم اشتروه بثمان غيرهم من الناس فلما أرادوا الرجوع قال يوسف لفتيانه أجعلوا أثمان الطعام في رحالهم و جواليقهم و لا تأخذوا منهم شيئاً و أنما فعل ذلك بعد أخذ الأثمان و قبولها و إعطاء بدلها من الطعام.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ يحتمل أن يكون المراد به معرفة حق التكريم بإعطاء البدلين بعد رجوعهم إلى أبيهم و إطلاعهم على أن ثمن الطعام رد إليهم و على هذا فالمعرفة حصلت لهم بعد الرجوع و هم لم يعلموا بالرد قبله و يحتمل أن يكون رد الثمن اليهم في حضورهم و أنهم كانوا عالمين به و الإحتمال الأول أوفق بسياق الآية.

قوله: لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ أي أنهم قبل الرجوع إلى أهلهم لم يعلموا به و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي لكي يرجعوا واللام الغرض أي غرضنا من ذلك هو رجوعهم إلينا و يؤيد هذا الإحتمال أن يوسف كان عالماً بأنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمانه فأخذ منهم الثمن أولاً ثم فعل ذلك في غيابهم.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا
نَكْتُلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

يَا فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ أَبِيهِمْ فِي كِنْعَانَ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ يَا مُنِعَ
مِنَّا ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لِأَبِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يَشْتَغَلُوا
بِفَتْحِ الْمَتَاعِ، فَقَوْلُهُمْ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ قَوْلِ يُوسُفَ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ، فَإِنْ
لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ إِذَا أُنْذِرُوا بِمَنْعِ الْكَيْلِ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْهُ فِي الْحَقِيقَةِ وَ أَمَّا
قَالُوا ذَلِكَ لِأَبِيهِمْ بَعْدَ مَا شَهِدُوا عِنْدَهُ بِحَسَنِ سِيرَةِ مَلِكِ مِصْرَ فَقَالُوا لَهُ إِنَّا قَدَمْنَا
عَلَىٰ خَيْرِ رَجُلٍ أَنْزَلَنَا وَ أَكْرَمَنَا بِكَرَامٍ لَوْ كَانَ رَجُلًا مِنْ آلِ يَعْقُوبَ مَا أَكْرَمَنَا كِرَامَتَهُ
وَ ذَكَرُوا أَنَّهُ إِرْتَهَنَ شَمْعُونَ وَ لِذَلِكَ قَالُوا فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلْ وَ إِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ أَيَّ فَأَرْسَلَ مَعَنَا آخَانًا بَنِيَامِينَ إِلَىٰ مِصْرَ، نَكْتُلْ، بِسَبَبِهِ مَا نَشَاءُ مِنْ
الطَّعَامِ وَ إِنَّا لَهُ، أَيَّ لِأَخِينَا بَنِيَامِينَ، لِحَافِظُونَ مِنْ أَنْ يَصِيبَهُ مَكْرُوهٌ أَوْ يَنَالَهُ سُوءٌ
فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِأَبِيهِمْ وَ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَرْسِلَ مَعَهُمْ أَخَاهُمْ إِلَىٰ مِصْرَ قَالَ يَعْقُوبُ
كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا
وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

هَلْ، إِسْتِفْهَامٌ فِي مَعْنَى الْإِنْكَارِ وَ النَّفْيِ وَ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِفْهَامُ عَلَىٰ
حَالِهِ.

فَالْمَعْنَى عَلَى الْأَوَّلِ: لَا أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ.

عَلَى الثَّانِي: كَيْفَ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَعَلْتُمْ بِأَخِيهِ مَا فَعَلْتُمْ فَقَوْلُهُ: أَمِنْتُكُمْ،
فَعَلَ مُضَارِعٌ مِنْ أَمِنَ يَأْمَنُ وَ الْأَصْلُ أَمِنَ قَلْبَتِ الْهَمْزَةُ الثَّانِيَةُ أَلْفًا فَصَارَ أَمِنَ وَ
أَمَّا قَلْبَتِ بِهَا لِثَقُلِ التَّلْفِظِ بِهَا وَ كَوْنِ مَا قَبْلُهَا مُفْتُوحَةً وَ قَوْلُهُ أَمِنْتُكُمْ، فَعَلَ مَاضٍ
أَيَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ يُوسُفَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَ الْمَقْصُودُ أَنَّكُمْ قَلْتُمْ فِي

ضياء القرآن في تفسير القرآن

الجلد الثالث

جزء ١٣

يوسف، و أنا له لحافظون، ثم فعلتم به ما يفعل الخائن و الآن أيضاً تقولون، و إننا له لحافظون، و حيث أنكم ختمتم بضمانكم في يوسف فما يؤمنني من مثل ذلك و مع ذلك إني أفوض أمري الى الله و أقول.

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأرجو منه تعالى أن يرحمني بحفظه فتوكل على الله و وافقهم على إرساله معهم.

قيل لما قال يعقوب ذلك أي فوض أمره الى الله و توكل عليه قال الله تعالى و عزتي لأردن اليك كليهما بعد ما توكلت علي فينبغي أن يتوكل العبد على الله في جميع أموره و يعتمد على حفظة دون حفظ ما سواه فأما ما سواه محتاج في حفظ شيء من الأشياء الى الأسباب والألات و الله تعالى غني عنها بل هو مسبب الأسباب مستغن عن الوسائط في جميع الأمور ولذا حفظ يوسف في الحب و كذا دانيال النبي عليه السلام فَأَن بَخَتَ النَّصْرَ طَرَحَهُ فِي الْحَبِّ و ألقى عليه أسدين فلم يضرا فأتاه رسول فقال يا دانيال فقال من أنت قال أنا رسول ربك اليك أرسلني اليك بطعام فقال دانيال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره.

ثم أن قوله حافظاً، منصوب على الحال أن كان على لفظ الفاعل و على التمييز أن لم يكن عليه فيرجع الى من يحفظ بأمره من الملائكة و الحفظة وكلا الوجهين لا بأس بهما و منهم من قرأ اللفظ بغير ألف فقال، حفظاً، و المأل الى واحد.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ
بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ
حَتَّى تُوْتُونَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ
يُخَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا
نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ
بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا
أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ
لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي
عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ
يَعْقُوبَ قَضِيهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى
يُوسُفَ أَوْى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا
تَبْهَتْسَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ
بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ
مُؤَدِّنُ أَيَّتْهَا الْعَبِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَ
أَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ
صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ
رَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ
فِي الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا

جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ
وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ
ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا
لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ
كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

◀ اللغة

مَتَاعُهُمْ المتاع بيع التجار ممّا يصلح للمبادلة والمراد به هاهنا أوعية
الطعام.

بِضَاعَتُهُمْ البضاعة قطعة من المال والمراد بها هاهنا ثمن الطعام.
بُغْيَ الْبَغْيِ الظُّلْمُ والمراد به في المقام الكذب وهو أيضاً ظلم.
نَمِيرُ الميرة الأطعمة التي تحمل من بلدٍ الى بلدٍ، نمير، أي نجلب لهم
الميرة.

مَوْثِقًا الموثق العقد المؤكّد بالقسم.

أَوْىَ الإيواء ضَمَّ المحبّوب و تصديره الى موضع الراحة و منه المأوى
المنزل الذي يأوي اليه صاحبه للراحة فيه.

تَبَسَّسَ أي لا تعتم وهو مأخوذ من البؤس ومعناه إختلاط البؤس بالحزن.
السَّقَايَةِ صواع الملك الذي كان يشرب فيه و أمّا في الأصل فهي الإناء
الذي يسقى فيه.

مُؤَذِّنُ المؤذّن المنادي و الإيذان الإعلام.

أَيْتُهَا الْعَيْرُ العير بكسر العين القافلة التي فيها الإجمال و قيل قافلة الحمير.

صُوعَ الْمَلِكِ الصُّوعِ مَكِيَالِ الطَّعَامِ وَ جَمَعَهُ صِيعَانٌ وَ أَصُوعٌ.

◀ الإعراب

كَمَا أَمْتَكُكُمْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْمَصْدَرِ أَيْ أَمْنًا كَأَمْنِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَخِيهِ خَيْرٌ حَافِظًا تَمَيِّزٌ أَوْ حَالٌ وَ يَقْرَأُ، حَفْظًا، وَ هُوَ تَمَيِّيزٌ لَا غَيْرَ مَا نَبَغِي مَا، إِسْتَفْهَامٌ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِنَبَغِي وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَافِيَةٌ وَفِي نَبَغِي وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ بِمَعْنَى نَطْلَبُ وَ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ أَيْ مَا نَطْلُبُ الظَّلْمَ. الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ لَازِمًا بِمَعْنَى مَا نَتَعَدَّى.

لَتَأْتَنِّي بِهِ هُوَ جَوَابٌ قَسَمٍ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ الْمِيثَاقَ بِمَعْنَى الْيَمِينِ إِلَّا أَنَّهُ يُخَاطَبُ هُوَ إِسْتِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجِنْسِ وَ التَّقْدِيرُ لَتَأْتَنِّي بِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِلَّا فِي حَالِ الْإِحَاطَةِ بِكُمْ وَ لَمَّا دَخَلُوا فِي جَوَابِ لَمَّا، وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ، أَوْ أَيْ.

الثَّانِي: هُوَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ إِمْتَلُوا أَوْ قَضُوا حَاجَةَ أَبِيهِمْ. قَالَ إِيَّيْ أَنَا هُوَ مُسْتَأْنَفٌ وَ هَكَذَا كُلُّ مَا إِقْتَضَى جَوَابًا وَ ذَكَرَ جَوَابَهُ ثُمَّ جَاءَتْ بَعْدَهُ، قَالَ، فَهِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ.

◀ التفسير

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ بَعْدَ رَجُوعِهِمْ عَنْ مِصْرَ إِلَى أَبِيهِمْ عَلَى مَا مَرَّ تَفْسِيرُهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ فَقَالَ وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمُ الَّذِي حَمَلُوهُ مِنْ مِصْرَ وَ الْمَتَاعُ إِسْمٌ مِنْ مَتَعٍ كَالْكَلَامِ وَ السَّلَامِ مِنْ كَلَمٍ وَ سَلَمٍ وَ هُوَ فِي الْأَصْلِ يَطْلُقُ عَلَى كُلِّ مَا إِنْتَفَعَ بِهِ وَ الْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا أَوْعِيَةُ الطَّعَامِ مُجَازًا إِنْطِلَاقًا لِلْكَلِّ عَلَى بَعْضِ مَسْمِيَّاتِهِ وَ يَسْمَى هَذَا الْمَجَازُ فِي إِصْطِلَاحِ بَعْضِهِمْ بِالْحَقِيقَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الْعِلَّةُ الْقَائِلَةُ

القاصرة و البضاعة المال الذي أعطوه الملك للمتاع ردّت اليهم، أي ردّت البضاعة اليهم تفضلاً و قد علموا بدلالة الحال فمعنى الكلام هو أنّ إخوة يوسف بعد رجوعهم من مصر الى أبيهم في كنعان لما فتحو متاعهم أي أوعية طعامهم وجدوا بضاعتهم ردّت اليهم أي وجدوا بضاعتهم التي كانوا وزنوها بشري الطعام في مصر، قد جعلت في وسط أمتعتهم فلما رأوا ذلك قالوا يا أبانا ما تبغي أي ما نطلب بناء على أن تكون إستفهامية و بعبارة أخرى معناه، أي شيء نطلب، و أمّا على القول بأنها نافية فمعنى الكلام، ما نكذب فيما أخبرناك عن ملك مصر و دليله أنّ بضاعتنا ردّت إلينا و أمّا قلنا ذلك لأنّ البغي في الأصل هو طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتحرى فتارةً يعبر في القدر الذي هو الكمية و تارةً في الوصف الذي هو الكيفية يقال بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب و هكذا إبتغيت و هو ممدوح و مذموم فالممدوح منه هو تجاوز العدل الى الإحسان و الفرض الى التطوع و المذموم منه هو تجاوز الحق الى الباطل أو الى الشبه إذا عرفت معنى البغي و موارد إستعماله فنقول ما نبغي، إن كانت، ما، استفهامية معناه أي شيء نطلب و الحال أنّ بضاعتنا ردّت إلينا واضح و أمّا أن كانت نافية فهي في الحقيقة تنفي الطلب أي لا نطلب أو لسنا نطلب شيئاً و بضاعتنا ردّت إلينا.

و أمّا قول بعض المفسرين أي ما نكذب فيما أخبرناك عن ملك مصر فهو محمول على أن يكون المراد بالبغي الظلم و من مصاديقه الكذب و المعنى لا نكذب أي لا نظلم في الإخبار ولا بأس به والمآل واحد.

و نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانَا وَ نَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ يقال ماره ييمره ميراً إذا حمل له الطعام الى بلده قال الشاعر:

بعثتك مائراً فمكثت حولاً متى يأتي غياثك من تغيث

و نحفظ أخانا، أي من الجوع و العطش و سائر المكاه و نزداد كيل بعير، أي و يعطينا الملك فضل كيل بعير لمكان أخينا و ذلك كيل يسير، أي قليل و

المقصود أنَّ ما يعطينا الملك لا يكفيننا بل نحتاج أن نضيف إليه كيل بعير أخينا.

وقيل معناه أنَّ ذلك متيسِّرٌ على من يكيل لنا وليس بمتعسِّرٍ عليه.
و ملَّخص الكلام في معنى الآية هو أنَّهم لما فتحو متاعهم ورأوا من ردَّ الملك بضاعتهم أي أثمان طعامهم في أمتعتهم قالوا لأبيهم يعقوب أي شئ نطلب وراء هذا الإحسان الذي رأيناه من ملك مصر حيث لم يأخذ منا شيئاً في الحقيقة تفضلاً منه علينا و نمير أهلنا في رجوعنا الى الملك و أخذ الطَّعام منه بقدر ما يكفي الأهل و العيال و نحفظ في السَّفر الى مصر لأخذ الطَّعام أخانا من الجوع و العطش و غيرهما من المكاره و الأفات و نزداد، أي نأخذ الزَّيادة من الملك لأجل أخينا لأنَّه كما يعطي بإسم كلِّ رجلٍ حمل بعير، ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرُ أي سهل و مشقَّة فيه للملك، أو المعنى أنَّ المأخوذ منه بدون الزَّيادة لأجل أخينا، لا يكفيننا فكأنَّه قيل لهم أي حاجة الى الإزدياد فقالوا في الجواب، ما يحمله أباعرنا كيلٌ يسير أي قليل لا يكفيننا فنحتاج الى الزَّيادة و أنما قالوا ذلك لترغيب يعقوب و تحريضه على إرسال أخيه معهم لأنَّهم كانوا غير مأمونين عند أبيهم بعد قضية يوسف كما قال لهم هل آمنكم عليه كما أمتكم على يوسف، و فيه إيماء الى أنَّ سابقة السُّوء توجب سلب الإعتماد على صاحبها كما أنَّ حسن السابقة يوجب الإعتماد فكان حقاً على يعقوب أن لا يعتمد عليهم لأنَّه لم ينس ما فعلوا بيوسف و علم مكرهم و حذرهم و أنَّهم يكذبون و لا يصدقون و من كان كذلك فالعقل السَّليم يحكم بعدم الإعتماد عليه فإنَّ من جرَّب المجرَّب حلَّت به النَّدامة، والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، أو لا يلسع المؤمن و اللدغ و اللسع بمعنى واحدٍ و لأجل ذلك كان يعقوب خائفاً من أن يرسل بنيامين كما حكى الله عنه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُخَاطَبَكُمْ فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

كلمة، لَنْ، لنفي الأبد أي قال يعقوب في جوابهم لَنْ أُرسله معكم أبداً بعد ما عاينت منكم في قصّة يوسف، حَتَّى تُؤْتُوْنَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ أي حَتَّى تحلفولي بالله لتجيئوني به و قيل في معناه أي عهداً موثقاً به أي معتمداً مؤكداً بالحلف و ذكر الله و الموثق مصدر ميمي بمعنى الشّقة أستعمل في الآية بمعنى إسم المفعول أي الموثوق به و أنما قال من الله لأنّ العهود و تأكيدها مأذون فيه من الله تعالى و قوله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ، جواب القسم إذا المعنى حَتَّى تحلفوا بالله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ في كلّ الأوقات و في جميع الأحوال، إِلَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِكُمْ موضع أن، نَصَب بأنّه مفعول له و تقديره إِلَّا لإحاطة بكم و المعنى إِلَّا أن يحال بينكم و بينه.

و قال بعض المفسّرين هو كناية عن كونهم مغلوبين، مقهورين بحيث لا يقدرّون على إتيانه البتّة أو عن هلاكهم و موتهم و أصله من العدوّ فأَنْ من أحاط به العدوّ يصير مغلوباً عاجزاً عن تنفيذ مراده أو هالِكاً بالكليّة قالوا و لصدّقت هذه القصّة المثل السائر و هو قولهم البلاء موكلّ بالمنطق فَأَنْ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال أولاً في حق يوسف، و أخاف أن يأكله الذّئب فإبتلى من ناحية هذا القول حيث قالوا أكله الذّئب و قال هاهنا، لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أن يحاط بكم، فإبتلى أيضاً بذلك و أحيط بهم و غلبوا عليه فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ أي عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب في قوله: حَتَّى تُؤْتُوْنَ مَوْثِقًا، قال، أي قال يعقوب لنبني الله عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ وفيه إشارة الى أنّ التوكّل بعد التوكيد قال بعضهم في الآية دليل على جواز التعلّق بالأسباب الظّاهرة من العهود و الموائيق مع صحّة التوكّل.

و الحاصل أنّ الأخوة لما أجابوه باليمين و حلفوا له و أشهدوا على أنفسهم بذلك قال يعقوب و الله على ما نقول وكيل أي حافظ و قيّم به فَأَنْ الوكيل القيم بالتدبير و القائم بالقسط فهو العدل في حكمه.

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا
أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

حكى الله تعالى في هذه الآية أنه أوصى بنيه بعد إنفاذه أخاهم معهم فقال
لهم يا بني، لا تدخلوا من باب واحد، قيل كان لها أربعة أبواب والمعنى لا
تدخلوا مصر من باب واحد وأدخلوا من أبواب متفرقة، أي من طرق شتى
قيل أنه أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً وكانوا
أهل جمالٍ وكمالٍ وبسطة وهم مع ذلك كانوا مشتهرين في مصر بالقربة عند
الملك فخاف يعقوب عليهم إن أدخلوا جماعةً واحدة أن يصابوا بالعين ولم
يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذٍ مغمورين بين
الناس وكان الداعي إليها خوفه على بنيامين.

وقال الجبائي أنه خاف عليهم حسد الناس لهم وأن يبلغ الملك قوتهم و
شدة بطشهم فيقتلهم خوفاً على ملكه، وأنكر العين وقال لم تثبت بحجة و
أنما هو شيء يقوله جهال العامة انتهى ما نقله في التبيان عنه ثم قال والذي قاله
غير صحيح في أمر العين بل غير منكر أن يكون ما قال المفسرون صحيحاً.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال العين حق، وأنه ﷺ عوذ
الحسن والحسين عليهما السلام وقال في عودته، وأعيذكما من كل عين
لامّة.

وقد رويت فيه أخبار كثيرة وقد جرت العادة به وليس يمتنع أن يكون الله
تعالى أجرى العادة لضرب من المصلحة أنه متى ما ينظر إنساناً إلى غيره على
وجه مخصوص إقتضت المصلحة إهلاكه أو إمرضه أو إتلاف ماله فالمنع من
ذلك لا وجه له انتهى كلامه رفع مقامه.

وأنا أقول ما ذكره الشيخ ﷺ حق لا مرية فيه.

أما عرفاً فلاطباق الناس كلهم عليه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

وَأَمَّا عَقْلًا فَلَأَنْ الْعَقْلَ لَا يَمْنَعُ مِنْهُ وَلَا يَحْكُمُ بِبَطْلَانِهِ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ
مَعْقُولٌ.

وَأَمَّا نَفَلًا فَلَاخْبَارَ وَالْآثَارَ الْوَارِدَةَ فِي الْبَابِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ وَيَكْفِينَا فِي ذَلِكَ
قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ^(١) وَسِيحِي الْكَلَامِ فِي
مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَقَدْ اِشْتَهَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ أَنَّ الْعَيْنَ لَتَدْخُلَ
الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقَدْرَ.

وَقَالَ فِي تَعَوُّدِهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ وَمِنْ كُلِّ
عَيْنٍ لَامَةٍ، وَلِتَفْصِيلِ الْكَلَامِ فِيهِ مَوْضِعٌ آخَرُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ إِعْتِرَافٌ مِنْ يَعْقُوبَ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْأَمْرَ وَلَا يَغْنِي عَنْهُ
يُرِيدُهُ اللَّهُ بِسُوءٍ وَأَنَّ الْأُمُورَ بِيَدِهِ تَعَالَى وَالْيَاسَ هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا
لِلَّهِ أَيَّ لَيْسَ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى فَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ وَلَا يَقْدِرُ
أَحَدٌ عَلَى رَدِّهِ وَمَنْعِهِ عَمَّا أَرَادَ.

أَنْ قُلْتُ إِذَا كَانَ الْأُمُورَ بِيَدِهِ وَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِيهَا أَوْصَاهُمْ
حَيْثُ قَالَ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ وَالْمَفْرُوضُ أَنَّهُ كَانَ لَا
يَغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

قُلْتُ كَوْنِ الْأُمُورَ بِيَدِ اللَّهِ وَبِقُدْرَتِهِ لَا يَنْفِي نَصَحِ الْأَبِ لِابْنِهِ أَوْ الْمَعْلَمِ
لِتَلْمِيزِهِ أَوْ كُلِّ عَاقِلٍ عَالَمٍ لغيرِهِ مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ فَإِنَّ النَّصِيحَةَ لَازِمَةٌ وَفِي بَعْضِ
الْمَوَارِدِ وَاجِبَةٌ وَعَلَيْهَا أُسَاسُ تَبْلِيغِ الْأَحْكَامِ وَالْإِشْرَادِ وَلَا سِيَّامًا مِنَ الْأَبِ
الْمُشْفِقِ عَلَى ابْنِهِ وَاضِحٌ.

وَأَمَّا أَنَّ التَّقْدِيرَ مِنَ اللَّهِ مَا هُوَ فَهُوَ أَمْرٌ آخِرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَقَوْلُهُ: عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَهُوَ مِنَ الْأَصُولِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي
لِكُلِّ مُؤْمِنٍ الْإِعْتِقَادَ عَلَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ عَنِ التَّشَبُّثِ بِالْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ فِي عَالَمِ
الْأَسْبَابِ لَا قَبْلَهُ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَى أَنْ يَجْرِيَ الْأُمُورُ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا.

و معناه ما ذكرناه فأن يعقوب عليه السلام قد تشبَّث أولاً بالعهود و المواثيق و قال لهم حتّى توتون موثقاً.

ثانياً: بالنصيحة و الموعظة فقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ثم بعد ذلك إترف بأنّه لا يغني عنهم شيئاً من الله أي من قضاءه و قدره.

ثالثاً: أقرّ و إترف بأنّ الحكم لله تعالى لا غيره و بعد ذلك قال و عليه توكلت الخ.

فهو عليه السلام قد عمل بوظيفته في التمسك بالأسباب الظاهرة ثم توكل على الله مشعراً بأنّ ذلك كلّ لا يدفع القضاء فالأحسن أن يفوض العبد أموره إليه و لا نعني بالتوكل إلّا هذا و أنما كرّر قوله، عليه مقدماً على قوله توكلت للتأكيد على الأمر و أنّه من أهمّ الأمور في باب السلوك و التقديم يفيد الحصر أي أنّ التوكل عليه تعالى لا على غيره كما في قولك في الدار زيد فأنّه يفيد الحصر بخلاف قولك زيد في الدار و لأجل هذه الدقّة لم يقل توكلت عليه فليتوكل المتوكلون عليه لعدم إفادته الحصر و حيث إنجر الكلام الى مقام التوكل فلا بأس بالتكلم فيه إجمالاً لأنّه من أهمّ الأمور في مقام العبوديّة.

فقول التوكل هو اعتماد القلب في جميع الأمور أو حوالاته جميعها على الله.

و قيل هو التبري من كلّ حولٍ و قوّة و الإعتماد على حول الله و قوّة موقوف على أن يعتقد جازماً بأنّه لا فاعل إلّا الله و أنّه لا حول و لا قوّة إلّا به وإنّ له تمام العلم و القدرة على كفاية العباد فمنّ اعتقد ذلك إنكّل قلبه لا محالة على الله وحده و لم يلتفت الى غيره و لا الى نفسه أصلاً فالتوكل لا يتم إلّا بقوّة القلب و قوّة اليقين جميعاً و يضعف أو يرتفع بضعف أحدهما أو رفع أحدهما وبذلك يظهر أنّ التوكل من الفضائل المتعلقة بقوّة العاقلة و الغضبيّة معاً ثمّ أنّه قد ثبت أنّ عماد التوكل و ما يبني عليه هو المرتبة الثالثة من التوحيد و هي أن ينكشف للعبد بإشراق نور الحقّ أنّه لا فاعل إلّا هو و أنّ ما

عده من الأسباب و الوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الأزلية فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد لتحصيل التوكل و كيف كان فهو منزل من منازل السالكين و مقام من مقامات الموحدين بل هو أفضل درجات الموقنين و لذا ورد في مدحه و فضله و الترغيب اليه ما ورد من الكتاب و السنة أما الكتاب، قال الله تعالى: **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ^(١).

علقه على الإيمان مشعراً بأنه من صفات المؤمنين و مفهومه أن غير المؤمن لا يتوكل عليه، و قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ^(٢) دلت الآية على أن المتوكل محبوب له تعالى و هو من أعظم السعادات و أنفع البركات و به قد تم سعادة الدارين و حلاوة النشاطين، و قال: **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ^(٣) دلت الآية على أن المتوكل على الله لا يحتاج الى غيره تعالى و قال: **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ^(٤) أي عزيز لا يذل من إستجار به و حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره والآيات كثيرة.

و من الأخبار قال رسول الله ﷺ من إنقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع الى الدنيا و كلّه الله اليها انتهى.

و قال الصادق عليه السلام أوحى الله الى داود ما إعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من بينته ثم تكيده السموات و الأرض و من فيهنّ إلا جعلت له المخرج من بينهنّ انتهى و الأخبار في مدحه أيضاً كثيرة من أراد الإطلاع على أكثر ممّا ذكرناه فعليه بكتب الأخلاق و الأخبار و لنعم ما قيل فيه.

و ما تَمَّ إِلَّا اللَّهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ
فكم حاله تأتي ويكرهها الفتى
وقال الآخر.

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فما خاب حقاً من عليه توكل
وكن واثقاً بالله وأصبر لحكمه تفز بالذي ترجوه منه تفضلاً
و يكفيك في هذا ما تراه من قصة يعقوب و يوسف في توكلهما على الله و
تفويض أمرهما اليه وأنَّ الله تعالى كيف أنجى يوسف من كيد الأخوة و أجلسه
على سرير الملك و أقر عين يعقوب بجمال يوسف بعد الفراق و المحنة كما
سيجيئ تفصيل الكلام فيه و لم يبق للخائنين الحاسدين إلا الحسرة و الندامة و
الخنجلة فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضِيهَا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَ
لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

أي و لما دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ما كان شئ ما كان يغني
عنهم من الله من شئ، إن أراد إيقاع مكروه بهم و بعبارة أخرى لم يكن يعقوب
يغني عنهم من الله أي من قضاءه و قدره شيئاً إلا حاجة في نفس يعقوب
قضاها من خوف العين عليهم أو الحسد على إختلاف القولين في وصية
يعقوب إياهم قالوا، إلا، بمعنى لكن، لأن ما بعدها ليس من جنس ما قبلها
هكذا فسروا الآية والذي نفهم منها هو أنَّ الله تعالى أخبر بهذه الآية عن نقطة
خفيت على المفسرين و هي أنَّ الدُّخول من بابٍ واحدٍ أو من أبوابٍ متفرقة
سيان لا فرق فيهما و أن زعم يعقوب أنَّ دخولهم من أبوابٍ متفرقة أحسن من
دخولهم من بابٍ واحدٍ لما فيه من إصابة العيد أو الحسد عليهم بخلاف
الدُّخول من أبوابٍ متفرقة و يعقوب أيضاً كان عالماً بأنَّ ما أوصاهم به لا يدفع

القضاء إن تعلّق مكروه بهم والى هذا المعنى أشار الله بقوله: **وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**^(١) ولم يخف عليه شيء ولكن أكثر الناس لا يعلمون بأنّ القضاء لا يردّه شيء ويحتمل أن يكون المعنى أكثر الناس لا يعلمون أنّ يعقوب لم أوصاهم بما وأصاهم مع علمه بأنّه لا يفع القضاء وأنما أوصاهم لأنّ الأسباب والإحتمالات لا بدّ من مراعاتها لكلّ أحدٍ ثمّ بعد ذلك التّوكل على الله وتفويض الأمر اليه كما أنّ يعقوب فعل ذلك لعلمه بأنّ الله هو الحافظ لا غيره.

وقال بعض المفسّرين وأنما إصابة العين لم تقع عليهم لكونهم غير مقدّرة لآلتها إندفعت بذلك وقال في قوله: **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** أي لا يعلمون أسرار القدر ويزعمون أن يغني الحذر.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية دخولهم على يوسف ومعرفتهم إيّاه فقال ولما دخلوا، أولاد يعقوب وبهم بنيامين على يوسف، أوى اليه أخاه، أي أوى يوسف أخاه اليه، والإيواء ضمّ المحبوب وتصويره إلى موضع الراحة ومنه المأوى وهو المنزل الذي يوي اليه صاحبه للراحة فيه.

قال بعضهم أي ضمّه اليه وأنزله معه وقيل أوى اليه في الطّعام. وقيل أمر يوسف أن ينزل كلّ اثنين في منزل فبقي أخوه منفرداً فضّمه اليه وقال أشفقت عليه من الوحدة ثمّ قال له سرّاً من إخوته، إنّي أنا أخوك فلا تبتئس أي فلا تحزن بما كانوا يعملون، فإنّ الإبتئاس والإكتئاب والإغتمام نظائر.

وقد ذكر بعضهم أنّ يوسف لمّا خلّى به قال له هل تزوّجت قال نعم ولي عشرة بنين إشتقت أسماءهم من إسم أخ لي هلك.

و قال الآخر أَنَّهُ قال في جواب يوسف رزقْتُ ثلاثة أولاد ذكور قال يوسف فما أَسْماءُهم قال إسم أحدهم ذئب فقال له يوسف أنت ابن نبيّ فكيف تسمّي ولدك بأسماء الوحوش فقال أَنّ أخِي لَمّا أَكَله الذئب بزعم إخوتي سمّيت ابني ذئباً حتّى إذا صحت به ذكرتُ أخِي فأبكي فبكى يوسف و قال ما إسم الآخر قال إسمه، دم، قال و لم سمّيت بهذا الإسم فقال أَنّ إخوتي جاءوا بقميص أخِي مَضمخاً بالدم فسمّيته بذلك حتّى إذا صحت به ذكرت أخِي فأبكي فبكى يوسف ثمّ قال إسم الثّالث قال يوسف سمّيت به حتّى إذا صحت به ذكرت أخِي فأبكي فبكى يوسف و قال في نفسه إلهي و سيّدي هذا أخِي أراه بهذا الحزن فكيف يكون حال الشّيخ يعقوب اللّهم إجمع بيني و بينه قبل فراق الدّنيا ثمّ قال له أَنحبّ إن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخاً مثلك و لكن لم يلدك يعقوب و لا راحيل فبكى يوسف و قام اليه و عانقه و تعرّف اليه و عند ذلك قال، إِنّي أنا أخوك.

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و فيه إشارة الى أنّ الله تعالى لا يهدي كيد الحاسدين بل النّصر الإلهي و التأييد الرّباني مع القوم الصّالحين ألا ترى الى ما فعل أولاد يعقوب في حقّ يوسف من الحسد و الأذى فما وصلوا الى ما أملوا بل الله تعالى جمع بين الأخوين و لو بعد حين و كذا بين يعقوب و يوسف.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبرِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

الجهاز المتاع ومنه جهاز المرأة.

و قال بعضهم هو المتاع الفاخر و قيل كلّ ما يتتفع به و المراد به في المقام الطّعام بقرينة الحال و التّجهيز التّسريح و تنجيز و المعنى لَمّا كال كيلهم وأعطى كلّ واحد منهم حمل بعير قال لهم أَتُحبّون سرعة الرّجوع الى أبيكم قالوا نعم فأمرهم بالمسير قال له بنيامين بعد أن عرف أنّ يوسف أخاه على ما

مرّاً أنا لا أفارقك قال له يوسف قد علمت إغتمام والدي بي فإذا حبستك إزداد غمّه سبيل الى ذلك إلا أن أشهرك بأمرٍ فظيع قال لا أبالي فإفعل ما بدا لك قال أدسّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقتك ليتها لي ردك بعد تسريحك معهم قال إفعل فلما جهّزهم بجهازهم جعل السّاقية في رحل أخيه بينامين.

والسّاقية مشربة بكسر الميم أي إناء و يشرب منه جعلت صواعاً يكال به قيل كانت من ياقوتة حمراء تساوي مائتي ألف دينار وكان يوسف يشرب منها فلما جعلها في رحل أخيه و سارت الرّكب حتّى انفصلت من مصر أرسل يوسف اليهم و إستوقفوهم فوقفوا ثم أذن أي أعلم مؤذن أي نادى منادٍ من فتیان يوسف أو غلمانة و اسمه أفرايتم، أيّتها العير، و هي الإبل التي عليها الأحمال لأنّها تعير أي تذهب و تجي و المراد أصحاب الإبل كما في و إسأل القرية أي أهلها فهذا تفسير ألفاظ الآية على مذاق المفسرين و لا خلاف فيه.

و أنّما الخلاف وقع بين المفسرين في أمورٍ لابدّ لنا من الإشارة إليها:

أحدها: أنّ يوسف أمر المؤذن أو أذن المؤذن من قبل نفسه فقال بعضهم أنّ الأمر بذلك هو يوسف و قال الآخرون لم يأمره به.

الثاني: أن يقال لم جعل السّاقية في رحل أخيه.

الثالث: نسبته السّرقة الى أولاد يعقوب كانت بأمر يوسف أو لا.

الرابع: في جوازها و عدم جوازها و لا سيّما في حق يوسف النّبي الذي إنفقوا على عصمته.

أمّا البحث في المقام الأوّل: فإعلم أنّهم اختلفوا في ذلك فمنهم من ذهب الى أنّ يوسف أمر المؤذن بالإيدان و منهم من قال أنّه قال ما قال من قبل نفسه. فعلى الثاني: لا يكون فيه إشكالاً و هو ظاهر و أمّا على القول الأوّل و هو أنّ يوسف أمره به فالإشكال فيه موجود و هو أنّه كيف أمر المنادي به و فيه نسبة

السُّرقة الى من لم يسرق فهو داخل في التُّهمة التي هي أقبح من الكذب و الكذب و التُّهمة لا يليقان بشأن النبي المعصوم و قد أجابوا عنه تارةً بأنه أراد من السُّرقة أخذهم له من أبيه أي أنكم أخذتم يوسف من أبيه على وجه الخيانة كالسُّراق و قد صدر التعريض و التُّورية من الأنبياء عليهم السَّلام و عليه فمعنى الكلام أنكم لسارقون يوسف من أبيه حين طرحتموه في الجب.

و أخرى بأنه أراد بهذا الكلام ظاهر الأمر و هو أنكم أيتها العير حالكم حال السُّراق ظاهراً و ذلك لأنَّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا المالك.

ثالثة: بأنه كان حيلة لإجتماع شمله بأخيه و فصله عنهم اليه و هذا بناءً على بنيامين لم يعلم بدس الصَّاع في رحله و لا أخبره بنفسه.

و قال بعضهم أنَّ معنى الكلام الإسفهام أي أو أنكم لسارقون و الغرض من هذه الاجوبة هو أن لا يعزى يوسف الى الكذب لعصمته و أمَّا غيره من النَّاس فلا إشكال فيه لعدم عصمتهم.

أمَّا المقام الثَّاني: و هو أنَّه لم جعل السَّقاية في رحل أخيه فالوجه فيه واضح اذ لو جعلها في رحل غيره لم يحصل المطلوب لأنَّه أراد بذلك أن يأخذه عنهم ففي الحقيقة هو حيلة لإجتماع شمله بأخيه و حيث رأى المصلحة فيه و أنَّ الإجماع به أهمُّ من الافتراق أخذ به كما هو القاعدة العقلية، و الشرعية في دوران الأمر بين المهمِّ و الأهمِّ و هذا من المستثنيات و يجوز فيه الكذب و لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً.

أمَّا الثَّالث: و هو نسبة السُّرقة فقد ظهر الجواب عنه، و قلنا أنَّه أراد بها سرقتهم يوسف من أبيه، أو أراد أن إنقاذه أخيه منهم أهمُّ فدخل الكذب في المستثنيات هذا كلُّه مع احتمال أن يكون ما صدر منه أمَّا صدر بوحى من الله اليه و على هذا فالأمر أوضح اذا عرفت هذا فنقول:

معنى الآية أنَّ يوسف لمَّا جهَّزهم بجهازهم و أراد أن يمسك أخاه عنده بعد إمتناعه عن الخروج معهم إحتال فيه حيلة شرعية عقلية حتَّى يمسكة

في التَّوراة في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثَّالث

عنده ففعل ما فعل و الحقّ عندي بعد ذلك كلّهُ هو أنّ قوله: **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ليس حكاية عن قول يوسف بل هو حكاية قول المؤدّن كما هو صريح الآية فإنّ الله يقول ثمّ أذن مؤدّن أيتها العير أنكم لسارقون، و لم يقل أنّ يوسف قال كذلك أو أنّه أمر المؤدّن به.

نعم أنّه أمر المؤدّن أو أصحابه بكشف الحال و أخذ السّقاية من رحالهم و لم يقل أنّهم سرقوا و اذا كان كذلك فلا إشكال فيه و أمّا من يدّعي أنّ يوسف نسب السّرقه اليهم أو أمر غيره بأن ينسبها اليهم فعليه بالإثبات و أتّى له بإثبات ذلك و الآية لا تدلّ على ما إدّعوه و دليل العقل أيضاً حاكم ببطلانه لثبوت العصمة فيهم و ليس كلّما يقول به المأمور في كلماته كاشفاً عن رضاية الأمر به فضلاً عن أمره.

ألا ترى أنّ الأمر يقول لمأموره جثني بفلان مثلاً و هو يقول لفلان ما يقول بمقتضى عقله و فهمه عند أخذه فكيف يمكن أن يقال أنّ جميع كلمات المأمور ممّا أمر به الأمر و ما نحن فيه من هذا القبيل و عليه فالآية على ظاهرها و لا إشكال فيها أصلاً.

قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ

لَمَّا أذن المؤدّن فيهم و سمعوا نداءهم بأنكم سارقون أقبلوا عليهم أي على أصحاب الملك و قالوا لهم ماذا تفقدون أي شيء فقدتموه.

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ

أي قال لهم أصحاب يوسف أننا فقدنا صواع الملك و من جاء به و ردّه الينا فله حمل بعير من الطعام وقوله: **وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ** لأنّ زعيم القوم متكلّم عنهم فكأنّه قد كلّم بذلك جميعهم و لذلك قال: **وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ** و لم يقل نحن و لا يبعد أن يكون القائل بهذا الكلام أعني به قوله و أنا به زعيم، هو المؤدّن الذي أذن فيهم و قال أنكم لسارقون و عليه فلا يحتاج الكلام الى التّأويل.

ثُمَّ أَنَّ الصُّوَاعَ بَضَمَ الصَّدَّ مَكِيَالِ الطَّعَامِ قَلِيلَ كَانَ كَأْسًا لِلْمَلِكِ يَشْرَبُ فِيهِ وَ جَمَعَهُ صَيْعَانِ وَأَصْوَاعَ، وَ الْحَمْلُ بِكَسْرِ الْحَاءِ عَلَى الظَّهْرِ وَ بِالْفَتْحِ عَلَى الْبَطْنِ.
و فِي قَوْلِهِ: وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلٌ بَعِيرٌ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ قَبْلَ التَّفْتِيْشِ فَلَهُ حِمْلٌ بَعِيرٌ مِنَ الطَّعَامِ وَ قَلِيلٌ مَعْنَاهُ، وَ لِمَنْ دَلَّ عَلَى سَارِقِهِ كَذَا وَ كَذَا وَ الْمَقْصُودُ وَاضِحٌ.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
هَذَا حِكَايَةٌ مَا جَابَ بِهِ أَهْلُ الْعِيرِ لَمَّا سَمِعُوا النَّدَاءَ مِنْ أَصْحَابِ يُونُسَ مِنْ فَقَدِ صَوَاعِ الْمَلِكِ قَالُوا تَاللَّهِ، قَسَمَ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِمَّا أَضِيفَ إِلَيْهِمْ وَ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ التَّاءَ فِي تَاللَّهِ، بَدَلَ مِنَ الْوَاوِ مُخْتَصَّةٌ بِإِسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَ الْمَعْنَى مَا أَعْجَبَ حَالَكُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ عِلْمًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّا مِنْ دِيَانَتِنَا وَ أَمَانَتِنَا بَرِيثُونَ مِمَّا تَنْسِبُونَ إِلَيْنَا فَكَيْفَ تَقُولُونَ لَنَا أَنْكُمْ لَسَارِقُونَ وَ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ أَنْمَا قَالُوا ذَلِكَ مَعَ أَنَّ أَصْحَابَ يُونُسَ لَمْ يَقُولُوا أَنْتُمْ مَفْسُدُونَ لِأَنَّ السَّرِقَةَ الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْظَمِ مُضَادِّيقِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ.
رَوَى أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْزِلُونَ عَلَى أَحَدٍ ظَلَمًا وَ لَا يَرْعُونَ ذِرْعَ أَحَدٍ وَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ الْأَكْمَةَ لئَلَّا تَعِثَ فِي زُرُوعِ النَّاسِ.

وَ الَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ الْخَ هُوَ صَحَّةُ مُعَامَلَتِهِمْ وَ شِدَّةُ تَوْقِيهِمْ لِمَا لَا يَجُوزُ لَهُمْ مِمَّا يَنْبَغِي عَنْ مُقَاصِدِهِمْ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَصْحَابُ يُونُسَ لَمْ يَشَاهِدُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْخَيْرَ وَ الصَّلَاحَ وَ الْأَدَبَ وَ حَسْنَ الْخَلْقِ وَ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ فُسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ فَأَنَّ الْأَثَرِ يَدُلُّ عَلَى الْمُؤَثَّرِ وَ يَعْبَرُ عَنْهُ بِالْبَرَهَانِ الْأَنَّ، فَكَيْفَ قَالُوا لَهُمْ مَا قَالُوا وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ قَالُوا تَاللَّهِ، وَ هُوَ الْقَسَمُ الَّذِي فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَ كَيْفَ كَانَ لَمَّا نَفَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمُ السَّرِقَةَ وَ الْفُسَادَ وَ أَقْسَمُوا عَلَيْهِ.

تَبَايَا الْقُرْآنَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جُزْءُ ١٣

بِالْجِدِّ الرَّحْمَةِ

قَالُوا فَمَا جَزَاءُوهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ

أي فما جزاء الفاعل إن بأن كذبكم، كلمة، ما، إستفهامية فيها معنى التهديد أي أنتم تقولون و تدعون عدم السرقة فأن ظهر كذبكم و ثبتت سرقتكم فما تقولون في جزاءه.

قَالُوا جَزَاءُوهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ قالوا أية قالت إخوة يوسف في جواب أصحاب يوسف، جزاءه أي جزاء الفاعل أن يستعبد و يسترق، فجزاءه، مبتدأ و مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ خبره و التقدير جزاءه إستعباد من وجد في رحله فهو كناية عن الإستعباد و في الجملة معنى التوكيد كما تقول جزاء من سرق القطع فهذا جزاءه.

و قال بعض المفسرين، قوله فما جزاءه على حذف المضاف أي فما جزاء سرقة الصُّوعا عندكم أيتها العير أو كيف الحكم في شريعتكم، إن كنتم كاذبين، في جحودكم و نفي كون الصُّوعا فيكم، قالوا جزاءه من وجد، أي أخذ من وجد الصُّوعا.

في رحله، و إسترقاقه و كان حكم السارق في شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة، بدل قطع اليد في شرعنا فقله: فَهُوَ جَزَاؤُهُ تقرير لذلك الحكم أي فأخذه جزاءه، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ، بالسرقة هو تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد و بيان بقبح السرقة.

و ملخص الكلام أنهم أفروا على أنفسهم بأن جزاء السارق الإسترقاق و الإستعبد ثقة بكمال براءتهم منها و هم عما فعل بهم غافلون.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

أوعية جمع وعاء و هو الطُرف و المراد بها أوعية الطعام و اختلفوا فيمن بدأ.

فقال قوم بدأ يوسف بأوعيتهم أي بتفتيشها قبل وعاء أخيه و هو بنيامين.
وقال الآخرون بدأ المؤذن أو الزعيم بأوعيتهم قبل وعاء أخيه.

فَعَلَى الْأَوَّل: أرجعوا العير الى يوسف للتفتيش.

على الثاني: فَنَشُوا الْأَوْعِيَةَ فِي الْمَحَلِّ بِأَمْرِ يَوْسُفَ.

و الَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي لِأَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ مُوقُوفٌ عَلَى ثُبُوتِ الْإِرْجَاعِ وَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ لَا مِنَ الْآيَةِ وَ لَا مِنْ غَيْرِهَا فَالْقَوْلُ الثَّانِي هُوَ الْمُتَّبِعُ وَ ظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ مَا حَكَى عَنْ أَصْحَابِ يَوْسُفَ أَنَّ مُؤَذَّنَ مِنْهُمْ قَالَ أَيَّتُهَا الْعِيرُ أَتُكِّ لِسَارِقُونَ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ حِكَايَةً عَنْهُمْ، قَالَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ وَ هُوَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْمُؤَذَّنَ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ يَوْسُفَ بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ وَ لِذَلِكَ أَتَى بِكَلِمَةِ الْفَاءِ الَّتِي تَفِيدُ التَّرْتِيبَ الْإِتِّصَالِيَّ أَيَّ أَنَّ التَّفْتِيشَ كَانَ مُتَّصِلًا بِجَوَابِ الْإِخْوَةِ حَيْثُ قَالُوا جِزَاءَهُ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ.

و أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَيَفْصَلُ بَيْنَ الْجَوَابِ وَ التَّفْتِيشِ لِأَنَّهُمْ أَرْجَعُوا الْعِيرَ إِلَى يَوْسُفَ وَ هُوَ بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقَالَ ثُمَّ بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ لِأَنَّ، ثُمَّ، تَفِيدُ التَّرْتِيبَ الْإِنْفِصَالِيَّ.

و الْحَاصِلُ أَنَّ الْمَأْمُورَ بَدَأَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَةِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ قَبْلَ تَفْتِيشِ وَعَاءِ بَنِيَامِينَ لِنَفْيِ التُّهْمَةِ.

رَوَى أَنَّ أَصْحَابَ يَوْسُفَ قَالُوا أَنْيَخُوا بِتَفْتِيشِ رِحَالِكُمْ فَأَنَاخُوا وَاثْقِينَ بِيَرَاءَتِهِمْ فَفَتَّشُوا رَحْلَ الْأَخِ الْأَكْبَرِ ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ إِلَى أَنْ بَلَغَتْ النَّوْبَةُ إِلَى رَحْلِ بَنِيَامِينَ فَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُ إِسْتَخْرَجُوهُ مِنْهُ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ ثُمَّ إِسْتَخْرَجَهَا، أَيِ الصُّوَاعِ لِأَنَّهُ يَذْكَرُ وَ يُؤَنَّثُ، مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ، أَيِ مِنْ وَعَاءِ أَخِي يَوْسُفَ وَ هُوَ بَنِيَامِينَ فَلَمَّا وَجَدَ الصُّوَاعَ مَدْسُوسًا فِي رَحْلِ بَنِيَامِينَ وَ إِسْتَخْرَجَ مِنْهُ نَكْسُوا رُؤُوسَهُمْ وَ انْقَطَعَتْ وَ كَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمْ فَأَخَذُوا بَنِيَامِينَ مَعَ مَا مَعَهُ مِنَ الصُّوَاعِ وَ رَدُّوا إِلَى يَوْسُفَ وَ أَخَذُوا يَشْتُمُونَهُ بِالْعِبْرَانِيَةِ وَ قَالُوا لَهُ يَا لَصِّ مَا حَمَلَكَ عَلَى سَرَقَةِ صَاعِ الْمَلِكِ وَ لَا يَزَالُ يَنَالُنَا مِنْكَ بِلَاءٌ كَمَا لَقِينَا مِنْ ابْنِ رَاحِيلَ فَقَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجزء الثاني

بنيامين بل ما لقي إبننا راحيل البلاء إلّا منكم أمّا يوسف فقد علمتم ما به فعلتم
و أمّا أنا فسّرقتموني أي نسبتموني الى السّرقة قالوا فمن جعل الإناء في
متاعك أليس قد خرج من رحلك قال أن كنتم سرقتم بضاعتكم الأولى و
جعلتموها في رحالكم فكذلك أنا سرت الصّاع و جعلته في رحلي فقال
روبيّل والله لقد صدق و أراد بنيامين أن يخبرهم بخبر يوسف فذكر وصيّة له
فسكت.

و قوله: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ قَالُوا
في تفسير الكيد، كدنا معناه صنعنا.

وقال الآخر، دبرنا، و قيل أردنا قال الشّاعر:

كادت وكدت و تلك خير إرادةٍ لو عاد من عهد الصّبا ما قد مضى.
و قيل الكيد التّعريض للضرّ بما خفي و قد يعبر عن الجزاء على المعصية
الكيد و منه قوله تعالى: وَ أَفْلَيْ لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَقْبُورٌ^(١) أي عقوبتي.
أقول الكيد لا يطلق على الجزاء بل يطلق على سببه و قوله: وَ أَفْلَيْ لَهُمْ إِنْ
كَيْدِي مَقْبُورٌ أي إمهالي إياهم و الإمهال سبب للمعصية و هي العقوبة.

و الأحسن أن يقال أنّ الكيد في الآية على ظاهرها و لا نحتاج الى ما ذكره
في معناه و ذلك لأنّه في الأصل ضربٌ من الإحتيال للوصول الى المطلوب و
هو تارة يكون ممدوحاً و تارة مذموماً و ما نحن فيه من قبيل الممدوح و
توضيحه إجمالاً هو أنّ الإحتيال المعبر عنه بالكيد أن كان لأجل التّوصل الى
الأغراض و المقاصد الشرعيّة و لا يكون نفس الإحتيال مخالفاً للشرع من
حيث الحكم فهو ممدوحٌ بل مرّغبٌ فيه و أن كان لغير ذلك مثل أن يكون
الغرض فيه الوصول الى الباطل أو كان نفس الإحتيال مخالفاً للشرع فهو مذمومٌ
و من المعلوم أن ما نحن فيه من القسم الممدوح فأبشّر إشكالٍ فيه حتّى نحتاج
الى التّأويل فقوله تعالى: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ معناه، كذلك علّمنا يوسف أو

أوحينا اليه طريق تخلص بنيامين و يدلّ عليه قوله بعد ذلك: **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** وذلك لأنّ حكم السّارق في دين ملك مصر كان ضرب السّارق أو تغريمه ضعف ما أخذ و سرق دون الإسترقاق و الإستبعاد كما هو شريعة يعقوب و على هذا فلم يكن يوسف متمكناً من أخذ أخيه تحت عنوان السرقة التي نسبوها اليه في حال من الأحوال و الدليل على صحّة ما ذكر هو قول أولاد يعقوب في جواب أصحاب يوسف: **جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ** أي يستبعد و يسترق، فثبت و تحقّق أنّ الكيد في الآية ليس معناه المذموم أعني به الإضرار على الغير لأجل الخدعة و الحاصل أنّ الحيلة الى المباح لإستخراج الحقوق الشرعيّة و العقلية لا بأس بها اذا لم تكن فيه مخالفة للشرع و قد علم الله تعالى أنّ في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة و منافع كثيرة فجعلها سلماً اليها فكانت حسنة جميلة و إنزاحت عنها وجوه القبح.

و أما قوله: **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** قالوا أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السّقاية في رحله عذراً له و قيل معناه أن الله شاء أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل. و قال صاحب الكشف أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله و اذنه فيه انتهى. و أنا أقول عندي احتمال آخر و هو أن يكون المعنى إلا أن يشاء الله بطريق آخر غير ذلك الطّريق و ذلك لأنّ الله قادر على كلّ شيء إلا أنّه أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها و قوله: **تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ تَشَاءُ** بما نرى من وجوه الصّواب في بلوغ المراد و هذا أيضاً ممّا لا شكّ فيه فأنّه تعالى يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء بيده الخير أنّه على كلّ شيء قدير.

ألا ترى أنّه تعالى كيف رفع درجات يوسف الى أن جعله والياً حاكماً على مصر رغماً لأنوف الحاسدين.

و قوله: **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** قيل في معناه، فوق كلّ ذي علم معلّم عليهم، و هو الله الغني بنفسه عن التّعليم.

و قال بعضهم، و فوق كل ذي علم، ممن رفعه الله، عليهم، قد رفعه بالعلم من وجه آخر فهو أعلم بذلك الأمر الآخر.

أقول لا نحتاج في تفسير الكلام الى هذه التأويلات فأقوله: وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ أَصْلٌ مِنَ الْأَصُولِ الْعَقْلِيَّةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ كَمَا أَنَّهُ فِي وجوده محدودٌ متناهٍ كذلك في صفاته من العلم و القدرة و الإرادة و غيرها محدودٌ متناهٍ لِأَنَّ الصِّفَاتِ مِنَ لَوَازِمِ الْوُجُودِ وَ تَوَابِعِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ فَالْوُجُودُ الْمُتَنَاهِي يَقْتَضِي الصِّفَةَ الْمُتَنَاهِيَةَ وَ الصِّفَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ لَهَا فَوْقَ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ:

من جملة الصفات العلم و المفروض أنه متناهٍ و معنى التناهي أن يكون فوقه علمٌ إذ لو لم يكن فوقه علم لم يكن متناهياً و هو خلف و هكذا القدرة و الإرادة و غيرهما من الصفات، و هذا معنى قولنا أن قوله و فوق كل ذي علم عليهم، أَصْلٌ مِنَ الْأَصُولِ الْعَقْلِيَّةِ وَ عَلَى هَذَا فَالْأَنْبِيَاءُ وَ أَنْ كَانَ عُلُومُهُمْ فَوْقَ عُلُومِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّ فَوْقَ عُلُومِهِمْ أَيْضاً عِلْمٌ وَ هُوَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَ لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ أَيْ عَلَّمْنَاهُ مَا لَيْسَ عَالِماً بِهِ فَأَنَّ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ، وَلَوْ كَانَ الْعَالَمُ نَبِيّاً وَ أَنَّمَا قَالَ عَلِيمٌ وَلَمْ يَقُلْ عَالِماً مَثَلًا، لِأَنَّ الْعَلِيمَ مِبَالِغَةٌ فِي الْعِلْمِ وَ هُوَ لَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مَنْ كَانَ عَالِماً بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ وَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لَا غَيْرَهُ وَ لِذَلِكَ لَا يُطْلَقُ الْعَلِيمُ عَلَى غَيْرِهِ تَعَالَى.

و يحتمل أن يكون الكلام إشارة إلى أن علمه تعالى لم يؤخذ من غيره بل هو من ذاته و لذلك لا علم فوق علمه كما لا وجود فوق وجوده و لا قدرة فوق قدرته و أمّا غيره تعالى فعلمه من غيره فلا محالة فوقه علم آخر و كيف كان في الآية دلالة على أن العبد كما أنه محتاج إلى خالقه في وجوده حدوداً و بقاءً كذلك محتاج إليه في صفاته و الله أعلم.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ
 فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ
 أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
 قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ
 أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ
 مَعَادَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ
 إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ
 خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ
 أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ
 فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ
 أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)
 ارْجِعُوا إِلَيَّ أَبْيِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
 حَافِظِينَ (٨١) وَسُئِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ
 أَعْبَرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ
 بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى
 اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
 (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ
 وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا
 تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ
 تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ
 حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

(٨٦) يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجِيَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَأَنْتَ يَا يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَآتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ
 ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ (٩٩) وَرَفَعَ
 أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا
 أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي
 حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَيَّ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ
 جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَغَ الشَّيْطَانُ
 بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ
 هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

◀ اللغة

فَأَسْرَهَا أَي أَخْفَاهَا فِي نَفْسِهِ.
 وَلَمْ يُبْدِهَا الْإِبْدَاءُ الْإِظْهَارُ.
 اسْتَيْسَسُوا مِنَ الْيَأْسِ أَي لَمَّا أَيْسُوا.
 نَجِيًّا أَي مُتَنَاجِينَ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِهِمْ.
 فَرَّطْتُمْ التَّفْرِيطُ التَّقْصِيرُ.
 أَبْرَحَ يُقَالُ يَبْرَحُ بَرَحًا وَبُرُوحًا أَي زَالَ.
 تَفْتَتُوا يُقَالُ فَتِي يَفْتَتُوا فَتَنًا وَفُتُونًا، أَي فَمَا زَالَتْ.
 حَرَضًا الْحَرَضُ ذُو الْمَرَضِ وَالبُلَى وَأَصْلُ الْحَرَضِ فساد الْعَقْلِ.
 بَيَّ الْبَثُّ بَفَتْحِ الْبَاءِ تَفْرِيقُ الْهَمْ بِإِظْهَارِهِ عَنِ الْقَلْبِ.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

◀ الإعراب

مَكَانًا مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ مَعَاذَ اللَّهِ مَصْدَرٌ وَالتَّقْدِيرُ مِنْ أَنْ نَأْخُذَ نَجِيًّا
 حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، خَلَصُوا وَهُوَ وَاحِدٌ فِي مَوْضِعِ الْجَمْعِ يَا أَسْفَى

الألف مبدلة من ياء المتكلم والأصل، أسفي فتحت الفاء و صيرت الياء ألفاً ليكون الصوت بها أتم تَقْتُوا أي لا تفتتوا فحذفت، لا، للعلم بها وتذكُرُ في موضع نصب خبر تفتتوا.

◀ التفسير

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ

أَنَّ الصَّوَاعَ لَمَّا خَرَجَ مِنْ رَحْلِ بَنِيَامِينَ إِفْتَضَحَ الْإِخْوَةَ وَ نَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ حِيَاءً وَ لِتَبْرَةِ سَاحَتِهِمْ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ، بَنِيَامِينَ، فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ، كَانَ لَهُ وَ هُوَ يَوْسُفُ، مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ، أَي أَخْفَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ قَلْبِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا، أَي لَمْ يَظْهَرِهَا لَهُمْ.

وَ إِخْتَلَفَ فِيمَا أَضَافُوا إِلَى يَوْسُفَ مِنَ السَّرْقَةِ فَقِيلَ كَانَ أَخَذَ فِي صَبَاهُ صَنَمًا كَانَ لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ بِحِرَّانَ وَ هِيَ بِفَتْحِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَ تَشْدِيدِ الرَّاءِ قَرْيَةٌ فِي جَانِبِ دِمَشْقَ فَقَالَتْ رَاحِيلُ لِابْنِهَا يَوْسُفَ خُذِ الصَّنَمَ وَ أَكْسِرْهُ لَعَلَّهُ يَتْرُكُ عِبَادَةَ الصَّنَمِ فَاخْذِهِ يَوْسُفَ وَ كَسِرْهُ وَ أَلْقَاهُ بَيْنَ الْجَيْفِ فِي الطَّرِيقِ.

وَقَدْ رَوَاهُ فِيهِ رَوَايَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ سَرَقَ يَوْسُفَ صَنَمًا

لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ مِنْ فِضَّةٍ وَ ذَهَبٍ فَكَسِرَهُ وَ أَلْقَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ انْتَهَى

وَ غَيْرُهُ إِخْوَتُهُ بِذَلِكَ وَ نَقَلَ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَ الْقُرْطُبِيُّ وَ غَيْرُهُمَا أَنَّ عَمَّةَ

يَوْسُفَ بِنْتَ إِسْحَاقَ كَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ يَعْقُوبَ وَ كَانَتْ صَارَتْ إِلَيْهَا مِنْطَقَةُ إِسْحَاقَ لِسَنِّهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالسِّنِّ وَ هَذَا مِمَّا نَسَخَ حُكْمَهُ بَشَرَعْنَا وَ كَانَ مِنْ سَرَقَ اسْتَعْبَدَ وَ كَانَتْ عَمَّةُ يَوْسُفَ حُضَّتَهُ وَ أَحَبَّتَهُ حَبًّا شَدِيدًا فَلَمَّا تَرَعَّرِعَ وَ شَبَّ قَالَ لَهَا يَعْقُوبُ سَلِّمِي يَوْسُفَ إِلَيَّ فَلَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ يَغِيبَ عَنِّي سَاعَةً فَوَلَعْتُ بِهِ وَ أَشْفَقْتُ مِنْ فِرَاقِهِ فَقَالَتْ لَهُ دَعِهِ أَيَّامًا أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ

عندها يعقوب عملت الى منطقة إسحاق فخرقتها من تحت ثيابه ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق فأنظروا من أخذها و من أصابها فإلتمست ثم قالت أكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدت مع يوسف فقالت أنه والله لي سلم أصنع فيه ما شئت ثم أتاه يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها أنت و ذلك أن كان فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته حتى ماتت فبذلك غير إخوته في قولهم إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، قالوا و من هاهنا تعلم يوسف وضع السقاية في رحل أخيه كما عملت به عمته انتهى تفسير القرطبي^(١).

أقول لا تعلم صدق هذا الحديث أو كذبه و العهدة عليهم و قال قوم في وجه نسبة السرقة اليه أنه عليه السلام كان يسرق من طعام المائدة للمساكين وكيف كان فقد نسبوا السرقة اليه و أما يوسف فأسرّها أي أخفى الكلمة التي قالوها و هي نسبة السرقة اليه و لم يبدها أي لم يظهرها لهم لا قولاً و لا فعلاً صفحاً عنهم و حلماً كأنه قيل.

فماذا قال عند تضاعيف ذلك الأسرار فقول: **قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا** أي منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم و الله أعلم بما تصفون، أنه كذب أي أنّ الله يعلم أنكم تكذبون في قولكم فقد سرق أخ له و هو ظاهر.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

لما رأوا أن لا سبيل لهم الى تخليصه خضعوا وإلتمسوا و قالوا يا أيها العزيز، الظاهر أنهم قالوا ذلك وهم لا يعرفونه و خاطبوه بالعزيز لأنّ العزيز الممتنع بقدرته من أن يضام و العز منع الضيم بسعة المقدور و السلطان. و قد ذكرنا سابقاً أنّ العزيز و هو قطفير قد مات و أقام الملك يوسف مقامه ثم جلس هو أيضاً في بيته وفوض جميع الأمور الى يوسف.

في التفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا المراد به يعقوب النَّبِيُّ فَأَنَّهُ كَانَ أَبَا أُخِيهِمْ كَبِيرًا
السَّن، أو كبير القدر فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ أَي خذ مِنَّا واحداً عبداً بدله و مكانه
أَي بدل بنيامين، إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وذلك لما رأوا من إحسانه اليهم
في جميع أفعاله.

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ

هو من إضافة المصدر الى المفعول به أي نعوذ بالله معاذاً من أَنْ نَأْخُذَ في
موضع نَصَب أَي مِن أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ أَي معاذ الله أن
نأخذ البرئ بالمجرم ونخالف ما تعاقدا عليه إِنَّا إِذَا لظَالِمُونَ أَي إن نأخذ
غيره مكانه يكون ظالماً لَأَنَّ الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير محله كما أن
العدل وضعه في محله.

و من المعلوم أن أخذ البرئ مكان المجرم من وضع الشيء في غير محله و
مَنْ فعل ذلك فهو ظالم قطعاً.

قال بعض المفسرين إِذَا جواب لهم و جزاء لَأَنَّ المعنى إن أخذنا بدله
ظلمنا هذا ظاهره و أما باطنه فهوو أَنَّ الله أمرني بالوحي أن أخذ بنيامين
لمصالح علمها الله في ذلك فلو أخذت غيره لكنت ظالماً و عاملاً بخلاف
الوحي و فيه إشارة الى أَنَّ العمل بخلاف الوحي و الإلهام أيضاً ظلم الى آخر ما
قال و هو أوضح من أن يخفى على أحد.

فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا

أَي فَلَمَّا يَسُوا من يوسف و أَنَّهُ لم يقبل قولهم مِن أَخْذِهِ أَحَدَهُمْ مكانه
خَلَصُوا نَجِيًّا أَي انفردوا وليس هو معهم و قوله نَجِيًّا نصب على الحال من
المضمر في خلصوا و هو واحد يؤدِّي عن جميع و يقع الواحد أيضاً كقوله:
قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا و جمعه أنجيه قال الشاعر:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمَ كَانُوا أَنْجِيته وَأُضْطَرِبَ الْقَوْمَ إِضْطَرَاباً الْأَرْشِيه

و قرأ ابن كثير، إستانيسوا، والمعنى واحد لأنه من اليأس.

و قال بعضهم معنى الكلام أَنَّهُمْ بعد اليأس إنفردوا و إعتزلوا عن النَّاس خالصين لا يخالطهم غيرهم، نجياً، أي متناجين في تدبير أمرهم و أَنَّهُمْ على أي صفة يذهبون و ماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم قَالَ كَبِيرُهُمْ فِي السَّن روبيل أو في العقل و هو يهودا أو رئيسهم و هو شمعون و كانت له الرئاسة على إخوته كَأَنَّهُمْ أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملة و هو لم يرض فقال منكراً لَهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا الإستفهام للإنكار أي علمتم يقيناً أَنَّ أَبَاكُمْ يعقوب قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِقاً مِنَ اللَّهِ أي عهداً وثيقاً من الله و هو حلفهم به في حفظ إبنه وردّه اليه وَ مِنْ قَبْلِ الْوَاو للحال والتقدير من قبل ذلك فحذف المضاف اليه و الضمة بقيت لتدل عليه مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ قيل، ما، زائدة و قيل هو في محل نصب عطفاً على، أن، و المعنى أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ قد أخذ عليكم موقفاً من الله و تعلموا تفريطكم في يوسف أي تقصيركم في شأنه و ذلك لأنهم لم يحفظوا فيه عهد أبيهم مع أَنَّهُمْ قالوا له و إِنَّا لناصرون، و إِنَّا لحافظون و مع ذلك فعلوا به ما فعلوا.

فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ أَلْحَاكِمِينَ أي لن أفارق أرض مصر ذاهباً منها حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي في العود اليه و كان إيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير إذن أبيهم، أو يحكم الله لي، بالخروج منها على وجه لا يؤدي الى نقض الميثاق أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب و هو خير الحاكمين، إذ لا يحكم إلا بالحق و العدل.

و قال بعضهم أو يحكم الله لي بالممر مع أخي فأمضي معه الى أبي. و قيل المعنى أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب و أخذ أخي أو أعجز فأنصرف بعذر و ذلك أَنَّ يعقوب قال، لتأتني به إلا أن يحاط بكم، حارب و عجز فقد أحيط به و روي عن ابن عباس في المقام ما لا بأس بذكره و أن كان الإعتماد عليه مشكل و نحن ننقله عن تفسير القرطبي و العلم عند الله.

قال ابن عباس كان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف شعره في صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه وجاء في الخبر أنّه قال لأخوته و كان أشدّهم غضباً إمّا أن تكفوني الملك و من معه أكفكم أهل مصر و أمّا أن تكفوني أها مصر أكفكم الملك و من معه قالوا بل إكفنا الملك و من معه نكفك أهل مصر فبعث واحداً من إخوته فعُدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق فأخذ كلّ واحدٍ منهم سوقاً ثمّ أنّ يهوذا دخل على يوسف و قال أيّها الملك لأنّ لم تخل معنا أخانا لأصيحّن صيحةً لا تبقي في مدينتك حاملاً إلاّ سقطت ما في بطنها و كان ذلك خاصّة فيهم عند الغضب فأغضبه يوسف و أسمعته كلمة فغضب يهوذا و اشتدّ غضبه و إنتفجت شعراته.

و كذا كان كلّ واحدٍ من بني يعقوب كان إذا غضب إقشعر جلده و إنتفخ جسده و ظهرت شعرات صدره و ظهره من تحت الثوب حتّى تقطر من كلّ شعرة قطرة دم و إذا ضرب الأرض برجله تزلزلت و تهلّمت البنيان و أن صاح صيحة لم تسمعه حاملٌ من النساء و البهائم و الطير إلاّ وضعت ما في بطنها تماماً أو غير تمامٍ فلا يهدأ غضبه إلاّ أن يسفك دمّاً أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب فلمّا علم يوسف أنّ غضب أخيه يهوذا قد تمّ و كمل كلّم ولدأله صغيراً بالقبطية و أمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه ففعل و سكن غضبه و ألقى السيف فإلتفت يميناً و شمالاً لعلّه يرى أحداً من إخوته فلم يره فخرج مسرعاً الى إخوته و قال هل حضرنى منكم أحد قالوا لا قال فأين ذهب شمعون قالوا ذهب الى الجبل فخرج فلقيه و قد احتمل صخرةً عظيمة قال ما تصنع بهذه قال إذهب الى السوق الذي وقع في نصيبي أشد بها رؤوس كلّ من فيه قال فأرجع فردّها أو ألّفها في البحر و لا تحدثن حدثاً فوالذي إتخذ إبراهيم خليلاً لقد مسّني كفٌ من نسل يعقوب ثمّ دخلوا على يوسف أشدّهم بطشاً فقال له يا معشر العبرانيين أتظنون أنّه ليس أحدٌ أشدّ منكم قوّة ثمّ عمد الى حجرٍ عظيمٍ من حجارة الطّاحونة فركله برجله فدجا به

من خلف الجدار ثم أمسك يهوذا بأحدى يديه فصصره فقال هات الحدادين
أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم ثم صعد على سريره وجلس على
فراشه وأمر بصواعه، فوضع بين يديه ثم نقره نقره فخرج طنينه فألتفت اليهم و
قال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فإنه يقول أنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم غمٌ
ولا كربٌ إلا بسببهم.

ثم نقر نقره ثانية و قال أنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخالهم صغيراً فحسدوه
و نزعوه من أبيهم ثم أتلّفوه فقالوا أيّها العزيز أستر علينا ستر الله عليك وأمن
علينا من الله عليك.

فنقرة نقره الثالثة و قال أنه يقول أن هؤلاء طرّحوا صغيرهم في الجبّ ثم
باعوه بيع العبد بثمان بخس و زعموا لأبيهم أن الذئب أكله.

ثم نقرة رابعة و قال أنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنباً منذ ثمانين سنة لم
تستغفروا الله منه و لم تتوبوا اليه.

ثم نقرة خامسة و قال أنه يقول أن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب
الأيام حتّى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا.

ثم نقر سادسة و قال أنه يقول لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتُم و لا
عققتُم و الدكم لأجعلنكم نكالا للعالمين، إيتوني بالحدادين أقطع أيديهم و
أرجلهم فتضرعوا و بكوا و أظهروا التوبة و قالوا لقد أصبنا أخانا يوسف إذ هو
حيّ لنكونن طوع يده و تراباً يطأ علينا برجله فلمّا رأى ذلك يوسف من إخوته
بكى و قال لهم أخرجوا عني قد خليت سبيلكم إكراماً لأبيكم و لولا هو
لجعلتكم نكالا انتهي.

أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا
عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ

هذا إخبار منه تعالى بما قال أحدهم المتخلف بمصر و هو يهوذا على ما
قيل و قيل غيره فإنه قال لأخوته إرجعوا الى أبيكم فقولوا له يا أيبانا أن ابنك

سرق و هو بنيامين و يحتمل أن يكون حكاية عما قال إخوة يوسف بعضهم لبعض فأنهم قالوا أرجعوا الى أبيكم و ما شهدنا إلا بما علمنا معناه ما شهدنا إلا بما علمنا من الظاهر.

و أما الغيب و باطن الأمر فلا يعلمه إلا الله و ما كنّا للغيب حافظين أي لا نعلمه و لا نحفظه قيل كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين حيث قال في جوابهم (دَسَّ هذا في رَحْلي مَن دَسَّ لبضاعتكُم في رحالكُم) على ما مرّ بيانه. و قيل المعنى ما شهدنا عن يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من دينك و قيل في معنى، وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ، أي لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يسرق فلا نأخذه.

و قال مجاهد و قتادة، أي ما كنّا نعلم أنّ ابنك يسترق و ليصير أمرنا الى هذا و أنما قلنا نحفظ أخانا فيما نطق.

و قال ابن عباس يعنون أنه سرق ليلاً و هم نيام و الغيب هو اللّيل بلغة، حمير، و عنه ما كنّا نعلم ما يصنع في ليله و نهاره و ذهابه و إيايه. و قيل مادام بمراى منّا لم يجر خلل فلما غاب خفيت عنّا حالته.

و قيل معناه قد أخذت السرقة من رحله و نحن أخرجناها و ننظر اليها و لا علم لنا بالغيب فلعلهم سرقوه و لم يسرق ذكر هذه الوجوه القرطبي في تفسيره.

أقول الإحتمالات كثيرة و لا نحتاج اليها و لا الى ذكرها بعد وضح المعنى بحسب ظاهر الآية و هو أنه سرق ظاهراً و أما أنه سرق واقعاً فلا نعلمه لأننا لا نعلم الغيب.

و أما الشّهادة فهي خبر عن مشاهدة أو إقرار أو حالٍ فقولهم و ما شهدنا إلا بما علمنا.

أرادوا به المشاهدة بالعين لأنهم رأوا بأعينهم إستخراج الصّوّاع من رحل أخيه و عليه فقولهم علمنا أي علمنا ظاهراً لأنّ العلم كثيراً ما يوجد من طريق

الحواس كما يوجد من طريق الإدراك والتفكير ثم أنتم أي إخوة يوسف لما كانوا متهمين عند أبيهم بسبب واقعة يوسف أمرهم كبيرهم الذي تخلف عنهم بمصر بأن يبالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم عند يعقوب ويقولوا لأبيهم.

وَسَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ
القرية بفتح القاف أصلها من قرئت الماء أي جمعته ثم أستعملت في المكان الذي فيه جمع من الناس كالبلدة والمدينة ولذلك قالوا القرية والبلدة والمدينة نظائر ولا خلاف عندهم أنها بحذف المضاف وتقدير الكلام و أسأل أهل القرية فقال بعضهم المراد بها مدينة مصر.

وقال بعضهم قرية من قراها وهي التي نزلوا بها وإتاروا منها في خارج مصر وإحتمل بعضهم أن الكلام خرج مخرج الحقيقة ولا مجاز فيه والمسؤول عنه هو نفس القرية أي وأسأل نفس القرية وأن كانت جماداً فأنت نبي الله والله ينطق الجماد لك وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار.

ثم نقل عن سيبويه أنه قال لا يجوز كلم هنداً وأنت تريد غلام هند لأن هذا يشكل والقول في العير كالقول في القرية سواء أي وأسأل أهل العير على المشهور أو نفس العير على الإحتمال الأخير.

أقول الحق هو القول المشهور أعني به حذف المضاف.

وأما نقله القائل عن سيبويه وهو أنه لا يجوز كلم هنداً وأنت تريد غلام هند، ففيه أن القياس مع الفارق وذلك لأن هنداً تقدر على الجواب فلا معنى لحذف المضاف في الكلام وهذا بخلاف القرية فأنها لا تقدر على الجواب ولهذا يقدر فيه المضاف وهذا أي عدم قدرة القرية بنفسها على الجواب يعبر عنه بالقرنية المصححة للمجاز وأما قوله هو نبي الله والله تعالى ينطق الجماد له، فهو أيضاً ممّا لا معنى له فإن الله يقدر على كل شيء وهذا ممّا لا كلام فيه إلا أنه أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها، اللهم إلا في بعض الموارد كالمعجزات التي صدرت من الأنبياء وما نحن فيه ليس منها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

لَمَّا شَهِدُوا عِنْدَ يَعْقُوبَ بِمَا شَهِدُوا مِنْ سَرَقَةِ ابْنِهِ وَقَالُوا وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ وَالْغَيْرَ لِتَعْلَمَ صَدَقَ قَوْلُنَا قَالَ يَعْقُوبُ فِي جَوَابِهِمْ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ، أَيِ زَيَّنَتْ أَوْ سَهَّلَتْ وَالتَّسْوِيلُ حَدِيثُ النَّفْسِ بِمَا تَطْمَعُ فِيهِ وَمِنْهُ السُّتُولُ وَالْمَنَى يُقَالُ أَعْطَاكَ اللَّهُ سُؤْلَكَ وَالْمَعْنَى بَلْ سَوَّلَتْ أَيِ زَيَّنَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا يُظْهِرُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ يَعْقُوبَ لَمْ يَقْبَلْ قَوْلَهُمْ أَوْ كَانَ شَاكًا فِيهِ وَالْحَقُّ كَانَ مَعَهُ بَظَاهِرِ الْأَمْرِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَهُ مَتَّهِمِينَ بَعْدَ قَضِيَّةِ يُوسُفَ وَلَعَلَّهُ لِذَلِكَ، أَتَى بِكَلِمَةِ، بَلْ، الَّتِي لِلإِضْرَابِ أَيِ الإِعْرَاضِ عَمَّا قَالَ وَالْإِقْبَالِ إِلَى مَا لَمْ يَقُلْ، فَإِذَا قُلْتَ جَاءَنِي زَيْدٌ بَلْ عَمْرُوٌّ مَعْنَاهُ أَنَّ زَيْدًا لَمْ يَجِئْ بَلْ جَاءَ عَمْرُوٌّ وَهَكَذَا فِيمَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنَّهُمْ قَالُوا لِأَيُّهِمْ مَا قَالُوا قَالَ يَعْقُوبُ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَيِ لَا أَقْبَلُ قَوْلَكُمْ أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عِنْدِي بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمُوهُ بَلْ كَذَا وَكَذَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَصَبِرْ جَمِيلٌ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، أَيِ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ فَصَبِرْ جَمِيلٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِبْتِدَاءٌ وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ وَتَقْدِيرُهُ فَصَبِرْ جَمِيلٌ أَمْثَلُ مِنْ غَيْرِهِ فَأَنَّهُ مِفْتَاحُ الْفَرْجِ كَمَا قِيلَ:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرْجًا قَرِيبًا

وَالصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ عَمَّا تَسَارِعُ إِلَيْهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ، وَالْجَمِيلُ مَا يَتَقَبَّلُهُ الْعَقْلُ وَقد يَسْمَى مَا يَتَقَبَّلُهُ الطَّبْعُ أَيْضًا جَمِيلًا، وَالْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي مَدَحِ الصَّبْرِ وَحُسْنِهِ وَمَدَحِ الصَّابِرِينَ كَثِيرَةٌ وَلِنُشِرَ إِلَى شَطْرِ مِنْهَا تَيْمَنًا وَتَبَرُّكًا.

فَنَقُولُ مِنَ الْآيَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَانصَلُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(١) فَبَدَأَ بِالصَّبْرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ثُمَّ جَعَلَ نَفْسَهُ مَعَ الصَّابِرِينَ دُونَ الْمُصَلِّينَ.

قال الله تعالى: إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(١).

قال الله تعالى: وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٢).

قال الله تعالى: وَلَنُصَبِّرَنَّكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ^(٣).

و بالجملة فقد ذكر الله سبحانه و تعالى الصَّبر في كتابه العزيز في ثَيف و سبعين موضعاً و يكفيننا في ذلك ما أقر الله به نبيه قال: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ^(٤).

و قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: النَّصْرُ فِي الصَّبْرِ.

و قال ﷺ: بالصَّبر يتوقع الفرج.

و قال عليّؑ: الإِنَاة من الله و العجلة من الشَّيْطَانِ.

فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصَّبر في مواطن طلباته و التَّشَبُّث في حركاته و سكناته.

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال - ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وحسبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذىٍ ولا غمٍّ حتَّى الشَّوْكَة يشاكها إلَّا حطَّ الله به من خطاياها و عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ إذا أراد الله بعبد الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدُّنْيَا و إذا أراد الله بعبد الشرِّ أَمْسَكَ عنه بذنبه حتَّى يوافي به يوم القيامة و قال ﷺ: أَنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ و أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ.

فله الرِّضَا و من سَخَطَ فله السَّخَطُ و هذه شَطْرُ مَا رَوَتْهُ الْعَامَّةُ فِي فَضِيلَةِ الصَّبْرِ وَأَمَّا مِنْ طَرِيقِ الْخَاصَّةِ.

قال رسول الله ﷺ: الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ.

و قال ﷺ: أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ عَلَيْهِ النَّفْسُ.

بَابُ
فِي الْقُرْآنِ
فِي صَبْرِ
الْعَبْدِ
الْقَائِمِ



الْعَبْدُ
الْقَائِمُ

وقال ﷺ: الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فلا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له.

و سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال ﷺ الصَّبر و السَّماحة و هكذا و أن شئت الإطلاع على تفصيل.

ما ورد فيه من الأخبار فعليك مراجعة الأخبار و ما نقلناه عن جامع السَّعادات للترقي^(١) و لنعم ما قيل فيه:

وَإِذَا مَسَّكَ الزَّمَانُ بِضُرٍّ
وَأَتَتْ بَعْدَهُ نَوَائِبُ أُخْرَى
فَأُصْطَبِرْ وَانْتَظِرْ بُلُوغَ الْأَمَانِي
وَإِذَا أَوْهَنْتَ قِوَاكُ وَجَلَّتْ
وَقَالَ الْآخَرُ:

أَنَّ الْأُمُورَ إِذَا سَدَّتْ مَسَالِكَهَا
لَا تَيَأْسُنْ وَإِنْ طَالَتْ مَطَالِبُهُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

إِذَا مَا أَتَاكَ الدَّهْرُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ
فَأَنَّ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ عَجِيبَةٌ
وَمَا مَسَّنِي عَسْرٌ فَقَوَّضْتُ أَمْرَهُ
وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ:

الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالِهِ
فَأَنْ تَلْقَاكَ بِمَكْرُوهِهِ

و الأشعار كثيرة و متَّصل الكلام هو أنه لاشك في أنَّ الصَّبر ممدوح و مع ذلك هو محمود العاقبة و لذلك قال يعقوب ^{عليه السلام} فصبر جميل ثم قال على ما حكاه الله.

عنه: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا يعني يوسف وبنيامين، وروبييل و
 إنمّا قال ^{إِلَّا} ذلك لأنّ بالصبر يتوقّع الفرج من الله تعالى كما قال: إِنَّهُ هُوَ
 أَعْلَمُ الْأَحْكَامِ أي أنّه عليّم بحسرتي على فقد أولادي، حكيمٌ بتدبيره في
 خلقه على أحسن الوجوه كما قيل:

إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةُ مَحْمُودَةُ الْأَثَرِ
 وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَأَسْتَصَحَبَ الصَّبْرُ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ
 فَهُوَ كَظِيمٌ

و تَوَلَّى عنهم، أي أعرض عنهم بوجهه بعد ما سمع منهم ما سمع و رَأَى
 منهم ما فعلوا بيوسف و ذلك لأنّه لَمَّا بلغه ما بلغه من خبر بنيامين إشتدّ حُزنه
 و بلغ جهده و جدّد الله مصيبتّه في يوسف فقال أسفا على يوسف، أي يا
 حَسْرَتاه و الأسف الحزن على ما فات و قيل هو أشدّ الحزن و إنّما خَصَّ بالذكر
 يوسف و لم يقل يا أسفا على بنيامين لأنّه أي يوسف كان أَحَبَّ أولاده اليه
 مضافاً الى أنّ مصيبة يوسف كانت هي الأصل في تلك الواقعة لا ما ذكره بعض
 المُفسّرين من أنّه نسي بنيامين فلم يذكره.

نقل بعضهم عن سعيد بن جبیر أنّه قال لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من
 الإسترجاع ولو كان عنده لما قال يا أسفا على يوسف، ذكره القرطبي في
 تفسيره.

أقول ما ذكره ليس بصحيح و ذلك لأنّ كلمة الإسترجاع عند الموت لا عند
 الفراق و يعقوب كان عالماً بأنّ يوسف لم يمت فكيف يصحّ له أن يقول: إِنَّا لِلَّهِ
 وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وإن كان المقصود أنّ ألفاظ هذا الكلام لم يكن عنده
 فالجواب أنّ لسانه كان عبرياً و الحاصل أنّ مفاد هذا الكلام كان موجوداً عند
 جميع الأنبياء و هو أنّ المخلوق يرجع الى خالقه بالموت و لا بحث لنا في

الألفاظ و الحروف وقوله: وَ أَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَالْبَيَاضُ هُوَ
إِنْقِلَابُ الشَّيْءِ إِلَى حَالِ الْبَيَاضِ وَالْمَعْنَى أَنَّ يَعْقُوبَ عَمِي فَلَمْ يَبْصُرْ شَيْئاً قَلِيلَ
لَمْ يَبْصُرْ بِهِمَا سِتَّ سَنِينَ وَقِيلَ قَدْ تَبَيَّضَ الْعَيْنُ وَيَقَى شَيْءٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَالِهِ وَإِنَّمَا ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى يُوسُفَ وَلَكِنْ سَبَبُ
الْبُكَاءِ الْحُزْنَ فَلِهَذَا قَالَ مِنَ الْحُزْنِ فَأَنَّهُ مُوجِبٌ لِلْبُكَاءِ وَالْبُكَاءُ وَالْعَبْرَةُ إِذَا كَثُرَتْ
مَحَقَّتْ سَوَادَ الْعَيْنِ وَقَلَّبَتْهُ إِلَى بَيَاضٍ وَقَدْ تَعَمَّيْهَا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ شُعَيْبٍ
النَّبِيِّ فَأَنَّهُ بَكَى مِنْ حُبِّ اللَّهِ حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَى بَصَرِهِ وَكَذَلِكَ يَكْئِ يَعْقُوبَ
حَتَّى عَمِيَ وَهُوَ الْأَصَحُّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: فَارْتَدَّ بَصِيرًا.

روي أَنَّهُ مَا جَفَّتْ عَيْنَا يَعْقُوبَ مِنْ يَوْمِ فِرَاقِ يُوسُفَ إِلَى حِينَ لِقَائِهِ ثَمَانِينَ
سَنَةً وَقِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ وَمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ أَكْرَمَ
عَلَى اللَّهِ مِنْ يَعْقُوبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَهُوَ كَظِيمٌ فَالْكَظِيمُ هُوَ الْمَمْسُوكُ لِلْحُزْنِ فِي
قَلْبِهِ لَا يَبْنُو بِمَا لَا يَجُوزُ إِلَى غَيْرِهِ قَالَ تَعَالَى: وَ الْكَاطِمِينَ أَلْفِيزًا^(١).

وقد روي في كتاب الْخِصَالِ عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لَقَدْ بَكَى عَلِيُّ بْنُ
الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَبِيهِ الْحُسَيْنِ عَشْرِينَ سَنَةً مَا وَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ
طَعَامًا إِلَّا بَكَى حَتَّى قَالَ لَهُ مَوْلَى لَهُ يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ أَمَا أَنْ لِحُزْنِكَ أَنْ
يَنْقُضِي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ وَيْحَكَ أَنَّ يَعْقُوبَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَهُ إِثْنِي عَشَرَ
إِبْنًا فَغَيَّبَ اللَّهُ عَنْهُ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ بُكَائِهِ عَلَيْهِ
وَأَحَدٌ وَدَبَّ ظَهْرُهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَانَ إِبْنُهُ حَيًّا فِي الدُّنْيَا وَأَنَا نَظَرْتُ إِلَى
أَبِي وَأَخِي وَعَمِّي وَسَبْعَةَ عَشَرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مَقْتُولِينَ حَوْلِي فَكَيْفَ
يَنْقُضِي حُزَنِي إِنْتَهَى

وَأَنَا أَقُولُ صَدَقَ إِبْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِمْ أَفْضَلُ مِنْ
أَنْبِيَاءِ السَّلَفِ مِنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ إِلَى آخِرِ الْأَنْبِيَاءِ سِوَى جَدِّهِمْ رَسُولِ

اللَّهُ ﷻ فَانَّهُ قَالَ أَنَا سَيِّدٌ وَلَدَ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ تَعَالَى لَهُ مُخَاطَباً
إِيَّاهُ: (لَوْلَاكَ لَمَّا خَلَقْتَ الْأَفْلاكَ) فَهُوَ ﷻ أَصْلَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُبَارَكَةِ
الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ^(١) وَأَهْلَ بَيْتِهِ فُرُوعَهَا وَثِمَارَهَا وَكُلَّهُمْ نُورٌ
وَاحِدٌ لَقَوْلِهِ ﷻ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ، وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَالِيّاً لَا يُقَاسُ
بِأَلِ مُحَمَّدٍ أَحَدٌ وَهَكَذَا، وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ أَفْضَلُ مِنْ يَعْقُوبَ وَغَيْرِهِ فَهَذَا
يَعْقُوبَ يَقُولُ وَأَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ وَ أَيْبَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ وَ
هَذَا الْحُسَيْنِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ، رُوحِي لَهُ الْفِدَاءُ أَصَابَ مِنَ الْمَصَائِبِ يَوْمَ الطَّفِّ بِمَا
عَجَزَتِ الْأَلْسُنُ عَنْ بَيَانِهِ وَكَلَّتِ الْأَقْلَامُ عَنْ ضَبْطِهِ وَثَبَتَ مِنْ قَتْلِ إِخْوَانِهِ وَبَنِي
أَعْمَامِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلَادِهِ وَلَا سَيِّمًا قِرَّةَ عَيْنِهِ عَلَيَّ الْأَكْبَرِ الَّذِي قَطَّعُوهُ
بِسُيُوفِهِمْ إِرْباً إِرْباً وَعَلَيَّ الْأَصْغَرَ الَّذِي قَتَلُوهُ عَلَى مَا هُوَ مُسْطَوِرٌ فِي الْمَقَاتِلِ وَ
كُلَّ ذَلِكَ كَانَ بِمَرَأَةٍ وَمَنْظَرُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ وَلَمْ يَقُلْ وَأَسْفَا عَلَى
وَلَدِي عَلِيٍّ أَوْ عَلَى أَخِي الْعَبَّاسِ بَلْ كَانَ يَقُولُ إِلَهِي رِضَاً بِقَضَائِكَ تَسْلِيماً
لَأَمْرِكَ لَا مَعْبُودَ سِوَاكَ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، فَأَيْنَ هَذَا الصَّبْرِ مِنْ صَبْرِ النَّبِيِّ عَلَى
فَقْدِ أَحَدِ أَوْلَادِهِ مَعَ عِلْمِهِ بِحَيَاتِهِ أَيْنَ التَّرَابِ وَرَبِّ الْأَرْبَابِ وَهَذَا أَيُّ رِضَاهُمْ
بِقَضَاءِ اللَّهِ وَتَسْلِيمِهِمْ لِأَمْرِ اللَّهِ هُوَ السَّرُّ فِي كَوْنِهِمْ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ السَّلَفِ.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ
أَهْلِ الْكِفِّ

وَلَا تَزَالُ وَحَذَفْتَ، لِالْعَدَمِ الْإِلْتِبَاسِ.

قَالَ الْكِسَائِيُّ فَتَأْتُ وَفَتَّتْ، أَفْعَلُ ذَلِكَ أَيُّ مَا زَلْتُ وَزَعَمَ الْفَرَاءُ أَنْ، لَا،
مُضْمَرَةٌ أَيُّ لَا أَبْرَحُ وَ زَعَمَ الْخَلِيلُ وَ سَبَّوْهُ أَنْ، لَا، تَضْمُرُ فِي الْقِسْمِ لِأَنَّهُ لَيْسَ
فِيهِ إِشْكَالٌ وَلَوْ كَانَ وَاجِباً لَكَانَ بِاللَّامِ وَالثُّونِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

المجلد الثاني

و قال بعض المفسرين معنى الكلام، فما زالت، حذفت، لا، من تفتوا لأنه جواب القسم بمعنى المستقبل كما قال الشاعر:

فقلتُ يَمِينُ اللَّهِ أبحرَ قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك و أوصالي.
و المعنى، قال له ولده تالله تفتوا أي لا تزال تذكر يوسف حرصاً، أي تالفاً و
الحرص، ذو المرض و البلى، و قيل الحرص مادون الموت و أصل الحرص
فساد الفعل و الجسم للحزن و الحب قال الشاعر:

سرى همي فأمرضني وقديماً زادني مرضاً
كذاك الحب قبل اليوم ممّا يورث الحرصا

و قال الآخر:

أرى المرء ذا لأذواد يصبح محرضاً كأحراض بكرٍ في الديار مريض
و قال الضحّاك معناه بالياً داثراً.

و عن الفراء: قال الحارِض الفاسد الجسم و العقل و كذا الحرص و قال ابن
زيد الحرص الذي قد ردّ إلى أرذل العمر و هكذا و كلّها متقاربة.

و قوله: **أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ** أي من الذين، هلكوا أنفسهم بسبب
الحزن و البكاء و حاصل الكلام أن أولاد يعقوب أقسموا بالله و قالوا لأبيهم لا
تزال تذكر يوسف و تبكي عليه حتّى تكون حرصاً أي مريضاً تخفيفاً أو تكون
من الهالكين أي تكون من الأموات من شدة الحزن و البكاء و أنما قالوا ذلك له
على سبيل الملامة فكأنهم لاموه على ما كان عليه و نهوه عن ذلك ضمناً فإن
اللامة ترجع إلى النهي فلا يبعد أن يكون مقصودهم من هذا الكلام لأبيهم نهيم
أباه عن تذكر يوسف و البكاء عليه لأن فيه ضعفه و مرضه أو هلاكه و موته
فيرجع المعنى إلى أنهم قالوا له لا تذكر يوسف كثيراً و لا تبكي عليه بكاء
الثكلى فإن فيه إيذاءنا و هلاك نفسك ولعلّه لأجل ذلك قال يعقوب في جوابهم:

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

البث بفتح الباء أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيئته الى الناس أي ينشره، قال يعقوب في جوابهم إني لا أشكو ما بي اليكم أو الى غيركم من الناس حتى تصدوا للتسلي وأما أشكو همي و حزني الى الله، و الحزن أعم من البث فهو من ذكر العام بعد الخاص فإذا عطف على الخاص يراد به الأفراد و الباقية فيكون المعنى لا أذكر الحزن العظيم و الحزن القليل إلا مع الله هكذا قيل و كيف كان فالمقصود من هذا الكلام هو أن الشكاية الى الخلق لا فائدة فيهما بل تضر بصاحبها و تسقطه عن مقامه لأنه شكى الى الخالق من خالقه و هو كما ترى مناف للتوحيد الواقعي و دليل على ضعف إيمان الشاكي و عدم تسليمه بقضاء الله و قدره و مقام النبي أعلى و أرفع منه قال أشكو بني و حزني الى الله، و بذلك يندفع الإشكال الذي يخطر بالبال أحياناً و هو أن يعقوب قال فصبر جميل، فيما مضى من قوله ثم قال و أسفا على يوسف و قال أما أشكو بني و حزني الى الله، فكيف يكون الصبر مع الشكوى، ليس هذا مناقضاً لصبره الذي أقر به.

و الحل أن يعقوب شكى الى خالقه لا الى غيره و الشكاية الى الله لا إشكال فيها ألا ترى أن أيوب النبي قال: رَبِّهِ أَبَى مَسْنَى الضُّرِّ وَ أَنْتَ أَزْهَمُ الزَّاجِمِينَ^(١) و قال تعالى مع شكواه الى ربه في حقه: إِنَّا وَجَدْنَاهُ ضَايِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ^(٢) أي أن الشكاية الى الله لا تنافي الصبر فإنه شكى منه اليه و بكى منه عليه فهو المعذور لديه لأن حقيقة الصبر و معناه الحقيقي هو حبس النفس و منعها عن الشكوى الى الغير و ترك الركون الى الغير و تحمل الأذى و الابتلاء لصدوره من قضاءه و قدره و قد قيل بلسان الحقيقة:

كل شيء من المليح مليح
و قال الآخر:

والصبر عنك مذموم عواقبه
والصبر في سائر الأشياء محمود

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

و ذلك لأنَّ المحبَّ لا يصبر عن حضرة المحبوب فلا يزال يعرض حاله و
إفتقاره الى حضرته و لسان العشق لسان التضرع و الحكاية لا لسان الجزع و
الشكاية. فأفهم و لنعم ما قيل:

وقفت على ربح لِميتته ناقتي فما زلتُ أبكي عنده و أخاطبه
و أسقيه حتّى كاد ممّا أبثّه يكلمني أحجاره و ملاعبه
و الحاصل أنَّ شكاية العارف الواقف في صورة الشكوى حكاية حاله و
تضرّعه و إفتقاره الى حبيبه و المنهي عنه هو الشكوى الى غيره تعالى.
و أمّا اليه فلا منع فيه عقلاً و شرعاً و العبد المبتلى بالمصيبة إذا لم يتضرّع
الى ربّه فإلى من يتضرّع و قد ثبت أنَّ الله تعالى يحبّ تضرّع العبد و الشكاية
اليه بل عدّ ذلك من علل الإبتلاء و أمّا قوله: **وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** أي
أعلم من لطفه و عنايته و رحمته ما لا تعلمون، أو أعلم من إحسان الله إلی ما
يوجب حُسن ظنّي به.

أو أعلم من الله سبب الوحي و الإلهام حياة يوسف.

قال بعض المُفسّرين و أنما جاز على يعقوب و هو نبيّ أن يبكي حتّى
تبيّض عيناه من الحزن لأنَّ عظم المصيبة يهجم على النّفس حتّى لا يملك معه
القرار بالصّبر حتّى يرتفع الحزن مع أنّه على ولد لا كالأولاد في جماله و عقله و
عفاfe و علمه و أخلاقه و برّه و مع هذا فلم يكن منه إلّا ما يوجب الأجر العظيم
و الثّواب الجزيل الكريم و البكاء ليس بممنوع منه شرعاً و أنما الممنوع منه
اللّطم و الخدش و الجزّ و تخريق الثّياب و القول الذي لا يسوغ و كلّ لم يكن
منه عليّاً انتهى.

**يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ
إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**

التحسّس طلب الشّيء بالحاسة فأما طلبه بالدعاء الى فعله فلا يسمّى
تحسّساً و التحسّس بالحاء و التّجسس بالجيم بمعنى واحد، أخبر الله تعالى عن

يعقوب أنه قال لبنيه يا بني اذهبوا، أمرهم بالذهاب إلى الأرض التي جاءوا منها وتركوا بها أخويهم بنيامين والمقيم بها والمراد بها أرض مصر وأمرهم بالتَّحَسُّس وهو الاستقصاء والطلب بالحواس ويستعمل في الخير والشر، من يوسف وأخيه بنيامين وأما خصَّهما بالذكر ولم يذكر من أقام بها لأنَّ الذي أقام فيها وقال فلن أبرح الأرض، أنما أقام مختاراً، ولا تياسوا من روح الله، أي تقنطوا من فرجه وتنفيسه، وأما على قراءة من قرأها بضمَّ الراء فالمعنى لا تقنطوا من رحمة الله التي تحيا بها العباد وقيل أي لا تقنطوا من حيٍّ معه روح الله الذي وهبه فأَنْ من بقي روحه يرجئ وهذا يصح بناءً على أن يعقوب كان عالماً بحياة يوسف.

كما روي أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا هو حيٌّ فأطلبه.

قيل أنهم قالوا في جواب أبيهم، أما بنيامين فلا تترك الجهد في أمره وأما يوسف فإنه ميت وإننا لا نطلب الأموات فإنه أكله الذئب منذ زمان فقال لهم يعقوب، وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ لعدم علمهم بالله وصفاته وأما العارف به فلا يقنط من روحه في حال من الأحوال وذلك لأنَّ مع العسر يسرا، ولكلَّ شدةٍ بعدها الفرج. وفي الحديث أن الفاجر الرَّاَجِي إلى الله أقرب من العابد القانط.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام الفقيه كلَّ الفقيه من لم يقنط النَّاس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم مكر الله وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام بعد أن ذكر الشُّرك بالله وبعده اليأس من روح الله قال أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول أنه لا ييأس من روح الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ

و يستفاد من الأخبار أن اليأس من الكبائر، فينبغي للعبد أن لا يقنط من روحه في جميع الأمور.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُرْجَ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجِيَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

لَمَّا أرادوا الخروج الى أرض مصر على ما أمرهم أبوهم كتب يعقوب معهم كتاباً الى عزيز مصر يتعطفه على نفسه و ولده و أوصاهم أن يبدأوا بدفع كتابه الى عزيز مصر قبل دفع البضاعة اليه فكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الى عزيز مصر ومظهر العدل وموفي الكيل من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله صاحب نمrod الذي جمع لأبراهيم الحطب و النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه برداً و سلاماً و أنجاه منها، أخبرك أيها العزيز إنا أهل بيت قديم لم يزل البلاء سريعاً إلينا من الله ليبولونا بذلك عند السراء و الضراء و أن مصائبى تابعت عليّ منذ عشر من سنة أولها أنه كان لي ابن سميتّه يوسف و كان سروري من بين ولدي و قرّة عيني و ثمرة فؤادي و أن إخوته من غير أمّه سألوني أن أبعثه معهم يرتع و يلعب فبعثته معهم بكرة و أنهم جاؤني عشاءً يبيكون و جاؤني بقميصه بدم كذب فزعموا أن الذئب أكله فاشتدّ لفقده حزني و كثر على فراقه بكائي حتّى إبيضت عيناى من الحزن و أنّه كان له أخ من خالته و كنت له معجباً عليه رفيقاً و كان لي أنيساً و كنت إذا ذكرت يوسف ضممته الى صدري فيسكن بعض ما أجد في صدري و أن إخوته ذكروا لي أنك أيها العزيز سألتهم عنه و أمرتهم أن يأتوك به منعتهم المهرة لنا من القمح من مصر فبعثته ليمتاروا لنا قمحاً فرجعوا إلى و ليس هو معهم و ذكروا أنه سرق مكيال الملك و نحن أهل بيت لا نسرق و قد حبسته عنيّ و فجعتني به و قد اشتدّ لفراقه حزني حتّى تقوّس لذلك ظهري و عظمت به مصيبتى مع مصائب متابعات على بتخليه سبيله و إطلاقه من محبسه و طيب لنا القمح و أسمح لنا في السّعر و عجل بسراح آل يعقوب انتهى^(١).

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ وَالْعَزِيزُ فِي اللُّغَةِ الْوَاسِعِ الْمَقْدُورُ الَّذِي لَا يَهْتَضِمُ الْمَنِيْعُ بِسَعَةِ مَقْدُورِهِ مَسْنَأُ وَأَهْلُنَا أَلْضُرَّاءُ أَصَابْنَا الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ بِسَبَبِ الْقَحْطِ وَكَثْرَةِ الْعِيَالِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجِيَةٍ، أَي قَلِيلَةٍ وَقِل رَدِيئَةٍ وَقِل كَاسِدَةٍ غَيْرِ نَافِعَةٍ. وَرَوَى أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ مَتَاعُ الْبَادِيَةِ مِنَ الصُّوفِ وَالشَّعْرِ وَالسَّمَنِ وَالْحَبَالِ الْبَالِيَةِ.

و قال بعضهم معناها مردودة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها وإحتقاراً لها من أزعجته إذا دفعته و طرده و كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفاً و سمناً، و قيل هي الصنوبر و الحبة الخضراء و هي الفستق أو دراهم يوف لا تؤخذ إلا بنقصانها ثم قالوا له: فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ أَي لا تنقصنا من كيلنا لنقصان بضاعتنا.

و قيل في معناه أعطنا بالزُّيُوفِ كما تباع بالدرهم الجياد و لا تنقصنا شيئاً، وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ قيل في قوله: تَصَدَّقْ عَلَيْنَا أَنَّهُمْ سَأَلُوا التَّفَضُّلَ بِتَرْكِ النَّقْصَانِ مِنَ السَّعْرِ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ مَا كَانَتْ تَحُلُّ لَهُمْ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا الصَّدَقَةَ وَ هُمْ أَنْبِيَاءُ وَ كَانَتْ حَلَالاً لَهُمْ، قَالُوا الصَّدَقَةُ فِي الْأَصْلِ الْعَطِيَّةُ لِلْفُقَرَاءِ إِبْتِغَاءً الْأَجْرِ.

و قيل معناه تصدَّق علينا بالمسامحة و الإغماض عن رداءة البضاعة. وَ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ طَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ وَ مِنْ ثَمِّ رَقٍّ لَهُمْ وَ مَلَكَتِهِ الرَّحْمَةُ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ عَرَّفَهُمْ نَفْسَهُ وَقَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ شَاهِدٌ لِدَلَالَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَ جَزَاءِهِ وَ الصَّدَقَةُ الْعَطِيَّةُ الَّتِي تَبْتَغِي بِهَا الْمُثْبُتَةُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِمَنْ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ تَصَدَّقْ عَلَيَّ، لَا تَقُلْ هَذَا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَصَدَّقُ أَمَّا يَتَصَدَّقُ الَّذِي يَبْتَغِي الثَّوَابَ قُلِ اللَّهُمَّ أَعْطِنِي أَوْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ أَنْتَهَى كَلَامَهُ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الصَّدَقَةَ كَمَا تَطْلُقُ عَلَى مَا يَخْرِجُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَالِهِ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ
لَأَجْلِ الثَّوَابِ كَذَلِكَ تَطْلُقُ عَلَى مَا يَتَجَافَى عَنْهُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَقِّهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ
تَعَالَى: **وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ** ^(١) أَيِ مَنْ تَجَافَى عَنْهُ.
وَقَوْلُهُ: **وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ** ^(٢) إِلَى أَنْ قَالَ: **وَأَنْ تَصَدَّقُوا**
خَيْرٌ لَكُمْ ^(٣) فَإِنَّهُ أَجْرِي مَا يَسَامَحُ بِهِ الْمَعْسَرُ مَجْرَى الصَّدَقَةِ وَعَلَى هَذَا يَحْمِلُ
مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ، مَا تَأْكُلُهُ الْعَافِيَةُ فَهُوَ صَدَقَةٌ وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَدِيَّةُ**
مُسْلِمَةٍ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ^(٤) فَسَمِيَ إِعْفَاءُهُ صَدَقَةً وَهَكَذَا وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ
فَقَوْلُهُ: **وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا** مَعْنَاهُ تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِالتَّسَامُحِ فِي بَضَاعَتِنَا الرَّدِيئَةِ كَمَا
يَقَالُ لَوْلِي الدَّمُ تَصَدَّقْ عَلَيَّ بِالْعَفْوِ وَالْإِغْمَاضِ عَمَّا وَقَعَ فَلَيسَ الْمَالُ مَأْخُودًا
فِي مَفْهُومِ التَّصَدَّقِ أَيْنَمَا وَجَدَ حَتَّى يَقَالَ أَنَّ الصَّدَقَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَوْ
غَيْرِ مُحَرَّمَةٌ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَقَطْعًا وَحَرَمَةُ الصَّدَقَةِ عَلَى غَيْرِ
أَوْلَادِ الرَّسُولِ لَمْ تَثْبِتْ.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَاسُوفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ

هَذَا حِكَايَةٌ مَا أَجَابَ بِهِ يُونُسَ إِخْوَتَهُ حِينَ سَأَلُوهُ التَّصَدَّقَ عَلَيْهِمْ وَإِيفَاءَ
كَيْلِهِمْ فَرَّقَ لَهُمْ بِحَيْثُ لَمْ يَتِمَّاكَ نَفْسُهُ فَقَالَ لَهُمْ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسَ وَ
أَخِيهِ، الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَ التَّذْكِيرُ لَهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِقْلَافِهِ فِي الْجَبِّ بَعْدَ أَنْ
كَانُوا عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ ثُمَّ بَيَعَهُمْ آيَاهُ عَبْدًا لِلتَّاجِرِ الَّذِي حَمَلَهُ إِلَى مِصْرَ وَ فَعَلُوا
بِأَخِيهِ بَنِيَامِينَ مَا عَرَضُوهُ بِهِ لِلْغَمِّ بِأَنْ أَفْرَدُوهُ عَنْ خِيهِ لِأَبِيهِ وَ أُمِّهِ مَعَ جَفَاءِهِمْ لَهُ
وَ إِذْ لَهِمْ إِيَّاهُ حَتَّى لَا يُمْكِنَهُ أَنْ يَكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَلَامَ الدَّلِيلِ لِلْعَزِيزِ وَ مَعْنَى
قَوْلِهِ: **إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** أَنْكُمْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فِي حَالِ جَهَالَةٍ الصَّبِيِّ لَا جَهَالَةَ
الْمَعَاصِي وَ لَوْلَا ذَلِكَ لَقَالَ وَ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ.

قيل لَمَّا خاطبهم بقوله: هَلْ عَلِمْتُمْ أَدْرَكُوا أَنَّهُ لَا يَسْتَفْهَمُ مَلِكٌ لَمْ يَنْشَأْ عِنْدَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَحْوَالَهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ فِيمَا يَظْهَرُ إِلَّا وَعِنْدَهُ عِلْمٌ بِحَالِهِمْ فَيَقَالُ أَنَّهُ كَانَ يَكْلَمُهُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ فَرَفَعَهُ وَوَضَعَ التَّاجَ مِنْ رَأْسِهِ وَتَبَسَّمَ وَكَانَ يَضِيءُ مَا حَوْلَهُ مِنْ نُورٍ تَبَسَّمَهُ أَوْ رَأَوْا لَمْعَةً بَيضاءَ كَالشَّامَةِ فِي فَرْقَةٍ حِينَ وَضَعَ التَّاجَ وَكَانَ مِثْلَهَا لِأَبِيهِ وَجَدَّهُ وَسَارَةَ فَتَوَسَّمُوا أَنَّهُ يَوْسُفُ وَاسْتَفْهَمُوهُ اسْتَفْهَامَ إِخْبَارٍ وَقِيلَ اسْتَفْهَامَ تَقْرِيرٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فَرَفَوْهُ بِتِلْكَ الْعَلَامَاتِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا.

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ عَرَفُوهُ، قُلْتَ رَأَوْا فِي رِوَايَةٍ وَشَمَائِلُهُ حِينَ كَلَّمَهُمْ بِذَلِكَ مَا شَعَرُوا بِهِ أَنَّهُ هُوَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ حَنِيفٍ مُسْلِمٍ مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا عَنْ بَعْضِ أَعْزَاءِ مِصْرَ.

وَقَرَأَ قَتَادَةُ وَابْنُ مُحِيصٍ وَابْنُ كَثِيرٍ أَنَّكَ بَغِيرَ هَمْزَةِ اسْتَفْهَامٍ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مُرَادَةٌ وَيَبْعَدُ حَمْلُهُ عَلَى الْخَبَرِ الْمُحْضَرِّ.

وَقَدْ قَالَه بَعْضُهُمْ لَتُعَارِضُ الْاسْتَفْهَامَ وَالْخَبَرَ إِنْ اتَّحَدَ الْقَائِلُونَ فِي الْقَوْلِ الظَّاهِرِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ، لَمَّا قَالَ لَهُمْ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيَوْسُفَ، فَقَالُوا لَهُ عَلَى جِهَةِ الْاسْتَفْهَامِ، أَعَرَّكَ لَأَنَّكَ يَوْسُفُ، وَكَانَ يَوْسُفُ إِذَا تَبَسَّمَ كَأَنَّ ثَنِيَاهُ اللَّوْلُؤُ الْمَنْظُومَ فَشَبَّهَهُ بِيَوْسُفَ وَكَيْفَ كَانَ لَمَّا إِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ، قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي يَعْنِي ابْنَ يَامِينَ أَوْ بَنِيَامِينَ، مِنْ أَبِي وَأُمِّي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، بِنَعْمٍ قَطَعْنَا عَنْ حَالِ الشَّدَةِ.

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ أَيُّ مَنْ يَتَّقِ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَصْبِرْ عَلَى الْمَصَائِبِ.

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ الصَّابِرِينَ فِي بَلَاءٍ وَالْقَائِمِينَ بِطَاعَتِهِ.

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، أَنَّهُ يَتَّقِي بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ وَالْقِرَاءَةُ بِهَا جَائِزَةٌ لَا بِأَسْ بِهَا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مِنْ، بِمَعْنَى الَّذِي وَتَدْخُلُ، يَتَّقِي، فِي الصَّلَةِ فَتَثْبِتُ الْيَاءَ لَا غَيْرَ وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: يَصْبِرْ، فِيهِ وَجْهَانِ:

رفع، و جزم، فأن قلنا بشرطية، من، كما هو المشهور و عليه المصاحف فيجزم، يتق و يصبر، وإن قلنا أنها موصولة فتثبت الياء و الضمة بمقتضى العطف و هو ظاهر و يظهر من الآية أن المحسن لا يطلق إلا على الصابر المتقي فمن صبر على المصائب و لا يتقي لا يكون محسناً و بالعكس.

و أما أن الله تعالى: لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ فالوجه فيه أنه عادل و تضيع الأجر ظلم و هو تعالى منزّه عنه إما أنه عادل فلا كلام فيه و أما قلونا تضيع الأجر ظلم فلأن المحسن بإحسانه يستحق الأجر و تضيع الأجر في الحقيقة يرجع الى تضيع الحق الذي ثبت له بالإحسان.

و من المعلوم أن تضيع الحق ظلم لأنه وضع الشيء في غير محله و لا نعني بالظلم إلا هذا و لا شك أن يوسف عليه السلام كان محسناً و لأنه كان من المتقين و الصابرين و هو واضح.

و قد روي الصدوق رحمته الله في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بأسناده الى سدير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في القائم عليه السلام شبه من يوسف.

قلت كأنك تذكر خبره أو غيبته فقال لي ما تنكر هذه الأمة أشباه الخنازير أن إخوة يوسف كانوا أسباطاً و أولاد أنبياء تاجروا يوسف و بايعوه و هم إخوته أخوهم فلم يعرفوه حتى قال لهم أنا يوسف فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله عزّ و جلّ في وقت من الأوقات يريد أن يبين حجته لقد كان يوسف ملك مصر و كان بينه و بين والده مسيرة ثمانية عشر يوماً فلو أراد الله عزّ و جلّ أن يعرفه مكانه لقدّر على ذلك والله لقد سار يعقوب و ولده عند البشارة مسيرة تسعة أيام من بلدهم الى مصر فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله عزّ و جلّ يفعل بحجته ما فعل بيوسف أن يسير في أسواقهم و يطأ بسطهم و هم لا يعرفونه حتى يأذن الله عزّ و جلّ أن يعرفهم نفسه كما أذن ليوسف حتى قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه الى قوله أنا يوسف و هذا أخي انتهى.

قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ

الإيثار في الأصل هو الأثر الجميل فيما يؤثر على غيره بمنزلة ما له أثر جميل و قيل هو إرادة التفضيل لأحد الشئيين على الآخر و مثله الإختيار و المعنى أنهم أي أولاد يعقوب بعد ما سمعوا إعتراف يوسف بأنه يوسف و أنّ أخاهم الذي إحتسبه أخوه و أنّه منّ عليهم بذلك قالوا، تالله، على وجه القسم لقد أترك الله علينا أي فضلك و إختارك على أولاد يعقوب بالجمال و الجاه و المال و إنّ كُنَّا لَخَاطِئِينَ فيما فعلنا بك و الخطيئة إزالة الشئ عن جهته الى ما لا يصلح فيه و هذا إعتراف منهم بالخطيئة فيما فعلوا بيوسف من إيذائه و ضربه و إلقاءه في الجبّ و بيعهم إيّاه بثمن بخس و غير ذلك من أنواع الظلم. و في قولهم: لَخَاطِئِينَ إشارة الى أنّ ما فعلوا بيوسف كان عن خطأ لا عن عمدٍ فلا معنى لقول بعض المفسرين أنهم كانوا صبياناً وقت ما فعلوا باخيهم و أنهم سمّوا أنفسهم خاطئين لأنهم كانوا إبتداء فعلهم صبياناً ثمّ بلغوا مقيمين على كتمان الأمر عن أبيهم، و ذلك.

أما أولاً: فلاّتهم لم يكونوا حين إلقائهم يوسف في الجبّ صبياناً.

ثانياً: أنّ الخطأ لا يصدق على الصّبي فلا يقال أنّ الصّبي أخطأ في فعله بل الصّبي يفعل ما يفعل عن جهلٍ لأنّه لا يعرف الخطأ من العمد فالخطأ يطلق على البالغ العاقل الرشيد و لذلك قالوا: و إنّ كُنَّا لَخَاطِئِينَ و لم يقولوا لجاهلين. و أمّا قول بعضهم أنّ فيه إشعاراً بالتوبة و الإستغفار، فلم نفهم معناه و لا نعلم أيّ إشعار فيه بالتوبة و الإستغفار و هلى الإقرار بالذنب و الخطأ يكشف عن التوبة لا أظنّ أن يقول العاقل به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

لَمّا إعترفوا بأنّ الله فضله و إختاره عليهم و أنهم خطأوا فيما فعلوه قال لهم يوسف، لا تثريب عليكم اليوم، أي لا بأس بما فعلتم في سالف الزّمان و التثريب في الأصل هو تعليق الضرر بصاحبه من أجل جرمٍ كان منه.

و قال بعضهم معناه لا لوم و لا عقوبة عليكم اليوم أي في هذا الوم الحاضر
فأن ما مضى مضى و الكريم لا يكون بصدد الإنتقام بل شأنه العفو و الإغماض
عمّا سلف.

فقد روى في الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لما قدم
رسول الله مكة يوم إفتتحها فتح باب الكعبة وأخذ بعضادتي الباب
فقال، لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده و نصر عبده و
هزم الأحزاب وحده ماذا تقولون وماذا تظنون قالوا نظنّ خيراً أخ
كريم و قد قدرت قال صلى الله عليه وآله فأني أقول كما قال أخي يوسف، لا
تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
والحديث طويل.

و قد ثبت عقلاً و نقلاً أن العفو في موضع القدرة من أحسن اللذات.
فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال أولى الناس بالعفو أقدرهم على
العقوبة وقال عليه السلام اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً
للقدرة عليه.

و قيل من عادة الكريم اذا قدر غفر و اذا رأى زلة ستر.
و قيل ليس من عادة الكرام سرعة الغضب و الإنتقام.
و قيل من إنتقم فقد شفي غيظه و أخذ حقه فلم يجب شكره و لم
يحمد في العالمين ذكره و العرب تقول: لا سؤدد مع الإنتقام.
ولنعم ما قيل:

زعموا بأنَّ الصَّقر صادف مرَّةً
فتكلَّم العصفور تحت جناحه
أنِّي لمثلك لا أتمم لقمةً
فتهاون الصَّقر المدلَّ بصيده
عصفور برَّ ساقه التَّقدير
والصَّقر منقُضٌ عليه يطير
ولئن شويت فأنتني لحقيرُ
كرماً و أفلت ذلك العصفور
و الأحاديث و الأشعار و الآيات في فضيلة العفو كثيرة جداً.

يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ قِيلَ إِنَّ يَوْسُفَ دَعَاهُمْ بِالمَغْفِرَةِ و عليه فيكون الوقف عند قوله و لا تثريب عليكم اليوم، ثم ابتدأ فقال: يَغْفِرُ اللَّهُ والحق أنه لم يدع لهم بها بل أخبر بها في المستقبل بشرط التوبة و ذلك لأن المغفرة بدون التوبة لا تحصل لأحد ففي ما ذكره إشعار بأن الظلم الذي صدر عنهم قابل للتوبة و بعدها يغفر الله لهم اذا صفع عنهم المظلوم و هو يوسف و أبوه يعقوب.

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَثْنُوْا بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

لَمَّا عَرَفَهُمْ يَوْسُفَ نَفْسَهُ و عرفوه سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي قالوا أذهب عيناه من كثرة البكاء عليك فأعطاهم يوسف قميصه و قال إذهبوا يا إخوتي بقميصي هذا أي إحملوا قميصي الذي توارثه يوسف و كان في عنقه و كان من الجنة أمره جبرئيل عليه السلام أن يرسله اليه فأث في ريح الجنة لا يقع على مبتلى و لا سقيم إلا عوفي.

و قيل أنه كان لإبراهيم عليه السلام كساه الله إياه من الجنة حين خرج من النار ثم لإسحاق ثم ليعقوب ثم ليوسف.

و روي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَالَ أَنَسُ نَمْرُودُ الْجَبَّارُ لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ نَزَلَ اللَّهُ جِبْرِئِيلُ بِقَمِيصٍ وَطَنَفَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ الْقَمِيصَ وَ أَقْعَدَهُ عَلَى الطَّنْفَةِ وَ قَعْدَ مَعَهُ يَحْدُثُهُ فَكَسَا إِبْرَاهِيمَ ذَلِكَ الْقَمِيصَ إِسْحَاقُ وَ كَسَاهُ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ وَ كَسَاهُ يَعْقُوبُ يَوْسُفَ فَجَعَلَهُ فِي قَصَبَةٍ مِنْ فُضَّةٍ وَ عَلَقَهَا أَيْ لِلْحِفْظِ مِنَ الْعَيْنِ وَغَيْرِهَا.

و قال بعضهم هو القميص الذي قد من دبر أرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة و كيف كان فقد أمرهم يوسف بالقاء على وجه أبيه و قال لهم فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

يَدُلُّ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى أَنَّهُ أَيُّ يَوْسُفَ عَمِيَ مِنَ الْحَزْنِ أَمَّا
بِإِعْلَامِ الْأَخُوَّةِ وَإِمَّا بِالْوَحْيِ وَقَوْلِهِ: يَأْتِ بِصَبْرٍ يَظْهَرُ أَنَّهُ بُوْحِيٍّ وَ الْمَعْنَى يَأْتِ
إِلَيَّ حَالُ كَوْنِهِ بَصِيرًا أَيُّ ذَاهِبًا بَيَاضَ عَيْنِهِ وَ رَاجِعًا إِلَيْهَا الضُّوءَ.
وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ أَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ فَمَعْنَاهُ أَحْمِلُوا أَهْلَكُمْ أَجْمَعَ وَ
جِئْتُونِي بِهِمْ بِسَنَائِكُمْ وَ ذَرَارِيَكُمْ وَ مَوَالِيَكُمْ.

رَوَى أَنَّ يَهُوذَا حَمَلَ الْقَمِيصَ وَ قَالَ أَنَا أَحْزَنْتُهُ بِحَمْلِ الْقَمِيصِ الْمَلْطُخِ
بِالدَّمِّ إِلَيْهِ فَأَفْرَحَهُ كَمَا أَحْزَنْتُهُ فَحَمَلَهُ وَ هُوَ حَافٍ حَاسِرٍ مِنْ مِصْرَ إِلَى كَنْعَانَ وَ
مَعَهُ سَبْعَةُ أَرْغَافَةٍ لَمْ يَسْتَوْفِ أَكْلُهَا حَتَّى أَتَاهُ وَ كَانَتْ الْمَسَافَةُ ثَمَانِينَ فَرَسَخًا وَ
مَعْنَى يَأْتِ، يَأْتِينِي وَ إِنْ تَصَبَّ بَصِيرًا عَلَى الْحَالِ.

وَ لَمَّا فَصَلَّتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتِنُونِ
الْفِعْلُ الْقَطْعُ بِحَاجِزٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ وَ نَقِيضُهُ الْوَصْلُ، وَ الْعِيرُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ قَافِلَةٌ
الْحَمِيرِ وَ أَنَّ كَانَ فِيهَا الْجَمَالَ وَ كُلَّ جَمَاعَةٍ خَرَجَتْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ فَهِيَ قَافِلَةٌ
يُقَالُ فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ فَصُولًا إِذَا انْفَصَلَ مِنْهُ وَ جَاوَزَ حَيْطَانَهُ وَ عِمْرَانَهُ وَ مَعْنَى
فَصَلَّتِ الْعِيرُ إِنْفَصَلَتْ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ قَاصِدَةً مَكَانَ يَعْقُوبَ وَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ
بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَ هُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّ قُبُورَهُمْ وَ أَثَارَهُمْ مَوْجُودَةٌ هُنَاكَ إِلَى الْآنَ، قَالَ
أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتِنُونِ أَيُّ لَوْلَا أَن تَسْفَهُونَ.

وَ قِيلَ لَوْلَا أَن تَهْرَمُونَ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ تَضَعْفُونَ وَ قِيلَ تَجْهَلُونَ، وَ قِيلَ تَكْذِبُونَ
وَ قِيلَ مَعْنَاهُ لَوْلَا أَن تَقُولُوا ذَهَبَ عَقْلُكَ وَ خَرَفْتَ.
وَ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ لَوْلَا أَن تَضَلُّونَ.

وَ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ التَّفْنِيدُ نِسْبَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْفَنَدِ وَ هُوَ ضَعْفُ
الرَّأْيِ وَالْإِفْنَادُ أَنَّ يَظْهَرُ مِنَ الْإِنْسَانِ ذَلِكَ وَ الْفَنَدُ شِمَارُ الْجَبَلِ وَ بِهِ سَمِّيَ
الرَّجُلُ فَنَدًا.

قال ابن عباس وجد ريحه من مسير ثمانية أيام و قال ابن جريح من ثمانين فرسخاً و كانت مدة فراقه منه سبعاً و سبعين سنة و قيل أربعين سنة و قيل غير ذلك و أنما قال يعقوب هذا القول لمن خضره من أهله و قرابته دون ولده لأنهم كانوا غيباً عنه لم يصلوا اليه فيصير محصل المعنى أنه قال إنني لاجد ريح يوسف لولا أن تغفون أي لولا أن تسنبوني الى ضعف الرأي و فساد العقل قال الشاعر:

دع الدهر يفعل ما يشاء فأنه إذا كلف الإنسان بالدهر أفندا
أي أفسد.

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ

حكى الله تعالى عمّن كانوا حاضرين عند يعقوب من أهله و قرابته حين قال إنني لأجد ريح يوسف، أنهم قالوا له على وجه القسم تالله أي نقسم بالله إنك لفي ضلالك القديم و الضلال هو الذهاب عن جهة الصواب. و قيل الضلال هنا لا يراد به ضد الهدى و الرشاد و المعنى إنك لفي خطأك و كان حزن يعقوب قد تجدد بقصة بنيامين و لذلك يقال له ذو الحزين. و قال مقاتل الشقاء و العناد، و قال ابن جبير الجنون و يعني والله أعلم غلبته المحبة و قيل الهلاك و الذهاب من قولهم ضل الماء في اللبن أي ذهب فيه.

و قيل الحب و يطلق الضلال على المحبة. و قال الزمخشري لفي ذهابك عن الصواب قدماً في إفراط محبتك ليوسف و لهجك بذكره و رجاءك لقاءه و كان عندهم أنه قد مات. أقول الأقوال كلها ترجع الى شيء واحد و هو أنك الآن على ما كنت عليه في قصة يوسف و يحتمل أن يكون مرادهم أنك على محبتك التي كنت عليه في حياة يوسف، و لم تعلم أو لم تدعن أنه مات و كيف كان.

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

البشير على وزن فاعيل مبالغة من البشارة و لذلك يقال، البشير الذي يأتي
بالبشارة العظيمة و أكثر المفسرين على أن البشير كان يهودا بن يعقوب و هو
الذي قال لإخوته قد علمتم إنني ذهبت اليه بمقيص الفرحة فدعوني أذهب
اليه بمقيص الفرحة و هو الذي ألقى قميصه على وجه يعقوب فارتد بصيراً أي
رجع يعقوب بعد العمى الى ما كان عليه قبله من رؤية البصر و الإلقاء إيقاع
الشيء على الشيء و قد يكون بمعنى إيجاد الشيء والإرتداد إنقلاب الشيء الى
حال كان عليه و هو الرجوع بمعنى واجد فلما صار يعقوب بصيراً قَالَ أَلَمْ
أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قيل في معناه قولان:

أحدهما: إِنِّي أعلم من صحة رؤيا يوسف و أن تأويلها سيكون على ما
رأى، مَا لَا تَعْلَمُونَ من تأويل الرؤيا.

الثاني: إِنِّي أعلم من بلوى الأنبياء بالشدائد و المحن التي يصبرون منها الى
وقت الفرج، مَا لَا تَعْلَمُونَ.

وفي المقام قول ثالث: و هو أن معنى الكلام إِنِّي أعلم من إخبار ملك
الموت إياي أن يوسف لم يمِت لأنه أخبرني أنه لم يقبض روحه و يحتمل أن
يشير الى حسن ظنه بالله فقط.

و قال الزمخشري، أي ألم أقل لكم إِنِّي لأجد ريح يوسف، أو قوله: وَ لَا
تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وقوله: إِنِّي أَعْلَمُ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول.
و أنا أقول لا نحتاج الى هذه التأويلات و ذلك فأن قوله: إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ، معناه إِنِّي أعلم بالوحي أو الإلهام منه تعالى ما لا تعلمون
و هذا لا خفاء فيه حتى يحتاج الى التأويل لأن النبي يعلم من الله ما لا يعلمه
غيره.

و يظهر من هذا الكلام أن يعقوب كان عالماً بحياة يوسف و أنه لم يمت و
أتما كان بكاءه عليه لأجل الفراق و عليه فهو دائماً كان ينتظر الفرج فلما ألقى
البشير قميص يوسف على وجهه و صار بصيراً قال ما قال.

روي أن يعقوب سأل البشير كيف يوسف قال ملك مصر قال ما صنع
بالمملك و قال على أي دين تركته قال على الإسلام قال يعقوب الآن تمت
النعمة.

قيل لم يجد البشير عند يعقوب شيئاً يبيته به و قال ما خبرنا شيئاً منذ سبع
ليالٍ و لكن هوّن الله عليك سكرات الموت.
قال بعضهم رجع اليه بصره بعد العمى و القوة بعد الضعف و الشباب بعد
الهرم و السرور بعد الكرب.

قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ

قال بعض المفسرين في الكلام حذف لأن تقديره أن إخوة يوسف وصلوا
الى أبيهم بعد أن جاء البشير و ألقوا قميصه على وجهه و ردّ الله بصره عليه
فلما رأوه قالوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا أي سل الله أن يسترها علينا و لا
يعاقبنا عليها فإننا كنّا خاطئين فيما فعلناه بيوسف.

قال الشيخ رحمته الله في التبيان بعد نقله ما نقلناه عنه من التقدير ما هذا لفظه:
و متى قيل كيف سأله الاستغفار مع أنهم كانوا تابوا و التوبة تسقط العقاب.
قلنا أما على مذهبنا فالأن التوبة لا تسقط العقاب وجوباً و أما يسقطها الله
تعالى عندها تفضلاً و أما على مذهب مخالفنا فأنهم سأله ذلك لأجل
المظلمة المتعلقة بصفح المظلوم و سؤال صاحبه أن لا يأخذ بظلمه لا بدّ أنه
توبة خاصة منه.

ووجه آخر و هو أن يبلغه منزلة بدعائه يصير بمنزلة عالية لمكان سؤاله

انتهى.

أقول لم يثبت لنا أنهم تابوا قبل ذلك نعم أنهم قد أقرُّوا بخطأهم و ذنبهم كما في الآية و الإقرار بالذنب و الخطأ قد يحصل من غير توبة بعده و نحن نرى كثيراً من الخاطئين مصرّين بالخطأ مديمين عليه الى آخر العمر و الحاصل أنه لا ملازمة بين الإقرار بالذنب و التوبة لا عقلاً و لا نقلاً و اذا كان كذلك فليكن قولهم هذا أول توبتهم و أنما سألوا أباهم أن يستغفر لهم لأن قبول التوبة مشروط برضا المظلوم فيما اذا كان الظلم على الغير.

نعم في الظلم على النفس لا يشترط و ما نحن فيه من الظلم على الغير يعقوب و يوسف فلا محالة قبول التوبة مشروط برضاها و لعلّه لأجل هذا قال في جوابهم.

سوف أستغفر لكم، و لم يستغفر لهم في الحال لأن المظلوم لم يكن هو وحده بل هو و يوسف و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أنما قال سوف أستغفر و لم يقل سأستغفر لأن، سوف، أبلغ في التّنفيس من السّين.

هكذا قيل و الذي يختلج بالبال في المقام أن السّين للمستقبل القريب و سوف للبعيد و ما نحن فيه من البعيد لا من القريب فما ذكره المفسرون من أنه آخر الإستغفار لهم الى السّحر أو ليلة الجمعة أو الى قيام الليل، أو الليالي البيض كلّ ذلك لا دليل عليه و ذلك لعدم ورود النص فيه بما ذهبوا اليه و العقل أيضاً لا يحكم بصحته لأن دعاء النبي مستجاب قطعاً سواء كان بالليل أم بالنهار أو في الجمعة أو في غيرها من الأيام و السّاعات و أنما أخرّاه الى يوم لقاء يوسف و ذلك لأن ظلمهم على يوسف كان أشدّ و أعظم منه على أبيهم يعقوب مضافاً الى إصالته فنيغي أولاً الإستحلال منه ثم الإستغفار و لا يبعد أن يكون وجه تأخير الإستغفار هو هذا و لا شك أنه من المستقبل البعيد و لذلك عبّر بسوف دون السّين.

وإن شئت قلت إستغفار أبيهم لهم مع قطع النظر عن موافقة يوسف أنما ينفع لهم بالنسبة الى حقّه فقط و المفروض أنّ الغفران مترتّب على رضاية الأب و الابن معاً هذا ما نفهم من الكلام في وجه تأخير الإستغفار والإتيان بكلمة سوف و العلم عند الله.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَمَعْنَاهُ وَاضِحٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ وَ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ كَمَا لَا يَخْفَى.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ

أخبر الله في هذه الآية عن خروج يعقوب و أهله من كنعان و دخولهم على يوسف في مصر و ما جرى لهم في هذه الرؤية بعد الفراق.

روي أنّ يوسف وجه الى أبيه جهازاً كثيراً و مأتي راحلة و سأله أن يأتيه بأهله أجمعين فتّهيأ يعقوب للخروج الى مصر فتوجّه مع أولاده و أهاليهم الى مصر على رواحلهم فلما قربوا من مصر أخبر بذلك يوسف فاستقبلهم يوسف و الملك الزيان في أربعة آلاف من الجند أو ثلاث مائة فارس و العظماء و أهل مصر بأجمعهم و مع كلّ واحدٍ من الفرسان جنة من فضّة و راية من ذهب فتزيت الصحراء بهم و اصطّفوا صفوفاً و كان الكلّ غلمان يوسف و مراكبه و لما صعد يعقوب تلاً و معه أولاده و حفدته أي أولاد أولاده و نظر الى الصحراء مملوءة من الفرسان مزينة بالألوان نظر اليهم متعجباً.

فقال له جبرئيل أنظر الى الهواء فإنّ الملائكة قد حضرت سروراً بحالكم كما كانوا محزونين مدّة لأجلك ثمّ نظر يعقوب الى الفرسان فقال أيّهم ولدي يوسف فقال جبرئيل هو ذاك الذي فوق رأسه ظلّة، فلم يتمالك أن أوقع نفسه من البعير فجعل يمشي موكّناً على يهوذا فقال جبرئيل يا يوسف أنّ أباك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الطبعة الثانية

يعقوب قد نزل لك فأنزل له فنزل من فرسه و جعل كل واحدٍ منهما يعدو الى الآخر فلما تقربا قصد يوسف أن يبدأ بالسَّلام فقال جبرئيل لا حتّى يبدأ يعقوب به لأنّه أفضل و أحقّ فابتدأ به و قال السَّلام عليك يا مذهب الأحزان و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

چه جورها كه كشيدند ببلان از دى بىوى آنكه دگر نو بهار باز آيد
فتعانقا و بكياء سروراً و بكت ملائكة السَّموات و ماج الفرسان بعضهم في
بعض و صهلت الخيول و سبّحت الملائكة و ضرب بالطبول فصار كأنّه يوم
القيامة.

فقال يوسف يا أبت بكيت عليّ حتّى ذهب بصرك ألم تعلم أنّ القيامة
تجمعنا فقال يعقوب بلى و لكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني و بينك
نسأل الله الثَّبات على الإيمان أنّه الكريم المَنَّان.

أقول روى في تفسير نور الثَّقَلين عن الكافي بأسناده عن أبي عبد
الله عليه السلام أنّه قال أنّ يوسف لما قدم عليه الشَّيخ يعقوب عليه السلام دخله عزّ
الملك فلم ينزل اليه فهبط جبرئيل فقال يا يوسف أبسط راحتك
فخرج منها نور ساطع فصار في جوّ السَّماء فقال يوسف يا
جبرئيل ماهذا النُّور الَّذي خرج من راحتي فقال نزعت النُّبوءة من
عقبك لما لم تنزل الى الشَّيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبيّ انتهى.
و عن كتاب علل الشَّرائع بأسناده عن أبي عبد الله قال عليه السلام لما تلقى
يوسف يعقوب ترجّل له يعقوب و لم يترجّل له يوسف فلم ينفصلا
من العناق حتّى أتاه جبرئيل فقال له يا يوسف ترجّل لك الصِّديق و
لم تترجّل له أبسط يدك فبسطها فخرج نور من راحته فقال له
يوسف ما هذا قال لا يخرج من عقبك نبيّ انتهى.

و أيضاً بأسناده عنه عليه السلام لما أقبل يعقوب الى مصر خرج يوسف
ليستقبله فلما رآه يوسف همّ بأن يترجّل ليعقوب ثمّ نظر الى ما هو

فيه من الملك فلم يفعل فلما سَلَّمَ على يعقوب نزل عليه جبرئيل فقال له يا يوسف أنَّ الله تبارك و تعالَى يقول لك ما منعك أن تنزل الى عبيد الصّالح ما أنت فيه أبسط يدك فبسطها فخرج من بين أوصاله نور فقال ما هذا يا جبرئيل فقال له أنّه لا يخرج من صلبك نبيّ أبداً عقوبةً لك بما صنعت بيعقوب اذ لم تنزل اليه انتهى.

و قد روى المجلسي رحمته الله في البحار هذا الحديث ثم قال في بيانه ما لفظه:

ما أنت إستفهام أي أمنعك ما أنت فيه من الملك ثم أنّه عليه السلام لعله راعى بعض مصالح الملك في ترك التّرجل و كان الأولى و الأفضل ترك تلك المصلحة و تقديم تكريم الوالد عليه لا أنّه ترك واجباً أو فعل محرماً لما قد ثبت من عصمتهم عليهم السلام انتهى.

و أمّا قوله: **أَوْىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ** أي ضمّهما اليه و عانقهما و الظاهر أنّهما أبوه و أمّه راحيل على قول من قال بحياة أمّه و قيل أنّها ماتت من نفاس بنيامين و تزوّج يعقوب أختها و هي خالة يوسف فأقامها مقام الأمّ و الأول حقيقة و الثاني مجاز و الإيواء ضمّ القريب بالمحبّة لصاحبه كضمّ المأوى يجمع شمله. و قال بعضهم أبوه وجدته أمّ أمّه و كيف كان فتنى على لفظ الأب تغليبا للذكر على الأنثى.

و قوله: **وَ قَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** أي وقال لهم يوسف أَدْخُلُوا مِصْرَ، قيل أنّه قال لهم ذلك قبل أن يدخلوا مصر والمعنى إَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ من الجوع و الخوف و سائر المكاره قاطبة لأنّهم كانوا قبل ولاية يوسف يخافون ملوك مصر و لا يدخلونها إلّا باجارتهم لكونهم جبابرة و المشيئة متعلّقة بالدخول و الأمن معاً كقولك للغازي إرجع سالماً غانماً إن شاء الله فالمشيئة متعلّقة بالسّلامة و الغنيم معاً و التّقدير إَدْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ و ذو

الحال هو فاعل إدخالوا، وقيل أن يوسف خرج من البلد يستقبل يعقوب ومعه أهل البلد فلما رجع قال إدخالوا مصر إن شاء أمينين.
وقيل أراد مصر مقيمين إن شاء الله أمينين وأما علّق ذلك على مشيئة الله لأن جميع الأمور بمشيئته تعالى وما لا يشاء لا يكون وكانت عدّتهم اثنين وسبعين رجلاً وإمرأة وكانوا حين خروجهم منها مع موسى عليه السلام ست مائة ألف وخمس مائة وبضعاً وتسعين أو سبعين رجلاً سوى الذرية والهرمي وكانت ذرية يعقوب ألف ألف ومائتي ألف

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

العرش السرير الرفيع من قوله تعالى: خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا^(١) أي على ما ارتفع من أبنيتها يقال عمل عريشاً إذا عمل رفيعاً والمعنى أن يوسف أجلس أبويه على سريره الذي كان يجلس عليه تكرمةً لهما فوق ما فعله لأخوته فأنهم إشتروا في دخولهم دار يوسف لكنهم تباينوا في الأيواء فأنفرد الأبوان بالجلوس معه على سرير الملك، وخرّوا له سجداً، أي انحطوا على وجوههم والخزّ الإنحطاط على الوجه ومنه قوله تعالى: خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ أَنْطَرٌ^(٢) والسُّجود في الأصل الذلّ وفي الشرع خضوعٌ بوضع الوجه على الأرض سجداً، جمع ساجد كما أن السُّجود أيضاً جمعه قال الشاعر:

ترى ألاكُم فيها سجداً للحوافر

وقوله: خَرُّوا لَهُ أُنْى بضمير الجمع لأنه يرجع إلى أبويه وإخوته جميعاً.

وقيل أنه يرجع على إخوته فقط و لم يدخل في الصّмир أبواه بل رفعهما على سرير ملكه و الصّмир في (لَه) عائد على يوسف، و المعنى أن يوسف أجلس أبويه على السرير المختصّ به و هو العرش و انحطّوا على وجوههم له و اختلفوا في معنى سجودهم له و في وجه سجودهم له، فقال بعضهم معنى السّجود هو الدّل في الأصل و هذا هو المراد في المقام و أمّا السّجود بالمعنى الشرعي فلا يجوز إلا على الله تعالى و قال بعضهم، كان السّجود منهم له تحية لا عبادة.

و قال بعضهم أن السّجود كان لله في الحقيقة إلا أنّهم جعلوا يوسف قبله كما تقول صليت إلى الكعبة قال حسان بن ثابت:

ما كنت أحسب أن الدهر منصرف عن هاشم ثم عنها عن أبي حسن
أليس أول من صلتى لقبلكم وأعرف الناس بالأحكام والسنن
و قيل السّجود هنا التّواضع والخروج بمعنى المرور لا السّقوط على الأرض
و الدليل عليه قوله تعالى:

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا^(١).

أي لم يمرّوا عليها صمّا و عمياناً، والذي إتفق عليه الكلّ هو أن السّجود في المقام ليس بمعناه المصطلح في الشريعة و هو وضع الجبهة على الأرض يكفينا في المقام، و أمّا وجه السّجود فلا شكّ أنه لتحقّق رؤياه كما أشير إليه بقوله: وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا و هي قوله:

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ^(٢).

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

المجلد التاسع

و قد مرَّ الكلام في تفسير الآية و قلنا هناك أنَّ الكواكب إخوته و الشَّمس و القمر أبواه و الى هذا المعنى أشار بقوله: **قَدْ جَعَلَهَا** أي رؤياي، **رَبِّي حَقًّا** على رغم أنَّوف الحاسدين و في قوله: **حَقًّا** إشارة الى أنَّ رؤياه كانت صادقة حيث رأى في اليقظة ما رآه في المنام طابق النَّعْل بالنَّعْل و ما كان كذلك لا باطل فيه و لغو و لا نعني بالحقِّ إلا هذا و أن شئت قلت طابقت اليقظة المنام و من أصدق من الله قبالاً.

و قوله: **وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ رَبِّي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ** فيه إشارة الى لطفه تعالى و عناية به، و الإحسان الإنعام على الغير يقال أحسن الى فلان و المشهور إستعماله بالي و قد يستعمل بالباء أيضاً كما قال تعالى: **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** و قد يطلق الإحسان على الفعل كما إذا فعل فعلاً حسناً أو علم علماً حسناً و على هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام **النَّاسُ أَبْنَاءُ مَا يُحْسِنُونَ** أي يعملون، و قوله: **قَدْ أَحْسَنَ بِيَ رَبِّي**، من الأول أي أنه تعالى قد أحسن بي إذ أخرجني من السِّجْنِ و جاء بكم من البدو، و البدو البادية خلاف الحضر لكون الصَّحراء بادية على العين أي ظاهرة و المعنى أنه تعالى جاء بكم من البادية و ذلك لأنَّ يعقوب كان بأطراف الشَّام ببادية فلسطين و كان ربَّ إيل و غنم.

و قيل كان تحوّل الى بادية و سكنها فأَنَّ الله لم يبعث نبيّاً من أهل البادية و في هذا الكلام إشارة الى الإجتماع بأبيه و إخوته و زوال حزن أبيه و أنَّ الله بدّل الفراق بالوصال و الحزن بالسَّرور بعد مدّة طويلة و هو من أحسن النِّعم و لا يقدر عليه إلا الله تعالى أنظر الى مكارم أخلاق يوسف و كرامة نفسه و حسن سريره حيث لم يذكر الجُب و الخروج منه سالماً بقدرة الله و مشيئته و غير ذلك من الشَّدائد و المحن و الضُّرب و السَّتم و حصَّ بالذكر هذين الأمرين أعني بهما الخروج من السِّجْنِ و مجيئهم من البدو مع أنَّ ما فعلوه به قبل

السَّجْنُ كَانَ أَشَدَّ وَأَفْجَعَ مِنَ السَّجْنِ لَثَلَا يَسْتَحْيِي إِخْوَتَهُ مِمَّا فَعَلُوهُ بِهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ أَنْ لَا يَذْكُرَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذَّنْبِ وَلَنَعْمَ مَا قِيلَ:

سَأَلَزَمَ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مَذْنِبٍ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ وَ مُشْرُوفٌ وَ مِثْلٌ مُقَاوِمٌ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفْ قَدْرَهُ وَ أَتَبِعْ فِيهِ الْحَقَّ وَ الْحَقُّ لَازِمٌ
وَ أَمَّا الَّذِي دُونِي فَأَنْ قَالَ صَنَتَ عَنْ إِبْجَابَتِهِ نَفْسِي وَإِنْ لَمْ لَائِمٌ
وَ أَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَأَنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتَ أَنَّ الْحَرَ بِالْفَضْلِ حَاكِمٌ
مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي النَّزْعَ التَّحْرِيشَ، بَيْنَ
الْإِثْنَيْنِ أَيْ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي وَ لَقَدْ بَالِغٌ فِي
الْإِحْسَانِ حَيْثُ نَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْطَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ إِنْهَا يَنْزَعُكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ^(١).

وَ فِي قَوْلِ يُوسُفَ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا فَعَلُوهُ بِهِ مِنْ إِقَانِهِمْ إِيَّاهُ فِي الْجُبِّ وَ
ضَرْبِهِ وَ بَيْعِهِ بِثَمَنِ بَخِيسٍ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الشَّنِيعَةِ كُلِّ ذَلِكَ كَانَ بِسَبَبِ
وَسُوسَةِ الشَّيْطَانِ وَ إِلَّا فَالْأَخَ لَا يَظْلَمُ عَلَى أَخِيهِ وَ لَا يَحْسَدُهُ أَصْلًا.

وَ قَوْلُهُ: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أَيْ لَطِيفُ
التَّدْبِيرِ فَأَنَّ اللَّطْفَ مَا يَدْعُو إِلَى فِعْلِ الْوَاجِبِ وَ يَصْرِفُ عَنِ الْقَبِيحِ وَ اللَّهُ تَعَالَى
يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى فِعْلِ الْوَاجِبِ وَ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِسَبَبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَهُوَ
لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أَيْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِأَحْوَالِ الْخَلْقِ وَ مَا يَصْلَحُهُمْ وَ مَا
يُفْسِدُهُمْ حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا يَضِيعُ الشَّيْءُ إِلَّا فِي مَوْضِعِهِ.

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
(١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَ
الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَ
مَا يُوْثِقُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ
هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ
(١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي
إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ
لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ
كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي
قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى

وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

◀ اللغة

فَاطِرُ الْفَطْرِ الشَّقُّ عَنْ أَمْرٍ بِاخْتِرَاعِهِ عِنْدَ انْشِقَاقِهِ وَمِنْهُ تَقَطَّرَ الشَّجَرُ بِالْوَرَقِ.
وَلَيْلَى الْوَلَّى النَّصِيرُ بِمَا يَتَوَلَّى مِنَ الْمَعَاوَةِ.
أَنْبِيَاءُ الْغَيْبِ الْأَنْبَاءُ جَمْعُ نَبَأٍ وَهُوَ الْخَبَرُ وَالْغَيْبُ ذَهَابُ الشَّيْءِ عَنِ الْحَسَنِ.
نُوحِيهِ الْإِيحَاءُ إِنْهَاءُ الْمَعْنَى إِلَى النَّفْسِ.
يَمَكِّرُونَ الْمَكْرَ قَتْلَ الْحِيلِ عَنِ الْأَمْرِ وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ سَاقَ مَمَكُورَةٍ أَيْ مَفْتُولَةٍ.

حَرَضَتْ الْحَرَصُ طَلَبَ الشَّيْءِ فِي إِصَابَتِهِ يُقَالُ هُوَ حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا اشْتَدَّ طَلَبُهُ لَهَا.

كَأَيِّنْ مَعْنَاهُ كَمْ، وَ الْأَصْلُ فِيهَا أَيْ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا الْكَافُ لِلتَّفْخِيمِ بِالْإِبْهَامِ وَ تَقْدِيرُهُ كَالْعَدَدِ فَهُوَ أَبْهَمُ مِنْ نَفْسِ الْعَدَدِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّكْثِيرِ وَ التَّفْخِيمِ وَ غَلَبَتْ عَلَى كَأَيِّنْ، مِنْ بَعْدِهَا دُونَ كَمْ، لِأَنَّ كَأَيِّنْ، أَشَدَّ إِبْهَامًا فَاجْتَانَتْ إِلَى، مِنْ، لِتَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَا يَذْكُرُ بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لَهَا.

غَاشِيَةُ الْغَاشِيَةِ مَا يَتَجَلَّلُ الشَّيْءُ بِإِنْبَاسِطِهَا عَلَيْهِ.
بُغْتَةُ الْبُغْتَةِ وَ الْفَجْأَةُ وَالْغَفْلَةُ نَظَائِرُ.
أَسْتَيْئَسَ الْإِسْتَيْئَاسُ وَ الْيَأْسُ انْقِطَاعُ الطَّمَعِ.

◀ الإعراب

رَبِّ أَصْلُهُ يَا رَبِّي حَذَفَتْ حَرْفَ النَّدَاءِ ثُمَّ حَذَفَتْ الْيَاءُ لِدَلَالَةِ الْكُسْرَةِ عَلَيْهِ مِنْ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ قِيلَ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ أَيْ عَظِيمًا مِنَ الْمَلِكِ وَ حَظًّا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَ قِيلَ، مِنْ، زَائِدَةٌ، وَ قِيلَ هِيَ

لبیان الجنس وَ الْأَرْضِ يَمْرُؤُنَ الْجَمْهُورَ عَلَى الْجَزِّ عَطْفًا عَلَى السَّمَوَاتِ وَ الضَّمِيرِ فِي عَلَيْهَا لِلْآيَةِ وَ قِيلَ لِلْأَرْضِ وَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ يَمْرُؤُونَ حَالًا مِنْهَا وَ قَدْ يُقْرَأُ وَ الْأَرْضِ بِالنَّصْبِ أَيْ وَ لِيَكُونَ الْأَرْضُ وَ فِسْرَهُ، يَمْرُؤُونَ، وَ يُقْرَأُ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَ بَعْتُهُ مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ مُسْتَأْنَفٌ وَ قِيلَ حَالٌ مِنَ الْبَاءِ عَلَى بَصِيرَةٍ حَالٌ أَيْ مُسْتَقْنًا وَ مَنْ أَتْبَعَنِي مُعْطُوفٌ عَلَى ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، إِدْعُوا، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً أَيْ وَ مَنْ إِتْبَعَنِي كَذَلِكَ وَ مَنْ أَهْلُ الْقُرَى صِفَةٌ لِرِجَالٍ أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَجْرُورِ فَتُجَى يُقْرَأُ بِنُوتَيْنِ وَ تَخْفِيفِ الْجِيمِ وَ يُقْرَأُ بِنُونٍ وَاحِدَةٍ وَ تَشْدِيدِ الْجِيمِ عَلَى أَنَّهُ مَاضٍ لَمْ يَسْمَ فَاعِلُهُ.

التفسير

رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عما قاله يوسف في مقام الشكر لله تعالى بما أعطاه بعد إجتماعه مع أبويه وإخوته وأهل بيته فقال رب، أي يا ربي فحذفت حرف النداء والياء على ما أشرنا إليه، أتيتني من الملك، أي أعطيتني بعضاً منه وهو ملك مصر، إن كانت تبعيضية وأما على القول بأنها لبيان الجنس فالمعنى أعطيتني الملك أي جنسه قل أو كثر ففيه إعتراف منه بأن الله تعالى هو الذي أنجاه من الجب وغيره من المصائب فهو تعالى أعطاه النعم الكثيرة ومن جملتها الملك والسياسة والتدبير بين الخلق.

وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ أَيْ صَيَّرْتَنِي عَالِمًا بِهَا وَهَذِهِ نِعْمَةٌ أُخْرَى أَنْعَمْتَنِي بِهَا بَلْ هِيَ أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ مِنْ نِعْمَةِ الْمَلِكِ.

و المراد بالأحاديث ليس الرؤيا فقط كما زعمه بعض المفسرين بل المراد بها الإخبار عن حوادث الزمان ويدخل فيه علم الرؤيا أيضاً قلنا ذلك أفضل من الملك لأن الملك يزول والعلم يبقى والملك يحصل للكافر والمؤمن وهذا العلم لا يحصل إلا لمن إختاره الله وإصطفاه على الخلق و قلما يتفق

جمعهما أي جمع الملك و العلم لأحدٍ من النَّاس ففمن جمع بينهما فهو من أولياء الله حقاً و لعلّه لذلك خَصَّهما بالذكر من بين النِّعم الكثيرة الّتي لا تحصى و لا بأس بالإشارة الى توضيح ذلك إجمالاً فنقول:

أَنَّ اللَّذَات على قسمين: جسمانيّة، و روحانيّة، وإن شئت قلت مادّية و عقليّة.

فالجسمانيّة منها ما يكون بقاء الجسم و إستمتاعه به كالمأكولات و المشروبات و المنكوحات و الملموسات و المشمومات و المذوقات و غير ذلك ممّا يرتبط به.

أما اللَّذَات الرُّوحانية فهي عبارة عمّا يكون بقاء الرُّوح و نشاطه و سروره به كالعدالة و السّخاوة و الشّجاعة و الأمانة و غير ذلك ممّا يستلذّ الرُّوح به و كما أَنَّ الجسم محتاج الى ما يتغذّى به كذلك الرُّوح محتاج الى ما يتغذّى به إلّا أَنَّ التغذية في كلّ واحدٍ منهما بحسبه و النَّاس في المقام على أصنافٍ ثلاثة:

أحدها: من يلتذّ باللّذات الجسمانيّة كيف يشاء و لا حظّ له من اللَّذَات الرُّوحانية و هم أبناء الثّروة و المكنة في دار الدّنيا.

ثانيها: من يلتذّ باللّذات الرُّوحانية و لا حظّ له من اللَّذَات الجسمانيّة إلّا قليلاً.

ثالثها: من جمع بينهما.

أما الصّنف الأوّل: ففي رأسهم الملوك و أبناء الملوك ثمّ الأغنياء و المتموّلين.

والصّنف الثّاني: في رأسهم العلماء إذ لا لذّة للرُّوح أحسن و أفضل من العلم لأنّ جميع الكمالات النّفسانية من العدالة و السّخاوة و الشّجاعة و الأمانة و غيرها بدون العلم لا يعدّ فضيلة واقعاً و أن أطلقت عليه ظاهراً و ذلك لأنّ أعمال الفضيلة و إيجادها في الخارج كما هو حقّه منوطٌ بالعلم و الجاهل بمعزلٍ عنه و لذلك نقول أنّ العلم رأس الفضائل بل نقول أنّ اللّذة في الحقيقة

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَرْجُمَةِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

المجلد الثاني

ليست إلا لذة الرُّوح و هي لا تتحقّق إلا بالعلم و أمّا اللذات الجسمانيّة فهي مشتركة بين الإنسان و الحيوان.

والصّنف الثالث: من جمع بين اللذتين و هو الذي قد فاز فوزاً عظيماً و هو قليل.

إذا عرفت هذا فنقول أنّ يوسف الصّدّيق كان من الذين فاز بكليتهما فقلوه: رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ إِشَارَةٌ إِلَى اللذات الجسمانية فَأَنْ حَظَّ الملوك فيها أكثر و أوفر، و قوله: وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ إِشَارَةٌ اللذات الرُّوحانية فَأَنْ جميعها تحت العلم كما مرّ فهو من حيث أنّه كان ملكاً و عالماً كان جامعاً بين اللذات بأجمعها ثبت أنّ شكر المنعم واجب عقلاً فلذلك تصدّى للعمل بوظيفته العقليّة و الشرعية فقال ما قال حمداً و شكراً لوأهب العطايا.

و قوله: فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ فيه إشارة إلى مقام الإيجاد الذي هو مقدّم على جميع الأمور أي أنّ الذي آتاني الملك و علّمني تأويل الأحاديث هو الذي أوجد السموات و الأرض و أظهر الموجودات فيهما و أنا من جملتها فهو المستحقّ للولاية عليها و التصرف فيها كيف يشاء كما قال: أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ الْوَلِيُّ هُوَ الْأَوَّلِيُّ بِالتصرف في المولى عليه في الدارين، و أن كان الولي بمعنى الناصر كما ذهب اليه بعض المفسرين فالمعنى أنت ناصرني و معيني في جميع أموري و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و اليه أنيب بل نقول أنّ الولاية أولاً و بالذات ثابتة له و ثانياً و بالعرض لغيره من الأنبياء و الأوصياء لأنّ ولايتهم منه تعالى لا من قبل أنفسهم.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاغِبُونَ^(١)**

أثبت الله في هذه الآية الولاية أولاً لذاته ثم لنبيه و ثالثاً لوصيه وفيه إشارة الى أنها في حقه ذاتية وفي غيره عرضية كما مر الكلام فيها عند تفسيرها و أنما قال، أنت وليي، و لم يقل وليي أنت، لأن تقديم المسند اليه يفيد الحصر و حيث أنه أراد حصر الولاية في الله تعالى قال أنت وليي بتقديم المسند اليه و هو كذلك حقاً لأنه تعالى هو الذي نصره و أخرجه من الجب و أنجاه من أيدي الظلمة و أجلسه على سرير الملك و علمه ما علمه و بدّل فراقه بوصاله و من نصر عبده كذلك فحقيق أن يقال أنت وليي في الدنيا و الآخرة إذ لا ولي غيره **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** توفية الشيء بذله وافياً و قد عبّر عن الموت بالتوفي كما عبّر عنه به في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** (١).

قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفِّيَكُمْ بِاللَّيْلِ** (٢).

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفِّيَكُمْ** (٣).

و غيرها منها وفي قوله: **مُسْلِمًا**، إشارة الى نكتة و هي أن حسن العاقبة لا يكون إلا بالموت على الإسلام و أما قبل الموت فلا يحكم عليه بشيء فإن كثيراً من المسلمين يموتون على الكفر كما أن كثيراً من الكفار يموتون على الإسلام. و الحاصل أن الإنسان قبل موته لا حكم له أو عليه من هذه الجهة و لذلك ورد في الدعاء اللهم إجعل عاقبة أمرنا خيراً و لذلك قال: **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**. في مقام الدعاء و قوله و أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ فهو دعاء له **عَلَيْهِ السَّلَام** لما بعد الموت أي أحشرنى مع الصالحين في الآخرة و المراد بالصالحين الأنبياء و الأوصياء و من حذى حذوهم و هو أيضاً من أحسن الدعاء.

قال الله تعالى: **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَ ادْخُلِي جَنَّاتِي** (٤).

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَوْفِيهِ النَّفْسَ

جزء ١٣

المجلد الثالث

قال الله تعالى: **وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**^(١).
 قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ**^(٢).

إعلم أنَّ يوسف الصديق في هذه الآية أشار إلى أمورٍ لا شيء أحسن منها في الدنيا والآخرة.

أولها: الملك فأنه من أحسن المناصب الدنيوية.

ثانيها: العلم فأنه من أحسن الفضائل النفسانية.

ثالثها: وصفه بأنه فاطر السموات والأرض وما فيهما من الموجودات.

رابعها: أنه تعالى وليه وناصره في الدنيا والآخرة.

خامسها: طلب منه تعالى أن يتوفاه مسلماً وهو من حسن العاقبة.

سادسها: طلب منه أن يلحقه بالصالحين وهو من أحسن النعم الأخروية ومن المعلوم أنَّ دعاءه **إِنِّي أَعْلَمُ** كان مستجاباً فهو أي يوسف ممن جعله الله تعالى سعيداً في الدارين وهو المطلوب.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

هذا خطاب من الله لنبيه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه قال، ذلك، أي ما أخبرناك من قصة يوسف وغيرها مما سبق ذكره، من أنباء الغيب، والأنباء الأخبار بما له شأن ومنه قولهم، لهذا نبأ، أي شأن عظيم والغيب ذهاب الشيء عن الحس.

ومن المعلوم أنَّ الله تعالى هو العالم بالغيب كما وصف نفسه به في قوله: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ**^(٣) أي عالم بما غاب عن الحواس وبما حضرها **نُوحِيهِ إِلَيْكَ** أي نلقيه إليك والوحي إلقاء المعنى إلى النفس وفيه إشارة إلى صدق

الأحاديث التي ألقيت من جانب الرب الى رسوله فأَنْ ما كان بالوحي يكون صدقاً قطعاً ومن أصدق من الله قيلاً ثم قال تعالى مخاطباً لنبيه: وَ مَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ أَي ما كُنْتُ يا محمد عند إخوة يوسف إذ أجمعوا وإتفقوا، أمرهم، و هو إلقاءهم يوسف في الجب بقصد القتل حسداً منهم و بغياً و هم يَمْكُرُونَ في فعلهم هذا حيث قالوا لأبيهم بعد رجوعهم اليه أكله الذئب، و كانوا كاذبين في أمر يوسف و أنما مكروا في فعلهم هذا و لم يعلموا أَنَّ الله خير الماكرين حيث أنجى يوسف من الجب سالماً ثم راقبه و لطف به حتَّى أجلسه على سرير الملك على ما مرّ تفصيل الكلام فيه.

قيل و أنما قال ذلك لنبيه لأنه لم يكن ممَّن قرأ الكتب و لا خالط أهلها و أنما أعلمه الله تعالى ذلك بوحي من جهته ليدلَّ على نبوته، و في خاتمة البحث في قصة يوسف نشير الى بعض ما نقلوه في المقام.

حكى أَنَّ زليخا بعد ما توفى قطفير إنقطعت عن كلِّ شيءٍ و سكنت في خرابيةٍ من خرابات مصر سنين كثيرة و كانت لها جواهر كثيرة جمعت في زمان زوجها فإذا سمعت من واحدٍ خبر يوسف أو إسمه بذلت منها محبةً له حتَّى نفذت و لم يبق لها شيءٌ و قال بعضهم أصاب زليخا ما أصاب النَّاس من الضَّر و الجوع في أيام القحط فباعَت حليها و حللها و جميع ما كانت تملكه و بكت بكاء الشوق ليوسف و هرمت ثمَّ لَمَّا غيَّرها الجهد و اشتدَّ حالها بمقاساة شدائد الخلوة في تلك الخرابية إتَّخذت لنفسها بيتاً من القصب على قارعة الطريق التي هي ممرَّ يوسف و كان يوسف يركب في بعض الأحيان و له فرس يسمع صهيله على ميلين و لا يسهل إلاَّ وقت الرِّكوب فيعلم النَّاس أَنَّهُ قد ركب فتقف زليخا على قارعة الطريق فإذا مرَّ بها يوسف تناديه بأعلى صوتها فلا يسمع لكثرة إختلاط الأصوات فأقبلت يوماً على صنمها الذي كانت تعبد و لا تفارقه و قالت به تَبَّأ لك و لمن يسجد لك أما ترحم كبري و عماي و فقري

وضعني فأنا اليوم كافرة بك فآمنت برَبِّ يوسف و صارت تذكر الله صباحاً و مساءً فركب يوسف يوماً بعد ذلك فلما صهل فرسه علم الناس أنَّ ركب فأجتمعوا لمشاهدة جماله ورؤية إحتشامه فسمعت زليخا الصَّهيل فخرجت من بيت القصب فلما مرَّ بها يوسف نادى بأعلى صوتها سبحان مَنْ جعل الملوك عبيداً بالمعصية و جعل العبيد ملوكاً بالطَّاعة فأمر الله الرِّيح فألقت كلامها في مسامع يوسف فأثَّر فيه فبكى ثمَّ إلْتفت فرأها فقال لغلّامه إقبض لهذه المرأة حاجتها فقال لها ما حاجتك قالت أنَّ حاجتي لا تقضيها إلاَّ يوسف فحملها الى دار يوسف فلما رجع يوسف الى قصره نزع ثياب الملك و لبس مدرعة من الشَّعر و جلس في بيت عبادته يذكر الله تعالى فذكر العجوز و دعا بالغلّام و قال له ما فعلت العجوز فقال أنَّها زعمت أنَّ حاجتها لا يقضيها غيرك فقال إئتني بها فأحضرها بين يديه فسَلَّمت عليه و هو منكس الرأس فرَّق لها وردَّ عليها السَّلام و قال لها يا عجوز أني سمعت منك كلاماً فأعْيديه فقالت أني قلت سبحان من جعل العبيد ملوكاً بالطَّاعة و جعل الملوك عبيداً بالمعصية فقال نعم ما قلت فما حاجتك فقالت يا يوسف ما أسرع ما نسيتني فقال من أنت و مالي بك معرفة قالت أنا زليخا فقال يوسف لا إله إلاَّ الله الذي يحيي و يميت و هو حيٌّ لا يموت و أنت بعد في الدُّنيا يا رأس الفتنة و أساس البلية فقالت يا يوسف أبخلت علىَّ في حياة الدُّنيا فبكى يوسف و قال ما صنع حسنك و جمالك و مالك قالت ذهب به الَّذي أخرجك من السَّجن و أورثك هذا الملك فقال لها ما حاجتك قالت أو تفعل قال نعم و حقَّ مشيئة إبراهيم فقالت لي ثلاث حوائج.

الأولى والثَّانية: أن تسأل الله يرَدَّ على بصري و شبابي و جمالي فأني بكيت عليك حتَّى ذهب بصري و نحل جسمي فدعا لها يوسف فردَّ الله عليها بصرها و شبابها و حسنها قيل كان عمرها يومئذٍ تسعين سنة.

والحاجة الثالثة: أن تتزوجني فسكت يوسف و أطرق رأسه زماناً فأثاءه جبرئيل و قال له يا يوسف ربك يقرئك السلام و يقول لك لا تبخل عليها بما طلبت فتزوج بها فأنها زوجتك في الدنيا و الآخرة و نزلت عليه الملائكة تهنئته بزواجه بها و قالوا هناك الله بما أعطاك فهذا ما وعدك ربك و أنت في الحب فقال يوسف الحمد لله الذي أنعم علي و أحسن و هو أرحم الرّاحمين فأرسل زليخا الى بيت الخلوة فاستقبلتها الجوّاري بأنواع الحلّي و الحلل فتزوّجت بها فلما جرّ اللّيل و دخل عليها يوسف قال لها أليس ما كنت تريدين فقالت أيها الصديق لا تلمني فإنّي كنت امرأة حسنة ناعمة في ملك و دنيا و كان زوجي عنناً لا يصل الى النساء و كنت كما جعلك الله في صورتك الحسنة فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها و فكّ الخاتم فحملت من يوسف و ولدت له إبنين في بطن أحدهما أفرايم و الآخر، ميثا و كانا كالشمس و القمر في الحسن و البهاء و أحبّ يوسف زليخا حباً شديداً.

و قال بعضهم ولدت له بعد الإبنين بنتاً تسمّى، حمة، و هي امرأة أيوب عليه السلام و ولد لأفرايم نون و لثون يوشع متى موسى و لما نزل يعقوب في قصر يوسف جاء أولاد يوسف فوقفوا بين يدي يعقوب ففرح بهم و قبّلهم و حدّثه يوسف بحديثه مع زليخا و ما كان منه و منها و أخبره أنّ هؤلاء أولاده منها، فاستدعاها يعقوب فحضرت و قبّلت يده و سأله زليخا أن ينزل عندها.

روي أنّ يعقوب أقام مع يوسف في مصر أربعاً و عشرين سنة و أوصى أن يدفنه بالشّام الى جنب أبيه إسحاق فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج فوافق يوم وفاة عيص و هو أخو يعقوب في بطن واحد فدفنا في قبر كما كان في بطن واحد و كان عمرهما مائة و سبعاً و أربعين سنة على ما قيل ثم عاد يوسف بعد دفن أبيه الى مصر و عاش بعد أبيه ثلاثاً و عشرين سنة و كان عمره حين الموت مائة و عشرين سنة فلما جمع الله شمله و انتظمت أسبابه و

إطردت أحواله و رأى أمره على الكمال علم أنه أشرف على الزوال و أن نعيم الدنيا لا يدوم على كل حال كما قال الشاعر:

إذا تمَّ أمرُ دنا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تمَّ

فسأل الموت بحسن العاقبة كما حكى الله تعالى عنه بقوله: رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ إِلَى قَوْلِهِ: وَ الْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَ قد مرَّ الكلام فيه.

قيل أن زليخا ماتت قبل يوسف فحزن عليها و لم يتزوج بعدها ولما دنت وفاة يوسف أوصى الى ولده افراتيم أن يسوس الناس قالوا أن يوسف بعد ذلك خرج من مصر بأهله و أولاده و إخوته و من أمن معه و نزل عليه جبرئيل فخرق له من النبل خليجاً الى الفيوم و لحق به كثير من الناس و بنوا هناك مدينتين، و سمّوها الحرمين فكان يوسف هناك سنين الى أن مات فتخاصم المصريون في مدفنه من جانبي النبل كل طائفة أرادت أن يدفن يوسف في جانبه و سمته تبركاً بقبره الشريف و جلباً للخصب حتى هموا بالقتال ثم تصالحوا على أن يدفن سنة في جانب مصر و سنة في جانب آخر من البدو فأخصب ذلك الجانب و أجذب الجانب الآخر المصري ثم إنفقوا على دفنه في وسط النيل و قدّروا ذلك بسلسلة و عملوا له صندوقاً من مرمر فلما أمر الله موسى بالسير ببني إسرائيل أمره أن يحمل معه عظام يوسف و أن لا يخلفها بأرض مصر و أن يسير بها حتى يضعها في الأرض المقدسة أي وفاء بما أوصى به يوسف فقد نقل أنه لما أدركته الوفاة أوصى أن يحمل الى مقابر أباءه فمنع أهل مصر أوليائه من ذلك فسأل موسى عمّن يعرف موضع قبر يوسف فما وجد أحداً يعرفه إلا عجوزاً في بني إسرائيل فقالت لموسى يا نبي الله أنا أعرف مكانه و أدلك عليه أن أنت أخرجتني معك و لم تخلفني بأرض مصر قال أفعل.

و قيل أنّها قالت بشرط أن أكون معك في الجنة فكأنّه ثقل عليه فقيل له إعطها طلبتها فأعطها و قد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم اذا طلع القمر فدعا ربّه أن يؤخّر طلوعه حتّى يفرغ من أمر يوسف ففعل فخرجت به العجوز حتّى أرته إيّاه في ناحية من النّيل فقالت لهم إنضبوا عنها الماء أي ارفعوه عنها ففعلوا فقالت إحضروا فحضروا و أخرجوه و وجده في صندوق من حديد في وسط النّيل في الماء إستخرجه موسى و هو في صندوق من مرمر و هو داخل في الصندوق الّذي من الحديد فإحتمله.

و في نقلٍ آخر أنّ موسى جاءه شيخ له ثلاث مائة سنة فقال يا نبيّ الله ما يعرف قبر يوسف إلّا والدتي فقال له موسى قم معي الى والدتك فقام الرّجل و دخل منزله و أتى بقفّة فيها والدته فقال لها ألك علم بقبر يوسف قالت نعم و لا أدلك على قبره إلّا أن دعوت الله أن يرّد عليّ شبابي الى سبع عشرة سنة و يزيد في عمري مثل ما مضى فدعا موسى لها و قال لهكما عمرك قال تسع مائة سنة فعاشت ألفاً و ثمان مائة سنة فأرته قبر يوسف و كان في وسط نيل مصر ليُمّر النّيل عليه فيصل الى جميع مصر فيكونوا شركاء في بركته فأخصب الجانبان و كان بين دخول يوسف مصر الى يوم خروج موسى أربع مائة سنة و هو أي يوسف أوّل نبيّ من بني إسرائيل ولقد توارث الفراعنة من العمالقة بعده مصر و لم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف و أباءه الى أن بعث الله موسى فنّجاهم من الفراعنة.

أقول هذا ما ذكروه في قصّة يوسف و أمّا ذكرناها بطولها لأنّها لا تخلو من الموعظة و أن كان في صحتها إشكالاً من حيث عدم إستنادها الى الوحي و ذلك لأنّ المستند الى الوحي هو الّذي ذكره تعالى في القرآن و أنت ترى أنّ القرآن خالٍ عمّا ذكروه من القصص الّتي لا أصل لها و مع ذلك نقلناها بعنوان المنقول لا بعنوان التفسير و الله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

قيل أَنَّ كَفَّار قريش وجماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف على سبيل التَّعْنَت فلَمَّا أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا فحزن النبي ﷺ فقال الله و ما أكثر النَّاس، من أهل مكَّة وغيرهم، ولو حرصت، على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات والمعجزات لهم بِمُؤْمِنِينَ لعنادهم ولجاجهم وهذا في الحقيقة من أسرار القدر لأنَّ عدم إيمانهم من مقتضيات إستعداداتهم الأزلية الغير المجعولة وأحوال أعيانهم الثابتة هكذا قيل.

و أنا أقول أن كان عدم إيمانهم مستنداً بعدم إستعدادهم وأحوال أعيانهم الثابتة الأزلية فما ذنب الكافر الذي لا يؤمن و المفروض عدم إستعداده للإيمان بمقتضى فطرته و خلقته و هل هذا إلا الجبر الذي لا يقول به عاقل بل الحقُّ أنَّ عدم قبولهم الإيمان مسبَّب عن قساوة قلوبهم و خبث سريرتهم و عنادهم للحقِّ و الباعث على هذه الأمور ليس إلا العصيان و الطغيان النَّاشئ عنهم بإختيارهم فأَنَّ القلب بسبب المعصية و الإدامة عليها يصير قسياً لا يقبل الحقُّ كما مرَّ البحث فيه مراراً.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

الخطاب للنبي ﷺ و كلمة، ما، نافية و المعنى إِنَّكَ لست تسألهم أي النَّاس، على إبلاغك إياهم ما أوحى الله به اليك و لا على ما تدعوهم اليه من الإيمان و الإرشاد الى الحقِّ، أجراً، إن هو، أي ليس القرآن إلا ذِكْرٌ للعالمين.

قال بعضهم فيه إشارة الى أَنَّ الدَّعوة و الإرشاد و سائر أفعال الخير لا يطلب فيها المنفعة من النَّاس فأتى الله و ما كان لله لا يجوز أن يشوبه شيء من أعراض الدُّنيا و الآخرة انتهى.

أقول الحقُّ أنَّ مرجع الصَّمير في، عليه، و هو، واحد و المعنى إِنَّكَ لا تسألهم على الإنباء أو على تبليغ الأحكام من جبر، إن هو، أي ليس الإنباء و الإبلاغ إلا ذِكْرٌ للعالمين، و الذِّكر حضور المعنى للنفس و هو ضدَّ السَّهو و قد

يقال للقول الذي يحضر المعنى للنفس ذكرٌ والعالمون جمع العالم والعلماء جماعة الحيوان الكثيرة التي من شأنها أن تعلم لأنَّه مأخوذ من العلم ومنه معنى التَّكثير وفي عرف المتكلمين عبارة عن الفلك وما حواه عن طريق التَّبَع للحيوان الذي ينتفع به مجعول لأجله والمعنى ليس ما تؤدِّيه اليهم من القرآن وجميع ما ينزل الله من الأحكام إلَّا ذكرٌ للعالمين أي طريق إلى العلم بما أوجب الله عليهم فذكر الدليل طريق إلى العلم بالمدلول عليه والفكر سبب مولده فالذكر سبب ويحتمل أن يكون المراد ليس هذا القرآن إلَّا شرفاً للعالمين لو قبلوه وعملوا بما فيه قاله بعض المفسرين.

وقال الرازي في تفسير قوله: **إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** أي هو حق تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنُّبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ومعناه أنَّ هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ثم لا تطلب منهم ما لأجلاً فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمرّدوا انتهى.

أقول الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلَّا أنَّ الحفظ يقال إعتباراً بإحرازه والذكر يقال إعتباراً باستحضاره.

وتارة يقال لحضور الشئ القلب أو القول ولذلك قيل الذكر ذكران، ذكرٌ بالقلب و ذكرٌ باللسان وكل واحدٍ منهما ضربان، ذكرٌ عن نسيان و ذكرٌ لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ وكل قولٍ يقال له ذكرٌ.

فمن الذكر باللسان وما نحن فيه من هذا القبيل فالمعنى ليس الإنباء أو القرآن أو ما شئت فسمه إلَّا ذكرٌ يجري على ألسنتهم بمعنى أنَّهم يذكرون الآيات والقصص مثلاً إلَّا أنَّهم لا يعتبرون بها.

ومحصّل الكلام هو أنَّ القرآن وما فيه من المواعظ والقصص لا يتجاوز عن ألسنتهم أي لا يتأملون في آياتها وقصصها حتّى يعتبروا بها والله أعلم بحقيقة كلامه.

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ

في الآية دلالة على صحة ما حملنا الذكر عليه وهو الذكر اللساني دون القلبي كما لا يخفى على المتأمل فيها.

نقل عن الجامي في شرح الكافية أنه قال في، كَأَيِّنْ، وَأَمَّا بَنِي لَأَن كَاف التَّشْبِيهِ دخلت على أَيٍّ، وَأَيٍّ، كان معرباً لكنه إنمحي عن الجزئين معانها الإفرادي فصار المجموع كإسم مفرد بمعنى، كم الخيرية فصار كأنه إسم مبني على السكون أخره نُون ساكنة كما في، من، لا تنوين تَمَكَّنَ ولهذا يكتب بالياء والنون مع أَنَّ نُونُ التَّنْوِينِ لا صورة لها في الحظ.

وفيه قول آخر ذكرناه في شرح اللغات والمشهور عندهم أنه مركب من كاف التَّشْبِيهِ ومن، أَيٍّ والأصل فيه، وكَأَيٍّ، والنون في أخره بدل من التَّنْوِينِ ولعله لأجل ثقل التَّنْوِينِ على الياء وكيف كان لا شك أن معناه، كم، أي كم، من آية الخ. أخبر الله تعالى في هذه الآية وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا^(١) آيات كثيرة تدل على أَنَّ لها صانعاً مدبراً حكيماً وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ولكن أكثر الناس يمرُّون عليها أي ينظرون إليها والحال أنهم معرضون عنها أي لا يتدبرون فيها.

قال بعض المحققين أَنَّ دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة وهي إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية.

إما الأجرام الفلكية فهي قسمان، الكواكب، والأفلاك.

و الأجرام الكواكبية تارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها و حركاتها وتارة بألوانها وأصواءها وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور.

و الأجرام الفلكية قد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع يستدل
بكون بعضها فوق البعض وتحتة و قد يستدل أن حركاتها مسبقة بالعدم فلا بد
من محركٍ قادرٍ و قد يستدل بسبب كيفية حركاتها في سرعتها و بطؤها.
و أما الأجرام العنصرية فهي إما أن تكون مأخوذة من بسائط و هي عجائب
البر و البحر و إما من المواليد و هي أقسام:
أحدها: الأثار العلوية كالرعد و البرق و السحاب و المطر و الثلج و الهواء و
قوس قزح.

ثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها و صفاتها و كيفياتها.

ثالثها: النبات و خواصها.

رابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها و طباعها.

خامسها: تشريح أبدان الناس و تشريح القوى الإنسانية و من هذا الباب
أيضاً فقصص الأولين و حكايات الأقدمين و أن الملوك الذين إستولوا على
الأرض و خربوا البلاد و قهروا العباد ماتوا و لم يبق منهم في الدنيا خير و لا أثر
ثم بقي الوزر عليهم هذا ضبط أنواع الدلائل انتهى كلامه.
أقول ما ذكره لا بأس به إلا أن الآيات الدالة على وجود المؤثر لا يمكن
للشعر ضبطها و تحديدها و لنعم ما قال الشاعر:

ففي كل شيء له أية تدل على أنه واحد

و قد ثبت أن المعلول رشح من رشحات العلة و ما سوى الله كائناً ما كان
معلول له لأنه تعالى خالق كل شيء و اذا كان كذلك فجميع الموجودات
بأنواعها و أصنافها يدلنا و يرشدنا الى الخالق المدبر الحكيم.

نعم الآيات الدالة على وجود الصانع مع كثرتها متفاوتة من حيث المرتبة و
المقام و أنما خص بالذكر من الموجودات السموات و الأرض لأن جميع
الموجودات داخل فيها فذكرهما مغن عن ذكر الجميع، أو لأنهما من أكبر
المحسوسات و أظهرها.

وفي قوله: **يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**، إشارة الى أنهم يرون الآيات بأعينهم ولا يتفكرون فيها ولم يعلموا أنَّ الرؤية بالعين من غير تدبّرٍ وتعلّلٍ فيها ليست من الفضائل في الإنسان لأنها موجودة في الحيوان أيضاً بل الفضيلة التي توجب المزية على الحيوان هي التعلّل والتدبّر بعد الرؤية وهو من خواص الإنسان فمن لا يكون كذلك لا شرف له ولا فضيلة بل هو و الحيوان على حدّ سواء.

والى هذه النكتة أشار بقوله: **وَهُمْ مُعْرِضُونَ** كأن لم يروا شيئاً أردف كلامه هذا بقوله:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ

وهؤلاء هم الذين أعرضوا عن الآيات بعد مرورهم عليها ومفهوم الآية أنه يؤمن أقلّهم بالله وهم الذين لم يعرضوا عنها **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ**^(١). قال الحسن الآية في أهل الكتاب لأنّ معهم إيماناً وشركاً.

وعن ابن عباس أنه قال، المعنى، و ما يؤمن أكثرهم بالله في إقراره بأنّ الله خلقه و خلق السموات والأرض إلّا وهو مشرك بعبادة الأوثان، و عليه فالتقدير، ما يصدّقون بعبادة الله إلّا وهم يشركون الأوثان معه في العبادة.

وقال بعضهم الآية دالة على أنّ اليهودي معه إيماناً بموسى وكفرٌ بمحمّدٍ لأنها دلّت على أنّه قد جمع الكفر والإيمان ولا ينافي أن يؤمنوا بالله من وجهٍ و يكفروا به من وجهٍ آخر كما قال تعالى:

أَفْتَوْمِنُونْ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونْ فَمَا جزَاء مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ^(٢).

و قال الرّازي أمّا قوله: وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ
فالمعنى أنّهم كانوا مقرّين بوجود الإله بدليل قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ^(١) إِلَّا أَنَّهُمْ كانوا يشبّهون له شريكاً في المعبودية.
و عن ابن عباس أنّهم يشبّهون الله بخلقه و عنه أيضاً نزلت الآية في تلبية
مشركي العرب لأنّهم كانوا يقولون لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه
و ما ملكك.

و عنه أيضاً أنّ أهل مكة قالوا الله ربّنا وحده لا شريك له و الملائكة بناته
فلم يوحدوا بل أشركوا.

و قال عبدة الأصنام ربّنا الله وحده و الأصنام شفعاء ونا عنده.

و قالت اليهود ربّنا الله وحده و عزيز ابن الله.

و قالت النصارى ربّنا الله وحده لا شريك له و المسيح ابن الله.

و قال عبدة الشّمس و القمر ربّنا الله وحده و هؤلاء أربابنا.

و قال المهاجرون و الأنصار ربّنا الله وحده و لا شريك معه انتهى.

أقول يظهر من كلامه أنّ المهاجرين و الأنصار كانوا موحدين حقّاً و أمّا
غيرهم فلا لأنّهم أشركوا به.

و لقائل أن يقول الآية أجنبية عمّا قالوا في تفسيرها من اليهود قالت كذا و
النجاري قالت كذا و عبدة الشّمس و غيرها قالت كذا فأنّها في المنافقين الذين
كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و ذلك لأنّ التّوحيد من الأمور القلبية
و المعنى أنّه لا يؤمن أي لا يعتقد بقلبه أكثرهم بالله و برسوله في الباطن و أن
كان مقرّاً بلسانه فهم مؤمنون في الظاهر مشركون في الباطن لعدم إعتقادهم بما
يقولون بألسنتهم.

و أن شئت قلت أنّهم يتظاهرون بالإيمان و يعملون عمل الكفّار فقول
الرازي في آخر كلامه و قال المهاجرون و الأنصار ربّنا الله وحده و لا شريك

معه و تخصيصه التّوحيد بهم لا معنى له فإنّ أكثرهم كانوا منافقين لم يؤمنوا بالله قلباً طرفه عين و يدّل على ذلك أعمالهم الشّنيعة فإنّ أبا سفيان و معاوية و ابن العاص و مروان بن الحكم و ابن أبي سرح و أمثالهم كانوا من المهاجرين و لا شك أنّهم كانوا أضرّ على الإسلام و الموحّدين من كلّ مشرك و للبحث فيه مقام آخر.

و محصل الكلام هو أنّ الله أخبر بهذه الآية أنّ المؤمنين الموحّدين ظاهراً و باطناً قليلون جدّاً و هو حقّ.

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

الإستفهام للإنكار و فيه توبيخ و تهديد و الغاشية نقمة تغشاهم أي تغطّيهم و المعنى أفأمنوا هؤلاء الكفّار أن تأتيهم نقمة من عذاب الله.

قليل هي الصّواعق و القوارع و قيل غير ذلك و الحقّ أنّها عامّة تشمل كلّ نقمة و عذاب و إتيان الغاشية يعني في الدّنيا و ذلك لمقابلته بقوله أو تأتيهم السّاعة أي يوم القيامة بغتة أي فجأة في الزّمان من حيث لا يتّوقع و هم لا يشعرون، أي لا يعلمون بمجيئه فلذلك كان بغتة و الشّعور إدراك الشّيء بما يلفظ كدقة الشّعور و منه إشتقاق الشّاعر لدقة فكره و المقصود أنّ السّاعة تأتيهم و هم في غفلة عنها أو أنّهم لإشتغالهم بأمور دنياهم في غفلة عنها.

و الحاصل أنّ الإنسان ينبغي أن يكون مواظباً على أعماله و أقواله و إعتقاداته و جميع حركاته و سكناته و يعلم أنّ الله تعالى ليس بغافلٍ عمّا يعمل الظّالمون و في القرون السّالفة و الأمم الماضية تقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم لبرة لمن إعتبر بهم و ليس بين الله و بين أحدٍ قرابة و حكم الأمثال واحد فإن أمهل الله قوماً في دار الدّنيا بحسب مصلحةٍ رآها فيه ليس معناه أنّه غفل عنهم بل ليزدادوا إثمًا و من وراءهم عذابٌ غليظ ولنعم ما قيل:

فكم من صحيحٍ بات للموت أماناً أتته المنايا رقدةً بعد ما هجع
فلم يستطيع إذا جاءه الموت بغتةً فراراً ولا منه بحيلةٍ إنفع
فأصبح تبكيه النساء مكفناً ولا يسمع الداعي إذا صوته رفع
وقرب من لحدٍ فصار مقيله و فارق ما قد كان بالأمس قد جمع
قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

السَّيْلُ الطَّرِيقُ وهما يذكَّران ويؤنثان ولذلك قال هذه سبيلي والمشار اليه
هو السَّيْلُ والمراد به دينه الَّذِي دعا اليه من توحيد الله وعدله والعمل
بشرعه وتوجيه العبادة اليه، أدعوا الى الله، أي أدعوا النَّاسَ الى طاعته وإتباع
سبيله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا أي على معرفةٍ مِنِّي بذلك وحجةٍ معي اليه وَ
مَنِ اتَّبَعَنِي أي من تابعني من النَّاسِ وَ سُبْحَانَ اللَّهِ أي تنزيهاً لله من أن يعبد
معه إلهٌ غيره وأن يضاف اليه ما لا يليق به وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي لست
أنا منهم بل أنا من الموحدين الَّذِينَ لا يشركون مع الله في عبادته.

وإِعلم أنَّ الآية خطاب للنبي ﷺ أمره الله تعالى أن يقول لهؤلاء
المشركين أو المنافقين الذين آمنوا ظاهراً وأشركوا باطناً، أَن ديني الإسلام
أدعوا اليه وأنما عبَّر عن الإسلام بالسَّيْلِ أي لم يقل هذا ديني أدعوا اليه مثلاً
لأنَّ الإسلام هو السَّيْلُ من حيث أَنَّهُ طريق الى الثَّواب لمن عمل به.

وفي قوله: أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ إشارة الى إخلاص النبي في دعوته وأَنَّهُ لا
يدعو الى غيره وذلك لَأَنَّ الدُّعَا ثلاثة:

داع الى نفسه، وداع الى غيره، وداع الى ربِّه.

فالأوَّل: مثل فرعون ونمرود وكلٍّ من ادَّعى أو يدَّعي الألوهية لنفسه فأنه
يدعو النَّاسَ الى نفسه لا الى غيره ولا الى الله تعالى، بل يقول مثلاً أَنَا ربِّكم
الأعلى، هذا فيمن يدَّعي الألوهية لا خفاء فيه.

و أما في غيرها من المناصب الاجتماعية اذا لم يكن المدعي أهلاً لها فهو أيضاً كذلك فإن الدعوة الى النفس لها مراتب مختلفة تختلف شدة و ضعفاً و نقصاً و كمالاً و الجامع هو الدعوة الى النفس لا الى الله و لا الى غيره و منشأها حب الجاه و الرئاسة على الناس و من هذا القبيل من يدعي النبوة و الإمامة كذباً فإن مدعي النبوة و الإمامة و أن كان في ظاهر الأمر يدعو الى الله و لكنه يعلم أنه كاذب في دعواه و أن لا يعلم ما في باطنه غيره من أحاد الناس فلا فرق في هذه الدعوة بين فرعون و نمرود، و مسيلمة الكذاب و أمثاله ممن إدعى النبوة، و بين معاوية بن أبي سفيان و غيره من الحكام بعد رسول الله لأنهم ادعوا الإمامة و دعوا الناس اليها مع علمهم بعدم لياقتهم لها و أنما كان غرضهم من الدعوة الرئاسة على الناس فقط.

و محصل الكلام في هذا القسم من الدعوة هو أن يكون الداعي محباً للرئاسة و الحكومة على الناس من غير طريق الشرع.

القسم الثاني: و هو الذي يدعو الى غيره من الناس و هو في الحقيقة حمال الخطايا لغيره أكثر من القسم الأول و ذلك لأن الدعوة الى النفس لا تسمع من كل أحد بل لابد للداعي الى نفسه أن يكون له في الناس شأن أو شهرة أو قدرة أو مال و غيرها من الأسباب المعدة للإيصال الى المقصود.

و من المعلوم أن الفقير و الضعيف و الجاهل و أمثالهم لا يسمع منهم كل ما يدعونه و أما من يدعو الى غيره فلا شرط فيه غير حماقة و الضلالة و الخباثة و الرذالة و هم أكثر الناس الذين يطلبون في الدنيا صيداً ليصطادوه و لا صيد لهم أحسن ممن باع دينه بدنياه و ادعى لنفسه ما ليس له فيجتمعون حوله و يدعون الناس اليه ليأكلوا الناس به و أنما قلنا أنهم أكثر لأنهم همج رعاء أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح و لا يستضيئون بنور الإيمان و هم أكثر أفراد الجماعة و قد وصفهم الله بعدم العقل تارة فقال أكثرهم لا يعقلون، و بعدم

العلم أخرى قال **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**، وبعد الشكر ثالثة فقال أكثرهم لا يشكرون وهكذا فهذا القسم من الدعاة على كثرتهم لا خير فيهم بل ضرورهم واصله الى غيرهم أنا فأنأ و حيث أن دأئهم الجهل لم يقدر أحد حتى الأنبياء و الأوصياء على إصلاحهم و أنما مثلهم مثل الذباب حول الطعام.

فقول لعنة الله عليهم أجمعين كما قيل بالفارسية:

أهل دنيا أز كهين و أز مهين لعنة الله عليهم أجمعين
نعوذ بالله من ضرورهم و آفاتهم.

أما القسم الثالث: و هو الداعي الى الله فقط كالأنبياء و الأوصياء و العلماء العاملين على حسب مراتبهم، فهو الحق الحقيق بالإتباع هو المراد بالآية فقولہ أدعوا الى الله، نص فيما ذكرناه.

قال الإمام الهادي في زيارة الجامعة، السلام على الدعاة الى الله و الإدلاء على مرضاة الله و المستقرين في أمر الله و التامين في محبة الله و المخلصين في توحيد الله الخ.

فقله **عَلَيْهِ السَّلَام** على الدعاة الى الله، نص على أن الأئمة المعصومين كانوا كما كان جدھم رسول الله بل نقول أن الدعاة الى الله واقعاً منحصرة بالمعصومين عليهم السلام إذ غيرهم كائناً من كان لا يخلو في دعوته الى الله من شائبة الرياء ولو قليلاً فالدعوة خالصاً لوجه الله منحصرة بالمعصوم.

و أما قوله: **عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** فيه إشارة الى أن دعوتي الى الله أنما نشأت من معرفتي بالله و بصيرتي في ديني بمعنى أن الذي ينبغي أن يدعى اليه هو الله تعالى لا غيره و في قوله: **وَمَنِ اتَّبَعَنِي** إشارة الى أن التابعين له **عَلَيْهِ السَّلَام** أيضاً كذلك أي أنهم على بصيرة في دينهم بحسب استطاعتهم و فهمهم لا أنهم قلدوا في دينهم شخصاً آخر من غير علم فأمن تبع الرسول عرفه أولاً ثم تبعه إذ المتابعة بغير المعرفة لا أثر لها بل تضر بالدين و الدنيا أحياناً.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْهِيمِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

المجلد التاسع

و المراد بالإتباع في قوله: **وَمَنْ أَتَّبَعَنِي**، هو العمل بسنته لا مجرد القول بالشهادة لفظاً كالمنافق، **وَسُبْحَانَ اللَّهِ** أي أنزهه عن إشترك الغير بل هو الداعي الى ذاته.

و قال بعضهم **وَسُبْحَانَ اللَّهِ** داخل تحت قوله، قل، أي قل هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، و قل سبحان الله أي و تبرئة الله من الشركاء و لما أمره الله تعالى بأن يخبر عن نفسه أنه يدعو هو و من إتبعه الى الله و أمر أن يخبر أنه ينزه الله عن الشركاء بقوله سبحان الله، أمر أن يخبر أنه في خاصة نفسه منزّه عن الشُّرك و أنه ليس ممَّن أشرك و هو نفي عام في الأزمان لم يكن منهم و لا في وقتٍ من الأوقات إلَّا رجالاً حصر في الرِّسْل دعاة الى الله.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ

قرأ أبو بكر، يوحى، بالياء وفتح الحاء و قرأ حفص بالتون وكسر الحاء، ولعل الوجه في القراءة بالتون:

قال الله تعالى: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ^(١)**.

و قراءة الياء:

قال الله تعالى: **وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٍ^(٢)**.

قال الله تعالى: **قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ^(٣)**.

والحاصل أنَّ لكلَّ من القرائتين وجهٌ وجيه وفي الآية إخبار من الله تعالى أنه لم يبعث من الأنبياء والمرسلين الى عباده إلَّا رجالاً يوحى اليهم بكتبه و أحكامه و الآية خطاب للنبي ﷺ وفيها ردُّ على جهال قريش فأنهم قالوا أنَّ

اللَّهِ لو شاء أن يرسل إلينا ملكاً فَيُبَيِّنَ هَاهُنَا أَنَّهُ لم يرسل فيما مضى إلا رجلاً من البشر، من أهل القرى، لا من أهل البادية و ذلك لأنَّ أهل القرى و أعلم و أحلم و أئبن قلباً من أهل البادية فأتهم أي أهل البادية قليل نبلهم و لم يبعث الله قطَّ منهم رسولاً إلى الخلق و لا من النساء و لا من الجنِّ و قوله ما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجلاً، ينفي الملك و النساء و قوله: مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ينفي أهل البادية فيحصل لنا أنَّ الرُّسول لم يكن من جنس الملك و لا من النساء و لا من الجنِّ لعدم صدق الرجال عليه قال الشَّاعر في سجاح التي إدَّعت النبوة.

أُمسِتْ نَبِيَّتِنَا أَنْثَى نَطِيفَ بِهَا و لم نزل أنبياء الله ذكراناً
فلعنة الله و الأقوام كلَّهم على سجاح و من بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت أصداءه ماء مزِنَ أينما كانا
و قوله: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَالاستفهام للتوبيخ و التقرُّيع و الضمير في يسيروا، عائد على من أنكر إرسال الرُّسل من البشر و المعنى أفلم يسيروا هؤلاء المنكرين في الأرض لينظروا أنَّ الرُّسول لا يكون إلا من جنس الرجال فلا وجه لإنكار قريش نبوة محمد ﷺ لأنَّه من الرجال كما لا وجه لإنكار غير قريش من الأمم السَّالفة و ذلك لأنَّ المكذب بسبب تكذيبه يستحقُّ للعقاب.

و إلى هذا المعنى أشار بقوله: فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بسبب إنكارهم الرُّسل كقوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و أمثالهم: وَ لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا من تكذيب الرُّسل و إعتقدوا نبوتهم و عملوا بأحكامهم التي جاؤوا بها من عند الله فَأَنَّ التَّقْوَى عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرِّمات بحسب الإصطلاح و أمَّا بحسب اللُّغة فهي عبارة عن الإجتنب عملاً لا ينبغي فعله و في قوله: أَفَلَا تَعْقِلُونَ، إشارة إلى أنَّ العاقل لا يقول بمقالة الجاهل فالاستفهام إنكارى أي أنهم عقلاء ولكنهم رأوا تصديق الرُّسل و إتباعهم على خلاف أميالهم و أهواءهم النفسانيَّة فقالوا ما قالوا حفظاً

لمنافعهم الدنيوية و يسمى هذا القسم من الإنكار بالعناد و في قوله: وَكَذَّارُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا إشارة الى أَنَّ الآخرة خير من الدنيا لمن إتقى و أما
من عصى فليس كذلك بل الآخرة شرُّ له من الدنيا لشدة عذابها و دوامها قال
رسول الله ﷺ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، أي هي جنته بالقياس
الى آخرته.

حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى
مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

الإستيناس من اليأس و هو قطع الرجاء و قرأ أهل الكوفة، كذبوا، خفيفة
بضم الكاف و الباقون مشددة بضم الكاف أيضاً و قرأ عاصم و ابن عامر فَنُجِّى
مَنْ نَشَاءُ بنون واحدة و تشديد الجيم و فتح الياء و الباقون بنونين على
الإستقبال و الأول أشهر و عليه المصاحف.

ثُمَّ أَنْ مِنْ قَرَأَ، كَذَّبُوا، خفيفة فالمعنى أَنَّ الأمم ظننت أَنَّ الرسل كذبوهم
فيما أخبروهم به من نصر الله أيأهم و إهلاك أعداءهم و هو قول ابن عباس و
إبن مسعود و سعيد بن جبير و مجاهد و من قرأ بالتشديد حمل الظن على
العلم و المعنى أيقن الرسل أَنَّ الأمم كذبوهم تكذيباً عَمَّهُمْ حَتَّى لَا يَفْلَحَ أَحَدُ
مِنْهُمْ.

و هو قول الحسن و قتادة قاله الشيخ في التبيان.

و قال القرطبي وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا بفتح الذال المشددة أي أيقنوا أَنَّ
قومهم كذبوهم و في قراءة التَخفيف معناه، ظنَّ القوم أَنَّ الرسل كذبوهم فيما
أخبروا به من العذاب و يظهر من صاحب الكشف أَنَّ بعضهم قرأ بالتخفيف
على البناء للفاعل.

أقول يحصل لنا من مجموع الأقوال أَنَّ قوله تعالى: قَدْ كُذِّبُوا فيه أقوال

ثلاثة:

أحدها: كذبوا، خفيفة بضم الكاف على البناء للمفعول.

ثانيها: ففتح الكاف على البناء لفاعل.

ثالثها: ضم الكاف و تشديد الدال المفتوحة على البناء للمفعول من التّكذيب و لذلك ترى الأقوال في تفسير الآية مختلفة و الآراء متشتّة.

فقال الطّبري في تفسيره لها ما هذا لفظه يقول تعالى ذكره و ما أرسلنا من قبلك رجالاً يوحي اليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلنا اليهم فكذبوهم و ردّوا ما أتوا به من عند الله حتّى إذا إستيأس الرّسل الّذين أرسلناهم اليهم منهم أن يؤمنوا بالله و يصدّقوهم فيما أتوهم به من عند الله و ظنّ الّذين أرسلناهم اليهم من الأمم المكذّبة أنّ الرّسل الّذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده أيّاهم نصرهم عليهم جاءهم نصرنا و ذلك قول جماعة من أهل التأويل انتهى كلامه.

و قال الزّمخشري (حتّى) متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام كأنّه قيل، وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً فتراخى نصرهم حتّى إذا إستيأسوا عن النّصر و ظنّوا أنّهم قد كُذّبوا أي كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنّهم ينصرون و المعنى أنّ مدّة التّكذيب و العداوة من الكفّار و إنتظار النّصر من الله و تأمّيله قد تطاولت عليهم و تمادت حتّى إستشعروا القنوط و توهّموا أن لا نصر لهم في الدنّيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير إحساب و ساق الكلام الى أن قال و قرئ، كذبوا، بالتّشديد على معنى، و ظنّ الرّسل أنّهم قد كذبّتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب و النّصرة عليهم و قرأ مجاهد، بالتّخفيف على البناء للفاعل و المعنى و ظنّ الرّسل أنّهم قد كذبوا فيما حدّثوا به قومهم من النّصرة انتهى كلامه.

و ذهب بعض المفسّرين من المعاصرين الى الفرق بين اليأس و الإستيئاس مع أنّ المعنى فيهما واحد و هو أنّ الإستيئاس هو الإقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئة الإستفعال و هو ممّا يعدّ يأساً عرفاً و ليس باليأس القاطع حقيقةً.

ثُمَّ قَالَ وَقَوْلُهُ: حَتَّى إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ الْخِ متعلق الغاية بما يتحصل من الآية السابقة والمعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالاً أمثالك من أهل القرى و تلك قراهم البائدة دعوهم فلم يستجيبوا و أنذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيسأس الرسل من إيمان أولئك الناس و ظن الناس أن الرسل قد كذبوا أي أخبروا بالعذاب كذباً جاء نصرنا فنجى بذلك من نشاء و هم المؤمنون و لا يرد بأسنا و شدتنا عن القوم المجرمين ثم استشهد بِآيَاتِهِ بما ذكره في تفسير الآية بالآيات^(١).

أقول هذا ما رأيته في تفاسيرهم و نقلناه بعين عباراتهم حفظاً للأمانة و أنت ترى أنها لا ترجع الى محصل و لعلنا لا نفهم كلماتهم فتدبر فيها لعلك تفهم ما لا نفهم.

والذي يختلج بالبال في تفسير الآية هو أن الآية مرتبطة بما قبلها و المعنى أن المشركين لما تناولت عليهم مدة التكذيب و العداوة سبب إمهال الله أيامهم في دار الدنيا و لذلك أخر الله تعالى النصر الذي وعده برسله، فظنوا أنهم أي الرسل قد كذبوا من جانب الله أي ظنوا أن الله وعدهم بالنصر كذباً هذا إذا كان الفعل مبنياً للمفعول و أما إذا كان مبنياً للفاعل فالمعنى ظنوا أنهم أي الرسل قد كذبوا في وعدهم النصر و إهلاك أعداءهم و على هذين الإحتمالين فالضمير في قوله: وَ ظَنُّوا الى أتباع الأنبياء

و محصل الكلام أن إمهال الكفار و تأخير النصر للأنبياء و صار باعثاً لوجود هذا الظن في أتباعهم من المؤمنين و أما على قراءة التشديد في، كذبوا، من التكذيب فالمعنى أنهم أي الرسل ظنوا أي إستيقنوا بأنهم كذبوا من جانب الأمم أي أن الأمم كذبوهم تكذيباً فيما أخبروهم من الوعد و النصر و كيف كان فلما يشوا من النصر جاءهم نصرنا من حيث لم يحتسبوه هذا ما فهمناه من الآية.

و على التَّقْدِيرِ الأخيرِ فالضَّميرُ في، ظنُّوا، الى الرُّسل و على الأمرين الى الأمم.

و أما قوله: فَتُجِى مَنْ نَشَأُ فمنهم من قرأ اللفظ مشدداً على لفظ الماضي المجهول و عليه المصاحف و منهم من قرأه بالتخفيف على لفظ المبني للفاعل من نجى ينجو، و منهم من قرأه مشدداً من، نَجَى يُنْجِي ومنهم من قرأه مخففةً بالتونين من، أَنْجَى يُنْجِي فالقراءات فيه أربعة:

أولها: و هو الأشهر ضمُّ التَّون الواحدة و كسر الجيم المشددة على صيغة المجهول.

ثانيها: فتح التَّون و تخفيف الجيم.

ثالثها: بلاتونين والجيم المشددة.

رابعها: كذلك مخففة و لكل من القراءات وجه و المأل الى واحد.

و قوله: مَنْ نَشَأُ معناه، واضح لأنَّ النجاة من العذاب بيد الله و بمشيئته إن شاء يعذب و إن شاء ينجي.

و لَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ أي لا يقدر أحد على دفع البأس و العذاب من المجرمين الظالمين و ذلك لأنَّ الدافع لابد من أن يكون أقدر من الله و هو محال فأَنْ ما سواه كائناً من كان تحت قدرته و هو واضح.

و محصل الكلام في الآية أَنَّ الرُّسل لَمَّا يَسُوا من فلاح القوم و إنقطع طمعهم عن إيمانهم أتاها نَصْرنا بإهلاك من كذبهم و لم يقدر أحد على دفع البأس منهم فأنه تعالى على كل شيء قدير.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

العبد المذنب

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الْقَصِّ، بفتح القاف و تشدّيد الصاد في الأصل تَتَّبِعُ الأثر يقال قصصت أثره و القصص الأثر.

و قيل القصص الأخبار المتَّبعة أخبر الله في هذه الآية أَنَّ في قصص الأمم الماضين التي ذكرها في القرآن دلالة لذوي العقول على تصديق الأنبياء و مع ذلك فيها عبرة لمن إعتبر بها.

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى أي ما أخبرناك به من القصص لم يكن حديثاً كذباً، و لكن تصديق الذي بين يديه، أي و لكن فيه تصديق الكتب التي قبل القرآن من التوراة و الإنجيل و غيرهما من كتب الله و أنما قال بين يديه لأنه قريب منه كقرب ما كان بين يدي الإنسان (و تفصيل كل شيء) يحتاج اليه في أمور الدين و الدنيا من الحلال و الحرام و غيرهما.

و في قوله: هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أي أَنَّ الكتاب و ما فيه من الأحكام و القصص هداية في الدنيا و سبب لحصول الرحمة في الآخرة و خصّ المؤمنون بذلك لأنهم هم الذين يتنفعون به كما قال تعالى: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ هذا تفسير ألفاظ الآية و لا بأس بالإشارة الى ما فيها و غيرها من الآيات المذكورة في هذه السورة من النكات و الدقائق و المواعظ بحسب الإجمال فنقول:

إِعلم أَنَّ الضمير في قصصهم عائد على الرسل، أو على يوسف و أبويه و إخوته أو عليهم و على الرسل جميعاً، ثلاثة أقوال إختاره الزمخشري.

قال و ينصره قراءة من قرأ قصصهم بكسر القاف و إختار بعضهم الثاني لأن الآية في آخر السورة و الأقرب يمنع الأبعد فالضمير يرجع الى ما ذكر فيها.

الثالث: أقوى الأقوال و هو المختار لأن الجمع مهما أمكن أولى من الطرح و اللَّفظ يحمل على عمومه إلا أن يثبت التقييد و إذ ليس فليس ثم أنّه إذا عاد الضمير على يوسف و أبويه و إخوته فالاعتبار بقصصهم من وجوه إعزاز

يوسف عليه السلام بعد إلقاءه في الحبِّ وإعلاءه بعد حبسه في السَّجن و تملَّكه مصر بعد إستبعاده وإجتماعه مع والديه وإخوته على ما أُحِبَّ بعد الفرقة الطويلة والإخبار بهذه القصص إخباراً عن الغيب والإعلام بالله تعالى من العلم والقدرة والتَّصرف في الأشياء على ما لا يخطر على بالٍ ولا يجول في فكرٍ وأتَمَّا خَصَّ أولوا الألباب لأنَّهم هم الَّذِينَ ينتفعون بالعبر ومن له لبٌّ وأجاد النَظَر ورأى ما فيها من إمتحانٍ ولطفٍ وإحسان علم أنَّه أمرٌ من الله تعالى ومن عنده والظاهر أنَّ إسم، كان، مضمَر يعود على القصص أي ما كان القصص حديثاً مختلفاً بل هو حديث صدق ناطقٌ بالحقَّ جاء به من لم يقرأ الكتب ولا تتلمذ لأحدٍ ولا خالط العلماء فمحالٌ أن يفترى هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التَّوراة من غير تفاوتٍ.

وقيل يعود الضمير على القرآن أي ما كان القرآن الذي تضمَّن قصص يوسف وغيره حديثاً يختلق ولكن تصديق الكتب الإلهية وتفصيل كلِّ شيءٍ واقع ليوسف وأبويه وإخوته.

وأما موارد العبرة في قصة يعقوب ويوسف فكثيرة جداً ينبغي للعاقل أن يتدبَّر فيها ثمَّ إعتبر بها كما قال تعالى: **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَاءِثِينَ^(١)** والذي جعل لنا منها أمور.

أحدها: أنَّ يعقوب عليه السلام كان محباً ليوسف أكثر من حبه لأخوته مع أنَّ الجميع كانوا أولاده وهذا ممَّا لا إشكال فيه فأَنَّ المحبة من الأمور القلبية المسببة عن أسباب خاصَّة كما أنَّ العداوة والبعض أيضاً كذلك فإذا كان لبعض الأولاد متصفاً بالكمالات النَّفسانية والأدب والخصال الحسنة من الدين والعفة والصدق والإطاعة فلاجرم يكون أحبَّ إلى أبيه وأمه ممَّن لا يكون كذلك وهذا ممَّا لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً إلَّا أنَّ إظهار المحبة من بين الإخوة

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثامن

الى بعضهم يوجب إشتعال نائرة الحسد في سائر الأولاد كما نرى في قصّة يوسف فكتمان المحبّة في أمثال هذه الموارد أولى وأصلح من إظهارها رغماً لأنوف الغير.

ثانيها: أنّ البليّة إذا نزلت ينبغي للإنسان أن يصبر عليه فإنّ الصّبر مفتاح الفرج كما أنّ يعقوب صبر على فراق يوسف ثمّ أتى من جانب الله الفرج بأحسن وجه هذا مضافاً الى ما أعدّه الله له في الآخرة.

ثالثاً: ينبغي أن يفوّض العبد أمره الى الله فإنّه تعالى نعم المعين، وقال قال: **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**^(١) وهذا كما أنّ يوسف فوّض أمره اليه وصبر على بلاءه والله تعالى أنجاه من المهالك والشّدائد وأجلسه على سرير الملك بعد أن شروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة.

رابعاً: ينبغي للعبد أن يعفو عمّن ظلمه فإنّ العفو من أحسن الخصال كما أنّ يوسف عفى عن إخوته.

خامساً: أن يكون شاكراً لربه فإنّ شكر المنعم واجب عقلاً وقد قال الله تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**^(٢) كما أنّ يوسف كان كذلك حيث قال: **رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**.

سادساً: أن لا نغترّ بنعم الدّنيا لأنّها في معرض الزّوال والفناء و يتوجّه الى الآخرة لأنّها دار لا زوال لها ولا فناء وهكذا وهكذا فإنّ المواعظ فيها كثيرة لمن يتعظّ بها.

قال أمير المؤمنين **(عليه السلام)**: ما أكثر العبر وأقلّ الاعتبار

ومن المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ الله تعالى لم يقصد في نقل قصّة يوسف وغيرها من القصص الموجودة في القرآن إلّا هذا أعني الاعتبار بها و الإبتعاظ لها كما قال في أول السّورة **فَخُنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**^(٣) وفي

آخِرُهَا قَالَ: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ
نَقْلِ الْقِصَصِ ذِكْرُ مَا وَقَعَ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ فَقَطْ أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: لَقَدْ
كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أَيُّ أَمَّا نَقْلُهَا لِذَلِكَ لِتَعْتَبِرُوا بِهَا
حَقَّ الْإِعْتِبَارِ وَتَسْتَيْقِظُوا مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ فَأَنَّهَا مَنِيْعُ الشُّرُورِ وَالْأَفَاتِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

* * *

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)
 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى
ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

◀ اللغة

عَمِدَ بفتح العين و الميم جمع عَمُود و هو ما يقوم عليه البيت.

أَسْتَوَى الإِسْتَوَاءُ الإِسْتِيْلَاءُ.

مَدَّ المَدَّ البَسْطَ و هو ضَدَّ القبض.

رَوَاسِيَّ بفتح الراء جمع راسية و هي الثَّبات يقال جبال راسيات أي ثابتات.

قَطَعَ مُتَجَاوِرَاتٌ قَطَعَ بكسر القاف وفتح الراء جمع قطعة و هي الجزء
و مُتَجَاوِرَاتُ أي مُتَلَاصِقَاتُ قريب بعضها من بعض.

أَعْنَابٍ جمع عَنَب و هو الكَرَم.

و نَخِيلٍ بفتح النون وكسر الخاء شَجَر التَّمَر.

صِنُونُؤُ بكَسْرِ الصَّاد صفة النَّخْل والصِّنُونُ بكَسْرِ الصَّاد وقيل بفتحها الغُصْن
الخارج عن أصل الشَّجرة يقال هما صِنُونَا نَخْلَةٍ وفلان صِنُونُ أَبِيهِ.

قال الراغب، تَنَنِيته صِنُونَان و جمعه صِنُونَان.

الْأَعْلَالُ جمع غُلِّ بضم الغين و هو طَوْقٌ يُقَيَّدُ به اليَدُ فِي الْعُنُقِ.

أَعْنَاقِهِمْ جمع عُنُق.

◀ الإعراب

تِلْكَ مبتدأُ إِبْنَاتُ الْكِتَابِ خبره وقيل، الْخَبَرُ، أَمْرًا، و قوله آيات الكتاب
بَدَلٌ أَوْ عَظْفٌ بَيَانٌ وَ الَّذِي أُنْزِلَ هُوَ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ الْحَقُّ خَبْرُهُ

وقيل، والذي، صفة للكتاب وأدخلت الواو في الصفة بِغَيْرِ عَمَدِ الجار والمجرور في موضع نَصَبٍ على الحال تقديره خالية عن عَمَدٍ وهي جمع عمود أو عمادٍ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فيه وجوه:

أحدهما: أن يكون متعلقاً بجعل الثانية والتقدير وجعل فيها زوجين إثنين من كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

الثاني: أن يكون حالاً من إثنين وهو صفة له في الأصل.

الثالث: أن يتعلّق بجعل الأولى ويكون جعل الثاني مستأنفاً.

يُغْشَى اللَّيْلُ يجوز أن يكون حالاً من ضمير إسم الله وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ الجمهور على الرّفْع بالابتداء فَعَجَبُ قَوْلُهُمْ قولهم مبتدء وعجب خبر مقدّم العجب هنا بمعنى المُعْجَب.

◀ التفسير

أَلَمَرُ هذه الحروف المقطّعة في القرآن كُلِّ واحدٍ منها إسمٌ، فألف إسمٌ يعبر به عن مثل الحرف الذي في، قال، ولام يعبر بها عن الحرف الأخير في قال وكذلك ما أشبهها والدليل على أنّها أسماء أنّ كلّاً منها يدلّ على معنى في نفسه وهي مبنية لأنك لا تريد أن تخبر عنها بشيءٍ وأنما يُحكى بها ألفاظ الحروف التي جعلت أسماء لها فهي كالأصوات نحو، غاق، في حكاية صوت الغراب وكيف كانت لا يعلم معناها في القرآن إلا الله تعالى.

في القرآن
في القرآن
في القرآن

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

في المشار إليه لقوله: تِلْكَ أقوال:

أحدها: أنّ الإشارة هنا بتلك هي إلى حروف المعجم والمراد بالكتاب هو القرآن ويصح أن يراد به التّوراة والإنجيل، (وآلهمرا) على هذا مبتدأ وتلك



المجلد الثالث

مبتدأ ثان و آيات خبر الثاني و الجملة خبر الأول و الرابط إسم الإشارة وهو، تلك.

الثاني: أن يكون الإشارة بتلك الى ما قص الله على نبيه من أبناء الرسل المشار إليها بقوله، تلك من أبناء الغيب، و الثالث أن يكون الإشارة، بتلك، الى جميع كتب الله تعالى المنزلة و يكون المعنى تلك الآيات التي قصصت عليك خبرها هي آيات الكتاب الذي أنزلته قيب هذا الكتاب الذي أنزلته اليك و أما قوله: **وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ**، فالمراد به القرآن قطعاً لا غيره لأن القرآن هو الذي أنزله الله على نبيه و قوله من ربك الحق، فقبل الحق خبر لقوله الذي و عليه فيقرأ بالرفع و قيل هو أي الحق صفة للرب أو بيان له و عليه فيقرأ بالجر و المعنى والذي أنزل اليك من ربك الحق أعني به الرب الذي لا سبيل للبطلان اليه و قد ثبت في موضعه أن الحق المطلق هو الله تعالى لأن غيره في معرض الفناء كما قيل.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكَلَّ نعيم لا محالة زائل
و أما على قول من قال أن الحق عبارة عن الخير الصديق الذي يطابق الواقع فالمعنى أيضاً واضح فإن القرآن حق بهذا المعنى أيضاً و هو تعالى أيضاً كذلك لأن إخباره صادق مطابق للواقع وقوله: **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** أي لا يصدقون بأنه كذلك بل يكفرون به إشارة الى أن الحق دائماً مع الأقل و الباطل مع الأكثر.

قال تعالى: **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ^(١).

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.

إعلم أن الرفع قد يقال و يراد به رفع الأجسام الموضوعة إذا أعليتها من مقرها كما قال تعالى: **وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الْمَطُورَ** ^(٢) و ما نحن فيه من هذا القبيل، و

قد يقال في البناء إذا طَوَّلْتَهُ ومنه قوله تعالى: **وَإِذْ يُزَفِّعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ** ^(١) أي طَوَّلَهُمَا.

و قد يقال في الذِّكْر إذا نَوَهَّتْهُ ومنه:

قال الله تعالى: **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ^(٢).

و قد يقال في المنزلة إذا شَرَّفَتْهَا ومنه:

قال الله تعالى: **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ^(٣).

إذا عرفت موارد إستعمالات الرفع فقد دريت أن المراد منه في الآية هو القسم الأول أعني به رفع الأجسام السماوية فوق رؤوسنا بقدرته الكاملة فأَنَّ سماء كل شيء أعلاه و يقال في جمعها سموات فالسَّمَوَاتُ في الحقيقة المرفوعات ففي الآية أخبر الله بما يدل على وحدانيته و كونه على صفات لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين و هو أنه تعالى قادرٌ لنفسه على ما لا يقدر عليه غيره كيف و هو الله الذي رفع السَّمَوَاتِ بغير عمدٍ ترونها،

قيل في معناه أي بغير عمدٍ مرئية و عليه فقوله: **تَرَوْنَهَا** صفة للعمد أي ليست لها عمد مرئية و هذا لا ينافي أن يكون لها عمد لأن المتني هو العمد المرئية لا مطلق العمد.

و قال بعضهم معنى الكلام أنه لا عمد لها أي أنه تعالى رفع السَّمَوَاتِ بغير عمدٍ ترونها أنه لا عمد لها فعلى الأول الضمير في قوله: **تَرَوْنَهَا** يرجع إلى العمد.

على الثاني: إلى السَّمَوَاتِ أي أنتم ترون السَّمَوَاتِ بغير عمد و الأشهر بين المفسرين هو القول الأول و يظهر من كلام الشيخ في التبيان أنه إختار القول الثاني و هو أنه لا عمد لها أصلاً فأنه قال ولو كان لها عمد لرأيت و مثله قول الشاعر:

بَلَّغَ
الْقُرْآنَ
فِي
بَيْتِهِ
الْعَمَدِ
الْقَائِمِ

جزء ١٣

العمد الطالع

على لا حب لا يهتدي لمناره، والمعنى أنه لا منار له ولقائل أن يقول لا ملازمة بين وجود العمدة والرؤية بالعين إذ لا يبعد أن يكون لها عمد غير قابل للرؤية بها.

والحاصل هو أن كل مرئي موجود وليس كل موجود قابل للرؤية وإذا كان كذلك فلها عمد إلا أنها غير قابل للرؤية بالعين وقوله: **ثُمَّ أَسْفَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ^(١) أي تسلط واستولى على العرش كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهباق
أي استولى على العراق وقوله: **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** أي ذللهما لما يريد منهما والتسخير سياقه إلى الغرض المختص قهراً وفي الكلام إشارة إلى أن المسخر لهما هو الله الذي خلقهما ومن المعلوم أن كل مخلوق مسخر لخالقه: **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى** قال ابن عباس منازل الشمس والقمر وهي الحدود التي لا تتعداها قدر لكل منهما سيراً خاصاً إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء، وقيل الأجل المسمى هو يوم القيامة فعند مجيئه ينقطع ذلك الجريان والتيسير والحق أن الأجل المسمى لا يعلمه إلا الله تعالى فإن الأجل هو الوقت المضروب لحدوث أمر وإنقطاعه ولا شك في أن المخلوق له أجل كما هو مقتضى الإمكانية وأما تعيينه فليس إلا لخالقه الذي ضرب له الأجل.

يُذَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ تدبير الأمر إنفاذه وإبرامه وعبر بالتدبير تقريباً للإفهام إذ التدبير هو النظر في إدبار الأمور وعواقبها وذلك من صفات البشر وقيل التدبير هو تصريف الأمور على ما يقتضيه مستقبل حاله في عاقبته وعليه فهو عبارة أخرى عن القضاء والقدر وتدبير السموات والأرض فيه دلالة على مدبر حكيم قد جعل جميع ذلك لما يصلح في عاقبته وعاجلته، هكذا قيل والحق أن قوله: **يُذَبِّرُ الْأَمْرَ** عام يشمل

تدبير جميع الأمور من إيجاد وإعدام وإحياء وإماتة وإنزال وحى وبعث الرسل وغير ذلك والمراد من الأمر الأعم من التكويني والتشريعي ونعني بالأول الأمر الإيجادي المشار اليه بقوله: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**^(١).

بالتاني: أوامره التشريعية التي تتعلّق بالتكاليف الشرعية كالأمر بالصلاة والصوم والحج وغيرها ويدلّ على ما ذكرناه قوله تعالى: **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ**^(٢) فقوله: **كُلُّهُ** أي كلّ الأمر تكوينياً كان أو تشريعياً وقد يعبر عنهما بعالم الخلق والأمر قال الله تعالى: **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**^(٣).

وحاصل الكلام هو أنّ تدبير الأمور بيده بل لا أمر في الحقيقة إلاّ له تعالى.

أزمنة الأمور إلى أبيده والكُل مستمدة من مدده

وقوله: **يُقَصِّلُ الْآيَاتِ**، معناه يجعلها فصولاً مبيّنة مميّزاً بعضها من بعض والأيات هنا دلائله وعلاماته في سمواته وفي غيرها فأنّها تدلّ على وحدانيته وقيل المراد بها آيات القرآن أو الكتب المنزلة وقوله: **لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** أي لكي توقنوا لقاء ثواب الله على طاعته و لقاء عقابه على معصيته فسُمّي لقاء الثواب والعقاب لقاءه مجازاً وذلك لأنّ لقاء الله على الحقيقة محال.

في القرآن تفسير القرآن

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا

ذكر في الآية السابقة أنّه هو الذي رفع السموات وسخر الشمس والقمر

الخ.



المجلد الثالث

و ذكر في هذه الآية أنه تعالى هو الذي مدَّ الأرض أي بسطها طولاً و عرضاً
ليمكن التصرف فيها و الإستقرار عليها و المدَّ في الأصل، الجَر و منه المدة
للوقت الممتد و يستفاد من الكلام أن الأرض بسطها الله طولاً و عرضاً بعد ما
لم تكن كذلك إذ لو كانت كذلك في بدء الخلق فقوله تعالى: **مَدَّ الْأَرْضَ** من
تحصيل الحاصل و هو كما ترى قال الله تعالى: **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ^(١)**.

قال الله تعالى: **وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ^(٢)**.

و منه قوله تعالى: **وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا^(٣)**.

أي بسطها من دحوت الشيء دحواً بسطته.

و قال الزاغب، في المفردات أي أزالها عن مقرها، و الحق أن الدحو البسط
وعليه أهل اللغة وفي الحديث يوم دحو الأرض أي بسطها من تحت الكعبة
اليوم الخامس والعشرون من ذي القعدة.

قال الرضا عليه السلام: هو يوم نُشِرت فيه الرحمة ودُحيت فيه الأرض.

قال بعض الشراح الحديث فيه إشكال و هو أن المراد من اليوم دوران
الشمس في فللكها دورة واحدة و قد دلت الآيات على أن خلق السموات و
الأرض و ما بينهما في ستة أيام فكيف تتحقّق الأشهر في تلك المدة.

و أجيب عنه بأن في بعض الآيات دلالة على أن الدحو متأخر عن خلق
السموات و الأرض و الليل و النهار و ذلك قول الله عز وجل:

**ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ أَسْمَاءُ بَنِيهَا، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا، وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَ
أَخْرَجَ ضُحَيْهَا، وَ الْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا^(٤)**.

ثم قال و هذا غير وافي بحل الإشكال و التحقيق أن يقال أن الظاهر من

معنى الدَّحُو كونه أمراً زائداً على الخلق وفي كلام أهل اللغة و التفسير أنه البسط و التمهيد للسكنى و تحقيق الأيام و الشهور بالمعنى الذي ذكر في الإيراد إنما يتوقف على خلق الأرض لا دحوها و التقدير بالسنة أيام إنما هو في الخلق أيضاً فلا ينافي تأخر الدَّحُو بما يتحقق معه الأشهر و عن الباقر عليه السلام لما أراد الله تعالى أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً ثم أزيد فصار زيداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلاً من زيد ثم دحى الأرض من تحته و هو قول الله عز وجل: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا** ^(١) فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة و في الدعاء (اللهم داحي المدحوات) و روي المدحيات و المدحوات الأرضون من دحا يدحوا إنتهى كلامه ^(٢).

أقول الأخبار الواردة في دحو الأرض كثيرة، و الآيات أيضاً تدل عليه و أما كيفية الدَّحُو فلا نعلمها قال الله تعالى: **وَمَا أَوْتِينَا مِنْ أَلْعَمِ إِلَّا قَلِيلًا** ^(٣) والله تعالى أعلم بحقيقة كلامه و أما قوله: **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا** أي جعل الله في الأرض بعد مدّها و بسطها رواسي و هي جمع راسية بمعنى ثابتة فالرواسي الثوابت و منه قول الشاعر:

به خالداً ما يرمن وهامدٌ وأشعت أرسية الوليدة بالقهر

و المقصود منها الجبال الراسيات و إنما لم يذكر الجبال في الآية لغلبته وصفها بالرواسي فصارت الصفة تغني عن الموصوف فجمع جمع الإسم كحائط و حوائط و كاهل و كواهل قيل والهاء في راسية للمبالغة و أنهار جمع نهر و المراد بها المياه الجارية في الأرض **وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ** لما ذكر الأنهار ذكر ما ينشأ عنها و هو الثمرات و الزوج هنا

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

٢- نقلناه عن مجمع البحرين في، دحا،

١- آل عمران = ١٠٠

٣- الاسراء = ٨٥

الصَّنْف الواحد الَّذِي هو تَقْيِضُ الإِثْنَيْنِ يعني أَنَّهُ حينَ مَدَّ الأرضَ جعلَ ذلكَ ثمَّ تَكَثَّرَتْ وَتَنَوَّعَتْ.

و قيل أَرَادَ بِالزَّوْجَيْنِ الأَسْوَدَ والأَبْيَضَ وَ الحَلَوَ وَ الحَامِضَ وَ الصَّغِيرَ وَ الكَبِيرَ وَ مَا أَشْبَهَ ذلكَ مِنَ الأصْنَافِ المَخْتَلِفَةِ.

و قال الكَرَمَانِي، الزَّوْجُ واحدٌ وَ الزَّوْجُ إثْنَانُ وَ لِهَذَا قِيدَ لِيَعْلَمَ أَنَّ المَرَادَ بِالزَّوْجِ هُنَا الفَرْدُ لَا التَّشْبِيهَ فَيَكُونُ أَرْبَعاً قِيلَ وَ خَصَّ إِثْنَيْنِ بِالذِّكْرِ وَ أَنَّ كَانَ مِنْ أَجْنَاسِ الثَّمَارِ مَا يَزِيدُ عَلَى ذلكَ لِأَنَّهُ الأَقْلَ إِذْ لَا نَوْعَ تَقْصُصَ أَصْنَافِهِ عَنْ إِثْنَيْنِ.

و قيل زَوْجَيْنِ أَيِ لَوْنَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا خُلِقَ مِنَ النَّبَاتِ وَ قَرِيشَ تَقُولُ لِلأُنْثَى زَوْجٌ وَ لِلذَّكَرِ زَوْجٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَدَمَ: **أَسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ^(١) وَ الثَّمَرِ إِسْمٌ لِكُلِّ مَا يَتَطَعَمُ مِنْ أَعْمَالِ الشَّجَرِ وَ الواحِدَةِ ثَمَرَةٌ وَ الجَمْعُ ثَمَارٌ وَ ثَمَرَاتٌ وَ قَدْ يَطْلُقُ الثَّمَرُ عَلَى غَيْرِ مَا يَتَطَعَمُ بِهِ كَمَا يَقَالُ ثَمَرَةُ العِلْمِ الصَّالِحِ وَ ثَمَرَةُ العَمَلِ الصَّالِحِ الْجَنَّةُ وَ لَكِنَّهُ مَجَازٌ وَقَوْلُهُ: **يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ** أَيِ يَجْلُلُ اللَّيْلُ النَّهَارَ وَ النَّهَارُ بِاللَّيْلِ وَ المعْنَى أَنَّهُ يَذْهَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ وَ مِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **يُكَوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ** ^(٢) وَ هَذَا مِنَ المَحْسُوسَاتِ فَإِنَّا نَرَى إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ ذَهَبَ النَّهَارُ وَ بالعَكْسِ.

تَبْيِيهُ قَوْلُهُ: **زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ** إِنَّمَا جِيءَ بِإِثْنَيْنِ بَعْدَ زَوْجَيْنِ لِلتَّأْكِيدِ وَ قِيلَ أَنَّ الزَّوْجَيْنِ قَدْ يَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَ الْأُنْثَى وَ عَلَى غَيْرِهِمَا فَأَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ أَنَّ المَرَادَ بِهِ هَاهُنَا لَوْنَيْنِ أَوْ ضَرْبَيْنِ دُونَ الذَّكُورَةِ وَ الْأُنْثَاةِ وَ ذلكَ فَائِدَةٌ لَا يَفِيدُهَا قَوْلُهُ زَوْجَيْنِ بَدُونَ إِثْنَيْنِ فَلَا تَكَرَّارًا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَ المعْنَى أَنَّ فِي مَدَّ الأرضِ وَ جَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي وَ أَنْهَارَ أَلْخِ.

لآيَاتٍ أَيِ عِلَامَاتٍ تَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الخَالِقِ وَ تَدْبِيرِهِ وَ حِكْمَتِهِ وَ عِلْمِهِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا وَ أَمَّا العَوَامُ الْجُهَالُ فَلَا.

وأعلم أن الله تعالى أمرنا بالتفكر في الآثار الدالة على وجود المؤثر لأنه أسهل طريق إلى معرفة الله التي هي الغاية في خلق الإنسان وإنما قلنا أنها أسهل لأن الآثار محسوب لكل أحد ودلالة الأثر على المؤثر أيضاً واضحة لا خفاء فيها فمن يرى الأرض ومنافعها التي تترتب على وجودها مما لا يحصيها إلا خالقها و يرى الجبال والأنهار الجارية من المياه التي بها حياة الموجودات و أصناف الثمرات التي تنشأ من الأشجار والنباتات و مجيئ الليل والنهار على سبيل التعاقب و ما يترتب عليهما لا يشك أنها لم توجد من قبل أنفسها و ذواتها بل لها خالق عالم حكيم مديّر أوجدها على أحسن النظام و إذا علم ذلك فلا محالة يحمدّه و يشكره فإن شكر المنعم واجب عقلاً والشكر الحقيقي هو الشكر العملي أعني به صرف العبد جميع ما أنعمه الله في طريق رضاه و لا نعني بالعبودية إلا هذا.

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

قلنا في شرح اللغات أن قطع بكسر القاف و فتح الطاء جمع قطعة و هي الجزء و قوله: مُتَجَاوِرَاتٌ أي متلاصقات و هي مأخوذة من الجار و المقصود أن أجزاء الأرض و إن كانت متلاصقة متدانية قريب بعضها من بعض لها طبيعة واحدة إلا أن آثارها متفاوتة فإن منها طيبة و منها سنية تنبت هذه و هذه الى جنبها لا تنبت و قيل في معنى الكلام يعني القرى المتجاورة و قيل متجاورة في المكان مختلفة في الصفة أي مخصصة الى مجدية و صالحة للزراع لا للشجر و عكسها مع إنتظام جميعها في الأرضية و قيل في الكلام حذف معطوف و التقدير و في الأرض قطع متجاورات و غير متجاورات و المتجاورات المدن و ما كان عامراً، و غير المتجاورات الصحاري كان غير عامر و قوله: وَجَنَّاتٌ مِنْ

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثاني

أَعْنَابٍ فَالْجَنَّةُ الْبُسْتَانُ الَّذِي يَجَنُّهُ الشَّجَرُ وَهِيَ مَفْصَلَةٌ مِنَ الرِّوْضَةِ وَالزَّهْرَةِ وَ
أَعْنَابٌ جَمْعُ عَنْبٍ وَهُوَ ثَمَرُ الْكَرْمِ يَقَعُ عَلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ وَالْمَعْنَى أَنَّ فِي
الْأَرْضِ بَسَاتِينَ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ قِيلَ الْمُرَادُ بِالزَّرْعِ إِقْلَاءُ الْحَبِّ
لِلنَّبَاتِ فِي الْأَرْضِ وَيُقَالُ لِمَلْقِيهِ الزَّارِعِ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ الصَّنَوَانُ
الْمُتَلَصِّقُ وَهِيَ الْفَسِيلَةُ تَكُونُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ يَقَالُ هُوَ ابْنُ أَخِيهِ صَنُو أَبِيهِ أَيْ
لِصَنُو أَبِيهِ فِي وَلَادَتِهِ وَيُقَالُ، صَنُو بَضْمٍ الصَّادُ إِذَا كَثُرَتْ وَ قِيلَ الصَّنَوَانُ
النَّخْلَاتُ الَّتِي أَصْلُهَا وَاحِدٌ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الصَّنَوَانُ النَّخْلَتَانِ أَصْلُهُمَا وَاحِدٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ أَيْ
يُسْقَى مَا ذَكَرَ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَأَبِي جَعْفَرٍ وَأَهْلُ مَكَّةَ، تُسْقَى، بِالتَّاءِ أَنْتَوُ
لِعَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى لَفْظِ مَا تَقَدَّمَ وَفِي قَوْلِهِ: بِمَاءٍ وَاحِدٍ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ لَا
تَكْثُرُ فِيهِ فَأَنَّ الْجِسْمَ الْبَارِدَ السَّيَّالَ الْمَسْمُومَ بِالْمَاءِ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ
وَاحِدٌ لِأَنَّهُ صَرَفُ الْحَقِيقَةِ لَا تَكْثُرُ فِيهِ وَأَمَّا التَّكْثُرُ بِالظُّرُوفِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ
الثَّمَرَاتِ الْمَخْتَلِفَةَ لَوْنًا وَطَعْمًا وَكَمًّا وَكَيْفًا، كَيْفَ تَنْشَأُ مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ أَلَيْسَ هَذَا
مِنَ الْعَجَائِبِ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ الْمَأْكُولِ وَ
بِفَتْحِهَا الْمَصْدَرِ وَالْمَعْنَى أَنَّ بَعْضَهَا حَلَوٌ وَبَعْضُهَا حَامِضٌ وَبَعْضُهَا مَرٌّ فِي
الْأَكْلِ وَبَعْضُهَا لَيْسَ كَذَلِكَ فَهَذَا التَّفْضِيلُ وَالْمِزِيَّةُ فِي الْأَثْمَارِ مِنْ حَيْثُ الطَّعْمُ
مِنْ أَثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَإِلَّا فَالْأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَالْمَاءُ وَاحِدٌ وَالشَّجَرُ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ
الْجِنْسُ وَاحِدٌ لِأَنَّ جِنْسَهُ الْخَشَبُ وَطَبِيعَةُ الْخَشَبِ وَاحِدَةٌ فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ
هَذِهِ الْإِخْتِلَافَاتِ فِي الْأَثْمَارِ لَوْنًا وَطَعْمًا وَكَمًّا وَكَيْفًا إِلَّا قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَفِي
الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَأَنَّهُ الْمُدَبِّرُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّجَرَةَ
تَخْرُجُ أَغْصَانُهَا وَثَمَرَاتُهَا فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ لَا تَتَأَخَّرُ عَنْهُ وَلَا تَتَقَدَّمُ ثُمَّ يَتَّصِعِدُ
الْمَاءُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عُلُوًّا عُلُوًّا وَلَيْسَ مِنْ طَبْعِهِ إِلَّا التَّسْفَلُ يَتَفَرَّقُ ذَلِكَ الْمَاءُ
فِي الْوَرَقِ وَالْأَغْصَانِ وَالثَّمَرِ كُلُّ بِقَسْطِهِ وَبِقَدْرِ مَا فِيهِ صَلَاحُهُ ثُمَّ تَخْتَلِفُ

طعوم الثّمار و الماء واحد و الشّجر جنس واحد كلّ ذلك دليل على مدبّر دبره
و أحكمه لا يشبه المخلوقات ولنعم ما قيل في الباب:

و الأرض فيها عبرة للمعتبر	تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماءٍ واحدٍ أشجارها	و بقعةٍ واحدةٍ قرارها
و الشّمس و الهواء ليس يختلف	و أكلها مختلف لا يأتلف
لو أنّ ذا من عمل الطّباع	أو أنّه صنعة غير صانع
لم يختلف و كان شيئاً واحداً	هل يشبه الأولاد إلّا الوالد
الشّمس و الهواء يا معاندا	والماء و التّراب شيء واحد
فما الذي أوجب ذا التفاضلا	إلّا حكيم لم يردّه باطلاً

وقال الآخر:

تفكر في نبات الأرض و أنظر الى أثاره ما صنع المليك
ففي رأس الزّرجد شاهدات بأنّ الله ليس له شريك
و الإنصاف أنّ الخوض في أثار صنعه يوجب الحيرة والدهشة في العقول.

و في قوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** إشارة الى أنّ العقلاء
يستدلّون بها على وحدانية الصّانع القادر و أمّا الجّهال و الغافلون فلا حظّ لهم
من كأس المعرفة يمزّون على الأرض و يرون الأثار با أعينهم و لا يعتبرون بها
أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، و لما كان الإستدلال في هذه الآية بأشياء
محسوسة في غاية الوضوح من مشاهدة تجاور القطع و الجنّات و سقيها و تفضيلها
جاء ختم الآية بقوله: **لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** بخلاف الآية التي قبلها فإنّ الإستدلال بها
يحتاج الى تأملٍ و مزيد نظرٍ جاء بقوله: **لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** كما هو واضح.

في القرآن
في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعِنَّا خَلْقٍ جَدِيدٍ
لما أقام الله الدلائل على عظيم قدرته بما أودعه من الغرائب في ملكوته
التي لا يقدر عليها سواه عجب الرّسول صلّى الله عليه وآله من إنكار المشركين وحدانيته و

توهينهم قدرته لضعف عقولهم أو عنادهم فنزلت هذه الآية و قال تعالى مخاطباً لنبيه و إن تعجب أي من تكذيبهم إياك بعد ما كانوا حكموا عليك أنك من الصادقين فهذا أعجب.

و قيل في معناه و إن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم ضرراً و لا نفعاً بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا أعجب.

و قال صاحب الكشف معناه، و إن تعجب من قولهم يا محمد في إنكار البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه لأن من قدر على إنشاء ما عدّد عليك من الفطر العظيمة و لم يعي بخلقهن كانت الإعادة أهون شيء عليه و أيسره فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب انتهى.

أقول يستفاد من الآية أنهم أنكروا البعث و إنكار البعث منهم أعجب من إنكار الرسول أو إنكار ما ذكره الله في الآيات من عجائب الخلقة لأن إنكار البعث يرجع إلى إنكار الوجود أولاً مع أن نبوته من المحسوسات و توضيحه أن منكر البعث في الحقيقة ينكر وجوده الذي هو موجود به حساً و ذلك لأن حكم الأمثال واحد.

و الوجود الأول و الثاني من سنخ واحد فإذا كان الثاني ممتنعاً فالأول أيضاً كذلك و المفروض أن الأول قد وجد و المنكر موجود به.

و إن شئت قلت الموجد واحد والوجود واحد و القدرة موجودة فكيف يوجد الأول و لا يمكن أن يوجد الثاني و هذا معنى قولنا أن إنكار البعث يرجع إلى إنكار المنكر وجوده الأول الذي هو موجود به و إنكار الوجود للموجود من أعجب الأمور فقوله تعالى: **وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْ صرنا تراباً بعد الموت في القبر إنا لفي خلقٍ جديدٍ** بعد البعث.

وجه التعجب فيه ما ذكرناه و هو أنه تعالى يحييكم كما أحياكم أولاً و لا فرق بين الوجودين إلا بالتقدم و التأخر الزماني و هو ليس بمانع و سيأتي الكلام في مسألة البعث مفصلاً إن شاء الله.

وإِعلم أنَّ ابنَ عامرٍ وأبو جعفرَ قرأَ إذا به همزةٌ واحدةٌ على الخبرِ والباقونَ به همزَتينِ على الإستفهامِ وهو الأشهرُ وعليه المصاحفُ فعلاً وأما إنَّا به همزةٌ واحدةٌ على الخبرِ نافعٍ والكسائيُّ ويعقوبُ والباقونَ به همزَتينِ على الإستفهامِ وعليه المصاحفُ أيضاً وليس هذا الإختلافُ منهم منحصراً بهذا المقامِ بل أنَّهم اختلفوا في الإستفهامينِ إذا اجتمعَا في أحدٍ عشرَ موضعاً وما نحنُ فيه أحدها وهكذا في المؤمنينِ، وفي العنكبوتِ، وفي النملِ وفي السُّجدةِ وفي الواقعةِ وفي النَّازعاتِ وفي بني إسرائيلَ في موضعينِ وكذا في الصَّافاتِ وسيأتي الكلامُ في مواضعه إن شاء الله تعالى.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لَمَّا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْجَهَّالِ أَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا بِزَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ أَنَّ الْجِسْمَ إِذَا صَارَ تَرَاباً فِي الْقَبْرِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ حَيَوَاناً وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَهُمْ ثَانِيَةً، حَكَمَ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ وَ النَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ جَحَدُوا نَعْمَ اللَّهَ وَ كَفَرُوا بِهَا وَلَمْ يَشْكُرُوا عَلَيْهَا وَ كَفَرُوا بِآيَاتِهِ وَ دَلَالَاتِهِ فَيَحْشَرُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ الْغُلُّ طَوْقٌ يَقِيدُ بِهِ الْيَدُ فِي الْعُنُقِ.

و قال بعضهم أنَّ المعنى في ذلك أنَّهم يؤاخذون بأعمالهم و هي الأغلال كما قال تعالى: **إِنَّ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** ^(١) فكأنَّهم بمنزلة من كان الغلُّ في عنقه لما لزمهم من الكفر به فقال: **وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** إخبار منه تعالى أنَّهم بعد الغلُّ في أعناقهم يجعلون في النار مؤبدين فيها معذبين بأنواع العذاب.

و قيل يحتمل أن يكون مجازاً أي هم مغلولون عن الإيمان فتجري إذا مجرى الطَّع و الختم على القلوب كما قال تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً** ^(٢) و قال الشاعر:

فَبِالْقُرْآنِ فِي فَيْضٍ تَنْصِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

الْعَدْلُ

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقيل الأغلال هنا عبارة عن أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال والأقوال المحتملة كثيره والظاهر أن عمل الكلام على معناه الحقيقي أولى من حمله على المعنى المجازي كما هو الأصل في جميع الموارد.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

لما كانوا متوعدين بالعذاب أن أضروا على الكفر وكانوا مكذبين بما أُنذروا من العذاب سألوا وإستعجلوا بالطلب أن يأتيهم العذاب وذلك على سبيل الإستهزاء كما قالوا: فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْتِزِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ^(١).

قبل أن يسألوا الإحسان، وقد خلت من قبلهم المثلات، أي العقوبات و هي جمع مثلة نحو شجرة و صدقة على ثمرات و صدقات.

هكذا قال بعض المفسرين والحق أن المثلات جمع مثلة بضم الميم وسكون الناء وهي الأفة أو جمع مثلة بفتح الميم وضم الناء وهي التنكيل وقد جاءت بمعنى ما أصاب القرون الماضية من العذاب وهذا هو المراد في الآية بدليل قوله قد خلت من قبلهم أي مضت بإنتضاءها.

قال ابن عباس المثلات العقوبات المستاصلات كقطع الأنف والأذن وغيرهما وقد يعبر عنها بالمثلة قال رسول الله ﷺ إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ، وهي قطع الأعضاء والجوارح وليس المراد في الآية هذا المعنى قطعاً إذ لم يقع شيء من هذه الأمور بهم بل المراد بها ما أصاب القرون الماضية من العذاب مثل قوم نوح و عاد و ثمود و أمثالهم و عليه فمعنى الكلام و يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة أي يطلبون منك العقوبة و العذاب من قبل الله و الحال أنهم سمعوا ما أصاب القرون الماضية من أنواع العذاب و هذا منهم عجيب ألم يعلموا أن الله على كل شيء قدير.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَرَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَرَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، الخ ^(١)...

وقال عليه السلام: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

إِنَّ الْعَمَالِقَةَ وَأَبْنَاءَ الْعَمَالِقَةِ! إِنَّ الْفِرَاعِنَةَ وَأَبْنَاءَ الْفِرَاعِنَةِ! إِنَّ أَصْحَابَ مَدَائِنِ الرَّسِّ الخ ^(٢).

وقال عليه السلام: وَلَا تَعَزَّيْنِي الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا عَزَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الخ ^(٣).

وفي قوله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ إشارة الى مقام التوبة و أَنَّ الله يعهل العبد في الدنيا لأجل التوبة منه فأنه تعالى قد وَصَفَ نفسه في كثير من الآيات بأنه غافر الذنوب و الخطيئات.

وفي قوله: عَلَى ظُلْمِهِمْ إشارة الى أَنَّ التوبة لا تكون إلا من الظلم:

قال الله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ^(٤).

قال الله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ^(٥).

قال الله تعالى: فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٦) والآيات كثيرة.

وقوله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ.

إشارة الى أَنَّ الله تعالى كما أنه يغفر الذنوب جميعاً كذلك يكون شديد العقاب لمن بقى على كفره و ظلمه و لم يرجع عما كان عليه فهو تعالى أرحم

في القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثالث

الزّاحمين في موضع العفو و الرّحمة و أشدّ المعاقبين في موضع النّقمة و قد جمع الله تعالى هاتين الصّفتين:

قال الله تعالى: **إِذْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**^(٢).

قال الله تعالى: **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ**^(٣).

و محصل الكلام في الآية هو أن لا تطلبوا العذاب من الله بل توبوا اليه من سيئات أعمالكم و أعلموا أن الله يغفر الذنوب جميعاً و أمّا في صورة البقاء على الكفر و الظلم فإنّ الله شديد العقاب كما هو مقتضى العدل بعد إتمام الحجة فإنّه تعالى قد سبقت رحمته على غضبه.



وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) غَالِمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ

دُونَهُ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
 قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
 تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ
 خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ
 خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

◀ اللغة

آية الآية العلامة.

تَغِيضُ الغِيضُ النِّقْصَانُ.

أَسْرَ الْقَوْلِ أي أخفاه.

مُسْتَخْفٍ الإِسْتِخْفَاءُ طلب الإخْتِفَاءِ.

سَارِبٌ أي مُسْتَرٍ فَإِنَّ السَّرْبَ الإِسْتَارَ.

مُعَقِّبَاتُ التَّعْقِيبِ فِي الْأَصْلِ كَوْنُ شَيْءٍ بَعْدَ آخَرٍ فَالْمُعَقِّبَاتُ الْمُتَنَاقِبَاتُ وَ

مِنْهُ الْعِقَابُ لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ عَقِيبَ الْمَعْصِيَةِ.

وَالِ هُوَ فَاعِلٌ مِنْ وَلِيٍّ يَلِيُّ فَهُوَ وَالٍ وَمَعْنَاهُ النَّاصِرُ.

الْبَرْقُ مَا يَنْقَدِحُ مِنَ السَّحَابِ مِنَ اللَّعْمَانِ كَعُمُودِ النَّارِ وَجَمْعُهُ، بَرُوقٌ، وَفِيهِ

مَعْنَى السَّرْعَةِ.

يُنْشِئُ السَّحَابَ الْإِنْشَاءَ فَعَلَ الشَّيْءُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مَوْلَدٍ، وَالسَّحَابُ

هُوَ الْغَيْمُ وَهِيَ جَمْعُ سَحَابَةٍ وَالثَّقَالُ جَمْعُ ثَقِيلٍ مِثْلُ كَرِيمٍ وَكَرَامٍ وَشَرِيفٍ
 وَشَرِافٍ.

الْصَّوَاعِقُ جَمْعُ صَاعِقَةٍ وَهِيَ نَارٌ لَطِيفَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِحَالٍ هَائِلَةٍ مِنْ شِدَّةِ

الرَّعْدِ وَعَظَمِ الْأَمْرِ.

أَلْمَحَالِ الْأَخَذُ بِالْعِقَابِ يُقَالُ مَا حَلَّتْ فَلَانًا إِذَا فَتَلْتَهُ إِلَى هَلَكِهِ وَالْمِيمُ أَصْلِيَّةٌ يُقَالُ مَحَلَّنِي يَا فَلَانُ أَيَّ قَوْنِي.

◀ الإعراب

قَبْلَ الْحَسَنَةِ ظَرْفٌ لِيَسْتَعْجِلُونَكَ وَقِيلَ أَنَّهُ حَالٌ مِنَ السَّيْئَةِ مَقْدَرَةٌ عَلَى ظَلَمِهِمْ حَالٌ مِنَ النَّاسِ وَالْعَامِلُ الْمَغْفِرَةُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ هُوَ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ وَ قِيلَ هُوَ خَبَرٌ وَالْمَبْتَدَأُ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ وَهُوَ لِكُلِّ قَوْمٍ عَادٍ مَا تَحْمِلُ فِيهِ وَجِهَانُ:

أحدهما: أن، ما، بمعنى الذي، وموضعها نصب بـيعلم.

الثاني: هي إستفهامية فتكون منصوبة بتحمل والجملة في موضع نصب ومثله وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ، عِنْدَهُ فِي مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةٍ لَشَيْءٍ أَوْ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةٍ، لِكُلِّ وَالْعَامِلُ فِيهِ عَلَى الْوَجْهِينِ مَحذُوفٌ وَ خَبَرُ كُلِّ بِمَقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ خَبَرُ مَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ أَيْ هُوَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَبْتَدَأً وَ الْكَبِيرُ خَبَرُهُ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلُ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَ سَوَاءُ خَبَرٍ، وَ مِنْكُمْ، حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي سَوَاءٍ لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِ مُسْتَوٍ.

وقيل حال من الضمير في أسر وجهر، وهو ضعيف لأنه يلزم تقديم ما في الصلة على الموصول أو الصفة على الموصوف وتقديم الخبر على، منكم، وحقه أن يقع بعده لهُ مُعَقِّبَاتٌ واحداً، معقبة والهاء فيها للمبالغة مثل نسابة معقبة صفة للجمع ثم جمع على ذلك من بين يديه صفة لمعقبات وقيل ظرف أنه حال من الضمير الذي فيه ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله، يحفظونه أي معقبات يحفظونه من بين يديه خلفه من أمر الله من الجن والإنس فتكون، من على بابها وقيل من، بمعنى الباء أي بأمر الله خوفاً وطمعا مفعول من أجله.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ قِيلَ هُوَ هُوَ مَلِكٌ، فعلى هذا قد سمي بالمصدر و قيل، الرعد، صوته أَلْمَحَالُ بكسر الميم فعال من المحلّ و هو القوة وفيه لغة أخرى و هي فتح الميم كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ و التقدير إلا إستجابة كإستجابة باسط كَفَيْهِ و المصدر في هذا التقدير مضاف الى المفعول و فاعل هذا المصدر مضمّر و هو ضمير الماء أي لا يجيبونهم إلا كما يجيب الماء باسط كَفَيْهِ اليه و الإجابة هنا كناية عن الإنقياد لِيُنَلِّغَ فَاهُ اللَّامُ متعلّقة، بباسط و الفاعل ضمير الماء أي ليلغ الماء فاه و الكاف في، كباسط قيل أنّها حرف و قيل أنّها إسم فعلى الأول فيها ضمير يعود على الموصوف.

المحذوف و على الثاني فلا ضمير فيها.

◀ التفسير

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

أخبر الله في هذه الآية أنّ الكفار و هم مشركوا العرب أو من أنكر نبوته من مشركيهم و الكفار و لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كإنشقاق القمر و انقياد الشجر و إنقلاب العصا سيفاً و نبع الماء من بين الأصابع و أمثال هذه فإقترحوا عناداً آيات كالتفجير للينوع و الرقي في السماء و الملك و الكنز و نقل جبال مكة عن أماكنها لتتسع على أهلها و إنزال الكتاب من السماء الى الأرض يقرأون فيه الأمور التي دعاهم اليها فقال الله تعالى لنبيه ليس أمر الآيات اليك أنما أمرها الى الله ينزلها على ما يعلمه من مصالح العباد و أنما أنت منذر تخوفهم من سوء العاقبة و ناصح كغيرك من الرسل و لكل قوم هادي يهديهم الى الحق و فيه أقوال:

أحدها: ما عن ابن عباس أنّ الهادي هو الداعي الى الحق.

الثاني: ما عن مجاهد وابن زيد و قتادة أنه نبي كل أمة.

الثالث: عن ابن عباس في رواية أخرى وسعيد بن جبير أن الهادي هو الله.

الرابع: عن الحسن وعكرمة أنه محمد.

الخامس: ما روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن الهادي هو إمام كل عصر

معصوم يؤمن عليه الغلط وتعمد الباطل ذكر هذه الوجوه في التبيان.

وقال بعضهم، هادٍ، يحتمل أن يكون معطوفاً على منذر وفصل بينهما بقوله: **وَ لِكُلِّ قَوْمٍ** وبه قال عكرمة وأبو الضحى فإن أخذت، هادٍ، على حقيقته فلكل قوم مخصوص أي ولكل قوم قائلين هادٍ، وإن أخذت على العموم فمعناه أنه منذر وداع إلى الهدى كما قال بعثت إلى الأحمر والأسود هذا ما قالوه في تفسير الآية فنقول:

أما قوله: **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَمَعْنَاهُ** هادٍ أنزل عليه آية من تفجير الأنهار ونقل جبال مكة وهكذا فقال تعالى: **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** وليس إنزال الآية بيدك وهذا مما لا خلاف فيه وأما الكلام في قوله: **وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** هل هو الرسول أو غيره والظاهر أنه غير الرسول وذلك لأن المنذر هو رسول الله ﷺ بلا كلام فلو كان المراد بالهادي أيضاً رسول الله فحق العبارة أن يقال إنما أنت منذرٌ و هادٍ لكل قوم لئلا يفصل بين المنذر والهاد أعني المعطوف والمعطوف عليه وعلى مسلك القوم يلزم الفصل وهو لا يجوز إلا عند الضرورة.

وعليه فالحق أن الكلام يتم في قوله منذر والواو في قوله ولكل قوم هاد ليس للعطف بل هي للإستئناف فقوله ولكل قوم هاد جملة مستأنفة وأما أن الهادي من هو، فنحن نقول أنه الإمام المعصوم أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام وأخبرهم المهدي الموعود وأما نقول به لأن الهادي في كل قوم لو لم يكن معصوماً فهو كغيره من أحاد القوم فكيف يكون هادياً.

ثانياً: أُنَّ اللَّهُ تعالى جعل الهادي عدلاً للمنذر و المنذر يكون معصوماً قطعاً فكذا الهادي.

قال الله تعالى: أَقْمَنُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(١).

و ما ذكرناه في المقام في المراد بالهادي مؤيد بالأخبار أيضاً، فمن العامة:

ما رواه الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل بأسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت أنما أنت منذر، و لكل قوم هادٍ، قال رسول الله ﷺ أنا المنذر و علي الهادي من بعدي و ضرب بيده الى صدر علي فقال أنت الهادي بعدي يا علي بك يهتدي المهتدون انتهى.

و بأسناده عن حسن بن حسين به سواء قال لما نزلت أنت منذر قال رسول الله ﷺ أنا يا علي المنذر و أنت الهادي بك يهتدي المهتدون بعدي انتهى.

و بأسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ ليلة أسري بي ما سألت ربي شيئاً إلا أعطانيه و سمعت منادياً من خلفي يقول يا محمد إنما أنت منذر و لكل قوم هادٍ، قلت أنا المنذر فمن الهادي قال علي الهادي المهتدي القائد أمتك الى جنتي غزاء محجلين برحمتي انتهى.

و بأسناده عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ، قال هو علي عليه السلام انتهى.

و بأسناده عن أبي برزة قلا سمعت رسول الله ﷺ يقول: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ثُمَّ يَرُدُّ يَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ، و يشير الى علي بيده انتهى.

وبأسناده عن أبي هريرة في قوله أنما أنت منذر يعني رسول الله
وفي قوله: وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ قَالَ سألت عنه رسول الله فقال أُنَّ
هادي هذه الأمة علي بن أبي طالب انتهى^(١).

اقول ذكر الحافظ الحسكاني في كتابه روايات كثيرة بطرق مختلفة أراد
الاطلاع على تفصيلها فعليه بمراجعة كتابه فإن الأخبار الواردة في الباب في
حدّ التواتر وأما المفسرون فمن العامة.

ماراوه الطبري بعد نقله سائر الأقوال ما هذا لفظه.

وقال آخرون هو علي بن أبي طالب.

حدّثنا أحمد بن يحيى الصوفي بأسناده عن سعيد بن جبير عن ابن
عبّاس قال لما نزلت إني أنما أنت منذرٌ و لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ وَضَعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يده على صدره فقال أنا المنذر و لكل قوم هادٍ بيده إلى منكب علي
فقال أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون بعدي انتهى.

و منهم السيوطي في تفسيره المسمّى بالدّر المنثور بأسناده قال لما نزلت
إني أنما أنت منذرٌ و لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ و ساق الحديث كما نقلناه عن الطبري.

و أيضاً بأسناده عن أبي برزة الأسلمي أنه قال سمعت رسول الله
يقول: إني أنما أنت منذرٌ و وضع يده على صدر نفسه ثم وضعها على
صدر علي و يقول لكل قوم هاد انتهى.

و بأسناده أيضاً عن ابن عباس قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنذر و لا
هادي علي بن أبي طالب انتهى.

و قد أنكره بعض المعاندين من مفسري العامة أمثال البيضاوي والألوسي،
و مؤلف تفسير روح البيان والزّمخشري في الكشف فأنهم ذهبوا إلى أنّ
الهادي هو الله و أخذوا ذلك من الزّمخشري حيث قال: وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ أي

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد
١٣

قادر على هدايتهم بالإلجاء وهو الله تعالى و قال في معنى المنذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم و لست بقادر عليه.

أقول أنظر الى كلماتهم و تحقيقاتهم في تفسير كلام الله ثم قل لعنة الله على من فسّر القرآن برأيه و كيف يقول العاقل أن قوله: وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ هو الله لأنه القادر على هدايتهم بالإلجاء و زاد الألوسي في رُوح المعاني نعمة أخرى لا بأس بالإشارة اليه حتى تعلم مبلغ علمه و فهمه و تفق على عناده و لجاجه قال ما هذا لفظه.

و إستدل بذلك الشيعة على خلافة عليّ كرم الله وجهه بعد رسول الله بل فصل و أجب بأننا لا نسلم صحة الخبر و تصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند أهل الأثر و ليس في الآية دلالة على ما تضمّنه بوجه من الوجوه على أن قصارى ما فيه كونه كرم الله وجهه به يهتدي المهتدي بعد رسول الله و ذلك لا يستدعي إلا لثبات مرتبة الإرشاد و هو أمرٌ، والخلافة التي نقول بها أمرٌ لا تلازم بينهما عندنا.

و قال بعضهم أن صحّ الخبر يلزم القول بصحة خلافة الثلاثة حيث دلّ على أنه كرم الله وجهه على الحقّ فيما يأتي و يذر و أنه الذي يهتدى به و هو قد بايع أولئك الخلفاء طوعاً و مدحهم و أثنى عليهم خيراً و لم يطعن في خلافتهم فينبغي الإقتداء به و الجري على سننه في ذلك و دون إثبات خلاف ما أظهر خرط القتاد انتهى كلامه.

أقول أنظر الى هذه الأراجيف التي لا يقول بها عاقل فضلاً عمّن يدعي العلم و الفضل ألا ترى أنه يقول لا نسلم صحة الخبر و لا يقول صحة الأخبار و المفروض أن الأخبار الواردة في الباب من الطرفين كثيرة جداً.

ثانياً: أن إنكار شيء بغير دليل يدلّ على قلة عقل منكره أو عناده.

ثالثاً: قوله إن صحّ الخبر يلزم القول بصحة خلافة الثلاثة بدليل أنه عليه السلام

بايعهم طوعاً و مدحهم و أثنى عليهم الخ يدل على قلة إطلاعه بالآثار أو تعصبه و عناده بالنسبة الى أهل البيت و ما جرى عليهم من الخلفاء الغاصبين المطرودين و إلا فمن كان مطلعاً و راعى جانب الإنصاف لا يقول ذلك و يعلم أن أمير المؤمنين لم يبايعهم إلا كرهاً و جبراً و لم يمدحهم أصلاً بل كان يذمهم أشد الذم لدى الفرصة و لم يثن عليهم أبداً و كيف يعقل أن أمير المؤمنين و هو هو يمدح أو يثنى من يستحق الذم أليس أمير المؤمنين عليه السلام يقول في الخطبة المعروفة بالشقشقية:

أَمَا وَ اللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنْهُ السَّيْلُ وَ لَا يَزْفَى إِلَى الطَّيْرِ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَ طَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَ طَفَّقْتُ أَرْتَأَى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بَيْدٍ جَذَاءً، أَوْ أَضْبِرَ عَلَى طَلْحِيَّتِهِ عَمِيَاءَ، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَ يَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَ يَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاطَا أَجْحَى، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَى أَرَى تَرْبَى نَهْباً حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَيْبِلِهِ، فَأَذَلِي بِهَا إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ ^(١).

(فلان) بعده فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لأخر بعد وفاته و ساق الكلام الى أن قال في عثمان الى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله و معتملفه و قام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتته الربيع الى أن انتكت عليه فتله و أجهز عليه عمله كبت به بطنته، فهذا مدح على عليه السلام عن الخلفاء الثلاثة فأن كان ما ذكره أمير المؤمنين في هذه الخطبة و غيرها مدحاً و ثناءً على الخلفاء فالحق مع الألوسي و أن كان ذمّاً فكيف يقول أنه مدحهم و أثنى عليهم.

نعم للألوسي و أمثاله أن يقولوا بعدم إعتبار الخطبة أو الكتاب إذ لا دليل لهم على ردّ الحق سوى الإنكار و هو استدلال العجائز و ضعفاء العقول و في

نبأ القرقان في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

خاتمة الكلام نقول لعنة الله على الكاذبين المفترين و لولا مخافة الإطالة وخروج الكتاب عن موضوع التفسير لقلنا في جوابه ما يليق به وأقمنا البراهين القاطعة من العقلية والنقلية على رده والله تعالى من وراء القصد.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

قال الزمخشري، ما في ما تحمل وما تغيض وما تزداد أما موصولة و أما مصدرية فإن كانت موصولة فالمعنى أنه يعلم ما تحمله الأنثى من الولد على أي حال هو، من ذكورة وأنوثة و تمام و خداج و حسن و قبح و طول و صر و غير ذلك من الأحوال الحاضرة المترتبة و يعلم ما تغيضه الأرحام أي تنقصه و ما تزداده أي تأخذه زائداً و مما تنقصه الرحم و تزداده عدد الولد فأنها تشتمل على إثنين وثلاثة وأربعة و منه جسد الولد فأَنْ يكون تاماً و مخدجاً و منه مدة ولادته فأنها تكون أقل من تسعة أشهر و أزيد عليها الى ستين عند أبي حنيفة و الى أربع عند الشافعي و الى خمس عند مالك و قيل أَنْ الضحاك ولد لستين و هرم بن أبي حبان بقى في بطن أمه أربع سنين و منه الدَّم فأنه يقل و يكثر هذا أن كانت، ما، موصولة و أن كانت مصدرية فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى و يعلم غيض الأرحام و إزديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك و من أوقاته و أحواله و قال في قوله: بِمِقْدَارٍ بِقَدَرٍ واحد لا يجاوزه و لا ينقص منه كقوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(١) الكبير، العظيم الشأن الذي كل شيء دونه (المتعال) المستعلي على كل شيء بقدرته أو الذي كبر عن صفات المخلوقين و تعالى عنها، انتهى كلامه.

و قال القرطبي و اختلف العلماء في تأويل قوله: وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ فقال قتادة ما تسقط قبل التسعة الأشهر و ما تزداد فوق التسعة.

وكذلك قال ابن عباس، و قال مجاهد إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها فإن زادت على التسعة كان تماماً لما نقص و عنه الغيض ما تنقصه الأرحام من الدّم و الزيادة منه.

و قيل الغيض و الزيادة يرجعان الى الولد كنقصان إصبع أو غيرها و زيادة إصبع أو غيرها، و قيل الغيض إنقطاع دم الحيض و ما تزداد بدم النّفس بعد الوضع انتهى.

أقول يحصل من كلام القرطبي أنّ الغيض قد يقال و يراد به ما تسقط قبل التسعة الأشهر، و قد يراد به ما تنقصه الأرحام من الدّم، و قد يراد به نقصان العضو، و قد يراد به إنقطاع دم الحيض فالأقوال في معناه أربعة.

و قال الرّازي إختلفوا فيما تغيضه الرّحم و تزداده على وجوه:
الأوّل: عدد الولد فإنّ الرّحم قد يشتمل على واحد وإثنين و على ثلاثة و أربعة و يروى أنّ شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه.
الثاني: الولد قد يكون مخدجاً و قد يكون تاماً.

الثالث: مدّة ولادته قد تكون تسعة أشهر و أزيد عليها الى ستين عند أبي حنيفة و الى أربع عند الشافعي و الى خمس عند مالك.

الرابع: الدّم فأنّه تارة يقلّ و تارة يكثر.

الخامس: ما ينقص بالسقط من غير أن يتمّ و ما يزداد بالتّم.

السادس: ما ينقص بظهور دم الحيض و ذلك لأنّه اذا سال الدّم في وقت الحمل ضعف الولد و نقص و بمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتضيق هذه الزيادة جابرة.

السابع: أنّ دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فاذا امتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت و خرجت و سالت من دواخل تلك العروق انتهى كلامه.

أقول أمّا قوله: **اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى** فلا خفاء فيه من حيث المعنى و ذلك لأنّ الخالق أعرف بحال مخلوقه منه نفسه واللّهُ تعالى خالق كلّ

شيء سواء كان في الأرحام أم في غيرها كالملائكة فلا محالة يعلم ما تحمل كل أنثى حيواناً كان أو إنساناً والحمل بفتح الحاء ما كان في البطن و بكسرهما ما كان على الظهر و عليه فالمعنى أنه تعالى يعلم ما تحمل كل أنثى في بطنها من علقة أو مضغة و من ذكرٍ أو أنثى أو ناقص أو كامل و بالجملة على جميع صفاته و حالاته و هو ظاهر.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ أَيُّ مَا يَنْقُصُ وَمَا يَزْدَادُ مِنْ جِهَةِ الْكَمِّ وَالْكَيفِ فَإِنَّ النِّقْصَ وَالْزِّيَادَةَ تَارَةً يَكُونُ بِحَسَبِ الْكَيْفِيَّةِ وَ أُخْرَى بِحَسَبِ الْكَمِّيَّةِ وَ كِلَاهُمَا مُرَادٌ.

أَمَّا الْكَيْفِيَّةُ فَكَمَا أَنَّ يَكُونُ الْوَلَدُ سَعِيداً أَوْ شَقِيئاً بِحَسَبِ عِلْمِهِ تَعَالَى لَا بِحَسَبِ ذَاتِهِ وَأَنَّ يَكُونُ صَبِيحاً أَوْ قَبِيحاً وَأَنَّ يَكُونُ أبيضاً أَوْ أَسوداً وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْحَالَاتِ.

وَأَمَّا الْكَمِّيَّةُ فَكَمَا أَنَّ يَكُونُ ضَعِيفاً أَوْ سَمِيناً وَاحِداً أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ، نَاقِصاً أَوْ تَمَاماً بِحَسَبِ الْجِسْمِ وَ غَيْرَ ذَلِكَ كُلِّ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ قَبْلَ وَ لَادَتِهِ وَ يَدْخُلُ فِي النِّقْصِ وَ التَّمَامِ أَنَّ يُولَدُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْغِيْضَ النِّقْصَانَ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النِّقْصَ وَ الزِّيَادَةَ مِنَ الْمُتَاضِفِينَ وَ عَلَى هَذَا فَمُرَاتِبُهُمَا مُخْتَلِفَةٌ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْعَامَّةِ أَنَّ الْوَلَدَ قَدْ يَكُونُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ سِتَّةَ أَوْ ثَلَاثَةَ أَوْ أَرْبَعَةَ أَوْ خَمْسَةَ عَلَى مَا مَرَّ بَيَانُهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ قَطْعاً فَإِنَّ أَقْلَ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَ أَكْثَرُهُ تِسْعَةٌ.

وَقَدْ وَرَدَتْ رَوَايَةٌ فِي السُّنَّةِ وَهِيَ شَاذَّةٌ لَا يَعْمَلُ بِهَا وَ أَمَّا أَكْثَرُ مِنَ السُّنَّةِ فَلَا يَكُونُ قَطْعاً وَ لَمْ يَوْجَدْ أَصْلاً وَ مِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنْ غَيْرِ أَبِيهِ قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّافِعِيَّ وَلَدَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ بِأَرْبَعِ سَنَةٍ قَالُوا بَقِيَ تِلْكَ الْمَدَّةُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ لِأَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ كَانَ حَيّاً وَ نَظِيرَ ذَلِكَ قَالُوا فِي مَالِكٍ وَ غَيْرِهِمَا وَ لِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ أُخَرُ فَلَيْسَ هَذَا أَوَّلُ قَارُورَةٍ كَسَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ.

وقوله: **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** فيه قولان:

أحدهما: أن جميع ما يفعله الله على مقدار ما تدعوا اليه الحكمة من غير نقصان ولا زيادة.

الثاني: أن معناه **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** في الرزق والأجل والمقدار مثال يقدر به غيره وقيل المقدار يطلق على القدر وعلى ما يقدر به الشيء وعموم قوله: **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** أي بحد لا يتجاوز عنه ولا تقصير عنه. وقال ابن عباس وكل شيء من الثواب والعقاب عنده بمقدار أي بقدر الطاعة والمعصية.

وقال الآخر معناه، من الغيظ والإزدياد، وقيل صحة الجنين ومرضه وموته وحياته ورزقه وأجله وهكذا غيرها من الأقوال وأنت ترى أن حملها على التمثيل أولى من حملها على التخصيص الذي لا دليل عليه. أقول الذي يقوي في نفسي في معنى الكلام هو أن الأصل في هذا الحكم، عدله تعالى وتوضيحه إجمالاً.

هو أن الله تعالى عادل ولا شك فيه عقلاً ونقلاً والعدل عبارة عن وضع الشيء في محله كما أن الظلم وضعه في غير محله فمعنى قوله: **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** أنه تعالى وضع كل شيء في موضعه ولم يتجاوز عنه لأنه ظلم فالمراد بالمقدار هو الحد، بأن لكل شيء حداً معيناً.

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا^(١)**.

قال الله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ^(٢)**.

ففي هذا الكلام إشارة في الحقيقة إلى علمه وعدله لأن العدل بدون العلم لا يتحقق ولعله لذلك قال بعد هذا الكلام **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ**

فيلاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

الْمُتَعَالِ أَي كَيْفَ لَا يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى عَالَمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ يَعْلَمُ الْمَوْجُودَ وَالْمَعْدُومَ وَالظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ أَي هُوَ السَّيِّدُ الْمُقْتَدِرُ وَ الْمُتَعَالَى الْمُقْتَدِرُ بِمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْهُ فِي الْإِقْتِدَارِ أَوْ مُسَاوِيًّا لَهُ فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ كُلِّ قَادِرٍ.

و قِيلَ فِي مَعْنَى الْمُتَعَالِ أَنَّهُ الْمُسْتَعْلَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ أَوْ الَّذِي كَبُرَ عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ وَتَعَالَى عَنْهَا، وَ قِيلَ الْمُتَعَالَى عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِ.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ

لَمَّا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ عَلَى غَيْرِهِ بِسَعَةِ قُدْرَتِهِ أَوْضَحَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، أَي عِلْمُهُ بِالْأَشْيَاءِ لَا يَخْتَصُّ بِالظُّوْهِرِ مِنْهَا بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِهَا عَلَى إِبْتِلَاحِ حَالَاتِهَا فَهُوَ عَالِمٌ بِمَا يَسِرُّ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَي يَخْفِيهِ أَوْ يعلِّنُهُ، أَوْ يَسْتَرُّ بِاللَّيْلِ أَوْ يَسْرِبُ بِالنَّهَارِ أَي يَظْهَرُ بِالنَّهَارِ.

و قَالَ مُجَاهِدٌ أَي مُسْتَخْفٍ بِالْمَعَاصِي، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْتِخْفَاءِ وَالْإِسْرَارِ هُوَ أَنَّ الْإِسْتِخْفَاءَ طَلَبُ الْإِخْتِفَاءِ وَالْإِسْرَارَ إِخْفَاءُ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ فَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِأَسْرَارِكُمْ كَمَا أَنَّهُ عَالِمٌ بِإِعْلَانِكُمْ وَ عَالِمٌ بِمَا تَسْتَخْفُونَهُ بِاللَّيْلِ وَ مَا تَفْعَلُونَهُ بِالنَّهَارِ ظَاهِرًا وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِينَ فَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَ هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَ هُوَ وَاضِحٌ بِحَمْدِ اللَّهِ عِنْدَ أَهْلِهِ.

في القرآن
في تفسير القرآن



الجزء الثالث

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ

اختلفوا في الهاء في قوله: وَلَهُ، الى من ترجع ف قيل أَنَّهَا ترجع على إسم النبي من قوله أَنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ.

و قيل على إسم الله في قوله عالم الغيب و الشَّهادة، و قيل على من، في قوله من أَسْرَ القول و من جهر فكأنَّه قال للإنسان معقبات و أكثر المفسرين على أَنَّهَا ترجع على، من، و هو الأخير من الأقوال المذكورة و ذلك لِما تَقَدَّمَ أَنَّ من أَسْرَ القول و من جهر به و من إستخفى بالليل و سرب بالنَّهار مستوفي في علم الله لا يخفى عليه من أحوالهم شيء فذكر أَنَّ لذلك المذكور معقبات أى جماعات من الملائكة تعقب في حفظه و كلاءته و معقَّب وزنه مفعَّل من عقب الرَّجل اذا جاء على عقب الآخر لأنَّ بعضهم يعقب بعضاً أو لأنَّهم يعقبون ما يتكلَّمون به فكيتبونه.

و قال الزَّمخشرى و الأصل معتقبا و أدغمت التاء في القاف كقوله وجاء المعذَّرون يعني المعتذرون و يجوز معقبات بكسر العين و لم يقرأ به إنتهى.

و أورد عليه بأنَّ التاء لا تدغم في القاف و لا القاف في التاء و أمَّا تشبيهه بقوله و جاء المعذَّرون فلا يتعيَّن أن يكون أصله المعتذرون.

و أمَّا قوله: و يجوز مُعَقِّبات بكسر العين فهو كذلك بناء على صَحَّة الإدغام و إلَّا فلا.

و قال الطَّبْرى اختلف أهل التَّأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معناه، لِّلَّهِ تعالى معقبات قالوا، الهاء في قوله لَهُ، من ذكر إسم الله و المعقبات التي تَتَّعِب على العبد و ذلك أَنَّ ملائكة اللَّيل اذا سعدت بالنَّهار أعقبتها ملائكة النَّهار فاذا إنقضى النَّهار سعدت ملائكة النَّهار ثمَّ أعقبتها ملائكة اللَّيل و واحد الملائكة معقَّب و جماعتها معقَّبة ثمَّ جمع جمعه أعني جمع معقَّب بعد ما جمع معقَّبة و قيل معقَّبات كما قيل أبناوات سعد و رجالات بني فلان جمع رجال.

وقوله: **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ** يعني من قدام هذا المستخفي بالليل و سارب بالنهار و من خلفه من وراء ظهره ثم ذكر في الباب أحاديث كثيرة دالة على أنَّ المراد بالمعقبات الملائكة يحفظونه من أمر الله انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أَقُولُ أما قوله: **أَنَّ الهاء في قوله لَهُ** ترجع الى الله فهو أحد الأقوال في المسألة و له وجهٌ و أما قوله **أَنَّ معقبة جمع معقب** ثم جمعت على معقبات فهي جمع الجمع كرجل و رجال و رجالات فليس الأمر كما ذكره و ذلك لأنَّ معقبة ليست جمع معقب على التحقيق بل الهاء في معقبة للمبالغة فيكون كرجل نسابة فالمعقبات جمع معقبة و هي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى جمعت باعتبار كثرة الجماعات فقوله هي جمع الجمع لا وجه له.

و أما أنَّ المعقبات هي الملائكة الحفظة فهو حقٌ و أنما يقال لهم معقبات لأنهم يعقبون أفعال العبد و أقواله فيكتبونها و قيل هم عشرة أملاك على كل آدمي تحفظه من شرِّ المهالك و المعاطب فإذا جاء القدر خلوا بينه و بينه. قال الراغب في المفردات، **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ** أي ملائكة يتعاقبون عليه حافظين له هذا ما قالوه في تفسير كلام الله.

و قال علي بن إبراهيم في تفسير قوله: **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ** الى قوله: **مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**. أنها قرأت عند أبي عبد الله **عَلَيْهَا** فقال **عَلَيْهَا** لقارءها ألستم عرباً فكيف تكون المعقبات من بين يديه و أنما المعقب من خلفه فقال الرجل جعلت فداك كيف هذا فقال **عَلَيْهَا** أنما نزلت، له معقبات من خلفه و رقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله، و من ذا الذي يقدر أن يحفظ الشئ من أمر الله و هم الملائكة الموكلون بالناس.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر **عَلَيْهَا** في قوله: **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** يقول بأمر الله من

أَنْ يَقَعَ فِي رَكْبِي جَمْعَ الرُّكْيَةِ الْبُئْرُ وَيَقَعَ عَلَيْهِ حَائِطٌ أَوْ يَصِيبُهُ شَيْءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَدْرَ خَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَدْفَعُونَهُ إِلَى الْمَقَادِيرِ وَهُمَا مَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ بِاللَّيْلِ وَبِمَلَكَانِ بِالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِهِ انْتَهَى.

وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.

و اختلف في المُعَقَّبَاتِ عَلَى أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ يَتَعَاقَبُونَ تَعَقُّبَ مَلَائِكَةِ اللَّيْلِ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ وَبِالعَكْسِ وَهُمْ الْحَفَظَةُ يَحْفَظُونَ عَلَى الْعَبْدِ عَمَلَهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى الْمَقَادِيرِ فَيَخْلُتُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَهَى.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مَا فِي قَوْلِهِ: مَا يَقُومُ كِنَايَةً عَنِ النَّعْمِ وَفِي قَوْلِهِ: مَا بِأَنْفُسِهِمْ كِنَايَةً عَنِ النَّيِّاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْعِبَادِ وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَغَيِّرُ نِعْمَهُ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعِبَادِ سِوَا مَا كَانَتْ مِنْ جِنْسِ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ وَالْمَلْبُوسَاتِ أَمْ كَانَتْ مِنْ قَبِيلِ الْمَعْنَوِيَّاتِ الْعَقْلِيَّاتِ مِثْلَ التَّوْفِيقَاتِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَأَفْعَالِ الْخَيْرَاتِ وَرَاحَةِ الْجِسْمِ وَالفكرِ وَالْأُمْنِيَّةِ وَالرِّفَاحِيَّةِ وَالنَّشَاطِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ حَتَّى يَغَيِّرُوا النَّيِّاتِ وَالْأَعْمَالِ فَإِذَا غَيَّرُوهَا وَبَدَّلُوهَا بِالشَّرِّ وَالْأَفَاتِ وَالْفَسَادِ فَاللَّهُ تَعَالَى أَيْضاً يَغَيِّرُهَا فَكَأَنَّ النَّعْمَ الْإِلَهِيَّةَ بِمَنْزِلَةِ الْمَعْلُولِ وَالنَّيِّاتِ وَالْأَعْمَالِ بِمَنْزِلَةِ الْعَلَّةِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّغْيِيرَ فِي الْعَلَّةِ وَالسَّبَبِ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّغْيِيرِ فِي الْمَعْلُولِ وَالمسبب.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(١).

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

قال الله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^(١).

و عن كتاب معاني الأخبار بأسناده الى أبي خالد الكابلي قال سمعتُ زين العابدين عليه السلام يقول الذنوب التي تغيّر النعم، البغي على الناس، والزّوال عن العادة في الخير، وإصطناع المعروف، وكفران النعم وترك الشكر قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمُ الحديث.

و عن أصول الكافي بأسناده عن سُدير قال سأل رجلُ أبا عبد الله عن قول الله عزّ وجلّ: فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ^(٢) فقال عليه السلام هؤلاء قومٌ كانت لهم قُرَى متّصلة ينظر بعضهم الى بعضٍ و أنهارٌ جارية و أموال ظاهرة فكفروا نعم الله عزّ وجلّ و غيّرُوا ما بأنفسهم من عافية الله فغيّر الله ما بهم من نعمة و إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حَتَّى يغيّروا ما بأنفسهم فأرسل اليهم سيل العرم فغرق قراهم و خرب ديارهم و أذهب بأموالهم و أبدلهم مكان جنّاتهم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ و أُثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ^(٣) ثمّ قال ذلك جزيناهم و هل نجازي إلّا الكفور انتهى.

و عن أبي عمرو المدايني عن أبي عبد الله قال عليه السلام أنّ أبي كان يقول أنّ الله قضى قضاءً حتماً لا ينعم على عبده نعمة فيسلبها إيّاه قبل أن يحدث العبد ذنباً يستوجب بذلك الذنب سلب تلك النعمة قول الله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمُ انتهى.

و ليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد العقوبة إلا بعد أن يتقدم منه ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير.

قال بعض المفسرين لما ذكر تعالى إحاطة علمه بخفايا الأشياء و جلاليها و أن الملائكة تعقب على المكلفين لضبط ما يصدر منهم خيراً كان أو شراً ذكر بعد ذلك أن ما خولهم فيه من النعم و أسبغ عليهم من الإحسان لا يزيله عنهم الى الانتقام منهم إلا بكفر تلك النعم و إهمال أمره بالطاعة و إستبدالها بالمعصية فكان في ذكر ذلك تنبيه على لزوم الطاعة و تحذير لوبال المعصية و الظاهر أن لا يقع تغير النعم بقوم حتى يقع تغيير منهم بالمعاصي و هذا الموضع مؤول لأنه صحّ الخبر بما قدّرت الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة و بالعكس و منه:

قال الله تعالى: **وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ^(١).

و سؤالهم للرّسول أنههلك و فينا الصّالحون، قال صلى الله عليه و آله و سلم نعم إذا كثر الخبث في أشياء كثيرة فمعنى الآية حتى يقع تغيير منهم أو من الناظر لهم أو ممن هو تسبّب كما غير الله تعالى المنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرّماة ما بأنفسهم الى غير هذا في أمثلة الشريعة و في الحديث إذا رأوا الظّالم و لم يأخذوا يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب و قيل هذا يرجع الى قوله: **وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ** ^(٢) فبين الله تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الإستئصال إلا و المعلوم منهم الإصرار على الكفر و المعاصي و في، ما، إبهام لا يتغير المراد منها إلا بسياق الكلام، هذا.

وقوله: **وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ**
وَإِلٍ كَلِمَةِ السُّوءِ مبالغه في التخويف و المعنى إذا أراد الله بقوم من الكفار أو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العصاة سوء، أي عذاباً و نكالاً فلا مرد له أي لا يقدر أحد على دفعه و ليس لهم أي لهؤلاء المستحقين للعذاب من دون الله، وال، أي ملجأ أو ليس لهم من ناصر يمنع من عذابه أو يرفعه عنهم فأن الله تعالى هو الغالب لكل شيء القاهر لمن يريد فخره، و الوالي فاعل من ولي يولي فهو و ال و ولي مثل عالم و عليم و قيل معناه لا يتولاهم أحد إلا الله.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ
البرق لمعان السحاب يقال في كل ما يلمع، نحو سيف بارق و يقال في العين إذا اضطربت و جالت قال الله تعالى: فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ^(١) أي اضطربت و جالت من الخوف، و السحاب جمع و الواحدة، سحابة، و قد تجمع على سحب و سحائب أيضاً و أصل السحب الجر كسحب الذيل و الإنسان على الوجه.

قال الله تعالى: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ^(٢).

قال الله تعالى: يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ^(٣).

و السحابة الغيم، و أنما قيل للغيم السحابة لأنّ الرّيح يجره أو لجره الماء و قوله ينشي، الإنشاء إيجاد الشيء و تربيته فقوله: يُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ معناه أنه تعالى يوجد و يحدث الغيم في الهواء و معنى الآية هو الذي يريكم البرق في الهواء خوفاً و طمعاً أي خوفاً للمسافر و طمعاً للمقيم.

أما المسافر فأنه يخاف أذاه لما يناله من المطر و الهول و الصواعق و أما الحاضر فأنه يطمع أن يكون عقيقه مطر و خصب هكذا قيل و به رواية و الحق أن حمل الآية على العموم أولى و ذلك لأنّ الخوف من البرق لا يختص بالمسافر فأن المقيم أيضاً قد يخاف منه كما أن الطمع أيضاً لا يختص بالمقيم.

والحاصل أن في البرق خوفٌ وطمعٌ وهذا ممَّا لا ينكر، خوفٌ بالنسبة الى بعض وطمع بالنسبة الى بعض آخر وقوله: وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الَّتِي قَالَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُنْشِئَ والموجد للسَّحَابِ هو الله تعالى وهو كذلك لدخولها في الحادثات كغيرها فيها والحوادث كلُّها تستند الى القديم بالذات كما ثبت في محلِّه ووصفها بالثقال معناه أنَّها ثقال بالماء الموجود فيها.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ
التَّسْبِيحُ تنزيه الله تعالى عمَّا لا يجوز عليه والتَّنْزِيهِ له من كلِّ صفةٍ نقصٍ تضاف اليه وأصله البراءة من الشئ قال الشاعر:

أقول لَمَّا جَاءَنِي فخرُهُ سُبْحَانُ من عُلْمَةِ الغَايِرِ

أي براءة منه، والرَّعْدُ قيل هو إصطكاك أجرام السَّحَابِ بقدرة الله.
وقال الرَّاعِبُ هو صوت السَّحَابِ والمَالُ واحد لأنَّ الصَّوْتُ ينشأ من إصطكاك الأجرام وقيل رعدت السَّماءُ و برقت و أرعدت و أبرقت و يكنى بهما عن التَّهْدُدِ وقال بعضهم الرَّعْدُ إسمُ مَلَكٍ يزجر السَّحَابَ بالصَّوْتِ الَّذِي يسمع وهو تَسْبِيحُ اللَّهِ بما يذكره من تعظيمه تعالى والقول الأوَّلُ هو المتَّبِعُ إذ لم يثبت لنا ملك سَمِّيَ بالرَّعْدِ وعلى هذا فالمراد تَسْبِيحِهِ تَكْوِيناً لا تَشْرِيعاً لأنَّ التَّسْبِيحَ التَّشْرِيعِيَّ لا يصدر إلَّا من ذوي العقول كتسبيحنا آياه وأما التَّسْبِيحُ التَّكْوِينِيَّ فهو في غير ذوي العقول كالجمادات والحيوانات والنباتات ومنها الأجرام الفلكية ويدلُّ عليه:

قال الله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ^(١).

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالطَّيْرِ ضَافَاتٍ^(١).

ولنعم ما قيل بالفارسية:

نطق آب و نطق خاك و نطق گل هست محسوس حواس أهل دل
ما سميعيم و بصيريم و خوشيم با شما نامحرمان ما خامشيم
فالمعنى و يسبح الرعد بحمد الله كما يسبح غيره تكويناً و معنى تسبيحه
معرفة خالقه و أمّا قوله: وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ أي من خيفة الله أي من هيئته
و إجلاله و قيل أَنَّ الضمير في خيفته يرجع الى الرعد بناءً على كونه ملك
فالمعنى أَنَّ ملك الرعد يسبح بحمده تعالى و الملائكة يسبحون الله من خيفته
أي من خوف الرعد و أنت ترى أَنَّ هذا المعنى لا معنى له و على المختار
يرجع الضمير على الله تعالى أي أَنَّهُمْ يسبحونه من خيفته أي أي من خوف
الله و الفرق بين الخوف و الخيفة أَنَّ الخيفة صفة للحال و بعبارة أخرى الخيفة
الحالة التي عليها الإنسان من الخوف من الدهشة و الإضطراب و في تخصيص
لفظ الخيفة بالذكر دون الخوف إشعارٌ بأنَّ الخوف منهم حالة لازمة لا تُفارقهم
وقوله: وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ فالصَّواعق جمع صاعقة و
هي نار لطيفة تسقط من السماء بحالٍ هائلة من شدة الرعد و عظم الأمر يقال
أَنَّهُا قد تسقط على النخلة و سائر الأشجار و تحرقها و على الحيوان و الإنسان
فتقتلها.

أقول و في زماننا هذا كثيراً ما تنزل الصاعقة و تقتل كثيراً من أفراد الإنسان و
تحرق كثيراً من الأشجار أعاذنا الله منها و قوله: فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ أي
نصيب بالصاعقة من يشاء الله تعالى و ذلك لأنَّ الصاعقة أو غيرها من
الهائلات السماوية تحت قدرة الله فلا محالة يصيب بها من يشاء كما أَنَّ الزلزلة
أيضاً كذلك.

وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ
الرَّسُولَ ﷺ بَعَثَ إِلَى جَبَّارٍ مِنَ الْعَرَبِ لِيَسْلَمَ فَقَالَ أَخْبِرْنِي عَنْ إِلَهِهِ مُحَمَّدٌ
مَنْ لَوْلُوهُ هُوَ أَمْ مِنْ ذَهَبٍ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ صَاعِقَةٌ وَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِ.
وَقَالَ مُجَاهِدٌ نَظَرَ يَهُودِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ نَزَلَتْ صَاعِقَةٌ
فَأَخَذَتْ قَحْفَ رَأْسِهِ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ سَبَبُ نَزُولِهَا قِصَّةُ أُرَيْدَ بْنِ
رَبِيعَةَ وَعَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ وَذَكَرَ قِصَّتَهَا الْمَشْهُورَةُ وَمُضْمُونُهَا أَنَّ عَامِرًا تَوَصَّدَ
الرَّسُولَ ﷺ إِذَا لَمْ يَجِبْهُ إِلَى مَا طَلَبَ وَأَنَّهُ وَأُرَيْدُ رَامَا الْفَتْكَ بِهِ فَعَصَمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى وَأَصَابَ عَامِرًا بَغْدَةً فَمَاتَ غَرِيبًا وَأُرَيْدُ بِصَاعِقَةٍ فَقَتَلَتْهُ قَالَ أَخُوهُ لُبَيْدٌ وَ
هُوَ يَرِثِي أَخَاهُ:

أَخْشَى عَلَى أُرَيْدٍ الْحَتُوفَ وَلَا أُرْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الْبَرْقَ وَالصَّوَاعِقَ بِالْفَا رَسَ يَوْمَ الْكَرْبِيهَةِ النَّجْدِ
وَالْحَاصِلُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْعَجِيبَةَ أَعْنَى الْبَرْقِ، وَإِنْشَاءَ السَّحَابِ الثَّقَالِ وَ
تَسْبِيحِ الرَّعْدِ وَالْمَلَائِكَةِ وَإِرْسَالِ الصَّوَاعِقِ الَّتِي أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ تَدَلُّ
عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ وَالتَّصَرُّفِ التَّامِّ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسَّفَلِيِّ فَالْمُتَّصِفِ بِهَا وَ
الْقَادِرِ عَلَى إِنْشَائِهَا وَإِيجَادِهَا يَنْبَغِي أَنْ لَا يَجَادَلَ فِيهِ فَالضَّمِيرُ فِي وَهُمْ
يُجَادِلُونَ عَائِدٌ عَلَى الْكَفَّارِ الْمُجَادِلِينَ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ الْمُنْكَرِينَ
لِلْآيَاتِ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْبَعْثِ وَإِعَادَةِ الْخَلْقِ بِقَوْلِهِمْ: مَنْ
يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ وَفِي وَحْدَانِيَّتِهِ بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ وَالْأُنْدَادِ وَنِسْبَةِ التَّوَالِدِ
إِلَيْهِ بِقَوْلِهِمُ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَيُصِيرُ مُحْصَلٌ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
لَا يُتَصَافَى بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الَّتِي لَا يُتَّصَفُ بِهَا أَحَدٌ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْحَدَ وَيُنْفَى
الشَّرِيكَ عَنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ فَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ مِنَ الْجَلَالَةِ أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ
شَدِيدُ الْمِحَالِ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَهُوَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ.
فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الْعِدَاوَةُ عَنْهُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ الْحَقْدُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجزء الثالث

و عن مجاهد أنه القوة.

و عن قطرب الغضب و عن الحسن الهلاك بالمحل و هو القحط.
و قرأ الضحاك و الأعرج المحال بفتح الميم و هو الحول و قيل الحيلة، و
الحق أنه الأخذ بالعقاب و عليه فالمعنى أنه شديد العقاب والله أعلم.
وإعلم أن الميم في المحال أصلية فهو من قولهم، محل به محلاً ومحلاً
إذا أراده بسوء.

و أما من قال أنه من الحول و الحيلة فالميم فيه زائدة.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا
فِي ضَلَالٍ

الدعوة بفتح الدال الدعاء إلا أنها مختصة بإدعاء النسبة وصلها للحالة التي
عليها الإنسان نحو القعدة و الجلسة و الظاهر أن قوله: دَعْوَةُ الْحَقِّ مبتدأ و له
خبر قدم عليه ليفيد الحصر نحو في الدار زيد فالمعنى أن دعوة الحق ينحصر
به تعالى و دعوة غيره كائناً ما كان باطلة عاطلة و ذلك لأن الدعوة إما للحق وإما
للباطل و لا ثالث في المقام لإستحالة إرتفاع النقيضين.

و قد مر الكلام في معنى الحق غير مرة و قلنا أن الحق ما لا سبيل للبطلان
اليه لأنه ثابت لا يتغير و لا يتبدل و لذلك لا يطلق الحق بقول مطلق إلا على الله
تعالى اذ هو الموجود الذي لا سبيل للبطلان اليه كما قيل:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ وكل نعيم لا محالة زائلٌ

و اذا كان كذلك فكُل دعوة لغيره تعالى باطل لأن الغير مخلوق و هو لا يقدر
على شيء من قبل نفسه و إن شئت قلت أنه باطل في ذاته و الي ما ذكرناه أشير
في الآية، له دعوة الحق أي لله تعالى: دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ أي من دون الله كائناً ما كان باطل لا يستجيبون لهم أي لهؤلاء الكفار

بشيء لا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء قالوا المراد به الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها ثم ضرب الله لهذا الحكم مثلاً فقال: **إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ** ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمَ هَذَا الْمَثَلَ لِيَأْسَهُمُ مِنَ الْإِجَابَةِ لِدَعَائِهِمْ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَضْرِبُ لِمَنْ سَعَى فِيهَا لَا يَدْرِكُهُ مَثَلاً بِالْقَابِضِ بِالماء باليد قال الشاعر:

فصبحت فيما كان بيني وبينها من الؤد مثل القابض الماء باليد
 قيل في معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها: أَنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَالظَّمَانِ الَّذِي يَدْعُو الْمَاءَ إِلَى فِيهِ مِنْ بَعِيدٍ يَرِيدُ تَنَاوُلَهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِلِسَانِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ بِيَدِهِ فَلَا يَأْتِيهِ أَبَداً لِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَسْتَجِيبُ وَمَا الْمَاءُ بِبَالِغٍ إِلَيْهِ قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

الثاني: أَنَّهُ كَالظَّمَانِ الَّذِي يَرَى خِيَالَهُ فِي الْمَاءِ وَقَدْ بَسَطَ كَفَّهُ فِيهِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ لِكَذِبِ ظَنِّهِ وَفَسَادِ تَوَهُّمِهِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

الثالث: أَنَّهُ كَبَاسِطٌ كَفَّهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَقْبِضَ عَلَيْهِ فَلَا يَجْمُدُ فِي كَفِّهِ شَيْءٌ مِنْهُ. وَزَعَمَ الْقَرَاءُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالماء هَاهُنَا الْبُئْرَ لِأَنَّهَا مَعْدَنُ لِلْمَاءِ وَأَنَّ الْمَثَلَ كَمَنْ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْبُئْرِ بِغَيْرِ رِشَاءٍ وَشَاهَدَهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَأَنَّ الْمَاءَ مَاءَ أَبِي وَجْدَى وَبُئْرِي ذُو حَفْرَتٍ وَذُو طَوَيْتٍ

وَقَدْ نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ، عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنَى الْمَثَلِ، هُوَ كَالْعَطْشَانِ عَلَى شَفَةِ الْبُئْرِ فَلَا يَبْلُغُ قَعْرَ الْبُئْرِ وَلَا الْمَاءُ يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ وَمَعْنَى **إِلَّا كَبَاسِطٍ**، **إِلَّا كَاسْتِجَابَةٍ** بِاسْطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ فَالْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْبَاسِطِ ثُمَّ حُذِفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ وَفَاعِلُ الْمَصْدَرِ الْمُضَافُ وَهُوَ الْمَاءُ مُرَادٌ، الْمَعْنَى **إِلَّا كَإِجَابَةٍ** بِاسْطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: **لِيَبْلُغَ فَاهُ** مَتَّعِلَةٌ بِالْبَسْطِ وَقَوْلُهُ: **وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ** كُنَايَةٌ عَنِ الْمَاءِ أَيْ وَمَا الْمَاءُ بِبَالِغٍ فَاهُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُنَايَةً عَنِ الْفَمِ أَيْ مَا الْقَمِّ بِبَالِغٍ الْمَاءِ وَالَّذِي نَفْهَمُ مِنَ الْمَثَلِ هُوَ أَنَّهُ أَيْ قَوْلُهُ: **إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ** الْخُ هُوَ يَأْسَهُمُ مِنَ الْإِجَابَةِ لِدَعَائِهِمْ مَا أَنَّ بَاسِطَ كَفَّيْهِ

في القرآن
في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

الى الماء ليلبغ فهو ببالغه، كذلك أي مأبوس من شُرب الماء وإذا كان الماء لا يمكن تناوله فأَيُّ فائدة في وجوده للظَّمآن إلاَّ حسرة النَّظر و هكذا عبدة الأصنام والأوثان بل كلَّ من يدعوا غير الله فَأَنَّ الغير لا يستجيب له بشي ولا ينفعه إذا إحتاج اليه فأَيُّ فائدة في وجوده بالنسبة الى الدَّاعي فهو كالعدم وما كان كذلك لا ينبغي للعاقل أن يتوجَّه اليه و يعتني به فضلاً عن عبادته فمن عبد ما لا يستجيبه إذا دعاه كمن بسط كَفْيَه الى الماء و لم يصل الى شربه مع أنَّه يشير الى الماء بيده ليصل الى فمه و لكنَّه لا يستجيب لأنه جماد لا يشعر ببسط كَفْيَه و لا يعطشه و حاجته اليه.

هذا اذا قلنا أنَّ المراد بقوله من دونه الأوثان والأصنام، و أن قلنا بالعموم أي جميع ما سواه كذلك فهو أيضاً حقٌّ فَأَنَّ رفع الحاجة و إستجابة الدَّعوة من شئون الواجب المتعال و لا يقدر أحد ممَّا سواه عليه، فتخصيص الكلام بالأصنام والأوثان لا وجه له اذ ليس الكلام في العبادة فقط بل الكلام في الدَّعوة و الإستجابة مطلقاً و من المسلَّم المقطوع عند العقلاء أنَّ غيره تعالى لا يقدر على قضاء الحوائج و لا على إستجابة الدَّعوات و رفع الحاجات.

قال الله تعالى: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ^(١).**

قال الله تعالى: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ^(٢).**

قال الله تعالى: **وَ قَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ^(٣).**

قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَفْتَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٤).**

قال الله تعالى: **وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ^(٥).**

١- فاطر = ١٤

٢- الأعراف = ١٩٤

١- التَّمَل = ٦٢

٢- غافر = ٦٠

٣- الأعراف = ١٩٧

و الآيات كثيرة و الأمر أوضح من أن يخفى على عاقلٍ، فالتشبيه في الكلام من المركب التمثيلي حيث شبه حال الأصنام في عدم إستجابتها دعاء المشركين بحال الماء الواقع بمرأى من العطشان الذي يبسط اليه كفه يطلب منه أن يبلغ فاه وينفعه من إحتراق كبده و وجه الشبه عدم إستطاعة المطلوب منه إجابة الدعاء و خيبة الطالب عن نيل ما هو أحوج اليه من المطلوب و هذا كما ترى متترع من عدة أمور وذاها يسمّى بالمركب التمثيلي.

ثم قال تعالى: **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** أي ليس دعاءهم الأوثان من دون الله إلا الإضلال عن الحق و عدولاً عن طريقه و أنه جار مجرى ما ذكره من باسط كفيه الى الماء و هو بعيدٌ منه من غير أن يتناوله و يدعوه الى فمه فإن ذلك لا يصل اليه أبداً و قد حكى الله تعافهم حيث قال: **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** ^(١).

و لما ذكر الله تعالى في الآية أن له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ الخ أشار الى أن من له دعوة الحق هو الذي ينبغي أن يعبد ويدعى و هو الله تعالى فقال: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ** الله عَلم على الأصح للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكمالية و لهذا لا يطلق على غيره و اللام في، لله، للإختصاص أي أن السجود مختص به و هو في الأصل التّطامن و التذلل و جعل ذلك عبارة عن التذلل و هو عام في الإنسان و الحيوان و الجماد و النّبات و ذلك ضربان، سجودٌ بإختيار و ليس ذلك إلا للإنسان و به يستحق الثواب، و سجودٌ بالتسخير و هو للإنسان و الحيوان و النّبات و الآية إشارة الى هذا القسم من السجود بدليل قوله كرهاً فهذا السجود المشار اليه في الآية لا يختص بالإنسان بل هو عامٌ لجميع الموجودات

نبذة القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

السَّماوية و الأرضية والوجه فيه هو أنَّ جميع من في السَّماوات و الأرض مخلوقون له تعالى أخرجهم من العدم الى الوجود و المخلوق خاضعٌ خاشعٌ لخالقه قهراً لأنَّه رشحٌ من رشحات وجود الخالق محتاج اليه في جميع الشئون فلا محالة يتَّطامن و يتذلَّل له علم به أو لم يعلم شاء أو لم يشاء لأنَّه مسخَّر تحت قدرته مقهور في قاهرته و لانهني بالتَّذلل إلا هذا.

و حيث أنَّ هذا الأصل أعني به الإحتياج و المسخِّرية جارٍ في جميع الموجودات السَّماوية و الأرضية فصَّح أن يقال: **لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا** أي بالإختيار كالإنسان أو بغيره كغيره و قد يعبر عنه بالسَّجود التكويني كما يعبر عن السَّجود المختص بالإنسان بالسَّجود التَّشريعي أو التَّكليفي و الى ما ذكرناه في معنى السَّجود التَّسخيري.

أشار بعض المحقِّقين حيث قال و هو الدَّلالة الصَّامته النَّاطقة المنبَّهة على كونها مخلوقة و أنَّها خلق فاعل حكيم.

و أمَّا قوله: **وَ ظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ** فالظلال جمع ظل و هو ستر الشَّخص ما بأزاءه و منه الظَّلة لأنَّها ساترة و الإصال جمع أصل و الأصل جمع أصيل و هو العشي و قيل هو ما بين العصر الى الغروب، و ظلالهم، يجوز أن يكون معطوفاً على، من، و يجوز أن يكون مرفوعاً بالإبتداء و الخبر محذوف و التقدير و ظلالهم سجدوا بالغدو و الإصال، والغدو بضم الغين والدال يجوز أن يكون مصدرأ و يجوز أن يكون جمع غداة و هو الأقوى فأنَّها مقابلة الجمع الذي هو الإصال اذا عرفت هذا فنقول:

معنى الكلام أنَّ ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو و الإصال لأنَّها تبين في هذين الوقتين و تميل من ناحية الى ناحية و ذلك تصريف الله إياها على ما يشاء و هو كقوله تعالى: **أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّيُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشِّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ** (١).

وقد أجمع المفسرون على أن قوله: **وَظِلَالُهُمُ** الخ معطوف على من في السموات والأرض أي ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وتسجد ظلالهم بالغدو والإصال أما سجود من في السموات والأرض تكويناً أو تسخيراً فواضح لا خفاء فيه كما بيّناه.

وأما سجود ظلالهم بالغدو والإصال فلموضه إختلفوا فيه فقال مجاهد ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره. وقال ابن الأنباري، يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت.

وردّ عليه القيشري بأنّ الجبل عينٌ فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة وأما الظلال فأثار وأعراض ولا يتصور تقدير الحياة لها والسجود بمعنى الميل فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب يقال سجدت النخلة إذا مالت انتهى.

أقول هذا ما ذكره في تفسير الكلام وأنت ترى أنّه لا يرجع إلى محصل. **أما أولاً:** فلأنّنا لا نفهم معنى السجود في الظل والمفروض أنّ الظل تابع لذي الظل فإذا فرضنا تحقق السجود من صاحب الظل طوعاً أو كرهاً كما هو كذلك بنص الآية فلا محالة يتحقق السجود التكويني للظل أيضاً ولا حاجة إلى تخصيصه بالذكر فإنّ الظل ليس شيئاً قائماً بذاته بل هو تابع لغيره وجوداً وما كان وجوده تابعاً لغيره فهو تابع له في جميع شئونه وبعبارة أخرى ما يحكم به على ذي الظل من القيام والقعود والحركة والسكون وغيرها يحكم على الظل بحكم المتابعة فإذا قال الله تعالى: **لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا.**

فإن قلنا أنّ المراد بقوله: **مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** الموجودات التي لها جسم فالظل خارج عنها قطعاً وأن قلنا أنّ المراد به الأعم من الجسم وغيره فالظل داخل تحت العموم قطعاً فما وجه تخصيصه بالذكر هذا كلّ مضافاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجلد الثالث

الى أن المعطوف لابد أن يكون مغايراً للمعطوف عليه وإلا يلزم عطف الشئ على نفسه وهو من تحصيل الحاصل والظّل لا يكون مغايراً للجسم إلا من جهة الجسميّة ومع قطع النظر عنها فهو هو بعينه.

و اذا كان كذلك فما تثبت للجسم ثبت للظّل أيضاً وقد فرضنا بثبوت السجود للجسم فهو ثابت للظّل فما معنى العطف أولاً وتخصيصه بالذكر ثانياً. وأما قولهم يجعل للظلال عقول تسجد بها كما جعل للجبال، فهو كلام باطل عاطل لا يساعده العلم ولا ينبغي للعاقل أن يلتفت اليه وهكذا قول الحسن أما ظلك فيسجد لله وأما أنت فتكفر به، لا معنى له وأظن أن قائل هذا الكلام أيضاً لم يفهم ما قال.

و محصل الكلام أن الظل ليس بشئ حتى يحكم عليه بالاستقلال يحكم عليه بما يحكم به على متبوعه والعجب من الرازي حيث نقل هذه الأقوال المخالفة للعقول ولم يتعرّض لها بشئ من الجواب.

فقد نقل عن مجاهد أنه قال ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره، ولم يتفكر فيه أنه كيف يعقل هذا وهكذا غيره من الأقوال التي اخترعوها من عند أنفسهم في تفسير كلام الله.

وقد قال رسول الله ﷺ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بَرَأَيْهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وهذا الذي ذكروه من التفسير بالرأي وحيث إنجر الكلام الى اليأس عن حل الإشكال ولم أجد في التفسير من العامة والخاصة من تعرّض للإشكال وأجاب عنه وأما نقلوا في تفاسيرهم ما لا يسمن ولا يغني كما عرفت لا بأس بالإشارة الى ما حققه بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية تكميلاً للبحث وتثبيتاً لليأس قال.

وأما قوله: وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآضَالِ فيه إلحاق ظلال الأجسام الكثيفة بها في السجود فإن الظل وأن كان عديمياً من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النور إلا أنه له أثاراً خارجيّة وهو يزيد وينقص في طرفي النهار ويختلف

إختلافًا ظاهرًا للحسّ فله نحوٌ من الوجود و أثاره يخضع في وجوده و آثاره لله و يسجد له و هي تسجد لله سجدة طوع في جميع الأحيان و إنّما خصّ الغدوة و الأصال بالذكر لا لما قيل أنّ المراد بهما الدوام و ساق الكلام الى أن قال بل النكته فيه أنّ الزيادة و النقصه دامتان للأطلال في الغدة و الأصيل فيمثّلان للحسّ السقوط على الأرض و ذلّة السجود و أما وقت الظهيرة و أوساط النهار فربما إنعدمت الأضلال فيها أو نقصت و كانت كالساكنه لا يظهر معنى السجدة منها ذلك الظهور و لا شك أنّ سقوط الأطلال على الأرض و تمثيلها لحروز السجود منظورٌ اليه في نسبة السجود الى الأطلال في تقيّأوها و ليس النّظر مقصوراً على مجرد طاعتها التكوينية في جميع أحوالها و آثارها و الدليل على ذلك قوله: **أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُوا ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشِّمَائِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ**^(١).

فإنّ العناية بذلك ظاهرة فيه، انتهى نقل موضع الحاجة من كلامه و أن أردت الإطلاع على تفصيل ما ذكره فعليك بمراجعة تفسيره^(٢).

و أنت بعد التأمل في كلامه تعلم أنّه ﷺ لم يأت بشيء جديد في تفسير كلام الله فإنّ ما ذكره ﷺ و حقّقه بزعمه ليس إلّا ما ذكره في تفاسيرهم و الفرق هو إختلاف العبادات و تغيير الألفاظ فإنّ قوله، فله نحو من الوجود دو آثاره يخضع في وجوده و آثاره الخ فهو أول الكلام و على المدعى الإثبات فإنّ ما ذكره ليس إلّا مجرد الدعوى و نحن نقول لا وجود له مستقلاً فلا تثبت لها آثار فإنّ الوجود الظلي لا أثر له إستقلالاً فهو في وجوده و آثاره تابع لغيره فاذا سجد الجسم سجد الظلّ و ليس في المقام سجودان أحدهما للجسم و الثاني للظلّ.

أن قلت فما معنى الكلام.

قلت معناه، لا أدري والله تعالى أعلم بما قال و الآية من المتشابهات التي

بسم القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

أمرنا فيها بالرجوع الى الراسخين في العلم وهم الائمة الأطهار و لم نجد منهم نصاً فيها بعد التفتيش و التفحص.

و من المعلوم أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود فلا يبعد أن يصل غيرنا الى ما لم نصل اليه أو فهم منها شيئاً لم نفهمه بعد التأمل و التدبر فكم ترك الأوائل للأواخر فنحن في المقام من المتوقفين والحمد لله رب العالمين.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ

قال الزمخشري في قوله: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ هو حكاية لإعترافهم وتأكيده عليهم لأنه اذا قال لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم، بد، من أن يقولوا الله، كقوله: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ^(١) وهذا كما يقول المناظر لصاحبه أهذا قولك، فاذا قال هذا قولي قال قولك إقراره تقريراً له عليه ثم يقول له فيلزمك على هذا القول كيت و كيت ويجوز أن يكون تلقيناً أي أن عجزوا عن الجواب فللقنهم فانهم يتلقونه ولا يقدرّون أن ينكروه انتهى كلامه.

و قال بعضهم معناه قل يا محمّد للكفار من رب السموات والأرض إستفهام تقرير و إستنطاق بأنهم يقولون الله فاذا قالوها قل الله أي هو كما قلتم.

و قيل فأن أجابوك وإلّا قل الله اذ لا جواب غير هذا.

و قال البغوي روي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا أجب أنت فقال قل الله.

و قال بعض المفسرين هذا خطاب من الله لنبيه يأمره بأن يقول لهؤلاء

الكفار من ربّ السموات والأرض، أي من مدبرهما ومصرّفهما على ما فيهما من العجائب فأنهم لا يمكنهم أن يدعوا أن مدبر السموات والأرض الأصنام التي يعبدونها فاذا لم يمكنهم ذلك فقل لهم ربّ السموات والأرض وما بينهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد الله تعالى، فاذا أقرؤا بذلك فقل لهم على وجه التّكبيت لهم والتّوبيخ لفعلمهم.

أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا هذا ما قالوه في تفسير الكلام ولم يبينوا الوجه فيه وهو أنه لم يلد لهم أن يقرؤا بأن ربّهما هو الله اذ من المحتمل أن لا يقرؤا بذلك وعليه فلا معنى لقوله قل أفأتّخذتم من دونه أولياء، ضرورة أنه يصح هذا القول بعد الإقرار بأن الرب هو الله والمفروض عدم إقرارهم به اذا رفت هذا فنقول لا شك أن السموات والأرض وما بينهما من الموجودات على أقسامها وأصنافها لها وجود في الخارج وهو من المحسوسات فلا يحتاج الى إقامة برهان لأنّ إنكاره يرجع الى إنكار المنكر وجوده في نفسه ومن المعلوم أن الموجود لا ينكر وجوده فأنّ ثبوت الشّيء لنفسه ضروري.

فاذا ثبت وجود السموات والأرض وما بينهما من الموجودات فلا محالة لها موجدٌ وخالقٌ أخرجهما من العدم الى الوجود وذلك لأنّهما وما فيهما من الممكنات والممكن نسبته الى الوجود والعدم على حدّ سواء فيحتاج في خروجه عن حدّ الإستواء الى الوجود الى مخرج مرّجح اذ المفروض تساوي نسبته الى الطرفين فلو خرج بنفسه الى الوجود يلزم التّرجيح بلا مرّجح وهو غير معقول ونعبر عن المخرج المرّجح بالخالق الموجد فثبت أن السموات والأرض وما بينهما لإمكانهما لهما خالق أوجدهما ثمّ أن الخالق لا يمكن أن يكون من سنخ المعدومات لأنّ العدم لا يعقل أن يكون موجداً ولا من سنخ الممكنات لأنّ الكلام في الخالق الممكن هو الكلام في مخلوقه فيلزم التّسلسل الى ما لا نهاية له وقد ثبت في العلوم العقلية بطلانه.

في التّفسير القرآني في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

و اذا لم يكن الخالق الموجد من سنخ المعدومات و لا من سنخ الممكنات فلا محالة يكون واجب الوجود و هو الله تعالى و بعبارة أخصر لو كان الخالق ممكناً يلزم التسلسل الباطل فلا محالة يكون واجباً و هو الله تعالى و هو المطلوب و هذا هو الوجه في كونهم مقرّين بأنّ ربّ السموات و الأرض و ما بينهما، الله تعالى، و ليس لهم أن ينكروه لأنّ إنكارهم يرجع الى إنكار وجودهم لو كانوا يعقلون.

و إن شئت قلت لا بدّ لهم في مقام الجواب إمّا السكوت، و إمّا الإقرار بأنّ الخالق هو الله و على هذا ينبغي أن يقال لهم.

أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
فالإستفهام للتوبيخ و الإنكار و المعنى بعد ما علمتم أنّه تعالى هو ربّ السموات و الأرض تتخذون من دونه أولياء و تتركونه فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبباً للتوحيد من علمكم و إقراركم عند التأمل و الإجتنب عن العناد، سبباً للإشراك و هذا عجيب.

ثمّ وصف الله تعالى تلك الأولياء بصفة العجز و هي كونها لا تملك لأنفسها نفعاً و لا ضرراً و ذلك لأنّ جلب المنفعة أو دفع المضرة يتوقّف على أمرين: أحدهما: تشخيص المنفعة و المضرة.

ثانيهما: القدرة على جلب المنفعة أو دفع المضرة، و هؤلاء الأصنام و الأوثان لا عقل لها لأنّها جمادات فلا تشخيص لها لأنّه متفرّع على العقل و لا قدرة لها كذلك فإذا ثبت و تحقّق أنّها لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضرراً، فكيف يعقل أنّهم يملكون لمن يعبدهم نفعاً أو ضرراً.

و قد ثبت أنّ معطي الشّي لا يكون فاقداً له، و من لا يملك لنفسه و لا لغيره نفعاً و لا ضرراً فهو كالمعدوم الذي لا ينبغي أن يلتفت اليه فكيف يعبد من يدعي العقل فإنّ العاقل لا يعبد من لا عقل له ثمّ أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء الكفار هلّ يستوى الأعمى و البصير أم هلّ تستوى الظلمات و النور.

الإستفهام في الموضعين للإنكار، أي ليس كذلك والوجه فيه هو أنَّ الأعمى والبصير وكذلك الظُّلْمة والنُّور ضِدَّان فَأَنَّ الأعمى من لا بصير له والظُّلْمة ما لا نور له وهما لا يجتمعان أي لا يمكن أن يكون الشَّيْء بصيراً وأعمى ولا ظلمة ونوراً وقد ثبت أنَّ إجتماع الضَّدين والتَّقْضِيز محال وإذا كان كذلك فليسا بمتساويين بل يلزم من تحقُّق أحدهما نفي الآخر إذا ثبت هذا فنقول ربَّ السَّموات والأرض بصير ونور وما يعبدونه من الأصنام أعمى وظلمة، أمَّا أَنَّهُ تعالى بصيرٌ فَلأنَّهُ أعطى البصر لغيره ومعطى الشَّيْء لا يكون فاقداً له فهو أيضاً بصير وقد وصف نفسه بذلك في كثير من الآيات كما لا يخفى و أمَّا أَنَّهُ نور فلقلوله.

قال الله تعالى: **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوَةٍ** ^(١).

قال الله تعالى: **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ^(٢).

وعند حكماء الأشراف النُّور حقيقة الوجود ولذلك يعبرون عن الواجب تعالى بنور الأنوار وإنَّما قالوا ذلك لوحدة خاصيتها وهي الظُّهور بالذَّات والمظهر للغير فكما أنَّ حقيقة الوجود بذاته و غيرهما موجود بها كذلك حقيقة النُّور فَأَنَّ النُّورانية ذاتية لها و غيرها منوَّر بها ولعلَّه لذلك فسَّر قوله: **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ألخ بأنَّه منوَّر السَّموات وسيأتي الكلام في تفسير أية النُّور إنشاء الله فثبت وتحقَّق أنَّ ربَّ السَّموات والأرض هو البصير وهو النُّور، وأمَّا الأصنام والأوثان التي كان الكفَّار يعبدونها فليست كذلك لأنَّ الصَّنم لا يبصر ولا ينوِّر وما لا يبصر فهو أعمى وما لا نور له فهو ظلمة وإلَّا يلزم إرتفاع الضَّدين أو التَّقْضِيز وكلاهما محال وإذا كان الصَّنم من مصاديق الأعمى والظلمة فلا ينبغي أن يعبد لأنَّهما أمران عَدْمِيَان فَأَنَّ الظُّلْمة عدم النُّور والأعمى عدم البصر فلا وجود لهما في الخارج فمن عبد الصَّنم عبد العدم في الحقيقة هذا أولاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٣

الحمد لله

ثانياً: نقول لا شك أنّ الوجود خيرٌ والعدم شرٌّ فمن كان بصيراً فهو خيرٌ ومن كان أعمى فهو شرٌّ لعدم البصر فيه ولا شك أنّ الآثار مترتبة على الوجود أمّا العدم فلا أثر له فالبصير خيرٌ من الأعمى وهكذا في النور والظلمة و صورة القياس، أنّ الله تعالى بصير عقلاً ونقلاً وكلّ بصير خيرٌ من أعمى فهو خيرٌ من أعمى.

وهكذا يقال الله تعالى نور وكلّ نورٍ خيرٌ من ظلمة فهو خيرٌ فيها معنى قوله.

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ.
ومن المعلوم أنّ العاقل يختار البصير لا الأعمى والنور لا الظلمة التي لا أثر لها.



أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْأَحْسَنُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا زَكَاةً مِنْ سِرِّهَا وَعَلَانِيَةً وَهُمْ يَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

◀ اللغة

أَلْقَهَارُ مبالغة في القهر أي يقهر كل قادرٍ سواه.
أَوْدِيَةٌ جمع وادي.

زَبَدٌ الزَّبَدُ و ضر الغليان و هو خبث الغليان ومنه زبد القدر و زبد البعير
جُفَاءً ممدود مثل الغناء يقال ربا يربو فهو راب و منه الرِّبَا المحرَّم.
يَذَرُون أَي يدفعون يقال درأته عنه أي دفعته.

◀ الإعراب

أَوْدِيَةٌ جمع وادٍ بِقَدَرِهَا صفة لأودية عَلَيْهِ فِي النَّارِ متعلق بيقودون
أَبْشَغَاءَ مفعول له او متاع معطوف على حلية زَبَدٌ مبتدأ و مثله صفة له والخبر
مما يوقدون و جُفَاءً حال و همزته منقلبة عن واو و قيل هي أصل للذَّيْنِ
أَسْتَجَابُوا مستأنف و هو خبر لِحُسْنِي الَّذِينَ يُوقُونَ يجوز أن يكون نصباً
بإضمار أعني جَنَاتٍ عَذْنٍ هو بدلٌ من عُقْبَى و قيل هو مبتدأ و يَدْخُلُونَهَا
الخبر و مَنْ صَلَحَ فِي مَوْضِعٍ رفع عطفاً على ضمير الفاعل و يجوز أن يكون
نصباً بمعنى، مع سَلَامٌ أي يقولون سلاماً.

في القرآن في تفسير القرآن

◀ التفسير

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ أَلْقَهَارُ
أم، في قوله: أَمْ جَعَلُوا قيل هي منقطعة تتقدّر ببِل والهمزة و التقدير بل

المجلد التاسع

أهل تستوي وهل، و أن نابت عن همزة الإستفهام في كثير من المواضع فقد جامعتهما في قول الشاعر:

أهل رأونا بوادي القفر ذي الأكم

و اذا جامعتهما مع التصريح بها فلأن جامعتهما مع أم المتضمنة لها أولى وهل، بعد أم المنقطعة يجوز أن يؤتى بها لشبهها بالأدوات الإسمية التي للإستفهام في عدم الإصالة فيه كقوله تعالى: **أَمْ مَنْ يَفْلِكُ السَّمْعُ وَ الْأَبْصَارُ**^(١) ويجوز أن لا يؤتى بها بعد أم المنقطعة لأن، أم، تتضمنها فلم يكونوا ليجمعوا بين أم والهمزة لذلك و قال الشاعر في عدم الإتيان بها بعد، أم، والإتيان بها بعدها:

هل ما علمت وما إستودعت مكتوم أم حبلمها إذا نأتك اليوم مصروم
أم هل كبير بكى لم يقض عبرته إثر الأحبة يوم البين مشكوم
ثم إنتقل من خطابهم الى الأخبار غائباً إعراضاً عنهم و تنبيهاً على توبيخهم
في جعل شركاء لله و تعجبياً منهم و إنكاراً عليهم و تضمن هذا الإستفهام
التحكم بهم لأنه معلوم بالضرورة أن هذه الأصنام ما إتخذوها من دون الله
أولياء و جعلوهم شركاء لا تقدر على خلق ذرة و لا إيجاد شيء ألبتة والمعنى
أنهم أي الشركاء هل خلقوا شيئاً حتى يستحقوا العبادة، و جعلهم شركاء لله
أي جعلوا شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق الله فتشابه ذلك عليهم
في عبدونهم و من المعلوم أنهم لا يقدرون على خلق شيء فكيف يشركون في
العبادة.

و قال في التبيان ما هذا لفظه، ثم قال هل جعلوا يعني هؤلاء الكفار لله
شركاء في العبادة خلقوا أفعالاً مثل خلق الله من خلق الأجسام والألوان و
الطعوم و الموت و الحياة و الشهوة و النفار و غير ذلك من الأفعال التي تختص
بالله فإشبه ذلك عليهم فظنوا أنها تستحق العبادة لأن أفعالها مثل أفعال الله

نبذة القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجملة الثالثة

فإذا لم يكن ذلك شبيهاً بل كان معلوماً لهم أن جميع ذلك ليست من جهة الأصنام فقل لهم، الله خالق كل شيء أي هو خالق جميع ذلك يعني ما تقدم من الأفعال التي يستحق بها العبادة انتهى كلامه.

و قال البيضاوي، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ أَي بل أجعلوا والهمزة للإنكار و قوله خلقوا كخلقه، صفة لشركاء داخله في حكم الإنكار، فتشابه الخلق عليهم، أي خلق الله و خلقهم و المعنى أنهم ما إتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فأستحقوا العبادة كما إستحقها و لكنهم إتخذوا، شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق انتهى كلامه.

أقول الحق أن الآية مرتبطة بما قبلها و لعلهما آية واحدة إلا أنهم لما وقفوا على قوله، و النور، جعلوها آيتين و حاصل المعنى أن الإستفهام إنكاري أي لا يستوي الأعمى و البصير و لا الظلمات و النور و لا من خلق كمن خلق و حيث قد ثبت أن الله تعالى هو البصير و النور و الخالق و الأصنام هي التي تتصف بالعمى و الظلمة و المخلوقة فلا جرم يكون المعبود الحقيقي هو الله تعالى فقله: أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الخ معناه أن الشركاء لم يخلقوا خلقاً حتى تشابه الخلق على الكفار و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلم إتخذوها معبودين و في قوله: قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إشارة إلى أن المعبود الحقيقي هو الذي خلق جميع الأشياء و منها الأصنام و الكواكب و الشمس و غيرها و لا يكون مخلوقاً غيره و من كان كذلك فهو المعبود.

و أما المخلوق كائناً من كان فهو محتاج الى خالقه فكيف يكون معبوداً:
قال الله تعالى: أَيْبُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ^(١).
قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لِيَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلُقُونَ^(١).

قال الله تعالى: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّ الْأَذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ^(٣).

و أمثال هذه الآيات كثيرة ويستفاد من جميعها أنّ المخلوق لا يكون معبوداً و هو المطلوب.

و أمّا قوله: وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ فالقَهَّارُ مبالغة في القهر و الغلبة أي هو الذي يقهر كلّ قادرٍ سواه لا يقدر على إمتناعه منه و الواحد هو الذي لا ثاني له و المعنى أنّ الله تعالى هو الواحد الذي لا ثاني له ذاتاً و صفَةً و هو القاهر الغالب على كلّ ما سواه ففي هذا الكلام إشارة الى أنّ الذي يستحقّ أن يكون معبوداً، ينبغي أن يكون متّصفاً بصفة الخالقية و القاهرية و هو منحصر به تعالى و أمّا غيره فهو مخلوق و مقهور أي محتاجٌ و ضعيف و هو كما ترى.

و أعلم أنّ الشيخ رحمته الله ذكر في تفسيره لهذه الآية عن القائلين بالجبر ما هذا لفظه قال، و من تعلّق من المجبّرة بقوله: قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى أَنَّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، فقد أبعد، لأنّ المراد بذلك ما قدّمناه من أنّه تعالى خالق كلّ شيء يستحقّ بخلقه العبادة دون ما لا يستحقّ به ذلك و لو كان المراد ما قالوه لكان فيه حجةٌ للخلق على الله تعالى و بطل التّوبيخ الذي تضمّنته الآية الى من وجّه عبادته الى الأصنام لأنّه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو الله على قول المجبّرة فلا توبيخ يتوجّه على الكفّار و لا لوم يلحقهم بل لهم أن يقولوا أنّك خلقت فينا ذلك فما ذنبنا فيه و لم توبخنا على فعل فعلته فتبطل فائدة الآية انتهى موضع الحاجة من كلامه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

العباد

و الأحسن في الجواب أن يقال أن كان مرادهم بقولهم أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، أنها مخلوقة له تعالى بلا واسطة العبد فمن المعلوم أنه ليس كذلك ضرورة أن الفعل فعل العبد بشهادة العقل و العرف ألا ترى أن القاتل يحكم عليه بالقصاص ولم يقل أحد بأن الله هو القاتل و هكذا في جميع الأفعال الصادرة من العبد، و إن، كان مرادهم أنها مخلوقة بواسطة العبد بمعنى أن الله خلق العبد و العبد فعل كذا و كذا ففعل العبد فعله بواسطة العبد إذ لو لم يخلق العبد لما فعل و أن شئت قلت خالق السبب هو خالق المسبب في الواقع.

فنقول هذا يتم أن يكن بين العبد وفعله واسطة و هي الإختيار كما إذا كان الفعل من لوازم وجود العبد بحيث لا يمكن إنفكاك الملزوم عن اللازم و من المعلوم أن الأمر ليس كذلك هذا أولاً.

ثانياً: نقول أن قوله تعالى: **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** المراد بالخالقية، هو أنه تعالى خالق كل شيء على وجه الإختراع و الإبتداع و الخالقية بهذا المعنى تنحصر فيه، و أفعال العباد ليست مخلوقة له تعالى بهذا المعنى كما مر بيانه.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
أي أنزل الله تعالى من السماء ماء و المراد بالماء قيل هو الأمطار و الغيث
النزلة من السماء على الأرض و المنزل هو الله تعالى و الأودية جمع وادي الموضع الذي يسيل فيه الماء ومنه سمي المفرج بين الجبلين وادياً
أودية مثل ناد و أندية و ناج و أنجية و معنى قوله: **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** أي بقدر مياهها.

قال الله تعالى: **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ** (١).

قال الله تعالى: وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَهُهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَغْدًا
مَوْتَهَا^(١).

و أما قوله: فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا فالإحتمال رفع الشئ على الظهر بقوة الحامل له و الحق أن إحتمل بمعنى حمل كإقتدر و قدر أي و حمل السيل زبدًا رابيًا، و الزبد و ضر الغليان و هو خبث الغليان و منه زبد القدر و زبد السيل، و قوله: رَابِيًا أي متنفخاً عالياً على وجه السيل و منه الرُبوة و الرَبَا في الأصل الزيادة و الزَبَد بالفارسية (كَف) رابيًا، يعني كف روي آب فالمعنى أن السيل يحمل زبدًا عاليًا ثم أنه تعالى ضرب مثلاً آخر وقال: وَمِثْلًا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ الإيقاد جعل النار تحت الشئ ليدوب، و في النار، حال من الضمير في عليه و من الذي يوقد الناس عليه حال كونه ثابتاً في النار و هو يعمّ الفلزات و الفلز بكسر الفاء و اللام و تشديد الزاي جوهر الأرض قليل هي الأجساد السبعة المعدنية التي تذاب و هي الذهب، و الفضة، و الحديد، و الآنك، و الزئبق، و الصقر و قيل غير ذلك و المقصود كل ما يذاب و قوله: ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ مفعول له أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب و الفضة، أو متاع، عطف على حلية و هو ما يتمتع به أي ينتفع به كالنحاس و الحديد و الرصاص يذاب فيتحذ منه الأواني و آلات الحروب و الحرث، زبدٌ مثله، قوله: مِثْلُهُ صفة زبد أي و منه ينشأ زبدٌ مثل زبد الماء يعلو عليه إذا أذيب و هو لاخت على أن تكون، من، إبتدائية، أو بعضه زبد مثله على أن تكون تبعية كذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ قوله: كَذَلِكَ في محلّ النصب أي مثل ذلك الضرب و البيان و التمثيل يضرب الله الحقّ و الباطل، أي بينهما و يمثلهما قَامَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً الجفاء بضمّ الجيم كغراب و معناه الباطل، أي فيذهب باطلاً.

بسم القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

و قيل أي جموداً و قال أبو عبيدة قال أبو عمرو، تقول العرب أخبات القدر إذا غلت فأنصب زيدها و سكنت فلا يبقى منه شيء و الجفاء ممدود مثل الغناء و أصله الهمز و أمّا ما ينفعُ النَّاسَ فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ كالماء والفَلزُ فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ أي يبقى ولا يذهب فينتفع به النَّاسُ: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لإيضاح المشتبهات و الأمثال جمع مثل و هو القول الدائر بين النَّاسِ و التمثيل أقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل هذا تفسير ألفاظ الآية.

وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَثَلُ الْحَقِّ فِي الثَّبَاتِ وَالنَّفْعِ بِالماءِ النَّافِعِ وَبِالْفَلزِ الَّذِي يَنْتَفِعُونَ النَّاسُ بِهِ فِي صَوْغِ الْحَلِيِّ مِنْهُ وَاتِّخَاذِ الْأَمْتَعَةِ الْمُخْتَلِفَةِ وَشَبِّهِ الْبَاطِلِ فِي سُرْعَةِ زَوَالِهِ وَقَلَّةِ نَفْعِهِ بِالزَّبْدِ الضَّائِعِ أَيْ بِزَبْدِ السَّيْلِ الَّذِي يَرْمِي بِهِ وَبِزَبْدِ الْفَلزِ الَّذِي يَطْفُو فَوْقَهُ إِذَا أُذِيبَ فَالزَّبْدُ وَأن علا الماء فهو يَفْنَى وَينمحق و كذا الباطل و أن علا الحق في بعض الأحوال فَأَنَّ اللَّهَ سَيَمَحِقُهُ وَيُطْلَهُ وَيجعل العاقبة للحق و أهله كما قيل للحق دولة و للباطل جولة، صولة.

قال صاحب الكشاف هذا مثل ضربه الله للحق و أهله و الباطل و حربه كما ضَرَبَ الْأَعْمَى وَالبصير وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مثلاً لهما فمَثَلُ الْحَقِّ وَأهله بِالماءِ الَّذِي يَنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَسِيلُ بِهِ أَوْدِيَةُ النَّاسِ فَيَحْيَوْنَ بِهِ وَينفعهم أنواع المنافع وَبِالْفَلزِ الَّذِي يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي صَوْغِ الْحَلِيِّ وَاتِّخَاذِ الْأَوَانِي وَالآلَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْحَدِيدُ الَّذِي فِيهِ الْبَأْسُ الشَّدِيدُ لَكَفَى بِهِ، وَأن ذلك ما كَثُرَ فِي الْأَرْضِ بَاقٍ بَقَاءً ظَاهِراً يَثْبِتُ الْمَاءُ فِي مَنَافِعِهِ وَتَبْقَى آثارُهُ فِي الْعْيُونِ وَالْأَبَارِ وَالجُيُوبِ وَالثَّمَارِ الَّتِي تَنْبَتُ بِهِ مِمَّا يَدَخَّرُ وَيَكْزُ وَكَذَلِكَ الْجَوَاهِرُ تَبْقَى أَرْزَمَةً مُتَطَوِّلَةً، وَشَبِّهِ الْبَاطِلِ فِي سُرْعَةِ إِضْمَحْلَالِهِ وَإِنْسِلَاخِهِ عَلَى الْمَنَفْعَةِ بِزَبْدِ السَّيْلِ الَّذِي يَرْمِي بِهِ وَبِزَبْدِ الْفَلزِ الَّذِي يَطْفُو فَوْقَهُ إِذَا أُذِيبَ انْتَهَى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

و قال بعضهم هذا مثل ضربه الله للقرآن و ما يدخل منه في القلوب فشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه و شبّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقتها.

قال صاحب سوق العروس إن صحّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله تعالى مثل القرآن بالماء و مثل القلوب بالأودية و مثل المحكم بالصافي و مثل المتشابه بالزبد نقله القرطبي في تفسيره.

و قال الشيخ في التبيان وقوله: **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** أي يضرب الله مثل الحقّ و الباطل بالماء الذي ينزل من السماء و بجواهر الأرض فأما لهما جميعاً زبداً، هذا عند سيله و جريه، و هذا عند إذايته بالنار و هو و سخره و خبثه فالحقّ الثابت كالماء الذي يبقى في الأرض ينبت به الزرع و الشجر و كالجواهر التي في أيدي الناس تصبر على النار فلا تبطل فيستفغون بها و الباطل كزبد هذين يذهب لا منفعة فيه بعد أن يرى له حركة و اضطراب و في ذلك تنبيه لمن تقدّم ذكره من المشركين الذين سألوها آيات على سبيل التّكذيب و العناد انتهت.

أقول لا شك أن الله تعالى ضرب في الآية مثلين.

أحدهما: للحقّ و الآخر للباطل و الدليل عليه قوله: **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ** فجعل الماء الصافي الذي يبقى في الأرض و يستفّع الناس به و الجواهر التي في أيدي الناس للإنتفاع بها مثلاً للحقّ و الزبد الطّاري على الماء في جريان السيل و على الجواهر بعد الإذابة، للباطل فكما أن الزبد لا دوام له و لا بقاء بل لا وجود له في قبال وجود الماء و الجوهر واقعاً و أن كان موجوداً ظاهراً كذلك لا دوام للباطل بل لا وجود له واقعاً و في نفس الأمر إذ هو في معرض الفناء و الدّثور فالباقي هو أصل الماء و الجوهر كما أن الباقي هو الحقّ فقط و لذلك فسّروا الحقّ بالثابت العين الذي لا يتغيّر و لا يتبدّل أو ما لا

سبيل للبطلان اليه و الحق المطلق هو الله تعالى و ما سواه باطل عاطل، كما قيل:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خِلا بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ
قال الله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ
الْإِكْرَامِ^(١).

قال الله تعالى: وَ أَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أَلْبَاطِلٌ^(٢).
قال الله تعالى: لِيُحَقِّقَ الْحَقُّ وَ يَبْطِلَ أَلْبَاطِلُ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ^(٣).
قال الله تعالى: وَ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ أَلْبَاطِلُ إِنَّ أَلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^(٤).

و غيرها من الآيات الدالة على أنَّ الحقَّ يبقى و الباطل يفنى إذا ثبت هذا فنقول الحقَّ بقولٍ مطلق هو الله تعالى لأنه الثابت الذي لا يتغيَّر و لا يتبدَّل و هو الذي لا زوال له و هكذا كلامه أعني به القرآن و دينه و هو الإسلام بالجملة كلُّ ما ينتسب اليه تعالى فهو حقٌّ و ما ليس كذلك فهو باطل و حيث أنه تعالى أنزل الماء و أوجد الجوهر فهما أيضاً داخلان في الحقَّ و لذلك ضرب الله المثل بها نعم أنهما منسوبان للحقَّ و أما بحسب ذاتهما فهما باطلان لأنهما في معرض الفناء.

و مُحْصَلُ الكلام في الآية هو أنَّ الله تعالى حقٌّ و ما سواه باطل بحسب الذات فلا موجود في عالم الوجود واقعاً إلا هو و ما سواه كالزُّبْد الطَّارِي على الماء و الجوهر فالدُّنيا و ما فيها من النِّعم كُلِّها لا بقاء لها فلا يعتمد عليها والى هذه الدقائق أشار الله بقوله في آخر الآية كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ و أن شئت قلت كما أنَّ الموجود في الخارج هو الماء و الجوهر و الزُّبْد طارٍ عليهما كذلك أصل الموجود للحقَّ و الباطل طارٍ عليه و الطَّارِي يفنى لحدوثه و المطرُّو عليه يبقى لوجوبه و ثبوته هذا ما فهمناه من الآية والله أعلم.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَ
مَا فِيهِمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

الحسنى بضم الحاء ضدّ السوآي، العاقبة الحسنة.

قال في المفردات و الفرق بين الحسن والحسنة والحسنى أنّ الحسن يقال
في الأعيان والأحداث وكذلك الحسنة إذا كانت وصفاً وإذا كانت إسماءً
فمتعارف في الأحداث، والحسنى لا يقال إلا في الأحداث دون الأعيان
انتهى.

أقول وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال المرء
المسلم البري من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنين أي إحدى
العاقبتين اللتين كلّ واحدةٍ منهما حسنى العواقب وهما النّصر و
الشّهادة.

و قال المفسّرون أراد الله تعالى بالحسنى الجنّة والخلود في نعيمها،
فمعنى قوله: لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْنَى أنّ الذين يجيبون دعاء الله الى
طرق التّوحيد والعمل بشريعته و تصديق نبيّه و يطلبون مرضاته في أفعالهم و
أقوالهم، لهم الحسنى أي لهم حسن العاقبة أو لهم الجنّة وذلك لأنّهم أطاعوا
ربّهم في أوامره و نواهيه فتختم عاقبتهم بالخير والذين لم يستجيبوا له أي لم
يجيبوا داعي الله فلم يقرّوا بتوحيده و شريعته لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ أي لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ملكاً لهم و يضيفوا اليه مثله
في الكثرة لأفتدوا بجميع ذلك أنفسهم من عذاب النّار و طلبوا به الخلاص منه
لو قبل ذلك منهم و الافتداء جعل أحد الشّيئين بدلاً من الآخر على وجه
الإتقاء به فهؤلاء لا يقيهم من عذاب الله شيء، و لهم سوء الحساب.

قيل في معناه هو مؤاخذه العبد بذنبه لا يغفر له شيء.

و قيل أخذه به على وجه التوبيخ و التقرع و الحساب إحصاء ما على العبد
وله: **وَأَوْيَهُمْ جَهَنَّمُ وَ يَسَّ الْأَمْهَادُ الْمَهَادُ** الفراش الذي يوطأ لصاحبه و
المعنى مكانهم النار و بس الفراش هو.

و قال صاحب الكشاف في قوله: **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا** اللام متعلقة بيضرب
في قوله: **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** أي كذلك يضرب الله الأمثال
للمؤمنين الذين إستجابوا لرهبهم و للكافرين الذين لم يستجيبوا أي هما مثلاً
الفريقين و الحسنى صفة لمصدر إستجابوا أي إستجابوا الإستجابة الحسنى و
قوله: **لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ** كلام مبتدأ في ما أعد لغير المستجيبين و قيل
قد تم الكلام عند قوله: **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** و ما بعده كلام مستأنف
و الحسنى مبتدأ، خبره للذين إستجابوا و المعنى لهم المثوبة الحسنى و هي
الجنة انتهى كلامه.

أقول المشهور عن المفسرين هو الوقف على الأمثال وقوله: **لِلَّذِينَ**
اسْتَجَابُوا الخ كلام مستأنف فما ذكره في تفسير الآية لا يعتمد عليه مضافاً إلى
أن قوله تعالى: **لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ** الخ لا يناسب ما ذكره.

**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُوا الْأَلْبَابِ**

الإستفهام في قوله: **أَفَمَنْ يَعْلَمُ** للإنكار أي ليس كذلك أخبر الله تعالى في
هذه الآية أن المؤمن بالله و رسوله و هو الذي يعتقد أن الكتاب المنزل على
الرّسول أعني به القرآن حق لا مرية فيه ليس كمن هو أعمى أي أعمى القلب و
هو كناية عن الكفر و الإنكار و الحاصل أن المؤمن ليس كالكافر قطعاً أنما يتذكر
ذلك و يفكر فيه و يستدل به ذوو العقول و المعرفة و الأبواب جمع لب و هو
العقل الخالص عن شوائب الأهوام.

قال بعضهم أنما شبه العلم بالبصر والجهل بالعمى لأن العلم يهتدي به إلى طريق الرشد من الغي كما يهتدي بالبصر إلى طريق النجاة من طريق الهلاك وعكس ذلك الجهل والغي قيل أنها نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمار وأبي جهل وكيف كان ففي الآية إشعار بل دلالة على أن العالم بالشيء لا يكون كالجاهل به فالمراد بالأعمى، ليس فاقد البصر بل المراد فاقد البصيرة ولذلك قابله بالعلم ونظائرها كثيرة في القرآن:

قال الله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ^(١).

قال الله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ^(٢).

وأعلم أن الذكر يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال إعتباراً بإحرازه والذكر يقال إعتباراً باستحضاره وهو قد يكون عن نسيانٍ وقد يكون لا عن نسيانٍ بل عن إدامة الحفظ وأما خصّ الذكر في الآية بأولي الألباب لأن التذكر لا يكون إلا لذي لب قد خلص من قشر غواشي النشأة كما أن النسيان أنما يحصل بسبب الغواشي ولذلك قال بعض العرفاء في معنى قوله: إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ أي لا يقبل نصح القرآن ولا يعمل به إلا ذوو العقول الصافية من معارضة الوهم أعني بهم من إستخرجت عقولهم من قشور آفات الحواس والوهم والخيال المؤيدة بتجلي أنوار الجمال والجلال فأَنْ طالب الحق لا بد له في التذكية، من التفكير ثم التذكر وبينهما فرق فأَنْ التذكر فوق التفكير لأن التفكير طلب والتذكرة وجود يعني أن التفكير لا يكون إلا عند فقدان المطلوب وأما التذكر فعند رفع الحجاب وخلص الخلاصة الإنسانية من قشور صفات النفس والرجوع إلى الفطرة الأولى فيتذكر ما إنطبع في النفس في الأزل من التوحيد والمعارف بعد النسيان انتهى كلامه.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ

قوله: الَّذِينَ فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِأَوَّلِي الْأَبَابِ فَكَأَنَّهُ قَالَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أَوْ لَوْ الْأَبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ الْعَهْدُ حِفْظُ الشَّيْءِ وَمُرَاعَاتُهُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ وَ سَمِيَ الْمُوثَقَ الَّذِي يُلْزَمُ مُرَاعَاتُهُ عَهْدًا وَ أَمَّا عَهْدُ اللَّهِ فَقَدْ يُقَالُ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَمَّا رَكَّزَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي عَقُولِنَا وَ تَارَةً يَكُونُ بِمَا أَمَرْنَا بِهِ، بِالْكِتَابِ وَ بِالسَّنَةِ وَ رِسْلِهِ وَ تَارَةً بِمَا نَلْتَزِمُهُ فِي أَصْلِ الشَّرْعِ كَالنَّدْوَرِ وَ مَا يَجْرِي مَجْرَاهَا وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ اِخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ بِعَهْدِ اللَّهِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَا عَهْدُ الْبِهِمِ فِي الْقُرْآنِ.

وَ قَالَ قِتَادَةُ مَا عَهْدُ الْبِهِمِ فِي الْأَزْلِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى وَ قَالَ الْفُقَالُ مَا فِي جِبَلْتِهِمْ وَ عَقُولِهِمْ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوتِ. وَ قِيلَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَ الْقُرْآنِ، وَ قِيلَ الْمَأْخُوذُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رِسْلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ فِي نَقْلِهَا بَعْدَ وَضُوحِ الْمَعْنَى فَإِنَّ الظَّاهِرَ هُوَ إِضَافَةُ الْعَهْدِ إِلَى الْفَاعِلِ أَيْ بِمَا عَهْدُ اللَّهِ وَ الظَّاهِرُ عُمُومُ الْعَهْدِ وَ تَخْصِيصُهُ بِمَا ذَكَرُوهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا ثَبَتَ وَ جُوبِ الْعَمَلُ بِهِ فِي أَصْلِ الشَّرْعِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِثَائِي فَارْهَبُونِ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ أَلْمُؤَفُّونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا^(٥) وَ الْآيَاتُ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَسْتَفَادُ مِنْهَا وَ جُوبُ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ فَقَدْ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ

قيل لعلي بن الحسين عليه السلام أخبرني بجميع شرائع الدين فقال عليه السلام قول بالعدل و الوفاء بالعهد للبر والفاجر هذه جميع شرائع الدين. وقال الصادق عليه السلام ثلاثة لم يجعل الله تعالى لأحد من الناس فيها رخصة منها الوفاء بالعهد للبر والفاجر ثم أن المراد بعهد الله هنا أعم من التذر واليمين والعهد المصطلح بل يندرج في ذلك جميع ما عهد الله تعالى الى خلقه من التكليف.

وقد ورد في عدة أخبار كثيرة أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالسلام على أمير المؤمنين عليه السلام بإمرة المؤمنين فقال له أبو بكر حين أمره صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، من الله أو من رسوله فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم نعم من الله ومن رسوله ثم قال له صلى الله عليه وآله وسلم عمر، من الله أو من رسوله فقال له صلى الله عليه وآله وسلم من الله و من رسوله فقاما و سلما فخرجا و هما يقولان لا و الله لا نسلم له أبداً فأنزلت أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم و لا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ^(١).

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ ^(٢) و المقصود أن الآية المبحوثة عنها في المقام لا تختص بالمشركون فقط كما زعم القوم فإن خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى كيف رأينا أكثر المسلمين نقضوا عهد الله و عهد رسوله في غدير خم فمن وفى بعهد الله فهو من أولي الألباب الذين يوفون بعهد الله مثل سلمان و مقداد و أبي ذر و من لم يف كأكثر المسلمين المنافقين فهم لم يكونوا من أولي الألباب و سيأتي تفصيل الكلام في العهد و الميثاق في موضع آخر إن شاء الله.

في
القرآن
في
تفسير
القرآن



وَ الَّذِينَ يَصْلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ

العدل
رأى

الواو للعطف فهذه الآية معطوفة على الأولى وهي أيضاً من صفات المؤمن أي أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون ميثاقه ومع ذلك يصلون ما أمر الله به أن يوصل الخ ففي الآية وصفهم الله بأوصاف ثلاثة:

أحدها: يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ.

ثانيها: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.

ثالثها: يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ.

أما الوصف الأول: فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به صلة الأرحام.

وقيل المراد به صلة الرسول بالإيمان به.

وقيل صلة الإيمان بالعمل.

وقيل صلة قرابة الإسلام بإنشاء السلام وعبادة المرضى وشهود الجنائز و مراعاة حق الجيران والرفقاء والأصحاب والخدم.

وقيل المراد نصرة المؤمنين والحق أن المراد به كل ما أمر الله به في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ والتخصيص لا دليل عليه، والوصل ضد الفصل يقال وصله وصلاً وأوصله إيصالاً وإتصل إتصالاً وهو في الأصل ضمّ الثاني إلى الأول من غير فاصلة.

نعم ما ذكره في تفسير الكلام من مصاديق العام ولا بأس به فإن صلة الأرحام وعبادة المريض ومراعاة حقوق الإنسان وأمثالها مما أمر الله به أن يوصل بل نقول يدخل في الآية جميع الواجبات والمستحبات ويخرج منها جميع المحرمات والمكروهات فإن الأحكام الشرعية لا تخلو من هذين القسمين أعني بهما الفعل وترك.

وأما قوله: يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أي أنهم يخافون ربهم والفرق بين الخوف والخشية أن الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك من علم بما

يخشى منه و لذلك خصّ العلماء بها في قوله: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** و لذلك يطلق الخوف على الحيوان و الإنسان و أما الخشية فلا تطلق إلا على الإنسان و قد مدح الله تعالى المؤمنين الذين يخشون ربهم في كثير من الآيات. قال الله تعالى: **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ^(١)**. قال الله تعالى: **وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشِ اللَّهَ وَ يَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٢)**.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ^(٣)**.

قال الله تعالى: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى^(٤)**.

و غيرها من الآيات والذي ينبغي الالتفات اليه هو أنّ الخشيّة للمؤمن لا تتحقق إلا عن المعرفة فأَنْ من لا يعرف الله لا يخشى منه فمن عرف الله خشيه خشية لا يخشى من غيره اذ لا عظمة لغيره تعالى حتّى يخاف منه لعظمته و اذا كان كذلك فالعبد لا يخشى إلا ربه و الى هذه الدّقيقة أشار الله تعالى:

قال الله تعالى: **وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ^(٥)**.

قال الله تعالى: **فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَ آخْشَوْنَ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا^(٦)**.

قال الله تعالى: **وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ^(٧)** وهكذا.

و ذمّ الله تعالى من خشي الناس كخشية الله:

قال الله تعالى: **إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً^(٨)**.

١- البينة = ٨

٢- النور = ٥٢

٣- فاطر = ٢٨

٤- النازعات = ٢٦

٥- الأحراب = ٣٧

٦- المائدة = ٤٤

٧- الأحراب = ٣٩

٨- النساء = ٧٧

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** أَيِ يَخَافُونَ مَنَاقِشَةَ الْحِسَابِ وَقِيلَ هُوَ مُوَازِئَةُ الْعَبْدِ بِذَنْبِهِ لَا يَغْفِرُ لَهُ شَيْءٌ مِنْهُ وَأَمَّا قَالَ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَلَمْ يَقُلْ وَيَخْشَوْنَ سُوءَ الْحِسَابِ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَأَنَّ الْعِظْمَةَ مُخْصَوَصَةٌ بِهِ تَعَالَى وَ مَا سِوَاهُ كَانَتْ مَا كَانَ لَا عِظْمَةَ لَهُ فِي جَنْبِ عِظْمَتِهِ.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ

هذه الآية أيضاً عطف على ما سبق وفيها أيضاً مدح الله المؤمنين بأمرين:
أحدها: الصبر.

ثانيها: إقامة الصلوة.

ثالثها: الإنفاق.

رابعها: رفع السيئات بالحسنات.

خامسها: أن لهم عقبى الدار.

فَأَشَارَ إِلَى الْأَوَّلِ: وَهُوَ الصَّبْرُ بِقَوْلِهِ: **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** الصَّبْرُ الْإِمْسَاكُ فِي ضَيْقٍ يُقَالُ صَبَرْتُ الدَّابَّةَ حَبَسْتُهَا بِلَا عِلْفٍ وَهُوَ فِي الْإِنْسَانِ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ وَالشَّرْعُ أَوْ عَمَّا يَقْتَضِيَانِ حَبْسَهَا عَنْهُ فَالصَّبْرُ لَفْظٌ عَامٌّ وَرَبَّمَا خُولِفَ بَيْنَ أَسْمَاءَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ مَوَاقِعِهِ فَأَنَّ كَانَ حَبْسُ النَّفْسِ لِمَعْصِيَةٍ سَمِّيَ صَبْرًا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَيُضَادُّهُ الْجَزَعُ وَأَنَّ كَانَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ.

سُمِّيَ صَبْرًا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَأَنَّ كَانَ فِي مُحَارَبَةٍ سَمِّيَ بِشَجَاعَةٍ وَأَنَّ كَانَ فِي إِمْسَاكِ الْكَلَامِ سَمِّيَ كِتْمَانًا وَأَنَّ كَانَ فِي نَائِبَةِ مُضْجَرَةٍ سَمِّيَ رَحْبَ الصُّدْرِ وَهَكَذَا وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ ذَلِكَ صَبْرًا وَلَا شَكَّ فِي مَدْحِهِ بِأَقْسَامِهِ وَ

الآيات والأخبار الواردة في الباب كثيرة لا نحتاج الى ذكرها والإشارة اليها لوضوحها وأنها لا تخفى على أحد وقد فسّرهُ علماء الأخلاق بثبات النفس و عدم إضطرابها في الشّدائد والمصائب بأن تقاوم معها بحيث لا تخرجها عن سعة الصّدر وما كانت عليه قبل ذلك من السُّرور والطُمأنينة فيحبس لسانه عن الشّكوى وإغصاءه عن الحركات الغير المتعارفة ويظهر من ذلك أنّ أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصّبر ولذلك لما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان قال ﷺ هو الصّبر لأنّه أكثر أعماله وأشرفها كما قال ﷺ الحجّ عزمٌ، وقد عرّف مطلق الصّبر بأنّه مقاومة النفس مع الهوى وبعبارة أخرى أنّه ثبات باعث الدّين في مقابلة الهوى.

و المراد بباعث الدّين هو العقل النّظري الهادي الى طريق الخير والصّلاح والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدّية الى الفوز والفلاح.

و المراد بباعث الهوى هو قوّة الشهوة الخارجة عن إطاعة العقل، و القتال دائماً بين الباعثين قائمٌ و الحرب بينهما أبداً سجال، و قلب العبد معركته و مدد باعث الدّين من الملائكة و مدد باعث الهوى من الشّياطين ثمّ أنّ الصّبر متى تيسّر و صار ملكة راسخة أورث مقام الرّضا و اذا أدام مقام الرّضا أورث مقام المحبّة.

قال بعض العارفين أهل الصّبر على ثلاث مقامات:

الأوّل: ترك الشّكوى وهذه درجة التّائبين.

الثّاني: الرّضا بالمقدّر وهذه درجة الرّاهدين.

الثّالث: المحبّة لما يصتبع به مولاة وهذه درجة الصّديقين.

و من المعلوم أنّ هذا الإنقسام مخصوص بالصّبر على المكروه من المصائب و المحن ثمّ أنّ الباعث على الصّبر إمّا إظهار الثّبات و طمأنينة القلب عند النّاس ليكون عندهم مرضياً موصوفاً بالصّبر كما نقل عن معاوية أنّه أظهر البشاشة وترك الشّكوى في مرض موته ليعدّ عند أهل الشّام من الصّابرين فقال:

وَتَجَلَدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لَرِيبَ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُضُ
وَهَذَا صَبْرُ الْعَوَامِ وَهُمْ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ
الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ.

أَوْ تَوَقَّعَ الثَّوَابَ وَنِيلَ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي دَارِ الْآخِرَةِ وَهَذَا صَبْرُ الزَّهَادِ وَ
الْمُتَّقِينَ، أَوْ الْإِلْتِذَاذَ وَالِإِبْتِهَاجَ بِوُرُودِ الْمَكْرُوهِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَأَنْ كَانَ مَا
يُؤْذِيهِ إِبْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لَهُ وَهَذَا صَبْرُ الْعَارِفِينَ إِذَا عَرَفَتِ الصَّبْرَ وَأَقْسَامَهُ وَمَا
يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَدْحِ عَقْلًا وَنَقْلًا فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الصَّبْرَ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ وَكَانَ
لَأَجْلِ حَصُولِ بَعْضِ الْأَغْرَاضِ وَالِدُّوَاعِي فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْبَحْثِ.

وَالِى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ
وَجْهِ رَبِّهِمْ فَإِنَّ الْإِبْتِغَاءَ الطَّلَبَ وَالْمَعْنَى وَالَّذِينَ صَبَرُوا بِجَمِيعِ أَقْسَامِ الصَّبْرِ وَ**
كَانُوا يَطْلُبُونَ بِهِ رِضَا الرَّبِّ لَا غَيْرَهُ مِنَ الْأَغْرَاضِ وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْمَقَامِ
وَالْمَعْدُودِ مِنْ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي: لَهُمْ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: **وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ قَبْلَ الْمَرَادِ**
بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ إِيْتَانِهَا بِجَمِيعِ شُرَائِطِهَا وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَقَامُوا بِحُدُودِهَا وَقِيلَ
مَعْنَاهَا أَدَامُوا عَلَى فِعْلِهَا وَالْأَوَّلُ أَوْلَى وَأَصَحُّ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ عِنْدَ التَّأَمُّلِ.

وَأَمَّا خَصَّ الصَّلَاةَ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْهَا لِأَنَّهَا عَمُودُ الدِّينِ إِنْ قَبِلَتْ قَبْلَ
مَا سِوَاهَا وَإِنْ رَدَّتْ رَدًّا مَا سِوَاهَا، وَلِأَنَّهَا مَعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ وَلِأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ مِنَ الْمَفْرُوضَاتِ الَّتِي لَا تَسْقُطُ بِحَالٍ لَا فِي سَفَرٍ
وَلَا فِي حَضَرٍ وَلَا فِي صُورَةِ نَسْيَانٍ وَلَا فِي صَحَّةٍ وَلَا فِي مَرَضٍ حَتَّى الْغَرِيقُ وَ
الْمَطَارِدُ فَلَا يَتْرَكَهَا بَلْ يَأْتِيَانِ بِهَا كَيْفَ تَيَسَّرَ وَكَذَا لَا تَسْقُطُ عَنِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ
بِخِلَافِ غَيْرِهَا مِنَ الْمَفْرُوضَاتِ فَأَنَّهَا قَدْ تَسْقُطُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ كَالصَّوْمِ
بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّيْخِ الْفَانِي وَالْحَجِّ وَالزَّكَاةِ فَأَتَتْهُمَا مِنَ الْمَفْرُوضِ الْمَشْرُوطِ.

وَقَدْ وَرَدَ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ عَمْدًا فَقَدْ كَفَرَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ أَوَّلُ وَاجِبٍ مِنْ

المفروضات في الشريعة على ما قيل و الأخبار في فضلها و ما يترتب عليها من الآثار في الدنيا و الآخرة كثيرة و للبحث فيها مقام آخر.

وأما الوصف الثالث: و هو الإنفاق فقد أشار الله تعالى اليه بقوله: **وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً** قال الزاغبي في المفردات، نفق الشيء مَضَى و نفذ، و الإنفاق في الحقيقة الإنفاذ و هو ممدوح عقلاً و شرعاً فَأَنْ ضَدَّهُ البخل و الإمساك و هو مذموم بلا كلام و قد ثبت أَنَّ الأشياء تعرف بأضدادها فإذا كان الْبُخْلُ مذموماً فالإنفاق الَّذي ينشأ من الجود ممدوح و كفى في إثباته أطباق العقلاء من جميع الفرق على حسنه و مدحه مضافاً الى الآيات و الأخبار الواردة فيه ثُمَّ أَنَّ الإنفاق مترتب على الجود و السَّخَاءِ بل هو من ثمراتهما و هو أي الجود و السَّخَاءِ من ثمرات الزُّهْدِ كما أَنَّ البخل من ثمرات حُبِّ الدُّنْيَا و عليه فينبغي لكل سالكٍ لطريق الآخرة أن يكون حاله القناعة إن لم يكن له مالٌ.

و السَّخَاءُ و إصطناع المعروف أن كان له مال و لا ريب أَنَّ الجود و السَّخَاءَ من شرائف الصفات و معالي الأخلاق و هو أصلٌ من أصول النجاة و أشهر أوصاف التَّيْبِينَ و أعرف أخلاق المرسلين.

قال رسول الله ﷺ **السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مَتَدَلِّيَةٌ إِلَى الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ مِنْهَا غَصْنًا قَادَهُ ذَلِكَ الْغَصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ.** و قال ﷺ **أَنَّ السَّخَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ.**

و قال ﷺ **أَنَّ مِنْ مَوْجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلُ الطَّعَامِ وَ إِفْشَاءُ السَّلَامِ وَ حُسْنُ الْكَلَامِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ.**

ثُمَّ أَنَّ الإنفاق قد يكون في المال و قد يكون في غيره و قد يكون سرّاً و قد يكون جهراً و الآية بعمومها تشمل جميع مصاديق الإنفاق و يدخل فيه الإيثارة أن يجود بالمال مع الحاجة اليه قال تعالى:

وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١).

و ينبغي في جميع مراتب الإنفاق أن يراعي حدّ الوسط بين الإقتار و الإسراف لقوله تعالى لنبيه:

قال الله تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ^(٢).

قال الله تعالى: وَ الْأَذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(٣).

فالإنفاق و العجود وسط بين الإقتار و الإسراف و بين البسط و القبض و هو تقدير البذل و الإمساك بقدر الواجب اللائق.

و الوصف الرابع، و هو رفع السيئة بالحسنة فقد أشار الله اليه بقوله: وَ يَذَرُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الذَّرءُ الرَّفْعُ و منه قولهم أنّ الحدود تدرء بالشبهات أي ترفع عند الشبهة و المقصود أنّهم يرتفعون أو يدفعون بفعل الطاعات المعاصي.

قال الله تعالى: وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ^(٤).

قال الله تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(٥).

قال الله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا^(٦).

فمعنى قوله: يَذَرُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ هو أن يعملوا أعمالاً صالحة تبطل ما قدّموه من الإساءة.

و قيل هو أن يعفوا تعالى عن سيئاتهم و يحتسب بحسناتهم.

إذا ثبت لهم هذه الأوصاف المذكورة من الصبر وإقامة الصلاة والإنفاق ودرء السيئات بالحسنات فلهم الجنة والى ذلك أشار بقوله: **أُولَئِكَ لَهُمْ عِيقِي الدَّارِ** أي عاقبة الدار وهي الجنة التي وعد الله الصابرين بها:

قال الله تعالى: **سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** (١).

قال الله تعالى: **أُكْلُهَا ذَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** (٢).

يقول العبد (اللهم اجعلنا منهم آمين رب العالمين).

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ

هذه الأوصاف ثابتة للدَّار المشار إليها بقوله: **عُقْبَى الدَّارِ** والمراد بها الجنة كأنه قيل وما أوصاف الدَّار، فقال تعالى: **جَنَّاتُ عَدْنٍ** والجنات البساتين التي يحفها الشجر واحدها جنَّة وأصله السَّتر يقال جنَّه إذا ستره ومنه.

قوله تعالى: **جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ**، أي ستر والعدن بفتح العين وسكون الدال والنون الإقامة الطويلة يقال عدن بالمكان إذا أقام به مدة طويلة منه المعادن التي يخرج منها الذهب والفضة وغيرهما، والهاء في، يدخلونها، يرجع الى جنات عدن التي هي بدل من عقبي الدار ويحتمل أن يكون قوله: **جَنَّاتُ عَدْنٍ** خبر ابتداء محذوف أي هي جنات عدن.

وقرأ النحعي، جنَّة عدن بالأفراد كما قرأ عيسى الثقفي وذرَّيتهم بالتوحيد والجمهور بالجمع **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** أي و يدخلون فيها أيضاً من صلح من آباء المؤمنين وذرَّياتهم لوجود الملاك

في القرآن
في تفسير القرآن



الجمهورية
البحرينية

الإِتِّصاف بالأوصاف المذكورة فيهم لا لأنهم يدخلونها للآبوة أو لكونهم ذرياتهم إذ لا منافاة بين كَوْن الأنباء في الْجَنَّة والآباء في النَّار أو الآباء في الْجَنَّة والذريات في النَّار وذلك لأنَّ الْجَنَّة مقام الْمُتَّقِينَ والأبرار والنَّار مقام الكافرين والأشعار فالمراد بالصلاح في قوله: **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ** هو إستقامة الحال الى ما يدعوا اليه العقل والشرع والمصلح من يفعل الصَّلاح والصالِح المستقيم الحال في نفسه والذُّرِّيَّة بضم الذال وكسر الرءاء المشددة في الأصل الصَّغار من الأولاد وأن كان قد يقع على الصَّغار والكبار معاً في التعارف ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع وهو مشتق من ذرأ الله الخلق فترك همزه نحو رؤية وبرية، وقيل أصله ذروية، وقيل هو فعلية من الذر نحو قمرية وقوله: **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** أي يدخلون عليهم بالتحية والكرامة وفيه تعظيم الذَّكر للملائكة وقوله: **مِنْ كُلِّ بَابٍ** أي أبواب الْجَنَّة فإنَّ لها أبواب كثيرة.

قال بعض المفسرين أي باب الصَّلاة وباب الزَّكوة وباب الصَّبْر الخ.
أقول والأصل فيه هو قوله تعالى في وصف الْجَنَّة حيث قال: **هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ، جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَعَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ**^(١) وأبواب الْجَنَّة ثمانية وأبواب جهنم سبعة كما يأتي تفصيل الكلام فيها في سورة الزَّمر وغيرها.
وعن كتاب الخصال في إحتجاج علي عليه السلام على النَّاس يوم السَّورى.
قال عليه السلام نشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ من سره أن يحيي حياتي ويموت مماتي ويسكن جنَّتي التي وعدني الله ربِّي جَنَّتٍ عَدْنٍ قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان فليوال علي بن أبي طالب و ذريته من بعده فهم الأئمة وهم الأوصياء أعطاهم الله علمي وفهمي لا يدخلونكم في باب ضلالٍ و

لا يخرجونكم من باب هدى لا تُعلموهم فهم كعلم منكم يزول الحَقّ معهم أينما زالوا، غيري قالوا اللهم لا إنتهى.
و عن عليٍّ عليه السلام أنه سئله بعض اليهود فقال أين يسكن نبيكم من الجنة.

قال عليه السلام: في أعلاها درجةً و أشرفها مكاناً في جنّات عدنٍ، قال صدقت والله أنه بخط هارون و إملاء موسى عليه السلام إنتهى.
و بأسناده عن أبان بن تغلب قال سمعت أبا عبد الله يقول قال رسول الله ﷺ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْيِيَ حَيَاتِي وَيَمُوتَ مِيتَتِي وَيَدْخُلَ جَنَّةَ عَدْنٍ الَّتِي غَرَسَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ فَلْيَتَوَالَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَلْيَتَوَالَ وَلِيَّهُ وَلْيَعَادِ عَدُوَّهُ وَلْيَسْلَمْ لِلْأَوْصِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَإِنَّهُمْ عَتَرَتِي مِنْ لَحْمِي وَدُمِّي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ فَهَمِي وَ عِلْمِي إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ أُمَّتِي الْمُنْكَرِينَ لِفَضْلِهِمُ الْقَاطِعِينَ فِيهِمْ صَلَاتِي وَأَيْمُ وَاللَّهُ لَتَقْتُلُنَّ ابْنِي لَا أَنَالَهُمُ اللَّهُ شِفَاعَتِي إِنْتَهَى.

و عن كتاب من لا يحضره الفقيه في خبر بلال عن النبي ﷺ الذي يذكر فيه صفة الجنة قال فقلت لبلال هل وسطها غيرها قال نعم جنة عدنٍ وهي في وسط الجنان و أما جنة عدنٍ فسورها ياقوت أحمر و حصاها اللؤلؤ إنتهى.

و عن كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال من أطعم ثلاثة نفر من المؤمنين أطعمه الله من ثلاث جنّات، ملكوت السماء، الفردوس، و جنة عدنٍ، و طوبى و هي شجرة من جنة عدنٍ غرسها ربّي بيده إنتهى.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ
أي يقولون سَلَامٌ عَلَيْكُمْ و القول محذوف لدلالة الكلام عليه والعُقبى بضم العين الإنتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خيرٍ أو شرٍّ فعقبى المؤمن الجنة

فهي نعم الدار وعقبى الكافر النار وهي بس الدار، وما، في قوله: **يَمَا صَبَرْتُمْ** بمعنى المصدر فكأنه قال **بصبركم** وقيل بمعنى، الذي، كأنه قال بالذي صبرتم على فعل طاعاته وتجنب معاصيه والسلام التحية بالكرامة على إنتفاء كل أمر يشوبه من مضرة.

في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي في حديث طويل يصف فيه حال المؤمن اذا دخل جنّته و غرفه و فيه، ثم يبعث الله له ألف ملك يهتئون بالجنة و يزّوجونه بالحوراء فينتهون الى أول باب من جنانه فيقولون للملك الموكّل بأبواب الجنان إستأذن لنا على وليّ الله فأَنّ الله قد بعثنا مهتئين فيقول الملك حتّى أقول للحاجب فيعلمه مكانهم فيدخل الملك الى الحاجب و بينه و بين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي الى أول باب فيقول للحاجب أنّ على باب العرصة ملك أرسلهم ربّ العالمين جاءوا يهتئون وليّ الله و قد سألوا أن أستأذن لهم عليه، و ساق الحديث الى أن قال، فيؤذن لهم فيدخلون على وليّ الله و هو في الغرفة و لها ألف باب و على كل باب من أبوابها ملك موكّل فاذا أذن للملائكة بالدخول على وليّ الله فتح كل ملك بابه الذي قد وكلّ به فيدخل كل ملك من باب من أبواب الغرفة فيبلغونه رساله الجبار و ذلك قول الله **وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** يعين من أبواب الغرفة، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار انتهى.

و الأحاديث كلّها رويناهم من تفسير نور الثقلين^(١) وسيأتي تفصيل الكلام في المستقبل إن شاء الله.

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ
يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
(٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ
فَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ
يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا
وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ
الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي
أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ آيَاتِي
أَوْ حِينَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ
رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٍ
(٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ
بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ
جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ
اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا فَارَعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ
حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ
(٣١) وَ لَقَدْ أَسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)

◀ اللّغة

يَنْقُضُونَ نَقْضَ الْعَهْدِ هُوَ الْعَمَلُ بِخِلَافِ مُوجِبِهِ وَالتَّقْضُ فِي الْأَصْلِ إِنْتِشَارُ الْعَقْدِ مِنَ الْبِنَاءِ وَ الْحَبْلُ وَالْعَقْدُ وَ هُوَ ضِدُّ الْإِبْرَامِ وَ مِنْ نَقْضِ الْحَبْلِ وَ الْعَقْدِ أَسْتَعِيرَ نَقْضَ الْعَهْدِ.

مِثَاقُهُ أَصْلُهُ مِوْثَاقٌ، بَدَلَتْ الْوَإِيَاءُ لِأَنَّهُ مِنَ الْوُثُوقِ وَ مِثَاقُ الْعَهْدِ تَوْثِيقُهُ بِأَوْكَدِ مَا يَكُونُ.

يَسْتَطِيعُ الْبَسْطُ التَّوْسِيعَةُ أَيْ يَوْسِعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ.
فَرِحُوا الْفَرَحَ السُّرُورَ.

مَتَاعٌ أَيْ قَلِيلٌ ذَاهِبٌ وَ مِنْهُ التَّمَتُّعُ.

أَنَابَ الْإِنَابَةُ الرَّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ بِالتَّوْبَةِ.

مَتَابُ الْمَأْبِ الْمَرْجِعُ يُقَالُ أَبٌ يُؤَبُّ أَوْبًا إِذَا رَجَعَ.

مَتَابِ الْمَتَابِ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَ التَّوْبَةُ مُصْدَرَانِ يُقَالُ تَابَ يَتُوبُ تَوْبَةً وَ مَتَابًا.

قَارَعَةُ الْقَارَعَةِ الدَّاعِيَةُ الدَّاهِيَةُ الْمَهْلِكَةُ.

أَلْمِيعَادُ بِكَسْرِ الْمِيمِ مُصْدَرُ أَصْلِهِ مَوْعَادُ لِأَنَّهُ مِنْ وَعَدَ يَعِدُ بَدَلَتْ الْوَإِيَاءُ كَمَا فِي الْمِثَاقِ.

فَأَمْلَيْتُ أَيْ أَخْرَجْتُ عِقَابَهُمْ يُقَالُ أَمَلَى يَمْلِي وَ أَصْلُهُ طَوَّلَ الْمَدَّةَ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ الْإِمْهَالُ وَ الْمَأَلُ وَاحِدٌ.

◀ الإعراب

بِذَكَرَ اللَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ أَيْ الطَّمَأْنِينَةُ تَحْصُلُ لَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ الْقُلُوبِ أَيْ تَطْمَئِنُّ وَ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مُبْتَدَأُ وَ طَوْنِي لَهُمْ مُبْتَدَأُ ثَانٍ وَخَبَرٌ فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ الْأَوَّلِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُحذُوفٍ أَيْ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا، فَيَكُونُ، طَوْبَى لَهُمْ،

حال مقدرة والعامل فيها آمنوا وعملوا، ويجوز أن يكون بدلاً من أناب أو بإضمار، أعني وَحُسْنُ مَا بٍ مَعُطُوفٍ عَلَى، طوبى، اذا جعلتها مبتدأً وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا جواب لو، محذوف أي لكان هذا القرآن.

وقال الفراء جوابه مقدم عليه أي وهم يكفرون بِالرَّحْمَنِ أَوْ كَلِمَةٍ بِهِ الْمَوْتَى الوجه في حذف التاء من الفعل حيث لم يقل، كلمت، مع إثباتها في الفعلين قبله وهما، سَيَّرَتْ و قَطَعَتْ، هو أَنَّ الْمَوْتَى يشتمل على المذكر الحقيقي والتغليب له فكان حذف التاء أحسن والجبال والأرض ليسا كذلك أَنْ لَوْ يَشَاءُ في موضع نصب بيبأس، لأنَّ معناه أفلم تبيِّن و يعلم أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا فاعل تحل ضمير القارة و قيل هو للخطاب أي أو تحل أنت يا محمد قريباً منهم بالعقوبة فيكون موضع الجملة نصباً عطفاً على، نصيب.

التفسير

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَالِ الَّذِينَ يُوْفُونَ بَعْدَهُ وَأَنَّ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ، ذكر في هذه الآية عاقبة أمر الذين ينقضون عهد الله ثم أردف كلامه بذكر من يقطع ما أمر الله به أن يوصل، والمفسدين في الأرض و حكم بأنَّ لهم اللَّعْنَةَ و سوء الدَّارِ فالبحث في الآية في ثلاث فصول:

الفصل الأول: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ.

قال بعض العرفاء العهد عهدان، عهدٌ على المحبة وهو للخواص، و عهدٌ على العبودية وهو للعوام فأهل عهد المحبة ما نقضوا عهودهم أبداً وأهل عهد العبودية من كان عهدهم مؤكداً بعد المحبة ما نقضوه و من لم يكن كذلك نقضوه و عبدوا غيره و أشركوا به الأشياء و أحبوا للهوى إنتهى.

قال الطبرسي رحمته في عهد الله و ميثاقه، أي يؤدون ما عهد الله اليهم و ألزمهم إياه عقلاً و سمعاً فالعهد العقلي ما جعله في عقولهم من إقتضاء صحة أموره فساد أمور آخر كإقتضاء الفعل للفاعل و أنّ الصّانيع لا بد أن يرجع الى صانع غير مصنوع و إلا أدّى الى ما لا يتناهى و أنّ للعالم مدبراً لا يشبهه شيء و العهد الشرعي ما أخذه النبي على المؤمنين من الميثاق المؤكّد باليمين أن يطيعوه يعصوه و لا يرجعوا عمّا إلّزموه من أوامره و نواهيه و إنّما كرّر ذكر الميثاق و إن دخل جميع الأوامر و التّواهي في لفظ العهد لئلا يظنّ ظانّ ذلك خاصّ فيما بين العهد و ربّه فاخبر أنّ ما بينه و بين العباد من المواثيق كذلك في الوجوب و اللّزوم و قيل أنّه كرّره تأكيداً إنتهى كلامه.

أقول قد تكلمنا في العهد و نقضه و قلنا أنّ نقض العهد من علامت النّفاق فإنّ المؤمن لا ينقض عهده سواء كان العهد بينه و بين الله أم بينه و بين النّاس و قلنا أنّه لا يبعد أن يكون المراد بعهد الله النّذر و اليمين بقرنية قوله من بعد ميثاقه و هكذا تكلمنا في قوله: **أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** و نقلنا الأقوال فيه فلا نعيد الكلام بذكرهما مخافة التّطويل و الذي ينبغي أن نذكره هو أن جمهور المفسّرين من العامّة قالوا أنّها نزلت في أهل الكتاب من اليهود و النصارى و ليت شعري ما الدّليل لهم على ذلك و الظّاهر من الآية هو أنّ الله تعالى ذكر في الآية حكم النّاقضين للعهد و القاطعين لما أمر الله به أن يوصل و المفسّدين في الأرض.

و أمّا أهل الكتاب فلكفرهم و عنادهم و عدم إيمانهم بالله و رسوله فهم خارجون عن البحث خروجاً تخصّصياً لا تخصّيصياً و الحاصل أنّ المخاطبين بهذه الآية هم المسلمون لا غيرهم.

وأما المقام الثّاني: و هو قوله: **يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** قيل معناه يعملون في الأرض بمعاصي الله و الظلم لعباده و إخراج بلاده.

أَقُولُ الفساد في الأصل خروج الشئ عن الإعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً و يصاده الصّلاح و يستعمل ذلك في النّفس و البدن و الأشياء الخارجة عن حدّ الإستقامة و قد ورد في ذمّه من الآيات و الآثار ما لا يخفى على أحد: قال الله تعالى: **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ**^(١).

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٢).

قال الله تعالى: **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**^(٣).

قال الله تعالى: **تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَادًا وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**^(٤).

قال الله تعالى: **وَ لَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**^(٥).

قال الله تعالى: **وَ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**^(٦).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**^(٧).

و الآيات في ذمّ الفساد و الإفساد كثيرة جداً و لا نحتاج في إثبات المدعي الى ذكر الأخبار بعد تصريح الآيات بحيث لا نحتاج الى التّأويل و كفى في ذمّه أنّ الله تعالى جعل المفسد في الأرض بمنزلة المحارب لله و رسوله و جعل الحكم و الجزاء فيهما واحداً في الدنيا و الآخرة فاذا كان المفسد في الأرض في حدّ المحارب لله فهو من أعظم الذّنوب و الكبائر بعد الشّرك و هذا ممّا لا خلاف فيه عند جميع المسلمين إلّا أنّ الكلام في تشخيص المفسد و تعيينه و بعبارة أخرى مفهومه من أظهر الأشياء و كنهه في غاية الخفاء.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

١- المائدة = ٣٣

٢- القصص = ٨٣

٣- الأعراف = ٨٦

١- الفجر = ١٢

٢- المائدة = ٦٤

٣- البقرة = ٦٠

٤- يونس = ٨١

ولذلك ترى كثيراً من الناس يطلقون المفسد على من ليس به واقعاً بل يطلقونه على المصلح الواقعي و يطلقون على المصلح الواقعي المفسد و ليس ذلك إلا لخفاء مصداقه كما حكى الله تعالى عنهم بقوله:

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ^(١).

ثم أن خفاء المصداق على أكثر العوام صار باعثاً و سبباً لتمسك الحكام في قتل مخالفينهم بعنوان الفساد وأنه كان من المفسدين و المفروض خلافه و أنما قلنا لخفاء المصداق على العوام و لم نقل لخفاءه على الحكام مع أنه قد يكون كذلك لأن كثيراً من الحكام و عمالهم لولا أكثرهم يعلمون أن المحكوم ليس بمفسد بل يكون مصلحاً و مع ذلك يحكمون بقتله فهذا ليس من خفاء المصداق بل هو من التلبس و التدليس و قتل المخالف تحت عنوان المفسد و أظن أن أكثر المقتولين و المحكومين تحت عنوان المفسد قبل ظهور الإسلام و بعده الى يومنا هذا من هذا القبيل و الأصل في ذلك أن الحاكم في كل زمان لا يرى لمن يخالفه أو لا يوافقه في حكومته حق التعيش و الحياة فلو أمر بقتل المخالف بعنوان أنه مخالف يعدّ ظالماً منفوراً عند الناس فيأمر بقتل المخالف و يتهمه بالفساد أو الإفساد و يستند حكمه الى الإسلام و يقول هذا حكم الله في حقه هذا إذا كان الحاكم مسلماً و أما إذا كان كافراً فلا يستند حكمه الى الإسلام بل يستنده الى القانون أن المفسد محكوم بالقتل في جميع الأديان و المذاهب و المسالك و قد قتل بجرم الفساد و الإفساد خلق كثير خارج عن حد الإحصاء و أكثرهم من الصلحاء و العلماء و الأولياء بل ندعي أن المفسدين الواقعي لم يقتلوا و لن يقتلوا إلا في بعض الأحيان لم ندع جزافاً ألا ترى أن معاوية ابن أبي سفيان كان يدعي الإصلاح و يحارب علناً تحت عنوان الفساد

وهكذا عائشة والزبير وطلحة يدعون الإصلاح في حرب الجمل و يتهمون علياً بالفساد وهكذا الخوارج ثم بعد معاوية لما جلس يزيد على سرير الحكومة أمر بقتل الحسين وأصحابه وأولاده وحكم شريح القاضي بأمره بأن الحسين خرج عن دين الإسلام وأفسد في الأرض فيجب قتله ونظائره كثيرة ولنعم ما قيل:

إذا كان الغراب دليل قوم
سيهديهم سبيل الهالكين
و للبحث فيه مقام آخر وكيف كان لا شك لأحد من العقلاء فضلاً عن المؤمنين والصلحاء أن المفسد في الأرض ملعون مذموم كما قال تعالى:
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّغْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ
أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر و
المعنى أنه تعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده و يضيقه بحسب ما
يعلم من مصلحته و فيه إشارة إلى أن الرزق بيده:

قال الله تعالى: وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا^(١).
قال الله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ^(٢).

قال الله تعالى: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(٣).
قال الله تعالى: أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ^(٤) وغيرها من
الآيات.

وقوله: وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا معناه و سرّوا بها و الظاهر أن هؤلاء الذين
فرحوا بها هم من بسط لهم الرزق كما هو مقتضى السرور و الفرح في الدنيا إذ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ
الْجُمْلَةِ الثَّلَاثَةِ

جزء ١٣

الجملة الثالثة

لو كان الإنسان فقيراً محتاجاً إلى غيره لا يفرح بحياته ولا يحبها غالباً بل يتمنى الموت والسّر في ذلك هو أن بسط الرزق وكثرة النعم والرفاهية والتعيش و أمثال ذلك مما يتوقّف على المال والثروة كثيراً ما يوجب الطغيان والتّمرد والغفلة عن فناء الدّنيا وبقاء الآخرة ولذلك يفرح المتنعم في الدّنيا ولا يتمنى الموت و أما الفقير فهو بالعكس وهذا هو الوجه في إختصاص المتنعم بالفرح دون الفقير.

وقال بعض المفسرين كأن الآية جوابٌ عن سؤال مقدّر وهو أن الكفار لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في دار الدّنيا فأجاب الله عنه بهذه الآية وهو أن بسط الرزق وضيقه لا تعلّق لهما بالكفر والإيمان فقد يوجد الكافر موسعاً عليه دون المؤمن وبالعكس فالدّنيا دار إمتحانٍ و ابتلاء فالغني بغناه والفقير بفقره بل قد يكون بسط الرزق موجباً لشدة العذاب والعقاب في الآخرة كما أشار الله تعالى إليه بقوله:

وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُقَبِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَقْبِلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ^(١).

وقال الله تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَ إِلَى الْمَصِيرِ^(٢).

وقال تعالى في المؤمن: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ^(٣).

وقد ورد في الأحاديث أن رسول الله ﷺ كان يقول اللهم أرزقني بقدر الكفاف، أي حدّ الاعتدال، ولا شك أن خير الأمور أوسطها ولولا في بسط الرزق إلا الفرح بالحياة الدّنيا الكاشف عن حبها لكفى في ذمّه: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ أي ليست الدّنيا وما فيها في جنب الآخرة و

بالأضافة إليها، إلا مَتَاعٌ، أي قليل لا يعابُ به لأن هذه نافية و الأخرى باقية دائمة لا فناء فيها ولا شك أن الباقي خيرٌ من الفاني، عبّر عن حياة الدنيا، بمتاع، لأنّ المتاع ما يقع من الإنتفاع به في العاجلة و أصله التمتع هو التلذذ بالأمر العاجل و هو ممّا لا بقاء له بل نقول أنّ الفناء قد أُخِذَ في مفهوم التمتع ألاّ تى أنّه يقال للعقد المؤقت المتعة أي أنّ التمتع بالرؤية المنقطعة قليل زماناً.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ

قال في التبيان، حكى الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين وصفهم أنهم يقولون لولا أنزل على محمد آية، يعني علامة و معجزة و المعنى هلاً أنزل عليه آية من ربه يقترحونها و يعلمون أنّها أنزلت من ربه و ذلك لما لم يستدلوا فيعلموا مدلول الآيات التي أتى بها لم يعتدوا بتلك الآيات فقالوا هذا القول جهلاً منهم فأمر الله نبيه أن يقول لهم أنّ الله يصل من يشاء بمعنى أنّه يحكم على من يشاء بالضلال إذا ضلّ عن طريق الحقّ و يجوز أن يكون المراد، يصل من يشاء، عن طريق الجنة بسوء أفعالهم و عظم معاصيهم و لا يجوز أن يراد بذلك الإضلال عن الحقّ لأنّ ذلك سفة لا يفعله الله تعالى انتهى.

و قال صاحب الكشف هو كلام يجري مجرى التّعجب من قولهم أنّ الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله لم يؤتها نبيّ قبله وكفى بالقرآن وحده آية وراء كلّ آية فإذا جحدوا و لم يقتدوا بها و جعلوه كأنه لم ينزل عليه قطّ كان موضع التّعجب و الإستنكار فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم و ما أشدّ تصميمكم على كفركم أنّ الله يصل من يشاء فمن كان على صفتكم من التصميم و شدّة التسليم في الكفر فلا سبيل الى إهتداءكم و إن نزلت كلّ آية و يهدي اليه من كان على خلاف صفتكم، انتهى.

و قال الجبائي معناه يضل من يشاء عن رحمته و ثوابه و عقوبة له على كفره و يهدي اليه من أناب أي الى جنته انتهى.

أقول أما قوله: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ فَلَاخِفَاءَ فِيهِ وَ ذَلِكَ لَأَنَّ الْكُفَّارَ طَلَبُوا مِنْهُ مِثْلَ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ قَبْلَ وَ الْمَلْتَمَسِ ذَلِكَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ وَ أَصْحَابَهُ وَ قَدْ مَرَّ نَظِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ يُونُسَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ^(٢).

وَ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٤).

تَكَلَّمْنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَ فَسَّرْنَاهَا فَلَا نَعِيدُ الْكَلَامَ بِذِكْرِهِ ثَانِيًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ فَلَاشَكَّ أَنَّ الْإِضْلَالَ عَنِ الْحَقِّ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى لِأَنَّ الضَّلَالَ هُوَ الْعَدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِهِ أَيْ بِالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فَكَيْفَ يَعْدِلُ عَنْهُ وَ عَلَى قَوْلٍ مِنْ يَقُولُ الضَّلَالَ يَقَالُ لِكُلِّ عَدُولٍ عَنِ الْمَنْهَجِ عَمْدًا كَانَ أَوْ سَهْوًا يَسِيرًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا فَهُوَ أَيْضًا فِي حَقِّهِ مُحَالٌ وَ هُوَ ظَاهِرٌ لِأَنَّ الْعَدُولَ يَسْتَلْزِمُ الظُّلْمَ بَلْ هُوَ هُوَ بَعِينُهُ إِذْ لَا نَعْنِي بِالظُّلْمِ إِلَّا الْعَدُولَ عَنِ الْحَقِّ وَ هُوَ تَعَالَى مَنْزَرَهُ عَنْهُ فَنَبِتَ وَ تَحَقَّقَ أَنَّ الْإِضْلَالَ فِي الْآيَةِ لَيْسَ بِمَعْنَى الْإِضْلَالَ عَنِ الْحَقِّ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَا مَعْنَاهُ فَنَقُولُ إِضْلَالَ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ يَتَصَوَّرُ عَلَى وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ سَبَبُهُ الضَّلَالَ وَ هُوَ أَنْ يَضِلَّ الْإِنْسَانُ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِ بِاخْتِيَارِهِ فَيَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَ يَعْدِلُ بِهِ عَنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ إِلَى النَّارِ

في الآخرة و ذلك إضلال هو حقٌ و عدلٌ فالحكم على الضال بضالاه و العدول به عن طريق الجنة الى النار عدلٌ و حقٌ.

الثانى: من إضلال الله هو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا رأى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه و إستطابه و لزمه و تعذر صرفه و إنصرافه عنه و يصير ذلك كالطبع الذي يأبى على التأمل و لذلك قيل العادة طبعٌ ثان و هذه القوة في الإنسان فعلٌ إلهيٌ وإذا كان كذلك ذكر في غير هذا لموضع أن كل شيء يكون سبباً في وقوع فعلٍ صحَّ نسبتبه لذلك الفعل اليه فصَحَّ أن ينسب ضلال العبد الى الله من هذا الوجه فيقال أضله الله لا على الوجه الذي يتصوره الجهلة و لعلهُ لما قلناه جعل الإضلال المنسوب الى نفسه للكافر و الفاسق دون المؤمن بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن:

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ^(١).

في الكافر والفاسق:

قال الله تعالى: فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ^(٢).

قال الله تعالى: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ^(٣).

و على هذا النحو تقلب الأفئدة و الختم على القلب و زيادة المرض في القلوب و أمثالها ممّا أشير اليه في الكتاب:

قال الله تعالى: وَ نَقَلَبُ أَقْدَتَهُمْ.

قال الله تعالى: وَ نَقَلَبُ أَقْدَتَهُمْ.

قال الله تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الى غير ذلك.

الثالث: أن يكون المراد بإضلال الله العبد هو إيكاله الى نفسه ورد في الدعاء اللهم لا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين أبداً و ذلك لأن العبد إذا و كله الله الى نفسه فالشيطان يسلط عليه قهراً أو لم يشاء و لا نعني بالإضلال إلا هذا

بَابُ
الْقُرْآنِ
فِي
تَفْصِيلِ
الْعَبْدِ
الْقَائِمِ

جزء ١٣

العبء القائم

وإذا كان حمل الإضلال في الآيات على أمثال هذه المحامل الصحيحة ممكناً فلا ينبغي حمله على ما لا يقبله العقل السليم وسنة سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وأما قوله: وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ فالإنابة إلى الله تعالى الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل وهي مأخوذة من التوب وهو الرجوع مرة بعد أخرى:

قال الله تعالى: وَالدِّينَ أَجْتَنَّبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى^(١).

قال الله تعالى: رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ^(٣).

قال الله تعالى: لَكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ^(٤).

قال الله تعالى: وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ^(٥).

وأمثال هذه الآيات التي تدل على أن الإنابة إلى الله حسن مطلوب بل هي من الواجبات العقلية فإن العبد لا يستغني عنها في مدة حياته في الدنيا.

وأعلم أن الفرق بين التوبة والإنابة مع اشتراكهما في المعنى وهو الرجوع إلى الله هو أن التوبة رجوع عن المخالفة إلى الموافقة أي عن المعصية إلى الطاعة فهي لا تتحقق في غير العاصي وأما الإنابة فهي الرجوع إلى الله تعالى ولا شك أن الرجوع إلى الله أولى من الرجوع إلى طاعته بعد المعصية أما أولاً فلا أن الرجوع إلى الله هو الأصل فإن من رجع إلى الله رجع إلى طاعته قهراً.

ثانياً: أن رجوع التائب عن المخالفة إلى الموافقة وهذا بخلاف الإنابة لصدقها على من لم يعص وأنانأ أفضل ممن عصى وتاب ثم أن الإنابة تتحقق بثلاثة أشياء:

أحدها: الرَّجُوع الى الْحَقِّ إِصْلَاحاً كما رجع اليه إعتذاراً.

الثاني: الرَّجُوع اليه وفاءً كما رجع اليه عهداً.

الثالث: الرَّجُوع اليه حالاً كما رجع اليه إجابةً و محصل الكلام هو أن التوبة عهد و الإنابة وفاء، أما الرَّجُوع اليه إِصْلَاحاً فهو يتحقق بثلاثة أشياء:

أحدها: الخروج عن التبعات.

ثانيها: التَّوَجُّع للعثرات.

ثالثها: إِسْتِدْرَاك الفاتئات.

وأما الرَّجُوع اليه وفاءً فهو أيضاً بثلاثة أشياء:

أحدها: بالخلاص من لَذَّة الذَّنْب.

ثانيها: بترك إِسْتِهْانة أهل الغفلة.

ثالثها: بالإستقصاء في رؤية علل الخدمة.

والرَّجُوع اليه حالاً أيضاً يتحقق بثلاثة أشياء:

أحدها: بالأَيَّاس من عملك.

ثانيها: بمعاينة إضطرارك.

ثالثها: شيم برق لطفه بك و لتفصيل الكلام و توضيح هذه الكلمات موضع آخر.

و الضَّمير في قوله: وَ يَهْدِي إِلَيْهِ يرجع الى الله و هو واضح اللهم أجعلنا من التائبين المنيبين و لا تجعلنا من الغافلين بحق محمد و آله الطاهرين.

الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.

قوله: الَّذِينَ صفة لأناب في قوله من أناب كأنه قيل من الذي أناب قال

تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا الخ و عليه فموضع الذي نصب و تقدير الكلام و يهدي

الله الذين أنابوا الى الله، الذين آمنوا و تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بذكر الله، فالمعنى أن

الذين أنابوا الى الله هم الذين آمنوا به و تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بذكره.

و قيل، الَّذِينَ أَمْتُوا بَدَلٌ مِنْ أَنْابٍ وَ إِطْمِنَانِ الْقَلْبِ سكونه بعد الإِضطراب من خشيته و ذكر الله ذكر رحمته و مغفرته أو ذكر دلائله على وحدانيته.

و قيل المراد تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ بالقرآن لأنه أعظم المعجزات تسكن به القلوب و تنبته و قيل تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بذكر الله، أي تسكن قلوبهم و تأنس بذكره الَّذِي معه إيمان به لما في ذلك من ذكر نعمه الَّتِي لَا تحصى و أياديه الَّتِي لَا تجازى مع عظم سلطانه و بسط إحسانه، ثم أَنَّ الذِّكْرَ حضور المعنى في النَّفْسِ و قد يسمَّى العلم ذكراً و القول الَّذِي فيه المعنى الحاضر النَّفْسِ يسمَّى ذكراً هذا معنى ألفاظ الآية على ما ذكره القوم و لتوضيح المقال نقول يقع البحث في مقامين:

المقام الأول: في الذِّكْر و المراد به.

المقام الثاني: في الإِطْمِنَانِ.

أما المقام الأول: فنقول الذِّكْر بكسر الدال مصدر يقال ذَكَرَ يَذْكُرُ ذِكْراً وَ هو يقال تارةً بِاعتبارِ إِسْتِحْضَارِ ما يقتنيه من المعرفة في النَّفْسِ و أخرى بِاعتبارِ حضور الشَّيْءِ الْقَلْبِ أو القول و لذلك قيل الذِّكْر ذِكران ذَكَرَ بِالْقَلْبِ وَ ذَكَرَ بِاللِّسَانِ وَ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا ضَرْبان.

ذَكَرَ عَنْ نَسِيَانٍ وَ ذَكَرَ لَا عَنْ نَسِيَانٍ بَلْ عَنْ إِدَامَةِ الْحِفْظِ فَكُلُّ قَوْلٍ يُقَالُ لَهُ ذِكْرٌ.

فَمِنْ الذِّكْرِ بِاللِّسَانِ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: **أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ** **أَلْقُلُوبُ** لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الذِّكْرُ اللَّسَانِي ضَرُورَةً أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا تَطْمِئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَنَاقِقَ وَ الْجَاهِلَ بِالْمَعْنَى يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، سُبْحَانَ اللَّهِ، وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ أَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْإِذْكَارِ فِي طُولِ عَمْرِهِ وَ حَيَاتِهِ وَ لَا يَطْمِئِنُّ قَلْبُهُ أَصْلًا.

أَمَّا الْمَنَاقِقُ فَلِنِفَاقِهِ وَ أَمَّا الْجَاهِلُ فَلِجَهْلِهِ بِالْمَعْنَى وَ عَدَمِ التَّوَجُّهِ إِلَى مَا يَقُولُ وَ هَذَا وَاضِحٌ بَلْ مُحْسُوسٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ لِأَحَدٍ فَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ فِي الْآيَةِ ذِكْرُ

القلبي قطعاً وهو الذي يوجب إطمئنان القلب و قد قيل في تعريفه هو التَّخْلُص من الغفلة والنسيان.

قال أهل السُّلُوك المراد بالذكر هو وجدان المذكور و حضوره بالقلب لا ذكره باللسان وحده مع غفلة القلب و أول مراتب الذكر بهذا المعنى نسيان الغير و إستدلّوا عليه بقوله تعالى في سورة الكهف **وَ أَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**^(١) يعني اذا نسيت غيره و نسيت نفسك في ذكرك ثم نسيت ذكرك في ذكرك ثم نسيت في ذكر الحقّ إيّاه و بيّنوا له ثلاث درجات:

الأولى: الذّاكر الظّاهر من ثناء أو دهاء أو رعاء أي الظّاهر مع حضور القلب و وجدان المذكور و الثّناء:

قال الله تعالى: **سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.**

لأنّها كلمات في كلّ واحدة منها ثناء و الدّعاء:

قال الله تعالى: **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**^(٢).

قال الله تعالى: **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**^(٣).

قال الله تعالى: **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**^(٤) و أمثالها.

و الرّعاء و هو المراعات عندهم، فكالصلاة مع حضور القلب فإنّها مع كونها ذكراً فيها مراعاة الشّرع و رعاية حقوق الله وكذا سائر العبادات و تلاوة كلام الله.

الدرجة الثّانية الذّكر الخفي: أي الذّكر بالقلب بدوام الحضور و المراقبة و التّوجه الى المذكور في جميع شؤنه و المراقبة في أعماله و أوراده.

و الدَّرَجَة الثَّالِثَة الذِّكْر الحَقِيقِي: و هو شهود ذكْر الحَقِّ إِيَّاكَ و التَّخَلُّص من شهود ذكْرِكَ و فِي هذِهِ المَرْتَبَة يَتَّحِد الذَّاكِر و المَذْكُور و الذِّكْر فإِذَا كَانَ ذَكْر اللّٰه كَذَلِكَ فَهُوَ يَوْجِب إِطْمَئْنَانِ القَلْب و إِلاَّ فَلَا.

المَقَام الثَّانِي: فِي الإِطْمَئْنَانِ أَعْنِي بِهِ الطَّمَأْنِينَة و قَدْ فَسَّرُوها بِالسَّكُون الَّذِي يَقْوِيهِ أَمْنٌ صَحِيحٌ شَبِيه بِالْعِيَان فَهِيَ تَفْضُلُ عَلَى السَّكِينَة بِهَذِهِ التَّقْوِيَة و أَنَّ شَيْئًا قُلْتَ هِيَ كِمَالُ لِلْسَّكِينَة و مَقَامٌ فَوْقَ مَقَامِهَا لِأَنَّ الأَمْنَ الصَّحِيحَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ التَّيَيِّنِ التَّامِّ و إِلاَّ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا ثُمَّ أَنَّ طَمَأْنِينَة القَلْب بِذِكْرِ اللّٰه لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

الأُولَى: طَمَأْنِينَة الخَائِفِ إِلَى الرَّجَاءِ بِمَعْنَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ خَائِفًا مِنْ وَعِيدِهِ فَغَلَبَ عَلَيْهِ الخَوْفُ و أَسْتَوْحَشَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْهِ السَّكِينَة مِنْ وَعْدِهِ و غَلَبَهُ الرَّجَاءُ و أَمِنَ فَأَطْمَأَنَّ إِلَى الرَّجَاءِ و هَذَا مَعْنَى طَمَأْنِينَة الخَائِفِ إِلَى الرَّجَاءِ.

الثَّانِيَة: طَمَأْنِينَة الصَّابِرِ إِلَى الْحُكْمِ وَ هِيَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَنِمَ وَ مَلَّ مِنْ التَّكَالِيفِ وَ تَضَجَّرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى المَجَاهِدَة أَوْ الْفَقْرِ وَ الْجُوعِ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ السَّكِينَة مِنْ مَشَاهِدَةِ الْحُكْمِ وَ فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْيَقِينِ فَأَطْمَأَنَّ إِلَى حُكْمِ اللّٰهِ فِيهِ فَسَكَنَ إِلَيْهِ وَ رَضِيَ بِالْحُكْمِ فَأَسْتَرَاحَ.

الثَّالِثَة: طَمَأْنِينَة الْمُبْتَلَى إِلَى الْمُثْبُوتَةِ فَإِنَّهُ إِذَا ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ أَوْ نَوْعٍ مِنَ الْمَكَارِهِ وَ عِيلَ صَبْرَهُ مِنْ مَقَاسَاةِ الضَّرِّ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْهِ السَّكُونَ مِنْ مَشَاهِدَةِ الثَّوَابِ عَلَى الصَّبْرِ وَ أَجْرِ الْبَلَاءِ وَ كَوْنِهِ كَفَّارَةً لِّذُنُوبِهِ إِطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَ هَذَا كَمَنْ يَشْرَبُ الدَّوَاءَ الْمُرَّ وَ هُوَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَفْعِهِ هَذَا كُلَّهُ فِي طَمَأْنِينَةِ القَلْبِ الَّتِي أَشَارَ اللّٰهُ تَعَالَى إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ وَ أَمَّا طَمَأْنِينَة الرُّوحِ، وَ طَمَأْنِينَة شُهُودِ الْحَضَرَةِ إِلَى اللَّطْفِ فَلَا كَلَامَ لَنَا فِيهِمَا فَعَلًا لِخُرُوجِهِمَا عَنِ الْبَحْثِ فَتُبْتُ وَ تَحَقَّقْتُ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَعْنَى الذِّكْرِ و الإِطْمَئْنَانِ أَنَّ الذِّكْرَ الَّذِي يَوْجِبُ الإِطْمَئْنَانِ الْقَلْبِيَّ هُوَ تَوَجُّهُ

العبد في أقواله و أعماله الى الله و أنّ ما سواه كائنًا ما كان في معرض الدّثور و الفناء و أنّ ما حكم الله في حقه بقضائه و قدره له لا عليه واقعاً و أنّه يرجع الى ربه الكريم فإذا كان الذّكر ينتهي الى ما ذكرناه فهو ذكر الله واقعاً و هذا هو المراد بقوله: **أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ** فإذا وصل العبد في مقام السّلوک الى هذا المقام يصير مصداقاً لقوله تعالى حين الموت:

يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَ ادْخُلِي جَنَّتِي ^(١).

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بِهِم
يحتمل أن يكون قوله: **الَّذِينَ آمَنُوا** في موضع نصب بأن يكون من صفة،
الذين، في الآية الأولى و التّقدير يهدي اليه من أناب و هم **الَّذِينَ آمَنُوا وَ**
تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُم الآية **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَ**
حَسَنُ مَا بِهِم و يّحتمل أن يكون موضعه الرّفع على الإبتداء و كيف كان فقد
أخبر الله في هذه الآية أنّ المؤمنين الذين يعملون الصّالحات في دار الدنّيا
طوبى لهم أي أنّ الذين يؤمنون بالله و يعترفون بوحدانيّته و يصدّقون نبيّه و ما
أنزل عليه و يعملون بما أوجبه الله تعالى عليهم من الطّاعات و يجتنبون ما
نهاهم عنه من المعاصي فهؤلاء مع إتصافهم بهذه الصّفات إعتقاداً و عملاً
طوبى لهم.

و اختلفوا في معناه فقيل طوبى لهم بطيب العيش و قيل، فرحّ لهم تقربه
أعينهم و قيل معناه، الحسنى لهم و قيل المراد به الجنّة.

و قيل طوبى شجرة في الجنّة و أنت ترى أنّ الأقوال متقاربة المعنى و
الأحسن أن يقال أنّ طوبى كلّ مستطاب في الجنّة من بقاء بلا فناء و عزّ بلا
زوال و غنى بلا فقر.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

العبد
ر

وإِعلم أَنَّ المستفاد من الآية و أمثالها أَنَّ الإيمان المجرد عن العمل الذي يعبر عنه بالإعتقاد لا ينفع إذا لم يقارن بالعمل و الدليل عليه قوله و عملوا الصالحات و ذلك لأنَّ الإعتقاد المجرد عن العمل أمرٌ ذهني لا وجود له في الخارج و الوجود الذهني لا أثر له و الآثار مترتبة على الوجود الخارجي فالثواب و العقاب لا يترتبان على ما في الذهن ما لم يوجد في الخارج و هذا هو السر في تقارن الإيمان بالعمل و منه يظهر أَنَّ الإيمان بلا عمل لا أثر به و هذا معنى قول الرضا عليه السلام لما سأل عن اشتراط الإيمان بالعمل، و هل الإيمان كله إلا العمل.

و عليه فقوله: **طُوبَى لَهُمْ** أي طوبى لمن آمن و عمل به و أمّا قوله: **وَ حَسُنُ مَا بٍ** فالمأب المرجع يقال أب يُوْب أوْباً إذا رجع و سمي المئوى في الآخرة مأباً و منقلباً لأنَّ العباد يصيرون اليه فالمعنى أَنَّ لهم طوبى و لهم حسن مأبٍ.

في تفسير علي بن إبراهيم عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم في حديث طويل، وفيه يقول صلى الله عليه و آله و سلم دخلت الجنة و اذا شجرة لو أرسل طائراً في أصلها ما دارها سبع مائة عام و ليس في الجنة منزل إلا وفيها شجر منها فقلت ما هذه يا جبرئيل فقال هذه شجرة طوبى قال الله تعالى: **طُوبَى لَهُمْ وَ حَسُنُ مَا بٍ**.

و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال طوبى شجرة في الجنة في دار أمير المؤمنين و ليس أحدٌ من شيعته إلا و في داره غصنٌ من أغصانها و ورقة من أوراقها يستظل تحتها أمة من الأمم انتهى. و عنه، قال عليه السلام كان رسول الله يكثر تقبيل فاطمة فأُنكرت ذلك عائشة فقال رسول الله يا عائشة أتني لما أسري بي الى السماء دخلت الجنة فأدنانني جبرئيل من شجرة طوبى و ناولني من ثمارها أكلت فحوّل الله ذلك ماءً في ظهري فلما هبطت الى الأرض

واقعت خديجة فحملت بفاطمة فما قبلتها قط إلا و وجدت رائحة شجرة طوبى منها انتهى^(١).

و في تفسير نور الثقلين بأسناده عن الرضا عن أبيه عن أبائه عن علي بن الحسين قال:

قال رسول الله ﷺ يا علي أنت المظلوم بعدي و أنت صاحب شجرة طوبى في الجنة أصلها في دارك و أغصانها في دار شيعتك و محبك و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة انتهى.

و عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام طوبى هي شجرة تخرج من جنة عدن غرسها ربنا بيده انتهى.

و عن كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام من أطعم ثلاثة نفر من المؤمنين أطعمه الله من ثلاث جنان، ملكوت السماء الفردوس و جنة عدن و طوبى و هي شجرة من جنة عدن غرسها ربنا بيده انتهى^(٢).

و الأحاديث في الباب كثيرة.

ثم أن ما ذكرناه من أن طوبى شجرة أصلها في دار النبي أو دار علي عليه السلام لا يختص بنقل الشيعة بل العامة أيضاً نقلوا هذه الأحاديث في تفاسيرهم.

فقد نقل القرطبي و هو من أعيان العامة مع كمال تعصبه في مذهبه و مخالفته للشيعة في تفسيره هذه الأحاديث بأسناد مختلفة و عبارات متغيرة.

ما نقله عن أبي هريرة أنه قال في الجنة شجرة يقال لها طوبى الحديث.

و عن أبي إمامة الباهلي أن أصلها في قصر النبي ﷺ ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة الى أن قال و الصحيح أنها شجرة للحديث المرفوع الذي ذكرناه و هو صحيح على ما ذكره السهيلي

ضياء القرآن
في تفسير القرآن



الجلد التاسع

ذكره أبو عمرو في التمهيد ومنه نقلناه وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره.

وذكره أيضاً المهدوي والقشيري عن معاوية بن قرّة عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال، طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحليّ والحلّ وأن أغصانها لتري من وراء سور الجنة

ثم قال القرطبي ومن أراد زيادةً على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي ثم قال:

وقال ابن عباس طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار عليّ وفي دار كلّ مؤمنٍ منها غصنٌ.

وقال أبو جعفر محمد بن عليّ سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى: طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ قال شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة ثم سأل عنها مرةً أخرى فقال شجرة أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة فقليل له يا رسول الله، سئلت عنها فقلت أصلها في داري وفروعها في الجنة ثم سئلت عنها فقلت أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة فقال النبي ﷺ أنّ داري ودار عليّ غداً في الجنة واحدة في مكانٍ واحدٍ انتهى.

وقال السيوطي في الدرّ المنثور وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال شجرة في الجنة أصلها في حجرة عليّ وليس في الجنة حجرة إلا وفيها من أغصانها انتهى.

أقول يظهر من هذه الأحاديث المروية من طريق الخاصة والعامة أنّ طوبى شجرة في الجنة في دار رسول الله أو في دار عليّ عليه السلام ودارهما واحد على ما ذكره القرطبي وإذا كان الأمر على هذا المنوال وقد إعترف الخصم به فما عذر القرطبي والسيوطي وغيرهما من العامة الذين رووا هذه الأحاديث في كتبهم

و تفاسيرهم غداً يوم القيامة في تركهم علياً و متابعتهم لأبي بكر و عمر أليس من تكون شجرة طوبى في داره و داره مع دار رسول الله ﷺ واحداً أولى بالاتباع من غيره فاعتبروا يا أولي الأبصار ثم أقول يستفاد من الآية و الأخبار الواردة فيها أن من تابع غير علي في دينه فهو ليس بمؤمن أصلاً و توضيحه أن الله تعالى جعل أصل الشجرة في دار علي على ما نطقت به الأخبار و أغصانها في دار شيعته و محبيه فمن لا يكون من شيعته و محبيه ليس له نصيب منها و من كان كذلك فليس بمؤمن لأن الله تعالى يقول: **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ** فمن ليس له طوبى ليس بمؤمن حقاً و بعبارة أخرى، طوبى، ثمرة شجرة الإيمان و هذه الشجرة مع ثمرتها في دار علي فالإيمان لا يوجد إلا بولايته و متابعته و هذا هو المراد بقول الشيعة أن الإيمان لا يحصل إلا بولاية علي و الأئمة بعده لأنهم مع سول الله جميعاً من نور واحد فالإسلام يحصل بالرسالة و الإيمان بها و بالولاية فتعالى الله.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْذُّوا عَلَيْهِمْ أَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ

اختلفوا في التشبيه في قوله و كذلك، على قولين:

أحدهما: أن المعنى إنا أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك.

الثاني: أن النعمة على من أرسلناك اليه كالنعمة على من تقدّم ذكره بالثواب

في، حسن مآب، و المعنى إنا أرسلناك يا محمد، و في أمة قد مضت، من قبلها أمم، و غرضي أن تتلوا أي تقرأ عليهم ما أوحينا اليك من الأمر و النهي و الوعد و الوعيد ذكر هذين الوجهين في التبيان.

أقول المعنى الأول، هو الصواب و المعنى كإرسالنا الرسل من قبلك أرسلناك أيضاً، في أمة، أي الى أمة قيل أننا عدّئ الإرسال، بقي، و حقّه أن

يعدى، بالى، لأن الأمة موضع الإرسال كما في قوله تعالى: **فَرُدُّوْا أَيْدِيَهُمْ فَبِ أَفْوَاهِهِمْ** ^(١) أي الى أفواههم، قد خَلَّتْ، أي قد مضت و تقدّمت، كما قال تعالى: **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ^(٢) من قبلها الصّмир يرجع الى الأمة أي من قبل الأمة أمم، لتتلوا عليهم الذي أوحينا اليك، أي لتقرأ على الأمة ما أوحينا اليك من القرآن و ما فيه من شرائع الإسلام من الأوامر و النّواهي و بالجملة جميع الأحكام، و هم يكفرون بالرحمن، الواو للحال أي و الحال أنّهم يكفرون بالرحمن و يقولون لا ندري ما الرحمن، قل هو ربّي لا إله إلا هو، أي قل لهم يا محمّد هو أي الرحمن الذي لا تعرفونه ربّي لا إله إلا هو عليه توكلت في جميع أحوالي و اليه متاب أي مرجعي.

قيل أنّها نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا الصلح فقال النبي ﷺ **لَعَلِّي عَلَيْهِ السَّلَامُ** أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو و المشركين ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب، أكتب بأسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون فقال النبي ﷺ **لَعَلِّي** أكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله فقال مشركو قريش لأن كنت رسول الله ثم قاتلناك و صددناك لقد ظلمناك ولكن أكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله ﷺ فقال أصحاب النبي دعنا نقاتلهم فقال ﷺ لا و لكن أكتب ما يريدون فنزلت و قال ابن عباس نزلت في كفّار قريش حين قال لهم النبي ﷺ **إِسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ**، قالوا و ما الرحمن فنزلت قل يا محمّد ﷺ **لَهُم** الذي أنكرتم هو ربّي لا إله إلا هو و لا معبود سواه.

و قال بعضهم سمع أبو جهل رسول الله يدعو في الحجر و يقول يا الله يا رحمن فقال.

فقال كان محمّد ينهانا عن عبادة الآلهة و هو يدعو آلهين فنزلت هذه الآية هذا ما قالوه في تفسير الآية و شأن نزولها و الذي يستفاد منها هو أنّ إرسال

الرُّسُلَ وَإِنْزَالَ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مِمَّا لَا بَدَّ لَهُ عَقْلًا وَنَقْلًا وَحَيْثُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ تَعَجَّبُوا مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ الْيَكْمَ فَقَالَ تَعَالَى: كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ

أي أنه ليس أول الرُّسُلِ ولا أنتم أول الأمم بل هذه سيرة مستمرة من بدو خلق آدم وذلك لأنَّ البشر محتاج إلى الرُّسُولِ ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى وَخَلِيفَةَ الرُّسُولِ وَقَالَ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ تَابِعٌ لِلْوَحْيِ يَقُولُ إِلَّا بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ^(١) وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ الرَّدُّ عَلَيْهِ وَلَا مَخَالَفَتُهُ فَمَنْ رَدَّ عَلَيْهِ أَوْ خَالَفَهُ فَقَدْ رَدَّ عَلَى اللَّهِ وَخَالَفَهُ كَمَا ثَبَتَ عَقْلًا وَنَقْلًا فِي مُحَلِّهِ وَلَعَلَّ الْبَحْثَ فِيهِ يَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ الْقُرْآنَ، بَضَمَ الْقَافَ فِي الْأَصْلِ مُصَدَّرٌ نَحْوَ كُفْرَانٍ وَرَجْحَانٍ وَقَدْ خَصَّ بِالْكِتَابِ الْمَنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَصَارَ لَهُ كَالْعِلْمِ كَمَا أَنَّ التَّوْرَةَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَالْإِنْجِيلَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَىٰ عِيسَى.

قال بعض المحققين تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرته كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله: تَنْخِيطًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا زُطٍّ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ قِيلَ فِي نَزُولِ الْآيَةِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ مَعَهُمْ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمَيَّةَ قَالُوا يَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِنْ يَسُرُّكَ أَنْ نَتَّبِعَكَ فَيَسِّرْ لَنَا بِقُرْآنِكَ الْجِبَالَ عَنْ حَوَالِي مَكَّةَ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

فَأَنهَا ضِيقَةٌ حَتَّى تَنسَحَ لَنَا الْأَرْضُ فَتَتَّخِذَ الْبَسَاتِينَ وَ الْمَحَارِثَ وَ شَقَقَ الْأَرْضَ وَ
فَجَرَّ الْأَنْهَارَ وَ الْعِیُونَ كَمَا فِي أَرْضِ الشَّامِ وَ أَحْيَ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ مَمَّنْ مَاتَ مِنْ
آبَائِنَا مِنْهُمْ قَصِي بْنِ كَلَابٍ لِيَكْلُمُونَا وَ نَسْأَلُهُمْ عَنْ أَمْرِكَ أَحَقُّ مَا يَقُولُ أَمْ بَاطِلٌ
فَلَمَّا أَقْرَحُوا عَلَيْهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَ قَوْلُهُ: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ
الْجِبَالُ.

وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٌ وَ غَيْرُهُمَا أَنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ سِيرَ جَبَلِي
مَكَّةَ فَقَدْ ضَيَّقَا عَلَيْنَا وَ أَجْعَلَ لَنَا أَرْضًا قِطْعًا غَرَسَا وَ أَحْيَى لَنَا آبَاءَنَا وَ أَجْدَادَنَا وَ
فَلَانًا وَ فِلَانًا فَنَزَلَتْ مَعْلَمَةٌ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عِلَّةَ
إِرْسَالِهِ وَ هِيَ تِلَاوَةُ مَا أَوْصَاهُ إِلَيْهِ ذَكَرَ تَعْظِيمَ هَذَا الْمُوحِي وَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ قُرْآنًا
تَسِيرُ بِهِ الْجِبَالُ عَنْ مَقَرِّهَا أَوْ تَقَطَّعَ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى تَتَزَايَلَ قِطْعًا قِطْعًا أَوْ تَكَلَّمَ بِهِ
الْمَوْتَى فَتَسْمَعُ وَ تَجِيبُ، لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، لَكُونُهُ غَايَةً فِي التَّذْكِيرِ وَ نَهَايَةً فِي
الْإِنذَارِ وَ التَّخْوِيفِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(١).

فجواب، لو، في قوله: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ أَلْخَ مَحذُوفٌ أَي لَوْ أَنَّ قُرْآنًا
كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَ قَدْ إِنْتَفَقُوا عَلَى أَنَّ حَذْفَ جَوَابِ، لَوْ، بَعْدَ دَلَالَةِ
الْمَعْنَى عَلَيْهِ جَائِزٌ وَ قِيلَ تَقْدِيرُهُ، لَمَّا آمَنُوا بِهِ.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا^(٢).

وَ قَالَ الْفَرَّاءُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَوَابِ، لَوْ، لِكُفْرُوا بِالرَّحْمَنِ لَتَقَدَّمَ مَا يَقْتَضِيهِ.

وَ قَالَ الْبَلْخِي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا أَلْخَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ: وَ
هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ وَ لَوْ أَنَّ

قَرَأْنَا سَيَّرَ بِهَ الْجِبَالِ أَوْ قَطَّعْتَ بِهَ الْأَرْضِ أَوْ كَلَّمْتَ بِهَ الْمَوْتَى، وَ عَلَيْهِ فَيَسْتَعْنِي بِذَلِكَ عَنِ الْجَوَابِ وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ هُوَ يَشْتَمْنِي وَلَوْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ وَ هُوَ يُؤْذِنِي وَلَوْ أَكْرَمْتَهُ.

وَ أَمَّا حَذْفُ النَّاءِ مِنَ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ أَوْ كَلَّمْتَ بِهَ الْمَوْتَى مَعَ إِثْبَاتِهَا فِي الْفَعْلَيْنِ قَبْلَهُ وَ هُمَا قَطَّعْتَ وَ سَيَّرْتَ، فَلَأَنَّ الْمَوْتَى يَشْتَمِلُ عَلَى الْمَذْكَرِ الْحَقِيقِيِّ وَ التَّغْلِيبِ لَهُ فَكَانَ حَذْفُ النَّاءِ أَحْسَنَ وَ الْجِبَالِ وَ الْأَرْضِ لَيْسَا كَذَلِكَ.

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: **بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا** فَمَعْنَاهُ أَنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرَ مِنْ تَسِيرِ الْجِبَالِ وَ تَقْطِيعِ الْأَرْضِ وَ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَ كُلِّ تَدْبِيرٍ يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى فَهُوَ لِلَّهِ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُهُ وَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَاهُ.

وَ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا عَلَى مَعْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِلَّهِ الْقُدْرَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا لَوْلَا أَنَّ عِلْمَهُ بِأَنَّ إِظْهَارَهَا مَفْسَدَةٌ.

الثَّانِي: بَلْ لِلَّهِ أَنْ يُلْجِئَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِلْجَاءِ لَوْلَا أَنَّهُ بَنَى أَمْرَ التَّكْلِيفِ عَلَى الْإِخْتِيَارِ وَ يَعْضُدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **أَفَلَمْ يَأْيُسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ مَشِئَةُ اللَّهِ الْإِلْجَاءُ وَ الْقَسْرُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا** أَنْتَهَى.

أَقُولُ الْيَأْسُ الْقَنُوطُ فِي الشَّيْءِ وَ هُوَ هُنَا فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِ بِمَعْنَى الْعِلْمِ كَأَنَّهُ قِيلَ أَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَ قِيلَ هُوَ لُغَةٌ هَوَازَنٌ قَالَ شَاعِرُهُمْ:

أَلَمْ يَأْسِ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا إِبْنُهُ وَ أَنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا
وَ قَالَ الْآخَرُ:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي أَلَمْ يَأْسُوا أَنِّي إِبْنُ فَارَسٍ زَهْدَمٍ
أَيُّ أَلَمْ يَعْلَمُوا.

وَ قَالَ الْقَرَاءُ مَعْنَاهُ أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَنْقَطِعَ طَمَعُهُمْ مِنْ خِلَافِ هَذَا عِلْمًا بِصَحَّتِهِ كَمَا قَالَ لَبِيدٌ:

فِي الْقُرْآنِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ

جُزْءُ ١٣

الْعِلَّةُ الثَّالِثَةُ

حتى اذا يأس الزّماة فأرسلوا عصفاً دواجن قافلاً أعصامها
معناه، حتى اذا يأسوا من كلّ شيء إلاّ الذي ظهر أي يأسوا من خلاف ذلك
لعلهم بصحته و العلم بالشّيء يوجب اليأس من خلافه انتهى.
وقال السيّد المرتضى رحمته في أماليه ما هذا لفظه.

إعلم أنّ من عادة العرب الإيجاز والإختصار والحذف طلباً لتقصير الكلام و
إطراح فضوله والإستغناء بقليله عن كثيره ويعدّون ذلك فصاحة و بلاغة و في
القرآن من هذه الحذوف والإستغناء بالقليل من الكلام عن الكثير مواضع كثيرة
نزلت من الحسن في أعلى منازلها ولو أفردنا لما في القرآن من الحذوف الغربية
و الإختصارات العجيبة لكان واجباً فمن ظاهر ذلك قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى النّ**. ولم يأت
بجواب، لو، صريحاً في الكتاب وأنما أراد لو أنّ قُرْآنًا سَيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ النّ
لكان هذا.

ومثل هذا الحذف ما روي عن النبي صلّى الله عليه وآله من قوله: لو كتب هذا القرآن
في أهاب و طرح في النّار ما أحرقتة النّار، والمراد وكانت النّار ممّا لا يحرق
جسماً لجلالة قدره ما أحرقتة، فحذف ذلك إختصاراً لدلالة الكلام عليه و مثل
هذا قوله تعالى:

**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ^(١)**.

و تقديره أنّ السّموات و الأرض و الجبال لو كنّ ممّا يأبى و يشفق، و عرضنا
عليهنّ الأمانة لأبين و أشفقن و جعل المعلوم بمنزلة الواقع فقال عرضنا، من
حيث علم أنّ ذلك المشروط لو وقع شرطه لحصل هو انتهى.

أقول ما ذكره رحمته من أنّ جواب، لو، محذوف ممّا لا كلام فيه و أمّا الكلام في
الآية التي إستدل بها على مدّعه فسيأتي في محله.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي الْيَأْسِ فَالْحَقُّ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْعِلْمُ فَقَوْلُهُ: أَقَلَّمْ يَأْيُسِ الَّذِينَ أُمِنُوا، معناه أقلم يعلموا وليس معنى هذا الكلام أَنَّ الْيَأْسَ جَاءَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ أَوْ هُوَ مَوْضُوعٌ فِي كَلَامِهِمْ لِلْعِلْمِ وَ مِنْ قَالَ أَنَّهُ لُغَةٌ هَوَازِنٌ فَهُوَ عَلَى فَرْضِ صِحَّتِهِ لُغَةٌ شَاذَّةٌ مَطْرُودَةٌ لَا يُمْكِنُ حَمْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي مُحَلِّهِ. فَإِذَا قَوْلُهُمْ أَلَمْ يَأْسُوا أَيْ أَلَمْ يَعْلَمُوا، معناه أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنَّ يَأْسَ الَّذِينَ أُمِنُوا مِنْ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَحْصَلَ بَعْدَ الْعِلْمِ بِإِنْتِفَاءِ ذَلِكَ فثُبُوتُ بَأْسِهِمْ يَقْتَضِي ثُبُوتَ حُصُولِ عِلْمِهِمْ فَيَصِيرُ حَاصِلُ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عِلِمُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَاءَ ذَلِكَ لِمَنَافَاتِهِ الْإِخْتِيَارَ الَّذِي بَنَى عَلَيْهِ التَّكْلِيفَ هَذَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ قَوْلُهُ: أَقَلَّمْ يَأْيُسِ الَّذِينَ أُمِنُوا الْإِسْتِفْهَامَ فِيهِ لِلْإِنْكَارِ أَيْ يَأْسَ الَّذِينَ أُمِنُوا عَنْ هِدَايَةِ النَّاسِ جَمِيعاً وَالْيَأْسَ عَنِ الْهِدَايَةِ يُلْزَمُ الْعِلْمُ بِعَدَمِ الْهِدَايَةِ فَصَحَّ أَنْ يُقَالَ بِأَنَّهُمْ عِلِمُوا ذَلِكَ أَيْ عِلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لَكُونِهِ مَنَافِئاً لِلْإِخْتِيَارِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ فَالْقَارِعَةُ هِيَ الدَّاهِيَةُ الْمَهْلِكَةُ وَهِيَ مِنَ الْقَرَعِ وَهُوَ ضَرْبٌ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ قَرَعَتْهُ بِالْمَقْرَعَةِ. قِيلَ مَعْنَاهُ تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَسُوءِ أَعْمَالِهِمْ قَارِعَةٌ وَدَاهِيَةٌ تَقْرَعُهُمْ بِمَا يَحُلُّ اللَّهُ بِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صُنُوفِ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَوْ تَحُلُّ الْقَارِعَةُ قَرِيبًا مِنْهُمْ فَيَفْزَعُونَ وَيَضْطَرُّونَ وَ يَتَطَايَرُ إِلَيْهِمْ شُرُورُهَا وَتَتَعَدَّى إِلَيْهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ وَهُوَ مَوْتُهُمْ أَوْ الْقِيَامَةُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ كَفَّارَ قَرِيشَ وَالْعَرَبَ لَا تَزَالُ تُصِيبُهُمْ قَوَارِعُ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَغَزَوَاتِهِ.

و قوله: **حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ** أي يأتي وعده بفتح مكّة و الحقّ في معناه حتى يأتي يوم القيامة.

و أمّا قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ أَلْمِيعَادَ** فهو مسلّم لا كلام فيه عند من آمن بالله و رسوله و اليوم الآخر و قد مرّ الكلام في خلف الوعد و أنّه مذموم عقلاً و شرعاً بل هو من علائم النفاق و الله تعالى منزه عنه:

قال الله تعالى: **وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** ^(١).

قال الله تعالى: **أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ^(٤).

قال الله تعالى: **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ^(٥).

و الآيات كثيرة و الأمر واضح لا خفاء فيه.

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ

اللام في قوله: **وَلَقَدْ**، لام القسم و معنى الكلام أن الله تعالى أقسم أنّه لقد استهزئ برسلٍ من قبلك يا محمد و الإستهزاء طلب الهزاء و هو إظهار خلاف الإضمار للإستضعاف فيما يجري من عبث الخطاب و فيه إشارة الى أن ما طلبوه منك من تسيير الجبال و تقطيع الأرض و إحياء الموتى كان على سبيل الإستهزاء لا على سبيل الجدّ لعلمهم بأنّه لا يكون ولو كان، لم يؤمنوا، و أنما قالوا ذلك على سبيل السخرية و الإستهزاء و هذا ليس مختصاً بك فإنّ الكفار و

المعاندین المستهزئين بالرُّسل و الأديان كانوا قبلك أيضاً موجودين و كانوا يستهزؤون بالرُّسل كما يستهزؤون بك فلا تغتم به.

فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ الإِمْلَاءِ الإِمْدَادُ وَ مِنْهُ قِيلَ لِلْمَدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَلَاوَةٌ مِنَ الدَّهْرِ يُقَالُ عَشْتُ مَلِيًّا أَيْ طَوِيلًا، وَ الْمَعْنَى أَخْرَجْتُ عِقَابَهُمْ وَ إِهْلَاكَهُمْ وَ أَمَهَلْتُهُمْ مَدَّةً فِي دَارِ الدُّنْيَا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أَيْ أَخَذْتُ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ وَ أَنْزَلْتُ عَلَيْهِمْ عَذَابِي فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، إِسْتَفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ بِمَا حُلَّ وَ فِي ضَمْنِهِ وَعِيدٌ لِمَعَاصِرِي الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الْكَفَّارِ:

قال الله تعالى: فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ^(١).

قال الله تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا^(٢).

قال الله تعالى: وَ أَمْلَيْ لَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مِتِّينَ^(٣).

قال الله تعالى: وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُغَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَغْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا^(٤).

و غيرها من الآيات فكأنَّ هذا الكلام منه تعالى تسليية للنبي ﷺ.



أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا اللَّهَ
شُرَكَاءَ قُلُوبِهِمْ سَمُّهُمْ أَمْ تُنْسِفُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ
عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ
مِنَ الْأَخْبَارِ مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ
(٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ
قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ
أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ
(٤٠) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ

سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ
سَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ (٤٢) وَ يَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

◀ اللّٰغَة

تُبَيِّنُونَهُ أَي تَخْبِرُونَهُ مِنَ الْإِنْبَاءِ وَ هُوَ الْإِخْبَار.
صُدُّوا الصَّدَّ الْمَنْعُ.
وَإِقِ إِسْمُ فَاعِلٍ مِنْ وَقَى يَقِي وَ الْمَوَاقِي الْمَانِعُ.
مَنْ أَبِ الْمَأْبِ الْمَرْجِعُ، وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ.

◀ الإِعْرَاب

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مَعْطُوفٌ عَلَى كَسَبَتْ وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا مَثَلُ الْجَنَّةِ
مَبْتَدَأُ وَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَي وَ فِيمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ مَثَلُ الْجَنَّةِ فَعَلَى هَذَا تَجْرِي
حَالٌ مِنَ الْعَائِدِ الْمَحْذُوفِ فِي وَعْدِ نَقْصِهَا حَالٌ مِنَ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ أَوْ مِنَ
الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ مَوْضِعُ الرَّفْعِ عَلَى مَوْضِعِ إِسْمِ اللَّهِ، أَي كَفَى اللَّهُ وَ كَفَى مِنْ
عِنْدِهِ وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ الْجَزْرِ عَطْفًا عَلَى لَفْظِ إِسْمِ، اللَّهُ وَ عَلَى هَذَا
عِلْمُ الْكِتَابِ مَرْفُوعٌ بِالظَّرْفِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجلد التاسع

◀ التَّفْسِير

أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَ كَلِمَةٌ، مَنْ، مَوْصُولَةٌ صَلَتْهَا مَا بَعْدَهَا وَ هِيَ مَبْتَدَأُ وَ الْخَبَرُ

محذوف تقديره أضمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك من شركاءهم التي لا تضر ولا تنفع كما حذف من قوله:

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامٍ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ^(١).

تقديره كالقاسي قلبه الذي هو في ظلمة ودل عليه قوله تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ كَمَا دَلَّ عَلَى الْقَاسِي قوله: فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَيَحْسُنُ حَذْفُ هَذَا الْخَبَرِ وَقَدْ جَاءَ مَثْبُتاً كَثِيراً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ^(٢) أَفَمَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ إِسْتِنَافٌ إِخْبَارٌ عَنْ سُوءِ صَنِيعِهِمْ وَكَوْنِهِمْ أَشْرَكَوا مَعَ اللَّهِ مَا لَا يَصْلَحُ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَمَعْنَى الْكَلَامِ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ بِتَدْبِيرِ النَّفُوسِ وَجَزَاءِهَا عَلَى مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ كَمَنْ لَيْسَ بِهِذِهِ الصِّفَةُ وَأَمَّا حَذْفُ الْخَبَرِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقِيَامِ عَلَى النَّفُوسِ لَيْسَ الْقِيَامُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْقُعُودِ بَلْ هُوَ بِمَعْنَى التَّوَلَّى لِأُمُورِ الْخَلْقِ كَمَا يَقَالُ قَامَ فُلَانٌ بِالْأَمْرِ أَوْ قَامَ بِشُغْلٍ كَذَا وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَارِيَّ تَعَالَى هُوَ الْمَحِيطُ بِأَحْوَالِ النَّفُوسِ جَلِيلِهَا وَخَفِيَّهَا فَأَنَّهُ خَالِقُهَا وَمُوجِدُهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْعِلَّةَ الْمَوْجُودَةَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شُئُونِ الْمَعْلُولِ خَصَّ الْكَسْبَ بِالذِّكْرِ وَقَالَ بِمَا كَسَبَتْ لِيَتَّفَكَرَ الْإِنْسَانُ فِيَمَا يَكْسِبُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَى الْكَسْبِ فِي الْجَزَاءِ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْوَاقِعَ لِلْإِسْتِنَافِ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْكَلَامِ وَقِيلَ الْوَاقِعُ لِلْحَالِ أَيْ أَوْ قَدْ جَعَلُوا وَقِيلَ مَعْطُوفٌ عَلَى اسْتَهْزَئِي، أَيْ اسْتَهْزَؤُوا وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَالْأَصَحُّ أَنَّهُ لِلْإِسْتِنَافِ أَيْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ فَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ سَمُّوهُمْ أَيْ أَذْكُرُوهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَنْ يَذْكُرُ وَيُسَمَّى مِنْ هُوَ يَنْفَعُ وَيُضُرُّ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَمَّا يَقَالُ ذَلِكَ فِي الشَّيْءِ

المستحقر الذي يبلغ في الحقارة الى أن لا يذكر و يسمى و لكن أن شئت أن تضع له اسماً فافعل فكأنه قال سموهم بالآلهة على جهة التهديد.

و حاصل المعنى سواء سميتهم بهذا الاسم أم لم تسموهم فأنهم في الحقارة بحيث لا يستحق أن يلتفت العاقل اليها.

و قال بعض المفسرين معنى الكلام، سموهم بما يستحقون من الأسماء التي هي صفات ثم أنظروا هل تدل صفاتهم على أنه يجوز أن يعبدوا أم لا إنتهي.

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ فِي قَوْلِهِ، أَمْ تَنْبِئُونَهُ مِنْقُطَعَةً إِسْتِفْهَامُ تَوْيِيخٍ.

قال الزمخشري أي بل أنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض و هو العالم بما في السموات و الأرض فاذا لم يعلمهم الله علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم و المراد نفى أن يكون له شركاء، و نحوه قوله تعالى: قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ^(١) انتهى.

فجعل الفاعل في قوله: بِمَا لَا يَعْلَمُ عائداً على الله تعالى و الظاهر أن، أم، في قوله: أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أيضاً منقطة أي بل أئسموهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة و بعبارة أخرى إنكم تنطقون بتلك الأسماء و تسمونها آلهة و لا حقيقة لها إذا أنتم لا تعلمون أنها لا تتصف بشيء من أوصاف الألوهية فهو كقوله تعالى:

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ^(٢).

و قوله: إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ^(٣).

و قيل، أم، متصلّة و التقدير أم تنبئونه بظاهر من القول لا حقيقة له.

كقوله تعالى: ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

الجلد الثالث

بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ قَرَأْ مَا جَاهِدَ زَيْنَ،
 على البناء للفاعل و مكرهم بالنصب و الجمهور على البناء للمفعول و مكرهم
 بالرفع و عليه المصاحف أي كيدهم للإسلام بسبب شركهم و ما قصدوا
 بأقوالهم و أفعالهم من مناقضة الشرع، و قال بعضهم، أي زَيْنَ ذلك لهم أنفسهم
 و غواتهم من شياطين الإنس و الجنَّ و صدّوا عن السَّبِيلِ، أي منعوا عن طريق
 الحقّ بالإغواء و المنع و قيل أي أعرضوا عن طريق الجنة.
 و الحاصل أنّ مكرهم صار باعثاً لذلك وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ
 قيل في معناه أنّ من حكم الله عليه بأنّه ضالّ على وجه الدّم فأنّه لا ينفعه
 هداية أحدٍ.

و قال بعض المفسرين معناه من يضلّه عن طريق الجنة الى النار فلا هادٍ
 يهديه اليها و لا يجوز أن يكون المراد من يضلّه عن الإيمان لأنّ ذلك سفه لا
 يفعله الله تعالى.

و أنا أقول إضلال الله العبد إيكاله الى نفسه أي إخراجة عن حيطه لطفه و
 عنايته بسبب معصيته و من المعلوم أنّ من وكله الله الى نفسه سلط عليه
 الشيطان قهراً و لا نعني بالضال إلا هذا و قد مرّ نظير هذا غير مرّة و تكلّمنا في
 معناه بما لا مزيد عليه.

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
 مِنْ وَاقٍ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّ لهؤلاء الكفّار الذين وصفهم في الآيات
 السّابقة عذابٌ في الحياة الدّنيا و عذابٌ في الآخرة، و لعلّ المراد بالعذاب في
 الدّنيا هو ما يصيبهم بسبب كفرهم من القتل و الأسر و النهب و الذلّة و الحروب
 و البلايا في أجسامهم و غير ذلك ممّا يمتحن به الكفّار.

و أما عذاب الآخرة فهو الخلود في جهنم والإحراق بالنار فيها دائماً كلما
 نضجت جلودهم بدجلناهم جلوداً غيرها ولا شك في أنه أشق أي أصعب
 من عذاب الدنيا كمأ و كيفاً بل لا يقاس أحدهما بالآخر كما لا يقاس الدنيا
 بالآخرة فإن الدنيا وما فيها فانية والآخرة وما فيها باقية.
 و أما قوله: **وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** أي ليس لهم من يمنعهم منه لأن
 حكم الأمثال واحد.

**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَ
 ظِلُّهَا**

ارتفع مثل، على الإبتداء في مذهب سيبويه و الخبر محذوف أي فيما
 قصصنا عليكم مثل الجنة.

و قوله: **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** تفسير لذلك المثل تقول مثلت الشيء
 إذا وصفته و قرئته للفهم و أنكر أبو علي أن يكون، مثل، بمعنى صفة قال إنما
 معناه التنبيه، و قيل أنه تعالى شبه الجنة و الخبر محذوف تقديره، مثل الجنة
 التي هي الأنهار مشبه الجنة التي وعد المتقون بالجنة التي هي الأنهار فكأنه
 قال مثل هذه كما قال تعالى^(١) و قال قوم معناه صفة، فالجنة التي وعد المتقون
 صفة جنة تجري من تحتها الأنهار وكيف كان فالجنة البستان الذي يجنّه الشجر
 و المراد هاهنا جنة الخلد التي أعدها الله للمتقين جزاء لهم على طاعتهم و
 إنتهائهم عن معاصيه و المتقي هو الذي يتقي عقاب الله بفعل الواجبات و ترك
 المقبحات.

و قوله: **أُكْلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا** أي إن ثمارها لا تنقطع و قيل معناه النعيم بها لا
 ينقطع بموت و لا بغيره من الآفات و ظلها، معطوف على أكلها أي و ظلها أيضاً
 دائم لا نفاد له إذ ليس لها حر الشمس، ثم أن الأكل بضم الألف والكاف، ما

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد
 الثالثة

يُؤْكَلُ فِيهَا وَمَعْنَى دَوَامِهِ عَدَمُ انْقِطَاعِهِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ الْعُقْبَى بَضَمُ الْعَيْنِ عَلَى وَزْنِ فَعْلَى، مَعْنَاهُ آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْآخِرَةُ وَقِيلَ مَعْنَاهُ جِزَاءُ الْأَمْرِ وَالْمَالِ فِيهِمَا إِلَى وَاحِدٍ لِأَنَّ الْجِزَاءَ آخِرُ الْعَمَلِ، أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ عَاقِبَةَ أَمْرِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَعَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ وَالْإِلْتِذَاذُ بِنِعْمَتِهَا الَّتِي لَا تَفْنَى وَأَمَّا عَاقِبَةُ الْكَافِرِ الْجَاهِلِينَ الْمُنْكَرِينَ (النَّارِ) أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ

أَخْبَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ آيَةِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْقُرْآنِ إِذْ فِيهِ تَصْدِيقُ كِتَابِهِمْ وَثَنَاءٌ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ وَرَهْبَانِهِمْ الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَرُدَّ هَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّ هَمَّهُمْ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ فَرَحِهِمْ بَلْ لَا يَعْقِلُ لَهُمْ فَرَحٌ وَلَوْ كَانَ لَا يَعْقِلُ بِهِ وَ أَيْضاً فَأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَنْكُرُونَ بَعْضَهُمْ وَقَدْ قَذَفَ تَعَالَى بَيْنَ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ بَعْضَهُ وَبَيْنَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِينَ وَ اخْتَارَهُ صَاحِبُ الْكَشَافِ فَقَالَ نَزَلَتْ فِيهِمْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ كَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَكَعَبَ الْأَحْبَارِ وَأَصْحَابِهِمَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى وَهُمْ ثَمَانُونَ رَجُلًا أَرْبَعُونَ مِنْ نَجْرَانَ وَثَمَانِيَةَ مِنَ الْيَمَنِ وَإِثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الْحَبْشَةِ، وَقَوْلُهُ: وَمِنْ الْأَحْزَابِ يَعْنِي وَمِنْ أَحْزَابِهِمْ وَهُمْ كَفَرْتَهُمُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ نَحْوَ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَأَصْحَابِهِ وَالسَّيِّدِ وَالْعَقْبِ أَسْقَفِي نَجْرَانَ وَأَشْيَاعَهُمَا مَنْ يَنْكِرُ بَعْضَهُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْكُرُونَ، الْأَفَاصِيصُ وَبَعْضُ الْأَحْكَامِ وَالْمَعَانِي مِمَّا هُوَ ثَابِتٌ فِي كِتَابِهِمْ غَيْرَ مُحَرَّفٍ وَكَانُوا يَنْكُرُونَ مَا هُوَ لُغَةٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَعْتَ الْإِسْلَامَ مِمَّا حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَالْفَرَحُ فِي الْأَصْلِ إِشْرَاحُ الصَّدْرِ الصَّدْرُ بِلَذَّةٍ عَاجِلَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي اللَّذَاتِ الْبَدَنِيَّةِ.

وقوله: **وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ** فالأحزاب جمع، حزب، بكسر الحاء وهم الجماعة التي تقوم بالنائبة يقال تحزب القوم تحزباً وحزبهم الأمر يخرجهم اذا نالهم بمكروهه، والمقصود أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله كانوا يفرحون بما أنزل على رسول الله ﷺ وبعض الأحزاب من أهل الكتاب أنكروا رسالته ﷺ وأن القرآن أنزل على الرسول.

وملخص الكلام أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى منهم من آمن وفرح بإيمانه ومنهم من لم يؤمن وأنكر الحق. **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ أَيِّ قُل لَّهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنِّي أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ تَعَالَى لَا شَرِكَ الْأُلُوهِيَّةَ وَلَا شَرِكَ الْعِبَادَةَ** بل أقول هو الذي تفرد بالألوهية وما سواه كائناً ما كان مخلوق له إليه أَدْعُوا، أي الى الله تعالى أَدْعُوا الناس لا الى غيره كما أمر الله تعالى:

قال الله تعالى: **أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ** (١).

قال الله تعالى: **فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ** (٢).

قال الله تعالى: **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ** (٣).

وغيرها من الآيات التي أمر الله نبيه بأن يدعو الناس اليه وهذا أي دعوة الناس اليه تعالى لم يكن مختصاً بالنبي ﷺ بل جميع الأنبياء كانوا كذلك بل الدعوة الى الله هي الغرض من بعث الأنبياء وجعل الأحكام والشرائع في جميع الأزمنة.

وأما قوله: **وَإِلَيْهِ مَابِ أَيِّ** الى الله تعالى مرجعي ومصيري كما يكون مرجع الكل اليه:

في القرآن تفسير

جزء ١٣

المجلد الثالث

قال الله تعالى: إِنَّ إِلَيَّ لَرْجُعُكَ^(١).

قال الله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ^(٢).

قال الله تعالى: وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣).

قال الله تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيَّ اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(٤).

و الآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة مضافاً الى حكم العقل بذلك كما يأتي الكلام فيه إن شاء الله.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ
الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ
اختلفوا في وجه التشبيه في قوله و كذلك على أقوال:

أحدها: أنه تعالى شبه إنزاله حكماً عربياً بما أنزل على من تقدم من الأنبياء
أي كما أنزلنا الكتب السابقة بلسان من نزلت عليه كما قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ^(٥) كذلك أنزلنا القرآن بلسانك و لسان
قومك أعني به لسان العرب.

و المراد بالحكم ما يفصل بين الحق و الباطل و القرآن كذلك عبر عنه
بالحكم.

الثاني: أنه تعالى شبه إنزاله حكماً عربياً بإنزاله كتاباً تبياناً في أنه منعم
بجميع ذلك على العباد و الحكم فصل الأمر على الحق.

الثالث: قال بعضهم، كما يسرنا لهؤلاء الفرح و لهؤلاء الإنكار لبعض ذلك
أنزلناه حكماً عربياً، و انتصب حكماً على الحال من ضمير النصب في أنزلناه و
الضمير عائد على القرآن.

قال بعض المحققين في قوله: **حُكْمًا** يعني يحكم القرآن في كل شيء يحتاج اليه العباد على مقتضى الحكمة والصواب فالحكم مصدر بمعنى الحاكم ولما كان جميع التكاليف الشرعية مستنبطاً من القرآن فهو للحكم فأسند اليه الحكم إسناداً مجازياً ثم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة و يقال حكماً أي محكماً لا يقبل النسخ والتغيير انتهى كلامه.

أقول لا نحتاج في تفسير الحكم الى هذه التكاليف وذلك لأن الحكم بالشئ أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا سواء أُلزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه: قال الله تعالى: **وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ^(٢).

و أما تسميته القرآن بالحكم في قوله: **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا فَلاَئِهٖ سَبَبٌ** للحكم لأن الحاكم يحكم بسببه ذلك لأن الكتاب هو الأصل والسنة والعقل والإجماع تابع له ولذلك تعرض السنة على الكتاب ولا يعرض الكتاب عليها وتوضح ذلك إجمالاً.

هو أن الأدلة في إستنباط الأحكام الشرعية أربعة، الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والأصل فيها هو الكتاب وأما السنة والإجماع والعقل فهي من الأدلة إذا لم تخالف الكتاب.

و أما في صورة المخالفة فلا يعبأ بها فهو الأصل وما سواه من الأدلة الثلاثة فرع عليه فالحكم في الحقيقة ينشأ منه لا من غيره ولذلك سمي حكماً.

ألا ترى أن الخبرين المتعارضين يعرضان على الكتاب فما وافقه يؤخذ به وما خالفه يترك وتحقيق البحث في الأصول والحكم بهذا المعنى أعني به الأصل قد يطلق على الله تعالى أيضاً.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

قال الله تعالى: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ^(١).
 قال الله تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَنتَ كَفُورٌ^(٢).
 قال الله تعالى: ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٣).
 قال الله تعالى: أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ^(٤).

و أمثال هذه الآيات كثيرة فالحكم في الأصل لله تعالى بقولٍ مطلق و إطلاقه على الكتاب باعتبار أنه كلام الله و هذا واضح بحمد الله و أنما وصفه بالعربية فقال حكماً عربياً، لأنه نزل بلسان العرب و هو ظاهر: وَ لَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِّمْ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ أَي لَأَنْ أَتَبَعْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ الْخَطَّابِ لَهُ ﷺ وَ الْمَرَادُ مِنْهُ الْأُمَّةُ بَعْدَ أَنْ جَاءَ الْعِلْمُ لِأَنْ مَا آتَيْتَكَ مِنَ الدَّلَالَاتِ وَ الْمَعْجَزَاتِ لِلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَاصِرٍ يَعِينُكَ عَلَيْهِ وَ يَمْنَعُكَ مِنْ عَذَابِهِ وَ لَا وَاقٍ، أَي وَ لَا مَنْ يَحْفَظُكَ عَنْهُ فَأَنْتَ الْوَاقِيَةُ الْحَفِظُ وَ مِنْهَا التَّقْوَى لِأَنَّهَا تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الذَّنْبِ وَ تَحْفَظُهَا عَنِ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.

و أعلم أَنَّ الْمَفْسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ أَمْثَالِهَا ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْخُطَابَ لِلرَّسُولِ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَ الْمَرَادُ مِنْهُ الْأُمَّةُ وَ اسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَآءَهُمْ قَطْعاً لِعَصْمَتِهِ وَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْمَرَادُ مِنْهَا الْأُمَّةُ، وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْعَصْمَةَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ فَأَنَّ الْمَخْلُوقَ بِحَسَبِ ذَاتِهِ لَا يَكُونُ مَعْصُوماً وَ أَمَّا يَكُونُ مَعْصُوماً بِتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ وَ عَنَايَتِهِ الْخَاصَّةِ وَ لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ أَلَلَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ^(٥) فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ يَعْصِمُ النَّبِيَّ مِنَ النَّاسِ كَذَلِكَ يَعْصِمُهُ مِنَ الذَّنْبِ وَ الْخَطَا وَ بَعَابَرَةً أُخْرَى الْإِنْسَانَ لَوْ خَلَّى وَ طَبَعَهُ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ لُطْفِ اللَّهِ وَ عَنَايَتِهِ يَعْصِي وَ يَخْطِئُ بِمَقْتَضَى الشَّهْوَةِ الْمُوَدَّعَةِ فِي جَبَلْتِهِ وَ مَعَ النَّظَرِ

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

٢- الإنسان = ٢٤

٤- الأنعام = ٦٢

١- المائدة = ٥٠

٣- الممتحنة = ١٠

٥- المائدة = ٦٧

إليه لا يعصي ولا يخطئ وهذا ممّا لا كلام فيه وإذا كان كذلك فصّح أن يقال و لأنّ إنّبعت أهواءهم الخ وكان الخطاب للنبي والمراد منه أيضاً هو النبي إصالتها والأمة تبعاً وحيث أن المشروط منتفٍ بانتفاء شرطه والمتابعة لم تتحقّق فالمشروط كذلك وبعبارة أخرى المنافي للعصمة هو تحقّق المتابعة في الخارج والمفروض عدم حصولها فظهر وتحقّق أنّ حمل الآية على ظاهرها لا إشكال فيه وهو المطلوب.

وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ
أخبر الله تعالى في هذه الآية عن أمور أربعة:

أحدها: أنّ النبي ﷺ لم يكن أول الأنبياء بل أرسل الله تعالى رسلاً من قبله وهو ممّا لا شك فيه لأنّ نبي الإسلام كان خاتم الانبياء.
قال الله تعالى: وَلَئِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (١).

قال الله تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ (٢)
وهكذا.

ثانيها: قوله: وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وفيه إشارة الى أنّ الرسول الذي أرسله الله الى الخلق في جميع الأزمنة كان من جنس البشر لا من جنس الملك الذي لا يأكل ولا يشرب ولا شهوة له فلا ينكح وإذا كان من البشر فله ماله من القوة البشرية التي منها الشهوة الجنسية ولازم ذلك التكاثر ويوجد منه الأولاد والذرية وأنما قال الله ذلك لأنّ الكفار كانوا أنكروا تزويج النبي بالنساء فردّ الله تعالى عليهم بما قال وبيّن أنّ الأنبياء قبله كان لهم أزواجاً و ذرية فذلك النبي ﷺ.

بناء القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

الأمر الثاني: أن الرسول لا يأتي بآية أي معجزة إلا بإذن الله تعالى وأنه لا يقدر على الإتيان بها من قبل نفسه والوجه فيه ظاهر لأن الإعجاز و خرق العادات من شئون الرب الذي يقدر على كل شيء وهو الذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و أما المخلوق فهو تابع لخالقه في جميع حركاته و سكناته و أفعاله و أقواله بمعنى أنه من حيث ذاته ممكن الوجود و قد يثبت أن الممكن من ذاته أن يكون ليساً و من علته أن يكون آيساً أي موجوداً و من كان موجوداً من غيره و الوجود هو الأصل بالنسبة الى الصفات فلا محالة في جميع شئونه تابع لغيره و الى هذه النكتة أشير بقوله:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(١).

فالعقل السليم يحكم بأن المخلوق كائناً ما كان لا يقدر على شيء من قبل نفسه.

وأما النقل فقد قال الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَ تَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي^(٢).

بل نقول لا يوجد شيء إلا بإذن الله:

قال الله تعالى: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَبَنٍ أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ^(٣).

قال الله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ^(٤).

قال الله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ^(٥).

قال الله تعالى: وَ يُفْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ^(٦).

وإذا كان الإيمان والتكلم والشفاعة وغيرها من الأمور بإذنه فالمعجزات بطريق أولى.

ومحصل الكلام هو أن المخلوق ولو كان نبياً مرسلأً أو ملكاً مقرباً لا يقدر على شيء من عند نفسه وهذا ثابت بالعقل والنقل.

الرابع: قوله: **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** قيل في معناه أي لكل أجل قدره كتاب أثبت فيه فلا تكون آية إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب على ما توجهه صحة تدبير العباد قيل فيه تقديم وتأخير وتقديره، لكل كتاب أجل كما قال تعالى: **وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ** ^(١) والمعنى جاءت سكرة الحق بالموت وهي قراءة أهل البيت وأما قال الله تعالى ذلك في هذا المقام للإشارة إلى أن الآية أي المعجزة تأتي في وقتها وزمانها على حسب المصلحة.

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ

قيل في وجه اتصال هذه الآية بما تقدم هو أنه لما قال: **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** اقتضى أن يدخل فيه أعمال العباد فبين الله تعالى أن يمحو ما يشاء ويثبت لئلا يتوهم أن المعصية مثبتة بعد التوبة كما هي قبل التوبة وقيل أنما يمحى و يثبت الناسخ والمنسوخ وقيل يثبت ما يشاء أي مما يشبهه الملكان لأنه لا يثبت إلا الطاعات والمعاصي دون المباحات.

وقيل معناه يمحى ما يشاء من معاصي من يريد التفضل عليه بإسقاط عقابه و يثبت من يريد عقابه والحسنة يثبتها الله قبل فعلها بمعنى أنهم سيعملونها فإذا عملوها أثبتتها بأنهم عملوها فلذلك أثبت في الحاليين والوجه في إثباتها ما يكون فيها من المصلحة والاعتبار لمن يفكر فيه بأن ما يحدث على كثرته وعظمته قد أحصاه الله وكتبه وذلك لا سبيل إليه إلا من جهة علام الغيوب الذي يعلم ما يكون قبل أن يكون نقل هذه الوجوه في التبيان.

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

و قال بعض المفسرين من العامة هذا أي المحو و الإثبات عام في الرزق و الأجل و السعادة و الشقاوة و نقل في تفسيره عن ابن عباس أنه قال: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ من أمور عبادِهِ إِلَّا السعادة و الشقاوة و الآجال فإنه لا محو فيها. و قال الحسن و فرقة هي آجال بني آدم تكتب في ليلة القدر و قيل في ليلة نصف شعبان و قيل في العاشر من رجب، و قيل يمحو كفر التائبين و معاصيهم بالتوبة و يثبت إيمانهم و طاعتهم و الأقوال كثيرة نقلها في تفسير بحر المحيط. أقول روي علي بن إبراهيم في تفسيره بأسناده عن أبي عبد الله قال عليه السلام إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة و الرّوح و الكتبة الى سماء الدنيا فيكتبون ما يكون من قضاء الله تبارك و تعالى في تلك السنة فإذا أراد الله أن يقدم أو يؤخرا أو ينقص شيئا أو يزيده أمر الله أن يمحو ما يشاء ثم أثبت الذي أراد.

قلت وكل شيء عنده بمقدار مثبت في كتابه قال: نعم قلت فأَي شيء يكون بعده قال سبحانه الله ثم يحدث الله أيضاً ما يشاء تبارك و تعالى انتهى.

و أيضاً عنه عليه السلام قال في هذه الآية يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ و هل يمحى إلا ما كان ثابتاً و هل يثبت إلا ما لم يكن انتهى.

و عن تفسير العياشي عن عمار بن موسى عن أبي عبد الله عليه السلام حيث سئل عن الآية قال ذلك الكتاب يمحو الله فيه ما يشاء و يثبت فمن ذلك الذي يردّ الدعاء القضاء و ذلك الدعاء مكتوب عليه الذي يردّ به القضاء حتى إذا صار الى أم الكتاب لم يغن الدعاء فيها شيئاً انتهى

و عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام كان علي بن الحسين يقول لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون الى يوم القيامة فقلت له آية

أَيَّةٌ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَ اللَّهِ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يَثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ انْتَهَى.

و عن أبي حمزة الثمالي قال قال أبو جعفر و أبو عبد الله عليهما السلام يا حمزة إن حدثناك بأمرٍ أنه يجي من هاهنا فأن الله يصنع ما يشاء و أن حدثناك اليوم بحديثٍ وحدثناك غداً بخلافه فأن الله يمحو ما يشاء و يثبت انتهى.

و عن ابن سنان عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَقْدَمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ وَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَرِيدُهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَصْنَعَهُ وَ لَيْسَ شَيْءٌ يَبْدُو لَهُ إِلَّا وَ قَدْ كَانَ فِي عِلْمِهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَبْدُو لَهُ مِنْ جَهْلِ انْتَهَى.

و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن أبي الحسن الرضا قال قال أبو عبد الله و أبو جعفر و علي بن الحسين و الحسين بن علي عليهم السلام و الله لولا أية في كتاب الله لحدثناكم بما يكون الى أن تقوم الساعة و هي قوله: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يَثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ انْتَهَى.

و الأخبار الواردة في الباب كثيرة جداً و ما نقلناه عن تفسير نور الثقلين^(١) و قد أورد فيه أخباراً كثيرة إن شئت فراجعه و الذي نقول في معنى الآية هو أن الله تعالى يقضي و يقدر و هذا ممّا لا خلاف عليه بل عليه إجماع المسلمين و الدليل عليه بعد الأدلة العقلية هو نص الكتاب العزيز:

قال الله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا^(٢).

قال الله تعالى: فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٣).

قال الله تعالى: وَ قَضَى الْأَمْرَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(٤).

في القرآن في تفسير قوله تعالى

جزء ١٣

الجلد الثالث

وهكذا قد مرَّ منَّا الكلام في القضاء والقدر وقلنا أنَّ القضاء الحكم والقدر حدُّ الحكم وهذا ظاهر فقد ثبت أنَّ لله قضاء وقدر.

ثمَّ أنَّ القضاء تابع للمصلحة والمفسدة وهذا أيضاً لا كلام فيه عند العدلية فإنَّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد الواقعيَّة التي لا يعلمها إلا هو.

ثمَّ أنَّ المصلحة والمفسدة تختلفان بحسب مقتضيات الزمان والمكان والأشخاص والأحوال فقد يكون الحكم ذا مصلحة أو ذا مفسدة في بعض الأوقات وفي بعض الأمكنة وفي بعض الحالات وذلك مثل أكل الميتة فأنَّه في حال الإختيار لا يجوز لأنَّ فيه مفسدة وفي حال الإضطراب يجوز بل قد يجب إذا كان حفظ النفس متوقفاً عليه لأنَّ فيه مصلحة، وهكذا شرب الخمر فأنَّه حرام في حال الإختيار وحلال في حال الإضطراب، والتقية فأنَّها تجب في بعض الأمكنة وتحرم في بعض آخر ونظائرها كثيرة إذا عرفت هذا.

فإعلم أنَّ قوله: **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** معناه أنَّه تعالى يمحو الحكم في بعض الموارد ويثبت في موردٍ آخر وبالعكس وذلك لأنَّه عالمٌ بعواقب الأمور ولا يخفى عليه شيءٌ فإذا رأى المصلحة في إثبات الحكم يثبت أي يحكم به وإذا رأى المصلحة في تركه بمعنى أنَّ في وجوده مفسدة ينهى عنه هذا بالنسبة إلى الأحكام ممَّا لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً بل هو من المحسوسات.

وأما بالنسبة إلى المقدَّرات من الأجل والأرزاق فهو أيضاً لا إشكال فيه والأصل في ذلك هو أنَّ الله تعالى فاعل مختار يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وحيث أنَّ المسألة من أهمِّ المسائل الاعتقاديَّة ولذلك صارت معركة الآراء بين المحققين من الفلاسفة والمفسرين والمحدِّثين لا بأس بتفصيل الكلام فيها بحسب ما يقتضيه المقام فنقول:

أصل الإشكال الذي صار باعثاً لتحجير القوم في تبين المراد هو أنَّه قد ثبت في العلوم العقليَّة أنَّ الله تعالى عالم بكلِّ الأشياء حاضرها وغائبها ظاهرها و

باطنها ما مضى منها وما يأتي وبالجملة لا يخفى عليه شيء وقد ثبت أيضاً أنّ علمه تعالى عين ذاته لا أنّه عارضٌ على الذات فذاته علمه و علمه ذاته و هكذا بالنسبة الى غير العلم من الصفات الثبوتية كالقدرة والحياة وغيرهما و أنّما قالوا ذلك لأنّه تعالى حقيقته الوجود فهو بسيط الحقيقة فلو كان العلم أو القدرة مثلاً من العوارض في حقّه تعالى لزم أن يكون معلولاً كما هو مقتضى العروض و الى هذه الدقيقة أي أنّ العروض يقتضي المعلولية أشار السبزواري رحمته في منظومته:

الحقّ ماهيةً لحيته إذ مقتضى العروض معلولية

و قال أمير المؤمنين عليه السلام وكمال الإخلاص نفي الصفات عنه، أي نفي الصفات الزائدة على الذات العارضة عليه لا نفي الصفات بمعنى أنّه لا صفة له تعالى كما زعمه بعض شرّاح كلامه و قد تكلمنا فيه مفصلاً في شرحنا على نهج البلاغة بما لا مزيد عليه، و إذا كان العلم عين ذاته كما هو كذلك و هو عالمٌ بكلّ الأشياء يخفى عليه شيء فما معنى المحو و الإثبات أليس معناه أنّه يشبّه شيئاً ثمّ يظهر له خلافه فيمحوه أو يمحو شيئاً ثمّ يظهر له خلافه فيثبتته و لازم ذلك هو التّغير و التّبدل في علمه و هو محالٌ.

أمّا أولاً: فلأنّ التّغير و التّبدل من الحوادث و لازم ذلك أن يكون علمه حادثاً لأنّ محلّ الحوادث حادث و إذا كان علمه حادثاً فكيف يكون الذات قديماً و المفروض أنّه محلّ الحوادث فعلى هذا لا معنى للمحو و الإثبات و حيث أنّه ثبت في الكتاب العزيز فما معناه و لذلك أي و لصعوبة الطّريق لم يفسّر أحدٌ من المفسّرين هذه الآية بل قنعوا بتفسير ألفاظها ولم يبيّنوا المراد منها.

قال الرّازي و هو من فحول علماء أهل السّنة و تفسيره من أحسن التّفاسير و أدقّها من بين تفاسيرهم ما هذا لفظه.

المسألة الثالثة: المحو ذهاب أثر الكتابة محاه يمحوه محواً إذا ذهب أثره و

في قوله تعالى
و لا يغيره
و لا يتبدل

جزء ١٣

المجلد الثاني

قوله: **وَ يُثَبِّتُ** قال النحويون أراد ويثبت إلا أنه إستغنى بتعدية الفعل الأول عن تعدية الثاني وهو كقوله تعالى: **وَ الْخَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْخَافِظَاتِ** ^(١) انتهى.

أقول هذا أول الخطب في كلامه و ذلك لأنّ زلام ما ذكره أن يكون التقدير و يثبت ما يشاء كما مثّل بقوله: **وَ الْخَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْخَافِظَاتِ** أي والحافظات فروجهن فقوله قال النحويون، أراد و يثبت، لا معنى له ولم يقل نحويّ هذا و أنّما قال ما قال من عند نفسه و أنّما عبّرنا عنه بالخطب، لوجود الفرق بين قولنا و يثبته و قولنا و يثبت ما يشاء، فإنّ المستفاد من قوله يثبته أي يثبت ما محاه.

و أمّا قولنا و يثبت ما يشاء معناه يثبت شيئاً آخر مكان الشئ الذي أمحاه و بين المعنيين بولٍ بعيد.

ثمّ قال الرّازي في هذه الآية قولان:

الأوّل: أنّها عامّة في كلّ شئ يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا أنّ الله يمحو من الرزق و يزيد فيه و كذا القول في الأجل و السعادة و الشقاوة و الإيمان و الكفر و هو مذهب عمر و ابن مسعود و القائلون بهذا القول كانوا يدعون و يتضرعون الى الله في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء التأويل رواه جابر عن رسول الله.

و القول الثّاني: أنّ هذه الآية خاصّة في بعض الأشياء دون البعض و على هذا التّقرير في الآية وجوه.

الأوّل: المراد من المحو و الإثبات نسخ الحكم المتّقدم و إثبات حكم آخر بدلاً عن الأوّل، و ساق الكلام الى الوجه العاشر و حيث أنّ الوجوه المذكورة ممّا لا ينبغي أن يلتفت اليه أعرضنا عن نقلها إن شئت الإطلاّع عليها فعليك بكتابه و أنت ترى إذا تأملت فيما ذكرناه و حقّقناه سابقاً من أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفساد الواقعية و هي تختلف بحسب الزّمان و المكان و الأحوال و لذلك قد تقتضي المصلحة إثبات الحكم و قد تقتضي إمحاه و كذلك المفسدة قد تقتضي في بعض الأحيان إمحاه و قد لا تقتضي لعلمت أنّ

المحو والإثبات ممّا لا محيص عنه وليس معناه أنّ الله قد يعتقد كذا أو يظهر له كذا وقد يعتقد خلافه فإنّ هذا في حقّه محال للزومه والجهل في حقّه تعالى نعوذ بالله منه.

بل نقول أنّ الله تعالى يثبت شيئاً وهو يعلم أنّه لا يبقى إلاّ مدّة معيّنة ثمّ يمحوه و يمحو شيئاً وهو يعلم أنّ المحو لا يبقى إلاّ مدّة ومعيّنة في علمه ثمّ يثبت مكانه شيئاً آخر فهو عالم بما يمحوه قبل محوه كما أنّه عالم بما يثبت قبل إثباته وليس المحو الإثبات في حقّه تعالى كالمحو والإثبات بالنسبة إلينا كما هو واضح.

و محضّ الكلام هو أنّه تعالى عالم بما يمحو ويثبت قبل محوه وإثباته ولكن يمحو ويثبت لما فيه من المصلحة والمفسدة بالنسبة الى العبد كما إذا قال المولى لعبده إفعل هذا وهو يعلم أنّه سيمنعه عنه أو قال لا تفعل هذا وهو يعلم أنّه سيأمره به هذا إذا قلنا أنّ المحو والإثبات في شيء واحد.

وأما إذا قلنا أنّ المحو في شيء والإثبات في شيء آخر بمعنى أنّه تعالى يمحو ما يشاء من الحكم ثمّ يثبت مكانه حكماً آخر على أساس المصلحة فالأمر أسهل وأوضح إذ ليس كلّ حكم ذا مصلحة في جميع الأوقات كما لا يكون ذا مفسدة في جميع الأوقات والظاهر أن المراد من الآية هذا المعنى لا ما زعمه بعضهم من أنّه تعالى يمحو ما يشاء ويثبت أي يثبت ما أمحاه أولاً إذ لو كان معنى الكلام ما زعموه لقال يمحو الله ما يشاء ويثبت ولم يقله بل قال ويثبت أي يثبت حكماً آخر مكانه.

وأما، أمّ الْكِتَابِ فمعناه أصل الكتاب لأنّ أمّ الشّيء أصله وقوله: وَ عِنْدَهُ أمّ الْكِتَابِ أي أصل الكتاب الذي يقع فيه المحو والإثبات وهو يرجع الى علمه تعالى إذ لا أصل للكتاب إلاّ علمه بما فيه.

وقيل هو الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وهو محلّ المحو والإثبات.

وَبِالْقُرْآنِ يُحْيِي وَيُمِيتُ النَّاسَ

جزء ١٣

العبد القائل

وقيل هو اللوح المحفوظ وقيل غير ذلك والحق ما ذكرناه لأن كتاب اللوح المحفوظ هو الذي يقع فيه المحو والإثبات فكيف يكون هو أم الكتاب ولنتختم الكلام في هذا المقام فأَنَّ المسألة من المسائل الغامضة التي لا تصل إليها الأفهام ولا تدركها العقول الضعيفة والحمد لله وحده.

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ

قيل، ما، زائدة والتقدير وإن نرينك والمشهور بين المفسرين إثباتها وإدغام الثؤن فيها والتقدير، فإما نرينك ولا فرق في ذلك من حيث المعنى ومعنى الآية، وإما نرينك يا محمد بعض الذي نعدهم أي لقد هؤلاء الكفار من العذاب وقيل من نصر المؤمنين عليهم بتمكينك منهم بالأسر والقتل وإغتمام الأموال، أو نتوقينك، أي نقبضك الينا قبل أن نريك ذلك فبين بهذا أنه يكون بعض ذلك في حياته ^{صلى الله عليه وسلم} وبعضه بعد وفاته أي فلا تنتظر أن يكون جميع ذلك في أيام حياتك وأن يكون مما لا بد أن تراه.

ومحصل الكلام هو أن ما وعدنا هؤلاء الكفار من العذاب في الدنيا فهو واقع لا محالة سواء كان في حياتك أم بعد مماتك أو بعضه في حياتك وبعضه بعد موتك وكيف كان فهو حاصل قطعاً ثم بين الله تعالى وظيفة الرسول وقال: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ أي تبليغ الأحكام وعلينا يوم القيامة وفيه إشارة أن وظيفة الرسول ليست إلا البلاغ:

قال الله تعالى: وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ^(١).

قال الله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(٢).

قال الله تعالى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ^(٣).

قال الله تعالى: **فَهَلْ أَلْزَيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**^(١) والآيات كثيرة.

و أما قوله و علينا الحساب فهو مسلّم لا خلاف فيه عقلاً و نقلاً.
أما العقل فلائ الله تعالى هو الذي كلف العباد بالتكاليف الشرعية فلا محالة حسابهم عليه أيضاً إذ لا يعقل أن يكون حساب المأمور على غير الأمر أو من يأمره الأمر به ففي الكلام دلالة على أن الله تعالى لم يفوض حساب العباد الى أحد.

و أما النقل:

قال الله تعالى: **مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ**^(٢).

قال الله تعالى: **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ**^(٣).

قال الله تعالى: **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**^(٤).

قال الله تعالى: **وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**^(٥).

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

يقول الله تعالى، أَوْ لَمْ يَرَوْا، هؤلاء الكفار، إِنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أي نقص الأرض من أطرافها، إختلفوا في المراد بهذا النقص على أقوال:

أحدها: ما فتح على المسلمين من أرض المشركين.

ثانيها: نقصها بموت أهلها.

وقيل بموت العلماء.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

٢- الأنعام = ٥٢

٤- العاشية = ٢٦

١- النحل = ٣٥

٣- الشعراء = ١١٣

٥- النساء = ٦

و قيل بخرابها فهذه الأقوال الأربعة ذكرها في التبيان و قيل المراد هلاك من أهلك من الأمم قبل قريش و هلاك أرضهم بعدهم، و قيل المراد ذهاب فقهاءها و خيار أهلها، و الأقوال كثيرة و المشهور عند المفسرين هو القول الأول أي ما فتح الله على المسلمين من أرض المشركين و نقل عن الزجاج أنه قال علم الله تعالى أن بيان ما وعد المشركون من قهرهم قد ظهر و المعنى أفلا يخافون أن نفتح لمحمد ﷺ أرضهم كما فتحنا له غيرها و هذا القول إختاره القاضي و توضيحه إنا نفتح ديار الشرك بمحمد ﷺ و المؤمنين به، فما زاد في بلاد الإسلام بإستيلائهم عليها جبراً و قهراً، نقص من ديار الكفرة و الله تعالى إذا قدر على بعض ديار الكفرة للمسلمين فهو قادر على أن يجعل الكل لهم أفلا يعتبرون هؤلاء الكفار مما يرونه من النقص في أرضهم بسبب غلبة المسلمين عليهم ثم قال تعالى: **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ** تقديم المسند اليه يفيد الحصر أي أن الحكم مختص به تعالى لا معقب لحكمه، أي و لا أحد يعقب حكمه و لا يقدر عليه و التعقيب رد الشيء بعد فصله و منه عَقَّبَ العقاب على صيده قال لبيد:

حَتَّى تَهْجُرَ فِي الزَّوَّاحِ وَهَاجَهُ طَلَبَ الْمُعَقَّبُ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ
و إذا لم يقدر أحد على تعقيب حكمه تعالى فما حكم به يكون خالياً عن المعارض و المناقض فإذا حكم للإسلام بالغلبة على الكفار فهو كائن لا يمكن تغييره و لا تبديله، و هو سريع الحساب، يوم القيامة و السرعة عمل الشيء في المدة القليلة.

قال الله تعالى: **أَلَا لَهُ الْخُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** (١).

قال الله تعالى: **لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٢).

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣).

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد التاسع

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أَنَّ الكفار الذين كانوا قبلهم مكروا بالمؤمنين
و احتالوا في كفرهم و المَكْرُ بفتح الميم وسكون الكاف والراء مصدر تقول مَكَّرَ
يَمَكِّرُ مَكْرًا فهو مَكْرٌ و هو القتل عن البغية بطريق الحيلة و قيل المكر ضررٌ
ينزل بصاحبه من حيث لا يشعر به.

قال الزاغب في المفردات المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ضربان،
مَكْرٌ محمودٌ و هو أن يتحرى بذلك فعل جميل.
و مذموم و هو أن يتحرى بذلك فعل قبيح إنتهى.

أقول فعلى هذا المكر من الإنسان تارة يكون محموداً و أخرى مذموماً و أما
المكر من الله تعالى لا يكون إلا محموداً لتنزّهه تعالى عن القبايح.

و قال بعضهم المكر من الله هو إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدنيا و
على هذا المعنى حمل قول عليّ عليه السلام على ما نقل عنه عليه السلام حيث قال: من
وسّع عليه دنياه ولم يعلم أَنَّهُ مَكْرٌ به فهو مخدوعٌ عن عقله و لعلّه الى هذا
المعنى أشير.

بقوله تعالى: إِنَّمَا نُفُلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ثُمَّ أَنَّ المراد بِمَكْرٍ هؤلاء الكفار قبل
قريش واضح لا خفاء فيه لأنّ المكر من عادات الكفار و المنافقين في جميع
الأزمنة إذ لا حيلة لهم غير المكر و الخدعة في بلوغهم الى مقاصدهم و أما
قوله: فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا حيث نسب الله تعالى جميع المكر الى نفسه
فأختلفوا في معناه فقال قومٌ قد جعل الله تعالى مكرهم كلا مكر إذ أضاف
المكر كلّ له تعالى و معنى مكره تعالى عقوبته إيّاهم سبّاها مَكْرًا إذ كانت
ناشئة عن المكر و ذلك على سبيل المقابلة ثم فسر قوله: فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
بقوله: يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ و المعنى يجازي كلّ نفس بما كسبت ثم
هدّد الكافر بقوله: وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ.

بِقَوْلِهِ
فَلِلَّهِ الْمَكْرُ
جَمِيعًا

جزء ١٣

الجلد الثالث

و قال بعضهم مكر الله جميعاً، هو إهلاكهم من حيث لا يشعرون.
 و قال الواحدي معناه أن جميع المكر الماكرين له و منه أي هو حاصل بتخليصه و إرادته لأنه ثبت أن الله هو الخالق لجميع أعمال العباد و أيضاً فذلك المكر لا يضر إلا بإذن الله و لا يؤثر إلا بتقديره و فيه تسلية للنبي ﷺ و أما له من مكرهم كأنه قيل لهم إذا كان حدوث المكر من الله تعالى و تأثيره في الممكوره أيضاً من الله و جب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى و أن لا يكون الرجاء إلا منه تعالى و استدلل على ما أدعاه بقوله بعد ذلك، تكسب كل نفس بتقرير أن أكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى و خلاف المعلوم ممتنع الوقوع و إذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع و كل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع و إذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل و الترك فكان الكل من الله تعالى نقله الرّازي عن الواحدي في تفسيره و أرتضاه لأنه مطابق لمذهبه و مذهب الجبريين.

و نحن نقول ما ذكره الواحدي في تفسير كلام الله هو من أظهر مصاديق قول النبي ﷺ من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقصده من النار و مع ذلك نقول في جوابه قوله أن مكر جميع الماكرين له و منه أي هو حاصل بتخلقه و إرادته لأنه ثبت أن الله هو الخالق لجميع أعمال العباد.

ففيه أما أولاً: أنه يلزم منه أن لا يكون للخلق فعل أصلاً لأنه تعالى هو الخالق لجميع أفعال العباد فالعبد لا يزني و لا يسرق و لا يشرب الخمر و لا يظلم بل الله تعالى هو الرّاني، و السارق و شارب الخمر و الظالم نعوذ بالله من هذه الأراجيف بيان الملازمة أنه إذا فرضنا أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى و أن العبد لا يقدر على شيء فما الفرق بين المكر و الكذب مثلاً و هكذا سائر الأعمال فإذا كان المكر في الإنسان فعل الله في الحقيقة فكذلك الكذب و السرقة و الظلم و أمثالها إذا المفروض أن أعمال العباد جميعاً مخلوقة له تعالى و هو كما ترى خارج عن طور العقل و الشرع و لا يقول العاقل بهذه المقالة فضلاً عن المسلم.

ثانياً: قوله ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد.

يقال له أين ثبت هذا ومن أثبتته وأي دليل أقيم على إثباته.

نعم أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات من الجن والإنس والملائكة والجماد والحيوان والإنسان والنبات وهذا ممّا لا كلام فيه ومن جملة الموجودات الإنسان فإن كان مراد المستدلّ من خلق الأعمال خلقها بواسطة الإنسان بمعنى أنه تعالى خلق الإنسان والإنسان خلق الفعل والعمل فالله تعالى خالق الفعل في الواقع إذ لو لم يخلق الإنسان خلق الفعل فلهذا صحيحٌ إلا أن خلق الفعل بواسطة العبد من حيث أن العبد سبب وجود الفعل ليس من فعل الله بلا واسطة فإسناده الى الله مجاز لا حقيقة بل الفعل مخلوق للعبد حقيقةً ولله مجازاً ومع الواسطة وإذا كان كذلك فالفعل الصادر عن العبد لا ينسب الى الله بل ينسب الى فاعله وإذا كان منسوباً الى فاعله فالمكر مثلاً ينسب الى الماكر العبد فإن قال القائل أن الفعل وأن كان منسوباً الى فاعله وهو العبد إلا أنه كان مجبوراً على فعله من قبل الله تعالى.

نقول في الجواب ما الدليل على كونه مجبوراً في فعله ومجرد كون الداعي على الفعل ممّا أوجده الله في الفاعل لا يسمّن ولا يغني بعد ثبوت الاختيار بينه وبين الفعل حساً.

وأما استدلاله بقوله تعالى: **يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** فهو ممّا تضحك به الثكلى لأن العلم الأزلي لا يكون علّة لوجود الفعل إذ ليس فعل العبد معلولاً لعلمه مع أنه لو كان كذلك فلازم على الكافر بكفره لأنه تعالى كان عالماً بكفره قبل خلقه والمفروض أن العلم علّة للكفر فالكافر لا يقدر على الإيمان بمقتضى هذه القاعدة فأَيُّ ذنبٍ أو قدح له في كفره ثم أيُّ عقابٍ له يوم القيامة وهكذا الأمر في جميع المعاصي فقولُه يريد أن أكسب العباد بأسرها معلومة لله تعالى لا كلام لنا فيه لأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علماً فهو بكل شيء عليم إلا أن قوله خلاف المعلوم ممتنع الوقوع، كلمة حقٌ يراد بها الباطل فإن إمتناع

وَيَسْأَلُ
الْقُرْآنَ
فِي
بَيْتِهِ
الْعَبْدَ

جزء ١٣

المجلد الثالث

الوقوع ليس معلولاً للعلم بل هو معلول للعبد بمعنى أنه تعالى يعلم بعلمه الأزلي أن أبا جهل يموت على الكفر ولا يؤمن بالله ورسوله بسوء سريرته واختياره لا أنه لا يؤمن لتعلق العلم بعدم إيمانه والفرق بين المقامين واضح وكذلك قوله فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع.

فإن ما ذكره يتم بناءً على كون العلم الأزلي علّة لوقوع الفعل شاء الفاعل أو لم يشاء وأتى له ولهم بإثبات ذلك والذي يختلج بالبال هو أنهم لم يفرقوا بين العلية والكاشفة فإن العلم كاشف عن الواقع لا أنه علّة لوجود الفعل. فقولنا أن الله يعلم كل شيء معناه أن حقائق الأشياء عنده منكشفة لا يخفى عليه منها شيء وليس معناه أن علمه بها علّة وموجد لها فتأمل فإنه دقيق. إن قلت فما معنى قوله: **فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا**.

قلت يحتمل أن يكون الكلام على سبيل حذف المضاف والتقدير فلله جزء المكر أو جزء مكرهم جميعاً لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله أن وبال مكرهم عليهم بمجازاة الله لهم.

و يحتمل أن يكون المكر هنا بمعنى الإستدراج أي إستدراجه العبد من حيث لا يعلم:

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** ^(١).

وفي المقام احتمال ثالث، وهو أن يكون اللفظ على ظاهره والمعنى أن تعالى يعلم جميع أقسام المكر إلا أنه لا يمكر بأحدٍ إلا بالماكر: قال الله تعالى: **وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ^(٢). قال الله تعالى: **وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ^(٣).

و على هذا فمعنى الكلام و قد مكر الذين من قبلهم و لم يعلموا أنّ الله أسرع مكرًا و أقدر في الدُّعاء اللهم أمكر لي و لا تمكر بي، أراد بمكر الله إيقاع بلاءه بأعداءه دون أوليائه.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في الدُّعاء، و لا تمكر بي في حيلتك، و الحاصل أنّ الله تعالى عالم بجميع أقسام المكر المحمود و لا يخفى عليه شيء لأنّه يعلم ما تكسب كلّ نفس من خير أو شرّ.

و سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ فيه تهديد للكفار بأنهم سوف يعلمون لمن تكون عاقبة الجنّة للمطيعين أو العاصين هكذا قيل و لا يبعد أن يكون المراد بالدار هو الدنيا و بالعقبى الآخرة و الأمر سهل.

و يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّ الكفار أنكروا رسالة النبي صلّى الله عليه وآله و قالوا له لست مرسلًا من عند الله قل لهم كفى بالله شهيدًا، أي شاهدًا على صدق رسالتي بيني و بينكم عنده علم الكتاب الظاهر أنّ الواو عاطفة أي كفى بالله شهيدًا و هكذا من عنده علم الكتاب.

أمّا شهادة الله برسالته فلا كلام فيه و ذلك لأنّه أرسله الى خلقه:

قال الله تعالى: لِكِنْ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (١).

قال الله تعالى: قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَحْبَبْتُ شَهَادَةَ قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ (٢).

و هذا ممّا لا خلاف فيه عند المفسّرين و أنّما الخلاف في معنى قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ و أنّه ما المراد بقوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ و هو

بِإِلَهِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



المجلد الثامن

شاهد على رسالته ﷺ ف قيل المراد بالكتاب القرآن و من عنده علم الكتاب، يعني من عرف ما أُلّف فيه من المعاني الصّحيحة و النّظم المعجز الفائت لقدّر البشر يشهد بذلك.

و قيل المراد بالكتاب التّوراة و الإنجيل و الذّي عنده علم الكتاب من أسلم من علماءهم لأنّهم يشهدون نعته في كتبهم كعبد الله بن سلام و تميم الدّاري.

و قال مجاهد يريد عبد الله بن سلام خاصّة.

و قيل المراد به جبرئيل و المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ.

و قيل المراد به هو الله تعالى و به قال الحسن و سعيد بن جبير.

قال الحسن لا و الله ما يعني إلّا الله و المعنى كفى بالذّي يستحقّ العبادة و بالذّي لا يعلم علم ما في اللّوح إلّا هو شهيداً بيني و بينكم.

أقول كأنّ هذا القائل لم يعلم أنّ عطف الصفة على الموصوف لا يجوز و من أجازة اعترف بأنّه مستهجن فلا يقال شهد زيد و الفقيه بل يقال شهد به زيد الفقيه.

و أمّا عندنا فالحقّ أنّ المراد بقوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و الأئمّة المعصومين من ولده عليهم السّلام و ذلك لأنّ علم الكتاب لا يوجد إلّا عندهم و يمكن أن يستدلّ عليه بوجوه من العقل و النّقل.

أمّا العقل فلأنّ علم الكتاب ليس من العلوم الكسبيّة التي تحصل عند النّاس بسبب التّعلّم عن غيره بل هو من العلوم اللدنيّة التي يعبر عنها بالعلم الحضورّي الإلهامي من عند الله على قلب من يشاء و لا شكّ أنّ العلم بهذا المعنى مختصّ بالأنبياء و الأوصياء و حيث قد ثبت عندنا كونهم أوصياء الرّسول عقلاً و نقلاً فهذا العلم مختصّ بهم بعد الرّسول و هو المطلوب.

ثانياً: أنّ الرّسول قد صرّح في الحديث المشهور عند الفريقين أنّهم عدل الكتاب.

فقال ﷺ أَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَ عِترتي أَهْلَ بَيْتِي فَا
 إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ.
 كَيْفِيَّةُ الْإِسْتِدْلَالِ هُوَ أَنَّ النَّبِيَّ جَعَلَهُمْ عَدْلًا لِلْكِتَابِ فَقَالَ كِتَابَ اللَّهِ وَ
 عِترتي، وَ لَازِمُ ذَلِكَ هُوَ كَوْنُ الْعِترَةِ عَالِمًا بِهِ ضَرْوَرَةٌ أَنَّ الْمَرَادَ بِالتَّمَسُّكِ بِهِمَا هُوَ
 التَّمَسُّكُ الْعِلْمِيُّ لِلْعَمَلِ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَيْسَ الْمَرَادُ بِالتَّمَسُّكِ بِهِمَا إِلَّا فَهْمُ
 الْكِتَابِ مِنْ طَرِيقِ الْعِترَةِ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَعَلِمَ الْكِتَابَ عِنْدَهُ لِأَنَّ مُعْطِيَ الشَّيْءِ لَا
 يَكُونُ فَاقِدًا لَهُ.

ثَالِثًا: انْتَقَى الْكُلَّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ
 وَ عَلِيٌّ بَابُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا.

تَقْرِيبُ الْإِسْتِدْلَالِ أَنَّ الرَّسُولَ مَدِينَةَ الْعِلْمِ وَ الْمَرَادُ بِالْعِلْمِ هُوَ عِلْمُ الْكِتَابِ
 إِذْ جَمِيعُ الْعُلُومِ يَسْتَنْبِطُ مِنْهُ وَ جَعَلَ الرَّسُولَ عَلِيًّا بَابَ الْمَدِينَةِ أَيَّ بَابَ مَدِينَةِ
 عِلْمِ الْكِتَابِ أَيَّ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ الْوُصُولَ إِلَى عِلْمِ النَّبِيِّ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَ إِذَا كَانَ عِلْمُ الْكِتَابِ عِنْدَهُ ﷺ وَ الْبَابُ الَّذِي يُوَصِّلُ الْمُتَعَلِّمَ إِلَى ذَلِكَ
 الْعِلْمِ هُوَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا مُحَالَةَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ أَيْضًا وَ لَوْ كَانَ عِلْمُ الْكِتَابِ عِنْدَ
 غَيْرِ عَلِيٍّ لَمَا قَالَ الرَّسُولُ مَا قَالَ وَ هُوَ وَاضِحٌ بَلْ يَسْتَفَادُ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّ عِلْمَ
 الْكِتَابِ فِيهِمَا وَاحِدٌ لَا فَرْقَ فِيهِ.

وَابْعَاثًا: أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَسْأَلْ أَحَدًا بَعْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ عَنْ عِلْمِ الْكِتَابِ وَ هُمْ
 أَيُّ أَصْحَابِ الرَّسُولِ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ فَلَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْكِتَابِ لَمْ يَسْأَلُوهُ قِطْعًا
 وَ كَفَى فِي ذَلِكَ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي مَوَارِدِ كَثِيرَةٍ لَوْلَا عَلِيٌّ لَهْلَكَ عَمْرُ.
 وَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ كَانَ يَفْتَخِرُ بِأَنَّ عِلْمَهُ مِنْهُ وَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ بِتَفْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ
 إِلَّا مِنْهُ وَ هُوَ أَعْلَمُ الصَّحَابَةِ بِالْكِتَابِ وَ السَّنَةِ بَعْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَ أَمَّا النَّصُوصُ الْوَارِدَةُ فِي الْبَابِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ عِلْمَ الْكِتَابِ عِنْدَهُ وَ هُوَ
 الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ فَكَثِيرَةٌ جَدًّا مِنَ الْعَامَّةِ وَ
 الْخَاصَّةِ.

ما رواه محمد بن مسلم وأبو حمزة الثمالي وجابر بن يزيد عن الباقر عليه السلام وعلي بن فضال والفضيل بن يسار وأبو بصير عن الصادق عليه السلام وأحمد بن محمد الحلبي ومحمد بن الفضل عن الرضا عليه السلام وقد روي عن موسى بن جعفر عليه السلام وزيد بن علي ومحمد بن الحنفية وسلمان الفارسي وغيرهم أنهم جميعاً قالوا في قوله تعالى: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هو علي بن أبي طالب عليه السلام انتهى.

التعلي في تفسيره بأسناده عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن ابن عباس وروي عن عبد الله بن عطا عن أبي جعفر عليه السلام أنه قيل لهما زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام قال ذاك علي بن أبي طالب عليه السلام انتهى.

ما روي أيضاً أنه سئل سعيد بن جبير عن قوله تعالى ومن عنده علم الكتاب، عبد الله بن سلام قال لا فكيف وهذه سورة مكية. وقد روي عن ابن عباس أنه قال لا والله ما هو إلا علي بن أبي طالب لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ والحلال والحرام. وروي عن محمد بن الحنفية أنه قال قال علي بن أبي طالب عليه السلام عنده علم الكتاب الأول والآخر.

قال ابن شهر آشوب في المناقب بعد نقله ما نقلناه عنه ومن المستحيل أن الله تعالى ليستشهد يهودي ويجعله ثاني نفسه (أقول لا إشكال فيه عندهم فإن اليهودي عندهم أفضل من الشيعة فلا محالة عبد الله بن سلام يكون أفضل عندهم من علي).

ثم قال صاحب المناقب قوله: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ موافق لقوله كلاً أنزل في أمير المؤمنين علي عليه السلام وعدد حروف كل واحد منهما ثمان مائة وسبعة عشر انتهى.

قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا اِخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ فَكُونُوا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.
 التَّفَاسُ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ عَلِيٌّ عِلْمٌ عِلْمُ عَلِيٍّ عِلْمُ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِلْمُهُ اللَّهُ فَعِلْمُ النَّبِيِّ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ وَعِلْمُ عَلِيٍّ مِنْ عِلْمِ
 النَّبِيِّ وَعِلْمِي مِنْ عِلْمِ عَلِيٍّ وَ مَا عِلْمِي وَ عِلْمُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي عِلْمِ
 عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا كَقَطْرَةٍ فِي سَبْعَةِ أَبْحَرٍ انْتَهَى.
 وَ رَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ أُعْطِيَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تِسْعَةَ
 أَعْشَارِ الْعِلْمِ وَأَنَّهُ لِأَعْلَمَهُمْ بِالْعَشْرِ الْبَاقِي.
 قَالَ الْحَمِيرِي فِي عِلْمِهِ.

وَعَلِيٌّ خَازِنُ الْوَحْيِ الَّذِي كَانَ مُسْتَوْدِعَ آيَاتِ السُّورِ
 وَقَالَ الْعَوْنِي:

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ وَ عِلْمٌ مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ يَكُونُ عِلْمًا مَكْتُمًا
 وَقَالَ الْآخَرُ:

وَمَنْ حَوَى عِلْمَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ عِلْمَ الَّذِي يَأْتِي وَ عِلْمَ مَا مَضَى
 أَفْلا يَكُونُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْكِتَابِ وَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ فِي الْبَيْتِ وَ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُ
 وَحْيَهُ وَ مَسَائِلَهُ وَ يَسْمَعُ فِتَاوِيهِ وَ يَسْأَلُهُ.

وَ رَوَى أَنَّهُ كَانَ النَّبِيُّ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ لَيْلًا لَمْ يَصْبِحْ حَتَّى يَخْبِرَ عَلِيًّا وَ إِذَا
 نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نَهَارًا لَمْ يَمَسْ حَتَّى يَخْبِرَ بِهِ عَلِيًّا وَ الْأَخْبَارُ وَ الْأَشْعَارُ فِي الْبَابِ
 كَثِيرَةٌ أَنْظَرَ الْمَنَاقِبَ لِابْنِ شَهْرَ أَشُوب^(١).

وَ أَمَّا أَحَادِيثُ الْوَارِدَةِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ فَهِيَ أَيْضًا كَثِيرَةٌ
 وَ نَحْنُ نَشِيرُ إِلَى شَطْرِهَا تَيَمُّنًا وَ تَبَرُّكًا بِهَا فَنَقُولُ:

رَوَى فِي تَفْسِيرِ نَوْرِ الثَّقَلَيْنِ عَنْ سَلِيمِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا
 بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَا أَسْمَعُ أَخْبَرَنِي بِأَفْضَلِ مَنْقِبَةٍ لَكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، قَالَ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ: وَ يَقُولُ

فِي الْقُرْآنِ
 فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

المجلد الثالث

الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُؤَسَّلًا إِيَّايَ عَنِي، بِمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ انْتَهَى.
وَعَنْ أَصُولِ الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ بَرِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي
جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ
الْكِتَابِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِيَّانَا عَنِي وَعَلَيَّ أَوْلَانَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْتَهَى.

وَفِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ
الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسُئِلَ عَنِ الَّذِي عِنْدَهُ
عِلْمُ مِنَ الْكِتَابِ أَعْلَمُ أَمْ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ الَّذِي
عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ عِنْدَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَا تَأْخُذُهُ
الْبُعُوضَةُ بِجَنَاحِهَا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ انْتَهَى.

وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَا أُنَّ الْعِلْمَ الَّذِي هَبَطَ بِهِ أَدَمُ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ وَجَمِيعَ مَا فَضَّلْتَ بِهِ النَّبِيِّينَ إِلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ فِي عَتَرَةٍ
خَاتَمِ النَّبِيِّينَ انْتَهَى.

وَعَنْ أَمَالِيِّ الصَّدُوقِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ سَأَلْتُ
رَسُولَ اللَّهِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاءُ وَهُوَ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ انْتَهَى.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَجَلَانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ فَقَالَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ
بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ وَفِي الْأَثْمَةِ بَعْدَهُ وَعَلِيٍّ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ انْتَهَى.
وَعَنْ عُمَرَ بْنِ حَنْظَلَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ فَلَمَّا رَأَيْتُ أُتْبِعُ هَذَا
وَأَشْبَاهَهُ مِنَ الْكِتَابِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسْبُكَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْكِتَابِ مِنْ فَاتِحَتِهِ
إِلَى خَاتَمَتِهِ فَهُوَ الْأَثْمَةُ عَنِي بِهِ انْتَهَى.

وعن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَمَنْ عِنْدَهُ
عِلْمُ الْكِتَابِ قَالَ عليه السلام نزلت في عليٍّ أَنَّهُ عَالِمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهى.

و عن أبي سعيد الخدري قال سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قول الله
عَزَّ وَجَلَّ: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ عليه السلام انتهى.

و الأحاديث كثيرة جداً و لولا مخافة خروء الكتاب عن موضوعه لأشبعنا
الكلام فيه هذا كله اذا قلنا أَنَّ المراد بالكتاب في قوله و من عنده علم الكتاب
هو القرآن كما هو المشهور بين المفسرين.

و أمّا اذا قلنا أَنَّ المراد بالكتاب جنسه الشّامل لجميع الكتب السّماوية من
التّوّارة و الإنجيل و الزبور و القرآن و غيرها فهذا القول و أن كان ضعيفاً لم يقل
به من يعتنى بقوله إلّا أَنَّهُ من الإحتمالات التي لا بدّ لنا من الجواب عنها فنقول:
أن كان المراد بالكتاب جنسه فهذا لا ينطبق أيضاً بعد رسول الله إلّا على
أمير المؤمنين عليه السلام.

أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّ الْعَالَمَ بِالْقُرْآنِ عَالِمَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ لِأَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ
الْعُلُومِ وَ الْأَحْكَامِ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ لقوله تعالى: وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُّبِينٍ ^(١).

ثانياً: هذا منصوب فعن روضة الواعظين قال الباقر عليه السلام و من عنده علم
الكتاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام عنده علم الكتاب الأوّل و الآخر انتهى.
و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثقلين ^(٢) و لنختتم الكلام في تفسير
الآية فعلاً و الحمد لله ربّ العالمين.

* * *

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْكِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ
مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ
يَعْبُدُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ
ذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ

يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ
قَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ
الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَ
قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ
شَكٌّ فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُمْ مِمَّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)

◀ اللُّغَةُ

وَيْلُ الوَيْل القبح وقد يستعمل على التحسر.

يَصُدُّونَ الصَّد المنع.

وَيَبْتَغُونَهَا البغي الطلب.

عَوَجًا العوج العطف عن حال الإنتصاب.

يَسْؤُمُونَكُمْ السُّوم أصله الذَّهَاب في إبتغاء الشَّيْءِ فهو لفظٌ لمعنى مركب من
الذَّهَاب و الإبتغاء.

◀ الإعراب

كِتَابٌ خَبْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَيْ هَذَا كِتَابٌ وَ أَنْزَلْنَاهُ صِفَةٌ لِلكِتَابِ وَ لَيْسَ بِحَالٍ لِأَنَّ كِتَابًا نَكْرَةً بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ أَيْ بِسَبَبِ الْإِذْنِ وَ قِيلَ أَنَّهُ حَالٌ مِنَ النَّاسِ أَيْ مَأْذُونًا لَهُمْ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ أَيْ مَأْذُونًا لَكَ إِلَى صِرَاطٍ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ، إِلَى الثَّوْرِ بِإِعَادَةِ الْجَارِ لِلَّهِ الَّذِي يَقْرَأُ بِالْجَرِّ عَلَى الْبَدَلِ وَ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَ مَا بَعْدَهُ الْخَبْرُ، وَ عَلَى الْخَبْرِ وَ الْمَبْتَدَأِ مَحذُوفٌ أَيْ هُوَ اللَّهُ وَ الَّذِي، صِفَةٌ، وَ قِيلَ هُوَ مَبْتَدَأٌ وَ، الَّذِي، صِفَةٌ وَ الْخَبْرُ مَحذُوفٌ وَ يَلُغُ مَبْتَدَأُ وَلِلْكَافِرِينَ خَبْرُهُ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ صِفَةً لَوَيْلٍ بَعْدَ الْخَبْرِ جَائِزَ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ فِي مَوْضِعٍ جَرٍّ صِفَةً لِلْكَافِرِينَ أَوْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِإِضْمَارٍ أَعْنِي أَوْ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ بِإِضْمَارٍ، هُمْ، إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ أَيْ إِلَّا مَتَكَلِّمًا بِلُغَتِهِمْ وَ قَرِئَ فِي الشَّاذِّ (بَلَسْنَ قَوْمَهُ) بِكسْرِ اللَّامِ وَ إِسْكَانِ السَّيْنِ وَ هِيَ بِمَعْنَى اللِّسَانِ فَيُضِلُّ بِالرَّفْعِ وَ لَمْ يَنْتَصِبْ عَلَى الْعُطْفِ عَلَى، لِيَبَيِّنَ، لِأَنَّ الْعُطْفَ يَجْعَلُ الْمَعْطُوفَ كَمَعْنَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ وَ الرُّسُلَ أَرْسَلُوا لِلْبَيَانِ لَا لِلضَّلَالِ أَنْ أَخْرَجَ قَوْمَكَ أَنْ بِمَعْنَى أَيْ فَلَا مَوْضِعَ لَهُ وَ قِيلَ أَنَّهَا مَصْدَرِيَّةٌ وَ التَّقْدِيرُ، بِأَنْ أَخْرَجَ.

◀ التفسير

الزُّقْدُ مَرُّ الْكَلَامِ فِي الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَ قُلْنَا لَا يَعْلَمُ الْمُرَادَ فِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الرَّمُوزِ.

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

لَا شَكَّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنَ أَيْ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ وَ التُّزُولُ فِي الْأَصْلِ هُوَ إِنْحِطَاطٌ مِنْ عَلَوٍ يُقَالُ يُنْزَلُ عَنْ دَابَّتِهِ حَطًّا رَحَلَهُ فِيهِ وَ الْإِنْزَالُ مِنْهُ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

تعالى تارةً يكون في نعمه وأخرى في نقمه على الخلق وإعطاءهم أيأها و ذلك إما بإنزال الشئ نفسه كإنزال القرآن.

و أما بإنزال أسبابه والهداية اليه كإنزال الحديد و اللباس، في.

قال الله تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ^(١).

قال الله تعالى: **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ أَلْسَلَوُا** ^(٣).

و من إنزال النعمة و العذاب:

قال الله تعالى: **إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا**

كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٤).

و الفرق بين الإنزال و التّنزيل في وصف القرآن و الملائكة هو أنّ التّنزيل يختصّ بالموضع الذي يشير اليه إنزاله مفرّقاً و مرّة بعد أخرى و الإنزال عامّ و كيف كان فقوله **أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** يدلّ على أنّ الكتاب منزل من الله تعالى و قد صرّح بذلك في كثير من الآيات فإنّ الكتب السماوية شأنها كذلك ثم أشار الله تعالى الى سبب الإنزال و أنّه لأيّ شئ أنزله الله على رسوله.

فقال: **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**، فاللّام في قوله: **لِتُخْرِجَ**

للتعليل أو للغاية و المعنى هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمّد لتخرج النّاس من ظلمات الكفر و الضلالة الى نور الإيمان و الهداية.

و قال قتادة من الظلمات الى النور أي من الضلالة الى الهدى ففيه إيماء الى

أنّ النّاس قبل ذلك كانوا في الضلالة و هو كذلك و الدليل على ذلك قوله

تعالى: **وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ^(٥) ثم أنّ النور و الظلمة متقابلان لا

يجتمعان في شئ واحد و الحقّ أن تقابلهما تقابل عدم و الملكة لا تقابل

٢- الأعراف = ٢٤

١- الحديد = ٢٥

٤- العنكبوت = ٣٤

٣- البقرة = ٥٧

٥- آل عمران = ١٦٤

السُّلب والإيجاب ولا تقابل التَّضاد وذلك لأنَّ الظُّلْمةَ عدم النُّور الَّذي من شأنه أن يصير نوراً وكل واحدٍ منهما على ضربين حَبِّيٍّ ومعنويٍّ، فالنُّور الحقُّ كنور الشَّمس والقمر والكواكب والمصابيح والمعنوي منه كنور العلم والمعرفة والعقل وغير ذلك والظُّلْمة الحسيَّة كظلمة اللَّيل والمعنويَّة العقليَّة كظلمة الجهل والكفر والضَّلالة والحسيَّة منهما لا كلام لنا فيها لأنَّ الأنبياء لم يبعثوا لإخراج النَّاس من اللَّيل إلى النَّهار مثلاً وأنما بعثوا لإخراجهم من ظلمة الكفر إلى الإيمان.

وهاهنا بحث لم سعيَ رضواله في المقام ولا في غيره من المقامات وهو أنَّ الظلمات بصيغة الجمع في جميع الموارد والنُّور بصيغة المفرد:

قال الله تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ هُمُ الظَّالِمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ^(١)**

قال الله تعالى: **و يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ^(٢)**
قال الله تعالى: **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ^(٣)**

قال الله تعالى: **أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ^(٤)** وغيرها من الآيات.

وحاصل الكلام إنَّا لم نجد في الآيات تقابل الظُّلْمة والنُّور ولم نجد في التَّفاسير من تعرَّض لدفع الإشكال وبيَّن وجه الأفراد في النُّور والجمع في الظُّلُمات والذي يختلج بالبال في حلَّ الإشكال هو أنَّ النُّور المعنوي حقيقة واحدة لها مصاديق كثيرة بحسب الإضافات وصدقها على المصاديق ليس مثل صدق الكلِّي المتواطئ على أفراد كالإنسان الصادق على زيد وعمرو و بكر والرَّسول والوصي والكافر والمؤمن وغير ذلك من المصاديق سواء كان

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

النُّور الحقيقي المعنوي بمعنى الدِّين أو القرآن أو المعرفة أو العلم أو ماشئت فسمِّه و بعبارة أخرى حقيقة الإيمان من حيث أنه نور، واحدة إلا أنَّ مراتب الإيمان متفاوتة فالرَّسول مؤمن و الموصي مؤمن و أباذر مؤمن و نحن أيضاً مؤمنون إن شاء الله و لكن مراتب الإيمان في الأمة متفاوتة شدة و ضعفاً و كمالاً و نقصاً و هكذا.

و أما الظُّلمة فليست كذلك لأنَّ مصاديقها مختلفة متباينة فأَنَّ ظلمة الحسد غير ظلمة البخل و هي غير ظلمة الكفر و هي غير ظلمة الجهل و هكذا و لعلَّه لذلك جيئت الظُّلمة بصيغة الجمع و النُّور بصيغة المفرد مشعراً بأنَّ المطلوب خروج الإنسان عن جميع الظُّلمات الى نور الإيمان والله أعلم بحقيقة كلامه.

يَاذُنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِلَّةَ انْزَالِ الْكِتَابِ وَ هِيَ قَوْلُهُ: لِتُخْرِجَ أَشَارَ أَنَّ ذَلِكَ الْإِخْرَاجَ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِتَسْهِيلِ مَالِكِهِمُ النَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ فَقَالَ: يَاذُنِ رَبِّهِمْ وَ ذَكَرَ الرَّبَّ هُنَا تَنْبِيْهُ عَلَى مَنَّةِ الْمَالِكِ وَ كَوْنِهِ نَاطِراً فِي حَالِ عِبِيدِهِ وَ لِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ يَاذُنِ اللَّهُ مِثْلاً وَ عَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: يَاذُنِ رَبِّهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ، لِتُخْرِجَ أَيَّ لَتُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ بِتَسْهِيلِ الرَّبِّ لِأُمُورٍ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ^(٤).

و أمثالها من الآيات الدَّالة عَلَى أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ وَ الْعَقْلُ أَيْضاً يُؤَيِّدُ هَذَا الْحُكْمَ وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَ أَنْ بَعَثُوا إِلَى إِرْشَادِ الْخَلْقِ وَ

هدايتهم إلا أن إرشادهم و هدايتهم لم يؤثر في جميع الناس لعدم تسلطهم على قلوب بني آدم و لذلك قال الله تعالى: **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**^(١).

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ يَلِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ

قرأ نافع وإبن عامر، الله، بالرفع و عليه فالتقدير هو الله الذي له ما في السموات و الأرض فهو خبر مبتدأ محذوف وقرأ المشهور بالجَر على البدل في قول بعض و على عطف التبيان في قول آخر و الأول أقوى كأنه قيل و من العزيز الحميد قيل هو الله الذي له كذا و أما على البدلية فالمعنى أن العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات والأرض و عليه فقوله، الله يبين المراد بقوله: **الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ** و عليه الجمهور.

و أما قوله: **الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**.

فاللآم في، له، للملك أو الإختصاص و فيه إشعار بأن الذي له ما في السموات و الأرض يليق بأن لا يوجد في عالم الوجود شيء إلا بإذنه.

و قوله: **وَ يَلِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** أي ويل للكافرين الذين يجحدون نعم الله و لا يعترفون بوحدانيته و الإقرار بنبئه مع وجود المعجزات و الكرامات الدالة على صدقهم، إستكباراً منهم و عناداً و العذاب الشديد هو ما تتضاعف ألامه.

و قيل أن الويل إسم وادٍ في جهنم.

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ

الإستحباب الإيثار و الإختيار و هو إستفعال من المحبة لأن المؤثر للشئ على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها و أفضل عندها من الآخر و

فبإذن الله تعالى في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجزء الثالث

يجوز أن يكون إستفعل بمعنى أفعَل كإستجاب و أجاب و لَمَّا ضمن معنى الإِثَارَ عَدَى بعلَى وقوله: **الَّذِينَ** في موضع جرٍّ لَّأنَّه نعتٌ للكافرين و تقدير الكلام و ويلٌ للكافرين الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الحِياةَ الدُّنْيَا عَلَى الأُخْرَةِ أَي يختارونها عَلَى الأُخْرَةِ و هذا أَي إختيار الحِياةِ الدُّنْيَا و ترجيحها عَلَى الأُخْرَةِ من شئون الكفر فَأَنَّ المسلم لا يكون كذلك بل يَخْتَارُ الأُخْرَةَ عَلَى الدُّنْيَا لَأنَّه يعلم أَنَّ حَبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ.

و المراد بإختيار الحِياةِ الدُّنْيَا و ترجيحها عليها هو الوصول إلى الدُّنْيَا و زخارفها بِأَيِّ نحوٍ كان و فيه خطرٌ عظيمٌ عَلَى فاعله.

و في قوله: **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** إشارة إلى أَنَّهُم أَي الكفَّار لا يقنعون بكفرهم و ضلالتهم عن الحقِّ بل يَمْنَعُونَ النَّاسَ أيضاً من إِتِّباعِ سَبِيلِ اللَّهِ و يغونها عوجاً، أَي يطلبون الطَّرِيقَ عدولاً عن إستقامته فَأَنَّ العوج خلاف الميل إلى الإستقامة.

ثم قال تعالى: **أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** أَي أَنَّهُم في عدولهم عن الحقِّ و منعهم غيرهم من إِتِّباعِ سَبِيلِ اللَّهِ و طلبهم الإِعْوِجَاجَ عن الطَّرِيقِ بعيدون عن الإستقامة.

أَقُولُ والذي يظهر لي من الآية هو أَنَّ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الحِياةَ الدُّنْيَا عَلَى الأُخْرَةِ بقولٍ مطلقٍ يلزمهم الصَّدُّ عن الحقِّ و طلب العوج في الطَّرِيقِ المستقيم اذ مع قطع النِّظَرِ عن هذين الأمرين لا يمكن لهم الوصول إلى مقاصدهم و أمالهم في الدُّنْيَا و ذلك لا يختصُّ بالكفَّار المنكرين لله تعالى بل قد يكون المسلم أيضاً كذلك فتخصيص الآية بالكفَّار المشركين لا دليل عليه بل يغلب عَلَى ظنيَّيَّ أَنَّ المراد بقوله و للكافرين عذابٌ شديد هو جميع أقسام الكفر فالمسلم الَّذِي يَقَرُّ بالتَّوْحِيدِ والنَّبُوَّةِ و المعاد و يَسْتَحِبُّ الحِياةَ الدُّنْيَا عَلَى الأُخْرَةِ و يَصَدُّ عن سَبِيلِ اللَّهِ الخ فهو أيضاً في ضلالٍ بَعِيدٍ وله الويل من عذابٍ شديد.

وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي الْآيَةِ مَلَكَ الْوَيْلِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ، إِسْتِحْبَابِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَطَلَبِ الْعُوجِ فَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْبَاعِثَةُ عَلَى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى إِخْتِصَاصِ الْآيَةِ بِالْكَفَّارِ وَخُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

فهذا معاوية بن أبي سفيان وهو من المقرّين بالتّوحيد والنّبوة والمعاد ظاهراً بل هو خال المؤمنين بزعمهم وهو من أظهر مصاديق الآية وهذه الصّفات كانت موجودة فيه بنحو الأتمّ والأكمل فلم لا يكون الويل والعذاب الشّديد والضلال البعيد ثابتاً له وهكذا جميع حكمّ المسلمين بعد رسول الله إلى يومنا هذا سوى من كان معصوماً منهم، يشملهم الحكم لوجود الملاك فيهم وأما قلنا حكمّهم ولم نقل كلّ مسلم كان كذا فهو داخل في الحكم لأنّ الحكمّ لقدرتهم على الصّد عن سبيل الله وطلب العوج من أظهر مصاديق الآية وإلاّ فالحكم يشمل جميع المتّصفين بهذه الصّفات سواء كانوا من الكافرين أم من المسلمين ولبسط الكلام فيه موضع آخر.

نعم زعم كثير من جهلة العامّة والخاصّة أنّ الله تعالى خلق جهنّم للكافرين فقط وأما المقرّون بالتّوحيد فمأواهم الجنّة ولم يعلموا أنّ الإقرار اللّساني إذا لم يكن مقارناً للعمل لا يغني ولا يثمر فإنّ الله تعالى خلق الجنّة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً وخلق النّار لمن عصاه ولو كان سيّداً قريشياً هذا.

في القرآن تفسير القرآن

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

جزء ١٣

الجزء الثالث

ما، في ما أرسلنا، نافية والإستثناء من النّفي يفيد الإثبات على وجه الانحصار ومن الإثبات بالعكس فإذا قلت ما جائني إلاّ زيد يفيد حصر المّجئ على زيد وإذا قلت جائني القوم إلاّ عمرو يفيد حصر عدم المّجئ على عمرو

ففي الآية وقع الإستثناء بعد التّفي والمعنى يرجع الى أنّ كلّ رسولٍ أرسلناه الى قومه كان بلسانهم.

ثمّ علّل ذلك بقوله: **لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** أي لقومه أحكام الله تعالى والوجه فيه واضح لأنّ الرّسول اذا لم يتكلّم بلسان قومه المبعوث اليهم تنتفي فائدة البعثة وهي الإرشاد والدّعوة الى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

و أنّما قلنا تنتفي فائدة البعثة لأنّ قبول الدّعوة من الرّسول يتوقّف على فهم كلامه وفهم الكلام يتوقّف على وحدة اللّسان بين المتكلّم والمخاطب بمعنى أنّ يتكلّم المتكلّم بلسان مخاطبه فلو كان المتكلّم متكلماً بلسانٍ أي بلغةٍ لا يعرفها المستمع بطل فائدة التّخاطب وهي الإفادة والإستفادة وهو ظاهر لا يحتاج الى الإثبات ولأجل ذلك لم يرسل الله رسولاً الى قومٍ إلّا بلسان القوم.

إن قلت أليس ذلك دليلاً على أنّ القوم الذين أرسل اليهم الرّسول هم المأمورون بمتابعة الرّسول لا غيرهم ممّن لا يكون لسانهم لسان الرّسول.

قلت لا يدلّ الكلام على هذا والقوم كغير القوم في وجوب متابعة الرّسول و أنّما خصّهم بالذكر لأنّ إبتداء الدّعوة يكون منهم ثمّ تسري الى غيرهم لقوله تعالى: **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ^(١) هذا أولاً.

ثانياً: بقول أنّ المراد بقوله تعالى: **بِلِسَانٍ قَوْمِهِ** يحتمل أن يكون كناية عن معرفة القوم إياه بمعنى أنّه منهم وذلك لأنّ بعض الأقوام أو كلّهم لتعصّبهم لا يقبلون قول الغير ولا يتبعونه لعدم معرفتهم بحاله كان فهو معلّل بقوله: **لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**.

أي ليبيّن الرّسول لقومه ما أمره الله بتبليغه لهم من الأحكام الشرعية و الأصول الاعتقاديّة:

قال الله تعالى: **قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ^(١).
 وأما قوله: **فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** حيث نسب الضلالة والهدى الى نفسه لا الى العبد فقد مر الكلام فيه غير مرة و قلنا المراد بإضلال الله العبد هو أن يكله الى نفسه كما أن الهداية و الإرشاد منه تعالى عنايته و توجهه الى العبد بإعطاء التوفيق إياه بسبب إنقياده و طاعته و من المعلوم أن الطاعة و المعصية أمران إختياران فكذا ما يترتب عليهما و هو الضلالة والهداية:

قال الله تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ^(٢).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل موسى الى قومه من بني إسرائيل و أمره أن يخرجهم من ظلمات الشرك الى نور الإيمان فقال: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَهِيَ الْمَعْجَزَاتُ الْجَارِيَةُ** على يد موسى بإذن الله و هي تسعة على المشهور و قيل المراد بها آيات التوراة و التقدير، كما أرسلناك يا محمد بالقرآن بلسان عربي و هو آياتنا كذلك أرسلنا موسى بالتوراة بلسان قومه و أن، في قوله: **أَنْ أَخْرِجْ** يحتمل أن تكون تفسيرية و أن تكون مصدرية و أما القول بأنها زائدة كما قيل فلا وجه له و اختلفوا في أن موسى ^{عليه السلام} كان مبعوثاً الى جميع الخلق أو كان مبعوثاً الى قومه و هم بني إسرائيل أو اليهم و القبط على أقوال ثلاثة:

فمن قال أنه كان مبعوثاً الى جميع الخلق إستدل عليه.

أما أولاً: بكونه ^{عليه السلام} من أولى العظم.

ثانياً: بقوله تعالى حيث قال: **يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي**

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

العبد التالفة

وَبِكَلَامِي فَحُذُّ مَا اتَّيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(١) وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الدَّلِيلَيْنِ عَلِيلَيْنِ.
أَمَّا الْأَوَّلُ: فَلأنَّ كونه من أولَى الْعِظَمِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَدْعَى بَلْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ
 كَانَ صَاحِبَ كِتَابٍ وَأَنْ شِئْتَ قُلْتَ مَنْ كَانَ لَهُ كِتَابٌ فَهُوَ مِنْ أَوْلَى الْعِظَمِ وَأَمَّا
 الْآيَةُ فَلَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ إِصْطَفَاهُ وَأَخْتَارَهُ عَلَى النَّاسِ بِالرَّسَالَةِ وَهَذَا مِمَّا لَا
 كَلَامَ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَكِّرْهُمْ بِآيَةِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَمَرَ اللَّهُ
 تَعَالَى مُوسَى بِأَنْ يَذْكُرَ لِقَوْمِهِ أَيَّامَ اللَّهِ قِيلَ فِي أَيَّامِ اللَّهِ قَوْلَانِ:
 أَحَدُهُمَا: ذَكَّرْهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ.

ثَانِيهِمَا: ذَكَّرْهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ لِعَادٍ وَثُمُودٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الصَّالَةِ قَالَ عَمْرِو بْنُ
 مَكْشُومٍ:

وَأَيَّامُ لَنَا غُرٌّ طَوَالُ عَصِينَا الْمَلِكُ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
 وَلِذَلِكَ قِيلَ النَّعْمُ وَالتَّقَمُّ مِنْ أَعْدَائِنَا وَقَالَ قَوْمٌ أَرَادَ خَوْفَهُمْ بِهَذَا كَمَا يَقَالُ
 خُذْهُ بِالشَّدَةِ وَاللَّيْنِ وَالَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ فِي الْمَرَادِ بِأَيَّامِ اللَّهِ هُوَ أَنَّ الْأَيَّامَ ثَلَاثَةٌ:
 يَوْمُ الْوِلَادَةِ، وَيَوْمُ الْمَوْتِ، وَيَوْمُ الْبَعْثِ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمٌ وُلِدْتُ وَ يَوْمٌ أَمُوتُ وَ يَوْمٌ أُبْعَثُ
 حَيًّا^(٢).

فَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ ذَكِّرْهُمْ بِآيَةِ اللَّهِ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ
 الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ وَأَنْ كَانَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ أَيَّامَ اللَّهِ وَ تَوْضِيحُ ذَلِكَ إِجْمَالاً هُوَ أَنَّ
 التَّذْكِيرَ بِهَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ لَهُ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا فِي الْوُصُولِ إِلَى مَقَامِ
 الْعِبَادَةِ وَ الْخُرُوجِ عَنِ الْكُفْرِ وَ الْمَعْصِيَةِ.

فَقَوْلُ أَعْلَمُ أَنَّ التَّذْكَرَ بَاعَثَ عَلَى التَّفَكُّرِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّفَكُّرَ عِبَارَةٌ عَنِ
 إِحْضَارِ مَا فِي الْقُوَّةِ الْحَافِظَةِ وَ كَثِيراً مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ غَافِلاً عَنْهُ فَيَحْتَاجُ إِلَى
 مَذْكَرٍ وَ مَبْنَى وَ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ أَشَارَهُ:

قال الله تعالى: وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

قال الله تعالى: فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ^(٢).

قال الله تعالى: فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ^(٣).

قال الله تعالى: وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ^(٤).

قال الله تعالى: فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَتِ الدِّكْرَى^(٥).

أي قد نفعت الذكرى وهذا هو السر في كون الأنبياء مأمورين بالتذكر فأَنَّ التَّوْحِيدَ من الأمور الفطرية إِلَّا أَنَّ الإنسان بحسب إنغماره في الماديات و إستهارة تحت غواشي الطبيعة يغفل عنه و يحتاج الى من يذكّره و هو النَّبِيُّ في أوَّل الأمر اذا عرفت هذه المقدّمة نرجع الى ما نحن بصدد إثباته و هو التَّذَكُّرُ بأيام الله أعني بها يوم الولادة و يوم الموت و يوم البعث فَأَنَّ التَّفَكُّرَ المنبعث عن التَّذَكُّرِ في هذه الأيام موجب للوصول الى السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

أمَّا يوم الولادة و هو يوم خروج الإنسان من عالم الرَّحْمِ الى الدُّنيا و هو في هذا الحال لا يقدر و لا يعلم فاذا تَفَكَّرَ الإنسان فيه يعلم أَنَّهُ لم يوجد نفسه جسمه بل هو مخلوق لغيره موجودٌ به فَأَنَّ كُلَّ مخلوقٍ له خالقٌ لا محالة لإستحالة تحقُّق المعلول بدون العلة ثُمَّ يَتَفَكَّرُ في الخالق فيرى أَنَّهُ ليس مِن سَنخ المخلوق لَأَنَّهُ يوجب التَّسْلُسَ.

و قد ثبت في العلوم العقلية أَنَّ كُلَّ موجودٍ بالغير لابدّ من أن يستهي الى الموجود بالذات دفعا للتَّسْلُسِ ثُمَّ يظهر له أَنَّ الموجود بالذات عالم قادر مريدٌ متكلمٌ سميعٌ بصيرٌ الى غير ذلك من الصِّفَات و ذلك لَأَنَّ المتفكّر يجد في نفسه أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بها و أَنَّها من غيره و قد ثبت أَنَّ معطي الشَّيْءِ لا يكون فاقداً له فالخالق حيٌّ مريدٌ عالمٌ قادرٌ و هكذا فثبت أَنَّ الإنسان مخلوق خلقه الخالق المتَّصف بتلك الصِّفَات.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



المجلد التاسع

٢- الغاشية = ٢١

١- الذّاريات = ٥٥

٤- الأنعام = ٧٠

٣- ق = ٤٥

٥- الأعلى = ٩

ثمَّ أَنَّ الْعِلَّ السَّلِيمَ يَحْكُمُ بِأَنَّ شُكْرَ الْمُنْعِمِ وَاجِبٌ عَقْلاً وَ الشُّكْرُ عِبَارَةٌ عَنْ
مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ وَالْعَمَلُ بِأَمْرِهِ وَ نَوَاهِيهِ وَ لَا نَعْنِي بِالْعِبُودِيَّةِ إِلَّا هَذَا فَثَبِتَ وَ
تَحَقَّقَ أَنَّ التَّوَجُّهَ وَ التَّفَكُّرَ فِي الْوِلَادَةِ يُوجِبُ الْوُصُولَ إِلَى مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ وَ هُوَ
الْمَطْلُوبُ.

وَأَمَّا يَوْمُ الْمَوْتِ، فَالْتَّفَكُّرُ فِيهِ يُوجِبُ الْإِعْرَاضَ عَنِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ وَ زُخْرَافِهَا
لَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَمُوتُ وَ لَا يَبْقَى فِي الدُّنْيَا لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِنَظَرِ الْإِسْتِقْلَالِ
بَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِنَظَرِ الْعُبُورِ مِنْهَا إِلَى عَالَمٍ آخَرَ فَلَا يَحْرُسُ عَلَى جَمْعِ الْمَالِ وَ
الْوُصُولِ إِلَى الْمَقَامِ وَ النُّعْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَعَلَّمَهُ بِمَوْتِهِ وَ خُرُوجِهِ عَنْهَا لَا مُحَالَةَ كَمَا
قِيلَ:

أَنَّمَا الدُّنْيَا كَظَلٍّ زَائِلٍ أَوْ كُضَيْفٍ بَاتَ فِيهَا وَ إِرْتَحَلَ
وَ حِينَئِذٍ يَعْرِفُ صَدَقَ قَوْلُهُ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ:

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ، وَ نِعْمَةً كَانُوا فِيهَا
فَاجْهِينَ، كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ
وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ^(١).

وَ إِذَا عَلِمَ هَذَا وَ عَلِمَ أَنَّ الْمَوْتَ مِمَّا لَا بَدَّ مِنْهُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ وَ حُكْمُ الْأَمْثَالِ
وَاحِدٌ يَصِيرُ مَعْرُضاً عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ وَ لَا يَحِبُّهَا بِالْإِصَالَةِ وَ هَذَا ظَاهِرٌ.

وَ أَمَّا يَوْمُ الْبَعْثِ لِلْحِسَابِ وَ الْكِتَابِ فَالْتَّفَكُّرُ فِيهِ يُوجِبُ أَنْ يِرَاعِيَ أَعْمَالَهُ وَ
أَقْوَالَهُ فِي الدُّنْيَا فَلَا يَكْذِبُ وَ لَا يَسْرِقُ وَ لَا يَظْلِمُ وَ لَا يَزْنِي وَ بِالْجُمْلَةِ لَا يَعْصِي
رَبَّهُ لَعَلَّمَهُ أَنَّ الْأَقْوَالَ وَ الْأَعْمَالَ تَضْبُطُ وَ تَكْتَبُ وَ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَ
الْعِقَابُ إِنْ خَيْرٌ أَوْ خَيْرٌ وَ إِنْ شَرٌّ فَشَرٌّ فَيَنْبَغِي فِي عَمَلِهِ وَ قَوْلِهِ أَنْ لَا يَخَالَفَ رَبَّهُ
وَ لَا يَعْصِيهِ فِي حَيَاتِهِ خَوْفاً مِنْ عِقَابِهِ وَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِ وَ هَذَا هُوَ
الْمَطْلُوبُ.

فظهر لك إن أيام الله التي صار الأنبياء مأمورين بتذكرها هو هذه الأيام الثلاثة وإلا فجميع الأيام أيام الله هذا ما إستفدناه من الآية ولا ندعي أن المراد بالأيام ليس إلا هذا ولعل الله تعالى أراد بها شيئاً آخر نقول.

هذه الأيام الثلاثة هي أصول الأيام وما ذكره المفسرون في تفسير الآية راجع إلى ما ذكرناه فأنهم لم يأتوا في المقام بشيء أحسن مما ذكرناه والله أعلم بحقيقة كلامه.

وأما قوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** فالصَّابِر كثير الصَّبْر والشَّكُور الكثير الشُّكْر والمعنى أن فيما ذكرناه من إخراج موسى بسبب آياتنا الخ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أي أن فيها علائم ودلالات على وحدانيته تعالى وأنه هو الذي أنعم على عباده بالنعم ظاهرة وباطنة ومن أفضل النعم وأشرفها إرسال الرُّسل وإنزال الكتب بواسطة الأنبياء وذلك لأنَّ النعم الماديَّة تؤثر في تكامل الجسم والنعم العقليَّة المعنويَّة التي تجمع في الدين تؤثر في تكامل الرُّوح فكما أن الرُّوح أفضل من البدن بل قد يقال بأنَّ الإنسان في الحقيقة هو الرُّوح كما ثبت في محله كذلك ما يوجب تكامل الرُّوح وهو المعنويات أفضل من الماديَّات ولذلك منَّ الله تعالى على المؤمنين بإعطاء المعنويات دون الماديَّات.

قال الله تعالى: **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(١)**.

وكلام الله من أقوى الدلائل على ما ذكرناه ومن المعلوم أن فيها آيات و علائم على وحدانيته تعالى وأنه هو المنعم بها إلا أن أكثر النَّاس غفلوا عن هذه الدَّقيقة ولم يتفطنوا أنَّها مقدَّمة للشُّكر أعني به معرفة الخالق والعمل بأوامره ونواهيه.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى النِّعْمَةِ مُشْكَلٌ جَدًّا وَ الْمُرَادُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا هُوَ صَرْفُ الْعَبْدِ جَمِيعَ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ أَيْ فِي طَرِيقِ الطَّاعَةِ لَا فِي طَرِيقِ الْمَعْصِيَةِ وَ هَذَا بَعِينُهُ الشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ وَ نَعْبَرُ عَنْهُ بِالشُّكْرِ الْعَمَلِيِّ وَ حَيْثُ أَنَّهُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ فَالْعَامِلُ بِهِ يَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ أَعْنِي بِهِ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكَرَّهَ وَ الْعَمَلُ عَلَى خِلَافِ مَا تَشْتَهِيهِ وَ لَعَلَّهُ هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** أَيْ أَنَّ الْإِعْتِبَارَ بِالْأَيَّاتِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ صَبَرَ وَ شَكَرَ عَمَلًا كَقَوْمِ مُوسَى عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ.

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ **أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**

أشار الله تعالى بهذه الآية إلى أول ما أنعم الله عليهم في دار الدنيا وهو أنه تعالى أنجاهم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونهم بأنواع العذاب من القتل والضرب و ذبح أطفالهم و إستحياء نساءهم و غير ذلك من الأمور الشنيعة القبيحة على ما مرّ تفصيل الكلام فيه في سورة البقرة عند قوله تعالى: **إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** الآية بعينها والفرق أنه قال هناك **إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ** وقال هنا **إِذْ أَنْجَاكُمْ** والمعنى واحد وقال هناك و **إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ** وفي المقام حكى عن موسى أنه قال لقومه ما قال و لعل هذا وجه التكرار فيها.

و قد أشرنا هناك إلى قصّة فرعون و ذبحه الأطفال و إستحياءه النساء مفصلاً فلا وجه لإعادته هاهنا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** فَقَدْ قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ أَيْ فِي ذَلِكُمْ نَعَمٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمَةٌ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْهَا وَ الْبَلَاءُ قَدْ يَكُونُ نَعْمًا وَ عَذَابًا يُقَالُ

فلان حسن البلاء عندك أي حسن الإنعام عليك و يحتمل أن يكون بمعنى العذاب و في الصبر على ذلك العذاب إمتحان من ربكم عظيم قاله الشيخ في التبيان.

و عندي أن البلاء بمعنى الإختبار و الإمتحان و المعنى أن في تلك النجاة إختباراً عظيماً لكم من ربكم هل تشكرون عليه أو تكفرون به والدليل على ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ
و هذه الآية عطف على الأولى أي و إذكروا إذ تأذن ربكم أي أعلمكم لئن شكرتم على النعمة نزيد عليها و لئن كفرتم بها نعذبكم في الدنيا و الآخرة.
أما في الدنيا فنسلبها عنكم و أما في الآخرة فنعذبكم على ترك الشكر و الكفران بها في الدنيا.

إِنْ قُلْتَ أَمَا سَلَبَ النِّعْمَةَ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ يَكْفُرُ بِهَا فَلَهُ وَجْهٌ فَمَا وَجْهَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.

قُلْتُ لَأَنَّ شُكْرَ الْمُنْعَمِ مِنَ الْمُسْتَقْلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي يَحْكُمُ بِهِ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ
و قد إنقضت الفلاسفة على أن شكر المنعم واجب عقلاً و إذا كان الشكر واجباً عقلاً فالكفران مذموم و قد تكلمنا في معنى الشكر و أقسامه الثلاثة من اللساني و الحالي و العملي فيما مضى و قلنا هناك أن حكم الشارع بوجوب الشكر تأييد لحكم العقل فإنَّ العقل يحكم بحسنة و وجوبه العقلي قبل حكم الشارع بوجوبه و ما كان كذلك فالثواب على فعله و العقاب على تركه ممَّا لا كلام فيه.

نعم الزيادة و النقصان فيه من الآثار الوضعية كما أن الثواب و العقاب من الآثار الشرعية و هذا حكم كلي يجري في جميع الناس في أي زمان كان و ليس مختصاً بقوم دون قوم:

قال الله تعالى: وَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَكُلُوا مِنْهَا وَرَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَ أَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ^(١).

و ليعلم أن ثمره الشكر وفائدته ترجع الى الشاكر في الدنيا والاخرة لا الى الله تعالى و ذلك لأنه غني عن كل ما سواه و لذلك قال حكاية عن موسى:

و قَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ

و الدليل العقلي عليه هو أن الله لو كان محتاجاً الى شكر الشاكرين لزم أن يكون ناقصاً في ذاته إذ لا نعني بالاحتياج إلا النقص و هو من شئون الممكن لأنه ناقص في ذاته من حيث احتياجه الى الخالق في وجوده المحتاج في الوجود الى غيره محتاج اليه في جميع صفاته لأن الصفات من توابع الوجود و شئونه و أما الواجب الوجود بالذات فهو منزّه عن النقص مطلقاً فالشكر و الكفران بالنسبة اليه على حد سواء و هذا لا يختص بالشكر فقط بل جميع العبادات من هذا القبيل:

قال الله تعالى: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^(٢).

قال الله تعالى: قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدَيَّ^(٣).

و الآيات في الباب كثيرة و مع ذلك فَأَنَّ الشَّاكِر قَلِيلٌ و الكافر بأنعم الله كثير و السَّر في ذلك هو أَنَّ الإنسان بمتضى طبعه و جبلته أسير الشهوات النفسانية فإذا وقع في النعمة و الخمر في اللذات الجسمانية يصير عقله تابعاً لهواه فينسى ربّه و من نسي ربّه نسي ما أعطاه من النعم.

و اذا كان كذلك فلا يشكر و عدم الشكر هو الكفران بعينه قال الله تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغُفُ، أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى^(١) و لذلك يقال أَنَّ الصَّبْر على النعمة مشكل جداً بل هو أصعب من الصَّبْر على المصيبة ترى المتنعمين المرفهين من حيث المال و المقام من أظهر مصاديق الكفران على النعم في جميع الأزمنة:

قال الله تعالى: وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَلَئِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ^(٣).

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِن أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ^(٤).

و قال في المتنعمين الذين طغوا في البلاد:

قال الله تعالى: هَذَا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ^(٥).

قال الله تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ^(٦).

و الطغيان هو الخروج عن الحدّ و من يكفر بأنعم الله فقد خرج عن الحدّ. و محصل الكلام هو أَنَّ الله تعالى غنى عما سواه و ما سواه محتاج اليه ثابت عقلاً و نقلاً.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِّنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

٢- سبأ = ١٣

٤- يونس = ٦٠

٦- القلم = ٣١

١- العلق = ٧ / ٦

٣- البقرة = ٢٤٣

٥- ص = ٥٥

الظاهر أنه من قول موسى لقومه.

وقال الجبائي الخطاب متوجه إلى أمة النبي والحق ما ذكرناه إلا أن المعنى عام يشمل جميع الناس ومنهم أمة النبي لأن خصوصية المورد لا تنافي عموم المعنى وحكم الأمثال واحد.

والهمزة للإستفهام الإنكاري أي أتاكم نبأ الذين من قبلكم ووجه الربط بما قبلها من الآيات واضح وهو أنه أعلم في الآية السابقة أن الشكر على النعمة يوجب إزديادها والكفران يوجب العذاب في الآخرة وأنه لا يضر الله شيئاً لأنه غني حميد.

ثم أفاد في هذه الآية أن لما ذكرناه من الكفران بأنعم الله وإنزال العذاب عليهم في الدنيا مصاديق كثيرة في الأمم الماضية فقال: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ أَيِ إِنْ تَنْكَرُونِي فِيمَا قُلْتُ لَكُمْ وَأَخْبَرْتُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ فِي الشُّكْرِ وَالْكَفَرَانِ فَإِنْظَرُوا إِلَى الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِوُجُودِ الْأَنْبِيَاءِ وَالشَّرَائِعِ وَجَعَلَهُمْ فِي نِعْمَةٍ وَرَفَاهُ فَكَفَرُوا بِأَنْعَمَ اللَّهُ بَدَلَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا وَانْكُرُوا رُسُلَهُ وَشَرَانِعَهُ فَوَقَعَ بِهِمْ مَا وَقَعَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ عَلَى مَا مَرَّ بَيَانُهُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَعَادَ وَثَمُودَ.

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَيِ مِنْ نُوحٍ وَعَادَ وَثَمُودَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ أَيِ لَا يَعْلَمُ تَفَاصِيلَ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَمَا فَعَلُوهُ وَمَا وَقَعَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ كَمَا وَكَيْفَاً إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

ثم أشار إلى علّة نزول العذاب وقال: جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ أَيِ إِلَى أَفْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ تَكْذِيباً لَهُمْ وَرَدّاً لِمَا جَاءَ بِهِ.

وقيل أنهم عضواً أناملهم تغيطاً عليهم في دعاءهم إلى الله كما قال تعالى: عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ^(١).

و قيل ردّوا نعمتهم بأفواههم في قول مجاهد.

و قال ابن مسعود و ابن زيد أي جعّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم ليعضّوها غيظاً ممّا جاءت به الرّسل.

و قال ابن عبّاس لمّا سمعوا كتاب الله عجبوا و رجعوا بأيديهم الى أفواههم.

و قال أبو صالح لما قال لهم رسول الله أنا رسول الله اليكم أشاروا بأصابعهم الى أفواههم أن أسكت تكذيباً له وردّاً لقوله.

و قيل ردّوا أيديهم في أفواههم ضحكاً و إستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه و الأقوال في معنى المراد كثيرة في التفسير لأنّها من الإستظهارات الشخصية التي لا دليل عليها من العقل و الشرع فقالوا في معنى المراد ما قالوا و نحن أيضاً نحتمل في معنى الكلام أن الكفار ردّوا أيدي الأنبياء الى أفواه الأنبياء بمعنى أن الرّسول اذا قال لهم أنّي رسول الله اليكم أخذوا بيده و ردّوها الى فيه و هو كناية عن إسكت و لا تتكلّم بهذا الكلام.

و كيف كان أنهم أي الكفار أنكروا على الأنبياء ولم يقبلوا قولهم و هذا هو الجامع بين الأقوال.

و قالوا إنا كفّرنا بما أُرسلتُم بِهِ أي إنا لا نقبل قولكم في الرّسالة و إنا نفى شكّ ممّا تدعّوننا إليه مُريب الرّيب أخبث الشكّ المتهم و هو الذي يتي بما فيه التهمة أي أنّه يوجب تهمة ما أتيتم به من الدّعاء الى الله وحده و توجيه العبادة اليه فقالت لهم رسلهم حينئذٍ.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ

الهمزة للإستفهام الإنكاري أي ليس فيه شكّ لمن يعقل و ذلك لأنّ السّموات والأرض و ما فيهما من العجائب لا بدّ لها من خالقٍ مدبّر حكيم و

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

أنتم أيضاً من جملة ما في السموات والأرض فالشك في خالقها يرجع الى أنه لا خالق لكم أيضاً وهذا غير معقول لأن المخلوق لابد له من خالق ولا يعقل أن يكون الموجود خالقاً لنفسه و بعبارة أخرى لا شك في أنكم من الموجودين و كل موجود أما إن لا يكون مسبوقاً بالعدم و أما أن يكون مسبوقاً به.

فالأول هو الواجب تعالى فإنه لعدم مسبقيته بالعدم لا يحتاج الى علة مخرجة إياه من العدم الى الوجود.

و أما الموجود الذي لم يكن ثم كان فلا بد له من مخرج من العدم الى الوجود و ذلك لأنه قبل الوجود كانت نسبته الى الوجود و العدم على حد سواء كما هو شأن الممكن و الخروج عن حد الإستواء يحتاج الى مرجح خارج عن ذاته و إلا يلزم الترجيح بلا مرجح و هو محال المرجح لا يكون إلا الله تعالى المطلوب.

و اذا ثبت هذا في كل واحد منكم فقد ثبت في جميع المخلوق فكيف تشكون في فاطر السموات والأرض و الحال أن الشك فيهما يرجع الى الشك في أصل وجودكم و العاقل كيف يشك في وجوده و هو موجود على الفرض لأن المعدم لا شك له فمن شك فهو موجود و كيف يشك الموجود في وجوده و هل هذا إلا تناقض في الكلام فثبت و تحقق مما ذكرناه و أثبتناه أن لكم خالقاً أوجدكم.

و اذا ثبت وجوده و كونه خالقاً لكم فالخالق يحب مخلوقه و يلطف به بمعنى أنه يريد إيصال الخير دائماً الى خلقه و لا يريد به الشر كما هو مقتضى قاعدة اللطف التي صارت باعثة على إرسال الرسل و إنزال الكتب.

و الى هذا المعنى أشير بقوله: يَدْعُوكُمْ لِتُذَكَّرُوا بِكُفْرِكُمْ بِوَسْطَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ اليكم أليس الرسول يدعوكم الى الله.

يُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى يعني لا يؤاخذكم بعاجل العذاب أيضاً إشارة إلى عنايته بعباده ولطفه بهم فإن تأخير العذاب عنهم دليل على ذلك و حاصل الكلام أنه تعالى لا يريد إهلاك العباد بل يريد إصلاحهم وإرشادهم إلى ما هو خير لهم في الدارين.

قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أي فقال لهم قومهم إن أنتم إلا بشر مثلنا، إن نافية بمعنى أي لستم إلا مثلنا ومثل غيرنا من البشر، أنما قالوا ذلك لأنهم رأوا أن الأنبياء مثلهم بحسب الظاهر يأكلون ويشربون وينكحون وينامون يمشون في الأسواق والمزارع وبالجملة يفعلون ويقولون كغيرهم من أفراد البشر فزعموا هؤلاء الكفار أنه لا فرق بينهم وكيف يكون البشر مرسلًا من الله إلى خلقه ولم يعلموا أن التشابه في الصورة لا يلزم التشابه في المعنى وذلك لأن الإنسان موجود مركب من الجسم والروح والأجسام متشاكلة والأرواح متفاوتة متغايرة فجميع أفراد البشر من حيث الجسم وما فيه من الأعضاء والجوارح والقوى الحيوانية المودعة فيه من شهوة الأكل والشرب والشهوة الجنسية وغير ذلك من الشهوات والأميال والحواس من الشامة والذائقة واللامسة والبصرة والسماعة وغير ذلك مما يتعلق بالبدن على حد سواء لا فرق فيهم من هذه الجهات.

و أما من حيث الروح والنفس الناطقة القدسية فالأمر ليس كذلك ثبت في العلوم العقلية أن حقيقة الإنسان هي النفس والروح ولا تجد في عالم الوجود إنسانين أو بشرين كانا من هذه الجهة أي من جهة النفس أو الروح أو ما شئت فسمه متساويين فضلاً عن وحدة النفس فيهما من حيث الآثار.

ألا ترى أن نفس النبي مستعدة لقبول الوحي وليست كذلك فينا فلو كان التشابه الصوري يكفي في المثلية فلم لا يوحى إلينا.

و الى هذا المعنى أشار الله تعالى في قوله: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ** ^(١) وسيأتي الكلام فيه في موضعه و الى هذا المعنى ينظر قول أمير المؤمنين **عليه السلام** لا يُقاس بأل محمدٍ من هذه الأمة أحد.

و أما قوله: **تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا الْخ** فهو متفرع على ما ذهبوا اليه من إثبات المثلية و لما بطل الأصل بطل الفرع و لكن هؤلاء الكفار لما أنكروا رسالة الرُّسل و زعموا أنهم مثلهم قالوا لهم تريدون أن تصدُّونا أي تمنعونا عما كان يعبد آباءنا من الأصنام و الأوثان و في هذا الكلام إشعار بأنهم كانوا مقلِّدين لأبائهم في الشُّرك و الكفر و عبادة الأصنام و لم يعلموا أنَّ التَّقليد في الاعتقادات باطل بحكم العقل لإتفاق جميع العقلاء على بطلانه و هو أي تقليد الأباء و الأسلاف موجود الآن في أمة الإسلام أيضاً فكأنه سيرة مستمرة في أكثر الناس في جميع الأزمنة ألا ترى أن قاطبة المسلمين يقلِّدون أسلافهم في خلافة الرُّسول و ليس لهم دليل على إثبات خلافة أبي بكر و عمر و من بعدهم إلا عمل الأصحاب و بيعتهم لأبي بكر كيف كانت و هذا التَّقليد في أصل الخلافة سرى الى تقليدهم في الفروع عن الأموات أمثال الشافعي و أبوحنيفة و أحمد بن حنبل و غيرهم و لم يعلموا أنَّ التَّقليد في الإمامة بعد الرُّسول عن الأسلاف باطل لكونها من المسائل الإعتقادية و التَّقليد في الفروع من الأموات أيضاً باطل و لا دليل لهم على ما ذكرناه إلا عمل آبائهم و أسلافهم أعاذنا الله منه.

و أما قوله: **فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** أي فأتونا بحججة واضحة على ما تدعونه و بطلان ما نحن عليه من عبادة الأصنام و لم يبيِّنوا هؤلاء الكفار أنَّ الحجَّة الواضحة المعبر عنها بقوله: **بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ما هي أليست المعجزات الجارية على أيدي الأنبياء من الحجَّة الواضحة اليس إحياء الموتى و إبراء

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثاني

الأكمه والأبرص و غيرها ممّا أتى به عيسى عليه السلام و اليد البيضاء و العصاء و فلق البحر و غيرها ما جرى على يد موسى حجّة واضحة دالة على صدق نبوتهما و هكذا الأمر في جميع الأنبياء مرض العناد لا دواء له إلاّ العذاب في الدارين و الدّلة و النّكبة في النشأتين و أنّما قلنا مرض العناد و لم نقل مرض الجهل لأنّ الجهل إذا لم يقترن بالعناد و اللّجاج لا إشكال فيه لأنّه يرتفع بسهولة و أمّا العناد فليس كذلك و ظنّي أنّ أكثر المنكرين للحقّ في جميع الأزمنة من المعاندين واقعا لأنّهم يعرفون الحقّ بقلوبهم و ينكرونها بألسنتهم حفظاً لمنافعهم الدنيوية.



قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ
لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا
كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ
عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا
أَذِيتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَ
قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ
مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ
(١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)
مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)
يَتَجَرَّعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ
كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا
يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ
الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ
يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
بِعَزِيزٍ (٢٠)

◀ اللغة

وَ اسْتَفْتَحُوا الْإِسْتِفْتاحَ طَلَبَ الْفَتْحِ بِالنَّصْرِ.
خَابَ يَقَالُ خَابَ يَخِيبُ خَيْبَةً وَضَدَهُ النَّجَاحُ.
عَنِيدٌ مَبَالِغَةٌ فِي الْعِنَادِ.

صَدِيدٌ هُوَ قَيْحٌ يَسِيلُ مِنَ الْجَرَحِ وَالْقَيْحُ دُمٌّ مُخْتَلَطٌ بِمَدَّةٍ.
يَتَجَرَّعُهُ أَيُّ جُرْعَةٍ جُرْعَةٍ وَأَصْلُ التَّجَرَّعِ تَنَاوُلُ الْمَشْرُوبِ جُرْعَةً جُرْعَةً
عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ.

يُسَبِّغُهُ الْإِسْأَغَةُ إِجْرَاءُ الشَّرَابِ فِي الْحَلْقِ عَلَى 'تَقَبُّلِ النَّفْسِ'.
أَسْتَدَّتْ الْإِسْتِدَادَ الْإِسْرَاعَ بِالْحَرَكَةِ عَلَى عِظَمِ الْقُوَّةِ.
عَاصِفٌ أَيُّ شَدِيدِ الرِّيحِ وَهَذَا كَمَا يَقَالُ يَوْمٌ مَاطِرٌ أَيُّ كَثِيرِ الْمَطَرِ.

◀ الإعراب

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ يَتَجَرَّعُهُ صِفَةٌ لِلْمَاءِ وَقِيلَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ
فِي، يَسْقَى، وَقِيلَ أَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مُبْتَدَأٌ وَالْخَبَرُ مُحذُوفٌ أَيُّ
فِيمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِينَ أَعْمَلْتُمْ كَرَمَادٍ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ أَيُّ مِثْلَهُمْ مِثْلُ
أَعْمَالِهِمْ وَ، كَرَمَادٍ، عَلَى هَذَا خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذُوفٌ أَيُّ هِيَ كَرَمَادٌ.

◀ التفسير

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

إِنْ، نَافِيَةٌ، أَيُّ مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَكَأَنَّهُ جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ فِي الْآيَةِ الَّتِي
قَبْلُهَا حَيْثُ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، فَقَالَتْ الرُّسُلُ فِي جَوَابِهِمْ.

نَعَمْ نَحْنُ أَيْضًا مِنَ الْبَشَرِ وَلِسْنَا مِنْ جِنْسِ الْمَلِكِ نَأْكُلُ وَنَشْرَبُ كَمَا تَأْكُلُونَ وَ
تَشْرَبُونَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَأَصْطَفَانَا وَبَعَثْنَا أَنْبِيَاءَ

وهذا هو الفرق بيننا وبينكم وذلك لأنَّ إصطفاء الله كاشف عن إستعداد المصنئ ولياقته فأَنَّ الله لا يختار إلاَّ الأصلح ولا يشبهه عليه الأمر ولا يخطئ أبداً وفي قوله: يَمُنُّ إشارة الى أنَّ هذا المنصب من أعلى المناصب وأشرفها وأفضلها يليق بأنَّ الله من به على عبده:

قال الله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ^(١).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ^(٢).

أي مننا عليهما بالنبوة وكما أنَّ الله تعالى منَّ على العباد بإرسال الرّسول اليهم كذلك منَّ على الرّسول بإعطائه منصب الرّسالة إذ لا مقام أعلى منها بعد مقام الرّبوبية فمقام النّبي فوق مقام المخلوق ودون مقام الخالق والسّر في ذلك أنَّ الرّسول أقرب الخلق الى ربّه ولا مقام فوق مقام القرب.

وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ هذا الكلام أيضاً جواب عن قولهم فأتونا بسلطانٍ مُبين، وفي الجواب إشارة الى نقطة دقيقة وهي أنَّ الرّسول وأن كان من المقرّبين عند الله إلاَّ أنّه لم يخرج بذلك عن مقام الفقر والإحتياج الى خالقه فلا يقدر على الإتيان بشيٍّ من المعجزات والكرامات إلاَّ بإذن الله على أساس المصلحة التي لا يعلمها إلاَّ هو فلا تطلبوا منا ما ليس في وجوده مصلحة.

وفي قوله: وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أي المصدّقون به وبأنبياءه إشارة الى أنَّ المؤمن يتوكّل على الله الَّذي آمن به لعلمه بأنَّ من يتوكّل على الله فهو حسبه ويحتمل أن يكون في هذا الكلام في هذا المقام إشارة بأنَّ هؤلاء لو كانوا مؤمنين معتقدين بالله لم يطلبوا من الأنبياء ما ليس تحت قدرتهم ولا من الله تعالى ما ليس فيه مصلحة.

و يحتمل أن يكون المراد إنّا معاشر الأنبياء لا نبالي من عدم إيمانهم بالله بعد تَمَامِية الحجة عليهم اذ ليس علينا إلاّ البلاغ و نتوكّل في جميع أمورنا على الله الذي أرسلنا اليهم فهو حسبنا و نعم الوكيل نعم المولى و نعم النصير.

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا أَدِثْمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

أخبر الله تعالى الرّسل قالوا ما لنا أي شيء لنا أن لا نتوكّل عليه أو لم لا نتوكّل عليه و الحال أنّه تعالى قد هدانا و أرشدنا إلى طريق الحقّ و وفّقنا به و لا يقدر على هذا أحد غيره فينبغي أن يتوكّل عليه و أيضاً نصبر على ما أديثمونا من إستهزاؤكم بنا و إنكاركم علينا و على الله فليتوكّل المتوكّلون؛ أي من يريد التوكّل على غيره لا يتوكّل إلاّ على الله لأنه يعلم أن التوكّل على غير الله لا يفيد و إعلم أن التوكّل يقال على وجهين:

أحدهما: بمعنى التّولية يقال توكّلت لفلان بمعنى تولّيت له و يقال و كلّته فتوكّل لي.

الثاني: بمعنى الإعتماد يقال توكّلت عليه بمعنى إعتمدته و التوكّل على الله بمعنى الإعتماد عليه في جميع الأمور لأنّه عالم بمصالح العباد و السّر العلمي في حسن التوكّل عليه هو أنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء قادر على كلّ شيء محيط بكلّ الأشياء غنيّ بذاته حكيم في أفعاله و بالجملة هو تعالى منبع كلّ الخيرات و مجمع جميع الكمالات.

و لا شك أنّ المخلوق كائن ما كان ضعيف في ذاته و صفاته فقير محتاج الى الله في جميع شئونه و لذلك لا بدّ له من معتمد يعتمد عليه المعتمد لا يخلو أمّا أن يكون من الخلق أو الخالق.

والأول: لا سبيل اليه عقلاً لأنّ حكم الأمثال واحد فكلّ مخلوق يعتمد عليه هو مثل المعتمد في الضّعف و الحقارة و الجهل و غيرها فالإعتماد عليه لا يفيد لأنّه من سنخ إعتماد الفقير على الفقير والضعيف على الضّعيف.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

وإن شئت قلت من قبيل ضمّ المعدوم الى المعدوم وهو كما ترى لغو و عبث لا فائدة فيه و اذا كان الإعتماد على الخلق هذا حاله فينبغي أن يعتمد على موجود قادر حكيم وليس هو في عالم الوجود إلاّ الله تعالى و بعبارة أخرى الإنسان أما أن لا يتوكّل على غيره أو يتوكّل.

أما الأول: فلا سبيل اليه عقلاً لأنّ الموجود الضّعيف لا بدّ له من التوكّل شاء أو لم يشاء كان ملتفتاً اليه أو لم يكن فلا بدّ له من الإعتماد على معتمدٍ و هو أمّا المخلوق أو الخالق أمّا المخلوق فلا يفيد كما فصلناه فيبقى الإعتماد على الخالق و هو المطلوب.

و هذا معنى قوله: **وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** على وجه الحصر و لذلك لم يقل فليتكّل المتوكّلون عليه وقال وعلى الله بتقديم الجارّ ألا ترى أنّهم إنّفقوا على أنّ قولنا في الدار زيد يفيد الحصر بخلاف قولنا زيد في الدار فإفهم و إغتنم و لأجل هذه الدقّقة أمر الله تعالى به في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**^(١).

قال الله تعالى: **إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**^(٢).

قال الله تعالى: **قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**^(٣).

قال الله تعالى: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**^(٤).

قال الله تعالى: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**^(٥).

قال الله تعالى: **إِنْ أَلْحَمَّ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**^(٦) والآيات كثيرة.

١- الممتحنة = ٤

٢- آل عمران = ١٦٠

٣- الزمر = ٣٨

٤- الطلاق = ٣

٥- التوبة = ١٢٩

٦- يوسف = ٦٧

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ

حكى الله تعالى في هذه عن الكفار أنهم قالوا لرسولهم إننا لنخرجنكم من أرضنا وبلادنا إلا أن تدخلوا في أدياننا ومذاهبنا و تعبدون الأصنام والأوثان فأوحى الله تعالى إليهم أي إلى الرسل لنهلكن الظالمين، أي لا تخافوهم ولا تحزنوا بما قالوا لكم فإننا نهلكم لظلمهم وفي هذه الآية نقاط لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأولى: أن الرسول وظيفته إبلاغ الحكم إلى المرسل إليه لأنه مأمور من جانب الله تعالى و المرسل إليه مختار في قبول الحكم و عدمه:

قال الله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (١):

قال الله تعالى: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرْنَا وَ إِنَّمَا كَفُورًا (٢):

و على هذا فتهديد الرسول بالإخراج من البلد خارج عن طور العقل و هو من أفحش أقسام الظلم.

الثانية: قولهم: مِنْ أَرْضِنَا من هفوات الظالمين و ذلك لأن الأرض أرض الله يسكن فيها جميع ما خلق الله فقولهم من أرضنا كذب محض و هذا ظلم آخر.

الثالثة: قولهم: أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا هذا أيضاً ظلم آخر لأنه من الأخبار في الاعتقاد و هو غير معقول و لأجل هذه الأمور التي يحكم العقل بقبحها قال الله تعالى لرسولهم إننا نهلكهم لظلمهم و فيه أي في هذا التعليل إشعار بأن الإهلاك متوقف على الظلم لا على الكفر قال لنهلكن الظالمين مع أنهم كانوا كافرين و يستفاد من هذا التعليل أن الظلم على الغير أقرب إلى الهلاك من الكفر و لذلك لم يهلك الله قوماً لكفرهم إذا لم يتعد إلى الظلم و إلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ الْمَلِكُ يَبْقَى مَعَ الْكُفْرِ وَلَا يَبْقَى مَعَ الظُّلْمِ.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

العهد الرابع

إِنْ قُلْتَ الْكَفَرُ أَيْضاً مِنْ أَقْسَامِ الظُّلْمِ بَلْ رَأْسُهَا وَرُئُوسُهَا وَأَيُّ ظُلْمٍ أَقْبَحَ مِنْهُ.
قُلْتُ لَا شَكَّ أَنَّ الْكَفَرَ ظُلْمٌ وَلَكِنَّهُ ظُلْمٌ عَلَى نَفْسِ الْكَافِرِ بِمَعْنَى أَنَّ الْكَافِرَ
بِكُفْرِهِ يَظْلِمُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَمَّا الظُّلْمُ عَلَى الْغَيْرِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي التَّعْدِيِّ بِحَقُوقِ
الْغَيْرِ وَلِذَلِكَ يَعْبرُ عَنْهُ بِالطَّاعِي وَلَا يَعْبرُ عَنِ الْكَافِرِ بِهِ.
وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ أَنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ:

ظُلْمٌ عَلَى اللَّهِ وَظُلْمٌ عَلَى النَّفْسِ وَظُلْمٌ عَلَى الْغَيْرِ فَالْكَافِرُ ظَالِمٌ عَلَى اللَّهِ وَ
ظَالِمٌ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَتَعَدَّى ظُلْمُهُ إِلَى غَيْرِهِ وَلَأَجْلَ ذَلِكَ يَمْهَلُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا.
وَأَمَّا الظَّالِمُ عَلَى الْغَيْرِ وَهُوَ الَّذِي تَجَاوَزَ عَنْ حُدُودِهِ وَدَخَلَ فِي حُدُودِ غَيْرِهِ
بَلْ سَلَبَ بِظُلْمِهِ الْحُرِّيَّةَ وَالرِّفَاءَ عَنْ غَيْرِهِ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ الْحَيَاةَ وَالتَّعْيِشَ فِي
الدُّنْيَا فَهُوَ أَقْبَحُ مِنَ الْكَافِرِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ وَأَنْ كَانَ الظَّالِمُ مُسْلِمًا وَالْمَظْلُومُ كَافِرًا
وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَابِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ أَسْمَاءٍ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ أَسْمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَمْهَلْنَاهُمْ لِمَا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
مَوْعِدًا^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ^(٥).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ^(٦).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
آخَرِينَ^(٧).

١- البقرة = ٥٩

٢- الأعراف = ١٦٢

٣- الكهف = ٥٩

٤- النمل = ٥٢

٥- الزخرف = ٦٥

٦- هود = ١٠٢

٧- الأنبياء = ١١

قال الله تعالى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ^(١) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

إذا عرفت هذا فقد علمت أن سبب الإهلاك هو الظلم وهذا معنى قوله: فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.

وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ
بعد أن أوحى الله إليهم ربهم بما أوحى وعدهم بأن الأرض يرثها عباده الصالحون والمعنى أنا نهلكهم ثم نجعلكم مكانكم على رغم أنوفهم ليعلموا أن الأرض لله تعالى لا لهم ولأتباعهم من الظلمة وقوله ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد، معناه ذلك جزاء لمن خاف مقامي أي حيث يقيمه الله بين يديه وأضافه إلى نفسه كما قال: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ^(٢) أي رزقي إياكم قال والعرب تُضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما وقعت عليه تقول سررت برؤيتك، و سررت برؤيتي إياك و ندمت على ضربك و ضربي إياك.

هكذا قيل في معنى الكلام والذي نفهم من كلام الله هو أن قوله، ذلك، إشارة إلى توريث الأرض الأنبياء و من آمن بهم بعد إهلاك الظالمين ثم أن الأنبياء و من آمن بهم هم الذين يخافون مقام الله و وعيده و أمّا الكافر فلا يخاف مقامه وعيده لعدم إيمانه بالله فمعنى الكلام أن توريث الأرض بعد إهلاك الظالمين مختص بالمؤمنين:

قال الله تعالى: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

قال بعضهم، و مقامي يحتمل المصدر و المكان.

و قال الآخر مقامي مصدر أضيف إلى الفاعل أي قيامي عليه بلا حفظ لأعماله و مراقبتي إياه.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعِ تَضْيِيفِ الْقَوْلِ



المجلد الثالث

و قال الزَّجَاج مكان وقوفه بين يديه للحساب و المعنى واضح لا يحتاج الى هذه التأويلات والله أعلم.

أَسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ

إختلفوا في مرجع الضمير في قوله وإستفتحوا، على قولين: أحدهما: أنه يرجع الى الأنبياء أي إستنصروا الله على أعداءهم: قال الله تعالى: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ^(١).

قال الله تعالى: وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا^(٢).

الثاني: أنه عائد على الكفار أي وإستفتح الكفار على نحو ما قالت قريش: قال الله تعالى: عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ^(٣).

و قول أبي جهل اللهم إقطعنا للرحم.

و الحقّ عندي أنّ الضمير عائد على الكفار لكن لا بالمعنى الذي نقلناه عنهم بل المعنى وإستفتح الكفار العذاب الذي توعدهم به الأنبياء على جهة التّكذيب لهم و يؤيد هذا المعنى قوله: وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وذلك لأنّ الخيبة الخسران أي خسر كلّ متكبرٍ معاندٍ بجانبٍ للحقّ دافع له. و أنّما قلنا يؤيده لأنهم طلبوا العذاب الذي توعدهم به الأنبياء ولم يعلموا أنّ هذا خسران لهم.

و قال الراغب في المفردات، الخيبة فوت الطلب و عليه فالمعنى فات طلب كلّ جبارٍ عنيد و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه لأنّ الخسران فوت الطلب. و قد ورد في الأخبار ما خابَ مَنْ تَمَسَّكَ بِكُمْ، أي ما خسر:

قال الله تعالى: وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَزَى^(١).

قال الله تعالى: وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْهَا^(٢).

وَالْجَبَّارُ، بفتح الجيم وتشديد الباء مبالغة و هو في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بإدعاء منزلة من التَّعَالَى لا يستحقها وهذا لا يقال إلا على طريق الذَّم.

وَأَمَّا فِي صِفَةِ اللَّهِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَدْحًا اذ لَيْسَ لَهُ تَعَالَى نَقِيصَةٌ قَالُوا اذَا وَصَفَ الْعَبْدُ بَأَنَّهُ جَبَّارٌ كَانَ ذَمًّا وَاذَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كَانَ مَدْحًا، فَمِنْ الذَّم:

قال الله تعالى: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ^(٣).

قال الله تعالى: وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيئًا^(٤).

قال الله تعالى: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ^(٥).

وَمِنَ الْمَدْحِ أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ:

قال الله تعالى: هُوَ أَلَمُّكَ أَلْفُ دُوسُ أَلْسَلَامُ أَلْمُؤْمِنُ أَلْمُهِمِّنُ أَلْعَزِيزُ أَلْجَبَّارُ أَلْمُتَكَبِّرُ^(٦).

وَأَمَّا الْعَنِيدُ فَقِيلَ هُوَ الْمَعَانِدُ كَالْخَلِيطِ بِمَعْنَى الْمَخَالِطِ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ الْعَنِيدُ الْمَعْجَبُ بِمَا عِنْدَهُ.

نَقَلَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ وَلِيدَ الْفَاسِقِ أَحَدُ خُلَفَاءِ بَنِي الْمُرَوَّانِ تَقَالُ بِالْقُرْآنِ يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَأَلْقَى الْقُرْآنَ وَرَمَاهُ بِالسَّهَامِ وَقَالَ:

أَتُوعِدُنِي بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارُ عَنِيدُ

اِذَا مَا جِئْتُ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ يَا رَبِّ خَرَّقَنِي الْوَلِيدُ

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَهَّدَ لَهُ ذَلِكَ الْفَرَّاشَ مِنَ الْغَاصِبِينَ الظَّالِمِينَ قَبْلَهُ وَ
أَمَّا وَصَفَ اللَّهُ الْكَفَّارَ بِالْعَنِيدِ لِأَنَّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ كَانُوا مَعَانِدِينَ وَاقِعًا وَإِلَّا فَالْحَقُّ
وَاضِحٌ لَا خُفَاءَ فِيهِ وَبَعْدَ مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ قَالَ.

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَرْجُمَةِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

العبد القائل

١- الشَّمْسُ = ١٠

٢- مَرِيْمَ = ٣٢

٣- الْحَشْرِ = ٢٣

٤- طه = ٦١

٥- غَافِرٍ = ٣٥

٦- الْقَصَصِ = ١٩

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ أَي أَنَّ الخسران نصيبهم في الدُّنْيَا والآخرة فقولهُ: مِنْ وَرَائِهِمْ أَي من بعدهم أي بعد موتهم وقيل من وراءهم أَي من إمامهم وهو معنى قول الزمخشري من بين يديه كما قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب.

أَقُولُ الْحَقَّ أَنَّ وراء من الأضداد وبه قال أبو عبيدة والأزهري وقيل ليس من الأضداد وقال ثعلب إسم لما توارى عنك سواء كان أمامك أم خلفك. وأتّما قلنا أَنَّهُ من الأضداد لقول الشاعر:

حلفت فلم أترك لنفسك ربةً وليس وراء الله للمرء مهربٌ
وقال الآخر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقوم تميم والفلاة ورائياً
وعليه فقولهُ تعالى: مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ أَي من أمامهم ومن خلفهم فَأَنَّ جَهَنَّمَ أمامهم من حيث أَنَّهُم يسعون إليها وخلفهم من حيث أَنَّهُم يدخلونها بعد موتهم وكلا المعنيين لا إشكال فيهما.

وأما قوله: وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ أَي ويسقى الجبار العنيد ماءً صديداً يَأْ الماء الذي هو صديد وقيل هو نعتٌ لماء كما تقول هذا خاتم صديد وليس بماء لكنّه لَمَّا كان بدل الماء في العرف عندنا أطلق عليه الماء.

وقال الزمخشري صديد عطف بيان لماء قال ويسقى من ماء فأبهمه ثم بيّنه بقوله: صَدِيدٌ انتهى.

أَقُولُ هذا على مذهب الكوفيّين حيث جَوَّزُوا عطف البيان في التكرات.

وأما على مذهب البصريّين فلا يجوز لعدم تجويزهم ذلك وكيف كان هو ما يسيل من أجساد أهل النَّار وقيل هو غسالة النَّار في النَّار وقيل هو ما يسيل من فروج الزَّناة والزَّواني أعاذنا الله منه.

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ
وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ

أشار الله تعالى بهذه الآية الى كيفية شرب ذلك الصديد فقال يتجرّعه أي يشرب الصديد جرعةً جرعةً فإنّ التّجرع هو تناول المشروب جرعة جرعة على الإستمرار وقوله ولا يكاد يسيغه أي لا يقاربه وأنما يضطر اليه.

قال الفراء، لا يكاد يستعمل فيما يقع وفيما لا يقع، فما يقع هو هذالم يقع مثل قوله: لَمْ يَكْذُ بِرِيْهَا لِأَنَّ الْمَعْنَى لَمْ يَرَهَا، وَالْإِسَاغَةُ هِيَ إِجْرَاءُ الشَّرْبِ فِي الْحَلْقِ عَلَى تَقْبُلِ النَّفْسِ وَيُقَالُ لَهَا بِالْفَارْسِيَةِ (كُورَا) يَضْطَرُّ إِلَيْهِ وَلِذَلِكَ قَالَ لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ.

وقد روي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَمَا يَتَجَرَّعُهُ يَقْرَبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُهُ،
فَإِذَا أَدْنَى مِنْهُ شَوِي وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فِرْوَةٌ رَأْسَهُ وَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ
أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دَبْرِهِ:

قال الله تعالى: وَ سَقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ^(١).

قال الله تعالى: إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ^(٢).

قال بعض المفسرين يتجرّعه يتكلف جرعه ولا يكاد يسيغه أي ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساعة وبعبارة أخرى الظاهر من الآية هو إنتفاء مقاربة إساعته أيّاه وإذا إنتفت إنتفت الإضافة فيكون كقوله: يَدَهُ لَمْ يَكْذُ بِرِيْهَا^(٣).

أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها والحديث ظاهر في الشرب فإن صح الحديث كان المعنى ولا يكاد يسيغه قبل أن يشربه ثم شربه كما جاء، فذبحوها وما كادوا يفعلون، أي وما كادوا يفعلون قبل الذبح انتهت.

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد التاسع

وقوله: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ قال بعضهم أي من الجهات الست وذلك لفظيغ ما يصيبه من الآلام.

وقال الأحفش أراد البلايا التي تصيب الكافر في الدنيا سمّاها موتاً.

أقول الموت أنواعٌ بحسب أنواع الحياة فكُل حياة له موت بحسبه.

الأول: الموت يقال بإزاء القوّة النامية الموجودة في الإنسان و الحيوانات و النباتات:

قال الله تعالى: وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(١).

قال الله تعالى: فَأَخْبِ بِه الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٢).

قال الله تعالى: فَيُخَيِّ بِه الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٣).

قال الله تعالى: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٤).

الثاني: يطلق الموت على زوال القوّة الحاسة ومنه.

قال الله تعالى: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا^(٥).

قال الله تعالى: أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا^(٦).

الثالث: يطلق على زوال القوّة العاقلة وهي الجهالة ومنه قوله تعالى

قال الله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِه فِي

النَّاسِ^(٧).

قال الله تعالى: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ^(٨).

الرابع: الحزن المُكدّر للحياة ومنه:

قوله تعالى: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ

١- النحل = ٦٥

٢- الرّوم = ٥٠

٣- مريم = ٦٦

٤- النمل = ٨٠

١- الرّوم = ١٩

٢- الرّوم = ٢٤

٣- مريم = ٢٣

٤- الأنعام = ١٢٢

الخامس: المنام فليل النوم موت خفيف و الموت نومٌ ثَقِيل و هو الَّذي سَمَّاهُ بالتَّوْفَى:

قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ** ^(١).

إذا عرفت أنواع الموت بحسب أقسام الحياة فقد علمت أنَّ قوله: **وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ** أي يَأْتِيهِ الحزن المكدر للحياة فعبر عن الحزن و شدة الغم بالموت كما عبر عن السُرور المفرح للحياة بالحياة في قوله: **وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ^(٢) و الى هذا المعنى أشار من قال أنَّ موت كل شيء بحسبه و على ما قرَّره فقوله: **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** إشارة الى كل مكانٍ في جهنم أي أنه ينظر الى المعذبين بحسب مراتبهم شدة و ضعفاً فيزيد على حزنه أنا فأناً.

و محصل الكلام أنه لا يرى فيها إلا الحزن المكدر للحياة و ما هو بمَيِّت واقعاً لأنه يشعر و يدرك العذاب و هذا كما تقول الجاهل مَيِّت و ليس بمَيِّت أي مَيِّت روحاً وحي جسماً و **مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**. قلنا أنَّ الورا من الأضداد أي من أمامه و خلفه عذابٌ غليظ أي أنَّ العذاب لا ينقطع عنه و قال بعضهم معناه من بعد عذابه هذا له عذاب غليظ.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. قيل إرتفاع، مثل، على الإبتداء و خبره محذوف و تقديره عند سيويوه، فيما يتلى عليكم، أو يقص عليكم، و المثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: **أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ** جملة مستأنفة على تقدير سؤال كأنه قيل كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرمادٍ، و قيل مثل، رفع بالإبتداء، و أعمالهم، بدل من مثل بدل إشتمال و كرمادٍ الخبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقول الحق أن مثل مبتدأ و أعمالهم مبتدأ ثانٍ و كرمادٍ خبر للثاني و الجملة خبر الأول شبه الله تعالى في هذه الآية أعمال الكفار في أنه لا محصول لها و لا فائدة بها يوم القيامة بالرماد و هو بالفارسية (خاكستر) الذي يشتد فيه الريح العاصف الشديد فإنه لا بقاء لذلك الرماد فكذلك أعمال الكفار لا يقدر منهن على شيء:

قال الله تعالى: وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا^(١) فالشبه الأعمال و المشبه به الرماد، و وجه الشبه عدم البقاء و أداة التشبيه الكاف فقد تمت الأركان الأربعة في التشبيه و فيه إشعار بأن العمل إذا لم يكن على وجه الإخلاص الموقوف على الإيمان لا أثر له أصلاً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

الرؤية في الآية رؤية العلم لا رؤية البصر و أن شئت قلت المراد بها هاهنا العلم أي ألم تعلم يا محمد أن الله خلق السموات و الأرض بالحق و حيث أن الهمزة للإستفهام الإنكاري فالمعنى أنك تعلم قطعاً و عليه المفسرون بالإتفاق و لكن لم ينبئوا الوجه فيما ذكروه إذ لقائل أن يقول ما الدليل على أن الرؤية هاهنا بمعنى العلم و ليست بمعنى الإدراك بالبصر و المعنى ألم تنظر أن الله خلقهما. و الجواب أن قوله: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ دليل على أن المراد بها العلم لأن خلق الشيء مقدم على وجوده في الخارج و بعبارة أخرى وجود الشيء موقوف على خلقه و لا عكس والذي يدرك بالبصر هو الموجود في الخارج و أمّا أنه مخلوق لغيره فهو لا يدرك إلا بالعلم و لذلك لم يقل ألم تر إلى السموات و الأرض و قوله: بِالْحَقِّ قيل أي بالحكمة و الغرض الصحيح و الأمر العظيم و لم يخلقهما عبثاً و لا شهوة.

قاله الزمخشري و قيل بالحق أي بما يحق من جهة مصالح عباده و إنفاذ سابق قضائه و لدل عليه و على قدرته.

و قيل أي بقوله وكلامه و قيل بالحق حال أي مُحَقَّقاً أقول الحق في الأصل المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على إستقامه و هو أي الحق يقال على أوجه:

الأول: يقال الموجد الشئ بسبب ما يقتضيه الحكمة و لهذا قيل في الله تعالى هو الحق و هو ظاهر.

الثاني: يقال للموجد بسبب مقتضى الحكمة و لهذا يقال فعل الله حق كله.

الثالث: في الاعتقاد للشئ المطابق لما عليه ذلك الشئ في نفسه كقولنا إعتقاد فلان في البعث و الثواب و العقاب و الجنة و النار حق.

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب و بقدر ما يجب و في الوقت الذي يجب كقولنا فعلك حق إذا عرفت وجوه الحق.

فقوله تعالى: **يَا الْحَقُّ** إشارة الى أن فعله حق لأن خلق السموات و الأرض فعل الله و لا شك أن الله تعالى حق في ذاته و صفاته و من كان حقاً فيهما فهو حق في فعله أيضاً اذ لا يصدر الباطل عن الحق المطلق.

قال الله تعالى: **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (١).

قال الله تعالى: **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً** (٢).

و السر فيه أن ضد الحق يكون باطلاً فاذا لم يكن خلقهما بالحق فلا محالة يكون باطلاً لإستحالة إرتفاع النقيضين و الباطل العيب و فاعل العيب جاهل سفيه تعالى الله عنه و إن شئت قلت لا شك في وجود السموات و الأرض و هذا ممّا لا كلام فيه.

ثم نقول أما أن يكون خلقهما بالحق أو بالباطل أو بهما جميعاً أو لا بهما و الأول هو المطلوب.

الثاني: لا سبيل اليه لأنَّ الباطل لا يصدر إلا من الباطل.

الثالث: مستلزم لإجتماع النقيضين.

الرابع: يستلزم إرتفاعهما و هما محالان فثبت و تحقَّق أنَّ خلقهما

بالحقَّ المطلوب.

و أما قوله: إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ فمعناه إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أي يمتيتكم و يفتيككم و يأت بخلق جديد بعدكم و هذا ممَّا لا يحتاج الى الإثبات فأنَّ من إعتقد أنَّ الله خلقه و خلق غيره من من المخلوقات يعتقد قهراً بأنَّه قادر على خَلْقٍ آخر كما هو قادر على إذهاب الخلق و ذلك لأنَّ القدرة بحالها و حكم الأمثال واحد فلو لم يقدر على خَلْقٍ آخر فهو ضعيف و المفروض أنَّه على كلِّ شيءٍ قدير.

و الحاصل أنَّ الخالق كما يقدر على الخلق يقدر على الإمامة بقولٍ مطلق و في هذا الكلام أيضاً إشعار بأنَّه تعالى مختار في أفعاله و الفاعل المختار له أن يختار ما يشاء و الى هذا المعنى أشار بقوله:

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

أي بممتنع و لا متعذِّر عليه تعالى لأنَّه هو القادر على ما يشاء كيف يشاء و هو واضح لا خفاء فيه بعد ثبوت القدرة المطلقة له و هي ثابتة له عقلاً و نقلاً فالمطلوب ثابت.

وَبَرُّوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا
 مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهَ
 لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
 مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ
 الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ
 فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا
 أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَا
 لَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ
 إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخَلَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
 تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ
 مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ
 فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ
 بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
 اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)
 يُتَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
 الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ
 دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ يَشْسَ الْقَرَارُ
 (٢٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
 تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)

◀ اللغة

وَ بَرَزُوا الْبُرُوزَ الظُّهُورَ وَ الْخُرُوجَ عَمَّا كَانَ مَلْتَبَسًا بِهِ.
 الْضُعْفَاءُ جَمْعُ ضَعِيفٍ وَ الضَّعْفُ نَقْصَانُ الْقُوَّةِ.
 مُعْتُونٌ يَقَالُ أَغْنَى عَنِّي إِذَا دَفَعَ عَنِّي وَ الْإِغْنَاءُ نَفْيُ الْحَاجَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ.
 مُحِصٍ أَيُّ مَهْرَبٍ يَقَالُ حَاصٌ يَحِصُّ حَيْصًا وَحَادٌ يَحِيدُ حَيْدًا وَ الْحِيدُ
 الزَّوَالُ عَنِ الْمَكْرُوهِ.
 بِمُصْرِحِكُمْ يَقَالُ إِسْتَصْرَحْنِي فَأَصْرَحْتَهُ أَيُّ إِسْتِغَاثَتِي فَأَغَاثْتَهُ وَ الْإِصْرَاحُ
 الْإِغَاثَةُ.
 أَجْتَشْتُ الْإِجْتِنَاثَ الْإِسْتِثْنَاءَ وَ الْإِقْتِلَاعَ.
 أَنْدَادًا الْأَنْدَادُ جَمْعُ نَدٍّ وَ هُمُ الْأَمْثَالُ الْمُنَاوُونَ.

◀ الإعراب

تَبَعًا قِيلَ هُوَ جَمْعُ تَابِعٍ مِثْلُ خَادِمٍ وَ خَدَمٍ، وَ غَايِبٌ وَ غَيْبٌ وَ قِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ
 فَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ إِسْمِ الْفَاعِلِ أَوْ يَكُونُ التَّقْدِيرُ ذَوِي تَبَعٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي
 مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ لَشَيْءٍ تَقْدِيرُهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ
 اللَّهِ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٍ لِأَنَّ دَعَاءَهُ لَمْ يَكُنْ سُلْطَانًا أَيُّ حُجَّةٍ
 بِمُصْرِحِيَّ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَ هُوَ جَمْعُ مُصْرَخٍ فَالْيَاءُ الْأُولَى يَاءُ الْجَمْعِ وَ الثَّانِيَةُ ضَمِيرُ
 الْمِتَكَلِّمِ وَ فَتَحَتِ الْيَاءُ لَثْلًا يَجْتَمِعُ الْكُسْرَةُ وَالْيَاءُ أَنْ بَعْدَ كُسْرَتَيْنِ بِهَاءٍ

أَشْرَكْتُمْونَ مَا، بمعنى الَّذِي أي الَّذِي أشركتموني به و قيل مصدرية أي بإشراككم إياي مع الله عز وجل و مِنْ قَبْلُ يتعلق بأشركتمون و قيل هي متعلقة، بكفرت، أي كفرت من قبل إشراككم فلا أنفعكم شيئاً وأَدْخَلَ معطوف على برزوا تَحِيَّتُهُمْ يجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل أي يحيى بعضهم بعضاً بهذه الكلمة و أن يكون مضافاً إلى المفعول أي يحييهم الله أو الملائكة كَلِمَةً بَدَل من مثل كَشَجَرَةٍ نعت لها تَوْتَى أَكُلُهَا نعت للشجرة مَا لَهَا مِنْ قَرَارِ الجملة صفة لشجرة أو حال من الضمير في، أجتثت في الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا يتعلق بيبث و قيل بالثابت كُفْرًا مفعول ثانٍ لبدل و جَهَنَّمَ بَدَل من دار البوار يَصْلَوْنَهَا يجوز أن يكون موضعه حالاً من جهنم.

◀ التفسير

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا

أي ظهروا من قبورهم إلى جزاء الله و حسابه و قوله: جَمِيعًا يعنى التابع و المتبوع أعني الضعفاء و المستكبرين فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ الضُّعَفَاءُ جمع ضعيف و الضعف نقص القوة و هو تارة يكون في الجسم فيقال فلان ضعيف أي لا قوة له و تارة في النفس و الرُّوح مثل الجَهَال و ضعفاء العقول و لِسَفَهَاء و أمثالهم و بالجملة من لا يدرك خيره و شره و هم أكثر الناس في كل زمانٍ و هذا هو المراد في المقام.

و المستكبر من طلب التَّكْبِير و هو رفع النَّفس فوق مقدارها في الوصف و المراد بهم في الآية قيل هم علماء بني إسرائيل و الحقُّ أنَّ المراد كلَّ مستكبرٍ استكبر و أظهر تعظيم نفسه و يحتمل أن يكون المراد بالمستكبرين الَّذِينَ أَنْكَرُوا الرُّسُلَ و أَعْرَضُوا عَنْ إِتِّبَاعِهِمْ فالمعنى لَمَّا بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا يوم الحساب يقول الضُّعَفَاءُ للمستكبرين إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا أي تابعين في الحياة الدُّنْيَا

و كنتم فيها ساداتنا و كبرائنا فهل أنتم تقدرُونَ على دفع ما لا نقدر دفعه من عذاب الله.

و الظاهر أن كلمة، من، تبعية أي بعضاً من عذاب الله أي إن لم تقدرُوا على دفع العذاب كلاً فهل تقدرُونَ على دفع بعضه.

و من المعلوم أن الجواب منفي إذ لا يقدر أحدٌ على ذلك فأجابهم المستكبرون بأنه لو هدانا الله إلى طريق الخلاص لهديناكم إليه كما قال تعالى: **قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ**

قال صاحب الكشف في تفسير هذا الكلام ما لفظه. **قُلْتُ الَّذِي قَالَ لَهُم الضُّعَفَاءُ كَانَ تَوْبِيخاً لَهُمْ وَعِتَاباً عَلَى إِسْتِبَاعِهِمْ وَإِسْتِغْوَاءِهِمْ.**

و قولهم فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله. **فَأَنْ قُلْتُ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ، لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ.** **قُلْتُ الَّذِي قَالَ لَهُم الضُّعَفَاءُ كَانَ تَوْبِيخاً لَهُمْ وَعِتَاباً وَ قَوْلُهُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ** عنّا من باب التّكبيت لأنّهم قد علموا أنّهم لا يقدرُونَ على الإخفاء عنهم فأجابوا معتردين عمّا كان منهم اليهم بأنّ الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلّوهم.

أما موكورين الذّنب في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم. **(و قالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا أباءونا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) و يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه، في الدنيا و يدلّ عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ^(١) و إما أن يكون المعنى لو كنّا من أهل اللّطف فلفظ بنا ربّنا و إهتدينا لهديناكم إلى الإيمان.**

و قيل معناه لو هداانا الله طريق النّجاة من العذاب لهديناكم، أي لأغنيا عنكم و سلكننا بكم طريق النّجاة كما سلكننا بكم طريق الهلكة انتهى كلام صاحب الكشاف.

قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام قال ابن عباس معناه لو أرشدنا الله لارشدناكم.

قال الواحدي معناه أنّهم دعوهم الى الضّلال لأنّ الله أضلّهم ولم يهديهم فدعوا أتباعهم الى الضّلال ولو هداهم لدعوهم الى الهدى.

ثمّ نقل عن صاحب الكشاف أنّه قال، لعلمهم قالوا ذلك مع أنّهم كذبوا فيه ويدلّ عليه قول المنافقين: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ** ثمّ قال و إعلم أنّ المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفاً لأصول مشايخه فلا يقبل منه انتهى كلامه.

أقول ما نقله الرّازي عن صاحب الكشاف (مع أنّهم كذبوا فيه) ثمّ أورد عليه بأنّ هذا القول مخالف لأصول مشايخه فلا يقبل منه، ليس في تفسير الكشاف الدّلي هو موجود عندنا والله أعلم.

و قال القرطبي في قوله: **قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ** أي لو هداانا الله الى الإيمان لهديناكم اليه و قيل لو هداانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها. و قيل لو نجّانا الله من العذاب لنّجيناكم منه انتهى كلامه.

أقول أقوالهم في معنى الكلام متقاربة المعنى و أن كانت مختلفة بحسب

اللفظ

و قال الرّازي المعنى لو خلّصنا الله من العقاب و هداانا الى طريق الجنة لهديناكم اليه و الدّليل على أنّ المراد من الهدى هذا الدّلي ذكرناه أنّ هذا هو الدّلي إلتمسوه و طلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى انتهى ما ذكره وإرضاه في المقام.

وَأَنَا أَقُولُ لَا بَدَّ لَنَا أَوْلَىٰ تَحْقِيقَ مَعْنَى الْهُدَايَةِ فِي الْآيَةِ وَ أَنَّ مَا الْمُرَادُ مِنْهَا وَ هَلْ هِيَ حَصَلَتْ فِي حَقِّ الْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِي قَالُوا بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ أَمْ لَا.

وَ إَعْلَمُ أَنَّ هِدَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ:

الأول: الهداية التي عمَّ بجنسها كلَّ مكلفٍ من العقل و الفطنة و المعارف الضرورية التي أعمَّ منها كلَّ شئٍ بقدرٍ فيه حسب إجماله:

قال الله تعالى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى^(١).

الثاني: الهداية التي جعل للنَّاس بدعاء إياهم على ألسنة الأنبياء و إنزال

القرآن ونحو ذلك:

قال الله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا^(٢).

قال الله تعالى: وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

الْخَيْرَاتِ^(٣).

الثالث: التوفيق الذي يختص به من إهتدى:

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّيَهُمْ تَقْوِيَهُمْ^(٤).

قال الله تعالى: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ^(٥).

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ

بِإِيمَانِهِمْ^(٦).

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا^(٧).

الرابع: الهداية في الآخرة الى الجنة المعنى:

قال الله تعالى: سَيَهْدِيهِمْ وَ يَصْلِحُ بَالَهُمْ^(٨).

١- طه = ٥٠

٢- السجدة = ٢٤

٣- الأنبياء = ٧٣

٤- محمد = ١٧

٥- التَّغَابُن = ١١

٦- يونس = ٩

٧- العنكبوت = ٦٩

٨- محمد = ٥

قال الله تعالى: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْنَا اللَّهُ^(١)**

ثمَّ أنَّ هذه الهدايات الأربع مترتبة فأَنَّ من لم يحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصحَّ تكليفه و من لم يحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة و من حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها و من حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله ثمَّ ينعكس الأمر فقد تحصل الأولى و لا يحصل له الثانية و لا الثالث و لا الرابع و الإنسان لا يقدر أن يهدي أحداً إلا بالدُّعاء و تعريف الطُّرق دون سائر أنواع الهدايات.

قال الله تعالى: **وَ إِنَّكَ لَتَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢)**

و الى سائر الهدايات التي لا يقدر عليها إلا الله اُشار:

قال الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ^(٣)** اذا عرفت معنى الهداية وأقسامها. فاعلم أنَّ كلَّ هدايةٍ نفاها الله عن النبي ﷺ و عن البشر و ذكر أنَّهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المُختَص من الدُّعاء و تعريف الطُّريق كإعطاء العقل و التوفيق و إدخال الجنة و بما ذكرناه في معنى الهداية و أقسامها تقدر على الفرق بين هداية الله و هداية البشر و أنه لم:

قال الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٤)**

فقد ظهر لك المعنى المراد بقوله تعالى: **قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ** و ذلك لأنَّ مفهوم الكلام أنا الله لم يهدهم الى طريق الجنة.

و من المعلوم أنَّه كذبٌ محض فأَنَّ الهداية قد حصلت لهم كما حصلت لغيرهم اذ لا نعني بالهداية إلا الإرشاد الى طريق الحقَّ على السنة الأنبياء و إنزال القرآن و هي كانت حاصلة لهم و لغيرهم.

جاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

نعم الهداية بمعنى التوفيق لم تحصل لهم لأن الهداية بهذا المعنى لا تحصل إلا لمن إهتدى فأَنْ طالب الهدى و متحرره هو الَّذي يُوَفِّقه الله و يهديه الى طريق الجنة لا من ضاده فيتحرى طريق الضلال و الكفر قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ^(١) و الكاذب الكفار هو الَّذي لا يقبل هداية الله و من لم يقبل هدايته لم يهده فأَنْ شرط تأثير العلة في المعلول إستعداد المعلول و قابليته للتأثر فالتقص ليس من جانب العلة بل هو من جانب المعلول كما تقول من لم يقبل هديتي لم أهد له و من لم يقبل عطيتي لم أعطه و من رغب عني لم أرغب فيه.

فثبت و تحقق أن عدم هدايتهم أنما هو لأجل عدم إهتدائهم فالذنب عليهم لا على الله تعالى: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنًا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ أَيُّ أَتَاهُمَا سَيِّئَانِ فِي حَقِّنَا فَمَا لَنَا مَخْلَصٌ وَ لَا مَهْرَبٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَ لَوْلَمْؤَا أَنْفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنْ أَرَادْتُمُ الْمُنَافَاةَ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

قرأ حمزة وحده بمُصْرِخِي بكسر الياء و الباقون بفتحها فعلى قراءة حمزة حذفت الياء اللاحقة للياء و أقرت الكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة فبقيت الياء على ما كانت عليه من الكسرة و المشهور هو فتح الياء و عليه الجمهور و عليه المصاحف و هو الحق.

لَمَّا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مَا وَقَعَ بَيْنَ الضُّعَفَاءِ وَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنَ السُّؤَالِ وَ الْجَوَابِ حَكَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا وَقَعَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ

إَتَّبِعُوهُ فَقَالَ تَعَالَى: وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ أَي لَمَّا قُطِعَ الْأَمْرُ وَ فَرَّغَ عَنْهُ الْحِسَابَ فَحَكَمَ اللَّهُ فِي النَّاسِ بِمَا حَكَمَ فَدَخَلَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ الْجَنَّةَ وَ الْآخَرُ النَّارَ وَ الْأَصْلُ فِي الْقَضَاءِ هُوَ أَنَّهُ بِمَعْنَى فَصَلَ الْأَمْرَ قَوْلًا كَانَ ذَلِكَ أَوْ فَعَلًا وَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

إِلَهِيَّ وَ بَشَرِيٍّ فَمِنَ الْإِلَهِيِّ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: وَ قَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^(١) أَي أَمْرٌ بِذَلِكَ وَ مِنَ الْفِعْلِ الْإِلَهِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ اللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ. إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَ رَوَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُومُ عِنْدَ ذَلِكَ خَطِيئًا فِي الْأَشْقِيَاءِ مِنَ الْجَنِّ وَ الْإِنْسِ فَيَقُولُ ذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَ هُوَ الْبَعْثُ وَ الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ فَوْفَى لَكُمْ بِمَا وَعَدَكُمْ، وَ وَعَدْتُكُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَأَخْلَفْتُكُمْ. وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ تَسْلُطٍ وَ قَهْرٍ فَأَقْسَرَكُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي وَ أَلْجَأَكُمْ إِلَيْهَا أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

وَ قِيلَ فِي وَجْهِهِ مَنَاسِبَةٌ هَذِهِ الْآيَةُ لَمَّا قَبْلُهَا أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ مُحَاوَرَةَ الْأَتْبَاعِ لِرُؤُوسَاءِهِمُ الْكُفْرَةَ ذَكَرَ مُحَاوَرَةَ الشَّيْطَانِ وَ أَتْبَاعِهِ مِنَ الْإِنْسِ لِإِشْتِرَاكِ الرَّؤُوسَاءِ وَ الشَّيَاطِينِ فِي التَّلَبُّسِ بِالْإِضْلَالِ وَ الشَّيْطَانِ هُنَا إِبْلِيسُ.

وَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ الْكَافِرِينَ يَقُولُونَ وَ جَدَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا فَيَقُولُونَ مَا هُوَ غَيْرُ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَقِمِ أَنْتَ فَيُشْفَعُ لَنَا فَأَنْتَ أَضَلَلْتَنَا فَيُثَوَّرُ مِنْ مَجْلِسِهِ أَنْتَنَ رِيحُ شَمِّهِ أَحَدٌ وَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ الْآيَةَ.

وَ عَنْ الْحَسَنِ يَقِفُ إِبْلِيسُ خَطِيئًا فِي جَهَنَّمَ عَلَى مَنِيرٍ مِنْ نَارٍ يَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ جَمِيعًا فَيَقُولُ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ يَعْنِي الْبَعْثَ وَ الْجَنَّةَ وَ النَّارَ وَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثواب المطيع و عقاب العاصي فصدقكم وعده و وعدتكم لا بعث و لا جنّة و لا نارٍ و لا ثواب و لا عقاب فأخلفتكم انتهى.

أقول هذه الأخبار ممّا لا مستند لها فلا يمكن التّعول عليها في تفسير كلام الله و لا نحتاج إليها أيضاً فإنّ الأمر أوضح من أن يخفى على ذي مسكة من أنّ وعد الله حقّ و وعد الشيطان باطلّ فالحقّ من الله تعالى و اليه يعود و الباطل من الشيطان و اليه يعود و هذا من الأصول المسلّمة العقلية فضلاً عن النقلية.

و محصل الكلام هو أنّ الحقائق تنكشف يوم تبلى السرائر.
و مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي إشارة الى أنّ الشيطان لم يخبرهم و لم يقهرهم على متابعتهم أيّاه لعدم تسلّطه عليهم بهذا المعنى هذا إذا كان المراد بالسلطان في الآية الغلبة و التسليط و القدرة.

و أمّا على القول بأنّه بمعنى الحجّة و البرهان و البنية فالمعنى ما كان لي عليكم فيما ألقيت اليكم من حجّة و لا برهان بل أنّما هو كان من جنس الوسوسة و هي ليست من جنس السلطان بمعنى الحجّة و البرهان فعلى هذا المعنى الأخير يكون الإستثناء منقطعاً لأنّ دعاء أيّاهم ليس من جنس السلطان و على الأوّل و هو أن يكون السلطان بمعنى الغلبة فالإستثناء متّصل و هذا هو الذي إختاره الرّازي و إستدلّ عليه بأنّ القدرة على حمل الإنسان على الشّي تارة يكون بالقهر من الحامل و تارة يكون بتقوية الداعية في قلبه و ذلك بإلقاء الوسواس اليه فهذا نوعٌ من أنواع التّسليط فكأنّه قال ما كان لي تسلّط عليكم إلّا بالوسوسة لا بالضرب و نحوه.

أقول لا شكّ أنّ مجرد الدّعوة وسوسةٌ كانت أو بتوسّط الألفاظ لا يعدّ سلطاناً على المدّعو و من إدعى غير ذلك فعليه الإثبات.

نعم ربما إنبعثت من المدّعو ميلٌ بسبب الوسوسة أو اللفظ فينقاد للدّعوة و يسلّط الدّاعي بذلك على نفسه لكنّه في الحقيقة تسليط من المدّعو لا تسلّط

من الدّاعي و بعبارة أخرى هي سلطة يملكها المدّعو من نفسه فيملكها الدّاعي و ليس الدّاعي يملكها عليه من نفسه و إبليس أنما ينفي التّسلط الّذي يملكه من نفسه لا ما يسلطونه على أنفسهم بالإنقياد و الطّاعة بقرنية قوله: **فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ** و لعلّ هذا هو التّسلط الّذي يثبت الله في قوله: قال الله تعالى: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنْ آلِغَاوِبِينَ**^(٢).

و لإنتفاء سلطانه عليهم قال: **فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ** الفاء للتّفريع أي إذا لم يكن لي عليكم سلطان فلا يعود إليّ شيء من اللّوم بل اللوم عائذ اليكم من جهة الشّرك و المعصية فلا يحقّ لكم أن تلوموني بل الواجب عليكم أن تلوموا أنفسكم لأنّ لكم السلطان على عملكم لا لي هذا ما قيل أو يقال في تفسير الكلام.

و أمّا قوله: **مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ** فالإستصراخ الإستغاثة و المعنى ما أنا بمغيثكم و ما أنتم بمغيثي و أنما قال ذلك لأنهم إتبعوه في الدنّيا بإختيارهم و إرادتهم إذ المفروض أنّه لم يكن له عليهم سلطان أجبرهم على الإلتباع إني كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ أي إني كفرت بشرككم بالله و متابعتكم لي قبل هذا اليوم قيل المراد بالإشراك المتّفي الإشراك بالطّاعة دون الإشراك في العبادة إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قيل المراد بالظّالّمين الكافرين و الحقّ أنّ اللفظ بمعناه فإن الكفر داخل في الظلم و قوله: **لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** أي مؤلم شديد الألم.

بسم القرآن
في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

قال بعضهم في الآية دلالة على أن الشيطان لا يقدر على الإضرار بالإنسان أكثر من إغواءه ودعائه إلى المعاصي وأما بغير ذلك فلا يقدر عليه لأنه أخبر بذلك و يجب أن يكون صادقاً لأن الآخرة لا يقع فيها من أحد قبيح والكذب قبيح لكونهم ملجئين إلى تركه هذا ملخص ما ذكره في تفسير الآية.

أقول قال أمير المؤمنين عليه السلام إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، وإتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم ودبّ و درج في حجورهم فنظر بأعينهم و نطق بالسنتهم، فركب بهم الزلل و زين لهم الخطل فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه و نطق بالباطل على لسانه انتهى^(١) تكلمنا فيها في شرحنا على النهج بما لا مزيد عليه.

أَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المؤمنين المصدقين بالتوحيد و النبوة و جميع الأحكام و العاملين بها يدخلون الجنة التي تجري تحتها الأنهار خالدين فيها فلا يخرجون منها أبداً بإذن ربهم الذي عبده و أطاعوه في دار الدنيا تحييتهم فيها سلام أي تحية بعضهم لبعض في الجنة سلام، و التحية التلقائية بالكرامة في المخاطبة.

قال الله تعالى: وَإِذَا حُبِبْتُمْ إِلَىٰ بَنِيهِمْ فَحَبَّبُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها^(٢).

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يُضْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

قيل أن، ضرب، بمعنى جعل و قوله: مَثَلًا مفعول الأول و كلمة مفعوله الثاني و قيل أن، ضرب، بمعناه و مثلاً مفعول و قوله: كلمة بدل من مثلاً، و المثل بفتح الميم والثاء عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لبيّن أحدهما الآخر و يصوره نحو قولهم في الصيف صنعت اللبن فأن هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك و على هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال.

قال الله تعالى: **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ^(٢).

الظاهر أن الرؤية هاهنا بمعنى العلم وليس المراد بها رؤية البصر والمعنى ألم تعلم يا محمد كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أي كيف شبه الله تعالى كلمة طيبة بشجرة طيبة أصلها أي أصل الشجرة ثابت، في الأرض، و فرعها في السماء، مبالغة له في الرفعة فالأصل سافل و الفرع عال إلا أنه من الأصل يوصل الى الفرع و الأصل في باب العلم مشبه بأصل الشجرة التي تؤدي الى الثمرة التي هي فرع ذلك الأصل و يشبه بأصل الدرجة التي يترقى منها الى أعلى مرتبة ثم أنهم اختلفوا في المراد منها فقال بعضهم الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله و قال بعضهم هي الإيمان،

و قيل هي المؤمن نفسه و قيل القرآن و قيل دعوة الإسلام و قيل الثناء على الله أو التسبيح و التنزيه و أما الشجرة الطيبة فقيل هي المؤمن و قيل جورة الهند و قيل شجرة في الجنة و قيل النخلة و عليه أكثر المتأولين فقد ذكروا أن رسول الله ﷺ ذكر الآية فقال أتدرون ما هي فوق في نفسي أنها النخلة الحديث.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

و قال أبو العالية أتيت أنس بن مالك فجئ بطبقٍ عليه رطب فقال أنس كل يا أبا العالية فأنها الشجرة الطيبة التي ذكرها الله في كتابه ثم قال أتى رسول الله ﷺ بصاع بسر فتلا هذه الآية.

و قال الزمخشري كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة و شجرة التين و العنب و الرمان و غير ذلك، و الأقوال كثيرة و الذي يحصل من جميعها هو أن الله تعالى شبه الكلمة الطيبة أعني بها لا إله إلا الله و أمثال ذلك من الأذكار بالشجرة الطيبة و هي النخلة أو شجرة التين أو شجرة في الجنة و أمثالها.

و لقائل أن يقول أي مناسبة بين قولنا لا إله إلا الله مثلاً و بين النخلة أو شجرة التين و غيرهما فإن التشبيه لا بد له من وجه شبه بين المشبه و المشبه به و إلا لا يصح التشبيه فإن قالوا وجه الشبه بينهما هو ثبوت أصلهما فإن الإيمان مثلاً ثابت في القلب و الشجرة ثابت في الأرض يقال له أن كان هذا هو وجه الشبه فالأحسن أن يقال أن كلمة الطيبة كالجبال و ذلك لأن أصل الجبل أثبت في الأرض من أصل الشجرة و أن قالوا وجه الشبه هو أن فرعهما في السماء أي جهة العلو على قولهم أن هذا في المشبه غير موجود و إن قالوا وجه الشبه هو الثمرة فالجواب أن تشبيه الثمرة المعنوية التي في لا إله إلا الله مثلاً بالرطب أو التين و أمثالهما ممّا لا نفهم معناه و لا يقبله العقل إذا عرفت هذا فنقول الغرض من التشبيه ليس إلا تفهيم معنى المشبه للمخاطب فإذا أردت أن تبين للمخاطب شجاعة زيد أو أنه في أعلى مراتب الشجاعة تقول زيد كالأسد يعني أنه في الشجاعة كالأسد و أما أن الأسد أعني به المشبه به موجود أو معدوم حين التشبيه فهو أمر خارج عنه و بعبارة أخرى لا بد في التشبيه من وجه الشبه و المشبه به ولو كان فرضاً يشترط وجوده خارجاً فلو شبهنا شيئاً محسوساً موجوداً في الخارج بشيء معقول أو مفروض لا وجود له في الخارج حين التشبيه أو دائماً لا إشكال فيه و هو من تشبيه المحسوس بالمعقول الذي

هو من أحسن أنواع التشبيه و ما نحن فيه من هذا القبيل فإن الله تعالى شبه كلمة طيبة بشجرة طيبة أصلها كذا وكذا و قصد بذلك الإعلام بأن الكلمة الطيبة شأنها كذا وهي كشجرة كذا وكذا فشبه المحسوس بالمعقول أن قلنا أن الكلمة الطيبة من المحسوسات أو شبه المعقول بالمحسوس الفرضي أن قلنا بكونها من المعقولات وعلى التقديرين لا وجود للمشبه به خارجاً.

نعم له وجود عقلاً أو فرضاً وهذا القدر يكفي في تحقق التشبيه فالقول بأن المراد بالشجرة النخلة أو شجرة التين أو غيرها من الأشجار لا معنى له ولا دليل عليه بل العقل يحكم ببطلانه إذ لا توجد بل لن توجد في عالم الوجود شجرة أصلها ثابت في الأرض و فرعها في السماء أي الملاء الأعلى.

وقولهم أن المراد بالسماء مطلق جهة العلو لا دليل عليه بل لفظ السماء في الآية منصرف عنه والدليل على ما ذكرناه هو أنهم إتفقوا في علم المعاني والبيان على أن وجه الشبه لا بد أن يكون في المشبه به أقوى منه في المشبه كما في قولنا زيد كالأسد وهذا ممّا لا كلام فيه وعلى هذا فلو كان المراد بالشجرة النخلة مثلاً وبالسماء مطلق جهة العلو يصير معنى الكلام أن الكلمة الطيبة كالشجرة التي لها فرع طويلاً كان الفرع أو قصيراً وهذا خلاف ما قصد بالآية قطعاً لأن المقصود منها هو تفهيم أن الكلمة الطيبة لها فرع أو فروع يمتد إلى غير النهاية.

كما قال تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** (١).

وما كان كذلك لا يشبه بالنخلة التي ليست كذلك بل لا بد أن يشبه بالشجرة التي لها فرع إلى غير النهاية وبعبارة أخرى بالشجرة التي لها أصل ثابت في الأرض و فرعها في الملاء الأعلى من العرش والكرسي واللوح وغير ذلك و من المعلوم أن هذه الشجرة لم يوجد ولا يوجد إلا فرضاً فثبت و تحقق أن

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المراد بالشَّجرة ليس شجرة معيَّنة موجودة في الخارة و هو المطلوب هذا كله بناءً على أنَّ المراد بالكلمة في الآية التَّشريعي منها نحو لا إله إلاَّ الله، و أستغفر الله، و لا حول و لا قوَّة إلاَّ بالله و أمثال ذلك من الكلمات المركَّبة من الحروف للدَّلالة على المعنى التَّشريعي.

و أمَّا إذا قلنا أنَّ المراد منها الكلمة التكوينية أو الأعمَّ منها ومن التشريعية كما هو المحتمل أيضاً لو لم يكن أقوى فالمراد بالكلمة الكلمة التامة الوجودية التي نَجَّبَ عنها الإنسان الكامل الذي له فَطْهَرِيَّة الصِّفَات في عالم الوجود. و توضيحه أنَّ الكلمة أعني بها كلمة الله تشريعية و تكوينية.

فالتشريعية عبارة عن كلِّ كلمةٍ دَلَّت بحسب حروفها على معنى المراد شرعاً و جميع أوامر الله و نواهيه و بالجملة كلُّ ما يتعلَّق بحكم من الأحكام الشَّرعية من هذا القبيل بل نقول جميع الكتب السماوية من التوراة و الإنجيل و القرآن كلمات الله الدالة على أحكام الشريعة ممَّا لا كلام لنا فيه.

و أمَّا الكلمات التكوينية فهي الموجودات في عالم الإمكان قال الله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**^(١) فكلُّ مخلوق في عالم الوجود داخل في هذا القسم و أمَّا عبَّروا عنها بكلمات الله مع أنَّها ليست من سنخ الحروف لأنَّه لا فرق بين قولنا أنَّ الله تعالى أوجد الحروف و الكلمات و قولنا أوجد الموجودات فكما أنَّ كلمات القرآن مثلاً يقال بأنَّها كلمات الله أو كلام الله كذلك المخلوق يقال بأنَّه كلام الله و كلمة الله إلاَّ أنَّ الأول تشريعي و الثاني تكويني إيجادي و كما أنَّ الكلمات التشريعية مختلفة لفظاً و معنى و نقصاً و كمالاً فكذلك التكوينيات مختلفة متفاوتة فمنها النَّبي و منها الوصي و منها العالم و منها الجاهل و منها الحيوان و الجماد و النَّبات و غير ذلك فأكملها النَّبي ثمَّ الوصي ثمَّ العالم ثمَّ الجاهل ثمَّ الحيوان ثمَّ النَّبات و الجماد ففي

التشريعات كلمة الله هي العليا، و في التكوينيات النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فضلاً عن غير المؤمنين و محصل الكلام هو أنَّ الاختلاف من حيث المرتبة موجود في كليتا الكلمتين فالإنسان أشرف المخلوقات كما أنَّ لا إله إلاَّ الله أشرف الكلمات و إنما عبّر عن الموجودات بالكلمات و عن الإنسان الكامل بأفضلها و أتمها لكونه مظهراً كاملاً لخالفه ذاتاً و صفةً.

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ** ^(١).

و هي عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ** ^(٣).

و قد روي عن الصادق عليه السلام أنَّه قال نحن الكلمات التَّامات، فإطلاق الكلمة عيل الإنسان الكامل ليس معناها حصر الكلمة فيه بل معناها أنَّ الكلمة التَّامة ليست إلاَّ الإنسان الكامل و إذا عرفت هذا فلا تشكَّ في أنَّ الإنسان الكامل هو الكلمة الطَّيبة الوجودية التي أصلها ثابت و فرعها في السَّماء، أي أصلها ثابت في الأرض أو في أراضى القلوب و فرعها أي ثمرتها في الملاء الأعلى أي أنَّه في الملاء الأعلى أشهر منه في هذا العالم و عليه فالمراد بالشَّجرة في الآية هو شجرة وجوده و إن أبيت إلاَّ عن حمل قوله كلمة طَّيبة، على التَّشريعي منها فالمشبَّه به هو ما ذكرناه أعني به شجرة وجود الإنسان الكامل فيصير المعنى أنَّ لا إله إلاَّ الله مثلاً، كشجرة النُّبوة التي أصلها ثابت في الأرض و فرعها في الملاء الأعلى فوق السَّموات و الأرضين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجلد التاسع

وَأَنْ أَدْعُنْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ هُوَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ
تَكْوِينًا فَالْمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ
فَتَكُونُ الشَّجَرَةُ فَرْضِيَّةَ أَيِّ لَوْ فَرَضْنَا شَجَرَةً كَذَلِكَ فَالْإِنْسَانُ
الْكَامِلُ مِثْلُهَا هَذَا مَا فَهَمْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ وَنَشِيرُ إِلَى بَعْضِ مَا
يُؤَيِّدُنَا مِنَ الْأَخْبَارِ مِنْهَا.

مَا عَنْ أَصُولِ الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ حَرْيْثٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا
عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي
السَّمَاءِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولُ اللَّهِ أَصْلُهَا وَآمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَرْعُهَا وَالْأُمَّةُ
مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَغْصَانًا.

وَعِلْمُ الْأُمَّةِ ثَمَرُهَا وَشِيعَتُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَرَقُّهَا هَلْ فِيهَا فَضْلٌ.
قَالَ قُلْتُ لَا وَاللَّهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاللَّهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُولَدَ فَتُورِقَ وَرَقَةٌ فِيهَا وَ
أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَمُوتَ فَتَسْقُطَ وَرَقَةٌ مِنْهَا إِنْتَهَى.

مَا عَنْ الْخِصَالِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلَقَ
النَّاسَ مِنْ شَجَرَةٍ شَتَّى وَخَلَقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ (وَابْنُ أَبِي طَالِبٍ) مِنْ
شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَصْلِي عَلِيٌّ وَفَرْعِي جَعْفَرٌ إِنْتَهَى.

عَنْ كَمَالِ الدِّينِ وَتَمَامِ النِّعْمَةِ بِإِسْنَادِهِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عِمَادٍ عَنْ
عَمْرِ بْنِ صَالِحِ السَّابِرِيِّ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَصْلُهَا
ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ قَالَ أَصْلُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفَرْعُهَا
آمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ثَمَرُهَا، وَتِسْعَةٌ مِنْ وَلَدِ
الْحُسَيْنِ أَغْصَانُهَا وَالشَّيْعَةُ وَرَقُّهَا، وَاللَّهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَمُوتَ
فَتَسْقُطَ وَرَقَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ قُلْتُ قَوْلُهُ: تُؤْتَى أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ
بِإِذْنِ رَبِّهَا، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَخْرُجُ مِنْ عِلْمِ الْإِمَامِ الْيَكْمُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ
كُلِّ فَحٍّ عَمِيقٍ إِنْتَهَى.

ما عن كتاب معاني الأخبار بأسناده عن جابر الجعفي قال سألت
أبا جعفر عليه السلام محمد بن علي الباقر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ
شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، قال عليه السلام أمَّا
الشَّجَرَةُ فرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وفرعها علي عليه السلام وغصن الشَّجَرَةِ
فاطمة بنت رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وثمرها أولادها عليهم السلام و
ورقها شيعتنا ثم قال أَنَّ المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من
الشَّجَرَةِ ورقة و أَنَّ المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشَّجَرَةُ ورقة
إنتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و يظهر منها أَنَّ المراد بالشَّجَرَةُ شجرة
النُّبُوَّة، و فرعها الإمامة لا شجرة النخلة و أمثالها و الله أعلم بحقيقة كلامه.
تُوتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ إختلفوا في معنى الحين فقل أنه ستّة أشهر و قيل سنة كاملة شهران
و قيل غدوة و عشية، و قيل ثمانية أشهر، و هو في الأصل قطعة من الزَّمان و
المعنى تأكل من الشَّجَرَةِ أي من ثمرها كُلَّ حِينٍ أي كُلَّ زَمَانٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.
فأن كانت الشَّجَرَةُ نخلة تأكل رطباً و أن كانت الشَّجَرَةُ شجرة الزيتون تأكل
زيتوناً و هكذا.

أقول الحين في أخبارنا ستّة أشهر إلا أَنَّهُ يحمل على معناه الأصلي و هو
قطعة من الزَّمان اذ لا دليل على التَّخصيص و المعنى تُوتِي إِلَهُ كُلَّ زَمَانٍ بِإِذْنِ
رَبِّهَا و على ما ذكرناه في معنى الشَّجَرَةِ فالمعنى ما يفتون به الأئمة شيعتهم بعد
الرَّسُولِ فأن ثمره شجرة النُّبُوَّة و الولاية ليست إلا المعارف الحقَّة و الأحكام
الشرعية الصادرة عن أهل بيت الرسالة الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرِّجْسَ و
طَهَّرَهُمْ طَهِيرًا.

إن قلت ما ذكرت في المقام ليس تفسيراً للأية بل هو تأويل لها حيث أوَّلْتُ
الشَّجَرَةَ بشجرة النُّبُوَّة و الإمامة.

فِي الْقُرْآنِ
فِي الْقُرْآنِ
فِي الْقُرْآنِ

جزء ١٣

الجلد الثاني

قلت ما ذكره أيضاً تاويل لها لأن الله تعالى لم يبين في الآية ما هو المراد من الشجرة بل قال كشجرة طيبة وحملها على شجرة النخلة وأمثالها لا دليل عليه وأما ما ذكرناه فهو مؤيد بالأخبار كما عرفت.

وفي قوله: وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إشارة الى أن المقصود الأصلي من الأمثال في القرآن هو التذكرو والتفكر في الآيات فأَنَّ القرآن كلام الله و هو بحر عميق، لا يمكن إستخراج حقائقه إلا بالتأمل و العناية منه تعالى.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ

لما ضرب الله تعالى المثل في الآية السابقة للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ضرب الله في هذه الآية المثل للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ و إقتلعت من فوق الأرض ما لها من قرار فيها، الإجتثاث الإستئصال للشئ و إقتلاعه من أصله و الكلام في الكلمة الخبيثة كالكلام في الكلمة الطيبة إلا أَنَّ الخبيثة ضد الطيبة فقوله مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة بناءً على تفسير القوم معناه أَنَّ كلمة الكفر مثلاً كشجرة خبيثة و المراد بها أي الشجرة هو شجرة الثوم على قول و شجرة الكشوت و هي التي لا ورق لها على قول آخر و شجرة الحنظل على قول مجاهد و أنس و شجرة الرمان و أمثال ذلك من الأقوال.

و على هذا فمعنى الكلام أَنَّ الكلمة الخبيثة و هي كلمة الكفر مثلاً كشجرة الحنظل و الثوم و الرمان و أمثال ذلك ممّا لا ورق لها و الأصل فلا محالة للإقرار لها في الأرض فوجه الشبه هو عدم القرار و الثبات لهما و لقائل أن يقول ان وجه الشبه و هو عدم القرار و الثبات في كلمة الكفر أقوى منه في الشجرة الخبيثة و هو على عكس قاعدة التشبيه هذا أولاً.

أما ثانياً: فليس في عالم الوجود من الأشجار ما لا أصل لها ولا قرار في الأرض وهو محسوس فضلاً عن كونه معلوماً.

ثالثاً: ما ذنب شجرة الثوم التي خلقها الله حتى تعدّ من الخبائث مع أن المنافع والأثار والخواص المترتبة على الثوم والبصل كثيرة جداً.

رابعاً: لا تطلق عليها الشجرة في العرف والله تعالى مثل بالشجر فهذه الأقوال لا فائدة فيها ولا يعقل حمل كلام الله تعالى على هذه الموهومات فالحق في المقام هو أن الكلمة كما مرّ البحث فيها على قسمين:

تشريعي وإيجادي، فأن حملنا الكلمة في المقام على التشريعي فمعنى الكلام أن كلمة الكفر مثلاً بحسب الشرع خبيثة كشجرة كانت كذا وكذا وليس معناه أن الشجرة موجودة بل المعنى أن مثل كلمة الكفر في عدم البقاء والقرار مثل شجرة لا قرار لها ولا أصل.

و أن حملنا الكلمة على الإيجادي فالمعنى أن الموجود الخبيث وهو الكافر والمنافق مثله مثل الشجرة الخبيثة في عدم النفع وعدم القرار في الأرض لو وجدت وهذا كأبي سفيان ومعاوية وأبي جهل وأبي لهب وأمثالهم من المنافقين والكفار فأنهم لا أصل لهم ولا قرار في أراضي القلوب كما أن الشجرة المفروضة كذلك فكما أن الكلمة الطيبة تحمل على الإنسان الكامل في الإنسانية كذلك كلمة الخبيثة تحمل على الفاسق والكافر والشورور وكما أن الشجرة الطيبة هي شجرة النبوة والولاية فالشجرة الخبيثة هي ضدها.

و محصل الكلام في الأيتين هو أن الحق يدوم والباطل لا يدوم والحق يبقى والباطل يفنى والحق مفيد والباطل مضر وهذا معنى قول رسول الله ﷺ حيث قال **للحق دولة وللباطل دولة**، والدليل على ذلك بعد حكم العقل والشرع هو أننا نرى بالحس والعيان أن شجرة النبوة والإمامة باقية وشجرة الكفر والظلم فانية لأن شجرة النبوة لها أصل ثابت وشجرة الكفر ليس

لها أصل و هكذا تكون الكلمة الطيبة فأفهم و إغتمم فأنتك لا تجد ما ذكرناه في تفسير الآية في غير هذا السفر الجليل و الحمد لله.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

قيل المراد بالقول الثابت هو الإيمان و المراد بثبوته في الآخرة هو مسألة القبر و عليه فالمعنى أن الله تعالى يوفق المؤمن الذي آمن بالله و رسوله حقاً بالقول الثابت في الدارين أي لا يضطرب في إيمانه و لا يتزلزل.

قال رسول الله ﷺ المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف، و فيه إشارة الى أن حفظ الإيمان أصعب و أشد من تحصيله و هو لا يمكن إلا بعناية الله و توفيقه قال مخاطباً لنبيه:

قال الله تعالى: وَ لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا^(١).

قال الله تعالى: وَ كَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ^(٢).

قال الله تعالى: وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يَثْبِتَ بِهِ الْأَقْدَامَ^(٣).

قال الله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا^(٤).

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يَثْبِتْ أَقْدَامَكُمْ^(٥).

و قوله: فِي الْآخِرَةِ يمكن أن يراد به المسألة في القبر كما ذكره المفسرون و عندي أن المراد به هو حال الإحتضار و هو أن يموت على الإيمان و هو أول منزلة من منازل الآخرة فيصدق عليه الآخرة باعتبار تحقق وقوعها.

و من المعلوم أنّ من دخل في الآخرة مع الإيمان فقد فاز و سعد، قلنا ذلك لأنّ الآخرة ليست بدار التكليف فمن ورد على الله مؤمناً فهو مؤمنٌ أبداً فلا يمكن زوال الإيمان عنه و هذا بخلاف الدنيا فإنّ المؤمن فيها على خطرٍ عظيم و السرّ في ذلك هو وجود الشيطان و عدمه فيها.

و أمّا قوله: **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** فالمعنى أنّه تعالى يسلب عنهم التوفيق بظلمهم فيكلهم الى أنفسهم و قد تقدّم الكلام في هذا المعنى مراراً و قيل معناه أنّه تعالى يحكم بضلالهم أو يضلّهم عن طريق الجنة الى طريق النار.

و قوله: **وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** معناه واضح اذ لا إعتراض عليه تعالى في أفعاله فهو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ الرؤية هاهنا بمعنى العلم أي ألم تعلم يا محمّد و يحتمل أن تكون بمعنى حاسة البصر أي ألم تنظر الى هؤلاء و ذلك لأنّ تبديلهم النعمة بالكفر كان محسوساً و لكنّ المفسّرين على الأوّل.

و كيف كان لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة حال المؤمنين و هداهم و حال الكافرين و ضلالهم ذكر السبب في ضلالتهم و قال: **الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا** أي جعلوا الكفر بالنعمة مكان شكرها فإنّ التبدّل جعل الشئ مكان غيره و أحلّوا قومهم دار البوار و الإحلال وضع الشئ في محلّ أمّا مجاوره أن كان من قبيل الأجسام أو مداخله أن كان من قبيل الأعراض و البوار الهلاك ثمّ فسّر الله تعالى دار البوار فقال:

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ يَشْسُ الْقَرَارُ

أي يشس المستقرّ و المأوى قيل أنّ الآية نزلت في عامّة المشركين الذين بدّلوا بنعمة الإيمان الكفر.

و قال مجاهد هم أهل مكة أنعم الله تعالى عليهم ببعثه رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكّيهم و يعلمهم أمر دينه و شرفهم به و أسكنهم حرمه و جعلهم قوام بيته فوضعوا مكان شكر هذه النعم كفراً.

و قيل، المراد بهم كفار قريش و هم بنو المغيرة و بنو المغيرة فأبادهم الله يوم بدر و أمّا بنو أمية فقد أهملوا الى يوم ما.

و قال قتادة هم القادة من كفار قريش و نقلوا عن عمر أنه قال هما الأفجران من قريش بنو المغيرة و بنو أمية على ما مرّ بيانه هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

أقول ما ذكروه في تفسيرها لا بأس به اذ لا يبعد أن يكون شأن النزول ما ذكروه من بني أمية و بني مخزوم و جميع كفار قريش إلا أن المراد بالآية معناه العامّ الشامل للكافر و المسلم الى يوم القيامة.

و على هذا فالرؤية بمعنى العلم و المعنى ألم تعلم يا محمّد الى الذين بدّلوا نعمة الله في كلّ عصرٍ و زمانٍ كفراً و أحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها و بئس القرار.

إن قلت قوله: بدّلوا بصيغة الماضي يدلّ على أنه أمرٌ وقع في الماضي فكيف ينطبق على المستقبل.

قلت المستقبل اذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي و أنّه تعالى كان عالماً بأنّ هذا سيقع من هذه الأمة أيضاً و لذلك أتى بالماضي ليشمل الكلام الماضي و المستقبل معاً، فلو قال، يدّلون، مكان، بدّلوا، لم يشمل المستقبل نظير ذلك في الكتاب كثير:

قال الله تعالى: وَ أَذْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي.

قوله تعالى: وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ سَيَقُولُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

و قال تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ وَمَنْ مَعَهُمْ أُنْ بُرُوزِهِمْ يَوْمَ
البعث و أمثال ذلك من الآيات فما نحن فيه من هذا القبيل و السرّ العلمي فيما
ذكرناه من التّعميم هو أن الله تعالى بيّن في الآية العلّة و السّبب لذلك و هي
تبديلهم النّعمة بالكفر فقال بدّلوا نعمة الله كُفْرًا و لا شكّ أنّ العلّة اذا وجدت
وجد المعلول أيضاً فكلّ من بدّل نعمة الله كُفْرًا يدخل في الآية الى يوم القيامة
بلا كلام و المراد بالكفر في الآية ليس الشّرك و الإرتداد بل المراد به كفران
النّعمة:

قال الله تعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ^(٢).

فقوله، يبدّل بصيغة المضارع دليل على ما ذكرناه فإنّ القرآن يفسّر بعضه
بعضاً:

قال الله تعالى: أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ^(٣).

قال الله تعالى: أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ^(٤).

قال الله تعالى: يَكْفُرُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ
الْكَافِرُونَ^(٥).

قال الله تعالى: وَ أَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتِيَاهُ تَعْبُدُونَ^(٦).

و غيرها من الآيات الدّالة على أنّ إنكار النّعمة و الكفر بها مذموم و فاعله
مستحقّ للعقاب.

و في قوله: وَ أَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ إشارة الى أتباعهم و أشياعهم و أنّ
هؤلاء الكفرة بأنعم الله هم الذين أضلّوا أتباعهم و أحلّوهم دار البوار و فيه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

العباد القائلون

٢- البقرة = ٢١١

٤- العنكبوت = ٦٧

٦- النحل = ١١٤

١- إبراهيم = ٧

٣- النحل = ٧١

٥- النمل = ٨٣

إيماء الى أَنَّ التقليد في الإعتقادات محكومٌ عقلاً فالمقلد يستحق العقاب بتقليده و المقلد يستحق العقاب بتضليله إِيَّاهم و الله تعالى أعطى الإنسان العقل ليختار ما هو خيرٌ له اذا عرفت هذا.

فَاعْلَمُ أَنَّ المسلمين بعد رسول الله ﷺ أكثرهم كفروا بما أنعم الله عليهم من نعمة الرسالة و نعمة الولاية و إتبعوا أصحاب السقيفة في مسألة الولاية و الخلافة فأنكروا الولاية و الإمامة و لم يعلموا أَنَّ إنكار الولاية هو إنكار الرسول في الحقيقة و لا نعني بالكفر بنعمة الله إلا هذا و أيُّ فرقٍ بين من أنكر قول الرسول في التوحيد و النبوة و المعاد و بين من أنكر قوله في الولاية و الخلافة بعد فكيف يحكمون بأن الآية نزلت في كفار قريش خاصة أو بالمشركين خاصة و أيُّ ذنبٍ كان لهم غير إنكارهم قول الرسول و تكذيبهم إِيَّاه و المفروض أَنَّهُ ثابت في حق أكثر المسلمين أيضاً فتخصيص الآية بالكفار و تبرئة المسلمين عن الذنب الذي هو الكفر بنعمة الله تحكّم لا دليل عليه بل الدليل من العقل و النقل على خلافه و لتفصيل الكلام فيه موضع آخر.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ الظاهر أَنَّ الواو للعطف أى و جعلوا هؤلاء الكفار لله أنداداً و أمثالاً من الأصنام و الأوثان ليضلوا، الناس عن سبيله أي عن سبيل الله قل يا محمد لهم، تمتّعوا و إنتفعوا بما تهوون من عاجل هذه الدنيا فصورته صورة الأمر و المراد به التهديد بدليل قوله فَأَنْ مَصِيرَكُمْ الى النار أي مرجعكم و مألكم إليها.

قال الزاغب في المفردات نديد الشيء مشاركته في جوهره و ذلك ضربٌ من المماثلة فَأَنْ المثل يقال في أي مشاركة كانت فكلٌ نِدٍ مثلٌ و ليس كلٌ مثلٌ ندّاً انتهى.

و لنشر الى بعض ما ورد من الأخبار في الباب.

عن أصول الكافي بأسناده عن الأصبع قال قال أمير المؤمنين عليه السلام ما بال أقوام غيروا سنة رسول الله ﷺ و عدلوا عن وصيته لا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب ثم تلا هذه الآية: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ عليه السلام نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة انتهى.

و بأسناده عن عبد الرحمن بن كثير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا قَالَ عليه السلام عني قريشاً قاطبةً الذين عادوا رسول الله و نصبوا له الحرب و جحدوا وصيته انتهى.

وعن تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن عثمان بن عيسى عليه السلام عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ قَالَ عليه السلام نزلت في الأفجرين من قريش بني أمية وبني المغيرة الى أن قال عليه السلام ونحن و الله نعمة الله التي أنعم بها على عباده بنا يفوز من فاز انتهى.

وعن تفسير العياشي عن الأصبع بن نباتة في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا، قال نحن نعمة الله التي أنعم الله بها على عباده (على العباد) انتهى وأمثال ذلك من الأحاديث كثيرة ولا يتنافي هذا أن يكون النزول خاصاً فإن خصوصية المورد لا تنافي عموم المعنى ولا ينافي ما ذكره أيضاً قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا.

حيث أن جعل الأنداد كان مختصاً بالكفار فقط و يحتمل أن يراد بجعل الأنداد أيضاً معناه العام الشامل لعبدة الأوثان و الأصنام و عبدة الحكام و الخلفاء الجور في معصية الله فأن من أطاع غيره في معصية الله فقد عبده و من

أصغى الى ناطقٍ لا يقول من الله و عمل به فقد عبده و لفظه الصنم و الوثن لا خصوصية لها و لا يبعد أن تكون الواو للإستئناف لا العطف و عليه فالآية لا ربط لها بما قبلها هي حكمٌ مخصوصٌ بالكفار و المشركين و الله أعلم بحقائق الأمور فإن القرآن بحرٌ عميق لا يدرك قعره و أنما يفهم منه المفسر بحسب إستعداده و فهمه و أين التراب و رب الأرباب خصوصاً بعد قوله: **وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا^(١)**.



قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَاتَّبِعُوا
مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا
تُحْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَ
بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً
مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ
مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ

الصلوةَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)
 رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
 الْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا
 يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ
 الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
 إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءُ (٤٣)

◀ اللغة

أَفْلَكَ السَّفِينَةِ.

دَائِبِينَ الدُّوب مرور الشئ في العمل على عادة جارية فيه والمعنى لا يفتران.

لَظْلُومٌ كَفَّارٌ مبالغة في الظلم والكفران.

وَأَجْبُنِي أَي بَعْدَنِي وَأَصْرَفَنِي.

أَفْتَدَةً جمع فَوَاد وهو القلب.

تَهْوَى أَي تَمِيلُ.

◀ الإعراب

سِرًّا وَعَلَانِيَةً مصدران في موضع الحال دَائِبِينَ حال من الشَّمْسِ والقمر
 كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ مَا، بمعنى الَّذِي أَمِنَّا مفعول ثانٍ و البلد، وصف المفعول
 الأول وَمَنْ عَصَانِي شرط في موضع رفع وجواب الشرط فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ
 والعائد محذوف أي، له مِنْ ذُرِّيَّتِي المفعول محذوف أي ذرية من ذريتي عِنْدَ
 بَيْتِكَ صفة لَوَادٍ تَهْوَى مفعول ثانٍ لأَجْعَلَ عَلَى الْكَبِيرِ حال من الباء في، لي.

◀ التفسير

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ
عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ

قل، يا محمد، لعبادي الذين آمنوا، بالله ورسوله و اليوم الآخر يُقِيمُوا
الصَّلَاةَ إقامة الصلاة الإتيان بها بشرائطها وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ بِإِتْيَانِهِم
الزَّكَاةَ والصدقات سِرًّا وَ عَلَانِيَةً أي في الخفاء والعلن مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ وهو يوم القيامة الذي لا بيع فيه ولا شراء، أمر الله
تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بأمرين:

أحدهما: أن يقيموا الصلاة وهي الإتيان بها بشرائطها المقررة في الشريعة و
هي من أهم الواجبات بعد المعرفة بالله ورسوله وعليها يتفرع قبول سائر
الأعمال لقوله ﷺ: **إِنْ قُبِلَتْ قَبْلَ مَا سَوَاهَا وَإِنْ رُدَّتْ رُدَّتْ مَا سَوَاهَا**، وهي
معراج المؤمن لقوله ﷺ: **الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ**، أي بها يتقرب العبد إلى
ساحة قدس الرُّبُوبِي وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر لقوله تعالى: **إِنَّ
الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ^(١) وهي أوّل واجبٍ أجبهُ الله في الشرع،
وهي التي قال رسول الله ﷺ، **الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ مَنْ شَاءَ اسْتَقَلَّ**
ومن شاء استكثر، وهي التي من تركها عمداً فقد كفر والآيات في فضلها
كثيرة جداً و قد مضى شطراً منها فيما مضى وسيأتي تفصيل الكلام في
موضعه إن شاء الله.

ثانيهما: الإنفاق ممّا رزقهم الله تعالى.

قال المفسرون المراد به الزكاة المفروضة وهي التي أمرنا بها و أمّا غيرها
من الصدقات المندوبة فلا وجوب فيها والحق أن المراد بالإنفاق معناه العام
الشامل للواجب والمستحب وذلك لأنّ البحث ليس في الواجبات وليس كلّ

بسم القرآن
وفي تفسير القرآن

جزء ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ما أمرنا به النبي من الله تعالى واجباً فأن الأوامر المندوبة أكثر من أن تحصى مضافاً الى أنه لا أمر في الآية و أنما أمر الله نبيه أن يقول للمؤمنين أن يقيموا الصلاة و ينفقوا مما رزقهم الله كان فالأمر سهل بعد وضوح المقصود و هو مطلوبة الإنفاق سواء كان واجباً أو مستحباً سرّاً كان أو علانية و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ.

و هو يوم القيامة و الخلال قيل أنه جمع خلّة مثل قلّة و قلال و ظلّة و ظلال معناه المخالة و هي إضفاء المؤدة.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

أخبر الله تعالى أنه اخترع السموات و الأرض و أنشأهما بلامعين و لا مشير و قد مرّ الكلام فيه غير مرّة و قلنا أن خلقهما كان إبداعياً ثم ذكر الله تعالى في هذه الآية شطراً من النعم التي أنعمها على عباده ليشكروا عليها فقال.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ الظاهر أن مفعول، أخرج، هو رزقاً لكم و من، للتبويض و لما تقدّم على النكرة في موضع الحال و يكون المعنى أن الرزق هو بعض جني الأشجار و يخرج منها ما ليس برزق كالمجرد للمضرات و يجوز أن تكون، من، لبيان الجنس و عليه فكأنه قال فأخرج به رزقاً لكم هو الثمرات و هذا ليس بجيد لأن، من، التي لبيان الجنس أنما تأتي بعد المبهم الذي تبيّنه و المراد بالماء الذي أنزل من السماء هو الغيث و المطر و إخراج الثمرات بسبب الماء ممّا لا خفاء فيه فأن حياة الأشجار و النباتات بالماء الذي به حياة كلّ موجود حيّ فبالماء يخرج النبات من الأرض ثم يثمر و هو أمر محسوس:

قال الله تعالى: وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا^(١).

قال الله تعالى: لِنُخْئِي بِهِ بِلْدَةً مَّيْنًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ
أَنَاسِيَّ كَثِيرًا^(١).

قال الله تعالى: وَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَهُهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَغْدًا
مَوْتَهَا^(٢).

قال الله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ
شَيْءٍ^(٣).

قال الله تعالى: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ
شَتَّى^(٤).

قال الله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ^(٥).

و الآيات كثيرة و المراد بالثمرات كل ما يتطعم من أعمال الشجر و الواحدة
ثمرة و الجمع ثمار و ثمرات هكذا قيل و الحق أن الثمر إسم لكل ما يستفاد من
الأشجار و النباتات سواء كان مأكولاً أم غير مأكولٍ فأن بعض الأشجار ثمره
خشبه و من المعلوم أن ثمرة كل شيء بحسبه و قوله: رَزَقًا لَكُمْ إشارة الى
إنتفاع الإنسان بالثمرات كيف يشاء و لا نعني بالرزق إلا هذا.

وَ سَخَّرَ لَكُمْ أَفْلَكًا لِيَتَجَرَّيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ الْفَلَكُ بَضْمُ الْفَاءِ قَالَ
بعضهم هي جمع فلك و لذلك قال تعالى: لِيَتَجَرَّيَ و لو كان مفرداً لقال،
ليجري، و قال الراغب في المفردات الفلك السفينة و يستعمل ذلك للواحد و
الجمع و في قوله: سَخَّرَ لَكُمْ إشارة الى أن الله، تعالى جعلها تحت إختياركم
فأن التسخير سياقة الى الغرض المختص قهراً فالمتسخر هو المقيض للفعول:

قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي
الْأَرْضِ^(٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجزء ١٣

١- البقرة = ١٦٤

٢- طه = ٥٣

٣- لقمان = ٢٠

١- الفرقان = ٤٩

٢- الأنعام = ٩٩

٣- الأنبياء = ٣٠

قال الله تعالى: **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ** ^(١).
وقال في قصّة سليمان النبي ﷺ:

قال الله تعالى: **فَسَخَّرْنَا لَهُ أَلْرَّيَحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ** ^(٢).
قال الله تعالى: **سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** ^(٣).

قوله: **فِي أَلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ** أي بإرادته ومشيئته والمراد بالأمر هو التكويني منه **سَخَّرَ لَكُمْ أَلْأَنْهَارَ** التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء ويجريها في الأودية وينصب منها في الأنهار ويحتمل أن يكون المراد بتسخير الأنهار جريانها وتفجيرها للإنتفاع بها.

وَسَخَّرَ لَكُمْ أَلشَّمْسَ وَ أَلْقَمَرَ دَائِبِينَ

أي حال كونها دائبين في سيرهما وإنارتها وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأجسام والنبات وقيل معناه دائبين في طاعة الله ومعنى دائبين أي مستمرين لا يفتران في صلاح الخلق والنبات يترتب على سيرهما من المنافع **وَسَخَّرَ لَكُمْ أَللَّيْلَ وَ أَلنَّهَارَ** في تعاقبهما خلفه للنمات والمعاش:

قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ أَلنَّهَارَ مُبْصِرًا** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَسَخَّرَ لَكُمْ أَللَّيْلَ وَ أَلنَّهَارَ وَ أَلشَّمْسَ وَ أَلْقَمَرَ** ^(٥).

قال الله تعالى: **فَمَحَوْنَا آيَةَ أَللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ أَلنَّهَارِ مُبْصِرَةً** ^(٦).

قال الله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ أَللَّيْلَ فِي أَلنَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ أَلنَّهَارَ فِي أَللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ^(٧).

وإِعلم أَنَّ المراد بالتَّسخير فيما ذكرناه ليس أَنَّ الشَّمسَ والقمرَ والغيثَ والمطرَ واللَّيلَ والنَّهارَ والفلَكُ التي تجري في البحر تحت إرادتكم بمعنى إن شئتم تجري هذه الأمور وإلا فلا بل المراد به هو أَنَّ الله جعلها لإنتفاعكم بها: قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^(١).

قال الله تعالى: سَخَّرْنَا هٰذَا لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٢).

وأما قلنا ذلك لأنَّ تسخير الشَّيْءِ بمعنى كونه مطيعاً لمن سَخَّرَه لا يعقل إلا للخالق فإنَّ المخلوق مطيع لخالقه ولكن الخالق جعلها وخلقها لأجل أن تتفعوا بها وحيث أنَّ منافعتها ترجع الى الإنسان بالأخرة وفي العاقبة قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوٰتِ وَ مَّا فِى الْاَرْضِ وَ هٰذَا كَمَا تَقُولُ لغيرك سَخَّرْتُ حماري أو داري لك أي جعلتها تحت إختيارك لأجل الإنتفاع بها والدليل عليه قوله تعالى في قصة سليمان النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ^(٣). وقوله: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ^(٤) فالتَّسخير في جميع هذه الموارد أتما هو من إعطاء الله ونعمه التي أنعم الله بها على عباده ليشكروا له فإنَّ شكر المنعم واجب عقلاً ولذلك قال لعلكم تشكرون، ففي هذه الآيات في الحقيقة تذكُّارٌ للتَّنْقِيطِ عن نوم الغفلة وتوجه العبد الى معبوده الحقيقي ولذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الجلد التاسع

وَ اٰتٰیكُم مِّنْ كُلِّ مَّا سَاَلْتُمُوهُ وَ اِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا
أي أَنَّ عطیات الحق ونعمه لا تنحصر بما ذكرناه في هذه الآيات بل الله تعالى أتاكم من النعم ما لا تحصوها أي لا تقدرون على عدّها وإحصائها لكثرتها ومضافاً الى ذلك جعل لكم الدُّعاء لتسألوا ربكم عن جميع ما تحتاجون اليه فالخالق الذي خلقكم وأعطاكم هذه النعم الكثيرة هو الذي

يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدَ وَلَا يَغْفَلَ الْعَبْدَ عَنْهُ فِي جَمِيعِ شَتُونِهِ لَا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ وَ
كُلَّ مَوْجُودٍ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى فَمَنْ تَرَكَ مَعْرِفَتَهُ وَعِبَادَتَهُ وَاتَّخَذَ مَعْبُوداً سِوَاهُ
الْحَالِ هَذِهِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنْ طُورِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَدَاخِلٌ فِي صِنْفِ الْجُمَادِ وَالْحَيَوَانَ
بَلْ هُوَ أَضَلُّ وَالْعَجَبُ أَنَّا نَرَى كَثِيراً مِنَ النَّاسِ كَذَلِكَ كَمَا أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ
فَقَالَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ أَيُّ ظَالِمٍ كَافِرٌ بِأَنْعَمَ اللَّهُ وَالْإِنِّيَانِ بِصِغَةِ
الْمُبَالَغَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ ظُلْمَهُ وَكُفْرَانَهُ كَثِيرٌ لَا قَلِيلٌ.

أَنْ قُلْتُ كَيْفَ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى الْإِنْسَانِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ
كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ وَبِالْجُمْلَةِ الْمُؤْمِنِ الْحَقِيقِيِّ بَلِ الْحَقُّ أَنْ يَقَالَ أَنَّ
بَعْضَ الْإِنْسَانِ أَوْ أَكْثَرَهُمْ كَذَلِكَ لَا جَمِيعَ أَفْرَادِهِ.
قُلْتُ لَا إِشْكَالَ فِيهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِمَّا لِلْجِنْسِ وَ
الِإِسْتِغْرَاقِ، أَوْ لِلْعَهْدِ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: يَصِيرُ الْمَعْنَى أَنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ أَوْ كُلَّ الْإِنْسَانِ بِمَقْتَضَى طَبْعِهِ
وَجَبَلَتْهُ كَذَلِكَ وَهَذَا لَا يَنَافِي أَنْ يَكُونَ بَعْضُ أَفْرَادِهِ بِاخْتِيَارِهِ الْإِيمَانَ وَمَتَابَعَةَ
النَّبِيِّ فِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ عَلَى خِلَافِ طَبْعِهِ وَجَبَلَتْهُ لِقَوْلِهِ ﷻ: حُقِّتِ الْجَنَّةُ
بِالْمَكَارِهِ وَحُقِّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ.

وَالْمُرَادُ بِالْمَكَارِهِ الْمَكْرُوهَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي جَمِيعِ أَفْرَادِ
الْبَشَرِ بِمَقْتَضَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ الَّتِي فِي جَبَلَةٍ كُلِّ إِنْسَانٍ وَطَبْعِهِ الْبَشَرِيِّ
خَرَجَ عَنْهُ مَا خَرَجَ بِعنوانه الثَّانَوِيِّ.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ بِطَبِيعَةٍ ثَانِيَةٍ وَعَلَى هَذَا فَالْحُكْمُ جَامِعٌ شَامِلٌ لِّجَمِيعِ أَفْرَادِ
الْإِنْسَانِ بِمَقْتَضَى جَبَلِيَّةِ هَذَا أَنَّ قُلْنَا أَنَّ اللَّامَ لِلْجِنْسِ أَوْ الْإِسْتِغْرَاقِ.

وَأَنْ قُلْنَا أَنَّ اللَّامَ فِيهِ فِي الْمَقَامِ لِلْعَهْدِ فَالْمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَعْهُودَ وَهُوَ
الَّذِي مَنْعَمَ فِي الشَّهَوَاتِ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى مَعْبُودِهِ وَخَالِقِهِ وَلَا إِلَى نِعْمِهِ وَ
إِحْسَانِهِ فَهُوَ ظَلُومٌ كَفَّارٌ وَهُوَ أَيْضاً كَثِيرٌ وَلِذَلِكَ أَتَى بِصِغَةِ الْمُبَالَغَةِ أَيُّ كَثِيرِ
الظُّلْمِ وَالْكَفْرِ.

و محصل الكلام هو أنّ بعض أفراد الإنسان شاكرو و بعضه غير شاكِر
المعهود من الإنسان بقرنية السياق لا جميع أفراد الإنسان هذا و لنا في المقام
جواب آخر.

و هو أنّ الحكم لا يجب أن يكون كلياً بمعنى كونه مستوعباً لجميع أفراد
الموضوع بل يكفي في صدق الحكم له لبعض أفرادها أو أكثرها فاذا قلنا أنّ
العلماء ورثة الأنبياء، ليس معناه أنّ كلّ فردٍ من أفراد العلماء كذلك لأننا نرى
بعضهم ورثة الشيطان لا ورثة الأنبياء و مع ذلك صحّ الحكم لأنّه صدر بإعتبار
الأعمّ و الأغلب و هكذا في جميع الأحكام فأنّه لا يضّرّه خروج بعض أفراد
الموضوع من تحت الحكم و ما نحن فيه من هذا القبيل فإنّ الله حكم بالظلم و
الكفران على الإنسان بإعتبار أنّ أكثر أفراد الإنسان كذلك و لا يضّرّه خروج
المؤمنين الحقيقيين عن شمول الحكم إليّاهم.

و كيف كان ففي قوله: **لَظُلُومٌ كَفَّارٌ** بصيغة المبالغة إشارة الى سعة ظلمهم
و كفرهم و أنّ كفرهم لا يختصّ بنعمة واحدة بل يكفرون بجميع النعم
يشكرون:

قال الله تعالى: **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ^(٢).

و هذه الآية هي منشأ الحكم في قوله إنّ الإنسان لظلم كفار.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ

إنّفق المفسّرون على أنّ المراد بالبلد في المقام هو مكّة المكرمة و ما حولها
من الحرم وقوله: **آمِنًا** يعني يأمن الناس فيه على نفوسهم و أموالهم فإنّ الأمن
سكون النفس الى زوال الضّرر و هو نقيض الخوف.

في القرآن تفسير القرآن

الجلد
رقم

جزء ١٣

وقوله: وَ أَجْبُنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ أي أصرفني وأولادي عن عبادة الأصنام و دعاء الأنبياء لا يكون إلا مستجاباً، قيل في وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لم ذكر التعجب من الذين بدلوا نعمة الله كفراً و جعلوا لله أنداداً و هم قريش و من تابعهم من العرب الذين إتخذوا ألهة من دون الله و كان من نعم الله عليهم أنه تعالى أسكنهم حرمة أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم و أنه عليه السلام دعا الله تعالى أن يجعل مكة أمنة و دعا بأن يجيب بينه عبادة الأصنام هذا.

أقول المراد بإبراهيم في الآية هو إبراهيم الخليل عليه السلام و هو على ما قاله الجوهري إسم أعجمي و فيه لغات، إبراهيم، إبراهيم، إبراهيم بحذف الياء. و عن معاني الأخبار، معنى إبراهيم، هم فبر و هو من الأنبياء العظام و هو جد رسول الله ﷺ من جانب إسماعيل فأَنَّ الرسول من أولاد إسماعيل الذبيح لا من أولاد إسحاق و سيأتي الكلام فيه. و الى هذا المعنى أشار الرسول بقوله: أنا ابن الذبيحين.

أحدهما: عبد الله و الآخر إسماعيل و قد مضى في سورة البقرة نسبه و ولادته ما يلحق بذلك فلا نحتاج الى الإعادة.

فنقول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة و ما حولها من الحرم أمنة، من الشرور و الأفات و البليات ليأمن الناس فيها على أموالهم و نفوسهم و الظاهر أن الدعاء كان بعد قصة الذبح و بناء البيت على ما مرَّ الكلام فيه في سورة البقرة:

قال الله تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا^(١).

قال الله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ^(٢).

و أما أَنْ دعاءه كان مستجاباً:

قال الله تعالى: **أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا^(١)**

قال الله تعالى: **أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا مِمَّا يُحِبُّونَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ^(٢)**.

قال الله تعالى: **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا^(٣)**.

فظهر أَنَّ الله تعالى جعل مكةَ و ما حولها من الحرم أمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام وهو المطلوب.

ثمَّ إِنَّ المراد بكون البلد آمناً أي أمن قال ابن عباس لا يصاد طيره و لا يقطع شجره و هكذا.

ثمَّ دعا ربه ثانياً أَنْ يصرف عنه و عن بنيهِ عبادة الأصنام و أنما آخر هذا الدعاء و جعله في المرتبة الثانية مشعراً بأنَّ العبادة تحتاج الى الأمنية و فراغ البال و سكون النفس فلو لم يكن البلد آمناً لا يمكن العبادة اللاتقة بجنابه تعالى و أنما قدَّم نفسه على بنيهِ فقال و أجنبني و بَنِي لَأَنْ رسول الله ﷺ كان اذا دعا دعا أولاً بنفسه و السَّر فيه أَنَّ الرُّسول مقرَّب عند الله و دعاءه يكون مستجاباً قطعاً فاذا بدأ بنفسه الشريفة فالدُّعاء مستجابٌ في حقِّه أولاً و بالذات و في حقِّ غيره ثانياً و بسببه و لذلك قدَّم إبراهيم عليه السلام نفسه في الدعاء.

و يستفاد من هذا الكلام أَنَّ معرفة الله و الخضوع له من أحسن النعم و أفضلها و أشرفها و لو كان في عالم الوجود شيء أفضل من عبادة الله لذكره و سأله.

رَبِّ إِنِّي هِنَّا أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

جزء ١٣

الجليل القاسم

ربُّ بكسر الباء و الأصل فيه، ربِّي، فحذفت الياء لدلالة الكسرة عليه و يحتمل أن يكون تقدير الكلام، ياربُّ، فحذفت الياء لأجل النداء و القول الأول أحسن و أتقن، و مرجع الضمير في، إنَّهن، هو الأصنام أي أنَّ الأصنام و الأوثان أضلن كثيراً من الناس، و المقصود أنَّ هذه الأصنام ضلَّ كثيرٌ من الناس بها حتَّى عبدوها فكأنَّها أضلَّتْهم كما يقول القائل فتنتني فلاتة أي فتنت بها و بعبارة أخرى أنَّ الأصنام صارت سبباً للإضلال فنسب الإضلال إليهم مجازاً.

ثم قال ﷺ فمن تعني، في عبادة الله و ترك عبادة الأصنام فأنه مني و على ديني و من عصاني في ذلك و عبد مع الله غيره فأنك، يا الله غفورٌ رحيمٌ، إن تابوا و أعرضوا عما هم عليه من الكفر و في هذا الكلام إشارة الى أنَّ ذرية إبراهيم من كان تابعاً له في توحيده و دينه و سلك مسلكه.

و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله حيث قال:

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

لَمَّا دعا إبراهيم ﷺ ربه في الآية السابقة بما دعا من جعل البلد أمناً الى آخر ما دعا شرع ثانياً بالدعاء و قال رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي، أي جعلت مأواهم و مقرهم الذي يسكنون اليه و يقرّون فيه بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ و الوادي سفح الجبل العظيم و منه قيل للانهار العظام أودية.

و قوله: غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أي لا زرع في هذا الوادي أي لا نبات فيه لأنه لا يصلح للزراعة و أنما قال من ذُرِّيَّتِي و لم يقل ذُرِّيَّتِي لأنه لم يسكن جميع ذريته فيه فأن بعض الذرية و هو إسماعيل كان فيه مع أمه هاجر.

و قال بعضهم أنَّ المراد بالذرية هنا إسماعيل و أمه هاجر حين أسكنه وادي مكة و هو الأبطح و الحق أنَّ المراد بها أي بالذرية هو جماعة الولد من حين يظهر

الى أن يكبر وأما قال من ذريتي لأن من ذريته إسحاق أيضاً وهو لم يسكن فيه
كما يأتي في الحديث قريباربنا ليقيموا الصلوة بتمام أجزائها وشرائطها.
فاجعل أفئدة من الناس تهوي وتميل اليهم والأفئدة جمع فؤاد القلب
والمعنى فاجعل قلوب الناس مائلة اليهم وأما قال من الناس ولم يقل أفئدة
الناس للدلالة على أن قلوب جميع الناس لا تميل الى شخص واحد أو شيء
واحد لأن ذلك يوجب إختلال النظام مضافاً الى الجبر ولذلك ترى أن الله
تعالى لم يجعل قلوب جميع الناس مائلة الى ذاته فمنهم من يحبّه ومنهم من
ينكره وإذا كان الأمر على هذا المنوال الذي هو أساس الاختيار الناشئ عن
الحبّ والبغض الدّاتين بمقتضى الفطرة البشريّة فكيف يسأل عنه تعالى أن
يجعل قلوب جميع الناس تهوي الى إبراهيم وذريته ولم يجعل الله ذلك
لنفسه لا لعدم القدرة عليه بل لعدم المصلحة فيه ولذلك أتى إبراهيم بكلمة،
من، وال: **مِنْ النَّاسِ** أي بعض الناس لا جميعهم لعلمه بأنّه دعاء لا يستجاب
لما مرّ (و أرزقهم) أي و أرزق الذريّة من الثمرات في هذا البلد على مرور
الأوقات لكي يشكروه على نعمه هذا تفسير ألفاظ الآية.

و حيث أن إبراهيم دعا ربّه بهذا الدّعاء بعد إسكانه إسماعيل وأمه هاجر
في هذا البلد فاللّازم علينا بيان أصل القصة أولاً ثمّ نردفه بما يوضح تفسير
الآية بوجه أبسط فنقول:

روى المجلسي رحمه الله في البحار عن أبي النضر عن هشام عن أبي عبد
الله عليه السلام قال عليه السلام أن إبراهيم كان نازلاً في، بادية الشام فلما ولد له
من هاجر إسماعيل إغتمت سارة ذلك غمّاً شديداً لأنّه لم يكن له
منها ولد وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر فشكى ذلك إبراهيم الى
الله عزّ وجلّ فأوحى الله اليه أنما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء إن
تركتها إستمعت بها وأن أقمتها كسرتها ثمّ أمره الله أن يخرج
إسماعيل وأمه عنها فقال ياربّ الى أيّ مكان قال تعالى الى حرمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٣

الطبعة الثالثة

وَأْمَنِي وَأَوَّلَ بَقْعَةٍ خَلَقْتَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ مَكَّةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ جِبْرَائِيلَ
بِالْبَرَقِ فَحَمَلَ هَاجِرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ لَا يَمُرُّ
بِمَوْضِعٍ حَسَنٍ غَيْرِ شَجَرٍ وَنَخْلٍ وَزَرْعٍ إِلَّا وَقَالَ يَا جِبْرَائِيلُ أَلَيْهَا
هَذَا هَاهُنَا فَيَقُولُ جِبْرَائِيلُ لَا إِمْضَ إِمْضَ حَتَّى وَافِيَ بِهِ مَكَّةَ
فَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَاهِدَ سَارَةَ أَنْ لَا يَنْزِلَ
حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهَا فَلَمَّا نَزَلُوا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ كَانَ فِيهِ شَجَرٌ فَأَلْقَتْ
هَاجِرَ عَلَى ذَلِكَ الشَّجَرِ كَسَاءً كَانَ مَعَهَا فَاسْتَنْظَلُوا تَحْتَهُ فَلَمَّا سَرَعَ
بِهَا وَوَضَعَهَا وَأَرَادَ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُمَا إِلَى سَارَةَ قَالَتْ لَهُ هَاجِرُ يَا
إِبْرَاهِيمُ لِمَ تَدْعُنَا فِي مَوْضِعٍ لَيْسَ فِيهِ أَنْيْسٌ وَلَا مَاءٌ وَلَا زَرْعٌ فَقَالَ
إِبْرَاهِيمُ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَضْعُكُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ هُوَ حَاضِرٌ عَلَيْكُمْ ثُمَّ
إِنْصَرَفَ عَنْهُمَا فَلَمَّا بَلَغَ كَدِي وَهُوَ جَبِلَ بِذِي طَوًى إِلْتَفَتَ إِلَيْهِمَا
إِبْرَاهِيمُ فَقَالَ: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ثُمَّ
مَضَى وَبَقِيَ هَاجِرٌ فَلَمَّا إِرْتَفَعَ النَّهَارُ عَطَشَ إِسْمَاعِيلُ وَطَلَبَ الْمَاءَ
فَقَامَتْ هَاجِرُ فِي الْوَادِي فِي مَوْضِعِ الْمَسْعَى فَنَادَتْ هَلْ فِي الْوَادِي
مِنْ أَنْيْسٍ فَغَابَ إِسْمَاعِيلُ عَنْهَا فَصَعِدَتْ عَلَى الصَّفَاءِ وَلَمَعَ لَهَا
السَّرَابُ فِي الْوَادِي وَظَنَّتْ أَنَّهُ مَاءٌ فَنَزَلَتْ فِي بَطْنِ الْوَادِي وَسَعَتْ
فَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَسْعَى غَابَ عَنْهَا إِسْمَاعِيلُ ثُمَّ لَمَعَ لَهَا السَّرَابُ فِي
نَاحِيَةِ الصَّفَاءِ فَهَبَطَتْ إِلَى الْوَادِي تَطْلُبُ الْمَاءَ فَلَمَّا غَابَ عَنْهَا
إِسْمَاعِيلُ عَادَتْ حَتَّى بَلَغَتْ الصَّفَاءَ فَنَطَرَتْ حَتَّى فَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ
مَرَّاتٍ فَلَمَّا كَانَتْ فِي الشُّوْطِ السَّابِعِ وَهِيَ عَلَى الْمَرَّةِ نَظَرَتْ إِلَى
إِسْمَاعِيلَ وَقَدْ ظَهَرَ الْمَاءُ مِنْ تَحْتِ رِجْلَيْهِ فَعَادَتْ حَتَّى جَمَعَتْ حَوْلَ
رِجْلَيْهِ رَمْلًا فَإِنَّ الْمَاءَ كَانَ سَائِلًا فَرَمَتْهُ بِمَا جَمَعَتْ حَوْلَهُ فَلِذَلِكَ
سَمَّيَتْ زَمْزَمَ وَكَانَتْ قَبِيلَةُ جَرَهْمَ نَازِلَةً بِذِي الْمَجَازِ وَعُرِفَاتٍ فَلَمَّا
ظَهَرَ الْمَاءُ بِمَكَّةَ عَكَفَتِ الطَّيْرُ وَالْوَحْشُ عَلَى الْمَاءِ فَنَطَرَتْ جَرَهْمُ إِلَى

تَعَكَّف الطَّيْر والوحش على ذلك المكان وِإِتَّبَعُوهَا حَتَّى نَظَرُوا إِلَى
المرأة وَ الصَّبِي النَّازِلِينَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَدْ إِسْتَظَلَّ بِشَجَرَةٍ وَ قَدْ
ظَهَرَ الْمَاءُ لَهُمَا فَقَالُوا لَهَا جَرِّ:

مَنْ أَنْتَ وَمَا شَأْنُكَ وَ شَأْنُ هَذَا الصَّبِيِّ قَالَتْ أَنَا أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ
الرَّحْمَنِ وَ هَذَا ابْنُهُ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَنَا هَاهُنَا فَقَالُوا لَهَا فَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ
نَكُونَ بِالْقَرْبِ مِنْكُمْ قَالَتْ لَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ إِبْرَاهِيمَ فَلَمَّا زَارَهُمْ إِبْرَاهِيمَ
يَوْمَ الثَّالِثِ قَالَتْ هَاجِرُ يَا خَلِيلَ اللَّهِ أَنَّ هَاهُنَا قَوْمًا مِنْ جَرَهُمْ
يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَأْذِنَ لَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا بِالْقَرْبِ مِنَّا أَفْتَأْذِنُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ نَعَمْ فَأَذْنَتْ هَاجِرُ لَجَرَهُمْ فَنَزَلُوا بِالْقَرْبِ مِنْهُمْ وَ
ضَرَبُوا خِيَامَهُمْ فَأَنْسَتْ هَاجِرُ وَ إِسْمَاعِيلُ بِهِمْ فَلَمَّا زَارَهُمْ إِبْرَاهِيمَ
فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ النَّاسِ حَوْلَهُمْ فَسَّرَ بِذَلِكَ سُرُورًا
شَدِيدًا فَلَمَّا تَرَعَرَ إِسْمَاعِيلُ وَ كَانَتْ جَرَهُمْ قَدْ وَهَبُوا لِإِسْمَاعِيلَ كُلَّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَاةً وَ شَاتَيْنِ فَكَانَتْ هَاجِرُ وَ إِسْمَاعِيلُ يَعْيشَانِ بِهَا فَلَمَّا
بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ مَبْلَغَ الرِّجَالِ أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَبْنِيَ الْبَيْتَ فَقَالَ يَا رَبِّ
فِي أَيِّ مَوْضِعٍ بَقَعَةٌ.

قَالَ فِي الْبَقْعَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى أَدَمَ الْقَبَّةَ فَأُضَاءَ لَهَا الْحَرَمُ فَلَمْ تَزَلْ
الْقَبَّةُ الَّتِي أُنْزِلَ عَلَيْهَا اللَّهُ عَلَى أَدَمَ قَائِمَةً حَتَّى كَانَ أَيَّامَ الطُّوفَانِ أَيَّامَ نُوحٍ
فَلَمَّا غَرَقَتِ الدُّنْيَا رَفَعَ اللَّهُ تِلْكَ الْقَبَّةَ وَ غَرَقَتِ الدُّنْيَا إِلَّا مَوْضِعَ الْبَيْتِ
فَسَمَّيْتُ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ لِأَنَّهُ أَعْتَقَ مِنَ الْغَرَقِ فَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَبْنِيَ الْبَيْتَ لَمْ يَدْرِ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَبْنِيهِ فَبَعَثَ اللَّهُ جَبْرِئِيلَ
فَخَطَّ لَهُ مَوْضِعَ الْبَيْتِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْجَنَّةِ وَكَانَ
الْحَجَرُ الَّذِي أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى أَدَمَ أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ فَلَمَّا مَسَّتْهُ أَيْدِي
الْكَفَّارِ إِسْوَدَّ فَبَنَى إِبْرَاهِيمَ الْبَيْتَ وَ نَقَلَ إِسْمَاعِيلُ الْحَجَرَ مِنْ ذِي
طَوًى فَرَفَعَهُ فِي السَّمَاءِ تِسْعَةَ أَذْرَعٍ.

ثُمَّ دَلَّهُ عَلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ فَأِستَخْرَجَهُ إِبْرَاهِيمَ وَ وَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ وَ جَعَلَ لَهُ مَا بَيْنَ بَابِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَ بَابِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَ الْبَابُ الَّذِي يَلِي مِنَ الْمَغْرِبِ يُسَمَّى الْمَسْتَجَارَ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِ الشَّجَرِ وَ الْأَذْخَرَ وَ أَلْقَتْ هَاجِرَ عَلَى بَابِهِ كِسَاءً كَانَ مَعَهَا وَ كَانُوا يَكُونُونَ تَحْتَهُ فَلَمَّا بَنَاهُ وَ فَرَّغَ مِنْهُ حَجَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ جِبْرِئِيلُ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ لَثْمَانِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمَ قُمْ فَأَرْتُو مِنَ الْمَاءِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمَنْى وَ عُرْفَاتٍ مَاءٌ فَسُمِّيتِ التَّرْوِيَةُ لِذَلِكَ ثُمَّ أَخْرَجَهُ إِلَى مَنْى فَبَاتَ بِهَا فَفَعَلَ بِهِ مَا فَعَلَ بِأَدَمَ فَقَالَ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَ الْحَجِّ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ أَمِنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مِنْ ثَمَرَاتِ الْقُلُوبِ أَيْ حُبِّهِمْ إِلَى النَّاسِ انْتَهَى^(١).

أَقُولُ أَنْظِرْ أَيُّهَا الْقَارِئُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَ تَأَمَّلْ فِيهَا فَأَنْتَ تَجِدُ فِيهَا مِنَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَحْيِي بِهَا الْقُلُوبَ وَ تَسْكُنُ إِلَيْهَا النُّفُوسُ مَا يَكْفِيكَ فِي بَابِ الْعِبَادَةِ وَ الطَّاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فَهَذَا خَلِيلُ اللَّهِ سَكَنَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَلَدَهُ الْعَزِيزُ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ فَوَادِهِ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ وَ الْآيَةُ وَ رَجَعَ إِلَى سَارَةِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَ فَوَّضَ أَمْرَهُ وَ أَمَرَ وَلَدَهُ إِلَى اللَّهِ كَيْفَ هِيَ لَهُمْ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَ هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ هِيَ لَهُ أَسْبَابُهُ: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(٢) وَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

في القرآن تفسير القرآن



الجزء الثالث

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ

هَذَا أَيْضًا مِمَّا دَعَى إِبْرَاهِيمَ بِهِ فَقَالَ رَبَّنَا أَنْتَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي فِي قُلُوبِنَا، وَ مَا نُعْلِنُ، وَ نَظْهَرُ بِهِ وَ مَا يَخْفَى، مَا نَافِيَةٌ، أَيْ لَيْسَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ

و لا في السَّماء، لأنَّه تعالى عالم بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها و لا فرق في ذلك بين السَّماء و الأرض فإنَّ جميع ما سواه مخلوق له و الخالق محيط بالمخلوق في جميع شئونه و السَّر فيه هو أنَّ العلم مقدَّم على الإيجاد لأنَّه تعالى علم ثمَّ أوجد فلو كان جاهلاً بشئ من الأشياء لزم أن لا يكون مخلوقاً له و هو خلاف الفرض مضافاً الى أنَّ الجهل نقضٌ و هو من شئون الممكن و الواجب منزه عنه فإنَّ كلَّ ناقصٍ محتاج في رفع نقصه الى غيره و كلَّ محتاج مخلوق فثبت و تحقَّق أنَّه عالم بجميع الأشياء بجميع الأنحاء و هو المطلوب و أمَّا دعى إبراهيم ربَّه بذلك مشعراً بأنَّ العبد وظيفته الدَّعاء وليس معناه أنَّه تعالى لا يعلم حاجة العبد قبل سؤاله بل معناه أنَّ الله يحبُّ دعاء العبد و تضرُّعه إذ يتحقَّق معنى العبودية من جانب العبد و باستجابة الله إتياءه يتحقَّق معنى المعبودية من جانب الرَّبِّ و لذلك قال إبراهيم ربَّنَا أنك تعلم ما نخفي و ما نعلن الى آخر الآية أي ليس دعائي إياك لتعلم بل دعائي لما ذكرناه و لذلك وردت الآيات و الأخبار بالترغيب.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ

الظاهر أنَّ هذه الجمل التي تكلم بها إبراهيم، لم تقع منه في زمانٍ واحدٍ و إنما حكى الله عنه ما وقع في أزمانٍ مختلفة يدلُّ على ذلك أنَّ إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه إذ ترك هاجر و الطَّفل بمكَّة و على هذا فحمده لله تعالى على هبة ولديه كان بعد وجود إسحاق و على الكبر يدلُّ على مطلق الكبر ولم يتَّعرض لتعيين المدة التي وهب الله له فيها ولداه و روي أنَّه ولد له إسماعيل و هو ابن تسع و تسعون و ولد له إسحاق و هو ابن مائة و إثنتي عشرة سنة و قيل إسماعيل لأربع و ستين و إسحاق لتسعين و عن ابن جبير لم يولد له إلا بعد مائة و سبع عشرة سنة و إنما ذكر حال الكبر لأنَّ المنة فيها بهيمة الولد أعظم من

حيث أنَّ الكبر مظنة اليأس من الولد فَأَنْ مجيء الشئ بعد اليأس أحلى في النفس وأبهج لها وعلى الكبر في موضع الحال لأنه قال وأنا كبير، وعلى بابها من الاستعلاء لكنه مجاز وكأنه لما آسى وكبر صار متعلِّقاً على الكبر. وقال الزمخشري، على، بمعنى، مع، كقول الشاعر:

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث يؤكل الكنف
 قيل قوله: إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ كفاية عن الإجابة والتَّقبل وكان قد دعى الله أن يهبه ولدًا بقوله رَبِّ هب لي من الصالحين فحمد الله على ما وهبه من الولد وأكرمه من إجابة الدعاء والسَّميع مبالغة أضيف الى المفعول وهو الدعاء وهو دليل على أعمال فعيل الذي للمبالغة في المفعول على ما ذهب إليه سيبويه وخالفه في ذلك جمهور البصريين.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ

قد مرَّ الكلام في وجه الكسرة في رب، وقلنا أصله، ربِّي، فحذفت الياء إما بتقدير حرف النداء، أي يا رب، وأما لدلالة الكسرة على حذفها دعى إبراهيم عليه السلام ربّه أن يجعله مقيم الصلاة، ليكون من المصلين مع أنّه عليه السلام كان مقيمها قطعاً ولعل المراد بذلك الديمومة قال الله تعالى: الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأِئُتُونَ^(١) أو المحافظة عليها كما.

قال الله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ^(٣).

وقوله: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي الواو للعطف أي رب اجعلني مقيم الصلاة وذريتي كذلك، وكلمة، من، للتبعية لأنه كان عالماً بأن من ذريته من يكون كافراً أو من يهمل إقامتها وأن كان مؤمناً فقوله دعاء، أي تقبل دعائي فهو مجذوم بالأمر.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

دعى إبراهيم عليه السلام نفسه أولاً و لوالديه ثانياً و للمؤمنين ثالثاً أما أنه عليه السلام بدأ بنفسه.

في الدعاء فلما ذكرناه و هو أن رسول الله ﷺ كان إذا دعى بنفسه (بدأ بنفسه) أولاً ثم لغيره فهكذا إبراهيم عليه السلام بدأ بنفسه و الوجه فيه معلوم و هو أن دعاء النبي مستجاب قطعاً في حقّه ذاتاً و لغيره بالعرض.

إن قلت أنكم تقولون بعصمة الأنبياء و معنى العصمة أن المعصوم لا يذنب و لا يخطئ صغيراً كان الذنب أو كبيراً و إذا كان كذلك فما معنى قوله: اغْفِرْ لِي و هل الغفران إلا للعاصي و بعبارة أخرى لا غفران لمن لا معصية له.

قلت طلب المغفرة من المعصوم ناش عن قصوره في العبادة التي يستحقها الله تعالى و القصور من شئون الإمكانية فأأن المخلوق الممكن لا يقدر على عبادة الله كما هو حقّه لأن العبادة الكاملة تتوقف على المعرفة الكاملة و معرفة الله كما هي حقّه تعالى لا تحصل للمخلوق قال رسول الله ﷺ: ما عرفناك حقّ معرفتك و قال في موضع آخر ما عبدناك حقّ عبادتك و إذا كان كذلك فالمخلوق كائناً من كان قاصرٌ و عاجزٌ عن معرفة ربّه ذاتاً و صفه فهو عاجز عن عبادته أيضاً كذلك لما ذكرناه و هذا هو الذي يسمّى بالذنب عندهم و لذلك قيل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

و هذا بخلاف غيرهم من أحاد الناس فأأن الذنب منهم ناش عن تقصيرهم في العبوديّة لتسلط الشيطان عليهم فلا محالة طلب المغفرة فيهم غير طلب المغفرة في الأنبياء فقول إبراهيم عليه السلام: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي كأنه إقراراً و إقراراً منه عليه السلام بالعجز عن العبوديّة اللاتقة بجنابه تعالى و لذلك طلب منه المغفرة و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً بل هو في الحقيقة متممٌ و مكملٌ للعبوديّة و قد مرّ الكلام في هذا الباب غير مرّة و لعلّه يأتي البحث فيه بوجه أبسط فانتظر.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد التاسع

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَإِلَٰهَ الدِّينِ** أَي رَبَّنَا إِغْفِرْ لَوَالِدَيَّ أَيْضاً وَالْمُرَادُ بِهَا هُوَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ، فَأَنَّ الْوَالِدَيْنِ لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِمَا حَقِيقَةً وَهَذَا الْكَلَامُ مِنْهُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** نَصٌّ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ أَبُوهُ كَانَ مُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمَا لَوْ كَانَا كَافِرِينَ لَمَا قَالَ ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ الْمَوْافِقُ لِأَصُولِ مَذْهَبِنَا فَأَنَّ النَّبِيَّ وَالْوَصِيَّ لَا يُولَدَانِ مِنَ الْكَافِرِ وَلِذَلِكَ نَقُولُ فِي الزِّيَارَةِ أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ وَالْأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ الْخ.

وَهَذَا الْأَصْلُ جَارٍ فِي جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِ الْعَامَّةِ فَلَا مَرْلِسَ كَذَلِكَ لِتَجْوِيزِهِمْ وَلَادَةَ النَّبِيِّ فَضْلاً عَنِ الْوَصِيِّ عَنِ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَةِ وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَلَدَ مِنَ الْكَافِرِينَ، عَبْدَ اللَّهِ أَبُوهُ وَأَمَنَةُ أُمُّهُ وَإِذَا قَالُوا فِي نَبِيِّ الْإِسْلَامِ ذَلِكَ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلِذَلِكَ صَرَّحُوا فِي كَلِمَاتِهِم بِالْإِتِّفَاقِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ آذَرَ أَبَاهُ كَافِراً وَهَكَذَا أُمُّهُ عَلَى قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلُ قَارُورَةٍ كَسَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ.

قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ فَأَنْ قُلْتَ كَيْفَ جَازَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأَبُوهِ وَكَانَا كَافِرِينَ. قُلْتَ هُوَ مِنْ تَجْوِيزَاتِ الْعَقْلِ لَا يَعْلَمُ إِمْتِنَاعُ جَوَازِهِ إِلَّا بِالتَّوْقِيفِ انْتَهَى كَلَامُهُ. وَقَالَ الرَّازِيُّ إِنْ قَالَ قَائِلٌ كَيْفَ جَازَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأَبُوهِ وَكَانَا كَافِرِينَ فَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهِ:

الأول: أَنَّ الْمَنْعَ مِنْهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا بِالتَّوْقِيفِ فَلَعَلَّهُ لَمْ يَجِدْ مِنْهُ مَنَعاً فَظَنَّ كَوْنَهُ جَائِزاً.

الثاني: أَرَادَ بِوَالِدَيْهِ آدَمَ وَحَوَّاءَ.

الثالث: كَانَ ذَلِكَ بِشَرَطِ الْإِسْلَامِ انْتَهَى.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ قِيلَ إِسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمَ لَوَالِدَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَثْبِتَ عِنْدَهُ أَنََّّهُمَا عَدَوَانِ لِلَّهِ.

وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ لَا يَبْعَدُ أَنْ تَكُونَ أُمُّهُ مُسْلِمَةً لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ عَذْرَهُ فِي إِسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ دُونَ أُمِّهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ وَعَلَى هَذَا قِرَاءَةُ سَعِيدِ بْنِ

جبير، ربّ إغفر لي ولوالدي، يعني أباه، و قيل إستغفر لهما طمعاً في إيمانهما بشرط أن يسلما، و قيل أراد آدم و حواء و قيل أنّه أراد ولديه إسماعيل وإسحاق و كان إبراهيم النّخعي يقرأ، لولدي، يعني إبنه.

ثمّ قال و قد روي أنّ العبد اذا قال اللهم أغفر لي ولوالدي و كان أبواه قد ماتا كافرين إنصرفت المغفرة الى آدم و حواء لأنّهما والدا الخلق أجمع انتهى كلامه.

و أمّا غير هؤلاء من مفسّريهم أمثال الألوسي و المنار و الطنطاوي و السيوطي و غيرهم من المقلّدين لرؤوسائهم فقالوا ما أبقوا لهم من الأباطيل في هذا الباب و لم يزيدوا على ما قالوه شيئاً لأنّهم وجدوا أباءهم على ذلك كما هو دأبهم و ديّنتهم في جميع الموارد و السرّ فيه هو أنّ المقلّد أسير التقليد دائماً فما قاله الرّمخشري مثلاً أخذه الرّازي و ما قال الرّازي أخذه من بعده من مفسّريهم فكانّهم عن التّفكر و التدبّر بمعزولين الى أن يموتوا.

و ليت شعري ما الباعث على إصرارهم في كفر أباء الأنبياء و أمّھاتھم و ليس لهم في ذلك نفع في الدّنيا مضافاً الى كونه خلاف العقل السّليم و أنّي كنت متّفكراً في ذلك برهنة من الزّمان و لم أجد الى حلّ الإشكال سبيلاً ولم يتّبين لي وجه تعصّبهم في إثبات هذا الأصل الى أن ظهر لي بحوله و قوّته أنّهم أصرّوا على ذلك لتصحيح أمر الخلافة بعد النّبي و إثبات خلافة الخلفاء الغاصبين بعد رسول الله كان صحيحاً مطابقاً للأصول و توضيح ذلك إجمالاً:

أنّه لو قلنا بأنّ النّبي لا يولد من كافر و كافرة و لا بدّ أن يكون أبواه مؤمنين مسلمين فلا بدّ لنا من سريان الحكم في حقّ وصيّ و خليفته أيضاً و حيث أنّ أبا بكر و عمر و عثمان و معاوية لم يكونوا كذلك فكيف نحكم بصحة خلافتهم للنّبي و أنّهم قاموا مقامه و سلکوا مسلكه و المفروض أنّهم ولدوا من الكافرين و لم يكونوا بمعصومين فحكموا بأنّ هذا الأصل لا نحتاج اليه حتّى في حقّ

النبي فضلاً عن خليفته و اذا كان النبي ولد من الكافرين و مع ذلك كان صالحاً للنبوة و الرسالة فيكف لا يكون من قام مقامه صالحاً للخلافة و لأجل ذلك قالوا بنفي العصمة في حق النبي قبل البعثة و بعدها أيضاً إلا في تبليغ الأحكام الشرعية فجعلوا النبي كغيره من الأفراد.

و اذا قلنا بعدم اشتراط العصمة و طهارة المولد في حق النبي ففي حق غيره أولى هذا ما فهمناه من أصلهم الباطل و فيه تضييع للنبوة و الرسالة لتصحيح خلافة أبي بكر و عمر فاقض ما أنت قاض و لنرجع الى أصل البحث.

فنقول ظاهر الآية الشريفة يدل على أن إبراهيم عليه السلام طلب المغفرة من الله لوالديه و هو من أدل الدلائل على أنهما كانا مؤمنين اذ لو كانا كافرين لم يصح منه الإستغفار لهما لعلمه عليه السلام بأن الكافر الذي مات على كفره لا يغفر له أبداً لقوله تعالى مخاطباً لنبيه:

اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ^(١).

قال الله تعالى: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ^(٢).

و اذا ثبت أن الإستغفار للكافر لا يفيد و أنه لا يغفر له أبداً و نرى أن إبراهيم إستغفر لهما بصريح الآية فأما أن نقول بكفرهما حين الإستغفار و أما أن نقول بإيمانهما فإن كان الأول فأما إن يكون إبراهيم عالماً بأن الله لا يغفر لهما أو لا يكون عالماً به لا سبيل الى الثاني لإستلزامه نسبة الجهل اليه و هو كما ترى لا يليق بشأن النبي و لا سيما خليل الله.

و لا سبيل الى الأول أيضاً لأن الداعي اذا علم بعدم المغفرة و مع ذلك يدعو فهو من العبث و الإستهزاء و كيف يعقل أن يدعو النبي لمن كان كافراً و

هو عالم بأنّه لا يغفر له و حيث أنّا نرى أنّه دعا لهما فنكشف منه عدم كفرهما المطلوب.

و اذا ثبت عدم كفرهما ثبت إيمانهما لعدم الوساطة بين الإيمان و الكفر المطلوب.

و أمّا القول بالتّوقيف كما ذهب اليه الزّمخشري فهو حقّ لمن لا عقل له فإنّ العاقل لا يقول بالتّوقيف في أمثال هذه الموارد و أمّا بأنّ المراد بها آدم و حوّاء أو إسماعيل و إسحاق أو تغيير القراءة في والدّي، الي، والذي فقط و أمثال ذلك من الأباطيل و المختلقات فهو ممّا لا يسمع و لا يعقل فإنّ الشّرع لم يَرخص لنا أن نفسّر القرآن بأراءنا و نقول فيه كيف نشاء بل قال من فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النّار.

و حيث أنّ ظاهر الآية يدلّ على ما ذكرناه نأخذ به و على المخالف الإثبات.

و أمّا قوله: لِلْمُؤْمِنِينَ فَالظّاهر أنّه عَلَيْهِ السّلام دعا لجميع المؤمنين الى يوم القيامة و تخصيصه بقوم خاصّ أو أمّة خاصّة لا دليل عليه و هو ظاهر وفي قوله: يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ إشارة الى يوم القيامة فإنّ أثر الغفران يظهر في ذلك اليوم أعاذنا الله منه.

و حيث قد فرغنا من تفسير الآية لا بأس بذكر ما نقله صاحب تفسير روح البيان عن الدّميري في كتاب حياة الحيوان في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه.

قال في حياة الحيوان في الحديث، يلقي إبراهيم أباه أذر يوم القيامة و على وجه أذر قتره و غبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعص فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم ياربّ أنّك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي أن يكون في النّار فيقول الله تعالى أنّي حرّمت الجنّة على

الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجلِك فينظر فاذا هو بذبح متلَطخ، و الذَّبِيعُ بكسر الدَّالِ ذكر الضَّبَاعِ الكثيرة الشعر فيؤخذ بقوائمه و يلقى في النَّارِ و الحكمة في كونه فسخ ضبعاً دون غيره من الحيوان أنَّ الضَّبعَ لَمَّا كان يغفل عما يجب التَّيقُّظُ له وصف بالحمق فلَمَّا لم يقبل أذر النَّصِيحة من اشفق النَّاسُ عليه و قبل خديعة الشَّيْطَانِ أشبه الضَّبعَ الموصوفة بالحمق لِأَنَّ الصَّيَّادَ إذا أراد أن يصيدها رمى في حجرها بحجرٍ فَتَجَسَّه شيئاً حتَّى تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك و لأن أذر لو فسخ كلباً أو خنزيراً كان فيه تشويه لخلقه فأراد الله إكرام إبراهيم بجعل أبيه على هيئة متوسطة.

قال في المحكم يقال ذَيَّخْتَهُ أَي ذَلَّلْتَهُ فَلَمَّا خَفَضَ إبراهيم له جناح الدَّلِّ من الرَّحمة لم يحشر بصفة الدَّلِّ يوم القيامة انتهى كلامه.

أقول أنظر الى الحديث الذي رواه الدَّمِيرِي و أضحك منه ثمَّ إلعن قائله و راويه فهو أي الدَّمِيرِي لم يقل من أين نقل هذا الحديث و إنِّي أظنُّ أَنَّهُ من أحاديث أبي هريرة و أنس و كعب الأحبار اليهودي و أمثالهم من الكذَّابين الملعونين المتَّخصِّصين لجعل الأحاديث و دسَّها في أحاديث المسلمين ليشوهوا بذلك وجه الأنبياء و الدِّين كُلِّ ذلك لِإِمْثَالِهِمْ أوامر حَكَّامِ الجور و الخلفاء الظالمين الغاصبين لأجل وصولهم الى حطام هذه الدُّنْيَا الدُّنْيَا و لم يخافوا يوم الحساب لعدم إعتقادهم به و أعجب منه أنَّ قوماً أخذوا منهم هذه الأكاذيب و دَوَّنُوهَا في كتبهم من غير تعقُّلٍ و لا تدبُّرٍ و لم يعلموا أنَّ ألفاظ هذا الحديث و أمثاله مشعرة بكذبه لو كانوا يعقلون و هذا يكفي في غوايتهم و ضلالتهم و الحساب على الله تعالى كما قال تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ

هذا خطاب للنبي ﷺ نهاه الله، و المراد به الأمة أن يظن أن الله غافل عن أعمال الظالمين و المقصود من هذا الكلام هو أن الله تعالى بمرصد لهم أمهلهم في الدنيا و أخر عذابهم لا لأنه غفل عنهم و نسيهم لأنه تعالى منزه عن الغفلة و النسيان بل أخر عذابهم ليوم تشخص فيه الأبصار و هو يوم القيامة و شخوص البصر أن تبقى العين مفتوحة لا تنطبق لعظم ذلك اليوم.

و قال بعض المفسرين معناه لا تحسبن الله يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون و لكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على التقير و القمطير ثم قال تعالى:

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ
الإهطاع الإسراع فقوله مهطعين أي مسرعين.

و قال ابن عباس المهطع الدائم النظر لا تطرف عليه.

و قال ابن زيد المهطع الذي لا يرفع رأسه و أما قوله: مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ أي رافعي رؤوسهم و ذلك لأن إقناع الرأس رافعه قال الشاعر:

يباكرن العضاة بمقنعات نواجزهن كالحذاء الرقيع

أي يباكرن العضاة بمقنعات أي برؤوس مرفوعات إليها ليتناول منها يصف إبلا له ترعى الشجر و أن أسنانه مرتفعة كالقوس و منه قيل مقنعة لإرتفاعها.

و قال الحسن وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد.

و قيل معناه، ناكسي رؤوسهم والآية محتملة الوجهين.

و قال المبرد القول الأول أعرف في اللغة قال الزجاج:

أنغض نحوي رأسه وأقنعا كأنما أبصر شيئاً أطمعا.

و قوله: لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ فالإرتداد الرجوع أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فلا يطبقونها و أفندتهم أي قلوبهم هواء أي منحرفة لا تغني شيئاً من شدة الخوف.

و قيل معناه، خالية من كل خير.

و قال بعضهم، معناه خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم.

أقول الهواء في اللغة المجوف الخالي فقلوه أفندتهم هواء أي خاوية خربة

ليس فيها خير ولا عقل ومنه قول حسان:

ألا أبلغ أبا سُفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

و الحاصل أن الظالم يكون بهذه الحالة يوم القيامة و هذا شطر من نكاظه و

سيأتي تفسير ذلك في المستقبل أعاذنا الله منه و يستفاد من الآيات و الأخبار

أن عذاب بعض الظالمين من المسلمين و غيرهم يكون أشد من عذاب الكفار

يوم القيامة و هو كذلك.



اللغة

أَفَسَمْتُمْ أَي حلفتُمْ.

ذُو أَنْتِقَامِ الثَّغْمَةُ الْعُقُوبَةُ يُقَالُ نَقَمْتُ الشَّيْءَ وَنَقَمْتُهُ إِذَا أَنْكَرْتُهُ إِمَّا بِاللِّسَانِ وَ
إِمَّا بِالْعُقُوبَةِ.

وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ
دَعْوَتِكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ
مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَ سَكَنتُمْ فِي
مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَ قَدْ
مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ
مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ (٤٧)
يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَوَاتُ وَ
بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ
قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
(٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا
أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ (٥٢)

تُبَدِّلُ الْأَرْضُ التَّبْدِيلَ وَ التَّبْدِيلُ جَعَلَ شَيْءٍ مَكَانَ آخَرَ وَ قَدْ يُقَالُ لِلتَّغْيِيرِ مُطْلَقاً وَ إِنْ لَمْ يَأْتْ بِبَدَلِهِ (بَرَزُوا) الْبُرُوزُ الظُّهُورُ.
 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ الْأَصْفَادُ جَمْعُ صَفَدٍ وَ هُوَ الْغُلُّ الَّذِي يَقْرَنُ بِهِ الْيَدُ إِلَى الْغُنْقِ وَقَوْلُهُ: مُقَرَّنِينَ أَيَّ قَرْنٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.
 سَرَابِيلُهُمُ السَّرَابِيلُ الْقَمِيصُ وَاحِدُهَا سِرْبَالٌ.
 قَطْرَانٍ بَفَتْحِ الْقَافِ وَ كَسْرِ الطَّاءِ وَ قِيلَ بِتَسْكِينِ الطَّاءِ وَ كَسْرِ الْقَافِ وَ يَجُوزُ فَتْحُهَا وَ هُوَ الَّذِي تَهْنَأُ بِهِ الْإِبِلُ.
 تَغْشَى وَجُوهَهُمْ أَيَّ تَجَلَّلَهَا وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

◀ الإعراب

يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِأَنْذَرُ وَ التَّقْدِيرُ عَذَابٌ يَوْمٌ، وَ لَيْسَ ظَرْفًا لِأَنَّ الْإِنْذَارَ لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَيْفَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِفَعْلِنَا وَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَاعِلٌ، تَبَيَّنَ لِأَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا قَبْلَهُ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ أَيَّ عِلْمٍ مَكْرَهُمْ أَوْ جَزَاءٍ مَكْرَهُمْ فَحَذَفَ الْمَضَافُ لِتَرْوُلِ مِنْهُ يُقْرَأُ بِكَسْرِ اللَّامِ الْأُولَى وَ فَتْحِ الثَّانِيَةِ وَ هِيَ لَامٌ، كَي، وَ، إِنْ، بِمَعْنَى مَا أَيَّ مَا كَانَ مَكْرَهُمْ لِإِزَالَةِ الْجِبَالِ وَ هُوَ تَمَثِيلٌ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَ قِيلَ أَنَّهَا مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ مَكْرُوا لِيزِيلُوا مَا هُوَ كَالْجِبَالِ فِي الثَّبُوتِ مُخْلَفٌ وَ عِدَّةُ رُسُلَةٍ الرُّسُلُ مَفْعُولٌ أَوَّلُ وَ الْوَعْدُ مَفْعُولٌ ثَانٍ وَ إِضَافَةُ الْمَخْلَفِ إِلَى الْوَعْدِ إِتْسَاعٌ وَ الْأَصْلُ مَخْلَفَ رُسُلِهِ وَ عِدَّةُ يَوْمٍ تُبَدِّلُ يَوْمٌ هُنَا ظَرْفٌ لِإِتْقَامٍ أَوْ مَفْعُولٌ فِعْلٍ مَحْذُوفٍ أَيَّ أَذْكَرَ يَوْمٌ وَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِمَخْلَفٍ وَ لَا لَوَعْدِهِ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ، إِنْ، لَا يَعْمَلُ فِيهَا بَعْدَهَا وَ السَّمَوَاتُ تَقْدِيرُهُ غَيْرُ السَّمَوَاتِ فَحَذَفَ لِدَلَالَةٍ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ وَ بَرَزُوا مُسْتَأْنَفٌ أَيَّ وَ يَبْرُزُونَ أَوْ حَالٌ مِنَ الْأَرْضِ، وَ قَدْ، مَعَهُ مَرَاوِدَةٌ قَطْعاً سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي مُقَرَّنِينَ وَ تَغْشَى حَالٌ أَيْضاً

لِيُنْذِرُوا بِهِ الْمَعْنَى الْقُرْآنُ بِلَاغٌ لِلنَّاسِ وَالْإِنْذَارُ فَتَعَلَّقَ اللَّامُ بِالْبَلَاغِ أَوْ بِمَحْذُوفٍ إِذَا جَعَلْتَ لِلنَّاسِ صِفَةً وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ أَنْزَلَ أَوْ تَلَّى وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

◀ التفسير

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

أمر الله نبيه أن ينذر الناس ويخوفهم من عقابه ويحذرهم يوم يجيئهم العذاب الذي لا مرد له وهو يوم القيامة المراد به يوم هلاكهم بالعذاب الأجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة، بلا بشرى.

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قِيلَ الْأَجَلُ الْقَرِيبُ هُوَ الرَّدُّ إِلَى الدُّنْيَا إِذَا إِمْهَالَ إِلَى أَمَدٍ وَحَدٍّ مِنَ الزَّمَانِ قَرِيبٍ وَذَلِكَ لِتُدَارِكَ مَا فَرَطُوا مِنْ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ وَإِتِّبَاعِ الرُّسُلِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ رَبِّ أَرْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ^(١).

نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَي رَدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا وَأَجْعَلْ ذَلِكَ مَدَّةً قَرِيبَةً نَجِبْ دَعْوَتَكَ فِيهَا وَنَتَّبِعِ رِسْلَكَ فِيمَا يَدْعُونَا إِلَيْهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ.

أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ هُوَ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ وَالتَّقْدِيرِ فَيَقَالُ لَهُمْ أَوْ لَمْ تَكُونُوا وَالْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى أَوِ الْمَلَائِكَةُ وَفِي هَذَا الْجَوَابِ تَوْبِيخٌ لَهُمْ فَاتَّهَمُوا بِوَيْخُونٍ بِهِ وَيَذْكُرُونَ مَقَالَتَهُمْ فِي انْكَارِ الْبَعْثِ وَإِقْسَامِهِمْ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ^(٢) فَالْمَعْنَى أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَلَى انْكَارِ الْبَعْثِ.

وَقِيلَ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ إِنتِقَالٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ.

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقوله: **مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ** أي أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزولون منها بالموت والفناء.

وقيل معنى الكلام ما لكم من زوالٍ أي من زوال العذاب أي أن العذاب لا يزول عنكم وفي الكلام احتمال ثالث.

وهو أن يكون المعنى في قوله: **مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ** ما لكم من زوال الحياة أي أنكم خالدون فيما أنتم عليه ثم أنه تعالى زادهم تقريباً آخر فقال:

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار الذين أقسموا من قبل في دار الدنيا لا زوال فيما كانوا عليه من النعيم، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوالٍ مما أنتم عليه من النعيم والحال أنتم سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، بارتكاب المعاصي وكفران نعم الله فأهلكهم الله و ضربنا لكم الأمثال.

قليل معناه مثلكم كمثلهم في الإهلاك إذا أقمت على ما أقاموا عليه من الفساد والتتابع في المعاصي، والمقصود من الآية هو أن من شاهد هذه الأحوال وعلم بأن الظالم مصيره إلى العذاب في العاجل والأجل وجب عليه عقلاً أن يعتبر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **وَلَنْ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!**

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ

الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ وَأَطْفَاؤُا سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ وَأَخْيَا سُنَنِ الْجَبَّارِينَ!

وقال عليه السلام: **رَحِمَ اللَّهُ أُمَّرَةً تَفَكَّرَ فَاغْتَبَرَتْ، فَأَبْصَرَ، فَكَانَ مَا هُوَ كَائِنْ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ**

قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنْ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَغْدُودٍ

مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقِّعٍ آتٍ وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ. ^(١)

وَقَالَ الْإِنْسَانُ: وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْضَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، فَبَدَلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١).

و محصل الكلام في الآية هو أنكم لو صدقتم في الدنيا حيث أنكرتم البعث والموت وإدعيتم البقاء في الدنيا وأقسمتم عليه فكيف سكتتم بيوت الظالمين من قبلكم أليس هذا ردًا على مقالتم بالحس والعين وأنتم تموتون كما مات من قبلكم من الظالمين المنكرين الملحدون أن الموت كان لهم وليس لكم ألم تعلموا أن حكم الأمثال واحد.

وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ

قرأ الكسائي، لتزول، بفتح اللام الأولى وضمّ الثانية والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية فعلى الأول تكون، إن، هي المخففة عن الثقيلة.

على الثاني: تكون، إن، بمعنى، ما، أي أنها نافية، فمعنى الآية على قول الكسائي أي قد كان مكرهم من الكبر والعظم بحيث يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في الإمتناع على من أراد إزالته ومثله في تعظيم الأمر قول الشاعر:

ألم تر صدعاً في السماء مبيتاً
على ابن كبيني الحارث بن هشام
وقال الآخر:

بكى حارث الجولان من موت ربه وحواران منه خاشع متضائل
وقال أوس:

ألم تكسف الشمس شمس النهار مع النجم والقمر الواجب
فهذا كله على تعظيم الأمر وتفخيمه.

في القرآن في تفسير القرآن



الجزء الثالث

و أما على قول الجمهور فالمعنى و ما كان مكرهم لتزول و قد مكروا مكرهم و عند الله مكرهم أي جزاء مكرهم فحذف المضاف كما حذف من قوله: قَرَى الظَّالِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقعٌ بِهِمْ^(١) أي جزاءه واقع بهم و المعنى قد عرف الله مكرهم فهو يجازيهم عليه و ما كان مكرهم لتزول منه الجبال.

قيل المراد بالجبال القرآن و أمر النبي و إعلامه و دلالاته أي ما كان ليزول منه ما هو مثل الجبال في إمتناعه ممن أراد إزالته و أما الضمير في قوله: وَ قَدْ مَكَّرُوا فقيل أنها يرجع الى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، قالوا الصحيح لأن الأقرب يمنع الأبعد.
و قيل أنه عائد الى الذين ظلموا أنفسهم.

قول ثالث: و هو أن يكون المراد به قوم محمد ﷺ كما قال تعالى: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا^(٢).

القول الثاني: هو الأقوى فإن المراد أنهم مكروا قبلكم مكرراً عظيماً و لم يقدروا على شيء بل رأوا جزاء مكرهم فأنتم أيضاً كذلك لا تقدرون على دفع الموت عن أنفسكم لأنكم لستم أكر و أقوى ممن سبقكم من الظالمين و العلم عند الله.

و على هذا فقوله: وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أي و عند الله جزاء مكرهم وصلوا اليه بعد موتهم و أنتم أيضاً كذلك فاعتبروا قبل أن تندموا و تيقظوا عن نوم الغفلة قبل أن تموتوا.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ
قالوا في تفسير الكلام أي لا تظنّه مخلف وعده رسله من الظفر بهم و الظهور عليهم فإنه لا يخلف ما وعد رسله به.

أَقُولُ تفسير الحسبان بالظن لا وجه له و ذلك لأن الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر ببال الحاكم لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر و الخطاب للرسول و المراد الأمة نفى الله تعالى في هذه الآية خلف الوعد عن ذاته و ذلك لأنه تعالى وعد رسله النصر و الغلبة على أعداءهم في آيات كثيرة.

قال الله تعالى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ^(١).

قال الله تعالى: **وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا** ^(٢).

قال الله تعالى: **كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلَبِينَ أَنَا وَ رُسُلِي** ^(٣).

و إذا كان كذلك فخلف الوعد منه تعالى غير معقول و لا مشروع و ذلك لأن منشأ الخلف أما الضعف و العجز و هو في حقه تعالى محال لأنه على كل شيء قدير ثبت أنه تعالى قادر على كل شيء عالم بكل شيء محيط بكل شيء و هكذا و أما يكون منشأ الخلف عدم المبالاة بقبحه و هو أيضاً لا يعقل في حقه تعالى و ذلك لأن العقل السليم حاكم بقبح الخلف و الله تعالى منزّه عن ارتكاب القبائح و إذ ثبت أنه قادر على كل شيء منزّه عن فعل القبيح ثبت أنه لا يخلف وعده.

ثانياً: أن خلف الوعد منه تعالى يساوق الكذب و ذلك لأنه تعالى وعد رسله بالنصر و الغلبة على أعدائهم و هذا مما لا شك فيه بصريح الآيات.

فلو لم ينصرهم مع قدرته و تنزهه من القبائح يلزم أن يكون كاذباً في وعده إياهم تعالى عنه و قوله: **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ** أي قادر على إنجاز وعد بالانتقام من أعدائهم فأثبت في هذا الكلام قدرته و أنه منتقم من الظالمين. فكان هذا الكلام تعليل لما ذكره أولاً من أنه لا يخلف وعده.

شبه القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ

تُبَدَّلُ بِضَمِّ التَّاءِ وفتح الباء والدَّالِ على ما لا يسم فاعله والمعلوم منه
تُبَدَّلُ، بكسر الدَّالِ ومصدره التَّبْدِيلُ، والتَّبْدِيلُ قِيلَ هو التَّغْيِيرُ برفع الشَّيْءِ الى
بَدَلٍ ولذلك قال بعضهم تبديل الأرض بغيرها هو رفع الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا
الى صُورَةٍ غَيْرِهَا.

و قال ابن عباس ومجاهد وابن مسعود وغيرهم يبدل الله هذه الأرض
بأرض بيضاء كالفضة لم يعمل عليها خطيئة وهكذا القول في السموات لأنها
معطوفة على الأرض حذف الفعل وهو، تبدل، لدلالة الكلام عليه والتقدير و
يوم تبدل السموات.

و قال بعضهم، تبديل الأرض بتسيير الجبال وتفجير بحارها وكونها مستوية
و تبديل السموات إنتشار كواكبها وإنفطارها وتكوين شمسها وخسوف قمرها.
و قال محمد بن كعب وابن جبير تبدل بأرض من خبز يأكل منها المؤمنون
من تحت أقدامهم، و قيل تصير الأرض ناراً والجنة من ورائها ترى أكوابها و
كواعبها.

و قال أبي، تصير السموات حجاباً و قال الرازي وأعلم أنه لا يبعد أن يقال
المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم.
و يجعل السموات الجنة إنتهى.

و أعترض عليه بأن لازم ذلك أن الجنة والنار غير مخلوقتين و ظاهراً القرآن
و الحديث أنهما خلقتا و رسول الله أعلم عليها وراها وهذا لا يكون إلا بعد
خلقيهما.

أقول الإنصاف أن الآية من العويصات التي لا تصل الى كنهها العقول و
لذلك ترى المفسرين إختلفوا في معنى التبدل فيهما وذلك لأن التبدل في

أصل اللّغة لا خفاء فيه و أصل التّبديل فيهما أيضاً لا كلام فيه لدلالة نصّ الكتاب عليه و إنّما الكلام في كيفيّة التّبديل و أنّ الأرض و السّماوات بأيّ شيء تبدّلتان و كيف يكون تبدليهما و الأقوال التي نقلناها عنهم لا مستند بها لا من العقل و لا من الشّرع و إنّما قالوا بما شاءوا و تخيلوا و لذلك لا نقول في كيفيّة التّبديل شيئاً و نكتفي بما قاله المفسّرون.

و إن شئت قلت أصل التّبديل ممّا لا كلام فيه و أمّا كيفيته فالعلم بها عند الله تعالى هذا.

وقوله: **وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** فالبروز الظّهور والمعنى يظهرون من قبورهم للحساب بأمر الله الواحد القهّار و قيل معنى لله، أي لحكم الله أو لموعوده من الجنّة و النّار و جيّ بهذين الوصفين وهما الواحد القهّار، لأنّ الواحد هو الذي لا شريك له في ألوهيته و فيه تنبيه على أنّ ألّهتهم في ذلك اليوم لا تنفع، و القهّار هو الغالب على كلّ شيء تنبيه على أنّه لا يقدر أحد على منعه عمّا أراد لأنّ الملك ملكه و النّاس عبيده و العبد و ما في يده كان لمولاه ألا ترى أنّه تعالى:

قال الله تعالى: **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ^(١).

قال الله تعالى: **سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ^(٣).

قال الله تعالى: **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ^(٤).

قال الله تعالى: **عَزَّ وَجَلَّ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ^(٥).

ثمّ أنّ القهّار بفتح القاف مبالغة في القهر و هو الغلبة و الإستيلاء و قد ورد في الدّعاء.

في تفسير القرآن

جزء ١٣

الجلد الثالث

٢- الزّمر = ٤

٤- الرّعد = ١٦

١- غافر = ١٦

٣- ص = ٦٥

٥- يوسف = ٣٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّا فَقْهَرُ، أَيِ إِرْتَفَعَ فَقْهَرُ عِبَادِهِ بِالْغَلْبَةِ وَالْقُدْرَةِ فَهَمُ تَحْتَ قُدْرَتِهِ فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ الْفِرَارُ مِنْ حُكُومَتِهِ.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ

الخطاب لرسول الله والرؤيا بمعنى العلم أو بمعنى الإبصار أي وتعلم أن المجرمين كذا وكذا أو ترى ببصرك وهو الأشبه وأراد بالمجرمين الذين فعلوا المعاصي من الكفر وجحد النعم مقرنين في الأصفاذ أي قرنت أيديهم بالغُل إلى أعناقهم.

وقيل معناه، قرن بعضهم ببعض والأصفاذ جمع صفاذ وهو الغل الذي يقرن به اليد إلى العنق وقبل مقرنين أي مشدودين في القرن أي مقرون بعضهم مع بعض في القيود والأغلال أو مع شياطينهم أنو تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغللين والظاهر تعلق في الأصفاذ بقوله مقرنين أي يقرون في الأصفاذ ويجوز أن يكون في موضع الصفة لمقرنين وفي موضع الحال فيتعلق بمحذوف كأنه قيل مستقرين في الأصفاذ. ثم وصفهم الله بوصف آخر وهو قوله:

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ

السراويل جمع سربال وهو القميص وقوله، قَطَرَانِ، بفتح القاف وكسر الطاء وقرأ من، قطران أي من نحاسٍ مذابٍ قد أني حرّها ويدل عليه قوله تعالى: **أَنزَلْنَاهُ أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا**^(١) أي نحاساً مذاباً، وقولهم أني حرّها، فالأنّي الذائب الحارّ الذي قد تناه حرّه والمعنى أن الظالمين الذين في الأصفاذ لباسهم من قطران أي من نحاسٍ مذابٍ وأما جعلت سراويلهم من قطران لأن النار تسرع إليها.

وقوله: **تَغْشَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ** هذا أي النصب في وجوههم قراءة الجمهور و التقدير تغشى النار وجوههم و على هذا فالغشيان على بابه كقوله: **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا**^(١) وأما على قراءة الرفع في وجوههم فعلى التجوز جعل ورود الوجه على النار غشياناً أعادنا الله منه.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

قيل، ليجزى، متعلق بمحذوف تقديره و يفعل الله بالمجرمين ما يفعل من العذاب ليجزي كل نفس مجرمة بما كسبت في الدنيا أو كل نفس مجرمة كانت أو مطيعة بما كسبت و ذلك لأنه تعالى اذا عاقب المجرمين لأجل جرمهم علم منه أنه يثيب المطيعين لطاعتهم و ظاهر الآية يقتضي العموم لأنه لم يقل ليجزي الله كل نفس مجرمة بل قال كل نفس و هو يدل على أن الجزاء ثابت للعاصي والمطيع.

و قيل متعلق بقوله، أي الخلق كلهم و الجملة من قوله: **تَرَىٰ** معترضة. **أَقُولُ** لا يبعد أن يكون اللام في قوله: **لِيَجْزِيَ** لام الغاية أو لام الغرض و المعنى أن الغرض و الغاية من بعثهم هو أن تجزى كل نفس بما كسبت و كيف كان لا شك أن الجزاء ثابت إن خيراً فخيئراً و ان شراً فشرأ و قد دل عليه العقل و النقل.

أَمَّا الْعَقْلُ فلا شك أن الله تعالى عادل و العدل عبارة عن وضع الشيء في محله و هو يقتضي أن يكون جزاء المطيع غير جزاء العاصي و حيث أن الدنيا ليست بدار الجزاء فلاجرم يكون دار الجزاء بعد الموت أعني بها الآخرة. **وَأَمَّا النَّقْلُ** فالآيات الواردة في الباب كثيرة جداً.

قال الله تعالى: **وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**^(٢).

فيل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد الثالث

قال الله تعالى: سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ^(١).

قال الله تعالى: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ^(٣).

قال الله تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٤).

قال الله تعالى: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥) وغيرها من الآيات.

وَأَمَّا قوله: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ أي لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة آخرين كما هو كذلك في أرزاقهم أيضاً فمن يقدر على الخلق يقدر على الحساب أيضاً فَأَنَّ المَعْلُول رَشَحٌ من رشحات العِلَّةِ و فيضٌ من فيوضاتها فكيف يغيب منه شئ على علته وخالقه والأصل في ذلك هو علم العلة بجميع مراتب المَعْلُول فلا يخفى عليها شئ وهو ظاهر.

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ

قيل، هذا، إشارة الى القرآن فيه بلاغٌ للناس، و قيل إشارة الى السورة و الحق أنه إشارة الى جميع ما ذكره الله بواسطة نبيه فَأَنَّ المبلِّغ هو الرسول.

قيل معنى بلاغ، كفاية في التفكير والوعظ والأحسن أن يقال معناه إتمام الحجة على الخلق قال الله تعالى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاغٌ^(٦) أي إبلاغ الحكم عن قبل الله الى خلقه وبه قد تمت الحجة عليهم.

وفي قوله: **وَلِيُنذَرُوا بِهِ** إشارة الى أن القرآن أو فيما ذكرناه بيان عن الإنذار والتخويف كما أنه بيان عما يوجب الإخلاص بما ذكر من الإنعام الذي لا يقدر عليه إلا الله وقوله: **وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ** وأحذثيه إرشاد الى التوحيد والتجنب عن الشرك، وليذكر أولو الألباب، أي وليتعض ويراجع نفسه بما سمع من الوعظ والإنذار من كان له لب أي عقل خالص من شوائب الأوهام وفيه إيماء الى أن أولي الألباب كذلك لا يشكون في التوحيد والتبوة والمعاد يعتبرون في موارد العبرة ويتعضون بمواعظ الله وقد مدحهم الله في كتابه:

قال الله تعالى: **وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ^(١).

قال الله تعالى: **يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ^(٢).

قال الله تعالى: **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ^(٤).

قال الله تعالى: **لِيَذَّبَرُوا أُنْيَاهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ^(٥) وغيرها من الآيات.

الدالة على أن أرباب العقول السليمة يعلمون ويفهمون ويتذكرون ويتعضون وهكذا اللهم إجعلنا منهم وأحشرنا معهم ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين أبداً وإجعلنا من عبادك المخلصين آمين يا رب العالمين.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

٢- أُل عمران = ٧

٤- يوسف = ١١١

١- البقرة = ٢٦٩

٣- المائدة = ١٠٠

٥- ص = ٢٩

الفهرست

سُورَةُ هُودٍ ٩

الآيات ٦ الى ١٤ ١١

اللغة ١٠

الإعراب ١١

التفسير ١١

الآيات ١٥ الى ٢٢ ٣١

اللغة ٣٢

الإعراب ٣٢

التفسير ٣٣

الآيات ٢٣ الى ٣٤ ٥٥

اللغة ٥٦

الإعراب ٥٦

التفسير ٥٧

الآيات ٣٥ الى ٤٩ ٨٠

اللغة ٨١

الإعراب ٨٢

التفسير ٨٤

الآيات ٥٠ الى ٦٠ ١١١

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

١١٢	اللغة
١١٢	الإعراب
١١٢	التفسير
١٣٣	الآيات ٦١ الى ٦٨
١٣٣	اللغة
١٣٤	الإعراب
١٣٤	التفسير
١٤٦	الآيات ٦٩ الى ٨٣
١٤٧	اللغة
١٤٨	الإعراب
١٤٩	التفسير
١٦٤	الآيات ٨٤ الى ٩٩
١٦٥	اللغة
١٦٦	الإعراب
١٦٦	التفسير
١٨٣	الآيات ١٠٠ الى ١١٠
١٨٤	اللغة
١٨٤	الإعراب
١٨٥	التفسير
٢٠٨	الآيات ١١١ الى ١٢٣
٢٠٩	اللغة
٢٠٩	الإعراب
٢١٠	التفسير

سُورَةُ يُوسُفَ ٢٣٣

الآيات ١ الى ١٢ ٢٣٣

اللغة ٢٣٤

الإعراب ٢٣٥

التفسير ٢٣٦

الآيات ١٣ الى ٢٠ ٢٥٥

اللغة ٢٥٥

الإعراب ٢٥٦

التفسير ٢٥٧

الآيات ٢١ الى ٢٩ ٢٧٠

اللغة ٢٧١

الإعراب ٢٧١

التفسير ٢٧١

الآيات ٣٠ الى ٣٤ ٢٩٦

اللغة ٢٩٦

الإعراب ٢٩٧

التفسير ٢٩٧

الآيات ٣٥ الى ٤٢ ٣١٢

اللغة ٣١٣

الإعراب ٣١٣

التفسير ٣١٣

الآيات ٤٣ الى ٥٢ ٣٣٤

اللغة ٣٣٥

في: القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

٣٣٦	الإعراب.....
٣٣٧	التفسير.....
٣٥٣	الآيات ٥٣ الى ٦٤.....
٣٥٤	اللغة.....
٣٥٤	الإعراب.....
٣٥٥	التفسير.....
٣٧٧	الآيات ٦٥ الى ٧٦.....
٣٧٨	اللغة.....
٣٧٩	الإعراب.....
٣٧٩	التفسير.....
٣٩٩	الآيات ٧٧ الى ١٠٠.....
٤٠١	اللغة.....
٤٠١	الإعراب.....
٤٠٢	التفسير.....
٤٤٠	الآيات ١٠١ الى ١١١.....
٤٤١	اللغة.....
٤٤١	الإعراب.....
٤٤٢	التفسير.....



٤٧٣	سُورَةُ الرَّعْد.....
٤٧٣	الآيات ١ الى ٦.....
٤٧٤	اللغة.....

٤٧٤	الإعراب.
٤٧٥	التفسير.
٤٩١	الآيات ٧ الى ١٦.
٤٩٢	اللغة.
٤٩٣	الإعراب.
٤٩٤	التفسير.
٥٢٧	الآيات ١٦ الى ٢٤.
٥٢٨	اللغة.
٥٢٨	الإعراب.
٥٢٨	التفسير.
٥٥٣	الآيات ٢٥ الى ٣٢.
٥٥٤	اللغة.
٥٥٤	الإعراب.
٥٥٥	التفسير.
٥٨٢	الآيات ٣٣ الى ٤٣.
٥٨٣	اللغة.
٥٨٣	الإعراب.
٥٨٣	التفسير.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٣

المجلد التاسع

٦١٧	سورة إبراهيم
٦١٧	الآيات ١ الى ١٠.
٦١٨	اللغة.

٦١٩	الإعراب.....
٦١٩	التفسير.....
٦٤٢	الآيات ١١ الى ٢٠.....
٦٤٣	اللغة.....
٦٤٣	الإعراب.....
٦٤٣	التفسير.....
٦٥٩	الآيات ٢١ الى ٣٠.....
٦٦٠	اللغة.....
٦٦٠	الإعراب.....
٦٦١	التفسير.....
٦٨٧	الآيات ٣١ الى ٤٣.....
٦٨٨	اللغة.....
٦٨٨	الإعراب.....
٦٨٩	التفسير.....
٧١٣	الآيات ٤٤ الى ٥٢.....
٧١٣	اللغة.....
٧١٤	الإعراب.....
٧١٥	التفسير.....